

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد العشرون / خريف / 2017

"المنافذ الثقافية" وإرادة التحوّل والانتماء

عمر شبلي

أضطراب الانتباه

د. نازك بدير

الإحباط وفشل الإصلاح الإداري

د. نصر قرحاني

الباروديا من خلال مسخ الجسد: دراسة في الشعر العربي القديم

د. منصف الربعاوي

التجليات التراثية في قصيدة "السّمفونية الجنوبية الخامسة"

د. خليل سعد

الشيعة في لبنان من الفتح العربيّ إلى العهد العثمانيّ

د. وشاح فرج

الإحصاء في القرآن الكريم

د. محمود مراد / د. يوسف شاهين

التّشكيل المنهجيّ لآليات النّقد الأسطوريّ

د. زهور شتوح

أستراتيجيّات إعادة الإعمار

د. رلى علي حجازي

دور لبنان في الحضارة العربيّة

د. محمد عبد القادر عطوات

حادثة الحلاج

رامز عوض

سؤال الحداثة

محمد قاسم فقيه

القطاع العام اللبنانيّ

بياريت فريفر

أسطورة السّندباد في الشعر الحديث

سلام نعيم حداد

التّنظيمات المدنيّة المحليّة في طرابلس

غنى مراد

نشاطات ثقافيّة

د. دريّة فرحات

- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

الهيئة الثقافية والإدارية

د. خديجة شهاب	د. هالة أبو حمدان	د. درية فرحات
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. عماد هاشم	د. ندى الرمح	د. منى دسوقي
د. رضا العليبي (تونس)	د. ماغي عبيد	د. زهور شتوح (الجزائر)
أ. سوزان زعيتر	أ. زينب راضي	أ. حكمت حسن
أ. سهام انطون	أ. مروان درويش	أ. إيمان صالح

اللجنة المحكّمة

د. ديزيرييه سقّال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي

تصميم المجلة	إخراج	المدير المسؤول
عبير سمير نجم	عبد القادر نجيب كرزي ٧٠ / ٦٢١٤١٠	علي حمود

العدد العشرين - خريف ٢٠١٧

قرار رقم : ٥٨

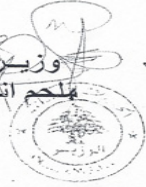
نقل نصف ملكية مطبوعة " المنافذ الثقافية " الفصلية ، غير السياسية

ان وزير الاعلام
بناء على المرسوم رقم ٣ تاريخ ٢٠١٦/١٢/١٨ (تشكيل الحكومة) ،
بناء على قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ١٩٦٢/٩/١٤ وتعديلاته ،
بناء على القرار رقم ٨٢٨ تاريخ ٢٠١٢/٨/٢٢ (الترخيص بإصدار المطبوعة)
بناء على عقد التنازل المنظم لدى الكاتب العدل في شمسطار الأستاذة هبة ناجي الحسيني ، والمسجل تحت
عدد ٥٤٢٥ تاريخ ٢٠١٧/٦/١٣ والذي بموجبه تنازل السيد علي مهدي زيتون عن حصته في ملكية مطبوعة
" المنافذ الثقافية " الفصلية ، غير السياسية ، لمصلحة السيد عمر محمد شبلي .
بناء على الطلب المقدم من السيد عمر محمد شبلي والمسجل تحت رقم ١٥٢٦ تاريخ ٢٠١٧/٦/٥ (طلب نقل
نصف ملكية المطبوعة).
وبعد استشارة نقابة الصحافة اللبنانية .
بناء على اقتراح المدير العام لوزارة الاعلام .
يقرر ما يأتي :

المادة الاولى: ينقل نصف ملكية مطبوعة " المنافذ الثقافية " الفصلية ، غير السياسية ، من اسم
السيد علي مهدي زيتون الى اسم السيد عمر محمد شبلي بحيث يصبح مالكها الوحيد ،
على ان يستمر الصحفي علي احمد حمود بتحمل مسؤوليتها .
المادة الثانية: ينشر هذا القرار ويبلغ حيث تدعو الحاجة .

بيروت في : ٥ - تموز ٢٠١٧

وزير الاعلام
ملحم انطون الرياشي



يبلغ نسخة الى :
رئاسة مجلس الوزراء
المديرية العامة للأمن العام
دائرة الصحافة والعلاقات العامة والتنسيق
الجريدة الرسمية
صاحب العلاقة
المحفوظات
١٥٢٦

٥ - تموز ٢٠١٧

موقع المجلة الإلكتروني - www.al-manafeth.com

مركز المجلة: ريفيرا سنتر - كورنيش المزركة - دار العودة - الطابق الخامس
الاشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:

للأفراد ١٠٠ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار

للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

	«المنافذ الثقافية» وإرادة التحول والانتماء
٥	عمر شبلي
	حدّاثه الحلاج أو فتوة الحال والقلب
٧	رامز عوض
	التشكيل المنهجي لآليات التقدّ الأسطوريّ لدى بيير برونيل
١٣	د/ زهور شتوح - جامعة باتنة ١
	استراتيجيات إعادة الإعمار بعد الحروب الإسرائيلية على الجنوب اللبناني
٢٦	د. رُلى علي حجازي
	دور لبنان في الحضارة العربية
٥٩	دكتور محمد عبد القادر عطوات
	الشيعة في لبنان من الفتح العربي إلى العهد العثماني
٦٩	د. وشاح فرج
	الإحصاء في القرآن الكريم وحساب مؤشر مصير الإنسان
	أ.د. محمود نجيب مراد & د. يوسف إبراهيم شاهين الجامعة اللبنانية - كلية العلوم
٨٨	الاقتصاد ودارة الأعمال (الفرع الخامس)
	التجليات التراثية في قصيدة «السّمفونية الجنوبية الخامسة» لنزار قباني «السّمفونية الجنوبية الخامسة»
١١٦	د. خليل عبد الله سعد
	أسطورة السّندباد في الشّعر الحديث صلاح عبد الصّبّور - أنموذجاً
١٣٣	سلام نعيم حدّاد
	سؤال الحداثة
١٤٤	محمد قاسم فقيه
	الوكالة الإيطالية للتعاون من أجل التنمية في لبنان
١٥٢	دانيال جوزف عازار
١٦٤	تطوّر الأدب النسوي في لبنان وإيطاليا في النّصف الثّاني من القرن العشرين
١٦٤	جينا أبي كرم
	السّبك الصّوتي في رسائل ابن زيدون التّثريّة دراسة تطبيقية
١٨١	حنين جزيني
	التنظيمات المدنية المحليّة في طرابلس قبل الدستور
١٩٩	غنى مراد

	الأوضاع الاجتماعية لمدينة بيروت أثناء الحقبة العثمانية
٢٢٣	د. شربل فرح الرئيس سليمان فرنجية وحكومة الشباب سنة ١٩٧٠ الإحباط وفشل الإصلاح الإداري
٢٣٥	دكتور نصر قرحاني أوضاع بلاد الشام والعراق قبيل الحروب الصليبية
٢٤٧	د. فواز فرحات اضطراب الانتباه
٢٦٢	د. نازك بدير المكان في الرواية الفلسطينية
٢٧٣	هند حنا صعيب أهمية حركات الإعراب في الدلالة على المعاني
٢٩٤	أ. حسن محمود الشل ماهية البحث الادبي
٣٠٩	حسين علي التمر ما الفلسفة؟
٣٢١	علي نعمه عبدون القطاع العام اللبناني بين الحوكمة والخصخصة
٣٣٥	إعداد يياريت فريفر/ ٢٠١٧ البارودي من خلال مسخ الجسد: دراسة في الشعر العربي القديم
٣٦٣	إنجاز: منصف ربعاوي/ تونس نشاطات ثقافية
٣٨٣	د. درية فرحات السبب الثقافي في بعلبك
٣٨٦	الإعلامية بتول سليمان قرأت لكم في العدد السابق
٣٨٨	د. حكمت حسن A Stylistic/Psychoanalytic criticism of W.B.Yeat's
٣٨٩	Noura Jazzar Linguistic Imperialism in the 21 st Century Arab World
٣٩٦	Ziad Hadla

«المنافذ الثقافية» وإرادة التحول والانتماء

عمر شبلي

ولأنها إتلافٌ للهوية وحذفٌ لها، فالهوية انتماء وتطلعٌ، والتطلع لا يستقيم إلا إذا كان نقدياً وشرساً في احتكاكه بالمألوف المستسلم للتقليد والانسحاب من معركة الفكر التي هي معركة استمرار وانتماء للتحول الذي تفرضه حقائق التحول الكوني، ولو وقف في وجهه ألف ساترٍ وحجاب. كانت المنافذ الثقافية تدرك خطورة المناطق التي تجتازها في جغرافية العقل العربي، وكانت تدرك أن «الإقدام قتالٌ». ومع ذلك ظلت تحقق بالذي يجب أن يكون، وقد أسست في سنواتها الخمس التي خلّت قواعد صلبة تنتمي لأصالة الأمة ولمقاومة تخلفها، والسعي إلى تحرير جغرافية الأرض والإنسان في آن، مع متنورين وتحريريين لبنانيين وعرباً، وها هي الآن تخلع خوفها من الزمن، وتلبس حلّتها الجميلة لتدخل في عامها السادس، وتزدحم على أوراقها المقالات الوافدة بوعي وتصميم ونقدٍ لكل تخلف وجهل

بصدور العدد العشرين من مجلة المنافذ الثقافية تكون تجربة الفعل الثقافي قد حققت وعدها باستمرارها، والدخول في عامها السادس، وهي تحقق بالآتي وبالديمومة. حيث لا استمرار بمنأى عن تجربة الانطلاق، والانطلاق الذي باشرته مجلة المنافذ الثقافية كان متّسماً بالتحدي في زمن صراع الورق مع كل مغريات الإنجاز الإلكتروني العجيب. إن اصفرار الورق وانسحابه من المعركة يعني الهزيمة، وعدم الانتماء، ويعني التحول عن أنس الكتاب إلى راحة المتيسر في كل شيء. كان الكتاب يصرُّ بعناد على الذهاب إلى المطبعة، مع إصراره على فهم المتحول، لأن الكتاب هو موجّد التحول قبل كل شيء.

كنا ندرك هذا، وندرك أن الكتاب هو سلاح الأمم في معارك وجودها، بشرط أن يكون كتاباً تجاوزياً. وكنا نرفض الهزيمة لأنها جفاف، ولأنها إقامة في الماضي،

وتفوق. كانت المجلة تعي صعوبة الجغرافية التي تجتازها، ولكن «لا بد من صنعا وإن طال السفر» كما يقول العرب، وهم يسيرون في مهامة وسراب متصل بسراب.

أهم ما تَبَيَّنَتْهُ «المنافذ الثقافية» هو الفكر النقدي، فقد أمنت أن الحداثة هي النقد، والنقد هو انتماء الإنسان للأصح دائماً. والصحيح هو دائماً بحاجة إلى صحيح، هذا منطق الأشياء كلها. فالثورة التي تقف على مشارفها ليست ثورة، فهي تصبح ساكنة بمجرد اقتناعها بأنها وصلت. لا بد من إدراك الحقيقة التالية، وهي أن النهر حين يتوقف عن الجريان لا يعود نهراً، ولا يعود معطاءً، ويدخل في مرحلة المستنقع ثم الجفاف.

ولأن «المنافذ الثقافية» مؤمنة باستمرارية النقد حتى، ولو وصلت إلى نقد النقد نفسه، فإنها تحرك الساكن وتخلق الجراح. بل وعليها أن تخلق الجراح والخطر فيما تتناوله، فلا تقدم بلا تجشّم وعورة الدروب المفضية إلى الصحيح. والنقد مستقبلي السمات لأن «قافلة الماضي لن تصل بك إلى أي مكان» كما يقول مكسيم غوركي صاحب رواية الأم. والنقد يصبح منتجاً لأنه مقترن بالاحتجاج دائماً، والاحتجاج هو عدم قبول السائد الكسول. لقد سئل سقراط عن تعريف الحركة، فقام

ومشى. لقد حوّل الفكرة إلى فعل. والنقد في حقيقته هو ملاحقة ما يؤمن به الإنسان وتحويله إلى فعل، ومحاولة جعله جمعياً فإذا سقط فلا بد من التصحيح ومحاولة الإضافة لتكون مسيرة الحقيقة غير متوقفة.

النقد لا يلغي شخصية الفرد ولا الأمة التي ينتمي إليها، إن الانتماء فعل متحرك، فإذا توقف الفعل المتحرك توقف الانتماء نفسه. فالأمة ليست ماضياً يسكن القبور، وإنما هي مسيرة تأخذ أصولها من صوابية مسيرها. والأمة في جوهرها ليست سلطة، وإنما هي كينونة حضارية، لا تتحقق إلا بفيضها وتدفقها المعطاء فينا وفيما يحيط بنا، بشرط نقائه وخلوه من الزبد والجفاء.

إننا ننتمي إلى أمة استطاعت أن تثبت وجودها عندما نقدت ذاتها، وخرجت من جاهليتها. وقتها فاضت على سواها بنقدها وإغائها ثوابت جاهليتها. لا بد من فهم تراثنا الروحي والقومي من خلال عدم انسداده والتفوق في فعل «كان» الناقصة دائماً. لا بد من السير إلى الأمام لكي يكون ماضينا مجدياً. كان مجدياً يوم كان متحركاً، ولما توقف الفكر المبدع صرنا نعيش في الماضي لنبرر مستقبلنا. لا بد من نقض ذلك، والسير إلى المستقبل باستمرار.

حادثة الحلاج أو فتوة الحال والقالب

رامز عوض

أن يعبر منه إلى منافذ ملائمة لتجربته»^(٣). وما دلالات تراكيب وردت في ديوانه، مثل هذه: حقّ حقّ الصّدود، عين عين وجودي، دهر دهور الدّهارة، هجر هجر القُرنا، خيول البعاد، محو اسمي، رادّ الوصال، دال الدّلال، شهود ذاتي، دهشة التّلاقي، أمر سرّ السرّ، أمر أمر الأمر، أمر صبر الصّبر، وغيرها... ما دلالات هذه التراكيب سوى أنّ مستخدميها رأى رؤية خارجة عن الاعتياديّ والرسميّ وذهب بها إلى حد الإبداع والتجديد والخلق؟ ماذا تعني سوى أن شاعرها افتتح فصلاً جديداً من فصول الإبداع الأدبيّ هو الفصل الحداثيّ الذي لا يرتبط بزمان أو مكان؟

وهذه نماذج منها:

وما أمر سرّ السرّ متّي،

وإنّما أهيّمْ بسرّ السرّ منه إلى سرّي^(٤)

أوصلت التجربة الصوفية الحلاج إلى اقتحام فضاء مجهول غير مسبوق يمكن تسميته بالحادثة. وكان ذلك في خطّ الرؤية أو الأحوال والمقامات التي تقلّب فيها، وخطّ الشّكل الفنّي الذي ظهرت فيه.

وإذا كانت الحادثة هي «الممارسة التي توحى بالعدول عن النّمط السّائد والمعيّار المطرّد»^(١) فإنّ الحلاج حداثيّ. فلقد كتب أشعاراً خرج بها عن المألوف الشعريّ مضموناً وأسلوباً... فعلى مستوى الأسلوب، على سبيل المثال لا الحصر، أوجد تراكيب إضافيّة اعتمد عليها في ترجمة تجربته ورؤاه الصوفيّة حتى أنّه «استخدمها في حوالى مئتين وثلاثة وعشرين بيتاً في ديوانه»^(٢). وكانت هذه التراكيب الصّيفة اللّغويّة أو الأسلوبيّة التي أعانته على «تجاوز حدود المألوف في اللّغة وما يمكن

(١) عبد السلام المسديّ، النقد والحداثة، دار الطليعة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص ١١.

(٢) أماني سليمان داود، الأسلوبية الصوفية، دار الحوار، سوريا، ٢٠١١، ص ١١٨.

(٣) م. ن، ص ١١٨-١١٩.

(٤) كامل مصطفى الشّبيبي، شرح ديوان الحلاج، منشورات الجمل، بغداد - بيروت، الطبعة الثّانية، ٢٠١٢، ص ٢٣٧.

على سرّ مكنون وجد الفؤاد
وخاء الخفاء وشين الإشاره^(١)
بيان بيان الحق أنت بيانه
وكلّ بيان أنت منه لسانه^(٢)

وماذا يمكن أن يُقال عن تخطّي الحلاج
للمفاهيم السائدة عن الحرف والعروض
الشعريّ إلى فضاء رمزيّة الحروف واللجوء
إلى النثر في طواسينه^(٣) لأنّه وجد فيه
مجالاً تعبيرياً أرحب وأنسب لرؤاه
الصوفيّة، سوى أنّه خاض تجربة حدائيّة
جريئة غير مسبوقه؟ وهي تجربة خالفت
الأدب الرسميّ الذي لا يتخطّى حدود
الظاهر الخطي والمنطوق. أليست هذه
حادثة؟ أليس التعبير عن خصوصيّة ما يراه
الحلاج ويختبره، واختيار الشكل الأدبيّ
المناسب له، ولو كان مخالفاً للشكل
الرسميّ المعتمد، حادثة؟ ألم يرسم الحلاج
«بأبياته وفقره ودمه المهدور مفهوم
الحداثة حتى اعتُبر من آباء الحداثة
العربيّة»^(٤)؟

تجاوز الحلاج عمود الشعر وحدود

هامشيّة الدليل الخطي وألحّ على «حضور
الفضاء الخطي من خلال مفهومه للحرف
باعتباره شكلاً رمزيّاً، قبل أن يكون صوتاً
يُنشد مثلما توطّر له الشفهيّة المسيطرة
وعמוד الشعر الذي ظلّ الإطار الأساس
الذي تُنتج ضمنه الأشكال الشعريّة حتى
في القرون المزدهرة»^(٥).

ومبعث هذه الحداثة هو ذات الحلاج
التي اختمرت وانصهرت في أتون الوجد
الإلهيّ إلى حد تميّز به عن غيره من
المتصوّفة فعُبر عنه بمثل المستوى الذي
بلغته تجربته الروحانيّة العميقة.

هذا المستوى هو الريادة في كل شيء.
«فحياته كانت ريادة، من رفضه التقليد إلى
قوله بالأصل الإلهي للإنسان ووحدة
الأديان والتبشير بالإسلام، إلى دوره
الثوريّ في الحياة السياسيّة ودفاعه عن
الفقراء والمظلومين، وتحريضهم على
الثورة ضد السلطة، إلى اتهامه بالجنون
والسحر والكفر، إلى سجنه وطلبه للموت
في كلماته وأشعاره إلى قتله وصلبه وقطع

(١) الشبيبي، شرح ديوان الحلاج، ص ٢٣٨. (٢) الشبيبي، شرح ديوان الحلاج، ص ٣٢٢.

(٣) وتعني الاسم الذي أُطلق على ثلاث سور من المصحف الشريف هي سورة (الشعراء، النمل، والقصص) لاشتراك فواتحها بحرفي الطاء والسين، أو (طس)، وجمعها (طواسين) وقد استخدم الحلاج مفردتيّ (طس) و(طواسين) في كتابه النثري الذي أفردته للنظر في بعض الآيات القرآنيّة، وللتعبير عن علاقته بالله لغة رمزيّة وتجريدية وعرفانية، أرسلت الأسس لأهم مقولات العرفان الصوفي لاحقاً.

(٤) محيي الدين اللاذقاني، آباء الحداثة العربيّة - مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاج والتوحيدي، دار مدارك للنشر، الطبعة السابعة، ٢٠١٢.

(٥) آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقديّة المعاصرة، منشورات الاختلاف والدار العربيّة للعلوم، ناشرون، الجزائر، بيروت، ٢٠١٠، ص ٥٧.

رأسه وإحراق جثته ورمي رمادها في نهر دجلة. تلك لم تكن حياة. كانت أسطورة، وكانت ريادة»^(١).

سرّ الحادثة عند الحلاج هو الروح التي تحرّكه وتملي عليه الموقف والكلمة. وأوحى «أن مفاتيح العربيّة وأساليبها قديمة تتجدّد، وتجدّد لها لا يكون بمعزل عن روح متوهّج فوق العقل والمنطق والحسّ والقياس»^(٢).

ومن علائم التجديد والحادثة عند الحلاج ابتكاره أسلوباً نثرياً لم يسبقه إليه أحد.. أسلوب يتميز بالاعتقاد اللفظي.. تقول وضحي يونس: «وثمة اقتصاد في اللفظ في نصّ الحلاج، لا مثيل له في نماذج النثر العربيّ. لكن في المقابل، هناك وفرة في المعنى، وتعدّد معانٍ مفتوحة على اللانهاية، واضحة وغامضة في آن إلى ما لا نهاية»^(٣). ما معنى هذا، إن لم يكن تبوؤ الحلاج مركز الصدارة في حادثة النثر العربيّ؟ ما معناه، إن لم يكن اعتناقاً صادقاً وحراراً لرؤى صوفيّة كشفت له ما لم يُكشف لغيره، في زمانه، على الأقل؟ وعبر عنها تعبيراً فذاً خرق به المتعارف

والمألوف، وألب عليه النظام الرسمي بأجهزته وثقافته التقليديّة؟ أليست هذه حادثة؟ ولكنها ليست حادثة تنحرف به إلى الهجين المقطوع عن روح الثقافة الإسلاميّة وأصالتها. إنها حادثة واقعة في صلب التوحيد الإسلاميّ، وصب عقيده وحدة الوجود.. وقد نطق بها بإبداع وأصالة وكلمات عابرة للأزمان والأماكن، عبّر عنها بكل حادثة، خصوصاً في طواسينه.

ولكن كثيراً من النقاد والباحثين لم يريدوا أن يعطوا الحلاج حقّه الفنّي ورفضوا الإقرار بحقائق فنّيّة تلوح في تراثه الأدبيّ.. وولوا نظرتهم شطر أعمال فنّيّة غربيّة، متجاهلين ما في التراث الأدبيّ العربيّ من نصوص حداثيّة إبداعيّة، قافزين «فوق تاريخ السرد العربيّ بما فيه من ألف ليلة ومقامات ليعيد الرواية والقصة إلى جذور غربيّة، وأهمّل الآفاق السرياليّة الرحبة التي فتحتها الشعراء العرب، بمن فيهم الحلاج»^(٤).

وفي هذا ظلم فنّي للحلاج فوق الظلم السياسيّ الذي لحقه. على حد قول اللاذقاني^(٥)، ويتابع قائلاً: «ففي طواسينه

(١) وضحي يونس، القضايا النقديّة في النثر الصوفيّ حتى القرن السابع الهجريّ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦، ص ١٦٥.

(٢) مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربيّ، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٨، ١٩٩٧، ص ٣٣٥.

(٣) وضحي يونس، القضايا النقديّة في النثر الصوفيّ، ص ١٧٢.

(٤) محيي الدين اللاذقاني، آباء الحادثة العربيّة، مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاج والتوحيدي، دار مدارك للنشر، الطبعة السابعة، ٢٠١٢، ص ١٠٤.

(٥) م.ن، الموضع نفسه.

الإرهاصات الأولى لقصيدة تَنَمَلَمَل داخل قيدها الفراهيدي وتحاول أن تخلق شكلاً تعبيرياً جديداً يتسع لتجربة فذّة وغنيّة»^(١). وبين من يرون الطواسين عملاً مضطرباً ومصنوعاً ورتيباً وملتوياً وغير مفهوم، ومن ينظرون إليه نظرة فيها بعض القدسيّة، ملبسين إياه لباس الكمال الذي لا يجوز معه التصرف بجملته الشعريّة حتى لا تنتكس، ينظر إليه الباحث محيي الدين اللاذقاني نظرة وسطية ويضعه في إطار عصره وشرطه التاريخي عاداً إياه أحد الأشكال الجديدة في التعبير عن الزخم الروحي^(٢).. (وهو ما قصد به البحث في كلامه على رؤى الحلاج وعقائده الربانيّة التوحيدية). ثم يذكر هذا الباحث كلاماً بالغ الأهمية يؤكد مكانة الحلاج في فتح آفاق النثر العربي وفي تاريخ الحداثة الأدبية العربية.. فيقول^(٣) «ومأثرته أنه فتح في تاريخ الثقافة العربيّة والإسلاميّة درب التصرف في التعبير النثري بكافّة أشكاله، دون الخوف من تهمة تقليد الآيات (يقصد الآيات القرآنيّة) وكان ذلك الدرب قد أغلق بقوة السلاح في أعقاب ظهور الأنبياء الدجالين كمسيمة وسجاج».

لهذه الاعتبارات يمكن القول بثقة مع هذا الباحث إن الحلاج من آباء الحداثة العربيّة ونضيف إلى ذلك أنه أجروهم وأبرزهم حداثة وإبداعاً.

ولقد أطلق الناقد أمين يوسف عودة على هذه الجرأة تسمية «الفتوة»^(٤) ويقسمها إلى اثنين، فالفتوة الأولى هي فتوة الحال، والثانية المستقاة من الثانية هي فتوة الرأي والرؤية. وتعني الأولى التزام الحلاج الفكري والسلوكي التام بالحال العرفانيّة التعبدية ولقد بلغ الحلاج في هذه الفتوة مبلغ «التضحية بالنفس والروح في سبيل الحفاظ على مبدأ اليقين الروحي». وبهذا يكون قد وضع الحدّ النهائي لمفهوم فتوة الحال. وتكون فتوته فتوة مفارقة عزّ نظيرها في حينه»^(٥).

ولكن ما يعني البحث بشكل مباشر هو فتوة الرأي أو الرؤية أو القال. ويطلق عليها الباحث أمين عودة التعريف الآتي: "شعرية الإيجاز والاكتناز في الطواسين في كتابات عرفانيّة من طراز نادر غير مسبوق ولا ملحوق بمثله»^(٦).. وهذا إنما يؤشّر إلى السبق والريادة والتجاوز الذي يميّز به

(١) م.ن، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) م.ن، الموضوع نفسه.

(٤) أمين يوسف عودة، شعرية الخطاب الصوفي، قراءة سيميائية في طواسين الحلاج، المجلّة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها، المجلّد السادس، العدد ٤، ٢٠١٠، ص ٢٥٠.

(٥) م.ن، الموضوع نفسه.

(٦) م.ن، ص ٢٥١.

الحلّاج ممّا لم يتأتّ لغيره بمثل الزخم والعمق اللذين رسما تجربته. ويتابع هذا الباحث كلامه بما يُستشفّ منه الصفة الحدائِيّة الرائدة والفريدة لأدب الحلّاج في طواسينه وبما يدعم ما قيل فيه عن أنّه واحد من كبار آباء الحداثة العربيّة. يقول:

«إنّها (أي الطواسين) تمثّل توقيعاً فردانياً مُغرَقاً في خصوصيّة المبنى والمعنى وجدّتهما، من حيث الإيجاز والاكتناز والترميز العرفانيّ والتأسيس المعرفيّ المرتكز على انتهاك هالات المعاني المحظورة والمسكوت عنها»^(١). وفي موضع آخر يقول:

«يرتحل الحلّاج في كتابه «الطواسين» بلغة الخطاب الصوفيّ إلى أفق ما وراء اللغة العاديّة ذات الدلالات المعجميّة.... بما يتيح له إنشاء علاقة غير معهودة بين مسند ومسند إليه، أو مضاف ومضاف إليه، أو صفة وموصوف، وغير ذلك ممّا هو معهود في تركيب الجملة العربيّة، محدثاً بهذا الإسناد أو تلك الإضافة أو ذلك الوصف انزياحات دلاليّة، تفضي إلى خلق صورة تعبيريّة مشاكسة وغير مألوفة، ومقولات عرفانيّة جديدة تخرق تخوم المقولات الدينيّة السائدة، لا في حدود الثقافة العامّة

المحيطة به، إنّما يتجاوز الخرق حدود الخطاب الصوفيّ نفسه»^(٢).

وواضح من هذا الكلام أنّ الحلّاج عبّر عن الصوفيّة الحادّة والصادقة والمتّصفة بالاعتناق العميق للفكر الروحانيّ المؤمن بوحدة الوجود والحقيقة الإلهيّة الكامنة في كلّ شيء، عبّر عن هذا بفتوة أخرى، هي فتوة القال التي تعني أصالة القول وجرائته وخرقه وانتهاكه، ممّا كوّن تجسيدا جليّاً لمعنى الحداثة، إنّ في السلوك، وإنّ في القول المعبر عنه.

وهذا يعني أنّ الحداثة ليست موقفاً مبهماً نابعاً من عدم أو من قطع مع معرفة أو فكر. بل هي خطّ تواصل متولّد منهما.. ولكن ما أكسبه سمته الحدائِيّة هو تماماً تلك «الفتوة» أو الاعتناق العميق الملتزم لفكر أو معرفة أو عقيدة، والتعبير عن هذا الاعتناق بطريقة جريئة تتسم بالانتهاك والاختراق اللذين هما شرطان أساسيان لضمان التأثير في المتلقّي وتوسيع أفق انتظاره.

وما يزيد في قدرة النصّ الحلّاجيّ على التأثير هو ما يشهده نصّه من اتّساع لرؤية العالم وطاقة التشكّل وامتصاص العديد من أشكال التعبير الكامنة فيه. ولذا، «بات ضرورياً اعتبار سرديّات الحلّاج المصدر

(١) أمين عودة، شعريّة الخطاب الصوفيّ، الموضع نفسه.

(٢) م، ن، ص ٢٥١.

الأصيل لما عُرف بشعر الحداثة في العالم العربي»^(١).

إنَّ نصَّ الطواسين غنيٌّ جدًّا، مضموناً وأسلوباً، وشكّل فتحاً في التشكيل الأدبيِّ ومصدراً إبداعياً للتجارب الحداثيّة. وهو نصٌّ يدلُّ على أنَّ صاحبه ليس فقط قطباً من أقطاب التصوّف الإسلاميِّ فحسب، بل هو أيضاً قطب من أقطاب الإبداع الفنّيِّ. وهذا هو مقصد الباحث بليغ إسماعيل بقوله: «ومخطئ من يتناول نصَّ الحلاج قاصراً على كونه أحد أقطاب التصوّف الإسلاميِّ فحسب، بل من ضرورات تلقّي مثل هذه النصوص الاستثنائيّة الوعي التامّ ببراعة التركيب الفنّي التي تشير إلى إحالات ذاتيّة»^(٢).

ونختم مع هذا الباحث في قوله: «إنَّ معظم النقاد العرب يؤكّدون، ليل نهار، أنَّ الحلاج ونصوصه رفدا شعر الحداثة شرقاً وغرباً، بامتداد الوطن العربيِّ كله».

ونستعير مصطلح الفتوة من الباحث أمين عودة في القول إنَّ حداثه الحلاج تنبع من فتوة حاله، بما هي جرأة أفكاره الصوفيّة المؤمنة بقوة وصدق بعقيدة وحدة الوجود وريادته في هذا المجال،

وتعبيره عنها بفتوة أخرى هي فتوة القول والرأي، بما هي جرأة التعبير بشكل أدبيّ تجديديّ غير مسبوق وغير ملحق، شكّل، ولا يزال، رافداً للحداثة الأدبيّة العربيّة.

المراجع

- ١ - عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
- ٢ - أمانى سليمان داود، الأسلوبية الصوفية، دار الحوار، سوريا، ٢٠١١.
- ٣ - كامل مصطفى الشبيبي، شرح ديوان الحلاج، منشورات الجمل، بغداد - بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٢.
- ٤ - محيي الدين اللاذقاني، آباء الحداثة العربيّة - مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاج والتوحيد، دار مدارك للنشر، الطبعة السابعة، ٢٠١٢.
- ٥ - أمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفيّ في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف والدار العربيّة للعلوم، ناشرون، الجزائر، بيروت، ٢٠١٠.
- ٦ - وضحي يونس، القضايا النقدية في النثر الصوفيّ حتى القرن السابع الهجريّ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦.
- ٧ - مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٨، ١٩٩٧.
- ٨ - أمين يوسف عودة، شعريّة الخطاب الصوفيّ، قراءة سيميائية في طواسين الحلاج، المجلة الأردنية في اللغة العربيّة وآدابها، المجلد السادس، العدد ٤، ٢٠١٠.
- ٩ - بليغ حمدي إسماعيل، الحلاج، من الوجد الصوفيّ إلى الحكاية الشعبيّة، موقع «مصر المدنيّة»، civicegypt.org، ٢٠١٤.

(١) بليغ حمدي إسماعيل، الحلاج، من الوجد الصوفيّ إلى الحكاية الشعبيّة، موقع «مصر المدنيّة»، civicegypt.org 2014.

(٢) م، ن.

التشكيل المنهجي لآليات النقد الأسطوري لدى بيير برونيل

د/ زهور شتوح - جامعة باتنة ١

الراهنّة ماتزال الأسطورة تعيش بكل نشاط وحيوية، وما تزال كما كانت دائماً مصدراً لإلهام الفنان والشاعر»^(٢).

مفهمة النقد الأسطوري:

لم يظهر النقد الأسطوري في شكله النظري والإجرائي كمنهج نقدي هكذا مباشرة، بل كانت له مقدمات وإرهاصات أولى، كان لها دور فعال في تبلور هذا المنهج واستوائه على سوقه إلى أن وصل إلى مرحلة النضج والاكتمال، فقد أولى النقد الأدبي عناية خاصة بالأسطورة، وظهر بذلك اتجاه جديد في النقد المعاصر عرف بالنقد الأسطوري، وقد أطلق عليه كذلك تسمية: نقد النماذج العليا، أو النقد

يعدّ موضوع الأسطورة والأدب أحد المسلّمات النقدية التي تناولها حقل النقد الأدبي منذ أمد ليس بالقريب وذلك «لما للأسطورة من روابط بالأدب وما للأدب من انفتاح على الأسطورة، ولا غرابة في ذلك طالما أنّ الإنسان مرتبط بالأسطورة وأنّ الأدب يعبر عن الإنسان»^(١).

فلا خلاف بين الباحثين في كون دور الأدب هو إعادة تشكيل وتجسيد الموقف الإنساني من حضوره في الكون، أما دور الأسطورة فهو تجسيد علاقة الإنسان بالكون، كما أنّها «عامل جوهري وأساسي في حياة الإنسان في كلّ عصر، وفي كلّ إطار وفي الحضارات الصناعية والمادية

(١) عبد الحليم منصوري، من عولمة الأسطورة إلى أسطورة العولمة، بحث في الأصول الشرقية لبعض الأساطير الغربية (أعمال ملتقى الأدب والأسطورة) كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، عنابة، ٢٠٠٧، ص: ١٤٧.

(٢) وليد بوعديلة، شعرية الكنعنة (تجليات الأسطورة في شعر عز الدين مناصرة) دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩ م، ص: ٥١.

وحيدة هي الأساطير، والتي تمثل البنية الأساسية للنص»^(٣).

ويرتبط النقد الأسطوري بمقدار إجابة تمثل التقليد الأدبي من طرف المبدع^(٤)، من خلال استحضار هذا الأخير للأسطورة الأساسية عن طريق الرمز الأسطوري وتوظيفها من خلال الانزياح الأسطوري بما يلائم الضرورات القائمة التي تحيط بالمبدع، ويرى النقد الأسطوري في العمل الأدبي الذي يستلهم العناصر التراثية إنتاجات متكررة لبعض النماذج الأولية والمعادلات الأسطورية الأساسية، فهو في إجراءات المنهج يحاول تتبع ذلك الانزياح أو التشويه أو التغيير «الذي يلحق بالأسطورة سواء بالزيادة أو بالنقصان من خلال رصد الانزياحات التي تصيب الأسطورة الأولى (...) وكل انزياح في الأسطورة يتصوره الأدب يضطره إلى التعديل ليتلاءم العمل الأدبي مع شكله ومع روح عصره، وفي هذا الانزياح يكمن التجديد في الأدب لكن التجديد - أي

القائم على الموروث الشعبي أو الأسطوري أو الشعاري، وقد جاء هذا الاتجاه كرد فعل حتمي على مذهب «النقد الجديد» الذي عمل على إلغاء تلك الماضوية التي تشكل جزءاً من معنى العمل الأدبي، وذلك بعزله عن سياقاته الفلسفية والتاريخية والنفسية والاجتماعية، حيث اهتم أصحابه بتحليل النص الأدبي من حيث هو وحدة مستقلة قائمة بذاتها، فسلخوا بذلك العمل الأدبي عن جذوره الاجتماعية والحضارية، وبهذا كتب على النقد الأسطوري أن يكون «أقوى منافس للنقد الجديد والبدل الأكثر احتمالاً له»^(١) وقد ردّ النقد الأسطوري على تلك النزعة الشكلية باللجوء إلى الأنثروبولوجيا والتي قدّمت روعة خلق الإنسان للأساطير والطقوس والقصص الشعبية من خلال المجتمعات وفي كل مكان^(٢)، واللجوء إلى الأنثروبولوجيا في النقد الأسطوري مرده «أنّ الكاتب يبقى أسير الأساطير، وأن تأويل النص وتفسيره يتم من خلال مرجعية

(١) فنسنت ب ليش، النقد الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات، تر: محمد يحيى، مراجعة وتقديم، ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، د، ط، ٢٠٠٠م، ص: ٥٢.

(٢) محمد شبل الكومي، المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، تقديم: محمد عناتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د، ط، ٢٠٠٤م، ص: ٢٦٨.

(٣) شكري عزيز ماضي، من إشكاليات النقد العربي الحديث، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط ٣، ٢٠٠٨م، ص: ١٥.

(٤) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص: ٢٤.

الانزياح - عن الأسطورة الأولية مهما بلغ من شدة يظل مشدوداً إلى الأساس لا يستطيع أن يخرقه ولا أن يخرج عنه»^(١).

ويتجلى هدف النقد الأسطوري في الوقوف على مدى قابلية الأسطورة للتشكل الأدبي عن طريق التحول والتغير، وهذا خدمة لرؤى المبدع وقناعاته الفكرية والوجدانية والجمالية، حيث تختلف طرق التوظيف من مبدع إلى آخر تبعاً لتلك التحولات والانزياحات التي يحدثها، والتي تكون أحد الأسباب التي تمنح الأسطورة كماً هائلاً من الدلالات المتعددة، والتي نجدها ماثلة في بنية النص، وبهذا فالنقد الأسطوري إذاً يقوم على: «استقراء الظواهر الأسطورية داخل النصوص الإبداعية ثم تتبع مصادر هذه الأساطير الموظفة ثم تصنيفها تصنيفاً نوعياً، ثم يحدد طرائق التوظيف الأسطوري في النصوص الإبداعية موضوع الدراسة للوقوف على تجلياتها داخل العمل الأدبي، ومدى احتفاظها بخصائصها كشخصية أو حادثة أو موتيف أسطوري، من خلال احتفاظها بالحد الأدنى للخصائص الجوهرية، ومدى تحولها داخل

العمل الأدبي»^(٢) وبهذا يتميز النقد الأسطوري بكشفه عن «النماذج الثقافية الأساسية ذات التأثير الجمالي في الأعمال الفنية، وأن له طبيعة مرئية، فهو ذو طابع نفسي حين يحلل التأثير الجمالي في المتلقي، وذو طابع اجتماعي في اهتمامه بالنماذج الثقافية الأساسية التي تبدو بمثابة جوهر ذلك التأثير، وذو طابع تاريخي في استقصائه للماضي الثقافي أو الاجتماعي وغير تاريخي في إظهاره القيمة مستقلاً عن حقبة معينة»^(٣)، وبهذا نجد أن وظائف النقد الأسطوري تتشعب وتتعدد في اتجاهات مختلفة فنجد من جهة يولي اهتماماً بالجانب النفسي للمتلقي (المرسل إليه)، ومن جهة أخرى نجده يركز على الجانب الاجتماعي والتاريخي، كما يبحث كذلك عن الثوابت العقلية اللاشعورية للمجتمعات وخاصة غير المتحضرة منها، ويرصد الثوابت المشتركة من المشاعر والشعائر والطقوس والعادات والعقائد التي تتكرر ثقافياً واجتماعياً عند المبدعين والفنانين والتي تعبر عن الرغبات اللاواعية لكل فرد وداخل المجتمع الإنساني.

(١) حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (د، ط)، ١٩٩٩م، ص: ١١٤.

(٢) حناوي بعلي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، أمانة عمان الكبرى، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٧م، ص: ٩٧.

(٣) محمد شبل الكومي، المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، ص: ٢٧٠.

أعلام النقد الأسطوري:

نظرا لعدد الوظائف التي يسعى النقد الأسطوري لتقديمها في إطار مقارنة النص الأدبي فقد حظي باهتمام كثير من النقاد، وسنحاول الوقوف عند أهم الأعلام البارزين لهذا النوع من النقد مركزين على الناقد الفرنسي بيير برونيل باعتباره موضوع المداخلة.

١ - كارل غوستاف يونغ(*):

يعد «كارل يونغ» من أوائل النقاد الباحثين الذين أباطوا اللثام عن الأسطورة من خلال علاقة النفس البشرية باللاوعي الجمعي، هذا اللاوعي الجمعي حسب يمتد محلقاً في أغوار النفس البشرية منذ آلاف السنين، إنه ببساطة المختفي والمائل في آن واحد.

فلا يوجد إنسان فردي على الرغم من ادعائنا الفرديّة والاستقلاليّة، إلا أننا محكومون جبريا بلاوعينا وفي هذا يقول: «لقد أطلقت تسمية القناع على ذلك الجزء من النفس الجماعيّة، الذي يتطلب تحقيقه كثيرا من الجهود، والحال أنّ القناع وكما

تدل تسميته ليس إلا قناعاً يخفي جزءاً من النفس الجماعيّة، ويعطي في الوقت ذاته وهماً بالفرديّة... في حين أنّه في العمق يلعب ببساطة دوراً تعبر معطيات وضرورات النفس الجماعيّة عن نفسها من خلاله»^(١).

ومن ثمة فالشخصية الإنسانية من وجهة نظر «يونغ»: «لا تقتصر حدودها على التجربة الفرديّة، وإنما تمتد لتستوعب التجربة الإنسانية للجماعة الموعلة في القدم، وأن هذه الشخصية تحتفظ في قراراتها بالنماذج والأنماط العليا التي تتخمر في الثقافة الإنسانية عبر الأجيال المختلفة»^(٢).

وقد اعتبر «يونغ» الأساطير والأحلام والأديان والتخيلات الفرديّة وكذلك الأعمال الأدبيّة لدى الإنسان المتحضر بمثابة المتنفس الذي عبّر من خلاله الإنسان عن الرواسب النفسية لتجاربه المختلفة، إذ من خلال «اللاوعي الجمعيّ أو الأنماط العليا - بتعبير يونغ - تصدر الصور النمطية المألوفة في الفن والأدب والأساطير

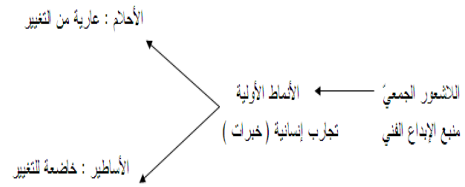
(*) ولد سنة ١٨٧٥ بسويسرا وبدأ حياته العملية في عام ١٩٠٠ طبيباً مساعداً في مستشفى الأمراض العقلية في برغزلي، لكنه استطاع بفضل مثابرته أن يتقلد مناصب أعلى ويتحصل على مرات عليا.

(١) كارل غوستاف يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٩٧ م، ص: ٦١.

(٢) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، (د، ط)، ٢٠٠٢ م، ص: ٦٢.

والأحلام»^(١)، وبهذا طور «يونج» نظرية «فرويد»، فإليه يرجع الفضل في تجاوز التفسير النفسي الذي قدمته أبحاث فرويد، واستبدال اللاشعور الفردي بالجمعي مؤكداً في الوقت نفسه على قيمة الأسطورة ودورها في زيادة إدراكه لطبيعة النفس البشرية من خلال اعتماد الرمز الذي تتضمنه وتحتويه، وتفسير هذا الرمز من لدن النقاد هو الذي «يجعل الأسطورة رافداً من روافد استمرارية الثقافة أو الحضارة»^(٢).

وخلاصة القول إنَّ النِّقد الأسطوريّ عند «كارل يونج» استفاد كثيراً من مواد الأنثروبولوجيا الثقافيّة التي تعنى بالعادات والتقاليد والمعتقدات، والتي تحدث عنها باسم «الأنماط العليا» ويمكن تلخيص طرح «كارل غوستاف يونغ» للنقد الأسطوريّ من خلال الخطاطة التالية:



٢ - كلود ليفي ستروس:

انطلق ستراوس في دراسته للأسطورة من النظريّة الأنثروبولوجية^(*)، وأصدر كتاباً يحمل عنوان «العقل البدائي» أو الوحشي سنة ١٩٦٦م «والذي حدّد به إحدى الخصائص الرئيسة للفكر الأسطوريّ أو الخرافي الذي تنتهجه المجتمعات البدائيّة في محاولة منها لتفسير ظواهر الكون الغامض»^(٣)، وقد نظر «ستروس» إلى الأسطورة بوصفها خاضعة لنظام لذا لا بد من محاولة تحليل الأسطورة بهدف الوقوف على المعنى الرمزي الكامن فيها، والمهم في منطلقات «ستراوس» هو الوقوف على النظام الذي يحكم الأسطورة ويشكلها بهدف الوصول إلى المعنى الكامن وراءها ف: «نحن لا نستطيع أن ندركها بحق ما لم نتّجه إلى العلاقات البنائية الكامنة فيها، ومن هنا تكتسب الأسطورة دلالتها ومعناها من خلال النسق الذي تعبر عنه»^(٤).

وتعود الاختلافات الموجودة في الأساطير حسب ليفي ستراوس إلى

(١) وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، الكويت، (د، ط)، ١٩٩٦ م، ص: ٣٢.

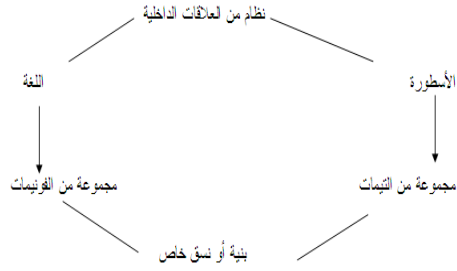
(٢) سمير سعيد حجازي، قضايا النقد العربي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧ م، ص: ١٢٣.

(*) على اعتبار أن علماء هذا الإتجاه يرون بأن مجال الأساطير يدخل في صميم اهتمامهم.

(٣) نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ م، ص: ٤١.

(٤) مجدي الجزيري، البنيوية والتنوع البشري وكلود ليفي ستراوس، دار الوفاء، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٢ م، ص: ٦٦.

الخاص عليها، ويمكن التمثيل لطرح «ستراوس» بالمخطط التالي:



٣ - نورثروب فراي:

يدين النّقد الأسطوريّ إلى الناقد الكندي «نورثروب فراي» بمجمل ما وصل إليه من خلال العديد من مؤلفاته، ولعل أشهرها كتابه «تشرّيح النّقد» يقول: «وجدت نفسي واقعاً في شرك نواحٍ من النّقد تتعلق بكلمات مثل: الأسطورة، الرّمز، الشعائر، والنموذج البدائي، كما أنّ الجهود التي بذلتها سابقاً لإيضاح هذه الكلمات في عدة مقالات منشورة لاقت من الاهتمام ما شجعني على المضي قدماً في هذا النهج»^(٤).

يطلق «نورثروب فراي» على النّقد الذي

«الروايات المختلفة والتي تؤثر عليها بالزيادة أو النقصان»^(١)، كما نظر إلى الأساطير باعتبارها بنية ووحدة لا اختلاف بينهما إلا من الناحية الشكلية، فهي تركز على موضوع رئيس موحد: «فتحت التّنافر الشديد بين الأساطير تكمن بنيات معينة ودائمة وكلية يمكن أن تختزل إليها أي أسطورة بعينها»^(٢)، وانطلاقاً من فكرة البنية والنظام ذهب «ستراوس» إلى تشبيه الأسطورة باللغة وهذا من ناحية العناصر التركيبية، إذ يمكن حل الأسطورة وفكّها إلى وحدات فردية مثلها مثل اللغة هذا من جهة، كما أوضح كذلك التشابه بينهما في بنيتهما الرمزية، وفي هذا يلتقي مع «يونيغ» في التأكيد على القيمة الرمزية التي تحتويها الأسطورة فهي: «بنية رمزية تشبه بنية اللغة»^(٣)، وبهذا أخذ «ستراوس» من البنيوية مفهوم علاقات الوظائف وجمع الأساطير وفقها، ووضح كيف تنوعت الأساطير من مصادرها الأساسية إلى روايات متعددة، ورأى أن الأسطورة تفسر فقط من داخلها، بحيث يملئ كل نظام معناه

(١) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٢٨.

(٢) وائل سعيد عبد الرحيم سليمان، تلقي البنيوية في النقد العربي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٩م ص: ٥٩.

(٣) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٢٩ وسمير سعيد حجازي، قضايا النقد العربي المعاصر ص: ١٢٤.

(٤) نورثروب فراي، تشرّح النقد، تر: محي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب، (د، ط)، ١٩٩١ م، ص: ٥.

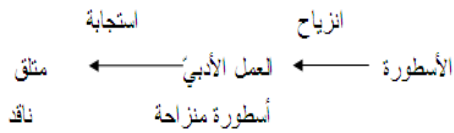
يستمد مادته من الأسطورة اسم - النّقد النموذجي - يعنى حسبه بالأدب بوصفه حقيقة اجتماعيّة، ولوناً من ألوان الاتصال، وهو يحاول عن طريقه دراسة التقاليد والأنواع الأدبيّة، أن يضع القصائد في محلها الصحيح من الكيان نفسه «إننا بوسعنا - باختصار - أن نحصل على ثقافة حرة كاملة، بالتقاط قصيدة تقليدية واحدة وتتبع نماذجها العليا على امتدادها في بقية الأدب»^(١).

اعتمد «فراي» نظريّة «يونسج» في الأنماط الأولية ورأى أنّها «ما هي إلا أساطير لابدّ أن تتجلى في الأدب، ومهمة النّقد الأدبي هي الكشف عن هذه الأنماط، وإظهار مدى الانزياح والتعديل، والانقطاع والتغيير وأساليب الأداء الجديدة التي خضعت لها، فكل نقد أدبي لابدّ أن يكون نقداً أسطورياً مادام الأدب فناً مجازياً ومادام المجاز يرجع إلى الأنماط الأولى»^(٢) ويستند النّقد الأسطوريّ عند «فراي» إلى فكرة الانزياح لأن الأدب بالنّسبة إليه هو الأسطورة منزاحة عن الأسطورة الأولية التي هي الأصل، وهي البنية وكل صورة في الأدب،

مهما تراءت لنا جديدة لا تعدو كونها تكراراً لصورة مركزيّة مع بعض الانزياح، ومع مطابقة كاملة أحياناً أخرى^(٣).

ركز «فراي» على دور الناقد في الوقوف عند المعنى المكتمل للعمل الأدبيّ وهذا من خلال ربطه بسياقه الخارجي، وبهذا يتضح أنّ أهمية تشريح النّقد عند فراي «لا تنحصر في دعوته إلى تحويل النّقد الأدبيّ إلى دراسة منهجية وعلمية فحسب، ولكن في استلهاً النماذج الأصلية من حيث هي أسس وقواعد يرتكز عليها النّقد الأدبيّ في تحليل النصوص وإرجاعها إلى أصولها الأسطوريّة (...) ومن هنا يتخطى الأدب الحدود المحلية والآنية ويغدو تعبيراً رمزياً عن حقائق إنسانية شاملة»^(٤).

ويمثل المخطط التالي مجمل ما قدمه «نورثروب فراي» في النّقد الأسطوريّ:



(١) المرجع نفسه، ص: ١٢٤-١٢٥.

(٢) حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، ص: ١١٧.

(٣) حفاوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص: ٢٦٢.

(٤) كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول) دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (د، ط) ٢٠٠٤م، ص: ١٨.

٤ - بيير برونيل:

وضع «بيير برونيل» منهج النقد الأسطوري سنة ١٩٩٢ م «ولهذا يعد من أحدث المناهج النقدية التي تلامس النصوص الأدبية ذات الانزياحات الأسطورية، سواء على الساحة النقدية الغربية أو العربية»^(١).

يستهل «برونيل» منهجه بعبارة شهيرة قالها «غابريال غارسيا ماركيز» سنة ١٩٧٩ م «هناك عشرة آلاف سنة من الأدب خلف كل قصة نكتبها»^(٢) ليس خلف كل قصة فحسب، وإنما خلف كل نص، فإذا كان النقد الأسطوري يهدف إلى الإجابة «على جملة من التساؤلات التي تطرح في مجال الأدب المقارن، وعلاقة الأسطورة بالأدب، وأهم سؤال يطرح في هذا المجال هو كيف نعالج نصاً أدبياً معالجة نقدية على ضوء التوظيفات الأسطورية التي يحملها النص؟»^(٣) وقد سعى النقاد لدراسة هذه العلاقة بالإجابة عن تلك التساؤلات، وكان من أهمها معرفة آليات تحليل النص الأدبي ضمن توظيف الأسطوري، وقد

استطاع «بيير برونيل» من خلال كتابه المعنون بـ «النقد الأسطوري» إلى محاولة صياغة منهجية أو طريقة في البحث عن الأسطورة داخل النص بوضعه للقوانين الثلاثة المتمثلة في: التجلي Emergence والمطاوعة Flexibilité والإشعاع Irradiation.

أ - التجلي: Emergence

ويتمثل أساساً في حضور العنصر الأسطوري في العمل الأدبي على مستوى البنية السطحية أو بتعبير آخر: هو تلك الإشارات الأسطورية الموظفة في النص الإبداعي، وتكون إما صريحة تامة أو جزئية مبهمة، والتجلي لا يتوقف على نص واحد، فقد يكون في أعمال كاملة لكاتب، أو في جنس أدبي لمجموعة من الأدباء، أو في أدب قومي برمته^(٤).

أ - ١ - التجلي التام أو الصريح:

يصرح في المبدع بالعنصر الأسطوري، فيأتي تجليه واضحاً، ويظهر من خلال التقنيات التالية^(٥): العنوان أو اللامزة أو التناص، التضمين، الخلفية الأسطورية،

(١) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٣.

(٣) راضية بوكري، الأدب والأسطورة، أعمال ملتقى الأدب والأسطورة، كلية الأدب جامعة باجي مختار، عنابة، ٢٠٠٧ م، ص ١٧.

(٤) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٣٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٣.

أ - ٣ - التجلي المبهم / المضمّن:

يعدّ هذا النوع من التجلي الأكثر شيوعاً في الإبداع الفني من سابقه^(٢)، يظهر من خلال الصور البلاغية، وهو من أصعب التجليات كونه يتطلب فهماً عميقاً للنص، «لأن ضبابية العنصر الأسطوري الموظف تمنح المبدع أبعاداً أوسع، وتمنح القارئ مساحات دلالية أوسع»^(٣).

ويظهر التجلي وفق التقنيات الآتية:

التقنية الأولى: العبارة الاستهلاكية:

تأتي في بداية النص الأدبي كاستهلال عام، وتكون إما قولاً مشهوراً أو حكمة أو جزءاً من الأسطورة... إلخ والعبارة الاستهلاكية تمنح النص قراءات متعددة وتنبيئاً بتوجّه النص وتمنحه هامشاً.

التقنية الثانية: العنوان:

هو مفتاح من مفاتيح ولوج النص، ويعتبر اختزالاً له ولدلالته، ينطلق منه القارئ محدداً دلالات النص، إنه كما يقول محمد مفتاح: «العتبة الأولى لفهم النص أو هو البهو الذي منه ندلف إلى دهاليز نتحاور فيها مع النص وعوالمه الممكنة، يمدنا بزاوئير ثمين لتفكيكه ودراسته، ويقدم لنا معونة

البناء الفني، الصور البلاغية حيث تحدث الإشارة بوضوح بواسطة التسمية - مثلاً - فيكون التجلي واضحاً صريحاً فيحافظ فيه النص على عناصر الأسطورة الأصلية بلا تبديل أو تغيير، مستخدماً في ذلك تقنية التشابه والتماثل التام ما بين عناصر النص الأسطوري من جهة وعناصر التوظيف النصي من جهة أخرى.

أ - ٢ - التجلي الجزئي:

يظهر من خلال «الإشارة إلى جزئية أو صفة من صفات العنصر الأسطوري ليكون جزءاً دالاً على الكل»^(١) وذلك عن طريق استخدام التقنيات السابقة: التناص، العنوان، اللازمة، أو من خلال الصور البيانية، ويختلف عن التجلي التام في كون النص يعتمد إلى تغيير عناصر الأسطورة تغييراً يخدم توجهات النص، مرتكزاً على تقنية التشويه والتغيير وذلك وفق حالات متعددة كزيادة عنصر جديد مثلاً لم يكن موجوداً في عناصر الأسطورة الأصلية، أو إنقاصه إضافة إلى آلة التوظيف العكسي، والتي يقوم من خلالها النص إلى عكس مجريات الأسطورة النموذج وبالتالي تحويلها.

(١) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣.

كبرى لضبط انسجامه وفهم ما غمض منه»^(١).

وقد يشير العنوان صراحة للأسطورة أو يكون مضللاً، ولكل عمل فني أدبي عنوانه الذي يميزه، ويتجلى العنوان في نظام النشر، من خلال «مقدمة الغلاف، ظهر الغلاف، صفحة العنوان، صفحة العنوان المختصر»^(٢).

التقنية الثالثة: اللازمة:

هي تلك العبارة التي تتكرر في النص عبر وتيرة معينة، وكأنها فعل ثابت لا يمكن تجاوزه، ومن خلالها يصبح العنصر الأسطوري حجر الزاوية في النص^(٣)، وتكرر اللازمة في العمل الأدبي بشكل بؤرة مركزية تشع عبر نسيج النص الأدبي محيلة على أسطورة معينة، أو نموذجاً بدائياً معيناً.

التقنية الرابعة: التناص:

يعرف التناص بأنه تداخل نصوص متعددة وإعادة تحويل وتوزيع لها، ومعنى هذا أنه لا يمكننا إحالته لمؤلف واحد، حيث يبني النص من خلال توظيف نصوص أخرى في بنيته بغية إنتاج نص جديد، ومن

هنا جاء تناص النص الأدبي مع الأسطورة، من خلال استحضر المبدع للأسطورة معيداً شحنها من جديد بما يخدم نصه، وهو ما يؤدي لبروز تجليات عملت على تحويل أسطورة سواء بتغييرها وذلك بتوظيف الأسطورة النموذج توظيفاً جديداً، أو أن يحافظ عليها من خلال الاقتباس المباشر، ونجد مثل هذا التناص بكثرة في الروايات.

التقنية الخامسة: الصور البلاغية:

وهي التقنية الأكثر شيوعاً خاصة في الشعر^(٤)، وتتجلى من خلال صنوف الصور البلاغية كالاستعارة أو الكناية أو التشبيه من خلال استخدام الصور البلاغية الأسطورية التي تتميز بالإدهاش والمبالغة كتشبيه المرأة بالشمس، والرجل بالقمر أو الرضيع بالملك، فكلها تشبيهات أسطورية تظهر من خلال الصور البلاغية الحسية، وذلك بربط الإنسان المشبه بنماذج بدائية عليا مشبها بها باستخدام قرائن لغوية.

التقنية السادسة: الخلفية الأسطورية:

لا يذكر فيها المبدع الأسطورة صراحة، وهي عكس التناص حيث يتم ربط المتلقي

(١) دينامية النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، ١٩٨٧، ص: ٧٢.

(٢) نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصة العربية المعاصرة، دار توبال، المغرب، ط١، ٢٠٠٧م، ص: ٣٨.

(٣) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٣٥-٣٤.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٣٥.

بالمعنى المقصود دون إفصاح أو تصريح، إلا من خلال قرائن عقلية أو لغوية تدل على خلفية النص الأدبي الأسطورية، من خلال المزج بين القضايا المعاصرة والرؤيا الأسطورية لها «فيظهر النص ببعدين أحدهما فني مباشر وآخر غير مباشر يمثل الخلفية الأسطورية»^(١).

التقنية السابعة: البناء الفني:

يقوم المبدع من خلال هذه التقنية ببناء نصه بناءً يشبه البناء الأسطوري «حيث يقترب شيئاً ما من التقنية السابقة، إذ يتبنى المبدع بناءً فنياً جاءت عليه أسطورة ما ويصوغ فيه نصه الإبداعي»^(٢) وهو ما يعطي النص الأدبي نفساً وبعداً أسطورياً تتجلى من خلاله الأسطورة النموذج وفق توظيف جديد.

ب - المطاوعة: Flexibilité

وتتمثل في قابلية العنصر الأسطوري للتشكل وفقاً لرؤية المبدع وخلفياته المعرفية، ومن خلال ذلك يستطيع الناقد تحديد ثوابت ومتغيرات العنصر الأسطوري من خلال مواجهة النص الأعلى للأسطورة بالنص الجديد^(٣)، وتدل المطاوعة على

تحول الدلالة وانفتاحها عبر أفق النص يقول «برونيل»: «إنني لا أستعمل المطاوعة إلا لكلمة تقريبية من الصعب الإمساك بها، إنَّ الكلمة توحى بليوننة التكيف وفي الوقت نفسه بمقاومة العنصر الأسطوري في النص الأدبي»^(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ المطاوعة تكون من خلال حالات يحدثها المبدع في النص وهي:

الحالة الأولى: التماثل والتشابه:

يعتمد فيها المبدع على إبراز أوجه التشابه بين العنصر الأسطوري (الأسماء، المواقف، الأحداث، الحالات) والعنصر الأدبي كالأسماء والإحياء الرمزية.

الحالة الثانية: التشوهات والتغيرات:

وذلك بإحداث فروق بين العنصر الأسطوري الموظف والعنصر الأدبي عن طريق الزيادة والنقصان.

الحالة الثالثة: الغموض وتعدد

الرؤية:

يعتمد فيه الأديب على تغليف العنصر الأسطوري بهالة من الغموض تنسجم مع

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٣) شادية شقروش، الخطاب السرد في أدب إبراهيم الدرعوثي، دار سحر للنشر، ص: ٦٥.

(٤) هجيرة لعور، الغفران في ضوء النقد الأسطوري، ص: ٣٦-٣٧.

غموض العنصر الأسطوري الذي يرتبط في النص.

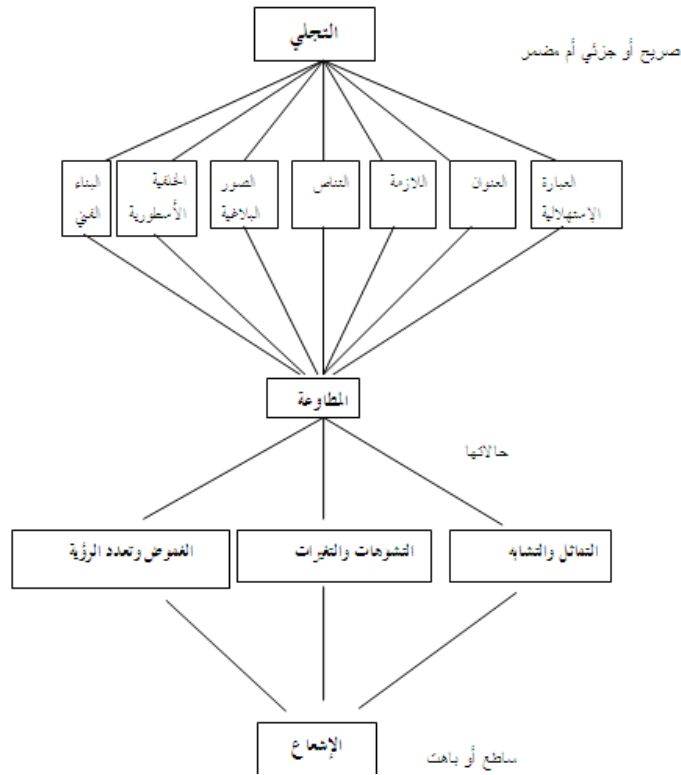
ج - الإشعاع: Irradiation

يتمثل في الخصائص الذاتية التي يمتلكها العنصر الأسطوري للقدرة على الإشعاع، والتي من خلالها يستطيع المبدع أن يستغلها كي تشع الأسطورة في العمل الأدبي من خلال العنوان أو الفاتحة أو اللازمة، وقد يكون الإشعاع ساطعاً قوياً عندما يكون التجلي جزئياً أو مضمراً، ويكزن الإشعاع خافتاً أو باهتاً عندما يصرح المبدع بالأسطورة أو بالعنصر الأسطوري، فالعلاقة بين التجلي والإشعاع

إذا هي علاقة عكسيّة، أما بالنسبة إلى علاقة المطاوعة بالإشعاع فهي علاقة تنابعية طردية، بمعنى كلما كانت المطاوعة متقلصة كان الإشعاع مستتراً، فإن جاءت المطاوعة ممتدة جاء الإشعاع ساطعاً.

والإشعاع يمنح النص أفقاً قرائياً من خلال إشعاع كلمة أو فكر ما في النص كإشعاع لفظة المطر مثلاً في النص الشعري يعطيها بعداً أسطورياً من خلال عملية التكرار ليصبح المطر طقساً من طقوس البعث.

والمخطط البياني الآتي يوضح منهج النقد الأسطوري لصاحبه «بيير برونيل»:



من خلال الخطوات الثلاث التي ينطلق منها النّقد الأسطوريّ في مقارنة النص الأدبيّ، فإن الدور الأساسي الذي يهدف إليه هو الوقوف أولاً عند تجلي العناصر الأسطوريّة الموظفة في هذا العمل، ومن ثمة تحديد التغيرات والانزياحات التي لحقت بها وذلك بهدف معرفة مقدار إشعاع تلك العناصر أو الرموز الأسطوريّة داخل النص وبالتالي معرفة ما منحته من جمالية خاصة.

وفي الأخير يمكن القول إنّهُ على الرغم من اختلاف المنطلقات في النّقد الأسطوريّ بسبب تعدّد اتجاهات نقاد الأسطورة

وتباينها، فإن الغاية التي يسعى نقاد الأسطورة إلى تحقيقها واحدة، وهي الوقوف على قيمة العمل الأدبيّ عن طريق تقصي طرق استعمال وتوظيف النموذج البدائي على اعتبار أن النّقد الأسطوريّ «يشدد على الأنماط الكونية المتواترة التي تشكل أساساً لغالبية الأعمال الأدبيّة، وبانتظار النظرات الثاقبة للأنثروبولوجيا وعلم النفس، والتاريخ والديانات المقارنة، فإن النّقد الأسطوريّ يستكشف إنسانية الفنان وذلك بتقصي الكيفية التي يستعمل بها الخيال الشخصي الأساطير والرموز المعروفة لدى الثقافات والأزمنة المختلفة»^(١).

(١) طراد اكبيسي، مدخل في النقد الأدبي، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (د، ط)، ٢٠٠٩ م، ص: ٨٢.

استراتيجيات إعادة الإعمار بعد الحروب الإسرائيلية على الجنوب اللبناني - مدينة بنت جبيل أنموذجاً^(١)

د. رُلى علي حجازي^(٢)

الملخص

٢٠٠٦م، التي أدت إلى تدمير مبرمج وممنهج للجنوب اللبناني، وتقويمها من خلال مقارنتها مع تجربة عالمية. والرجوع إلى الإطار النظري للخروج باستراتيجية متكاملة، وطويلة الأمد لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب، وذلك لتحقيق فعالية أكبر في المستقبل لمواجهة الحروب المحتملة، والقيام بأعباء إعادة الإعمار بشكل شامل يؤدي إلى تحقيق نتائج أفضل للإنسان والمكان، خاصة أن جزءاً من جنوب لبنان لا يزال يرزح تحت الاحتلال الإسرائيلي (مزارع شبعا، القرى السبع).

تركت الحروب الإسرائيلية التي شنت على لبنان عموماً، وجنوبه خصوصاً، تداعيات بيئية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، عمرانية ومعمارية بالغة، فدمرت المدن القديمة، والمباني التراثية والتاريخية ذات القيمة، ما شكل خطورة على الإنسان وبيئته، كما على تاريخه وذاكرته الجماعية. وقد أدى غياب المناهج والاستراتيجيات العلمية، للوقاية من هذه الحروب، إلى ازدياد آثارها السلبية على جوانب الحياة كافة.

وقد ارتكزت الدراسة بشكل رئيس على المنهجين التاريخي، والوصفي التحليلي بغية تحقيق هذه الاستراتيجية.

لذا؛ تهدف هذه الدراسة، إلى تسليط الضوء على تجارب إعادة الإعمار بعد الحروب الإسرائيلية وخاصة حرب تموز

(١) بحث مدعوم من الجامعة اللبنانية، قدم للنشر في ٠٨ آب ٢٠١٧.

(٢) مهندس معماري، أستاذ مساعد في معهد الفنون الجميلة - الفرع الأول، الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان.

. Email:rola.hijazi@ul.edu.lb

وقد شكلت الاستنتاجات والتوصيات التي خلصت إليها الدراسة، أرضية لإعداد استراتيجية لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب، مستفيدين من تجارب الآخرين السابقة، لتجنب الأخطاء.

الكلمات المفتاحية: الحروب الإسرائيلية على لبنان، إعادة الإعمار، الاستراتيجيات المقترحة، الجنوب اللبناني – جبل عامل.

المقدمة

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول موضوع عادة الإعمار بعد الحروب في مدن الجنوب اللبناني وبلداته التي عانت، منذ زمن طويل، من آثار التدمير الإسرائيلي الذي أفقدها الكثير من مقوماتها الحضريّة، أثر على أصالتها وهويتها وذاكرتها الجماعية، على تطورها العمراني، وازدهارها الاقتصادي، كما عرض بعضها للهدم الكليّ مرات عديدة. فضلاً عن ظروف الحياة الإنسانية السيئة التي عانى منها، لذلك فإنّ أهميّة هذه الدراسة تتخذ بعداً وطنياً في الحفاظ على هوية المجتمع الجنوبي فضلاً عن البعد الإنساني.

إشكالية الدراسة

على الرغم من الحروب الإسرائيلية الطويلة التي عاشها الجنوب اللبناني على مدى أربعين عاماً، وجنوبه تحديداً، والتي خلفت آثاراً وتداعيات بالغة على مختلف

الأصعدة، الإنسانية، الاجتماعية، الثقافية، البيئية، الاقتصادية، العمرانية والمعمارية. وعلى الرغم من التهديدات الإسرائيلية اليومية بشنّ حرب جديدة على لبنان، بقيت استراتيجية الوقاية من هذه الحروب غير مفعّلة. من هنا يمكننا أن نطرح ما مدى ضرورة وجود مناهج واستراتيجيات سليمة لإدارة عمليات إعادة الإعمار بعد الحروب، نظراً لما تسببه من أضرار ناتجة عن نقص المعرفة بإدارة هذه الحروب، وعدم كفاية التخطيط اللازم لحل المشكلات الناتجة عنها. ومن ثم استخلاص مجموعة من الدروس والعبر للخروج باستراتيجية علمية ومنهجية طويلة الأمد لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب الخارجية، تساهم في تخفيف آثار هذه الحروب على مختلف مكونات البيئة الحضرية. وستعمل هذه الدراسة على الإجابة عن التساؤلات الآتية:

كيف تمّت عملية إعادة إعمار الجنوب اللبناني بعد الحرب الإسرائيلية عليه في تموز من العام ٢٠٠٦م؟ هل كان هناك استراتيجية وطنية؟ هل حافظت عمليات إعادة الإعمار ومشاريعها على شكل المدن التاريخية وهويّتها؟ ما الاتجاه المعماري الذي اعتمد؟ من هي الجهات التي شاركت في عملية إعادة الإعمار؟ هل اقتصرّت المشاركة على الدّعم المادّي؟ أم كان لهذه الجهات دور فعّال وأساسي في وضع الآلية

المتّبعة؟ ما هو دور السلطات المحليّة؟ ما هو دور المجتمع المدني والأهالي الذين دُمّرت منازلهم؟ هل اعتُمد مبدأ «الإسراع» أم «التسرّع»؟ هل مشاريع إعادة الإعمار التي تمّت، شملت كل مكونات البيئة الحضرية؟

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة بشكل أساس إلى:

- تسليط الضوء على تجارب إعادة الإعمار بعد الحروب التي مرّت على لبنان، وتحديدًا على جنوبه الذي تعرّض لعمليات مستمرة من التدمير المبرمج والممنهج وتقويمها، من خلال مقارنتها مع تجارب الدول الأخرى.
- الرّجوع إلى الإطار النظري لاقتراح استراتيجية متكاملة وطويلة الأمد لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب، وذلك لتحقيق فعاليّة أكبر في المستقبل لمواجهة الحرب المحتملة، والقيام بأعباء إعادة الإعمار بشكل شامل وصحيح، ويراعي كل مكونات البيئة الحضرية، كما يؤدي إلى تحقيق نتائج أفضل للإنسان والمكان، خاصة أنّ جزءاً من جنوب لبنان لا يزال يروح تحت الاحتلال (مزارع شبعا، القرى السبع،...).

حدود الدراسة

الحدود المكانية

تمّ تركيز نطاق الدراسة على الجنوب اللبناني، ومدينة بنت جبيل على وجه الخصوص.

- الحدود الزمنية

يتركّز المدى الزمني للدراسة على الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز من العام ٢٠٠٦م.

- مناهج العمل

ارتكزت هذه الدراسة بشكل رئيس على المنهجين التاريخي، والوصفي - التحليلي للوصول إلى استراتيجية متكاملة، وطويلة الأمد لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب. وتحتوي على مقدّمة وثلاثة أقسام وخاتمة ولائحة بأهم المصادر والمراجع.

يتناول القسم الأول الحروب الإسرائيلية التي مرّت على لبنان وجنوبه على وجه الخصوص، وأدت إلى تدمير ممنهج ومتعمد للبلدات والقرى والمدن.

أما في القسم الثاني فنتناول عملية إعادة الإعمار بعد الحروب الإسرائيلية على الجنوب اللبناني، مسلطين الضوء على عملية إعادة إعمار مدينة بنت جبيل التي تعرض قلبها، المدينة القديمة وسوقها التاريخي، لتدمير شبه كلي في حرب تموز من العام ٢٠٠٦م، وتقويمها من خلال

مقارنتها مع تجربة عالمية شبيهة بتلك المحلية ألا وهي مدينة وارسو في بولندا.

ويقترح القسم الثالث استراتيجية متكاملة وطويلة الأمد لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب.

أما القسم الرابع فيعرض مجموعة من النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

القسم الأول: الحرب الإسرائيلية على لبنان

إن عمر الحروب التي شنتها «عصابات الهاغانا» وجيش الكيان الصهيوني على لبنان، يناهز عمر هذا الكيان، فمنذ ١٩٤٨م، وحتى أيّامنا هذه، لا تزال طائراته تعربد في سماء الجنوب اللبناني - جبل عامل، والعدوّ يرتكب الجرائم والمجازر الجماعيّة بحقّ هذا الجبل العمالي، وأهله وبنياته ومزروعاته. ومع أنّ الدولة اللبنانيّة حاولت اتقاء الخطر الصهيوني باعتمادها سياسة «عدم التحديّ أو التهديد» ورفعها شعار «قوة لبنان في ضعفه»، إلا أنّ النتائج جاءت سلبية لهذا الشعار.

فقد أدت الاجتياحات الإسرائيلية إلى

تدمير البيئة الحضرية من خلال التدمير العشوائي أو المنظم، وتدمير الهوية والتراث المادي والمعنوي للشعب، وتزوير التاريخ وسرقة الجغرافيا، وتدمير المدن التاريخية، وعدم السماح بإعادة الإعمار.

فمن الحروب العشرة التي شنتها «إسرائيل» ضدّ العرب، نال الجنوب اللبناني - جبل عامل ولبنان منها سبعة حروب. وهي: حرب العام ١٩٤٨ - ١٩٤٩م، حرب ١٩٧٠ - ١٩٧٢م، «عملية الليطاني» في العام ١٩٧٨م^(١)، حيث صدر القرار رقم ٤٢٥، حرب «سلامة الجليل» في العام ١٩٨٢م، «تصفية الحساب» في العام ١٩٩٣م، «عناقيد الغضب» في العام ١٩٩٦م، و«حرب تموز»^(٢) في العام ٢٠٠٦م التي استمرّت ثلاثة وثلاثين يوماً، انتهت بانسحاب مدلّ للقوّات الغازيّة، مع كلّ الدمار الهائل الذي خلّفته، والوحشية التي مارسها ضدّ السكّان العزل. ولم تتورّع عن تسجيل المزيد من المذابح والمجازر الجماعيّة كما إبادة الأجناس، وكانت ابتدأتها منذ إنشاء الكيان، مروراً بعناقيد الغضب، وكلّ الحروب التي شنتها على هذا البلد

(١) إن الاجتياح الذي حصل في العام ١٩٧٨م واستمر حتى عام ٢٠٠٠م، أنشأ ما عُرف بـ «الشريط الحدودي» أو «الحزام الأمني» أو «دويلة سعد حداد».

(٢) حرب تموز (حسب التسمية الشائعة في لبنان) أو حرب لبنان الثانية (حسب التسمية الإسرائيلية) والتي تُسمّى في بعض وسائل الإعلام العربية «الحرب الإسرائيلية على لبنان ٢٠٠٦م» أو «العدوان الإسرائيلي على لبنان» وفي وسائل الإعلام الأجنبي «مواجهة إسرائيل - حزب الله ٢٠٠٦م».

الغنيّ بموارده وثرواته وآثاره. إلى أن خرج الاحتلال مدحوراً في العام ٢٠٠٠م، عام التّحرير، وقد أصبح تاريخ الخامس والعشرين من أيّار من كلّ عام عيداً وطنياً له. ولم يبق من الأرض تحت رجز الاحتلال سوى مزارع شبعا (٣٦ كلم مربّع) وثلاث مناطق صغيرة في رميش والعديسة والمطلّة، ثمّ أضيف لها في العام ٢٠٠٦م القسم الشّمالي من بلدة الغجر السوريّة المحتلّة.

نفاذاً لخطة فراغ الجنوب اللبناني من سكّانه بغية احتلاله، وضمّه نهائياً إلى أرض الكيان، عبر إيقاع أكبر عدد من الضحايا والشهداء، وإبعاد من تبقى عبر سياسة النزوح والهجرة، بعد زرع الأرض بالألغام والقنابل العنقوديّة، وعبر إلحاق التسميم للترربة، فضلاً عن اعتماد سياسة تدمير ممنهجة ومنظمة للمدن الجنوبية والبلدات، لإلغاء الدلالات الرمزيّة للسكّان والمكان بتركيز القصف على مراكز المدن التاريخيّة، والأحياء القديمة وحاراتها وأسواقها. وقد أدى ذلك إلى إزالة قرى بكاملها، عن خارطة الوطن، لمرة أو مرّتين، ومنها ثلاث مرّات (عيّتا الشعب، سجد، الغندورية، فرون، الخيام، بنت جبيل...)، ولم تتم عملية إعادة إعمارها إلا بعد تحرير الأراضي المحتلّة في

العام ٢٠٠٠م. ولكن بعد الانتهاء من كل عملية إعادة إعمار لم تتم أية عملية تقويم لنتائجها بهدف معرفة مكامن الخلل والعمل على تطويرها وتحسينها.

ويمكن وصف حملات التدمير المنظمّ التي قام بها الاحتلال الصهيوني بأنّها عمليّة إبادة للمكان، فالعدوّ لم يهتم كثيراً بعدد الضحايا المدنيّين الذين يسقطون وسيسقطون في الحرب. ويؤكد مفهوم الإبادة، الأضرار الفادحة من دون أن يكون لذلك مبررات عسكريّة تُذكر.

ولتنفيذ هذه الخطة الحاقدة حشدت الولايات المتّحدة الأميركيّة كلّ قوّتها، من أجل الحرب على لبنان، هذا البلد الصغير الذي لا تساوي مساحته، مساحة أيّ مدينة متوسّطة في أميركا، وأعلنت الحرب عليه بذراعتها الإسرائيليّة، مستخدمة كلّ ما لديها من تكنولوجيا تدميريّة، وصواريخ ذكيّة بأيدي غبيّة.

إن ضخامة عدوان ٢٠٠٦م على لبنان، وكثرة الخراب والدمار، لم يحصل لهما أيّ مثيل بعد الحرب العالميّة الثانية. وهذه الحرب جعلت من «إسرائيل» تفقد مخزونها الاستراتيجي من العتاد والصواريخ. وهذا مؤشّر واضح على حجم الغارات التدميريّة، والقصف الهجمي^(١).

(١) «عدوان تمّوز - آب ٢٠٠٦»، جهاد البناء، نقلاً عن Tarmeem.org.lb بتاريخ ١٩ تمّوز ٢٠١٦.

الحضري، والتي تشكل البنية الفيزيائية جزءاً منها، حيث إنَّها انعكاس لحياة الناس الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخ والتكنولوجيا والمناخ^(١).

وقد عرّف الباحث «Baradan استراتيجيات إعادة الإعمار بعد الكوارث، سواء كانت طبيعية أو من صنع الإنسان كالحروب، بأنَّها مجموعة من العمليات والسياسات التي توضع من أجل مواجهة الكوارث، والاستعداد لها قبل حدوثها، ومن ثم تلبية الحاجة الملحة أثناء الكارثة وإعادة إعمار ما تضرر بفعل الكارثة بعد وقوعها، سواء أكان ذلك على مستوى قصير أو طويل الأمد، بحيث تكون هذه السياسات شاملة لكل نواحي الحياة، وتهتم بإعادة بناء ما تهدم خلال الكوارث ضمن المحتويات الأخرى (الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية)، وهذه السياسات تختلف بطبيعتها عن تلك التي توضع في الأوضاع والظروف العادية، وذلك لأنَّها تُعنى بتلبية الاحتياجات في ظروف غير طبيعية وغير مستقرة^(٢).

تأتي مرحلة إعادة الإعمار بعد مرحلة كثر فيها الخراب والدمار، خاصة بعد حروب داخلية أو اجتياحاً خارجياً. يشمل الدمار إعادة البنى التحتية، والممتلكات

وفي أعقاب العدوان الإسرائيلي عام ٢٠٠٦ م، انطلقت مجموعة من مشاريع إعادة الإعمار في الجنوب اللبناني، ففي الوقت الذي تلبّي فيه عمليات عادة الإعمار الحاجات الطارئة للسكن، فإنَّها في بعض الأحيان، كرّست المشاكل السابقة أو عززتها، لذلك فإنَّ من المهم أن يتم دراسة هذه العمليات وتحليلها وتقويمها، من أجل تفادي الأخطاء، وتعزيز الصواب.



صورة رقم (١): خريطة تظهر حدود منطقة الدراسة.
المصدر: (نقلًا عن <http://www.geo-cartographers.com>)
بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦، مع تعديل.

القسم الثاني: إعادة الإعمار بعد الحروب

يمكن فهم عمليات إعادة الإعمار بعد الحروب على أنها عملية بناء ما تهدم من الهيكل العمراني بفعل الحرب، لكن يعتبر التعريف بهذا الشكل ناقصاً، لأنه يأخذ بالحسبان إعادة بناء ما تهدم من البنية الفيزيائية فقط، ويهمل بقية مكونات النسيج

(١) BARADAN Berna, "analysis of the post disaster reconstruction process following Turkish earthquakes", Izmir institute of technology, turkey, 2004.

(٢) Ibidem.

العامة والخاصة وقطاعات الإنتاج. ويصل التدمير الممنهج في بعض الحروب إلى تدمير القدرات البشرية المتطورة خصوصاً، وذلك بهدف إقصاء الشعوب، وشلّ مقاومتها، كما تعمل على منع أو إعاقة نموها مستقبلاً وأسرها في إطار التّخلف والعجز.

يمكن تقسيم عملية إعادة الإعمار بعد الحروب إلى ثلاث مراحل، تشمل الفترة الممتدة ما بين «وقف النزاعات العنيفة والعودة إلى الحياة الطبيعية»، ويتم النظر إلى هذه المراحل بشكل متكامل ومتناهي مع بعضها البعض. ويمكننا ترتيبها على الشكل الآتي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الطوارئ وتسمى بمرحلة الإغاثة الفورية والإنقاذ وتستمر من شهر إلى ثلاثة أشهر تبعاً لطبيعة الصراع وشدته^(١) وتتميز بتوفير المساعدات الإنسانية الطارئة، كما تشمل أيضاً نشر قوات حفظ السلام على المستوى الدولي^(٢). أما **المرحلة الثانية:** فتسمى بالمرحلة الانتقالية وتتراوح مدتها من سنتين إلى خمس سنوات وتتصف باستعادة الناس لجوانب الحياة الطبيعية،

كما تتم خلالها عملية جمع البيانات الحقيقية، وإعداد المخططات التفصيلية بناءً عليها واتخاذ القرارات الخاصة بتنفيذها^(٣) مع إيلاء اهتمام خاص لإعادة تشغيل الاقتصاد بما في ذلك إعادة الإعمار المادي. أما **المرحلة الثالثة والأخيرة:** فهي مرحلة التنمية أو تعزيز الاستدامة وتتراوح مدتها من خمس إلى عشرين سنة، وهي المرحلة النهائية لإعادة الإعمار وعودة المجتمع إلى «الحياة الطبيعية». وفيها يبدأ انسحاب قوات حفظ السلام الدولية^(٤).

وفي مشاريع إعادة الإعمار بعد الكارثة أو الحرب هناك اتجاهات عدة للتعامل مع عمارة ما بعد الحرب، تركّز بعض هذه التقنيات على الناحية العملية الوظيفية، وبعضها أكثر رمزية تهتمّ بالذاكرة الجماعية والهوية الوطنية. وعموماً، فإنّ كلّ حالة إعادة إعمار لها استراتيجيتها الخاصة في التطبيق، خصوصاً في التفاصيل.

ولعل التجربة البولندية، المتمثلة بإعادة إعمار المركز التاريخي لمدينة «وارسو» بعد الحرب العالمية الثانية، واحدة من أهم التجارب الأوروبية التي سبقت التجارب

(١) NARAGHI ANDERLINI Sanam, EL-BUSHRA Judy, "post conflict reconstruction", 2004, p-p 51-53.

(٢) www.unhabitat.org

(٣) NARAGHI ANDERLINI Sanam, EL-BUSHRA Judy, Ibidem.

(٤) Ibid.

العربية في إعادة تأهيل المدن القديمة بما لا يقل عن ربع قرن من الزمن. فهي مدينة تاريخية تعرضت للدمار شبه الكلي على يد النازية. ومن أجل الاستفادة من هذه التجربة سنلقي الضوء على تاريخ هذه المدينة، والدمار الذي تعرضت له بفعل الحرب، وأثر هذه الحرب على البيئة الحضرية في المدينة، ومن ثم سنتناول استراتيجيات عملية إعادة إعمار الجنوب اللبناني بعد الحرب الإسرائيلية الأخيرة عليه في العام ٢٠٠٦م من خلال تسليط الضوء على تجربة مدينة بنت جبيل، نظراً لتشابه حالتها مع حالة وارسو في طبيعتها أو قيمتها، في التجربة أو الكارثة التي تعرضت لها.

٢ - ١ مدينة «وارسو» - بولندا (حالة دراسية مشابهة)

يعود تاريخ وارسو إلى القرن التاسع عشر حيث كانت بداية نشأتها، فارتبط تاريخها بتاريخ بولندا، ومنذ ذلك الوقت وما تبعها من السنين شهدت المدينة العديد

من الكوارث والحروب، حيث تم غزو المدينة واجتياحها وتدميرها مرات عدة^(١)، إضافة إلى انتشار الأوبئة فيها، وفرض الحصار والقيود الإدارية عليها، إلا أنها في كل مرة كانت تلتقط أنفاسها، وتعاود بناء نفسها بشكل مثير للإعجاب، لكن معاناة المدينة الأكبر كانت خلال الحرب العالمية الثانية، عندما قام الألمان بتدمير منهجي منظم للمدينة وللتراث الثقافي فيها، فحل الدمار عليها، وخرجت من الحرب بمأساة بشرية وعمرانية مفجعة. ففي كانون الثاني ١٩٤٥م، كانت المدينة مغطاة بتلال من الركام والرماد والخرائب يقدر بحوالي ٢٠ مليون متراً مكعباً^(٢). وتعدت الخسائر المادية ٤٥ مليار دولار أميركي، وتبين الصورة رقم (٢) حجم الدمار الحاصل. وكانت النتيجة قتل حوالي ٦٥٠ ألف نسمة، كما تم ترحيل مئات الآلاف إلى معسكرات الاعتقال في أماكن أخرى من بولندا^(٣)، وتدمير أكثر من ٨٥٪ من النسيج العمراني^(٤) ٩٦,٥٪ من المباني التاريخية

(١) تعرضت المدينة في الحرب البروسية السويدية في الأعوام ١٦٥٥-١٦٥٦م للتدمير الشديد، عندما تم احتلالها من قبل السويد، وتعرضت لحرب أخرى في مطلع ١٧٠٠م. وفي عام ١٧٩٤م تعرضت المدينة للاعتداء عندما هاجم الروس المدينة. نقلاً عن www.e-warsaw.pl بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦م.

(٢) د. محمود حريثاني، «الأسس التخطيطية للحفاظ على المدن التاريخية - دراسة مقارنة بين عدة حالات أوربية وعربية: حلب ووارسو»، ٥٥ شباط ٢٠٠٩م نقلاً عن historicalcities.wordpress.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦م.

(٣) CALAME Jon, PARTERS Minerva, "Post-war reconstruction: concerns, models and approaches", Center for Macro Projects and Diplomacy Working Paper Series, New York, 2005.

(٤) راجع : <http://whc.unesco.org/en/list/30/>.

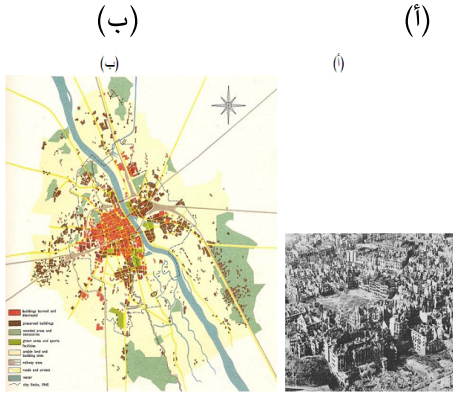
في المدينة، ولأنّها «وارسو العنيدة»، عادت قوّة من بين أنقاض الحرب وأفضل مما كانت عليه، حتى صارت تُلقَّب بالعنقاء في إشارة إلى الطائر الخرافي (طائر الفينيق) الذي ينبعث من الرّماد^(١).

١-٢ نتائج التدمير في وارسو في أعقاب الحرب وآثاره

تعرض جزء كبير من مدينة وارسو للتدمير نتيجة القتال في الحرب، ونتج هذا التدمير بسبب الصواريخ والقنابل التي تعرّضت لها المدينة. وفي ما بعد قام النازيون ببرنامج ممنهج لتدمير المدينة وإبادة التراث الثقافي فيها، فقد قام المهندسون المعماريون الألمان بتحديد المعالم الهامة، والنُصب التذكارية، والمباني ذات القيمة الرّمزية والتاريخية، إضافةً إلى المباني ذات الأنماط المعمارية المميزة والزخارف، ومن ثم قامت القوات النّازية بتدمير هذه الأماكن بشكل كامل. وقام الألمان بعد نسف الأماكن الاعتبارية ونهب كنوزها الفنيّة بإشعال النار في كل البيوت والشوارع واحداً تلو الآخر^(٢). دمرت

المدينة بشكل كامل تقريباً، فمن أصل (٩٥٧) معلم تاريخي كان قائماً قبل عام ١٩٣٩م دمرت النازية (٧٨٢) منها تدميراً كاملاً، و(١٤١) مبنى تم تدميرها بشكل جزئي^(٣).

لقد كانت هذه السياسة النازية^(٤) في وارسو، طريقة من أجل سحق روح المقاومة عند الشعب البولندي، وهزّ ثقة البولنديين بأنفسهم، وضرب الهوية ومحو التاريخ^(٥).



صورة رقم (٢): مدينة وارسو التاريخية بعد تدميرها بالكامل في الحرب العالمية الثانية (أ)، وخارطة تبين حجم الدمار الحاصل (المناطق المدمرة باللون الاحمر) (ب). المصدر: (نقلًا عن www.skyscrapercity.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦).

(١) AL-ALOUL Marah, "The destruction of cultural heritages by warfare and reconstruction strategies: lessons learned from case studies of rebuilt cities", Master Thesis, University of Florida, 2007, pp. 23-24.

(٢) Tung, A.M., Preserving the world's great cities: The destruction and renewal of the historic metropolis, New York, Three Rivers Press, 2001, p. 74.

(٣) AL-ALOUL Marah, op cit., p.24.

(٤) تدمير المدينة والمباني فيها لما تمثله من هوية وتاريخ وتراث.

(٥) نقلًا عن الموقع الرسمي لمدينة وارسو. www.e-warsaw.pl/miasto/historia.htm بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦.

٢-١-٢ إعادة إعمار وارسو

عايش الناس في وارسو الحرب، وشاهدوا التدمير المبرمج لمدينتهم، وبالتالي شعروا بالخوف عليها وعلى هويتهم من التدمير والضياع، واقتلاع جذورهم من أرضهم، وفي محاولة لحفظ كنوز المدينة وتراثها العمراني والثقافي قدر الإمكان، قام المعماريون والمخططون والمؤرخون والمعلمون وكل المثقفين الذين يُقدِّرون معنى المدينة والهوية والذين ينظرون إلى الأمام والمستقبل، بأخذ زمام المبادرة، حيث قاموا بجمع القطع الفنية ذات القيمة الخاصة^(١)، وتهريبها بعيداً عن مناطق الاستهداف، وذلك للحفاظ عليها^(٢).

أ - مرحلة ما قبل الحرب وأثنائها

هي مرحلة الاستعداد والتخطيط للمستقبل التي ساعدت على إعادة إعمار المدينة بشكلها الأصلي. فقد عمل أهل «وارسو» قبل الحرب وأثنائها على توثيق العمارة في المدينة، على أمل أن يأتي وقت يتم فيه إعادة بنائها، وتم إخفاء جميع المخططات التوثيقية لمدينة وارسو التاريخية في مدرسة للعمارة في المدينة خوفاً عليها من النازيين الألمان، نتيجة

لتوقعهم للهجوم النازي على بولندا، وهذا التوثيق كان الأساس في عملية إعادة الإعمار في ما بعد. وقد تم جمع كل الأدلة والشواهد التي تدل على الماضي للاستعانة بها في إعادة الإعمار ليكون طبق الأصل، سواء كانت صوراً خاصة عند الناس أو في الأرشيف أو صور ووثائق في الكتب أو مخططات أو شهادات الناس.

ب - مرحلة ما بعد الحرب وإعادة الإعمار

بعد نهاية الحرب تم إخراج الوثائق المخفية والتي كانت بحالة جيدة وسليمة، وتم استخدامها كأساس في إعادة بناء المدينة.

في الواقع كانت هناك آراء متباينة حول اختيار موقع آخر لبناء مدينة جديدة، أو إعادة بناء وارسو في موقعها السابق. حين التفكير في إعادة إعمار هذه المدينة بعد الحرب. اقترح خبراء من الاتحاد السوفياتي بناء وارسو الجديدة اشتراكية النمط. ولكن، تجمع العديد من سكان وارسو أمام مقر حكومة المدينة ليتحدثوا عن هذه القضية، وعندما عرض المعلمون والطلاب من جامعة وارسو مخططاً بشأن بناء المدينة القديمة تم وضعه قبل الحرب، توصل

(١) كقطع الأثاث من القصور والمتاحف والأبواب التاريخية والأعمدة ومدافع الحائط.

(٢) AL-ALOUL Marah, op cit., p.36.

حماية وترميم الآثار التاريخية القديمة إهتماماً خاصاً، إذ تمّ ترميم أكثر من تسعمائة مبنى تاريخي تقريباً، ما جعل تلك القصور والكنائس والقلاع وغيرها تصبح أكثر مهابة.



صورة رقم (٣): مشهد عام لمدينة وارسو. المصدر: (نقلًا عن www.skyscrapercity.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦).

وفي خلال عملية البناء تمّ الأخذ بالحسبان استخدام مواد البناء الأصلية في حال وجدت، كحجارة البناء القديمة والتي أخرجت من بين الأنقاض وأعيد إصلاحها، ومن ثم محاولة التعرف على الأماكن الأصلية لها وإعادة بنائها إليها.

وأعيد بناء المدينة كما كانت بتاريخها وماضيها، ومواد البناء القديمة، لتكون شاهداً على تاريخ وهوية وارسو، ومعاناة أهلها والدمار الذي تعرضت له.

الناس تدريجياً إلى توافق في الآراء لاستعادة نمط المدينة القديمة الأصلي. وسرعان ما عاد ثلاثمائة ألف مواطن من الخارج إلى وارسو فور ورود هذا الخبر. وبهذا اتفقت الحكومة البولندية مع متطلبات الشعب، وبدأت تنظمهم للمشاركة في أعمال إعادة إعمار وارسو، وبالتالي، بدأ مد عارم لحب الوطن في مدينة وارسو كلها، ما حقق نجاحاً في إعادة إعمار مدينتهم، ويمثل هذا «سرعة عودة وارسو» بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد تم بناء حوالي ٨٥٪ من المدينة المدمّرة خلال الفترة ما بين ١٩٦٦-١٩٤٥ م. وكان هناك إصرار على إعادة بناء المدينة وفقاً لنمطها الأصلي^(١)، بناءً تفصيلياً لجميع المباني، والعناصر ذات القيمة الاعتبارية، والعلامات المميزة والرموز والكنائس والبيوت والأسواق^(٢) وعلى ذلك لم تحافظ على ملامح المدينة القديمة في العصور الوسطى فحسب، بل بنت أحياء جديدة أيضاً (صورة رقم ٣). وفي عمليات إعادة الإعمار، تلقت أعمال

(١) في ١ شباط ١٩٤٥ تأسس مكتب إعادة بناء العاصمة، وفي ٧ آذار ١٩٤٥ قدم مقترحاته الأساسية لمخطط إعادة إعمار وارسو. وفي ٢٦ تشرين الأول ١٩٤٥ أصدر المجلس الوطني قراراً يقضي بتأميم الأراضي ضمن حدود المدينة تسهيلاً لعمليات شق الشوارع والجسور والطرق، وإعادة البناء والتوسع المرتقب للمدينة. راجع: د. محمود حريثاني، مرجع مذكور.

(٢) <http://www.worldheritagesite.org>.

لحفظ التُّراث العمراني في حال تم التعرض له بالتدمير، وقد كان هذا التوثيق هو الأساس في إعادة الإعمار^(٢).

ب - استخدام طرق البناء والمواد التقليدية

خلال إعادة إعمار وارسو تمّ إعادة استخدام مواد البناء الأصليّة في حال وُجدت، وإذا لم توجد فإنّ طرقاً تقليديّة ومواد شبيهة تمّ استخدامها لتحلّ محل المواد الأصليّة^(٣).

ج - الانتقائية

خلال تطبيق عمليّات إعادة الإعمار في وارسو، تمّ الحفاظ على جزء معيّن من التاريخ وإهمال حقبات أخرى، فكان هناك اهتمام بإعادة الحقبات التّاريخيّة القديمة في وارسو وإهمال فترات سياسيّة معيّنة من تاريخ المدينة، فمثلاً المباني التي تعود للقرن التاسع عشر، عندما كانت بولندا مقسّمة وخاضعة للسيطرة الأجنبية^(٤) تمّ إهمالها وعدم الاهتمام بإعادة بنائها.

د - الحفاظ على الهوية

إن إعادة بناء المدينة التاريخيّة كما كانت يؤكد على هوية السكان وتاريخهم وتراثهم وأصالتهم وعمق جذورهم في



صورة رقم (٤): الساحة الرئيسيّة في البلدة القديمة في مدينة وارسو خلال الحرب وبعد عادة العمار. المصدر: (المرجع ذاته).

٣-١-٢ استراتيجية إعادة إعمار وارسو بعد الحرب

في عام ١٩٨٠م تم تصنيف المركز التاريخي في مدينة وارسو على أنّها تراث إنساني عالمي، وتمّ الاعتراف بها من قبل منظمة اليونسكو بأنها مثال بارز على إعادة إعمار كامل لفترة زمنيّة من التاريخ^(١).

أهم ملامح استراتيجية إعادة إعمار المدينة:

أ - الاستعداد والتخطيط للمستقبل

من العوامل التي ساعدت على إعادة إعمار المدينة بشكلها الأصلي هو التّوقع المسبق للهجوم النازي على بولندا، وبالتالي الاستعداد له، لذلك عمل السكان بشكل حثيث على إخفاء ما يمكن إخفاؤه أو نقله إلى أماكن آمنة، إضافة إلى عمل توثيق للمدينة (عن طريق طلاب مدرسة العمارة)،

Ibid, p. 62. (٢)

AL-ALOUL Marah, op cit., p.64. (١)

AL-ALOUL Marah, op cit., p.63. (٣)

CALAME Jon, PARTERS Minerva, op cit., p. 12. (٤)

أرضهم، وهو رمز للمقاومة الصامتة ضد المُحتل، واعتزاز السكان بهويتهم وشخصيتهم ورفضهم الانصهار بأية هوية جديدة تُفرض عليهم، فالمدينة بالنسبة إلى أهلها مجمع لذاكرة التاريخ المتراكمة.

هـ - حفظ الذاكرة الجماعية

هدفت عمليات إعادة إعمار وارسو، إلى الحفاظ على الذاكرة الجماعية للشعب البولندي، وذلك بعودة مدينتهم إلى الحياة الطبيعية من بين الأنقاض، بكل معالمها ورموزها ومبانيها، في الأماكن ذاتها والشكل ذاته والمواد نفسها إن أمكن، ولذلك تمّ العمل على إعادة بناء كل شيء كما كان في السابق.

و - التكلفة

إن إعادة بناء الشوارع ذاتها على سبيل المثال في المدينة سيكون أقل تكلفةً، لأنّ أساس شبكة الشوارع موجود، ولكن يجب إعادة بنائها، إضافة إلى أن خطوط البنية التحتية موجودة ولكن بحاجة إلى إعادة إصلاح.

ز - توفير سبل الراحة والحاجات الأساسية

كانت المباني التاريخية في المدينة تفتقر في أغلب الأحيان إلى الراحة، ومواكبة متطلبات العصر الحديث، لذلك تمّ في بعض

الأحيان إعادة بناء الواجهات الخارجية بحالتها الأصلية، ولكن تمّ تعديل التقسيم الداخلي، لاستيعاب متطلبات العصر.

ح - الكشف عن أقدم طبقات التاريخ

في كثير من الحالات، وأثناء عملية التنظيف تمّ الكشف عن الطبقات الأقدم في البناء والنسيج العمراني التاريخي التي لم تكن ظاهرة، بل كانت قد اختفت تحت واجهات التشطيب أو تحت المباني، وحيث إن الهدف كان الذهاب بعيداً في التاريخ قدر الإمكان، تمّ الكشف عن أقدم نسيج موجود وإعادة بنائه وفق أقدم حقبة.

ط - تعزيز مؤسسات المجتمع للمساهمة في إعادة الإعمار

مع بداية الحرب العالمية الثانية انهارت الحكومة الرسمية في بولندا، وخرجت من البلاد، وأصبحت تمارس أعمالها من المنفى في فرنسا أولاً ثم لندن، لذلك لم يكن لها سيطرة مباشرة، فقام السكان ومؤسسات المجتمع المدني بتحمّل المسؤولية الأكبر، سواء كان ذلك بالاستعداد والتوثيق أو في عمليات إعادة الإعمار^(١).

٢-٤-٤ تقويم عملية إعادة إعمار «وارسو»

- لم يشكل التدمير الهائل الذي تعرضت له المدينة ونسيجها العمراني، كما

(١) راجع : <http://www.worldheritagesite.org/sites/warsaw.html>.

الحصيلة القاسية لعدد الوفيات، والنقص في اليد العاملة، عائقاً أمام السكان؛ بل كانت هذه العوامل دافعاً وتحدياً أمامهم للنهوض بعملية إعادة الإعمار، مع ما تطلبه ذلك من بذل جهد كبير ومضاعف من السكان والعمال والمختصين.

– أعيد بناء النواة التاريخية الرئيسة للمدينة وتراثها الثقافي كما كانت بتاريخها وماضيها، ومواد البناء القديمة إن أمكن، لتكون شاهداً على تاريخ «وارسو» وهويّتها، ومعاناة أهلها والدمار الذي تعرضت له، مع الأخذ بالحسبان توفير سبل الراحة والحاجات الأساسيّة للسكان من خلال تحسين البيئة الداخليّة للمباني وحلّ المشاكل السابقة المتعلقة بالتدفئة والتكييف والصرف الصحي والإنارة والتهوية والرطوبة.

إن التوثيق المعماري والعمراني للمدينة ومكوناتها ساهم في إنجاح عملية إعادة الإعمار في «وارسو»، وجعلها تجربة رائدة في إعادة الإعمار، وهذا ما يؤكده اعتراف منظمة اليونسكو بأنها مثال بارز على إعادة إعمار كامل لفترة زمنيّة من التاريخ.

إعادة الإعمار في الجنوب اللبناني بعد الحرب الإسرائيليّة في تموز ٢٠٠٦ م.

مدينة بنت جبيل حالة دراسية

بدأت الحرب الإسرائيليّة على لبنان عموماً، وجنوبه خصوصاً، في الثاني عشر من شهر تموز من العام ٢٠٠٦ م واستمرت حتى الرابع عشر من شهر آب من العام ذاته، وهي تُعد الحرب الأطول في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك لاستمرارها أربعة وثلاثين يوماً من دون توقف. تركت هذه الحرب، تداعيات بالغة على مختلف الصعد، فدمّرت المدن القديمة، والمباني التراثية والتاريخية ذات القيمة، ما شكل خطورة على الإنسان وبيئته، كما على تاريخه وذاكرته الجماعية. إلا أن إبادة المكان والأجناس تجربة أتقنها العدو الإسرائيلي في تاريخ حروبه على لبنان وجنوبه كمقدّمة لبدء رحلة نفي جماعي، لا يمكن الردّ عليها لا عبر إعادة عمار سريعة تُعيد «إحياء المكان» أجمل مما كان^(١). فقد استفاق لبنان في الخامس عشر من آب، على ورشة إيواء وترميم وإعمار، لم تشهد لها المنطقة أيّ نظير.

أخذ فريق العمل في مؤسّسة «جهاد البناء»^(٢) كلّ المعطيات الأولى، في إعداد استراتيجية التدخّل، وكانت جاهزة للتنفيذ عشية وقف الأعمال الحربيّة في ١٤ آب.

(١) عبد الحليم فضل الله، «النتائج الاقتصادية للحرب»، جريدة الأخبار، العدد (٢٨٣)، ٢١ تموز ٢٠٠٧.

(٢) <https://www.jihadbinaa.org.lb>

٢-١-٢ استراتيجيات التدخل في إعادة إعمار الجنوب اللبناني

جرى تقسيم لبنان إلى خمس مناطق رئيسة هي:

جنوب نهر الليطاني، شمال نهر الليطاني، بيروت وجبل لبنان، البقاع والشمال.

بدورها قُسمت هذه المناطق، إلى مجموعة مراكز، والمراكز إلى دوائر، وكل دائرة إلى مجموعة من القرى، وتمّ تعيين مدير لكل من هذه الأطر، يملك الصلاحيّة المناسبة لتسهيل تواصل الأهالي معها، متجاوزين أيّة تعقيدات إدارية^(١).

تبنت دول عربية عدة منها قطر، السعودية، الإمارات، سوريا وغيرها إعادة إعمار القرى والبلدات المنكوبة. تكفّلت قطر إعادة إعمار أربع بلدات طاولها الدمار بشكل كامل تقريباً، وهي بنت جبيل، عيناتا، عيتا الشعب والخيّام. أنجز المكتب القطري إعادة إعمار وترميم أكثر من ١٢٠٠٠ وحدة سكنية في هذه البلدات الأربع، وأعاد بناء سوق بنت جبيل التاريخي. إضافة إلى إعمار مرافق عدة في ١٩٥ قرية جنوبية، منها ٤٨ كنيسة وديراً، و٢٠٨ حسيّنات، و٣٠٣ مساجد، إضافة إلى ٢٧ مجمع وحوزة دينيّة و١٨ مقام ديني عدا عن إعادة إعمار وتأهيل ٣٩ مدرسة، ومجمّع في بلدة قانا.

واجهت البلدات والقرى المدمّرة منها بشكل خاص، إرباكاً في المسوحات ناتجة عن حجم الدمار الكبير، والتباين في تصنيف المنازل المتضرّرة، بين أن تكون خاضعة للهدم وبين أن تكون صالحة للترميم. طال الإرباك بشكل خاص الأحياء والمنازل التي كانت أصل البلدة «المدينة القديمة»، وهي منازل مبنية ومسورة بالحجارة الصخرية أو الكلسيّة. لذلك كان لا بد من الاستعانة بمهندسين مختصين في عمليات التصنيف.

وكان القرار صعباً، لأنّ الهدم وبناء الجديد أهون الحلول، لكنه يمحو خصائص المكان العمرانية والاجتماعية. أمّا الترميم فيحتاج إلى مهندسين خبراء وجراحات صعبة للجدران والسقوف.

لقد أحدث حجم الدمار في البداية صدمة في الوعي الفردي والجماعي. وأجرى مجلس الجنوب مسحاً باسم الحكومة مستنداً للدول المانحة من أجل تقدير قيمة التعويضات. وقد صنف المسح المنازل على النحو الآتي:

- منازل متضررة كثيراً صنفت للهدم.
- منازل متضررة يريد أصحابها هدمها لبناء الجديد مكانها.
- منازل يمكن ترميمها.

(١) نقلاً عن <http://www.tarmeem.org.lb/datapages/rebuild/introduction.htm> بتاريخ ٢٢ تموز ٢٠١٦.

تعتبر مدينة بنت جبيل^(١) حاضنة لجزء أساسي من تاريخ جبل عامل، وهي عنوان بلاد بشارة. شكّلت مركزاً تجارياً حيوياً لمنطقة شاسعة من شمال فلسطين قبل الاحتلال، وصولاً إلى منطقة حوران في سوريا، إضافة إلى قرى وبلدات جبل عامل المحيطة (صورة رقم ٥).



صورة رقم (٥) حدود مدينة بنت جبيل مع فلسطين المحتلة.
المصدر: (نقلًا عن www.bintjbeil.com/A/map_roads.html بتاريخ ٢٢ تموز ٢٠١٦).

كان الأهالي يريدون التخلص من آثار الدمار في أسرع وقت ممكن، ومجلس الجنوب محكوم بهاجس الإسراع في إعداد الجداول لتقديمها إلى الجهات المعنية بدفع التعويضات للمتضررين، والبلديات لا تملك الخبراء الذين يمكن لهم وقف عمليات الهدم بانتظار البحث عن مقترحات هندسية ووضع الاستراتيجية المناسبة لإعادة الإعمار.

كانت النتيجة أن جُرفت الأحياء القديمة في بلدة القليلة، أمّا في عيتا الشعب، فكانت عملية الهدم ستتم لولا تدخل المهندسين المتطوعين، وإيقاف هذه العملية. وُضع مخطط حديث لمدينة بنت جبيل يتباين مع خصائصها العمرانية، وأعيد المسح في بلدة مارون الراس مرة ثانية.

ولهذه الأسباب مجتمعة، سنناقش عملية إعادة الإعمار بعد الحروب من خلال تسليط الضوء على مدينة بنت جبيل، كنموذج لإعادة الإعمار في جنوب لبنان، وآلية التنفيذ والجهات المسؤولة، نظراً للأسباب الآتية:

٣-٢-١ الموقع الاستراتيجي

(١) كانت بنت جبيل إبان العهد العثماني مركز ناحية (مقاطعة) هونين ثم أصبحت تابعة لقضاء مرجعيون عند تأسيس ولاية بيروت. وإبان الاحتلال الفرنسي، أصبحت مديرية لقضاء صور وشملت ٣٩ قرية. وعام ١٩٢٥ م ألغيت المديرية وعام ١٩٥٣ م أصبحت البلدة قضاءً مستقلاً لـ ٧٠ قرية خفض عددهم عام ١٩٥٤ م إلى ٤٠ ثم إلى ٣٦ قرية، من بينها حالياً ١٨ قرية محتلة و٣ مزارع شاغرة وقد أصبحت بنت جبيل الدائرة الانتخابية ٢٩. راجع: د. مصطفى بزي، «بنت جبيل حاضرة جبل عامل، وإحدى أمات هذا الجبل، وهي تاريخياً عنوان بلاد بشارة»، ١٥ نيسان ٢٠٠٧ م، نقلًا عن www.Bintjbeil.org بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦ م.

٣-٢-٢ تاريخ وذاكرة

٣-٢-٢ الدمار الذي تعرضت له المدينة

في بنت جبيل، كان لتطور الأحداث دور في المحافظة على تاريخ المدينة، فقد عزلها الاحتلال الإسرائيلي لعقدين من الزمن عن الحياة الصاخبة، فأخّر التطور العمراني فيها^(٢)، ما أدى إلى المحافظة على إرثها التاريخي والعمراني، وكان ذلك في زمن سبق «معركة بنت جبيل» وقبل الغارات والقصف المدفعي الإسرائيلي للمدينة.

عاشت المدينة فترة طويلة من العذاب والظلم، وعدم الاستقرار والتهجير والنزوح والهجرة الخارجية، بسبب الاعتداءات الإسرائيلية عليها منذ العام ١٩٧٨ م. (صورة رقم ٧). وعلى الرغم من ذلك، وقفت بنت جبيل في وجه المخططات الصهيونية في كل المراحل. وكانت تعود، بعد كل معركة ضد هذا العدو، وتنهض من تحت الركام والدمار، وتنتفض من جديد، لتعيد بناء نفسها. إلى أن جاء التحرير في العام ٢٠٠٠ م حيث استعادت المدينة حريتها وأهميتها. وكانت حركة مهمة، على صعيد إعادة إعمار المدينة وتأمين بنيتها

ضم الوسط القديم لمدينة بنت جبيل (وتعني بيت شمس أو بيت صناعة الخزف) ما يقارب ١٠٠٠ بيت تراثي مبني من الحجارة المصقولة والطين والكلس يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل العام ١٩٢٠ م. تتميز بطريقة بنائها، البيوت متداخلة، السطوح متلاصقة، الجدران مشتركة، متواصلة عبر أبواب، تُعرف بـ «باب السر»، أو عبر نوافذ «الطاقة»، حيث التواصل لأي أمر مستجد أو طارئ (صورة رقم ٦). فضلاً عن سوقها التاريخي التي كان بمثابة مركز تجاري إقليمي^(١).

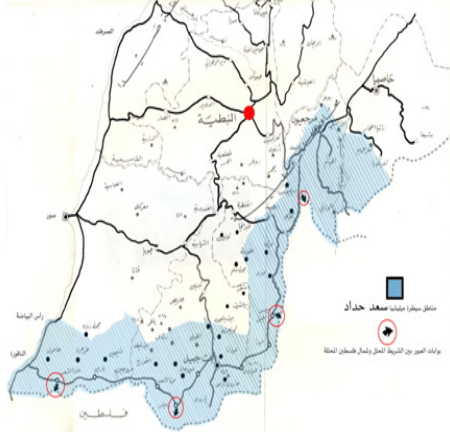


صورة رقم (٦): بنت جبيل في العام ١٩٧٩ (أ)، قناطر مسجّة بالحديد تزّين المنزل القديم (ب)، المدينة القديمة في بنت جبيل قبل أن تدمرها إسرائيل في حرب تموز من العام ٢٠٠٦ (ج). المصدر (lebanesewar.wordpress.com).

بتول بزي، «بيوت وجوامع أثرية في مدينة بنت جبيل»، ١٦ نيسان ٢٠١٦، نقلاً عن bazziblog.wordpress.com بتاريخ ١٦ تموز ٢٠١٧.

(١) بناءً على إحصاءات بلدية بنت جبيل، يعود تاريخ بعض هذه البيوت إلى ما قبل العام ١٩٢٠ م. والبعض الآخر يعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر. كما تعود تاريخ نشأة السوق إلى تموز من العام ١٨٨٠ م. نقلاً عن www.bintjbeil.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦ م.

(٢) أدى ذلك إلى المحافظة على إرثها التاريخي والعمراني، وكان ذلك في زمن سبق «معركة بنت جبيل» وقبل الغارات والقصف المدفعي الإسرائيلي للمدينة.



صورة رقم (٧): موقع مدينة بنت جبيل ضمن الشريط المحتل. المصدر: («الاعتداءات الصهيونية على لبنان من العام ١٩٤٩ إلى العام ١٩٧٨»، نقلًا عن www.moqawama.org بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦).



صورة رقم (٨): حجم الدمار الذي تعرضت له المدينة في حرب تموز ٢٠٠٦. المصدر: (راجع: جوان فرشخ بجالي، «هوية بنت جبيل التاريخية مهددة»، جريدة الأخبار، العدد (٢٠٢)، ١٤ نيسان ٢٠٠٧، صفحة محليات. نقلًا عن casadei.blogspot.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦. د. علي بزي، بنت جبيل: الذاكرة والحرب، دار الكتب للطباعة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٨٧).

التحتية، وعودة كل المؤسسات الحكومية إليها، كما عودة أبنائها المغتربين من المهجر للمساهمة في حركة إعمارية واسعة. فخلال السنوات الست قبل العدوان الأخير، بُني في البلدة أكثر من خمسمائة منزل^(١)، وفتحت مدارس جديدة. كما استعاد السوق التاريخي أهميته ودوره في تنشيط الحركة الاقتصادية في المدينة.

ثم كان عدوان تموز ٢٠٠٦ م على لبنان وجنوبه، حيث قامت إسرائيل بتدمير المدينة بشكل شبه كلي. فقد دُمّر حوالي ٩٠٪ من إجمالي المنازل في القلب التاريخي للمدينة، في محاولة لتدمير ذاكرة التاريخ الذي حفظ خطاب السيد حسن نصر الله، والذي عرف بـ «خيوط العنكبوت»، والانتقام من رمزيّتها^(٢). فصارت صُور بيوتها وحاراتها جزءاً من ذاكرة الأهالي وماضيهم، وحتى هويتهم.

كما دمر السوق العريق بشكل كبير في هذه الحرب، حيث إنّ هناك أكثر من ٤٥٠ مؤسسة تجارية دمرت كلياً أي ما يعادل ٧٠٪ منها.

(١) د. مصطفى بزي، مرجع مذكور.

(٢) كلّ متبّع لمجريات حرب تموز - آب ٢٠٠٦ م يعلم مقدار الهمجية التدميرية التي اعتمدتها «إسرائيل» في مدينة بنت جبيل، نتيجة التصدي البطولي الذي واجهها، ومنع قواتها من التقدم. وحرّما من رفع العلم الإسرائيلي في المكان الذي شهد احتفال التحرير والانتصار في العام ٢٠٠٠ م. لذلك كان الدمار رهيباً.

٢-٤ نتائج الاجتياح الإسرائيلي ٢٠٠٦م وتداعياته

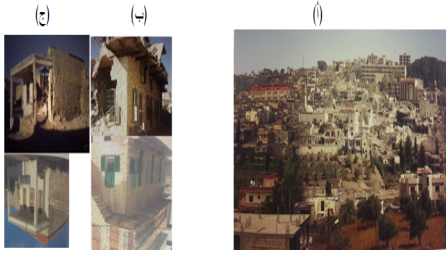
إن مدينة بنت جبيل الصامدة حجراً على حجر، أُريد لها أن تتهدم وتُمحى ذاكرتها العمرانية والتاريخية. وهذا التدمير الممنهج تعمّدت إسرائيل منذ سنة ١٩٧٨ م حيث كانت تنقصد سياسة نسف المنازل القديمة. ولأنها عدو قائم على عنصر أساس وهو التاريخ، فإنها تريد أن تبين أنها متجذرة في هذه الأرض أكثر من سكانها الأصليين.

في الحرب الإسرائيلية الأخيرة في تموز ٢٠٠٦ م، دُمّرت المدينة بشكل كامل تقريباً. فتغيرت معالمها^(١)، وصح فيها قول القائل: إنها «ستالين غراد» جنوب لبنان.

فقد هُدم وسط المدينة القديمة بالكامل، وأزيلت البيوت التاريخية المبنية من الحجر الصخري القديم، وكذلك أزيلت المحلات التجارية بكاملها. وبلغ عدد الوحدات السكنية في قلب المدينة، حوالي ١٠٠٠

وحدة^(٢). ودُمّر سوق بنت جبيل التاريخي (١٣٥ محلاً تجارياً)^(٣).

أمّا في بنت جبيل «الحديثة» فقد بلغ عدد المباني السكنية المتضررة، جرّاء هذه الحرب، حوالي ٢٣٠٠ مسكناً. أمّا المساكن المدمرة تدميراً كلياً، فبلغ عددها حوالي ١٠٠ منزل، وأمّا تلك المدمرة تدميراً جزئياً فحوالي ٦٠٠ منزل. فضلاً عن المنازل المتضررة ويتجاوز عددها ١٦٠٠ منزل^(٤).



صورة رقم (٩): تداخل مرحلتي ما قبل الحرب وبعدها في صورة. هي صورة الهمجية الإسرائيلية التي عمدت إلى تدمير القلب التاريخي لمدينة بنت جبيل في حرب تموز من العام ٢٠٠٦. المصدر: (أ- د. علي بزي، مرجع مذكور، ص ١٣٠. ب- المرجع ذاته، ص ١٣١، مع تعديل. ج- المرجع ذاته، ص ١٣٥، مع تعديل).

(١) أيمن، البالغ من العمر ١١ عاماً، لم يستطع أن يحدد مكان بيته. لقد دمر الإسرائيليون الشارع الذي شيد فيه، ولم يعد الفتى يعرف مدينته. فقد سرقت منها الحرب الكثير، وصارت صور بيوتها وحاراتها جزءاً من ذاكرته وماضيه، وحتى هويته. فهو ابن بنت جبيل، وتاريخه من تاريخها. راجع: جوان فرسخ بجاللي، «معضلة المحافظة على هوية بنت جبيل التاريخية»، جريدة الأخبار، العدد (٣٠)، ١٦ أيلول ٢٠٠٦، الصفحة الأخيرة.

(٢) د. علي بزي، بنت جبيل: الذاكرة والحرب، دار الكتب للطباعة، ط ١، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٥٣.

(٣) داني الأمين، «أسعار العقارات تؤرق بنت جبيل»، جريدة الأخبار، العدد (١٠٤٥)، ١٦ شباط ٢٠١٠، الصفحة الاقتصادية.

(٤) د. علي بزي، مرجع مذكور، ص ٥٤.

٥-٢-٢ المشاكل التي واجهت عملية إعادة إعمار المدينة

أ - غياب الدراسات التاريخية لمدينة بنت جبيل، فلا يوجد مسح أثري وتراثي لأبنيتها القديمة وأحيائها، على الرغم من فرادتها في لبنان. «إنّها أقرب بشكلها الهندسي وزخرفاتها الحجرية إلى مدن فلسطين وسوريا منها إلى مدن الشاطئ اللبناني»^(١). ما يجعل عملية إعادة الإعمار أكثر صعوبة وتعقيداً. كما يسجّل غياب دور الدولة اللبنانية بالقيام بأية مبادرة للمحافظة على بنت جبيل أو دراستها منذ الانسحاب الإسرائيلي منها في أيار عام ٢٠٠٠ م وحتى حرب تموز ٢٠٠٦ م.

ب - عقارات المدينة ليست ممسوحة، ولا محددة، فهي متداخلة ومتلاصقة.

ج - عملية البناء تتطلب تحديد الملكيات العقارية، العامة والخاصة عن طريق «العلم والخبر».

د - جرّف البيوت القديمة التاريخية ضمن عملية إزالة ركام البيوت المدمّرة،

بشكل عشوائي، إذ إنّ أغلبية البيوت المهدامة كلياً أو جزئياً، مبنية من الحجر وقديمة البناء، تعكس تاريخ المدينة العريق ونسيجها الاجتماعي. وهي جزء من الذاكرة الجماعية لبنت جبيل. فقد هدمت بيوت مصابة بالقصف مع أن ترميمها كان ممكناً، ولكن أصحاب المُلْك أرادوا الحصول على التعويضات التي ترتفع قيمتها بالنسبة إلى المنازل المهدامة. وهذا يدل على غياب الوعي عند الناس وعدم إدراكهم لأهمية البيوت التاريخية وقيمتها.

هـ - بدء عملية رفع الأنقاض، قبل وضع مخطط توجيهي يحدد الشكل أو الاتجاه الذي ستأخذه عملية إعادة الإعمار. فقد جرفت الكثير من البيوت في المدينة القديمة^(٢).

فضلاً عن عمليات البناء الفردي، التي تُشكّل خطراً إذا غابت ضوابط التنظيم المُدني في هذه المدينة.

و - بيع حجارة بعض المنازل المهدامة، بعد انتهاء الحرب، من قبل

(١) كما يشير على بدوي من مديرية الآثار إلى قلة الإمكانيات المتوافرة لدى المديرية العامة للآثار، وصعوبة تمويل مشاريع الدراسات، ويؤكد أن «المديرية حاولت دفع الجامعات إلى إنجاز بعض من هذه الدراسات، وكانت المشاريع قيد التحضير قبل وقوع الحرب». فبنت جبيل مدينة تاريخية من دون دراسة أو مسح لتحديد أهمية الأبنية والأحياء، الأمر الذي يجعل عملية إعادة البناء أكثر صعوبة وتعقيداً. راجع: جوان فرشخ بجلي، «معضلة المحافظة على هوية بنت جبيل التاريخية»، مرجع مذكور.

(٢) راجع: جوان فرشخ بجلي، «هوية بنت جبيل التاريخية مهددة»، جريدة الأخبار، العدد (٢٠٢)، ١٤ نيسان ٢٠٠٧، صفحة محليات.

أصحابها، ما هدد تراث المدينة وأصالتها، ونسيجها المعماري والاجتماعي.

هذا الأمر دفع بالبلدية إلى إنقاذ أكثر من مائة ألف من أحجار المنازل القديمة التاريخية المهدمة، لإعادة استخدامها في عملية الترميم وإعادة البناء، للحفاظ على الطابع القديم وحفظ ذاكرة المدينة وتاريخها وهويتها قدر الإمكان.

ز - **كيفية إعادة البناء، وإعادة إعمار وسط المدينة القديم المهدم، مع ضرورة الحفاظ على تراث البلدة وتاريخها وحجارتها القديمة.**

٢-٦-٢ استراتيجية التدخل

أ - **التقويم المباشر بعد الحرب (التقويم السريع)**

بعد انتهاء الحرب، أنشأت البلدية مكتباً فنياً من أجل التقويم السريع للاحتياجات والأضرار التي خلفتها الحرب، يعمل هذا المكتب على جمع المعلومات عن وضع السكان، أماكن تواجدهم، ظروفهم الحالية، احتياجاتهم العاجلة، والخدمات التي لاتزال متوافرة، ويمكن استخدامها. وذلك من أجل تلبية احتياجات السكان العاجلة، والبدء بوضع خطة لإصلاح الأضرار والبدائل الممكنة، والعمل على تأمين سبل انتقال الأهالي التي دمرت منازلهم بالكامل، إلى منازل جديدة في الأحياء المتفرقة، والتي لم ينل منها الدمار بالمقدار الذي نالته منها

الأحياء القديمة، كما تأمين عودة النازحين إلى مدينتهم بأسرع وقت ممكن، فقد كانت المدينة التي دمرت كل مقوماتها الاقتصادية والفيزيائية، على موعد مع عودة الحياة إلى كل ما فيها، من جديد، وذلك بعد أسبوع أو أسبوعين من انتهاء الحرب. إضافة إلى العمل على الخروج السريع من هذه المرحلة والانتقال إلى المرحلة التالية من إعادة التأهيل وإعادة الإعمار.

ب - **مرحلة التقويم التفصيلي (في مرحلة متأخرة)**

يتم القيام بهذا التقويم للحصول على معلومات دقيقة وإحصاءات تفصيلية عن طبيعة، ومقدار وموقع الخسائر التي نتجت عن الحرب، وتوثيق الأضرار بالخرائط، ودرجة ونوع الأضرار التي لحقت بالبنية الفيزيائية والتحتية. وتكون هذه المعلومات مفيدة من أجل التخطيط وإعادة تعديل الخطط السابقة لإعادة الإعمار، ولحفظ المعلومات، بغية الاستفادة منها في المستقبل. ولتنفيذ هذا التقويم، قُسم المكتب الفني إلى لجنتين غير رسميتين:

- **لجنة تقويم الاحتياجات والأضرار والدمار (لجنة التخمين)**

حددت لجنة التخمين، حجم الضرر لكل مواطن عن محله أو منزله. وعملت على:

- إنجاز ملف متكامل وموثق بالصور والخرائط عن مدينة بنت جبيل وأبنيتها

وعقاراتها عن طريق تحديد العقارات ومسحها، وتثبيت الملكيات وتحديد الورثة، لأنّ عدم تحديدهم طوال السنوات الماضية ساهم في تشابك ملكيات المنازل والأراضي من جيل إلى جيل، ودفع التعويضات عن الأبنية المهدمة، والأخرى الإسمنتية التي تحتاج إلى ترميم.

– لجنة لصرف الأموال

طُرحت أفكار عدّة عن آلية التعويض على المتضرّرين جراء الأعمال العدوانية الإسرائيلية. ويمكن اختصارها بما يأتي:

– دفع البديل المحدّد للوحدة المدمّرة مباشرة للمالك، على أن يتولّى إعادة بناء وحدته في المكان القديم أو في أيّ مكان يختاره في المدينة.

– وضع مخطّط تنظيمي جديد للموقع يتم من خلاله بناء وحدات سكنية على طوابق تتولّى البلدية بدورها تنفيذ هذا المخطّط والأبنية، وتقوم بعدها بتوزيع الوحدات الجديدة على أصحاب العقارات المهدّمة.

ولكن القرار كان بأن تصرف اللجنة الهندسية المبلغ الذي أقرته لجنة التخمين، وقد صُنّفت إلى نوعين: ترميم أو هدم كلي، وغالبية التعويضات التي دفعت هي لأصحاب المنازل المتضررة حيث تراوحت قيمة التعويض بحسب تقدير الضرر. أما

المنازل المصنفة للهدم فإنّ تعويضاتها، دفعت على ثلاث دفعات بحيث لا تُدفع الدفعة الثانية منها إلّا بعد أن تكون أساسات المنزل الجديد قد رُفِعت، تأكيداً على جدية صاحب المنزل في إعادة إعمارهِ.

وقد حدد المكتب القطري، المسؤول عن إعادة إعمار المدينة، تكلفة الوحدة السكنية بـ ٤٠ ألف دولار مقابل كل منزل تصل مساحته إلى مائة وثلاثين متراً مربعاً يضاف إليها ثلاثمائة دولار عن كل متر مربع إضافي، دُفعت على الشكل الآتي: الدفعة الأولى قيمتها ١٠ آلاف دولار صُرفت بعد الحرب مباشرة، لتليها الدفعة الثانية وقيمتها ٢٠ ألف دفعت فور البدء بعملية البناء، ثم الدفعة الثالثة والأخيرة عند الانتهاء من عملية البناء.

٧-٢-٢ عملية إعادة الإعمار

بعد موافقة الجهة المانحة على الخطة الهندسية المتجانسة والمنظمة التي وضعها المكتب الفني للتنظيم والإشراف على إعادة إعمار وسط بنت جبيل. ومن أهم ملامح هذه الخطة:

أ – تقسيم البلدة إلى أقسام عدة (حوالي ٢٠ قسماً) مستقلة، يجري تلزيم كل منه على حدة، بإشراف المكتب الفني، وتكليف مهندسٍ مشرفٍ عامٍ على عملية البناء بأكملها، لإنجاز البناء وفق الخطة الموافقة عليها من الحكومة القطرية.

وقد قسمت الأبنية وفقاً للخطة النهائية إلى ثلاثة أقسام:

– قسم مهدم كلياً، ستمّ إعادة بنائه وفق الضوابط العامة المحددة، والتشجيع على إعادة البناء الحجري، وإعادة بناء مائة منزل على الطابع القديم، يلتزمها متخصصون، يشرف عليهم المكتب الفني بعد تلزيمهم، بما يحفظ أصالتها وبنيتها العمرانية القديمة. ويحفظ ذاكرة المدينة.

– القسم الثاني هو المباني الحجرية، التي تحتاج إلى ترميم

– أما القسم الثالث فهو المباني الإسمنتية التي تحتاج إلى ترميم، مع ضرورة إزالة التشوهات التي نجمت عن البناء العشوائي أثناء سنوات الاحتلال وغياب الدولة والفوضى.

ونظراً إلى تباين المساحات العقارية بين صغيرة ومتوسطة وكبيرة فقد جرى تقسيم عقارات وسط المدينة إلى أقسام عدة تبعاً لمساحة كل عقار، ووضعت ضوابط عمل

على تطبيقها في كل قسم بما يحافظ على ملكيات جميع الأهالي وحقوقهم^(١).

ب – وضع ضوابط عامة لإعادة البناء^(٢) وحوافز للمحافظة على التراث القديم والنسيج الاجتماعي.

ج – شراء المساحات الفارغة في الوسط القديم لتحويلها إلى حدائق عامة^(٣) حيث قرّر أكثر من ١٧٠ شخصاً من أصحاب العقارات تركها، والبناء خارجه، لأنّ العقارات في المدينة القديمة صغيرة لا تتجاوز مساحتها الـ ٧٠٠ متر مربع، بينما العقارات الجديدة المنوي البناء عليها في المدينة «الجديدة» أكثر اتساعاً.

د – استعادة الطابع التراثي لوسط المدينة القديمة، قدر الإمكان، من خلال تأهيل ورصف ٢٠ ألف متر مربع من مساحة طرقاته الفرعية الضيقة داخل الأحياء التي يصل عددها إلى سبعة هي: حي الجامع، حي الحسينية، حي الصغيرة، حي البركة، حي الساحة، حي الجماعة، حي الحجارة، بنسبة حوالي ١٥٪ من إجمالي

(١) راجع: عدنان بيضون، «قطر توافق على خطة هندسية لإعادة إعمار وسط بنت جبيل المدمر»، ٢٣ أيلول ٢٠٠٧، نقلاً عن sadaalwatan.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦.

(٢) أما رخص البناء فقد أعطيت استناداً إلى قرار مجلس الوزراء القاضي بإعادة البناء كما كان عليه، لكن ضمن التراجمات القانونية. على أن يتم توسيع الشوارع في الأماكن التي تكون بحاجة ماسة إلى ذلك، لأن الطرقات بين المنازل ضيقة، كما هو الحال في المدينة القديمة. راجع: عدنان بيضون، «قطر توافق على خطة هندسية لإعادة إعمار وسط بنت جبيل المدمر»، ٢٣ أيلول ٢٠٠٧، نقلاً عن sadaalwatan.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦.

(٣) داني الأمين، «قطر تصادق على إعادة بناء وسط بنت جبيل»، جريدة الأخبار، عدد (٣٢٨)، ١٤ أيلول ٢٠٠٧، صفحة محليات.

مساحة البلدة، بأحجار صغيرة، يسهل معها صيانة الطرقات والبنى التحتية، وتراعي في الوقت عينه تراث المدينة وجمالها (صورة رقم ١٠). هذه الطرقات رصفت قبل الحرب العالمية الأولى^(١). أما الطرقات الرئيسية، فقد تم تعبيدها وتوسعتها لتحمل الأحمال والآليات الثقيلة.



صورة رقم (١٠): مدينة بنت جبيل من أوائل المدن التي بلّطت شوارعها في مطلع الثلاثينيات. ومحاولة استعادة طابعها التراثي الذي دمرته إسرائيل في حرب تموز من العام ٢٠٠٦م (أ). المصدر: (راجع: د. علي بزي، مرجع مذكور، ص ١٢٦).

«بنت جبيل تستعيد ذاكرتها: ٢٠ ألف متر مربع من المساحة المرصوفة داخل أحياء وأزقة الوسط القديم»، ١٨ نيسان ٢٠١٢م، نقلاً عن meamar.com.lb بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦.

٢٨٦ محلاً تجارياً للتعويض عن الخسائر التي وقع فيها تجّار المدينة، والسماح لهم بمتابعة أعمالهم وحياتهم اليومية، حينما يتمّ الانتهاء من إعمار السوق القديم في الوسط^(٢).

و - وضع مخطط جديد يلحظ النهضة العمرانية وتغيير استعمالات الأراضي، لكي تقتصد المدينة القديمة في كمية المساحات، عمد أصحاب المشاريع إلى البناء ذي الطراز العمودي غير المألوف كثيراً في فترة ما قبل الحرب، أي بمعدل ثلاث طوابق وما فوق، وخاصة في وسط المدينة، أو سوق الخميس الذائع الصيت، لكن تجنباً لتشويه طابع المدينة، ومنعاً للاكتظاظ فوق رقعة جغرافية محدودة، سارعت الجهات المختصة في البلدية، والتنظيم المدني إلى الحد من هذا التوجه، ما دفع ببعض أصحاب المنازل إلى الانتقال من المدينة والبناء خارجها، فانتشرت

هـ - إنشاء سوق جديدة مؤقتة، تضم

(١) على غرار ما كانت عليه الأحياء منذ نحو مئة سنة. وكانت بنت جبيل من أوائل المدن التي تمّ تبليط شوارعها بالحجر الصخري في مطلع الثلاثينيات. وأعيد نزع بعضه بعد دخول الإسمنت والإسفلت، وما بقي منه خرّبه العدو الإسرائيلي في حرب تموز ٢٠٠٦م. راجع: داني الأمين، «البلاط الحجري يعود إلى أزقة بنت جبيل»، جريدة الأخبار، العدد (١٤٩٢)، ٢٠ آب ٢٠١١م، صفحة مجتمع.

(٢) أدى الاجتياح الإسرائيلي الأول للجنوب اللبناني أو ما عرف بـ«عملية الليطاني» في آذار ١٩٧٨م، إلى نهب سوق بنت جبيل وإحراقه من قبل الصهاينة الغاصبين. وفي عدوان تموز ٢٠٠٦ حيث الانتقام الأعنف من المدينة نظراً لرمزياتها، دمرت إسرائيل حوالي ٩٠٪ من مبانيها ومحالها التجارية. وبعد انتهاء الحرب تم رفع انقاضها وانطلقت جدياً ورشة إعادة إعمار السوق. راجع: حسن بيضون، «إعادة الإعمار قاربت على الانتهاء»، ٠٧ شباط ٢٠٠٩م، نقلاً عن www.alahednews.com بتاريخ ٢٠ تموز ٢٠١٦م.

بتاريخ ٢٢ تموز ٢٠١٦. داني الأمين، «بوابة بنت جبيل تفتح اليوم»، جريدة الأخبار، العدد (١١٨١)، ٣١ تموز ٢٠١٠، صفحة أخبار وتحقيقات).

٢-٨ نماذج تطبيق مشاريع إعادة الإعمار

بعد أن تم اختيار الأسلوب والطريقة ومصادر التمويل والتخطيط والتصاميم اللازمة لإدارة عملية إعادة الإعمار، جاءت الخطوات الآتية وهي: عمليات التطبيق والتنفيذ، واختيار النموذج الأفضل بناء على دراسة مجموعة من العوامل (حجم الدمار والأضرار، طريقة وتقنيات البناء، إضافة إلى قدرة المجتمع الاقتصادية، التقنية، الاجتماعية ومقدار الوقت)، والجهد الذي تحتاجه عملية إعادة الإعمار، ومن أهم النماذج في عمليات إعادة الإعمار:

أ - نموذج البناء الذاتي

- ضمن ضوابط عامة وحوافز للمحافظة على التراث والنسيج الاجتماعي.
- منح رخص البناء، إستناداً إلى قرار مجلس الوزراء القاضي بإعادة البناء كما كان عليه، لكن ضمن التراخيص القانونية.

- تعيين فريق عمل لمراقبة تنفيذ عملية البناء.

- زيادة المساحة المخصصة للبناء في كل عقار من ٦٠٪ إلى ٧٠٪، إذا قرر

المنازل على التلال، وفرض ذلك تنظيماً مدنياً غير ذاك الذي كان موضوعاً في السابق. أضف إلى أن هناك أراضٍ كانت مصنفة زراعية، وأراضٍ للبناء المستقبلي، وقد طلبت البلدية فتح هذه الأراضي للبناء، والبعض الآخر عمد إلى التوسع باتجاه القرى المجاورة^(١).

ز - لقد راعى المكتب الفني في تنفيذه للخطة الهندسية المعدة، السرعة القصوى في انجاز عملية إعادة الإعمار، كما اعتمد مبدأ التكامل مع البلديات والجهات الرسمية، والمحافظة على المصالح التجارية لأصحاب المؤسسات. كما قام المكتب بالإشراف بشكل مباشر على عملية إعادة البناء، والتصديق على رخص البناء بموجب الخطة الهندسية.



صورة رقم (١١): مقترح لإعادة إعمار سوق بنت جبيل التاريخي (أ)، وخلال عملية إعادة البناء (ب)، وبعد الانتهاء من إعادة إعماره (ج). المصدر:

(«بنت جبيل هزمت إسرائيل فبنتها قطر.. والبناء يتقدم»، ١٨ نيسان ٢٠٠٨، نقلاً عن bintjbeil.org)

(١) داني الأمين، «بطالة خلف قصور فارغة»، مرجع مذكور.

صاحب العقار البناء بطرق البناء والمواد التقليدية (الحجر الصخري) بدلاً من الباطون المسلّح.

علماً أنّ عملية دفع التعويضات من قبل الدولة المانحة كانت مشروطة بعملية إعادة البناء، ما شجع الأهالي على إعادة بناء منازلهم بعد الحرب مباشرة، وبالتالي زيادة ورش البناء.

ب - نموذج المقاولين

تلزيم السوق التاريخي في المدينة لشركة «Contracting Trading Incorporation»، التي تعهدت تسليمها بعد عام ونصف من البدء بعملية إعادة الإعمار.

٢-٢-٩ الاتجاهات المعماريّة التي اعتمدت في إعادة الإعمار

طُرحت أفكار عديدة لإعادة إعمار المدينة القديمة في بنت جبيل المدمّرة تدميراً كلياً. يمكن اختصار تلك الأفكار بالتوجّهين الآتيين:

أ - اعتبار الحرب والدمار فرصة للتنظيم، واعتبار المكان المدمّر وكأنّه عقار فارغ إلاّ من بعض الأبنية ذات الطابع التي يعاد ترميمها، وتخطيط المنطقة من جديد بشوارع عريضة، وأبنية حديثة بمعزل عن العوامل المؤثّرة في عمليّة إعادة البناء، وتلزيم عمليّة إعادة الإعمار إلى شركة

هندسية من دون أن يكون هنالك رأي للأهالي.

ب - التعامل مع الموقع باعتباره يحوي عدداً من الأبنية ذات القيمة التاريخيّة، ودراسة هذه الأبنية بمعزل عن الناحية الاجتماعية والإنسانية، وتحويلها إلى موقع متحف يحوي مجموعة من الأبنية التراثيّة القابلة للترميم وإعادة الاعتبار لها.

فما هي الطريقة التي تم اعتمادها لإعادة إعمار وسط المدينة القديم المهّدّم بصورة شبه كلية، والذي تعكس حجارة أبنيتها تلاوين المدينة القديمة، ونسيجها الاجتماعي المتميز بالتشابك الذي يعبر عنه تلاصق الأبنية؟ هنا كان السؤال الملحّ: كيف ستتم عملية إعادة البناء والترميم، مع المحافظة على شكل المدينة وهويّتها؟

- في المركز التاريخي للمدينة: لا بدّ من الأخذ بالحسبان العوامل المؤثّرة في عمليّة إعادة الإعمار في المدينة القديمة لبنت جبيل والتي من أهمّها النسيج القديم. تُختَصّر هذه العوامل بأربعة هي: عامل المقاومة «الأمني والعسكري»، عامل التراث والتاريخ، العامل الحرفي والصناعي، وعامل الملكيّات العقاريّة.

لقد اعتمد اتّجاه إعادة الإحياء في المدينة القديمة ذات القيمة الاعتبارية

والرمزية الخاصة، فقد تمت عملية إعادة إعمار ما تهدم مع المحافظة على النسيج الاجتماعي للمدينة، وضمن هذا النسيج هنالك أبنية، لها طابع خاص ورمزي وتاريخي، تمت المحافظة عليها، قدر الإمكان (إعادة الإحياء الشكلي للعمارة التاريخية)، وحفظ ذاكرة المكان وهويته.

في التجمعات السكانية الحديثة نسبياً، لقد اعتمد اتجاه التحديث والتجديد.

تمّ ترميم المباني الإسمنتية، بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات لإزالة التشوهات التي أحدثها البناء العشوائي خلال فترة الاحتلال.



صورة رقم (١٢): مدينة بنت جبيل، لبست الأبنية حلة جديدة بطابع تراثي.

٢-١٠ أهم الفاعلين في عمليات إعادة إعمار المدينة

أهم الجهات التي وقع على عاتقها القيام بأعباء عمليات التخطيط ووضع

الاستراتيجيات لإعادة الإعمار، ومن ثم التنفيذ والقيام بأعباء برنامج إعادة الإعمار، والتنسيق الكامل بين مختلف الجهات لضمان نجاح عملية الإعمار. وقد استغرقت عملية إعادة الحياة إلى بنت جبيل بعد حرب تموز ٢٠٠٦ م حوالي أربع سنوات^(١). وفي ما يأتي عرض لأهم الفاعلين في عملية إعادة إعمار بنت جبيل:

أ - السلطات المحلية مجلس البلدي:

أشرف المجلس البلدي على وضع التصاميم اللازمة لبناء الوسط القديم للمدينة على أسس منظّمة. كما عملت البلدية بجهد على إحياء السوق التجاري، واستطاعت بمساعدة المكتب الفني لإعادة إعمار وسط بنت جبيل، إنقاذ عشرات الآلاف من الأحجار القديمة من المنازل المهذّمة، جُمِعت في مكان واحد، ومن ثمّ ورّعت على الناس الذين يريدون استخدام الحجر في بناء منازلهم. كما استلم المكتب الفني مائة منزل لإعادة بنائها على الطّابع القديم بإشراف عدد من المهندسين المختصّين في هذا المجال، اهتماماً بالمحافظة على البيوت التاريخية، والإشراف على ترميمها وتطويرها، والاهتمام بشكلها الداخلي والخارجي مع

(١) راجع: «بنت جبيل... عاصمة للمقاومة والتحرير وإسم عريق يرتبط بالحاضر المجيد»، ٠٣ أيلول ٢٠١٤، نقلاً عن baladiyatnews.com بتاريخ ٢٥ تموز ٢٠١٦ م.

تنظيم الشوارع داخل الوسط، والعمل على رصفها، وتنظيم الإنارة، ودراسة البنية التحتية من كهرباء وماء واتصالات، بالإضافة إلى تأهيل ورصف خمس ساحات رئيسية، داخل الوسط، وإعطائها الشكل التراثي كما كانت قديماً، إضافة إلى ورشة بناء دور العبادة التي طاولتها تلك الحرب.

ب - مجلس الجنوب: عمل على مسح الأضرار التي لحقت بالمدينة لتحديد التعويضات.

ج - المكتب الفني لإعادة إعمار مدينة بنت جليل وقلبها التاريخي. مهمته وضع المخططات والتصاميم اللازمة لعملية إعادة الإعمار، ومراقبة تنفيذ عملية الإعمار وفق القواعد والضوابط العامة.

د - شركة معمار للهندسة والإنماء (الشركة المتعهدة تنفيذ الأشغال).

هـ - الدولة: دور الوسيط ما بين الجهات المانحة من جهة والفئات المتضررة والقطاعات المطلوب إعادة بنائها من جهة أخرى.

و - المؤسسات الحكومية: أظهرت نقصاً في الجهوزية، وضعفاً في المبادرة، وتباطؤاً ينم عن الافتقار للإرادة السياسية والحماسة الإدارية، حتى في ما يتعلق

بالإجراءات والبرامج التي تستلزم تشريعات، وقرارات تنظيمية أكثر مما تتطلب موازنات واعتمادات مالية.

ز - الجهات الخارجية المانحة: تمثلت بالحكومة القطرية، وتراوح دورها بين تقديم المساعدات المالية ودراسة الخطة المقترحة لإعادة إعمار المدينة ووسطها التاريخي، للموافقة عليها ودعمها مالياً.

ح - مؤسسات المجتمع المدني والأهلي وأفراده^(١).

القسم الثالث: الاستراتيجية المقترحة لإعادة إعمار مدن ما بعد الحروب

لا بد أن تركز أية استراتيجية لإعادة الإعمار بعد الحروب على أربعة مبادئ، تعتبر بمثابة محددات لها، وتعمل على توجيهها، وهي:

١ - وقائية: لا تكتفي بوضع الخطط لمعالجة آثار الحرب فقط، بل تقوم بوضع الخطط لتجنبها قدر الإمكان، من خلال اتخاذ إجراءات وقائية مسبقة.

٢ - شاملة: تعالج جميع الآثار الناتجة عن الحرب، على مختلف المستويات، ومختلف العناصر بالتوازي، سواء كانت اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، سياسية، عمرانية...

(١) بعد انتهاء الحرب، تهافت المغتربون والنازحون أيضاً على بناء منازل جديدة لهم في مدينة بنت جليل، على الرغم من عدم إقامتهم فيها بشكل دائم، إضافة إلى بناء المجمعات التجارية.

٣ - تندمج ضمن خطط التطوير:

فتكون هذه الاستراتيجية جزءاً من خطط التنمية والتطوير الحضري، حيث إنّ الحرب هي شيء محتمل الحدوث في أيّ مكان، لذلك لا بد أن يتم وضعها في الاعتبار عند إعداد أيّ خطط للتنمية في المستقبل.

٤ - تحقق الاستدامة: تحقق هذه

الاستراتيجية، إعادة إعمار مستدام، وتكون قادرة على إعادة إدارة عجلة الحياة واستمراريتها بذاتها، وتعمل على تقوية المجتمعات في مواجهة الحروب.

٥ - مرنة: قابلة للتعديل والتكيف

السريع مع المستجدات والظروف والحالات الطارئة والمتغيرات على أرض الواقع^(١).

ومن أهم أهداف هذه الاستراتيجية:

١ - العمل على الاستعداد لمواجهة

الحروب الإسرائيلية المحتملة من خلال:

- تحديد المناطق والمباني التاريخية

والمعالم الرمزية وتوثيقها وتصنيفها حسب منهجية علمية سليمة بالاستعانة بخبراء في هذا المجال، بهدف حمايتها، والقدرة على إعادة إعمارها بعد الحرب في حال تعرضها للتدمير الكلي أو الجزئي كما لاحظنا في حالة مدينة بنت جبيل.

- ضمان الحفاظ على الهوية والتاريخ والتراث الوطني وحفظ ذاكرة الإنسان والمكان، عبر نشر الوعي الشعبي للاهتمام بهذا التاريخ والتراث المعماري، وتثقيفهم ليدركوا قيمة البيوت التاريخية في مدنها وأهميتها.

٢ - تحقيق عمليات إعادة إعمار مستدامة وشاملة لكل جوانب البيئة الحضرية في الجنوب اللبناني.

٣ - إشراك كل قطاعات المجتمع بشكل فاعل في كل مراحل الحرب (قبل وقوعها، عند وقوعها وفي عملية إعادة الإعمار).

٤ - العمل على تقويم مستمر لعمليات إعادة الإعمار وما بعدها، وأخذ الدروس والعبر وتوثيقها من أجل المستقبل.

٥ - استخدام طرق البناء والمواد التقليدية أو مواد شبيهة لحفظ هوية المكان، مع الأخذ بالحسبان توفير سبل الراحة والحاجات الأساسية للسكان لمواكبة متطلبات العصر الحديث.

كما يمكن تقسيم هذه الاستراتيجية إلى أربع مراحل زمنية^(٢): مرحلة ما قبل الكارثة، مرحلة الإغاثة الفورية، ومرحلة إعادة التأهيل ومن ثم مرحلة إعادة البناء.

(١) معاذ محمد بشير مدحت الطاهر، «استراتيجيات إعادة الاعمار بعد الحروب والكوارث في فلسطين» رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في هندسة العمارة، تحت إشراف د. حسن القاضي، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠١١، ص ١٨-١٩.

(٢) www.unhabitat.org

ويتم النظر إلى هذه المراحل بشكل متكامل ومتتالٍ بعضها مع البعض (إعداد، إغاثة، تخفيف، تأهيل، إعادة إعمار).



صورة رقم (١٣): مراحل إدارة الحرب وإعادة الإعمار.

بحيث تكون هذه السياسات شاملة لكل نواحي الحياة وتهتمّ بإعادة بناء ما تهدّم خلال الحرب ضمن المحتويات الأخرى (الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية)، وهذه السياسات تختلف بطبيعتها عن تلك التي توضع في الأوضاع والظروف العادية، وذلك لأنها تُعنى بتلبية الاحتياجات في ظروف غير طبيعية وغير مستقرة.

القسم الرابع: النتائج والتوصيات

١-٤ النتائج

اعتماداً على التحليل والدراسة في الأقسام السابقة، يمكن الخروج بمجموعة من النتائج، أهمها:

١. لا يزال الجنوب اللبناني عرضة للتهديدات الإسرائيلية المتكررة بشن حرب

مدمرة عليه، تؤدي إلى نتائج كارثية على البنية العمرانية والمعمارية فضلاً عن التداعيات الأخرى.

٢. تعتمد الاحتلال تدمير تاريخ الجنوب اللبناني وهويته بشكل ممنهج.

٣. غياب دور الدولة اللبنانية في إدارة عملية إعادة الاعمار نظراً لعدم وجود استراتيجيات وطنية، ومخططات توجيهية تحدد الشكل أو الاتجاه الذي ستأخذه عملية إعادة الإعمار، ما أدى إلى جرف الكثير من البيوت التاريخية التي يعود تاريخ بعضها إلى القرن الثامن عشر في المدينة القديمة.

٤. غياب الدراسات التاريخية والتوثيقية للمدن التاريخية للجنوب اللبناني، ما جعل عملية إعادة الإعمار أكثر صعوبة وتعقيداً.

٥. غياب الوعي والثقافة عند الناس، وعدم إدراكهم بأهمية منازلهم التاريخية وقيمتها، تمثل بجرف البيوت القديمة التاريخية ضمن عملية إزالة ركام البيوت المدمرة.

٦. عدم وجود خطة استراتيجية، أدى إلى عدم وجود تنظيم أو تنسيق بين الجهات الفاعلة والعاملة في مجال إعادة الأعمار.

٧. تشابه حالة مدينة بنت جبيل مع حالات كثيرة من دول العالم ما يؤدي إلى إعطاء فكرة وتصور جيد عن الحرب

وتأثيرها وعملية إدارتها وإعادة الإعمار في ما بعدها.

٢-٤ التوصيات

- ضرورة اعتماد الاستراتيجية المقترحة لإدارة إعادة الإعمار، على المستوى الوطني، والعمل على المتابعة الحثيثة والتأكد من تطبيقها وتنفيذها بالشكل المطلوب.

- إنشاء مركز أو هيئة وطنية فاعلة من أجل الاهتمام بموضوع التنسيق والدراسة والإعداد.

- إعطاء دور فاعل قوي لمؤسسات المجتمع المدني، ودعمها وتقويتها في فترة قبل الحرب، من خلال التدريب وإعطائها دوراً في أوقات ما بعد الحرب.

- توجيه عمليات إعادة الإعمار نحو الاستدامة الحضرية. والعمل على إعداد مبادئ لإعادة الإعمار تكون بمثابة مبادئ توجيهية في إطارها العام من أجل تحقيق عمليات إعادة إعمار شاملة تهتم بجميع الجوانب بشكل شمولي.

- العمل على أرشفة الواقع والتوثيق المعماري والعمراني للمدن ومكوناتها في حالة الحرب والسلم، وخاصة في المدن التاريخية.

- دراسة تاريخ المنشأ وتحديد إمكانية إصلاحه من استحالته وكذلك درجة خطورته على الوسط المحيط به ثم

الخطوات الاحترازية الواجب اتباعها، وبناءً على نتائج هذا التصنيف نستطيع أن نضع قاعدة معلومات أساسية لكل مدينة أو منشأ نختار بناءً عليها بدائل وطرق إعادة الإعمار والتي تحدد التقنيات المستخدمة، وبالتالي التعرف على جدوى إعادة بنائه مادياً ومعنوياً.

- العمل على توثيق التجارب العالمية المشابهة لمنطقة الدراسة، وتبادل الخبرات في عملية إعادة الإعمار.

- ضرورة تفعيل دور الدولة في إصدار قرارات تلزم الجميع بالمحافظة على وسط المدن التاريخية التي تتمتع بكل المقومات المعمارية والتاريخية.

- توعية المجتمع المدني من أجل معرفة طبيعة التراث التاريخي وأهميته في الجنوب اللبناني، والعمل على المحافظة عليه.

- ضرورة تقويم نتائج عملية إعادة الإعمار، لتحديد مكامن القوة والفرص، ومكامن الضعف والخلل، من أجل تعزيز الإيجابيات وتجنب السلبيات في عمليات إعادة الإعمار الجديدة وتجاوزها، والعمل على تطويرها وتحسينها.

- إشراك الجامعات وطلاب الدراسات العليا في أعمال إعادة الإعمار من خلال البحث العلمي أو عن طريق تطبيق ورش عمل لتبادل الأفكار وتوظيفها في عمليات إعادة الإعمار.

- دعم الاقتصاد المحلي في مرحلة الطوارئ من خلال المشاريع الصغيرة، وتطويرها لاستعادة النشاط الاقتصادي بأسرع وقت ممكن في المراحل التي تليها.

- ينبغي أن تبدأ عملية الإنعاش الاقتصادي على المدى البعيد في المرحلة الانتقالية من مراحل إعادة الإعمار، وذلك بغية عودة السكان المتضررين إلى الحياة الطبيعية، وهذه الطريقة تسهم بشكل كبير في التمهيد لمرحلة التنمية في ما بعد.

وقد تحتاج هذه التوصيات المقترحة إلى خطط تفصيلية تشمل توفير الموارد المالية والبشرية للتخطيط والتطوير. والتعامل مع ملكية المباني والأراضي واستغلالها بشكل متنوع على قاعدة «الممكن المتوافر».

الخاتمة

نخلص إلى أنَّ الحروب الإسرائيلية على مدن الجنوب اللبناني، وبلداته أدت إلى تدمير الموروث المعماري والعمراني الموجود من بنية أساسية، شبكات طرق، مبانٍ عامة وخاصة وتراثية وذات قيمة، ما نتج عنه إضرار بتراث جبل عامل وهويته، وتدمير ذاكرة المكان والجماعة أو «بادة المكان».

كما أدت إلى تعطل التطور العمراني، حيث طاولت الخسائر جميع المستويات، الأمر الذي أدى إلى خلل في ديناميكية

العمران، غير أنَّ عملية إعادة الإعمار سارت بشكل سريع وغير متسرع على الرغم مما اعترض هذه العملية من معوقات، ومرد ذلك همّة الشعب وعزيمته، وإصراره على إعادة بيوته في مدينتهم.

المراجع والمصادر

المراجع العربية:

الكتب:

- الإعتداءات الإسرائيلية وآثارها على المجتمع الجنوبي. رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع، ٦٧٢، ٢٠١٣ ص.
- التنمية في مجتمعات غير مستقرة: الاحتلال، الحرب، وتعثر بناء الدولة، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦٦.
- الحرب الإسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والإسرائيلية وتأثيراتها العربية والإقليمية والدولية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤٥٦.
- المناطق الجنوبية المحرّرة والمتاخمة: تحديات النهوض وخيارات التنمية. المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، ط١، أيار ٢٠٠١م، ص١٠٨.
- بدوي، حسن: بنت جبيل التراث المعماري. منشورات الجامعة اللبنانية، ط١، ٢٠١٢.
- بزي، علي: بنت جبيل الذاكرة والحرب. دار الكتب للطباعة، ط١، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٦٢.

الرسائل الجامعية:

- الحنبلي، مسرة شاهر بكر: «التخطيط واستراتيجيات إعادة إعمار وتطوير الوسط التاريخي لمدينة نابلس»، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية في غزة، فلسطين، ٢٠٠٥.
- الطاهر، معاذ محمد بشير مدحت: «إستراتيجيات إعادة الاعمار بعد الحروب والكوارث في فلسطين».

المراجع الأجنبية:

- AL-ALOUL Marah, "The destruction of cultural heritages by warfare and reconstruction strategies: lessons learned from case studies of rebuilt cities", Master Thesis, University of Florida, 2007.
- BARADAN Berna, "analysis of the post disaster reconstruction process following Turkish earthquakes", Izmir institute of technology, Turkey, 2004.
- BARAKAT Sultan, "Housing reconstruction after conflict and disaster", published by the Humanitarian Practice Network at ODI, UK, 2003.
- BARAKAT Sultan, "Reviving War Damaged Settlements: Towards an international chapter for reconstruction after war", Dissertation for the degree of Doctor of Philosophy in Architecturê Institute of Advanced Architectural Studies, University of York, UK, May 1993, 511 p.
- BEVAN R., *The destruction of memory: Architecture at war*, London, 2007.
- CALAME Jon, "Post-war reconstruction: concerns, models and approaches", Center for Macro Projects and Diplomacy Working Paper Series, v6, New york, 2005, 59 p.
- MCDONALD R., *Introduction to Natural and Man-Made Disasters and Their Effects on Building*, Architectural press, UK, V1, 2003.
- NARAGHI Anderlini Sanam, El-BUSH-RA Judy, "post conflict reconstruction", 2004.
- TUNG A.M., *Preserving the world's great cities: The destruction and renewal of the historic metropolis*, New York, Three Rivers Press, 2001.

رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في هندسة العمارة، تحت إشراف د. حسن القاضي، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، ٢٠١١، ص ١٥٠.

- الكردي الباروي، آلاء مهند: «استراتيجية تأهيل المناطق المتضررة جزئياً وفق مفهوم إعادة الإعمار»، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في الهندسة المعمارية، تحت إشراف د. م. عماد المصري، قسم التخطيط والبيئة، كلية الهندسة المعمارية، جامعة دمشق، دمشق، ٢٠١٥، ص ١٥٣.
- كوسي، م. كريستين زهير: «إعادة إعمار المباني التاريخية في مدينة حلب القديمة المباني العامة أنموذجاً»، رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في الهندسة المعمارية، تحت إشراف أ. د. عبد القادر حريري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة حلب، تأهيل المدن الإسلامية والتاريخية (برنامج التيمبوس)، ٢٠١٥ م.

الدوريات والتقارير:

- «النتائج البعيدة الأمد لحرب تموز: ٢٠٠٦: قراءات راهنة في بيئة عربية جديدة»، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، سلسلة غير دورية تعنى بالشؤون الاقتصادية والقضايا السياسية والإنمائية، العدد (١٨)، ط ١، بيروت، تشرين الثاني ٢٠١١ م، ص ٦٤.
- برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية: «التقييم وإعادة الإعمار في أعقاب النزاعات والكوارث الطبيعية والاصطناعية»، الأمم المتحدة، ٢٠٠٥.

دور لبنان في الحضارة العربية

دكتور محمد عبد القادر عطوات

الإغريق من تسجيل كنوزهم الأدبية والفلسفية وتوريثها لغيرهم، ثم سجّل بها الرّومان قوانينهم القضائية التي بقيت إرثاً للعالم، وسجّل بها العرب قرآنهم المجيد ثم الأحاديث النبوية، فضلاً عن أدبهم وتاريخهم^(١).

ويتبيّن لنا أن الفينيقيين لم يكتفوا بتقديم الحروف الأبجدية بل أضافوا إليها أفضالاً جديدة، كانت القاعدة التي انطلق منها الإغريق في طريقهم الصاعدة إلى المجد الأثيل، وأضافوا إليها الآداب والفلسفة والعلوم والفنون وأسباب العمران والازدهار، وفي عام ٥٤٠ ق.م. وُلد في لبنان الفيلسوف والعالم الرياضي الشهير فيثاغورس، من أبوين فينيين من سكان جزيرة ساموس (شمس) إحدى الجزر الأيونية^(٢).

ولو لم يقدّم اللبنانيون الأقدمون للتراث

إن أول شعب استوطن لبنان من الشعوب التي عرفها التاريخ كان الشعب الكنعاني، الذي تمدّد على سواحل سوريا ولبنان وفلسطين، وعُرف الذين سكنوا لبنان بالفينقيين، واشتهروا بتجارة الحرير فيما سكن الأموريون المناطق الداخلية الشرقية.

والحضارة الكنعانية قامت وارتكزت عليها الحضارة الآرامية، وكلا الشعبين ساميان، نزحاً من شبه الجزيرة العربية، وسمّى الإغريق هؤلاء الكنعانيين الذين كانوا يتاجرون معهم فينيين، وهم الذين عرفوا الغرب على تلك الرّموز التي تُدعى حروف الهجاء، أي الأبجدية، والتي تُعتبر من أهم الاختراعات التي حققها الإنسان، هذا إن لم تكن أهمها جميعاً، وفي الوقت ذاته اتجهت هذه الحروف بطريقها نحو الشرق، وبواسطة هذه الحروف تمكّن

(١) مختصر تاريخ لبنان: تأليف د. فيليب خليل حّي، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤م، ص ١٢، ١٣.
(٢) التراث اللبناني العظيم: إميل خوري حرب، منشورات مؤسسة التراث اللبناني، بيروت ١٩٦٦م، ص ٤٣، ٤٥.

الإنساني غير اختراع الأبجدية لكان ذلك كافياً لأن يضعهم في مرتبة مرموقة بين أهم الشعوب التي أفادت الإنسانية، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، فقد أنشأوا على جوانب البحر المتوسط مستعمرات كانت بمثابة مستودعات لتبادل البضائع بين الشرق والغرب، ومراكز إشعاع للثقافة السامية، وكانت أهم تلك المستعمرات مدينة قرطاجة، ربيبة صور، ومنافسة روما في السيطرة على أواسط البحر المتوسط، ومن هذه المستعمرات شق الملاحون والتجار الفينيقيون طريقهم إلى الغرب عبر جبل طارق إلى «بحر الظلمات»، فكان اكتشافهم للمحيط الأطلنطي يُعدُّ في رأس قائمة إسهاماتهم الدائمة.

وهكذا نجد أن لبنان يتوسط الطريق الدولي العامّة التي كانت بتفرعاتها - تربط بين القارات التاريخية الثلاث، وكان سكانه الأقدمون يتوسطون منشئي الحضارة الأوّلين: البابليين والمصريين، وكانت بضائع العالم القديم من ماديّة وروحيّة تُحمل إليه ثم تُنقل منه.

وتذكر بعض الكتب ومنها التوراة أن «صيدون» كانت أول حاضرة فينيقيّة، وأن

التعرّف التاريخي على الحضارة الفينيقيّة سطع في الألف الثالث ق.م.^(١)

ولما كان معظم اللبنانيين جبليين أصليين فقد قاوموا على مرّ الأجيال الغزو والكبت، وتمتّعوا على الدوام تقريباً بقسطٍ من الحكم الذاتي.

تمّ الفتح العربي لبلاد الشام، ومنها لبنان في القرن السابع الميلادي، وبذلك دخل لبنان في فلك الإسلام السياسي والاجتماعي، وأصبح حكّامه خلفاء أو قادة أو أمراء عرب منذ الفتح العربي، وكل ماله من تراث علمي أو أدبي أو فوكلوري هو عربيّ اللغة والطرز، وهو جزء من المنطقة العربيّة، وقد عاش تاريخها المشترك^(٢).

نجح اللبنانيون في صناعة السفن قبل الفتح العربي، ثم برعوا في هذه الصناعة في عهد الدولتين الأمويّة والعباسيّة، وساهموا في فتح البحار في الشرق، وساعدهم ذلك بالاتجاه إلى مختلف بلدان العالم، ومنها المغرب، واقتبست عنهم بعض الشّعوب فنّ بناء السفن، وبرزوا في حقل التجارة، ولا يخفى على القارئ أن السفينة صلة الشّعوب في التعامل بالتجارة، والتفاعل في الحضارة، وكان لهذا العمل أثرٌ في خدمة الإنسانية ورقّيها^(٣).

(١) فصول في تاريخ لبنان من الفينيقيين إلى الصليبيين: سجعان القرّي، بيروت، كانون الثاني، ٢٠٠٣م، ص ١٩.

(٢) دور العروبة في تراثنا اللبناني: د. زكي النقّاش، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م، ص ٨.

(٣) تاريخ لبنان الحضاري: يوسف السودا، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٠١.

واستعان معاوية باللبنانيين في بناء أسطوله البحري، مستفيدين جميعاً من خشب الأرز الصلب، حيث تكثر أشجاره في بعض جبال لبنان، ومما يجدر ذكره أنه بعد استقلال لبنان أصبحت صورة شجرة الأرز الجميلة تزيّن علم لبنان.

وفي العهد العباسي ظهر أثر محدود للعباسيين في لبنان، لا سيّما في بعلبك والسّواحل، وخصوصاً في بيروت وصيدا، وكانت صورة لبنان آنذاك بهيئة راقية بما بدا عليه من ازدهار زراعي وصناعي وعمراني، وتفاعلت بعض مدنه الكبيرة مثل بعلبك وطرابلس وبيروت مع الثقافة العباسية، ولكنها ربما أعطتها أكثر مما أخذت منها، إلا في ما كان من تأثير العباسيين في نشر الإسلام واللغة العربية، ورغد الثقافة العربية ولا سيّما في التأليف عدد من رجال لبنان المشهورين مثل: الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وثيوفيلس الرّهاوي، وقيس الماروني، وعبد المحسن الصوري، والمطران توما الكفرطابي، وأحمد بن مفلح الطرابلسي^(١).

أما الأسوار والأبراج والقلاع الساحلية

التي ذكر للعباسيين عملٌ فيها، فقد فعلوا فيها ترميماً أكثر ممّا فعلوه إنشاءً، وبقي للبنانيين من عهد الدولة العباسية مقام الإمام الأوزاعي، ومقامات أخرى مندثرة، وكانت حضارة لبنان التليدة، التي أسّسها الفينيقيون ورفدها المصريون والبابليون والأشوريون والفرس واليونان والرومان وغيرهم ماثلة للعيان، تنطق بما للبنان من فضل بجرفه وتراثه عموماً، على العالم أجمع^(٢).

لم يذكر التاريخ بالتفصيل مراحل حياة الشعراء العباسيين، ولكننا نعلم من شعر المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥م) مثلاً، أنه مرّ بلبنان، ومكث فيه وقتاً بطرابلس وبعلبك، وله قصيدة يمدح فيها أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وهو من أعيان لبنان.

وزار لبنان أبو العلاء المعري حوالى عام ١٠٠١م، ومكث في طرابلس مدّة ينتفع بما في مكتبتها التي كانت في حوزة آل عامر، ولولا شهرة هذه المكتبة وسعتها لما غادر رهين المحبسين قريته معرفة النعمان ليأتي إلى طرابلس ثم يعود إلى قريته.

وإذا حرصنا على ذكر مكانة لبنان

(١) مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية: وليم الخازن، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٥٥ و ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

الثقافيّة والحضاريّة آنذاك، وإذا أردنا ما كان من زيارة بعض الأدباء العباسيّين الكبار له، وانتفاعهم بما فيه من روافد معرفة وثقافة، وإعجابهم بطبيعته، فلا نريد أن نوهم القارئ بأنّه كان للبنان ذكر بارز في الآداب العباسيّة بما يوازي واقعه..

وما يجدر ذكره أنّه لو لم يكن لبنان منارة ثقافيّة لما اجتذب إليه الأدباء والشّعراء العباسيّين الكبار، ولا نعلم بالضبط إن كان لبنان بطبيعته الجميلة ومنزلته الحضاريّة مهوى أفئدة رجالات العرب القدامى كما أصبح في أيامنا هذه.

ولا شك أنّ هذه البلاد بما يكتنفها من تراث لبنانيّ أصيل كانت تُنبت بين الحين والآخر كاتباً، أو زجّالاً، أو مؤرخاً، أو ربما فيلسوفاً، ولكن التّاريخ أغفل ذكرهم لتفشّي الأميّة، ولقلّة الوسائل التّدوينيّة قبل صنع غوتنبرغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨م) للمطبوعة المعدنية المتحركة، وكان لبنان في طبيعة بلاد الشّرق التي دخلتها المطبعة، وبعدئذٍ بدأ فيها نشاط التّأليف والنّشر^(١).

ويحسن بنا الالتفات إلى الحركة الفكريّة في جبل عامل، وهي حركة أثبتت وجودها المبكّر في النّهضة العربيّة الحديثة، غير أن هذه الحركة لم تتخذ زخمها، ولم تبلغ نهضتها قبل القرن الرابع عشر، إذ انتشرت

المدارس، وتغلّغت الحياة الفكريّة والعلميّة في قرى الجبل والسّاحل، وما قبل ذلك يكتنفه كثيرٌ من الغموض والظنّ.

وفي أوائل القرن السّادس عشر الميلاديّ أخضع الأتراك العثمانيون الشّرق العربيّ لسلطانهم، لكنّهم تركوا للبنانيين حكمهم الذاتيّ، وبرز في هذا البلد حكام وطنيون أقوياء أبرزهم فخر الدّين المعني (توفي عام ١٦٣٥م)، وبشير الشّهابيّ (توفي عام ١٨٥٠م)، وبرع هؤلاء في جرأتهم حتى قارعوا الباب وحكموا البلاد مستقلّين استقلالاً تامّاً تقريباً، وبعد الحرب الطائفيّة المشؤومة عام ١٨٦٠م ضُمن حكم لبنان الذاتيّ دولياً.

ويجد الباحث في قائمة الفلاسفة الرّواقيين وأصحاب الفلسفة الأفلاطونيّة المستحدثة فلاسفة مبرزين من أصلٍ لبنانيّ.

وفي العصور الوسطى حذا تجار وصناعيون سوريون - لبنانيون حذو أسلافهم، فكوّنوا جاليات في المدن الإيطاليّة والفرنسيّة وغيرها من المدن الأوروبيّة، فصارت مراكز لتبادل بضائع آسيا وأوروبا.

ومما لا ريب فيه أنّ أساتذة في معهد الحقوق في بيروت قدّموا أثمن مساهمة في

(١) المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٣.

وضع قانون جوستنيان، وفي القرنين الماضيين ازداد عدد المهاجرين اللبنانيين إلى أوروبا وأميركا، وفي المهاجر الأميركيّة، فضلاً عن بلاد العرب، عرف الأدب العربي عصره الذهبيّ على يد كبار الأدباء العرب، من أبرزهم من لبنان جبران خليل جبران ومارون عبود وأمين الرّيحاني وغيرهم، حيث لمعوا في الكتابة بلغة الضاد وفي الإنكليزيّة، وظهر كتّاب كبار الشّان كذلك في الاسبانيّة والفرنسيّة والبرتغاليّة^(١).

أمّا الأدباء اللبنانيون الذين كتبوا باللغة العربيّة في العصر الحديث فكثيرون، وفي طليعتهم بطرس البستاني، ابراهيم اليازجي، وليّ الدين يكن، الشّيخ أحمد رضا، شكيب أرسلان، خليل مطران، محمود سليم الحوت، الأخطل الصغير (بشارة الخوري)، وغيرهم..

ومع تعلق اللبنانيين بالوطن الأمّ ووقوفهم دائماً موقف الدّفاع الحازم عن قضاياه، فإنّ المهاجرين منهم أدّوا واجبهم كاملاً تجاه البلدان التي احتضنتهم، حتى أصبح لهم مقام رفيع في حقول السياسة والاقتصاد والمال والعلم.

وأما الطبّ فهو من العلوم التي يقوم عليها المشاركة أكثر من غيرهم، أعني العرب، ويوفّقون فيها، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآن في أوروبا، ومنهم لبنانيون، ويشتهرون بالنّبوغ والحدّاقة.

ولمّا نشبت الحرب العالميّة واحتاجت الدّولة العثمانيّة إلى أطباء إلى جيشها، ساقّت إلى الجيش نحو مائتي طبيب من جبل لبنان وحده، وبقي عدد كبير منهم في بلدان مختلفة، وقد ازداد الآن عدد الأطباء اللبنانيين العاملين في بلدان العالم عمّا كان عليه في الماضي، وما يُقال في الطب يُقال في المجامع العلميّة، والصيدلة، والتّجارة، والصحافة، وكثرة المدارس والجامعات، وساهم اللبنانيون في تأليف المعاجم اللغوية والكتب على أنواعها.

وفي الفقه الإسلامي برز في بيروت الشّيخ محيي الدين اليافي، والشّيخ يوسف الأسير، والشّيخ ابراهيم الأحذب، وفي طرابلس برز الشّيخ حسين الجسر، والشّيخ محمود نشّابة وغيرهم^(٢).

وفي هذا قال الأمير شكيب أرسلان: «كلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي

(١) تاريخ لبنان الحضاري، يوسف السودا، ص ٢٤٣.

(٢) النهضة العربيّة في العصر الحديث: الأمير شكيب أرسلان، الدار التّقدمية، المختارة، الشوف، لبنان، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٥٥ و ٥٧.

إلاّ ساعة وتضمحل»^(١)، وهكذا كان اللبنانيين دور بارز في الثقافة والحضارة عبر العصور التاريخية المتعاقبة، ومن ذلك في اللغة، والفلسفة والفقه، والعلم، والأدب والشعر والفلك، والفنون والهيئات الدّولية^(٢).

ويحسن بنا أن نشيد بنشاط اللبنانيين في النّواحي الاقتصادية والعمرانية، فضلاً عن الثقافة، وعلى ذلك فقد ساهم اللبنانيون في مدنيّة البشر، ولم تنطفئ عندهم شعلة العطاء والإبداع، بدليل أنّهم ما انفكوا في الظروف المؤاتية يعطون.

وساهم علماء وأدباء وأطباء وتجار من أبناء لبنان في النّهضة العربيّة بل والعالمية، ومن أشهرهم في بدايات القرن العشرين حسن كامل الصّبّاح، العالم الذي قدّم للبشريّة اختراعات كهربائيّة عدة، وقُتل في حادث سيارة بمدينة نيويورك عام ١٩٣٥م، كما عُرف الطّبيب مايكل دبغي الذي استقر بأميركا من أشهر أطباء القلب، وأطباء العيون في لبنان من أمهر أطباء العالم، وبرز الرئيس الشهيد رفيق الحريري كرجل أعمال وتجارة ناجحة، ويُذكر أن فيليب حبيب كان مستشاراً للرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون.

ونكتفي بهذه الإشارة، لأننا لسنا في وارد الإحصاء، لبيان الدّور المهم لأبناء لبنان في بلدهم وخارجه، ويجدر بالذكر أن نجاح مسيرة التعاون والتعايش بين طوائف لبنان قد أسهمت في نجاح أعمال كثيرة.

وتزدهر اليوم جاليات لبنانية حديثة في القاهرة وباريس ومرسيليا ومانشستر ونيويورك وسان باولو وبونس آيرس وسدني وبعض دول أفريقية، وفي القرن التاسع عشر كان اللبنانيون أول شعب عربي تجاوب قلباً وقالباً مع الحوافز الثقافيّة الغربيّة، ثم نقلها إلى جيرانه، فرفع بذلك من شأن النّهضة في المنطقة كلّها.

وإذا قلنا إن الشّرق الأدنى نهض في العقود الأخيرة نهضةً علميّة فإنّ لبنان كان في مقدّمة بلدانه، وهكذا برز مجد لبنان كشعلة نور عبر التاريخ، والشّواهد كثيرة، تستأهل كتاباً خاصاً لا سيّما في مجال النّهضة، وينعم اللبنانيون الآن بقسط من الديمقراطية، ويمارسون نوعاً من الحرية التجاريّة، هذه هي أهمّ المعالم من جغرافيّة وتاريخيّة وثقافيّة وسياسيّة التي تجعل من لبنان كياناً مستقلاًّ متميّزاً.

في القرن العشرين ناضل شعب لبنان من أجل تحقيق الاستقلال، والخروج من

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) دور العروبة في تراثنا اللبناني: د. زكي النقّاش، ص ٩ و ١١.

ربقة الاستعمار الفرنسي، وكان للكُتّاب والشعراء اللبنانيين دورٌ بارزٌ في النضال من أجل حرية لبنان وسائر البلاد العربية.

وأودُّ التذكير بأن موضوع هذا البحث هو عن «دور لبنان في الحضارة العربية» بشكلٍ مختصرٍ ومفيد، وقد وجدتُ من المناسب تضمينه إلماحة عن دور لبنان في الحضارة العالمية، حيث ساهم اللبنانيون في النهضة الأدبية، وكانوا من قادة أدبائها، وكتبوا في مختلف فنون الأدب والشعر ومن أبرزهم: بطرس البستاني، ناصيف اليازجي، شكيب أرسلان، أحمد فارس الشدياق، الشيخ أحمد رضا، مصطفى صادق الرافعي، أنيس النصولي، فؤاد أفرام البستاني، الناقد إبراهيم اليازجي، وليُّ الدين يكن، وديع البستاني، يعقوب صرّوف، فرح أنطون، مارون عبود، خليل مطران، جبران خليل جبران، الأخطل الصغير (بشارة الخوري)، أمين الرّيحاني، عمر فاخوري، ميخائيل نعيمة، محمود سليم الحوت، وفي ما يلي نماذج من شعر أبرز شعراء هذا البلد:

أولاً: قال شكيب أرسلان:

وهل يبلغ الآمال إلا مجاهد

وهل يطرد الأهوال إلا مقاوم

وهل دون غاي الجهد تدرك غايه
ودون احترام النفس تعنو المحارم
ونظراً لنباهة شكيب أرسلان قال فيه
مارون عبود: لو لم ينصرف الأمير شكيب
أرسلان إلى خوض غمار السياسة التي
تتطلبُ الترسل أكثر من النظم لكان هو أمير
الشعراء لا شوقي^(١).

ثانياً: وإذا عرّجنا على جودة المعنى والمبنى، أو الشكل والمضمون في الشعر اللبناني، فإن النشيد الوطني اللبناني المعروف هو من أجمل وأشهر الأناشيد الوطنية في العالم العربي.

ثالثاً: قال جورج رجّي:

مكّة الله.. حباها نوره
فرهت^(٢) بالمصطفى للعالمين
سمّت الرؤيا بها وانطلقت
عربياً صوّتها للمؤمنين
أنزل القرآن يافوخ المني
عَبَقَ الشجُو فأحيا الصابرين
مكّة كرمها الباري فما
بَعْدُها في عزّة أرض لدين
حجّت الدنيا إلى أفيائها
تعزفُ الرحمة لمساً أو حنين
رابعاً: وقال الأخطل الصغير (بشارة

(١) في الأدب العربي: د. سالم المعوش، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط ١ (١٩٩٣م)، ص ٤٧٨.

(٢) رها - رهواً: رَقَقَ.

الخوري) في قصيدة يفخر فيها بفلسطين
وبالجهاد من أجل تحريرها:

سائل العلياء عنا والزمانا
هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيّاً في دمانا
ضحك المجد لنا لما رآنا
بدم الأبطال مصبوغاً لوانا
عرس الأحرار أن نسقي العدا
أكوئساً حمراً وأنغاماً حزانى
يا جهاداً صفق المجد له
لبس الغار عليه الأرجوانا
شرف باهت فلسطين به
وبناء للمعالي لا يدانى
يا فلسطين التي كدنا لما
كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذي
قد رضعناه من المهد كلانا
يثرّب والقدس منذ احتلما
كعبتنا، وهوى الغرب هوانا
شرف للموت أن نطعمه
أنفساً جبّارة تأبى الهوانا
قم إلى الأبطال نلمس جرحهم
لمسة تسبّح بالطيب يدانا

إنّما الحقّ الذي ماتوا له
حقّنا نمشي إليه حيث كانا^(١)

خامساً: ويؤكد محمود سليم الحوت أنه
لا سلام مع العدو الصهيوني ما دام يحتل
أرضنا وينكّل بشعبنا، فيقول:

ولا استتبّ سلام ولا نجحت
له مساع تجاري سير حملته
ما السّلم ما الأمن والأعداء في وطني
أنا طريد وهم سگان جنّته
لا، لن نرى السّلم إلا بعد عودتنا
مع الدّمار المغنيّ لحن نغمته
نعم سنرجع والدنيا مهللة
للنصر، والغرب مفجوع بدولته
تلك التي قال يوماً إنها خلقت
لكي تعيش، ويبقى مدّ صولته^(٢)

ونؤكد بدورنا أن شعراء لبنان تفوقوا
في سماء العروبة في الشّعريّ الوطنيّ وغيره،
وتفوّق معهم الكتاب في مختلف فنون
الأدب، وكانوا جميعاً في طليعة رجال
النّهضة الأدبيّة في بلاد العرب، وكثرت
مؤلفاتهم التي أنارت عقول الملايين، وفي
طليعتها الدّواوين الشّعريّة والقصص
والروايات والصّحف والمعاجم، وبرز مجد
لبنان كشعلة نور عبر التّاريخ، فأعطى

(١) الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين: كامل السوافيري، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) ملاحم عريبة: محمود سليم الحوت، دار الكتب، بيروت، ١٩٥٨م، ص ٢٠٦.

البشريّة عدداً من أفكارها الأساسية، ومن مؤسساتها الباقية، وكأنّما أعطاهما بعداً آخر.

ساهم اللبنانيون في مدنيّة البشر، ولم تنطفئ عندهم شعلة العطاء والإبداع، بدليل أنّهم ما انفكّوا في الظروف المؤاتية يعطون، ومن الجدير بالذكر أنّهم أخذوا الكثير من العرب وغيرهم في مختلف الميادين..

تولّى عدد من رجالات لبنان مناصب رفيعة في بلدان العالم في مختلف الميادين، وأداروا مؤسسات ناجحة، في المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والفنيّة.. إلخ، فهذا نائب، وذاك وزير، وآخر رئيس وزراء وغيره رئيس دولة من أصل لبناني مثل السيد ميشال تامر، الذي فاز في أيار ٢٠١٦م برئاسة البرازيل، وهو متحدّر من قرية بتعبورة في شمال لبنان.

وفي بداية عهد استقلال لبنان وضع رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وزعماء آخرون صيغة تُعرف بالميثاق الوطني، وبادرت الحكومات المتتالية إلى إدخال إصلاحات ضرورية متنوعة في هذا البلد، وافتتحت جامعات ومعاهد ومشاريع صناعيّة وزراعيّة واقتصاديّة وتجاريّة وحرفيّة ساهمت في جعل لبنان من أفضل البلدان الناميّة في الشرق العربيّ.

وبدأت تلوح ملامح ازدهار اقتصادي

في لبنان، وأصبح لبنان عضواً مؤسساً في جامعة الدّول العربيّة التي أُسست في القاهرة عام ١٩٤٥م، وتوسّط أكثر من مرّة لتسوية الخلافات بين أعضائها، وفي الأمم المتحدة دافع ممثلو لبنان عن القضايا العربية دفاعاً مريراً كان له تأثير بالغ، ولا سيّما ما يتعلق بفلسطين وشعبها في الدّاخل وفي بلدان الشّتات، وقام لبنان بدور هام في مسرح السياسة الدوليّة، وإن ممثليه في الأمم المتحدة وفي العواصم الكبرى كانوا من أبرز أنصار المثل العليا وحرية الشعوب وتحقيق العدالة. وأصبحت ظاهرة التعايش بين الطوائف اللبنانية مثلاً طيّباً يفخر به اللبنانيون وغيرهم من بلدان العالم.

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر: أنيس النّصولي، حقّقه وقَدّم له: د. عبد الله الطّبّاع، دار ابن زيدون، بيروت، ط١ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- ٢ - تاريخ لبنان الحضاري: يوسف السوداء، دار النّهار للنشر، بيروت، ١٩٧٢م.
- ٣ - التّراث اللبناني العظيم: إميل خوري حرب، منشورات مؤسسة التّراث اللبناني، بيروت، ١٩٦٦م.
- ٤ - دور العروبة في تراثنا اللبناني: د. زكي النقّاش، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.
- ٥ - الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين: كامل السوافيري، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ٦ - الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية: وليم الخازن، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٩م و١٩٨٤م.
- ٧ - فصول في تاريخ لبنان من الفينيقيين إلى الصّليبيين: سجعان القرّي، بيروت، كانون الثّاني ٢٠٠٣م.
- ٨ - في الأدب العربي: د. سليم المعوش، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٣م.
- ٩ - مختصر تاريخ لبنان: تأليف فيليب خليل حتّي، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤م.
- ١٠ - مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية: وليم الخازن، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت، ١٩٨٤م.
- ١١ - ملاحم عربية: محمود سليم الحوت، دار الكتب، بيروت، ١٩٥٨.
- ١٢ - النهضة العربية في العصر الحديث: الأمير شكيب أرسلان، الدّار التّقدميّة، المختارة، الشّوف، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

الشّيعَة في لبنان من الفتح العربي إلى العهد العثماني

(٦٣٥م - ١٥١٦م)

د. وشاح فرج^(١)

المقدمة

يقوم على تركيبة اجتماعية موحدة.

وهكذا اختلفت الطوائف اللبنانية في أصولها باختلاف الأسباب التي رافقت نموها وتطورها. فكان لكل طائفة خصائص تميّزت بها عن غيرها، فالبيئة الجبلية مثلاً جعلت من الشّيعَة والدروز والموارنة قوماً أشداء ذوي عصبية عشائرية امتهنوا الزراعة ونشأوا على تقاليد السّخاء وحسن الضّيافة. غير أن الشّيعَة تميّزوا عنهم بالحذر السّياسي وضعف التنظيم الاجتماعي، ولعل ذلك جاء نتيجة الاضطهاد والقمع الذي عانته هذه الطائفة على مرّ العصور، على خلاف الدروز والموارنة الذين تميّزوا بالتنظيم الاجتماعي المحكم^(٢).

أما بالنسبة إلى أبناء الطوائف السّنية

إن الطائفة الشّيعيّة جزء من المجتمع اللبناني، الذي يتكوّن من مجموعة طوائف دينيّة وأقليات قوميّة تتساكن على أرض دولة مشتركة، وتنقسم هذه الطوائف إلى فئتين: الأولى مسيحيّة، وتضم بشكل رئيسي: الموارنة، الملكيون (كاثوليك وأورثوذكس)، والثانية مسلمة، وتضم بشكل رئيسي: السّنة والشّيعَة والدروز.

وقد شهدت الطائفة الشّيعيّة ظروفًا تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة خاصة أثّرت على بناء مجتمعها داخل المجتمع اللبناني الطائفي، الذي رسم لكل طائفة ظروفًا، وصورة خاصة مستمدة من نفوذها وموقعها داخل الكيان اللبناني. لذا يصعب علينا التّسليم بوجود مجتمع لبنانيّ

(١) دكتور محاضر في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الفرع الرابع - زحلة.

(٢) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط ٤، ص ٢٤.

واحدة وثابتة، فقد شهدت بعض المراحل التاريخية عمليات طرد للشيعة من منطقة إلى أخرى كما حصل بعد حملات المماليك في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي من إقصاء الشيعة إلى بعلبك، وكما حصل أيام العثمانيين حين التجأ الشيعة المتواجدون في جزين إلى جبل عامل.

البحث عن تاريخ الشيعة

مما لا شك فيه أنّ البحث عن تاريخ مذهب من المذاهب الدينية في لبنان دونه عقبات وصعوبات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

الأمر الأول: وهو يتعلق بندرة المصادر التاريخية، التي وبحسب فيليب حتي، لم يشكل فقدانها الصعوبة الوحيدة، وإنّما مصادر المعلومات الخارجية كانت مفقودة أيضاً لأن «لبنان الجنوبي بدروزه وشيعته ظل بلداً مغموراً، فلم يسترع أنظار الرحالة الأوروبيين، ولم يسجل لنا أحد شيئاً عن الحياة فيه»^(٢).

والأمر الثاني: هو الأمر الشائع لدى جميع المؤرخين، وهو أن تاريخ الطوائف في لبنان، يوصف بأنه تاريخ مشترك ومتداخل، وهذا ما يتطلب توخي الدقة في مثل هذا البحث.

والرُوم الأورثوذكس والكاثوليك، فقد اختلفوا عن الشيعة والدروز والموارنة في أنّهم سكان مدن، فلم يشاركوا أهل الجبل خشونتهم وفرديتهم العارمة. غير أنّ الطوائف التي ميزتهم عن غيرهم من الطوائف، تمثلت خير تمثيل في سكان طرابلس وبيروت وصيدا، لأنّهم بخلاف الموارنة والشيعة والدروز الذين استقروا في المناطق الجبلية منعزلين قابعين في حصونهم بادئ أمرهم، متمردين على السلطة المركزية، فيما حافظ سكان المدن من سنّة وملكيين على روابط مهمة مع العالم المحيط بهم. مع الإشارة إلى أنّ السنّة من سكان الرّيف، كانوا يستشعرون المصالح التي تشدهم إلى إخوانهم في الدين لا سيما في المناطق الشّامية المجاورة. كذلك كان حال الملكييين مع أبناء طائفتهم في بلاد الشام ومصر^(١).

وتأسيساً على ما تقدم فإنّنا لا نستطيع رصداً مستقلاً لشيعة لبنان عن غيرهم من الجماعات الطائفية الأخرى، فهم يعيشون جنباً إلى جنب مع غيرهم من الطوائف اللبنانية عبر الحقب المختلفة قبل نشأة الكيان اللبناني عام ١٩٢٠م، وبعده، علماً أنّ الطائفة الشيعية لم تكن منتشرة في بقعة

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥-٢٦.

(٢) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، دار الثقافة بيروت، ط ١، ١٩٨٠، ص ٤٩٥.

أما الأمر الثالث: والأهم، فهو أن الطائفة الشيعية تعرضت لعمليات قمع تاريخية، لا سيما وأن المناطق التي سلكتها هذه الطائفة كانت دائماً مورد قمع تاريخي، الأمر الذي سيفضي إلى بروز مشكلة تتعلق بضياغ جزء كبير من التراث الفكري والحضاري لهذه الطائفة، سيما وأن هذا القمع كان يدفعها إلى هجرة مستقراتها، وهذا ما سينعكس على مستوى المعلومة ووفرته^(١).

هذه الأمور التي ذكرناها لا نزعم أنها هي وحدها من الصعوبات والعقبات التي قد نواجهها في مثل بحثنا هذا، فكتابة التاريخ في بلدٍ متعدد الطوائف كـلبنان هو مادة للاختلاف والنقاش الدائمين، وهو عملية متواصلة، ومهمة صعبة جداً تبقى مفتوحة للمناقشة والنقد والإضافات.

من هنا فإنّ كلّ ما نطمح إليه هو تقديم صورة مُجَمَّلة عن واقع الشيعة في لبنان في فترة معينة، قد تمثل جزءاً من هذا التاريخ والله ولي التوفيق.

وبما أنّ تاريخ الشيعة في لبنان، لم يكن مستقلاً أو منفصلاً، بوقائعه وأحداثه عما

يحيط به، وأن المؤرخين من شيعة أو غيرهم من المؤرخين، لم يكتبوا عن هذه الوقائع، خاصة في العصر الوسيط، وبما أن ما كتب كان في إطار التاريخ العام للطوائف الأخرى، أيّاً تكن ظروفها دينية أو سياسية أو غير ذلك، كان لا بد من فرز تاريخ الشيعة الخاص عن غيره من تلك التواريخ. وفي هذا المجال يذكر محمد علي مكي، أن الطوائف في لبنان تكونت خلال تسعة قرون (٦٣٥م-١٥١٦م)، وأن «هذا الزمن الطويل لم يساعد على إزالة التناقضات الطائفية، لذلك كان تاريخ لبنان الوسيط هو تاريخ طوائفه المختلفة... وكذلك فإنّ انحصار الطوائف في مناطق جغرافية خاصة بها، ساعد على تكوين مجتمعات خاصة»^(٢).

ذلك أن تسعة قرون من الزمن توالى على لبنان، منذ الفتح العربي سنة ٦٣٥م، وحتى العهد العثماني سنة ١٥١٦م، اتصفت هذه الحقبة من الزمن بالازدهار حيناً وبالركود حيناً آخر، وبالتسامح تارة وبالاتسهاد تارة أخرى، وظهرت التناقضات الطائفية بتكون الطوائف المعروفة في لبنان، وقد ارتبط المفهوم

(١) الشيعة في لبنان من التهميش إلى المشاركة الفاعلة، مجموعة من الباحثين، دار المعارف، ط ١ ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، «أحمد ماجد، الشيعة بين لبنان والعراق»، ص ١٨٣.

(٢) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني. (٦٣٥-١٥١٦)، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، د. ط.، ص ٧٣.

الطائفي في ما بعد بمفاهيم قومية مختلفة، وانحصرت الطوائف في معظم الأحيان ضمن مناطق جغرافية خاصة بها، وكونت هذه الحقبة الهامة تاريخ لبنان الوسيط.

وبقيت الكتابات التي تخص الشيعة نادرة جداً، فهم ليسوا بالنسبة إلى العديد من المؤلفين أكثر من نتاج غريب للصراعات الأولى على الخلافة في الإسلام^(١). حتى أن مجمل الدراسات لم تكن تهتم بالشيعة كطائفة، لا على المستوى الاعتقادي، ولا على مستوى الفاعلية أو الدور السياسي. علماً أن كثيرين كتبوا عن الطائفة المارونية، وتناولوا تشكلها من كل الجوانب، اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، فضلاً عن علاقتها بالغرب، وعن إدارتها السلطة بعد الاستقلال، وصراعها من أجلها في القرن التاسع عشر، في حين ندرت الدراسات المماثلة عن الشيعة لأنهم حتى سبعينات القرن العشرين لم يكن لديهم أي دور اجتماعي أو سياسي أو ثقافي، فبعض الباحثين عندما كتبوا عن تاريخ لبنان، اقتصر كتاباتهم على دور الطائفة الحاكمة والمهيمنة وتاريخها من دون ذكر طوائف ومكوناته الأخرى، وبات تاريخ لبنان السياسي محصوراً بتاريخ الموارد

والبعثات التعليمية التي عملت في جبل لبنان، واختزال الصراعات وأسبابها وحصرها بالصراع الدرزي الماروني^(٢).

أما اليوم، وبعد التحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها الطائفة الشيعية منذ أواخر ستينيات القرن الماضي، فقد تغير موقع الطائفة في معادلة النظام اللبناني، وأصبحت الطائفة موضع اهتمام استثنائي وبحثي وإعلامي، دفع ببعض الباحثين الغربيين قبل سواهم إلى الكتابة عن الشيعة وعن دور الإمام الصدر في التحولات التي بدأت تحصل في داخل الطائفة، وعن تأثير تلك التحولات وذلك الدور على مستقبل لبنان نفسه، وعلى مستقبل الطوائف الأخرى فيه، حيث أدت هذه الطائفة دورها في مد شبكات التحالفات في إطار المنافسة على مقاعد التمثيل الطائفي في البرلمان حتى أصبح الشيعة في لبنان رقماً صعباً في تركيبة الدولة اللبنانية بل وفي المنطقة.

ومن أجل ذلك بتنا بحاجة ماسة إلى إعادة كتابة التاريخ اللبناني من زاوية الالتزام لا بمواقف سياسية وإيديولوجية معينة، بل من مواقع الالتزام بالحقيقة والقيم الإنسانية، وبتخطي واقع التجزئة في

(١) أ.ر. أرثون، أمل والشيعة، ترجمة غسان الحاج عبدالله، دار بلال، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٢.

(٢) مجموعة باحثين، طلال عتريسي، «تغير أحوال شيعة لبنان»، مرجع سابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

هذا الوطن وفي هذه الأمة، والانتقال إلى واقع الوحدة والشمول^(١).

الشِيعَة^(٢) في لبنان

يعود الوجود الإسلامي الشيعي في لبنان إلى بداية عصر الفتوحات الإسلامية، وقد اشتهر أنه أحد مراكز التشيع طوال التاريخ الإسلامي. فتاريخ دخول الشيعة إلى لبنان غير معروف على التحديد، إذ إنهم لم يأتوا إلى هذه المنطقة في فترة تاريخية واحدة، ولا من مكان واحد.

ويذكر بعض المؤرخين أنَّ الشِيعَة في لبنان هم من السُّكَّان الأصليين الذين أسلموا على مذهب أهل بيت النَّبي، أمَّا بقية الطوائف، فمعظمهم هربوا إلى لبنان جرَّاء التَّنكيل الطائفي الذي كان يلحق بهم، باستثناء أهل السنة الذين استقدمهم معاوية وقبله أبي بكر وعمر إلى المدن الرئيسية

على السَّاحل ليردوا هجوم المشركين. أما المسيحيون وخاصة الموارنة، فأصلهم من شمال سوريا. ويُرَدُّ هؤلاء المؤرخون دخول التَّشيع إلى لبنان، إلى عهد الصَّحابي الجليل (أبي ذر الغفاري) الذي كان من أشد المعارضين لحكم الخليفة الثالث عثمان بن عفان، الذي نفاه من المدينة المنورة إلى دمشق، ومن هناك انتقل أبو ذر إلى جبل عامل فاستقر بين ميس الجبل والصرفند في جنوب لبنان، وبدأ بنشر الدَّعوة الإسلامية بين سكان هذه المنطقة حيث توفي هناك.

وهناك رأي آخر يرى أنَّ دخول الشِيعَة إلى لبنان تحقق من خلال هجرة قسم من قبيلة همدان^(٣) اليمنية الشيعية من الكوفة في العراق إلى بعض مناطق سوريا ولبنان، بعد سيطرة الأمويين على الحكم الإسلامي بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) محمد أحمد ترحيني، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، دراسة مقارنة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ٢.

(٢) ورد في معجم المصطلحات الدينية لخليل أحمد خليل في تعريف الشيعة: إنها طريقة إسلامية خاصة في الحياة والشعور والتفكير، مسلك في البداية، ثم مذهب في العبادة والقيادة، في الدين والسياسة. الشيعة هم الفرع الثاني في دوحه الأمة الإسلامية، بعد الفرع السني، الأكثر. يدل التشيع على عقيدة. فالشيعة هم الموالون لعلي وأبنائه، وهم المتأولون أو المؤولون للنصوص، باجتهاد شخصي، يتناسب مع عملهم واعتقادهم. بدأ التحزب لعلي يؤسس للشيعة، التي ستغدو مع الحسين، وبعده، حركة سياسية، دينية، لها فقهها وفلسفتها، وشعائرها المشتركة والمختلفة. أساسها الإمامة، وجهتها المهدية (أو الاعتقاد بظهور المهدي). - خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الدينية، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٦، ص ١١٣.

(٣) قبيلة همدان: هم من الشيعة، كانت ديارهم في اليمن، ولما جاء الإسلام تفرق منهم من تفرق، وبقي من بقي. وكانت همدان شيعة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب. - أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٧، ج ١، ص ٣٨٠.

كما أشار بعض المؤرخين المسلمين إلى وجود قوم من اليمن ومن همدان تحديداً في حمص وسوريا وفي منطقتي بعلبك وجبل عامل في لبنان بدءاً من أواخر القرن السابع الميلادي. وبحسب البعض الآخر فإنَّ الشيعة سكنوا حلب ودمشق والسَّاحل السوري، وامتد التشيُّع إلى أطراف فلسطين والأردن، وكان أهل طبرية ونصف أهالي نابلس والقدس وأكثرية سكان عمان شيعية^(١).

ومهما كان هناك من تباين في الآراء، ومهما اختلفت روايات المؤرخين حول البداية الحقيقية للشيعة، ودخول التشيع إلى لبنان، إلا أنهم يجمعون على أن الشيعة كانوا من سكان لبنان وخاصة في مناطق كسروان وجبيل في القرن الثاني عشر ميلادي، لكن الخلاف يبقى في أصل هذا الوجود وأسبقيته.

الشيعة من الدولتين الأموية والعباسية حتى عهد الصليبيين

أول ظلامه تعرض لها الشيعة في عهد الدولة الأمويَّة، هو ما حدث بعد وفاة

الرَّسول الأكرم^(٢) من إقصاء للخليفة الشرعي الذي وصَّى فيه وهو «علي بن أبي طالب» عليه السلام، حصل ذلك بعد اجتماع جملة من الصحابة في «سقيفة بني ساعدة»، تم خلاله مبايعة أبي بكر كأول خليفة للنبي، الذي أوصى بدوره لعمر بن الخطاب من بعده، ومن بعده عثمان بن عفان^(٣). وقد دام إقصاء الإمام علي عن حقه بالخلافة عشرين عاماً، واجه الشيعة خلال هذه المرحلة أشد أنواع الاضطهاد بسبب مواقفهم المعارضة للخلفاء^(٤).

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفَّان ومبايعة المسلمين له امتنع معاوية عن مبايعته، وقد حفلت فترة خلافته بمعارك عدة، كمعركة الجمل وصفين والنهروان^(٥). ويروي ابن الحديد أن معاوية تتبع الشيعة في العراق، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النَّخل وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق فيها معروف منهم^(٦).

لم تختلف سياسة يزيد عن سياسة أبيه

(١) بانوراما الشرق الأوسط، د. هيثم مزاحم، مقالة بعنوان: «شيعة لبنان من أبي ذر الغفاري إلى حزب الله»، الجمعة، ١١ أيلول ٢٠١٤.

(٢) أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، دار النعمان، العراق ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، ج ١، ص ٢٨٠.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، ترجمة جعفر بهاء الدين، ص ١٧٠.

(٤) محمد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ص ٣٦-٤١.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٨-١٩٥٩ م، ج ١٦، ص ١٥.

معاوية، ففي السنة الأولى من حكمه قتل الإمام الحسين وذبح أطفاله وسبى نساءه، ثم سجن وشرّد وقتل وصلب وقطع الأيدي والأرجل^(١).

وفي زمن الخلافة العبّاسية استمر الظلم والاضطهاد لشيعة أهل البيت، ويمكننا القول إنّ العبّاسيين كانوا أكثر قسوة من الأمويين تجاه الشيعة، فمن أصل خمس عشرة خليفة عبّاسي، عشرة منهم كانوا ضد الشيعة^(٢)، وهذا ما جعلهم في مواجهة مفتوحة مع العبّاسيين، فكانت حصيلة هذه المواجهة قاسية بحق الشيعة وأئمتهم من حيث الظلم، فمن أصل تسعة أئمة شيعة، دسّ السّم لأربعة منهم^(٣)، أما الباقيون فقد قضوا إمّا من خلال الثورات، وإمّا في السجن^(٤).

في زمن حكم أبو جعفر المنصور، وضع القيود والسّلاسل في أرجل وأعناق أبناء الحسن، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الإمام الحسين، ثم أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من

النهار^(٥). أما في عهد هارون الرشيد، فقد صمم على أن لا يبقى من الشيعة على الأرض ديار^(٦).

ومع المتوكل الذي كان شديد الحقد عليهم، بلغ منهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله، إذ كرب قبر الحسين وأخفى آثاره، ولم يزر قبره أحد إلا انفرد به فقتله^(٧).

أما في لبنان، فقد انتشر التشيع في عهد الدّولتين الأمويّة والعبّاسية في جنوب لبنان وفي بلاد جبيل وكسروان، وكانت مدينة جزيّن الجنوبية وميس الجبل من أهم المدن الشّيعية في لبنان. إلا أن حكام الدّولة الأموية سعوا إلى تهميشهم، والعبّاسيين سجنوا الشيعة واضطهدوهم وقتلوهم.

وبحلول الدولة الفاطميّة ازداد نفوذ الشّيعية في لبنان. بحيث أن طرابلس، عاصمة شمال لبنان وأكبر مدينة سنية فيه، كان يسكنها الشّيعية منذ بداية القرن العاشر الميلادي، وبقيت حتى القرن الثاني عشر

(١) محمد الجواد مغنية، الشيعة والحاكمون، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد، الأمين، المعتصم، المتوكل، المستعين، المعتز والمهتدي.

(٣) جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي ارضا ومحمد الجواد.

(٤) د. محمد حمادة، تاريخ الشيعة (في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى)، تمت ترجمته ومراجعته بإشراف د.

جعفر المهاجر، دار بهاء الدين العاملي، ص ١١١-١١٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٥٦.

(٧) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن موسى بن جعفر بن محمد، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة بيروت، ص ٣٩٥.

من عواصم التشييع في بلاد الشام. وقد توج الوجود الشيعي بإمارة بلغت أوج عزها مع إمارة بني عمار الذين ولّاهم الفاطميون على طرابلس فأسسوا إمارة مستقلة^(١). وفي أواخر القرن الحادي عشر وعندما بدأت الحملات الصليبية المشبعة بالتعصب الديني التي تغزو الشرق، اصطدمت جحافلهم بإمارة بني عمار، وحاولوا مراراً احتلال طرابلس قاعدة الإمارة، فعصت عليهم، لمناعتها وقوتها وحصانتها^(٢).

وقبل بدء الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، كان التّوزع الطائفي في المقاطعات اللبنانية كما يلي:

«الشّيعية في الجنوب وبعض البقاع وطرابلس والشمال ومنطقة جبيل وأقليات منهم في بقية المناطق. وكان الدروز في وادي التّيم وبعض الشوف والمتن، وكانت السّنة في بيروت وبعبك وصيدا، وكان المسيحيون في جبال طرابلس وفي بعض الأقسام الجبلية الشمالية، وكانت النصيرية في وادي التيم وعكار»^(٣).

وقد سادت تلك الفترة حالة من الهدوء والتعاون بين طوائف هذه المنطقة، بحيث

وصف الرّحالة الأندلسي (ابن جبير) وضع أهل الجبل في القرن الثاني عشر بقوله: «إن التّعایش كان قائماً بين الطوائف المتواجدة في بلاد جبيل العليا ومنطقة فتوح كسروان في أثناء حكم الشيعة لها، على الرّغم مما تعرضت له البلاد من فوضى وفتن»^(٤).

الشيعة خلال حكم الأيوبيين والمماليك

بعد انتهاء الصليبيين من حملاتهم، التي استطاعوا من خلالها استمالة الشيعة إلى مهادنتهم ومساعدتهم في أثناء احتلالهم لبنان، بدأ عصر المماليك في لبنان الذي استمر لأكثر من قرنين ونصف القرن، وقد تميزوا من غيرهم بمزيد من التّشدد في محاربة المذاهب الإسلامية غير السّنية، واعتمدوا سنّة دينية متعصبة، ثم عملوا على توحيد المذاهب السّنية استكمالاً لما بدأ به نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، واستخدموا في سبيل ذلك الضّغط والإرهاب والتّنكيل بأتباع المذاهب الإسلامية الأخرى وبالأخص الشيعة، الذين لم يشتركوا اشتراكاً فعلياً في محاربة الصليبيين وتحديداً شيعة منطقة كسروان. وإذا كان هناك من يريد الدّس على شخص،

(١) د. هيثم مزاحم، مرجع سابق.

(٢) المحامي محمد حيدر أحمد، بلاد جبيل أرضاً وشعباً، منشورات الحركة الإنمائية لبلاد جبيل، ط ١، ١٩٩١، ص ٣٠.

(٣) محمد علي مكّي، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧١.

رماء بالتشيع، فكانت السلطة تلجأ إلى مصادرة أملاكه، ومن ثم تنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يُظهر التوبة من التشيع. وفي حالات أخرى كانت الدولة المملوكية تلصق بهم اتهامات مختلفة كالاتصال بالصليبيين، أو الاتصال بالمغول والأيوبيين لإسقاط الحكم المملوكي، وما يدل على هذا الأمر معارك كسروان وما تبعها من اتهامات التي أدت إلى هدر دماء الشيعة الكسروانيين^(١).

وقد نكل المماليك بالشيعة حيث يذكر فيليب حتي أنهم «قتلوا من الإسماعيلية

والنصيرية والشيعة عدداً كبيراً، ويبدو أنهم كانوا أشد وأقوياء، وأن عددهم كان كبيراً في أنحاء سوريا، وقد هرب من الشيعة جماعات والتجأت إلى جبال لبنان والبقاع، وذلك أن المماليك كانوا يرون في الشيعة خطراً عليهم»^(٢). ويذهب البعض إلى أنه خلال حكم الصليبيين للمنطقة كان الشيعة يشكلون ٨٥٪ من سكان لبنان إلى أن تعرضوا على يد صلاح الدين الأيوبي ثم على أيدي المماليك الذين استصردوا فتوى من فقيه دمشق حنبلي متطرف (ابن تيمية)^(٣)، فأباح قتل الشيعة الذين أطلق

(١) المرجع نفسه، ٢١١-٢١٩.

(٢) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، دار الثقافة بيروت، ١٩٨٠، ط ١، ص ٣٩٧.

(٣) ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، ولد في نجران عام ٦٦١هـ، وتوفي في دمشق عام ٧٢٨هـ. اشتهر بغزارة إنتاجه العقدي والفقهية، وبكثرة فتاواه التي كان لها صداها السلبي داخل المجتمع الإسلامي بمذاهبه المتعددة. ومما قيل عنه أنه " من أشهر فتاويه ما استخف به عقول العوام، وخالف في ذلك فقهاء عصره، وأعلام علماء شامه ومصره، وبث به رسائله إلى كل مكان، وسمى فتاويه بأسماء ما أنزل الله به من سلطان. ولما وصل إلينا الجمع أولو العقد والحل وذوو التحقيق والنقل، وحضرة قضاة الإسلام وحكام الأنام وعلماء المسلمين وأئمة الدنيا والدين، وعقد له مجلس شرعي في ملأ من الأئمة، ومن له دراية في مجال النظر ودفع، فثبت عندهم جميع ما نسب إليه، وبلغنا أنه استتيب مراراً، وآخره الشرع الشريف لما تعرض لذلك وأقدم، ثم عاد بعد منعه، ولم يدخل ذلك في سمعه... ولما ثبت ذلك، حكم الشرع الشريف أن يسجن هذا المذكور (ابن تيمية)، ويمنع من التصرف والظهور... وقد رسمنا بأن ينادى في دمشق المحروسة والبلاد الشامية، وتلك الجهات الدانية والقاصية بالنهي الشديد، والتخويف والتهديد لمن اتبع ابن تيمية في هذا الأمر الذي أوضحناه، ومن تابعه تركناه في مثل مكانه وأحللناه، ووضعناه من عيون الأمة كما وضعناه. ومن أصر على الامتناع وأبى إلا الدفاع، أمرنا بعزلهم من مدارسهم ومناصبهم، وأسقطناهم من مراتبهم من إهانتهم. وأن لا يكون لهم في بلادنا حكم ولا ولاية، ولا شهادة ولا إمامة، بل ولا مرتبة ولا إقامة، فإننا أزلنا دعوة هذا المبتدع من البلاد، وأبطلنا عقيدته الخبيثة، التي أضل بها كثيراً من العباد أو كاد، بل كم أضل بها من خلق وعاثوا بها في الأرض الفساد... ولقد تنقل ابن تيمية من سجن إلى آخر (الإسكندرية، حارة الديلم...)، حتى وافته المنية داخل سجن القلعة بدمشق في العشرين من ذي القعدة في العام ٧٢٨ للهجرة (ويقال أنه تم إعدامه داخل السجن بأمر من السلطان). نقلاً عن: تاج الدين السيكي، محقق الرسائل، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٧-٢٠، وابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد النقي، مطبعة السنة المحمدية، عام ١٩٥٣، ج ٢، ص

عليهم اسم الرّوافض وخاصة في منطقة جبيل وكسروان، فبدأت مجازر عام ١٣٠٩م، بعد أن احتل الجيش المملوكي منطقة جبل لبنان، ونتيجة اضطهاد الشّيعية هناك، هرب قسم منهم إلى منطقة البقاع وسكنوا فيه وخاصة في بعلبك والهرمل، وقسم آخر إلى جنوب لبنان وخاصة إلى جزين^(١)، ومن لم يستطع ذلك تحول بعضهم تقيّة^(٢) إلى المسيحيّة والبعض الآخر إلى المذهب السّني^(٣).

وتأسيساً على ما تقدّم فإنّ الوجود الشّيعي في جبيل وكسروان، يعود إلى مئات السّنين. وهذا الوجود شهد تمّداً في فترات تاريخيّة متعددة، حتى كاد الشّيعية

يسيطرون على الحدود الطّبيعية للبنان المعاصر. ولكن في بداية القرن الرّابع عشر تعرضوا لتهجير قسري باتجاه البقاع وجنوب لبنان بعد حملات المماليك العسكرية المتكررة ضدهم، فانحسر وجودهم وانكمش^(٤).

ولعل مرويّات المؤرخين التي كانت تشير إلى غلبة الوجود الشّيعي في هذه المناطق بالاستناد إلى القرائن التّاريخيّة التي تشكل رسالة ابن تيمية، التي يحدد فيها انتشارهم ويهدر فيها دماء الشّيعية الكسروانيين، ويبيح فيها قتلهم، وهدم بيوتهم وتخريب ديارهم، وحرّق أشجارهم، كواحدة من تلك القرائن. فهذه الرّسالة تؤكّد

٣٨٢-٣٨٤، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، حيدر آباد، ١٣٤٨هـ، ج ١، ص ١٤٤-١٦٠. أنظر: الدكتور علي راغب حيدر، المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل، سياسياً- تاريخياً- إجتماعياً. بالوثائق والصور، دار الهادي، ط ١، ١٨٤٢-٢٠٠٦. ص ٢٠.

(١) كانت مقدمة جزين مع بدء العصر المملوكي مركزاً دينياً شيعياً هاماً، وكان عصرها الذهبي في القرن الرابع عشر، حيث ازداد عدد سكانها بعد نزوح الكسروانيين الشيعة إليها، خاصة سنة ١٣٠٥م، وكانت مقدمة جزين متحالفة مع مقدمة مشغرة بزعامه بني صبح. - المحامي محمد أحمد حيدر، بلاد جبيل أرضاً وشعباً، مرجع سابق، ص ٤٣. (٢) اعتنق بعض أتباع المذهب الشيعي أديان ومذاهب أخرى لا سيما الدين المسيحي وفقاً لاعتقادات جيرانهم من الطائفة المارونية، وبنسبة أقل بكثير بالتحول إلى اتباع المذهب الإسلامي الشافعي تقيّة، وهذا التغيير المذهبي وإن اتبع اضطراراً من قبل أصحابه وليس نتيجة قناعة، على أمل العودة إلى مذهبهم الشيعي بعد ارتفاع الضغط عنهم، إلا أن الذي حصل أنه رغم عودة أكثر هؤلاء إلى مذهبهم، فقد بقيت بعض العائلات إيماناً على مذهبها الجديد، وبخاصة وفقاً للإيمان بالديانة المسيحية المارونية، فأصبحت التقيّة إيماناً واعتقاداً وقناعة. والدليل أن هناك عدداً كبيراً من العائلات الشيعية في جبيل وكسروان ومنها: الهاشم، صعب، نون، زغيب، الحسيني، عيسى، عواد... لا تزال على إيمانها بالمسيحية وأن البعض منها شيعية وموارنة داخل البلدة الواحدة. - كمال الصليبي: تعريف تاريخي للبنان، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٣) د. هيثم مزاحم، مقالة بعنوان: «شيعة لبنان من أبي ذر الغفاري إلى حزب الله»، ١١ أيلول ٢٠١٤. مرجع سابق.

(٤) نابل أبو شقرا، التحولات الإقتصادية والإجتماعية في مجتمع جبل لبنان، دار إشارات للنشر، بيروت ١٩٩٢، ص ١٩-٢٦.

أرجحية الوجود الشيعي حتى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد حين اصطدموا مع المماليك، وبقي هذا الوجود حتى القرن السابع عشر، ثم امتد إلى مناطق أخرى على قاعدة تسلم السلطة.

إن فتوى ابن تيمية القاسية بحق الشيعة والتي يوجد فيها الكثير من العناصر الهامة عن مذهب الكسروانيين، الذي أفتى بقتالهم، ودفع بهم إلى النزوح إلى البقاع وجزين بعد اضطهادهم، واستخدامه مصطلح الرافضة الذي عُرف به الشيعة يتفق مع ما أورده كمال الصليبي الذي يؤكد الوجود الشيعي في تلك المرحلة^(١)، حيث يغلب الصليبي وجود الشيعة خلال حكم المماليك من خلال تأكيده على المعارك التي جرت بينهم وبين السلطة المملوكية عام ١٢٩١م، معللاً ذلك ببقاء الشيعة خارج سلطة ملوك دمشق وحكامها^(٢).

وبعد الحملات العسكرية التي قادها المماليك ضد الشيعة نتيجة فتوى ابن

تيمية، وخاصة تلك التي وجهت ضدهم في كسروان، والتي أدت إلى هزيمتهم في العام ١٣٠٥ م، بعد أن أبدوا مقاومة عنيفة، أدت إلى تهجيرهم من تلك المنطقة إلى جزين والبقاع وبلاد بعلبك، وقدر عدد الذين نزحوا من هذه المنطقة بـ ٢٠٠٠٠ ألف نسمة^(٣). أما من بقي منهم اعتنق المذهب السني أو المسيحية^(٤) خوفاً من القتل. ولكن بعد زوال حكم المماليك وقيام الدولة العثمانية، بدأ عهد جديد، وأصبح الحكم في جبل لبنان لأسر من الأمراء يقوم على جباية الضرائب والخدمة العسكرية.

من خلال ما تقدّم يمكننا أن نستنتج أن الضغوط القاسية التي مارسها المماليك على الشيعة، في بلاد الشام، وبخاصة في كسروان، أضعف من وجودهم وتحولوا إلى أقليات مضطهدة بعد أن كانوا يُشكّلون الأغلبية المسلمة في أجزاء كثيرة من بلاد الشام حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

(١) محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني. (٦٣٥-١٥١٦)، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٢) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ط ٢، بيروت دار نوفل، ١٩٩٢، ص ١٣٤.

(٣) كمال الصليبي، تعريف تاريخي بلبنان، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

(٤) حصل تحوّل كبير وجماعي من العائلات الشيعية عن المذهب الشيعي نحو الديانة المسيحية للحفاظ على أرواحهم وأملهم. ومن هنا نجد عائلات جبيلية وكسروانية شيعية، والبعض منها على صلة بنسب النبي محمد وأهل بيته هم الآن مسيحيون موارنة. ومن أبرز هذه العائلات: الهاشم، مهنا، رعد، صعب، زغيب، زوين، عيسى، نون، الحسيني، شقير، الشامي، زعرور، عوّاد، فارس، ديب، غصن، صقر، فرحات، مهنا، ناصيف، حرب، كنعان. . . وهي عائلات كبيرة ولا تزال موجودة في قرى جبيل وكسروان حتى الآن، بحيث نجد بعضها في هذه القرى موارنة، والبعض الآخر شيعية.

الحرافشة

يعود تاريخ الأمراء الحرفوشيين في السلطنة بحسب بعض المؤرخين إلى فترة سبقت زوال المماليك بقليل (كانوا على نيابة بعلبك عام ١٤٩٧م)^(١). وكان الطابع السنّي لا سيما الحنبلي يغلب على مدينة بعلبك في أواخر عصرها المملوكي^(٢).

وقد رافقت إمارة الحرافشة إمارة المعنيين والشهابيين، وانتهت مع إمارة الشهابيين في عهد واحد تقريباً سنة ١٨٦٥م، وبذلك تكون مدة حكمهم ما يقارب ثلاثة قرون ونصف (١٤٩٧م-١٨٦٨م).

ويذكر المعلوف أنّ الأمراء الحرافشة كانوا يتولون بعض شؤون منطقة البقاع أول حكمهم، وكان مسكنهم في بعلبك^(٣)، وكرك نوح^(٤)، وهم فرقة من الشيعة نسبت

إلى جدها الأمير حرفوش الخزاعي الذي عقدت له الرّاية بقيادة فرقة في حملة أبي عبيدة الجراح على بعلبك قدموا أولاً من بغداد إلى غوطة دمشق ثم إلى بعلبك وسكنوها^(٥).

ففي العهد المملوكي انقسم البقاع إلى قسمين: البقاع البعلبكي، وقاعدته مدينة بعلبك، والبقاع العيزي، ومركزه كرك نوح. وفي ذلك العهد ظهرت في البقاع وفي جوار مدينة بعلبك أسرة آل الحنش، فأدت دوراً مهماً في تاريخهما منذ أواخر القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر^(٦).

ولدى دخول العثمانيين لبنان كان آل الحنش السنّة يحكمون البقاع العيزي، إلا أنّ العثمانيين أنهوا سلطتهم لشعورهم أنهم بدأوا يشكلون مصدر إزعاج لهم وسلموا البقاعين العيزي والبعلبكي إلى الحرافشة.

(١) حسن عباس نصرالله، تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء، بيروت، ج ١، ١٩٨٤، ص ٢٢٦.

(٢) الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي، بعلبك في التاريخ، ص ١٢٣.

(٣) إن وجود الحرافشة حكماً على بعلبك والبقاع، استقطب هجرة شيعية أخرى مختلفة وفدت من الشرق من قرى ومزارع وواديان كانت منتشرة في جبل الشيخ ولكنها كانت هجرة طوعية دفع إليها عاملان أساسيان أحدهما سياسي والآخر اقتصادي. وكانوا مسلمين شيعية أصحاب إقطاعات واسعة فيها، وكان منهم الشعراء والفرسان والأمراء والحكام. سكنوا قلعة بعلبك وبنوا فيها وحولها دوراً لهم. ولهم في بعلبك مقبرة ما زالت ليومنا هذا. - محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) كانت قلعة حصينة للحرافشة، وهي من المعاقل التي نما فيها نفوذهم، وساعدهم على تسلّم زمام الحكم في بعلبك، وكانت منطلقاً لتحركاتهم نحو بعلبك شرقاً، وباتجاه قب الياس ومشغرة غرباً. اختارها الحرافشة لغلبة التشيع على سكانها منذ عهد مبكر وكانت ملاذ رجال الشيعة عندما يدهمهم خطر الحكام.

(٥) عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطف في تاريخ بني المعلوف، ص ١٥٥.

(٦) د. فؤاد خليل، الحرافشة إمارة المساومة (١٥٣٠-١٨٥٠)، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ٣٥.

وبعد أن استعاد الأمراء الحرافشة الكرك التي آلت إليهم سلطتها من أسرة آل الحنش بعد معركة دير زنون عام ١٥٩٤م، دانت منطقة البقاع وبلبك لحكم بني الحرفوش.

إنّ علاقتهم بالعثمانيين تميزت بالصراع الدائم، لذا فإنّ تاريخ الصّدام العسكري بين ولاية الشّام وأمراء الحرافشة كان من أبرز ما في تاريخ هذه الإمارة، ففي مدة لا تتجاوز العشر سنوات، جرّد الولاية العثمانيون أكثر من عشر حملات عسكرية على بعلبك في الفترة الواقعة ما بين ١٧٨٤م و ١٧٩٢م^(١)، تمت هزيمتهم في تسع منها، ولم يحققوا بعض النّجاح إلا في الحملة التي جرت عام ١٧٨٤م، عندما أرسل والي دمشق جيشاً قوياً إلى بعلبك، وأحرق منازل الحرافشة وصادر أملاكهم وأعدم ثلاثة من أمرائهم^(٢).

وعلى الرّغم من هذه الهجمات المتلاحقة، فقد استمر حكم الحرافشة لبلاد

بعلبك لما يقارب الأربعمئة عام من دون أن تتمكن الدّولة العثمانية من إخضاعهم وإزاحتهم عن الحكم، لا بل كانوا يفرضون شروطهم عليها أيضاً، إذ فرضوا عدم خضوع أهالي المنطقة للجندية، فجنبوهم بذلك الموت في الغربة من أجل الأطماع التوسعية للدولة العثمانية^(٣).

ويذكر مخايل ألوف أنه في العام ١٨٥٠م، جمع الأمير محمد الحرفوش عسكرياً من بلاد بعلبك ووادي العجم، وقرر العصيان والخروج عن طاعة الدّولة العلية، فأرسلت إليه عسكرياً بقيادة مصطفى باشا، فانهزم أمامه وكانت نهاية الإمارة^(٤).

وصادرت الدّولة العثمانية أملاكهم^(٥)، وأرزاقهم وبيوتهم، وخصصت لكل فرد منهم راتباً شهرياً، أسمته بدل أملاك مضبوطة بقي المرد الوحيد للمشردين منهم في مختلف مناطق الأمبراطورية، أما من تبقى منهم في بلاد بعلبك، فقد استمرت

(١) جرد العثمانيون عشر حملات على الأمراء الحرافشة خلال السنوات التالية: حملتان عام ١٧٨٤م، ١٧٨٦م،

١٧٨٧م، وحملتان عام ١٧٨٨م، ١٧٩٠م، ١٧٩١م، وحملتان عام ١٧٩٢م.

(٢) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة، دار الخيال، ط ٢، ٢٠١٣، المجلد الأول، ص ٢٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٩.

(٤) ميخائيل موسى ألوف، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨٩، ص ٤٨.

(٥) القرى والممتلكات التي كانت ملكاً لهم وتمت مصادرتها من قبل الدولة العثمانية: الراس، تمنين الفوقا، نبحا، شعث، مقنه، حشمش، حزين، العين، تمنين التحتا، حوش سنيد، يونين، الحدث، كفر دان، طليا، حوش تل صفية، فنا، سرعين، النبي شيت، سعدية، نصيرية، ماسا، نبي عثمان، حوش الرافقة، جبولة، حوش الذهب، وردين، عدوس، طاريا شمسطار، كفرعرباي، حوش حالا، بوداي، اللبوة. - سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال، ط ٢، ٢٠١٣، المجلد الأول، ص ٣٧٥.

الدولة الفرنسيّة المنتدبة تدفع لهم رواتبهم حتّى الاستقلال، وبقيت أملاكهم مصادرة رغم بعض المحاولات لاستعادتها، ثم فرض عليهم في مرحلة لاحقة التنازل عن مرتباتهم لقاء مبلغ مقطوع دفعته الحكومة اللبنانية^(١).

لقد ساهمت عوامل عديدة في طي صفحة من تاريخ الشيعة في البقاع تعود لأربعماية عام، منها **عوامل خارجية**، كان على رأسها اتفاق الرأي الدولي المتمثل بإنكلترا وفرنسا أكثر الدول نفوذاً في تلك الحقبة، ثم رغبة الدولة العثمانية في الخلاص من هذه العائلة. ومنها **عوامل داخلية**، تمثلت بالحرب الطائفية التي حصلت في لبنان والتي بدلت مقاييس كثيرة وتحالفات تقليدية والتي انعكست سلباً على تماسك الجبهة الشيعية التاريخي الذي تأثر بفعل المستجدات والآثار التي خلفتها الحوادث الطائفية وآثارها السياسية^(٢). وقد عانى الشيعة في بلاد بعلبك بعد غيابهم حالة من الضعف والتراجع.

الشيعة خلال الحكم العثماني

بعد سقوط دولة المماليك التي اعتمدت سياسة البطش والتنكيل إزاء رعاياها

الشيعة، «قامت على أنقاضها دولة العثمانيين، فخضع الشيعة لسلطان سني آخر أشدّ تزمناً من سلفه، وأكثر تحاملاً، فاستحصل عن بعض شيوخ مذهبه على فتاوى ترى أنّ الشيعة خارجون على الدين، يجب قتلهم، فأمر بقتل من كان معروفاً بالتشيع داخل بلاده، حتى لم يبق شيوعي واحد في مدن كان التشيع فيها راسخاً ومنتشراً»^(٣).

والجدير ذكره أنه منذ بداية العهد العثماني سنة ١٥١٦م، حتى منتصف القرن الثامن عشر، كان الشيعة المكوّن الأساسي في لبنان كلّ، يسيطرون على معظم لبنان الحالي الذي كان يتشكل حينها من أربع وحدات تاريخية: جبل عامل، وبلاد بعلبك والبقاع، وجبل لبنان، وجبل الشوف. واستناداً إلى الوثائق الرسميّة للدولة العثمانية، فإنّ الوجود الشيعي في هذه المناطق، كان وجوداً كاسحاً، ورئيسياً في جبل لبنان، كانوا يسيطرون على هذه الوحدات باستمرار والحكم فيها والإدارة لهم، باستثناء جبل الشوف المنطقة الوحيدة التي لم يكن فيها وجود شيعي. واستناداً إلى دفتر النفوس العثماني أيضاً، فإنّ عدد سكان لبنان كان حتى عام ١٦٨٦م، كان

(١) سعدون حماده، تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال، ط ٢، ٢٠١٣، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) ميخائيل موسى أوف، تاريخ بعلبك، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٣) محمد جواد مغنية، الشيعة الحاكمون، مرجع سابق، ص ١٩٤.

٢٥٦٧٤٦ نسمة، منهم ٩٨ ألف شيعي أي ما نسبته ٣٨ بالمئة من مجموع السكان، و٧٦ ألف سني أي ٣٠ بالمئة، و٣٥ ألف درزي أي ١٣ بالمئة، و٤٤ ألف مسيحي من مختلف المذاهب أي ١٨ بالمئة^(١).

يظهر من حيث الحجم النسبي للمذاهب الدينية التي تتوزع الخارطة السكانية آنذاك، أن الكتلة السكانية الشيعية هي الكتلة الأكبر في لبنان إذ تصل نسبتها إلى ٣٨ بالمئة، يأتي بعدها الكتلة السنية، فالكتلة الدرزية، فالكتلة المسيحية.

وكما ذكرنا آنفاً، فإن علاقة الشيعة بالعثمانيين، لم تختلف كثيراً عن علاقتهم بالمماليك، حيث بقيت علاقة متوترة، خاصة وأن الدولة العثمانية^(٢)، كانت تعتبرهم متمردين وعصاة، وخارجين عن الدين ويجوز قتلهم، وهذا ما جعلهم يلجأون إلى الدفاع عن النفس والتمرد، ثم إلى المطالبة بالحكم الذاتي ضمن السلطنة العثمانية، وعدم دفع الضرائب.

لم تلق هذه المطالب أذاناً صاغية لدى

العثمانيين، بل جوبهت بالرفض التام، حتى اندلعت الثورة الشيعية عام ١٦٨٥م، وشملت مناطق جبل عامل، وبعلبك، وجبل لبنان، واستمرت حتى عام ١٧١٠م. وبعد فشل العثمانيين بإخماد الثورة، فتعزز الوضع الشيعي، وحكموا مناطقهم باستقلال ذاتي، حيث امتدت من جبل عامل فكسروان، فبعلبك وصولاً إلى تخوم حلب.

استمر الوضع كذلك حتى العام ١٧٦٠م، عندما جرد العثمانيون حملة عسكرية واسعة ضد الوجود الشيعي في لبنان، فشرّدوا وهجروا من أماكنهم، وتعرضوا لموجات إبادة واقتلاع^(٣).

وبعد سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الشام، ارتكبت المجازر بحق الشيعة، ولا سيما على يد السلطان سليم الأول الذي استند إلى فتاوى ابن نوح التي تجيز قتلهم حيث يقول: «إن هؤلاء الكفرة والبغي والفجرة، جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والفساد وأنواع الفسق والزندقة والإلحاد، ومن توقف في كفرهم وجواز قتلهم فهو

(١) الشراع: مقابلة أجريت مع الدكتور سعدون حماده بتاريخ ٢٧/١٢/٢٠١٠، حول «تاريخ لبنان الجديد»، يذكر خلاله الدكتور حماده أنه اعتمد في معلوماته على:

- الأرشيف العثماني.

- التقارير الدبلوماسية للقناصل الأوروبيين الذين كانوا في تلك الفترة في لبنان.

- وثائق الأديرة والطيركية المارونية.

(٢) تميزت الحقبة العثمانية بوجود راع دولي لكل طائفة لبنانية تساعدتهم وتحميهم باسثناء الشيعة. فالسنة كانوا يعتبرون أنفسهم طائفة الدولة العثمانية، والموارنة حمّتهم فرنسا، والأورثوذكس روسيا، والدروز فرنساً أولاً ثم انكلترا.

(٣) د. سعدون حماده، مرجع سابق.

كافر مثلهم..... يستخفون بالدين ويستهنئون بالشرع ويستحلون الحرمات وينكرون خلافة الشيخين، فيجب قتلهم تابوا أو لم يتوبوا»^(١). ويروى أنه في عهده قتل ٤٤ ألف شيعي في جبل عامل، و ٤٠ ألف في حلب، وكذلك في عهد الجزار الذي قتل عشرات الآلاف منهم^(٢).

ويذكر كمال الصليبي أنه عندما أصبح الشهابيين أمراء على لبنان، كانوا يدينون بالسنة، غير أن إمارتهم خضعت للإقطاعية الدرزية على الرغم من التفوق العددي لموارنة الجبل الذين عانوا من الضعف السياسي. فمنذ أواخر القرن السابع عشر، وقعت مناطق بشري والبترون وجبيل المارونية، ومنطقة الكورة الملكية الأورثوذكسية، تحت نفوذ آل حمادة الشيعية^(٣)، الذين تولوا أمر هذه المناطق عن ولاية طرابلس، وكان حكمهم عنيفاً وظالماً، ولم تكن للأمراء الشهابيين في البدء سيادة عليهم^(٤).

ومن الواضح أن الكثير من العائلات الشيعية اتجهت نحو منطقة بعلبك الهرمل من مناطق مختلفة في لبنان، ولعل أكثرها أهمية هو الجبل الذي نزحت منه العشائر الحمادية، وأقامت في كسروان وجبيل وعملت على تركيز سلطتها هناك، لكنها نتيجة الظروف السياسية غير المناسبة اضطرت إلى النزوح باتجاه بعلبك - الهرمل.

ومنذ عهد الإمارة المعنية والشهابية سادت حالة من التعاون بين الطوائف، فعاش الموارنة والدروز والسنة والشيعية والروم الأورثوذكس والروم الكاثوليك، معاً وقامت بينهم روابط سياسية، ثم انضمت إليهم طوائف أخرى (البروتستانت)، وعلى الرغم من ذلك فقد شكلت كل طائفة من هذه الطوائف مجتمعاً خاصاً قائماً بذاته، وبالنسبة إلى العلاقات مع خارج الطائفة، فكان يتم التحالف معها تبعاً لسياسة الإقطاعيين الذين يسيطرون على الحكم في

(١) سعدون حمادة، تاريخ الشيعة في لبنان، دار الخيال، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) د. هيثم مزاحم، مقالة بعنوان «شيعة لبنان من أبي ذر الغفاري إلى حزب الله»، مرجع سابق.

(٣) العشائر الحمادية: كان موطنها الأصلي في العراق، انتقلت مع جدها حمادي إلى بلاد بخارى العجم، بعد ما خرجت عن طاعة الشاه، فوجه إليها جيشاً كبيراً، فقتل من قتل، وفرت البقية منهم إلى العراق، لكن إقامتها لم تدم طويلاً، فالتجأت إلى «سلمية»، في سوريا. وهناك وقعت معركة ضارية بينها وبين قبائل «الحدادين» ما اضطرها إلى النزوح نحو مناطق جبل لبنان فنزلت في «الحصين»، ومنها تفرقت في جبة المنيطرة ووادي علمات، ثم سار قسم منها بعد ذلك إلى بلاد بعلبك، وتولى بلدة الهرمل - طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٩٢. أنظر أيضاً: نسيم نوفل: كتاب بطل لبنان الشهير الطائر الصيت المرحوم يوسف بك كرم، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، ١٨٩٦، ص ١٠٣.

(٤) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ٣٢.

البلاد، وإن كان ذلك لا يتعدى شؤون الرعية وجمع الضرائب ومسايرة الحكام العثمانيين بهدف الحفاظ على مراكزهم^(١).

لكن وضع الشيعة في جبيل وكسروان خلال عهدي الإمارة المعنية والشهابية، لم يكن مستقرًا، إنما كان يضعف ويقوى تبعًا لقوة مشايخ آل حماده ونفوذهم المستند بشكل أساسي في تلك المنطقة على ما يملكون من إمكانيات عسكرية، التي كانت في حالة مد وجزر، وذلك بحسب علاقاتهم مع السلطان والأمراء والطوائف والمذاهب الموجودة في المنطقة. ومع انتهاء عهد الإمارة الشهابية اختلف واقع جبل لبنان عن المراحل السابقة، فأصبحت إدارة هذه المنطقة تابعة للسلطات العثمانية بعد تعيين عمر باشا النمساوي حاكمًا لها. وقد شكّل هذا التعيين قيام أول نظام طائفي في جبل لبنان الذي تمّ تقسيمه إلى قائممقاميتين (١٨٤٢م-١٨٦١م)، واحدة درزية وأخرى نصرانية. ولقد كان لشيعة هذه المنطقة دور مهم في إدارة هذه المرحلة وفقًا للتمثيل الطائفي والمذهبي الذي اعتُمد في هذا النظام الجديد. لكن تقسيم جبل لبنان إلى قائممقاميتين، وتدخل عدد من الدول الأوروبية في شؤون الطوائف والمذاهب اللبنانية، خلق جوًّا من الحقد والكراهية،

وإشاعة جوٍّ مذهبي وطائفي بين الطوائف اللبنانية تسبب به هذا النظام، انتهى بفتنة بين الدروز والمسيحيين عام ١٨٦٠م، انعكست على باقي طوائف لبنان ومذاهبه، بمن فيهم شيعة جبل لبنان، وكسروان، والشّمال، وضواحي بيروت والبقاع.

واستوجب العمل على وأد الفتنة، وإعادة وحدة جبل لبنان الذي لم يعرف التقسيم الطائفي في تاريخه. فكانت هذه دوافع أساسية لقيام نظام متصرفية جبل لبنان (١٨٦١م-١٩١٥م)، بغطاء أوروبي ومباركة عثمانية، ومن خلاله أعيدت الوحدة إلى جبل لبنان، واستمر هذا النظام حتى العام ١٩١٥م.

وبالاعتماد على تعداد سكان الطوائف اللبنانية قامت المجالس والمؤسسات الإدارية التي أقرها نظام المتصرفية بتقسيم إدارتها على الطوائف والمذاهب. ولقد شكل شيعة جبيل وكسروان جزءًا من هذه المعادلة الطائفية، بحيث كانت لهم حصتهم التمثيلية لأبناء مذهبهم ضمن هذه المجالس. وقد تشكل مجلس إدارة للجبل مؤلف من ١٢ عضوًا، توزعوا مذهبياً على الشكل التالي: ٢ موارنة، ٢ دروز، ٢ روم كاثوليك، ٢ روم أورثوذكس، ٢ متاولة، ٢ من المسلمين السنة. وكانت مهمة هذا المجلس،

(١) المرجع نفسه، ص ٢٧، وأنظر أيضاً: عاطف عطية، الدولة المؤجلة، د.ت، دار أمواج، ص ١٩.

توزيع الضرائب، والبحث في إدارة موارد الجبل ونفقاته، وإبداء رأيه في المسائل التي يعرضها عليه المتصرف^(١).

لكن مع قيام دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠م، الذي أفضى إلى ضم مجموعات سكانية مهمة من شيعة باقي المناطق الملحقة في البقاع والجنوب، تراجع دور شيعة جبل لبنان في جبيل وكسروان على المستوى السياسي عما كان عليه زمن حكم القائماتيتين والمتصرفية بانحسار تمثيلهم الطائفة في مجالس كل منهما حيث برز دور هام لشيعة المناطق الملحقة حديثاً^(٢).

الخاتمة

تميّز لبنان أنّه أحد مراكز التّشيع طوال التّاريخ الإسلامي، حيث عمّ انتشارهم مختلف المناطق اللبنانية وإن بنسب متفاوتة، وأصبحوا جزءاً من المجتمع اللبناني. وقد شهدت الطائفة الشيعية على مرّ العصور ظروفاً تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية، أثرت على بناء مجتمعها داخل المجتمع اللبناني حيث لا تركيبة اجتماعية موحدة فيه.

عانت هذه الطائفة الاضطهاد وحروب

الإبادة والقمع على مرّ العصور. وإذا كان لكل طائفة من الطوائف اللبنانية خصائص ميّزتها من الطوائف الأخرى بحسب اختلاف الأسباب التي رافقت نموها وتطورها، فإنّ ما كان يميز الطائفة الشيعية من سواها من الطوائف هو الحذر السياسي والقلق الدائم، فقد اضطهدت في عهد الدّولتين الأموية والعباسية، وتعرضت لعمليات قمع تاريخية كانت تدفعها إلى هجرة مواطنها، إذ إنّها لم تكن منتشرة في بقعة واحدة.

ولم تسلم هذه الطائفة من ظلم الأيوبيين والمماليك لها، الذين اعتمدوا سنة دينية متعصبة، فنكّلوا بالشيعة خاصة بعد صدور فتوى «ابن تيمية».

وبعد قيام الدولة العثمانية على أنقاض دولة المماليك، أفتى بعض شيوخها بجواز قتل الشيعة لأنهم خارجين عن الدّين فلاقوا جرّاء ذلك تعذيباً وقتلاً وتهجيراً.

ولا شك أن اضطهاد الشيعة اللبنانيين على مدى قرون طويلة، جعلهم في حالة خوف وقلق دائمين على مصيرهم، وأحيا روح المقاومة في شخصية كل فرد منهم.

(١) الشيعة في لبنان من التهميش إلى المشاركة الفاعلة، علي راغب حيدر أحمد، المسلمون الشيعة في جبيل وكسروان والشمال، ص ١٨-٣٠.

(٢) الدكتور علي راغب حيدر أحمد، المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل سياسياً - تاريخياً - اجتماعياً بالوثائق والصور، ١٨٤٢-٢٠٠٦، ط ١، دار الهادي، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، ص ٨.

وعلى الرغم من ذلك، بقي المكوّن الشيعيّ منذ بداية العهد العثمانيّ حتّى منتصف القرن الثّامن عشر المكوّن الأساسي في لبنان يسيطر على معظم لبنان الحالي باستثناء منطقة الشُّوف.

المصادر والمراجع

- ١ - كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط ٤.
- ٢ - فيليب حتي، لبنان في التاريخ، دار الثقافة بيروت، ط ١، ١٩٨٠.
- ٣ - الشيعة في لبنان من التهميش إلى المشاركة الفاعلة، مجموعة من الباحثين، أحمد ماجد «الشيعة بين لبنان والعراق»، دار المعارف، ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م.
- ٤ - محمد علي مكّي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني. (١٥١٦-٦٣٥)، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، د. ط.
- ٥ - أ.ر. أرثون، أمل والشيعة، ترجمة غسان الحاج عبدالله، دار بلال، بيروت، ١٩٨٢.
- ٦ - محمد أحمد ترحيني، الأسس التاريخية لنظام لبنان الطائفي، دراسة مقارنة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٧ - خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الدينية، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٦.
- ٨ - أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
- ٩ - أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، دار النعمان، العراق ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ١٠ - محمد حسين الطباطبائي، الشيعة في الإسلام، ترجمة جعفر بهاء الدين.
- ١١ - محمد الجواد مغنية، الشيعة والحاكمون، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٢ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٨ - ١٩٥٩م.
- ١٣ - د. محمد حمادة، تاريخ الشيعة (في لبنان وسوريا

- والجزيرة في القرون الوسطى)، تمت ترجمته ومراجعته بإشراف د. جعفر المهاجر، دار بهاء الدين العالمي.
- ١٤ - أبو الفرج الأصفهاني، علي بن موسى بن جعفر بن محمد، مقاتل الطالبين، دار المعرفة بيروت.
 - ١٥ - المحامي محمد حيدر أحمد، بلاد جبيل أرضاً وشعباً، منشورات الحركة الإنمائية لبلاد جبيل، ط ١، ١٩٩١.
 - ١٦ - نابل أبو شقرا، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع جبل لبنان، دار إشارات للنشر، بيروت ١٩٩٢.
 - ١٧ - كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ط ٢، بيروت دار نوفل، ١٩٩٢، ص ١٣٤.
 - ١٨ - حسن عباس نصرالله، تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء، بيروت، ج ١، ١٩٨٤.
 - ١٩ - الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي، بعلبك في التاريخ.
 - ٢٠ - عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف.
 - ٢١ - د. فؤاد خليل، الحرافشة إمارة المساومة (١٥٣٠-١٨٥٠)، دار الفارابي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
 - ٢٢ - سعدون حمادة، تاريخ الشيعة، دار الخيال، ط ٢، ٢٠١٣، المجلد الأول.
 - ٢٣ - ميخائيل موسى أوف، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨٩.
 - ٢٤ - نسيم نوفل: كتاب بطل لبنان الشهير الطائر الصيت المرحوم يوسف بك كرم، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، ١٨٩٦.
 - ٢٥ - عاطف عطية، الدولة المؤجلة، د.ت، دار أمواج.
 - ٢٦ - الدكتور علي راغب حيدر أحمد، المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل سياسياً - تاريخياً - اجتماعياً بالوثائق والصور، ١٨٤٢-٢٠٠٦، ط ١، دار الهادي، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.

الإحصاء في القرآن الكريم وحساب مؤشر مصير الإنسان

أ.د. محمود نجيب مراد^١ د. يوسف إبراهيم شاهين
الجامعة اللبنانية - كلية العلوم الإقتصادية ودارة الأعمال (الفرع الخامس)

ملخص:

النار، وذلك نظراً لتعدد القيم لهذا المؤشر سواء أكانت إيجابية في حالة الجنة، أو سلبية في حالة النار.

الكلمات الافتتاحية: قرآن، إحصاء، مؤشر، مصير، إنسان

إهداء: إلى كل من يعي قيمة العقل وعله منحه لبني البشر، إلى كل من يسمع القول فيتبع أحسنه، إلى كل من يميز بين البصر والبصيرة، ويعلم أن ما تراه البصيرة لأقوم مما تراه العين كحاسة للبصر، وما تسمعه البصيرة لأصدق مما تسمعه الأذن كحاسة للسمع، فالإنسان بتفكيره وليس بحريه، إلى كل من يريد أن يتقرب من الله عن حق وبحق، إلى كل من يؤمن بأن العلم منفعة ونعمة، والمعرفة زاد الروح، فلا يعلوها شيء ولا يتقدمها فتات الحياة، إليكم كلكم نهدي هذا العمل الفكري المتواضع.

أنجزت ورقتنا البحثية دراسة فلسفية مرتكزة على القرآن الكريم وعلى علوم الإحصاء والرياضيات. خلصت الورقة إلى تحقيق نقطتين اثنتين: الأولى تمثلت في الكشف عن عميق المعاني لعلم الإحصاء كما ورد في القرآن الكريم وذلك من خلال الغوص في الآيات التي ظهرت فيها كلمة الإحصاء أو مشتقاتها، وتمت مقارنة ذلك مع علم الإحصاء الحديث حيث تبين أن ما نطق به القرآن الكريم من مفهوم للإحصاء منذ حوالي ١٤٠٠ سنة، ينسجم كلياً مع المفهوم العصري لهذا العلم. والنقطة الثانية كانت جهداً فلسفياً رياضياً لحساب مؤشر رقمي يعكس نتيجة أعمال البشر من خير وشر وما لتلك الأعمال من أوزان في الإمام المبين. تبين لنا وجود ضرورة رياضية لتفاوت الدرجات في الجنة والدركات في

مقدمة

من المتعارف عليه في أوساط المتخصصين والمتعمقين في علم الإحصاء، هو أنَّ الإحصاء علمٌ يهدف إلى كشف المستور من الظواهر المحيطة بنا في الطبيعة والمجتمع، في جميع المجالات من استثناء. إنَّه ذلك العلم الذي ينطق بالعدد أي يرتكز على الواقع الملموس والمُقاس مع دقة في التركيز ومهارة في التصويب. فلا قيمة لعملية تفتقر إلى الدلالات الرقمية الكافية والمبنية بشكل منطقي، والمنظمة على أسس واضحة، فلا نقص من هنا أو خلل من هناك، بل لدينا نحن العاملين في صناعة القرار، كلَّ المستلزمات الإحصائية اللازمة، ونكاد نقول كلَّ المفاتيح التي تسمح وبشكل جلي، رصد الظاهرة التي نتفحصها، ونريد فهمها واستيعابها، بعيدين عن الفوضى والخلل، لأننا نمتلك الوسائل الكافية من أجل الإحاطة بها من كلِّ الجوانب مما يساعد في اتخاذ القرارات العلمية المبنية على العقل والدراية من دون إرباك أو حيرة. وهنا لا بدَّ من العودة إلى كتاب الوحي، إلى القرآن الكريم، الذي بيَّن لنا أهمية الإحصاء ومعانيه الحقيقية، والغاية منه، واللازم علينا فهمه والعمل من خلاله حتى نصل إلى برِّ الأمان في الدنيا والآخرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل من دلالات على وجود أثرٍ فكري لعلم الإحصاء في القرآن الكريم؟ وفي حال كان الجواب نعم، هل من فارق بين مضمون الإحصاء في القرآن ومضمونه في عصرنا الحاضر؟ لنعود إلى كلمة الإحصاء لنقف أولاً على معانيها اللغوية.

من حيث المصطلح اللغوي، يقول سميح الزين^(١): الإحصاء يعني التحصيل بالعدد، وهو من لفظ الحصى. فمنذ الماضي البعيد، Dahan- Dalmedico & Peiffer (1987)، استخدم الإنسان الحصة كوسيلة للعدِّ، كاستخدامه الأصابع، وهذا ما يقوم به التلامذة في السنوات الأولى في المدرسة في عصرنا الحاضر. من هنا نرى أنَّ الحصة كانت تمثِّل وسيلة الإحصاء، خاصة مع بداية الإنسان في التعامل مع المجردات. فالإنسان القديم، راعي غنم مثلاً، استخدم الحصة ليتعرَّف على عدد خرافه خلال مغادرة القطيع إلى المراعي أو حين عودته منها. فكل حصة تؤشِّر مثلاً إلى وجود نعجة معينة. فالحصة إذاً كانت وسيلة للعد، وتطابق عدد الحصى مع عدد الأغنام كان بمثابة اطمئنان إلى الراعي، وإلا سيسود القلق والخوف خاصة إذا كان عدد الحصى يفوق عدد الأغنام (Charnay

(١) سميح عاطف الزين، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، المجلد الأول، ص ٢٤٢.

(1996). أما في المُنجِد فنقرأ: أحصى الشيء يعني عدّه وضبطه. يقال هذا أمرٌ لا أحصيه: أي لا أطيقه ولا أضبطه. والحصاة تعني العدد، وتأتي أيضاً بمعنى العقل والرأي لأن العقل يُحصى أي يحفظ ويُطاق به حمل المفهومات، ويُقال عن فلان: ما له حصاة، أي ماله عقل. وفي الحديث: لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة. من تلك الأسماء، كلمتي المحصي والحسيب: فالمحصي هو الذي أحصى كلَّ شيء بعلمه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، أما الحسيب هو الكافي الرفيع الشأن، هو الذي يعلم ويكفي، كما وتفيد معنى الرقيب^(١). وكذلك نقرأ في السيرة: «نفسٌ تُنجيها خيرٌ لك من إمارةٍ لا تُحصيها»^(٢) أي لا تُحسنُ إدارتها والإحاطة بها من جميع جوانبها.

يقول الشيخ الطبرسي^(٣) نقلاً عن الجبائي «إن حُمَلَ الإحصاء على العلم تناول جميع المعلومات، وإن حُمِلَ على العدِّ تناول الموجودات». وخلاصة ما نقصده، أصبح الإحصاء في عصرنا، علماً (فرعاً من فروع الرياضيات) يعتمد على العدد من خلال القياس والتجربة، والغاية الحصول على كمية من المعرفة من خلال تحليل البيانات

الرقمية ما يساعد الباحث في استخلاص النتائج واتخاذ القرارات المناسبة (انظر أحمد بدر (١٩٧٥)). إنّه يفيد جميع التخصصات العلميّة من دون استثناء، بل وأنّ الحاجة إليه تزداد يوماً بعد يوم في المختبرات العلميّة، ومراكز الأبحاث. الإحصاء علمٌ يجمعُ ويُنظّمُ وهو يهدف في النهاية إلى معرفة الظاهرة التي ندرسها، سواء أكانت اقتصاديّة، أم ماليّة، إداريّة، بيئيّة، طبيّة، هندسيّة، سكانيّة، الخ. إنّه وسيلة لتحصيل المعلومة من خلال دراسة الوقائع الميدانيّة وبالتالي ينير طريقنا نحو المعرفة بالكل من خلال الإحاطة بالجزء. وللإحصاء منهجه، وميادينه، إذ يطال كل الموجودات، وبالتالي يبحث عن التّمايز أو التجانس لتلك الموجودات، وما هي قوانين حركتها في الوجود. من هنا أهمية البيانات الإحصائيّة الصحيحة، البعيدة عن الإهمال والتشويش، والتي تفيد بجانب التذكّر الدائم للظاهرة الإحصائيّة، فلا نسيان أو تناسي، وإنما تحضر الظاهرة برصدها إحصائيّاً، وهذا ما يساهم في تصويب القرار وحركة سعي الإنسان. هذا السعي ليس محصوراً فقط بلحظة تحقّقه، وإنّما بآثاره المستقبلية. فاختراع آلة تفيدُ البشر، سيكون له أثرٌ على

(١) سميح عاطف الزين، مُعجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص ٢٦١.

(٢) سميح عاطف الزين، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، المجلد الأول، ص ٢٤٢.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء العاشر، ص ١٥٦.

الأجيال القادمة، وكذلك تلوث الأرض
بالأسلحة الكيميائية وغيرها، سيكون له
ضررٌ على أجيال لم تولد بعد. إذاً عمل
الخير بفعله وبأثره، وكذلك عمل الشرّ بفعله
وبنتائج الأنية والمستقبلية. وهنا نتلمّس
الفعل الديناميكي في الإحصاء.

وبما أنّ الإنسان مخيّرٌ بأفعاله، فهو في
نفس الوقت خاضعٌ إلى رقابة إلهية مطلقة،
فأعماله من خير وشر محفوظة في الإمام
المبين، وبالتالي سينال ثوابه وعقابه
وسيتحدّد مصيره يوم القيامة، يوم
انكشاف الصحف، فإمّا إلى الجنة ومّا إلى
النار. سنحاول في هذا البحث، استخدام
الإحصاء لبناء مؤشر إحصائي رياضي، إذ
سيكون بمثابة ملخّص لكتاب الإنسان يوم
القيامة أي خلاصة لأوزان حسناته
وسيئاته. ومن خلال قيمه العددية، سيتحدّد
مصير الإنسان في العالم الآخر هذا إذا
نظرنا للمسألة من زاوية العدالة... علماً تبقى
رحمة الله سبحانه والتي وسعت كل شيء
هي الأمل والمرتجى لجميع المؤمنين
والمؤمنات.

أهداف البحث: للبحث أهداف عدة،
نوجزها بما يلي:

- أ - هل يوجد في القرآن الكريم دلالات
على مفهوم لعلم الإحصاء؟
ب - هل يتناغم مفهوم الإحصاء في القرآن

الكريم مع المفهوم العصري
للإحصاء؟

ت - هل يفقه المسلمون خاصة، والعالم
ثانية، أهمية الجانب العلمي للإحصاء
كما ورد في القرآن الكريم؟

ث - هل من أثر للمفهوم الإحصائي
القرآني على وعي مجتمعاتنا لدورها
في عمارة الأرض وإشاعة مناخ
السلام في العالم؟

ج - هل من طريقة رياضية إحصائية
نستطيع من خلالها بناء مؤشر
لمصير الإنسان من حيث وزن أفعاله
الحسنة والسيئة؟

منهجية البحث:

أما منهجية البحث فستعتمد، من جهة،
على المنهج الرياضي الاستنباطي لفهم
الدلالات الإحصائية في القرآن الكريم. ومن
جهة أخرى، على استخدام الرياضيات لبناء
مؤشر مصير الإنسان بعد أن يتوفاه الله
(جلّ وعلا).

فرضية البحث:

التخلّف الذي ضرب المجتمعات
الإسلامية منذ بدايات انهيار الأمبراطورية
العثمانية، والهجمة الاستعمارية الحديثة
على دول العالم الإسلامي، واستخدام
الإعلام المغرض، وانتشار الأمية في بلاد
المسلمين، والتركيز على الطقوس الدينية

وفصلها عن مناخات التفكّر والتأمّل، كل ذلك ساهم في طمس لحقائق إحصائية سامية حدّث عنها القرآن المجيد منذ حوالي ١٤٠٠ سنة.

هيكلية البحث:

يتكوّن هذا البحث من مقدمة وثلاثة أجزاء وخاتمة:

الجزء الأول: ويتناول التفاتة سريعة إلى الأدبيات السابقة المتعلقة بالإحصاء في القرآن الكريم. الجزء الثاني: يتناول موضوع الإحصاء في المفهوم القرآني. نتوخى من هذا العمل تسليح القارئ الكريم بثقافة علمية إحصائية، تساعد في غناء نظرتّه إلى الوجود وما يترتب على ذلك من إلّزام بالقيم العليا والذي أَرادها الكتاب المبين منارة للإنسان السوي، الباحث عن الحقيقة، والناطق بمحبّتها. كما ويهدف إلى ثبات انسجام المفهوم الإحصائي في القرآن الكريم مع مفهوم الإحصاء في عصرنا الحاضر. أما الجزء الثالث: فكان إطلالة فكرية على إبراز علم الإحصاء كأداة تسمح في حساب مؤشر مصير الإنسان في طار رحمة الخالق سبحانه وتعالى. والنتيجة التي نتوخى الوصول إليها، نأملُ بأنّها ستساهم بنشر ثقافة المحبة والتسامح بين

بني البشر على اختلاف أعراقهم وأديانهم، وينتهي البحث بخاتمة.

الجزء الأول: بعض الأدبيات والدراسات السابقة

في الرياضيات، استهوت الأعداد الكثيرين من الرياضيين منذ قديم الأزمان. (Jouette 1996) من الناحية الفكرية، كثرت الكتابات حول الإعجاز القرآني من حيث بنيته اللغوية، فتحدّث الكثيرون عن الإعجاز اللفظي والعددي والحسابي في القرآن الكريم^(١). فالآية القرآنية الأولى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تتكون من تسعة عشر حرفاً (٣ + ٤ + ٦ + ٦)، ومجموع سُور القرآن الكريم ١١٤ سُورة أي ستة أضعاف الرقم ١٩، كما أنّ كلمة الله (جلّ جلاله) وردت مرة. وحتى على صعيد الأحرف، فسورة (ق) مثلاً تبدأ بالآية ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١]، وتحوي ٥٧ مرة حرف القاف، أي من مضاعفات الرقم ١٩. وهكذا فالمنظومات التسع عشرية في القرآن العظيم دلالة إعجازية وصفة فريدة من صفات الوحي الإلهي^(٢). لا نريد أن نتوسّع في هذا الباب الإعجازي، فقط أردنا أن نلفت الانتباه إلى وجود كم هائل من الأبحاث التي تتعلّق في الإعجاز العلمي في

(١) سميح عاطف الزين، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، المجلد الأول، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق.

القرآن (زغللول راغب محمد النجار (٢٠٠٤)). كما ونشير إلى الباحث محمد زكي محمد خضر (١٩٩٨) في دراسته المتعلقة بقضية ضوابط الإعجاز العددي القرآني، فمنذ عصر الحجاج بن يوسف الثقفي، قام المسلمون بإحصاء حروف القرآن وكلماته وسوره وأماكن الوقف فيه وأماكن الوصل، وغير ذلك. إذ يخلص الباحث إلى أمر أساسي مفاده أنَّ مجال الإعجاز العددي في القرآن الكريم مفتوحٌ ويُعتَبَرُ من المسائل الظنية ولا تتسم بصفة القطع بأي حال من الأحوال ما لم تكن معززة بنتائج مستندة إلى قواعد رياضية وإحصائية رصينة. وفي موضوع ضوابط الأعداد والإعجاز العددي نرى في دراسة فهد بن عبد الرحمن الرومي (٢٠١٠) ودراسة دريد موسى الأعرجي (٢٠١٢)، مساهمة في إثراء قضية ضوابط الإعجاز العددي القرآني. من المعروف بأنَّ القرآن الكريم يحتوي على ٦٢٣٦ آية بحسب ما اعتمده الكوفيون وما أخذ به مصحف المدينة المنورة المنتشر حالياً، وهو أنزل بلسان عربي مبين، فألفاظه وجمله وتراكيبه وأساليبه من البيان العربي. فالقرآن هو باللغة العربية وهو صمَّام أمان للغة العربية. وعلى صعيد حصر وإحصاء كلمات القرآن الكريم، نشير إلى كتاب الدكتور أحمد هليل (٢٠٠٨)، وفي استعمال الحاسوب

الإلكتروني نسجل وجود دراسة إحصائية للباحثين محمد زكي خضر وأكرم محمد زكي (٢٠١١) وذلك بخصوص الكلمة القرآنية وأعداد الكلمات في كل سورة من سور القرآن الكريم، كما حدّدت الدراسة طول الآية القرآنية من حيث عدد الكلمات، وتمَّ استخراج جذر الكلمة القرآنية والكلمات والجذور الأكثر تكراراً في كتاب الله، وتمكنت الدراسة من وضع بيانات مفيدة للعلماء الإحصائيين في علوم القرآن الكريم وعلماء التفسير وعلماء اللغة العربية وعلماء الإعجاز العلمي.

هناك مئات بل آلاف الكتب تتحدث عن إعجاز القرآن، وعن بنيته اللغوية وفصاحته وبلاغته، إذ هو يعلو كلَّ جمالات اللغة والتعبير، ولا يمكن لبشرٍ بأن يأتي بآية من مثله. بعد القيام بجولة حول الأدبيات المتعلقة بغاية بحثنا، (الإحصاء في القرآن كمفهوم علمي حسب المعايير العصرية الحديثة)، لم نجد دراسات محكمة بمنهجية واضحة، اللهم أراء مبعثرة هنا وهناك على شكل مقالات قصيرة لا تتسم بمزايا البحث العلمي الهادف والموضوعي. يوجد كتابات هائلة حول الإعجاز القرآني، فالدكتور محمد أزهرى (٢٠١٣)، تحدّث في بحثه القيم عن إحصاء لمظان المصطلح القرآني ومصطلحات علوم القرآن المعرفة وغير المعرفة، وإحصاء خاص بالمصطلح القرآني المعروف (وغير المعروف)

ومصطلحات علوم القرآن المعرفّة (وغير المعرفّة). ضمّ البحث سلة كبيرة من المصادر والمراجع ذات الصلة بالدراسات القرآنية المختلفة. كما أتى الباحث على معاني الإحصاء من الناحية اللغويّة، فيذكر المعاني التالية: العدّ، والحفظ، والحصر، والضبط، والإحاطة بالشّيء. وانطلاقاً من هذه المعاني، ينبغي أن يكون الإحصاء أميناً ودقيقاً وتاماً. بالنسبة إلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهرة، نلفت اهتمام الباحثين المعنيين إلى المكتبة الغنيّة بالمراجع (٢٥٠ كتاب) في شتى المواضيع وهي متوفرة (pdf) ^(١).

غايتنا هنا لا تهدف إلى الخوض في أفق الإحصاء والتصنيف للمصطلحات في الدراسات القرآنية، أو الخوض في الإعجاز العددي وضوابطه، أو التطرق إلى دراسة طول الآيات وقصرها والجذور المكونة لها، وإنّما تهدف إلى الكشف عن معاني الإحصاء التي وردت في القرآن الكريم ومقاربه تلك المعاني إلى علم الإحصاء الحديث.

الجزء الثاني: المفهوم الإحصائي في القرآن الكريم

من المعروف عند الجميع بأنّ عدداً كبيراً من علماء المسلمين درسوا علوم

القرآن ووضعوا تفاسيرَ للقرآن متجانسة أحياناً ومختلفة في أحيانٍ أخرى. وهنا تتجلى بوضوح عظمة القرآن الذي فيه بيان لكل شيء، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. فتعدد تفاسير القرآن، إنّما يدلّ على عظمة المعرفة الكامنة بين آياته، وبالتالي على الإنسان العاقل أن يجدّ السعي كي يتذوق تلك المعارف، فيسمو مكانةً في مسيرته الدنيوية، خاصة إذا أنتجت معرفته عملاً خيراً يساهم في إعمار الأرض على مبادئ الرحمة والخير والعدالة لجميع بني البشر. لكن قبل الدخول في موضوعنا، لا بدّ لنا من التعرف على كلمة التفسير كما وردت في التفسير الموضوعي ^(٢) التفسير هو البيان، فسّرُ الشّيء تفسيراً أي بيّنته. من هنا نفهم الفرق بين التفسير والتأويل، فالأول يعني تبين المراد باللفظ والثاني تبين المراد بالمعنى. وإذا تحرينا حركة التفسير الإسلامي، نرى اتجاهين اثنين: «الاتجاه التجزيئي، والاتجاه الموضوعي» ^(٣). الأول يتناول آيات القرآن آية آية، باحثاً عن السياق الذي وقعت فيه، ودارساً علاقتها بالآيات التي تشترك مع هذه الآية في مصطلح معين، ورابطاً كلّ ذلك بالأحاديث النبوية وبآراء غيره من المفسّرين. وهذا ما نجده مع الطبري،

(٣) المصدر نفسه، المجلد التاسع، ص ٩٣.

(١) <http://www.startimes.com>.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

والطبرسي، وابن كثير، والقرطبي وغيرهم. والمهم قوله في هذا المجال، هو أنَّ التفسير الجزئي كان يهدف إلى فهم الآية دون أن يتجاوزه^(١) أما التفسير الموضوعي فيتناول دراسة موضوع معين من الموضوعات القرآنية المختلفة، فيقوم المفسر بالبحث والاستدلال كي يصل في النهاية إلى دراسة شاملة عن الموضوع وبالتالي يستطيع أن يقدم للعالم رأي القرآن الصريح به، وهذا ما نحتاجه فعلاً في عصرنا الحاضر. وهذا ما سنقوم به في دراستنا للآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الإحصاء أو مشتقاتها، مستفيدين من تجارب من سبقنا في هذا المجال، ومتسلحين بما توصل إليه علم الإحصاء في جميع مكوناته.

يحتوي القرآن الكريم على إحدى عشرة آية ذُكرت في كل منها كلمة الإحصاء أو مشتقاتها اللغوية. وهذه الآيات هي التالية (حسب التسلسل في الفهرس القرآني):

جدول (١): آيات الإحصاء في القرآن الكريم		
السورة	رقم الآية	الآية
إبراهيم (مكية)	٣٤	﴿وَاتَّخَذَ مِنْكُمْ مَنِ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لَكَلُومٌ كَفَّارٌ﴾
النحل (مكية)	١٧	﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
الكهف (مكية)	١٢	﴿ثُمَّ بَدَّلْنَاهُمْ لِنِعْمَةِ آدَمَ الْفِرْيَانِ لِمَا كَانُوا عَمَدًا﴾
الكهف (مكية)	٩٣	﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِي يَدَيْ آلِهَامٍ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا آلَهُ هَذَا الْكِتَابُ لَا نَجِدُ فِيهِ حِكْمَةً وَلَا يَذْكُرُ الْفِرْيَانِ إِلَّا أَكْثَرَهَا وَجْهًا وَمَا عَمِلُوا بِحِكْمَةٍ وَلَا يُبْدِيهِمْ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
مريم (٩٤)	٩٤	﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَعَدْنَاهُ عَدًّا﴾
يس (مكية)	١٢	﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ﴾
المجادلة (مدنية)	٦	﴿يَوْمَ يَمُنُّونَ بِاللَّهِ جَمِيعًا فَيُنْزِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُحُوًّا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾
الطلاق (مدنية)	١	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ...﴾
الجن (مكية)	٢٨	﴿لَيَعْلَمَنَّ أَنَّ قَدْ أَتَيْنَاهُ رُسُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدًّا﴾
المرسل (مكية)	٢٠	﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ كُلِّ أَيْلٍ وَنُصْفَةٍ وَلَهُمْ مَلَكَةٌ مِّنَ اللَّيْلِ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدَرُ أَيْلٍ وَالنَّهَارَ عَلَيَّ أَنْ لَوْ فَحَصْنَاهُ مَا تَكُنَّا فَاكِرًا مَا تَكُنَّ مِنَ الْفُرْيَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَمَأْوَاهُ يَبْرُكُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَوُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَا يَحْزَنُونَ يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرُبُوا مَا تَسَرَّ مِنْهُ وَأَنْبِئُوا السَّادَةَ وَأَتُوا الزُّكُوفَ وَأَقْرِبُوا اللَّهَ قَرِيبًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِرُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
النبا	٢٩	﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾

(١) نقرأ في المصدر السابق (ص ٩٦) ما معناه: أفسح التفسير الجزئي المجال لظهور مدارس فكرية متناقضة في ما بينها، فأصبحت كل فئة تحاول تفسيراً للقرآن بما يتناسب مع مذهبها. فالآية ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فسروها بأن الله خلق الإنسان وخلق أعماله معه. وكذلك فعل المعتزلة في دفاعهم عن خلق القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] فسروها بأن الذكر هو القرآن، والمحدث يعني المخلوق.

والآن سنحاول الوقوف على المعاني البينة في الآيات في الجدول (١). تربط الآية [إبراهيم: ٣٤] العدَّ بالإحصاء وبالتالي تبين أهمية العدد في استجلاب المعرفة. كما تعطي المعنى الفلسفي الرائع للإحصاء ألا وهو الإحاطة الكلية بناموس وضرورة الظواهر على اختلافها. من الناحية اللغوية، أتت كلمة «من» للتبعيض، لأنه لو قال وآتاكم كل ما سألتموه، لأقتضى أن يعطي الله كل ما يسأله الإنسان. وفي بعض التفاسير (زبدة البيان) و(مجمع البيان)، ما نكرة موصوفة: «ما سألتموه بمعنى لم تسألوه. ومعنى الآية واضح من الناحية الإحصائية. فمهما نعد من نعم الله لا نتمكن من الوصول إلى ما لا نهاية وبالتالي لا نستطيع أن نحصى مجتمع النعم الإلهية التي أنعم بها على سائر مخلوقاته (نعمة الجاذبية الأرضية هل فكّرنا بها). الإحصاء هنا أتى بمعنى الإحاطة الشاملة لمجتمع غير متناهٍ. وقبل هذا ما المقصود بالنعمة؟ هي الحالة الحسنة. إذا عرف الإنسان جدول الضرب فذلك نعمة، وإذا عرف نتيجة ضرب

أي عددين مكوّن كل منهما من رقمين، فذلك نعمة، وهكذا كلّما تمكّن الإنسان من زيادة معارفه في جدول الضرب، تزداد نعمه. وهذا دليل بسيط وواضح بأن مجتمع النعم الإلهية هو غير متناهٍ.

أما الآية [النحل: ١٧] فأنت بعد الآية ﴿أَمَّنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ والتي تشير إلى إستحالة تساوي الخالق مع المخلوق. فالخالق وحده المستحق للعبودية. لذلك فالخالق هو صاحب جميع النعم الظاهرة والباطنة، المعروفة والمجهولة بالنسبة إلى بني البشر. تلك النعم تنتمي إلى مجتمع غير متناهٍ، وبالتالي لا يمكن تعدادها ومعرفة تفاصيلها. الإحصاء هنا لم يشمّل على معنى العد فقط وإنما تعدّى ذلك ليشمّل التفاصيل المعرفية المتعلقة بتلك النعم أي ماهية النعمة^(١).

تتكلم الآية [الكهف: ٢٥] عن أهل الكهف وما جرى لهم، إن هو ليس بالأمر العجيب أمام خلق السماوات والأرض. أنامهم الله في الكهف سنين كثيرة، ثم أيقظهم من نومهم.

(١) هناك ملاحظتان: الأولى أن كلمة (نعمة) كُتبت بشكلين (نعمت، نعمة)، والثانية أن كل آية انتهت بعبارة تختلف عن الأخرى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. لماذا تُرسم الكلمة ذاتها بشكلين مختلفين، مرة بالناء العادية ومرة بالناء المربوطة، ماذا سيقدم هذا الرسم؟ الآية الأولى حُتِمت بظلم الإنسان وكفره، والآية الثانية حُتِمت بمغفرة الله تعالى ورحمته، أي نحن أمام حقيقتين متعاكستين. لا نريد أن نذهب بعيداً في هذه التساؤلات الهامة بدون شك، لأن تلك التساؤلات تفتح أبواباً عدة، وهذا يحتاج إلى عشرات الصفحات، انظر (عبد الدائم الكحيل) عن الموقع (www.kaheel7.com).

فانقسم الناس من أصحاب الكهف إلى فريقين بالنسبة إلى عدِّ أمدِ لَبْثِهِمْ (وهذا ما ينقله الشيخ الطبرسي). الإحصاء هنا أستخدم لمعرفة مدة نوم أصحاب الكهف، والتي هي مدة محدودة. ومن المتعارف عليه الآن بأنَّ متوسط مدة نوم الإنسان هو ٨ ساعات في اليوم. وظاهرة النوم تخضع إلى القانون الطبيعي (normal distribution). أين توجد مدة نوم أصحاب الكهف؟ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا شَعَابًا﴾. من ناحية علم الاحتمال، احتمال تلك المدة كأنه صفر، ولكن ليس بصفر من الناحية الرياضية. وهذا ما يعتبر نقطة غير طبيعية في دراسة مدة النوم عند الإنسان، قيمة متطرفة (outlier)، إنَّها معجزة!

وفي سورة [الكهف: ٩٣] أيضاً، نجد اعترافاً صريحاً لمجتمع المجرمين، حين توضع صحائف بني آدم بين أيديهم. فأصحاب الأعمال السيئة يخافون من ذلك، ويدعون على أنفسهم بالويل والثبور، فيصابون بدهشة كبيرة، لأنَّ الكتاب يذكر بالتفصيل جميع ما اقترفوه من ذنوب، فكلُّه معدودٌ ومثبتٌ ومحفوظٌ في هذا الكتاب. فإله سبحانه لا يُنْقِصُ ثوابَ محسن، ولا يُزِيدُ في عقابِ مُسيء. الإحصاء هنا تناول معاني التثنية، التفصيل، العدِّ، والحفظ.

أما بالنسبة إلى سورة [مريم: ٩٤]، فنرى منفعةً فكرية بالعودة إلى الآية التي سبقتها ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، تُشيرُ إلى مسألة العبودية الخالصة لله لكلِّ ما هو موجود في السماوات والأرض. فالخلق جميعهم من أنبياء ورسول وبشر عاديي هم عبيد الله، علم الله سبحانه بتفاصيلهم وأعدادهم، فكأنَّه سبحانه عدَّهم، وبالتالي لا يخفى عليه شيء من أعدادهم وأحوالهم. هنا يفيد الإحصاء إلى المعنيين الكمي والمعنوي. فالبشرُ يأتون المحشرَ أفراداً، ليس لهم مالاً، ولا ولداً، ولا ناصراً، كلُّ مشغول بنفسه، لا يهْمُهُ همَّ غيره.

وفي الآية التالية [يس: ١٢]، نجد خبراً شاملاً صريحاً (exhaustive) عن المعلومات المتعلقة بالأعمال البشرية مفصَّلة في الكتاب، ظاهرة، واضحة، لا تشويش عليها. ومن المفيد ذكره أنَّ كلمتي أن نكتب وإمام وردتا في هذه الآية. كما تُعلِّمنا الآية أهمية الأعمال البشرية وآثارها المستقبلية. فاختراع آلة تفيد البشر، سيكون له أثرٌ على الأجيال القادمة، وكذلك تلوث الأرض بالأسلحة الكيميائية وغيرها، سيكون له ضررٌ على أجيال لم تولد بعد. إذاً عمل الخير بفعله وبأثره، وكذلك عمل الشر بفعله وبناتجها الآنية والمستقبلية. وهنا نتلمَّس

الفعل الديناميكي في الإحصاء. فالعلماء (كتوماس أديسون^(١)) مثلاً الذين أتشفوا البشرية بعبقريتهم واختراعاتهم في مجالات الطب والهندسة والكهرباء والاقتصاد وغير ذلك، تركوا أثراً حميداً ستستفيد منه كل الأجيال اللاحقة.

في يوم المحشر [المجادلة: ٦]، يخبرُ الله عباده بما عملوه من أعمال خيرٍ وشرٍّ، فذلك مثبتٌ في كتاب الأعمال، فلا مجال للنسيان في هذا الكتاب، أو لتناسي المذنبين لذنوبهم، فلا يخفى على الله شيء. الإحصاء هنا يدلُّ على التذكُّر الدائم فهو عكسُ النسيان.

آية [الطلاق: ١]، تُفِيدُ معنى التعرف على كلِّ ما يحيط بموضوع الطلاق، بأن لا يحدث الطلاق وفيه ظلم، للمرأة، للرجل، والأولاد.

آية [الجن: ٢٨] تُمَيِّزُ وبوضوح بين الإحصاء والعدد. تتكلم الآية عن إبلاغ الرسل لرسالات ربِّهم، فالله يحيط بهم وبالخلائق جميعاً وهم لا يحيطون إلا بما يطلعهم الله عليه، وهذا يصلح على جميع ما توصَّل إليه العلم حتى الآن. فالله سبحانه أحصى ما خلق، فخلقه معرفةً مطلقة، وما

يتوصَّل العلماء إلى بعض معرفته، فالله سبحانه أحصاه بالتمام والكمال. فما هو قدر إحصاء البشر لمعلوماتهم؟ لا أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال، لا الآن ولا في أي مستقبل. لأنَّ «مجتمع» المعلومات في الوجود لا يمكن معرفته أو الإحاطة به، لأنَّه غير متناهٍ، والإنسان المتناهي في إمكانياته العقلية، سيبقى قاصراً عن إدراك هذا المجتمع والتعرف على تفاصيله. الإحصاء يبحث عن التمايز أو التجانس لتلك الموجودات، وما هي قوانين حركتها في الوجود. وما يهمنا هنا، الوقوف على أهمية العدد ودوره في عملية الإحصاء. فالبيانات الإحصائية يجب أن تكون وافية، صادقة وأمانة، وإلا ستكون تحليلاتنا غير علمية وغير واقعية، بل ولربما ستكون الغاية طمس الحقيقة ليس إلا.

تفيدنا سورة [المزمل: ٢٠] أنَّ الرسول الكريم (ص)، كان يقومُ مع طائفة من الصحابة، ليصلي الليل. ولكنَّ ساعة قيام الليل لم تكن واحدة، فتتغير قريباً من الثلثين، والنصف أو الثلث. فإحصاء قيام الليل كان شاقاً على رسولنا (ص) وعلى أصحابه الكرام. فلن يطيقوا المداومة على ذلك، فتأب الله عليهم وجعل من قيام الليل

(١) خاض توماس أديسون أكثر من ٩٠٠ محاولة للوصول إلى اختراعه (المصباح الكهربائي ١٨٧٨)، قام بعد ذلك باختراعات عظيمة منها الفونوغراف، لمبة الضوء، الصور المتحركة، التلغراف، الميكروفون الكربون، وغيرها، إذ سجَّل وحده أكثر من ١٠٩٠ براءة اختراع. ما من شك، كان لتلك الاختراعات الأثر الكبير في تطور البشرية.

تطوعاً دون الوجوب. من الناحية التعبدية، صلاة الليل كان من الممكن أن تتم في فسحة زمنية معينة (interval)، أي ساعة واقعة ضمن هذه الفسحة.

أخيراً وكما ورد في سورة [يس: ١٢]، أعمال البشر مبيّنة في اللوح المحفوظ [النبا: ٢٩]. فعملية الإحصاء تمت كتابةً، وفي هذا تنبيه لنا نحن البشر لأهمية تدوين المعلومات وحفظها، إذا أردنا القيام بعملية إحصائية ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾.

وبعد أن أخذنا بالتفسير الجزئي لآيات الإحصاء، ما هي الدلالات الإحصائية العامة والموضوعية المستفادة منها؟ في البداية إذا ما تفحصنا نزول الآيات فسنجد تسع آيات مكية، وآيتين مدنية. وهذا يعطينا دليلاً مهماً على أن تلك الآيات بمعظمها نزلت حين كانت الدعوة الإسلامية تشق طريقها في مكة بصعوبة بالغة، لأنّ قریشاً استخدمت كل أسلحتها المادية والمعنوية لمحاربة الدين الجديد الذي بشرهم به رجل منهم، هم الذين سمّوه بالصادق الأمين. لذلك توجهت تلك الآيات المكية إلى مجتمع مكة المعادي للإسلام لتقول له بأنّ الله خالق كل شيء ويعلم كل شيء، ولا يحده شيء، ومهما أوتيت من عناصر القوة والإحاطة بالأشياء، ستبقون في حالة عجز كلي عن إدراك ذلك، وبأنّ إله محمد يعلم ما تجهرون وما تُسرّون. فأفعالكم تُحصى من قبل الله

تعالى بل هي محصية من قبله سبحانه ولا يؤوده ذلك بل أنتم العاجزون والمنكرون. فالله سبحانه أحاط بجميع الظواهر منها ما ظهر ومنها ما سيظهر بعد حين. فمنذ بداية العالم وحتى نهايته، الله جلّ جلاله هو وحده المهيمن على الظواهر كبيرها وصغيرها. وإذا نظرنا إلى سورة الجن (٢٨)، نرى بأنّ كلمة الإحاطة أتت قبل كلمة الإحصاء، وفي سورة مريم (٩٤)، كلمة الإحصاء أتت قبل كلمة العدد. أما في سورة إبراهيم (٣٤) وسورة النحل (١٧)، فأتى العدد قبل الإحصاء. أما في سورة الطلاق (١)، فأتت كلمة الإحصاء بمعنى مجموع المرات وليس العدد نفسه ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾... وهنا تبرز عظمة الرسالة القرآنية إذ نبدأ بالعدد كي نفهم وعندما تكتمل عملية الفهم نبدأ بالإحاطة. لذلك فالعدد تبرز أهميته بالنسبة إلى الإنسان وليس إلى الله الخالق. فالعدد يحمل إلينا نحن البشر مدلولات معرفية، إنّه كمية من المعلومات، لذلك نميز بين العدد الكبير والعدد الصغير. وكثيرون يفتنون العمر بحثاً عن نتيجة قياسية لتجربة معينة كما فعل أرخميدس (مكتشف دافعة أرخميدس: عبارة عن قوة تدفع الجسم المغمور في السائل نحو الأعلى) أو أديسون مخترع المصباح الكهربائي. العدد هو نتاج عملية قياسية لظاهرة معينة أو لتجربة معينة. ومجموع الأعداد التي حصلنا عليها

أما في الميزان الإلهي، فالإحصاء يتضمن معاني الإحاطة الكاملة بالأشياء. فالله سبحانه يحيط بالأشياء وهو على سيطرة كاملة على ما يجري فيها وعلى ما ستؤول إليه. فكما أنَّ محيط الدائرة يعني استيعاب كل الدائرة، كذلك القدرة الإلهية في إحصائها للأشياء تهيمن على الأشياء وعلى نواميسها.

هل يستطيع الإنسان بأن يتعرف على أحجام حبيبات الرمل مثلاً في صحراء معينة؟ الجواب كلا لأنه يوجد استحالة للتعرف على عالم غير متناهٍ بالنسبة إلى البشر. لذلك يلجأ الإنسان إلى دراسة أحجام عدد لا بأس به من الحبيبات، ومن خلال تلك الدراسة يحاول استيعاب مقبول لعالم أحجام الرمل في الصحراء. إنَّه يحاول الإحاطة بهذا العالم الهائل لكنه لا يستطيع بلوغ فعلي لهذا الهدف نظراً لضعف إمكانياته ومحدودية سيطرته على الأشياء في الزمان والمكان. وتتعدد المشكلة عند الإنسان عندما يتعلق الأمر في سلوكه وأفعاله الظاهرة والباطنة. فالإنسان هو مجموعة هائلة من الأفعال تتقاطع فيها كل أشكال حياته المادية والروحية. فالنرونات في الدماغ البشري تتحرك بسرعة البرق وتأتي بالأوامر والنواهي وبالحكم على العالم الخارجي الذي يحيط به. هل يستطيع هذا الإنسان السيطرة الكاملة على تلك

من خلال مجموعة من التجارب، تشكل وسيلة للتعرف على الكل من خلال الجزء المتوفر لدينا. وكلما كبر حجم الجزء كلما زادت إمكانية التعرف على الكل. الإحصاء البشري يحتاج إلى العدد كوسيلة للإحاطة بشكل أو بآخر بظاهرة وجودية معينة. وبما أنَّ الإنسان محاط بعدد لا يحصى من الظواهر الاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية، والفيزيائية، وغير ذلك من الظواهر الوجدانية والروحانية والنفسيّة على اختلافها من فرح وحزن، وحلم وغضب، وخوف وجزع، وغيرها، فالمطلوب منه الحصول على معلومات عددية مُقاسة تساعد على العيش والتكيف مع المحيط التي تنمو فيه الظاهرة. واللافت للانتباه، أنَّ الإنسان مهما استخدم من المدلولات العددية، لإحصاء نعم الله عليه، (سورة إبراهيم ٣٤ وسورة النحل ١٧) لا يستطيع التعرف على جميع تلك النعم وذلك نظراً لكثرتها وعظمتها فهي لا تخضع لعمليات عددية محدودة حتى يتمكن من الإحاطة بها والتعرف الكلي عليها. يكفي أن ننظر إلى الحواس الخمس التي أنعم الله علينا بها، إذ لولا تلك الحواس لاستحالت الحياة البشرية. لنتخيل رجلاً فقد جميع حواسه، أي فقد قنوات الإتصال مع العالم المحيط به، هذا الرجل لا يمكنه العيش بعد ذلك وهو ميت لا محالة.

الأفعال والانفعالات؟ هل يستطيع قياسها قياساً دقيقاً يمكنه من الإحاطة بها؟ طبعاً كلا، فما يراه صغيراً من أفعال لربما يكون كبيراً في عيون الآخرين. والعكس صحيح، ما يراه كبيراً قد يكون صغيراً عند الآخرين. أما الفعل فلا يرى على حقيقته إلا من قبل الله تعالى. كم هي الفوائد الناجمة عنه أو الضرر الذي سببه لغيره أو لمحيطه أو للناموس الكوني العام، لا يوجد على حقيقته إلا في علم الله. إنه ذلك الكتاب الشامل والكامل الذي يحتوي جميع ما قام به الإنسان وما فكّر به وما ضمّره ولو للحظة واحدة. إنّه ذلك الإمام المبين الذي تُسجّل فيه جميع الأعمال التي قام بها الإنسان بإرادته، وباختياره، إيّ أنّه سجل أعمال الإنسان. لذلك أتت كلمة الإحصاء في سورة الكهف (٩٣) بمعنى الضبط الكامل والشامل لأعمال الإنسان، فهي تماماً هي كما حدثت في عالم الدنيا، والله سبحانه لا يظلم أحداً حين يبيّن ذلك مفصّلاً في الكتاب المبين، حافظ المعلومات بأروع ما يكون الحفظ، لذلك لا يجد الإنسان صعوبة في استحضار ما عمله في دار الأعمال. فإذا كان النسيان ميزة يتميّز بها الإنسان نظراً لمشاغله الكثيرة والمتشعبة في الدنيا، فالله سبحانه يذكّرنا بكل تصرفاتنا مع ما آلت إليه من خيرٍ أو شرٍ (سورة المجادلة (٦))، ومن المهم ذكره في هذا المجال هو أنّ

عبارة (إمام مبين) تبين قدرة الله المطلقة على إحصاء أفعال البشر. أليس هو الربّ العظيم الذي يعطي مجاناً من رحمته إلى مخلوقاته، وينير النفوس التّوّاقة إليه، ويلطفُ بكلّية خلقه دون تمييز بين البعوضة والفيل، والوردة والشوكة، يعطي ولا يُمننُ أحداً برزقه اللامحدود، فهو دائماً هو، مسيرُ الوجود، في ذاته عطوفٌ ودودٌ، لا يعرف التغيّر أو التبدّل. خلق الزمان والمكان ولا يحده لا زمانٌ ولا مكان، خالقُ الحياة لا يخفى عليه شيء، عليمٌ بما كان وما سيكون، حيٌّ مطلق لا تفنيه السنون، ولا تبصره العيون. الله سبحانه هو المصدر والمرجع، واحدٌ في الألوهية وأحدٌ في الجوهر، لا يُعدُّ ولا يُقسَّم، لا تدركه الحواسُّ لأنّها محدودة وهو غير محدود، والحواس تهزُّم وهو لا يهرم، والحواس تخطيء وهو صوابٌ مطلق، فكلُّ ما يصدرُ عنه كاملٌ لأنّه تباركت قدرته، كاملٌ لا يعرف النقص أو البخس، عادلٌ رحيمٌ مع كل خلقه من مادة ودابة، ومنظور وغير منظور. من هنا فإحصاء الأعمال محفوظٌ دون زيادة أو نقصان أي لا وجود لأخطاء مهما كانت صغيرة في العملية الإحصائية، وهذا ما تذهب إليه الآية (٢٩) من سورة النبأ. ما هو المقصود بالإحصاء في هذه الآيات؟ وهل من تعارض بين ما تعكسه من مفاهيم إحصائية مع علم الإحصاء الحالي في بداية

القرن الواحد والعشرين؟ إذا ما تمحصنا بدقة الآيات الإحصائية في القرآن الكريم، نستطيع بلوغ النقاط التالية:

(١) مجتمع النعم الإلهية: هو مجتمع غير متناهٍ أي غير محدود، ولا يمكننا نحن البشر الإحاطة بكل تفاصيله. العلم مثلاً نعمة، والله أمرنا بأن نسأله الإستزادة منه، وبما أن العلم في هذا الوجود، في هذا الكون، غير محدود، إذا النعم الناتجة عن معرفة العلم غير محدودة.

(٢) إحصاء الأعمال البشرية: مجتمع الأعمال البشرية هو مجتمع محدود لأنه يتعلق بالإنسان الذي هو مخلوق محدود في مدة عمره وإمكاناته الجسدية والعقلية. وعلى الرغم من تناهي هذا المجتمع لا يستطيع البشر معرفة أعمالهم وإحصائها بتفاصيلها ومردوداتها عليهم من جهتي الخير والشر. أما الله سبحانه فيُخبرنا بأنه وحده جلّ جلاله القادر على هذا المسح الإحصائي الشامل مع أدق التفاصيل والذي يمكن للبشر أن يفقهوها ويعوها. فلا مجال لنسيان في الإحصاء الإلهي، ولا مجال لتشويش من هنا أو تشويش من هناك. فالأعمال هي كما حدثت بالتمام، مسجلة ومحفوظة في كتاب واضح وصريح. والجدير ذكره في هذا المجال هو أن عمل الخير بفعله وبأثره، وكذلك عمل الشر بفعله وبناتجيه الآنية والمستقبلية،

وهنا نتلمس الفعل الديناميكي في الإحصاء. (٣) الإحصاء يطال جميع الموجودات والظواهر: وهذا ما يوجب علينا السعي من أجل دراسة وفهم الظواهر على اختلافها. وفي ذلك تلاقي كامل مع ما يهدف اليه الإحصاء الحديث من توفير البيانات الإحصائية المقاسة بأمانة كاملة، وبعد الدراسة والتحليل، نصل إلى القرار في شأن الفرضيات التي نريد اختبارها. لا حكم بدون قياس، وبالتالي لا قرار بدون حياء. من هذا المنطلق نطالب أصحاب الشأن في مجتمعاتنا الإسلامية، إلى العمل الجاد من أجل توفير بنك معلومات إحصائي يطال جميع جوانب المجتمع والاقتصاد، والطبيعة. فلا تقدم حقيقي لبلادنا إلا إذا تملكنا ناصية المعرفة الإحصائية الهادفة إلى تجنب الإخفاق وإلى تعزيز النجاح. تعالوا إذاً للتعرف على الأشياء من خلال علم الإحصاء، تعرفوا تزداد نسبته كلما زاد تفكرنا وتأملنا في هذا العالم!

(٤) إحصاء الظواهر المحدودة والمتناهية في وجودها: يتعامل الحراك البشري مع ظواهر محدودة، في الاقتصاد، في المال، في الطب ومجالات الهندسة، في الثروات الطبيعية، في الإنتاج على اختلافه، وفي الاستهلاك على اختلافه، وغيرها. ظاهرة النوم مثلاً هي ظاهرة تخضع إحصائياً إلى القانون الطبيعي. فمتوسط

مدة النوم عند الإنسان ثمان ساعات في اليوم، والانحراف المعياري حوالي الساعة. لنأخذ فسحة نوم من ٥ ساعات إلى ١١ ساعة، فكم هي نسبة البشر الذين ينتمون إلى هذه الفسحة؟ إنها ٩٩,٧٪! فكم هو احتمال نوم إنسان مدة 2 706 840 ساعة دفعة واحدة (مدة نوم أهل الكهف) علماً بأن متوسط مدة نوم الإنسان في الحياة الدنيا، قبل الانتقال إلى مثواه الأخير، 219 000 ساعة! إنه لأمر عجيب بالنسبة إلينا نحن البشر، وهذا ما بينته الآية ١٢ من سورة الكهف. لكن تبقى مدة نوم أصحاب الكهف محدودة، وبالتالي من الممكن للبشر التوصل إلى الإحاطة بمعرفة مدة نومهم مع التطور التكنولوجي. وكذلك شأن أية ظاهرة تتعلق بحياة المرأة أو الرجل، من الممكن إحصاءها والتعرف الدقيق على تفاصيلها. وهذا ما سعت إليه الآية ١ من سورة الطلاق، والآية ٢٠ من سورة المزمل. مع التطور التقني الذي حصل من جهة التعرف على الوقت، أصبح من الممكن قيام صلاة الليل، في وقت معلوم دون الخلط «ثلاثيه ونصفه وثلاثة» أو مع أي كسرٍ آخر.

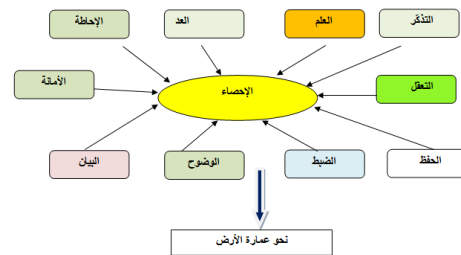
المسألة لم تكن فقط في صعوبة إحصاء الفسحة الزمنية الواجب فيها قيام الليل، وإنما أيضاً، وهذا الأساس، صعوبة المثابرة على هذا القيام نظراً لمشاغل الإنسان وظروف حياته. وفي هذا دليل إضافي

واضح على رحمة إلّٰهنا وخالقنا. أما الغاية من قيام الليل لرّبما كانت إعداد جيل صلب من أصحاب الرّسول لتحمل أذى قريش ومتطلبات الدّعوة الجهاديّة (والله أعلم).

في نهاية هذا الجزء، نودّ القول: إنّه على الصعيد البشري، ينبه القرآن الكريم إلى قيمة البيانات الإحصائية في كلّ زمان، وإلى دراسة المجتمعات الإحصائية في جميع الحقول المعرفيّة، وهذا ما توصل إليه علم الإحصاء في عصرنا الحاضر (المشهداني وهرمز ١٩٨٩)، (Hogg & Tanis 2010) و(Johnson & Bhattacharyya 1996). والغاية الأساسية تكمن في فهم وضبط المجتمع الإحصائي من خلال العينات الإحصائية العشوائية وهذا ما يسمح لنا باستنباط دقيق يعود بالفائدة المعرفيّة المرجوة، انظر Dacunha-Castelle (1996). وبما أنّ الإمكانات البشريّة محدودة، لا يستطيع البشر التوصل إلى مسح إحصائي خال من الأخطاء، خاصة في المجتمعات اللامتناهية. من هنا نفهم عظمة الله سبحانه العالم بذاته، والقادر وبدون جهد أو عوائق، أن يحصي بشكل مطلق المجتمعات اللامتناهية في هذا الكون، وفي هذا تحدٍ واضح لجميع البشر في كلّ مكانٍ وزمان.

بعد هذه القراءة الموجزة للآيات البيّنات التي أتت على مفهوم الإحصاء، نستطيع

القول: إِنَّ الإحصاء علمٌ يرتكز على عشر قواعد أساسية: التعقل، الأمانة، التذكُّر، العلم، العد، الإحاطة، الحفظ، الضبط، الوضوح، البيان. والغاية من وجودها مجتمعة هو السَّعي نحو المعرفة الهادفة إلى عَمارة الأرض لا إلى دمارها. هي روافد من مياه عذبة تصبُّ في بحيرة الإحصاء، بحيرة تروي العطاشى إلى المعرفة! كما ونؤكد بأنَّ المعلومات التي أفادتنا بها الآيات الإحصائية، هي من جوهر علم الإحصاء الحديث، فلا تعارض بينها، بل أكثر من ذلك، أشار القرآن إلى أَنَّ الإحصاء هو وسيلة لفهم الأشياء على اختلافها من خلال العدد أي القياس. وهذا يعني أَنَّ الأمانة في القياس هي من جوهر تعاليم الآية ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، مما سيمكِّن الدارسين من الإحاطة الصَّحيحة بالظاهرة التي يدرسونها. وفي ما يلي نقدّم، مجتهدين، مَحْطَطاً يوضِّح صَرْحَ الإحصاء والبُنى التحتية التي يرتكز عليها.



التعقُّل: التعامل بعقل مع الظواهر والحكم عليها، وبالتالي عقلتُ الظاهرة إذا

أدركتها أي علمتها. فيأدرك المسائل الإحصائية لا يتم بالأحلام أو بالاستناد إلى الخرافات من هنا أو هناك، وإنَّما عملية عقلية بحتة.

الأمانة: تعني الصدق والإستقامة. وفي حديث شريف «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ». التذكُّر: هو المقدرة على استرجاع المعلومات كما هي.

العلم: معرفة غايتها الإتقان. وقد وردت أهمية العلم من خلال عشرات الآيات في القرآن الكريم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فالزيادة في العلم محمودة، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُحْسَنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، لكل حقل علم، فهناك علم الفلك، وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم الإدارة، وغير ذلك من مجالات الحياة على اختلافها، والفلسفة أم العلوم. لذلك لا يجوز أن تُسلمَ زمام الأمور إلى الجهلة من الناس، لأنَّهم سينتصرون للجهل وللتخلف. يجب أن نتعاطى مع الإحصاء بعلم لأنَّ العلم لا يُفهم إلا بالعلم! والعلماء يفهمون ويتفاهمون، بينما الجهلة يتكلمون من أجل الإنتقام وتفريغ الأمور من محتوياتها الحقيقية، وفي هذا السياق، لا بدَّ من استذكار ما قاله الإمام علي (ع): معرفة العلم دينٌ يُدَانُ به!

العد: يُقال عدَّ الشيء أي جعله ذا عدد. من هنا تبرز أهمية الأعداد والحساب في عملية الإحاطة الإحصائية. لا إحصاء بدون

وهذا ما يساهم بتسهيل وتثبيت الفهم الذي حصلنا عليه في دراسة مسألة أو نتائج تجربة.

الضبط: نقول ضبط الشيء أي قهره وقوي عليه، وفي ميدان الإحصاء، الضبط يعني فلترة المعلومات المحفوظة، ففيه الإتقان والإحكام لتلك المعلومات. بهذا المعنى يكون الضبط بالحفظ البليغ.

الوضوح: وضع الشيء إذا انكشف وبان وانجلى. وهو يعني إبراز المعلومة واضحة أي خالية أو شبه خالية من عناصر التشويش التي تحدث أثناء عمليات المسح الإحصائي أو التجارب الميدانية.

البيان: الكشف عن الشيء، وسمي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره^(١). وفي القرآن الكريم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وفي الإحصاء نتكلم عن البيانات الإحصائية أي الدلائل الإحصائية التي حصلنا عليها من خلال القياسات التي قمنا بها.

الجزء الثالث: الإحصاء ودوره في حساب مصير الإنسان

من البديهي قوله بأن البشر هم مخلوقات من إله واحد، والإنسان هو المسؤول عن أعماله وبالتالي هو رهن تلك

قياس من خلال العدد، لذلك نوجه كلَّ عنايتنا لتكون نتائج العدِّ صحيحة وإلا سنذهب في تحليلاتنا إلى مكانٍ بعيدٍ عن المجال الذي نريد دراسته من خلال الإحصاء. الأعداد الناتجة عن تجربة معينة، تحملُ معها المعلومات التي نبحث عنها، وبالتالي يجب دراسة تلك الأعداد لإستنباط ما ينفع الناس. ومن المفيد قوله في هذا المجال بأنَّ العدل والعد يشتركان بالعدِّ! إذ لا عدل بدون عدِّ فعملية العدل تقتضي وجود إحصائي واضح لقياس خصائص الأفراد، أصحاب العناية بخطة العدل المرتقب!

الإحاطة: تعني السيطرة على الشيء من جميع جهاته، وهذه الغاية المثالية من العملية الإحصائية. فالإحاطة الكاملة تتطلب دراسة جميع عناصر الظاهرة، وهذا مستحيلٌ إذا كانت الظاهرة لا متناهية. لذلك من المعروف في نظرية بناء العينة الإحصائية هو سحب عينة محدودة ودراستها حتى نتمكن من خلالها من الإحاطة في مجموع عناصر الظاهرة.

الحفظ: يُضادُّه النسيان ﴿وَعَدْنَا كِتَابَ حَفِظُ﴾ [ق: ٤] أي حافظٌ لأعمالهم لا يغيب عنه شيء. فالحفظ إذاً دعوةٌ لجمع المعلومات والعناية بها (الحفاظ عليها)،

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

الأعمال ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦]، ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. إذاً سيجني الإنسان تجارة أعماله، فهو مخيرٌ في مسالكه الدنيوية، وبالتالي يمتلك القدرة على تنفيذ عمل معين ذي مردود إيجابي أو سلبي على مصيره في الآخرة. لكنَّ حُكْمَنَا، نحن البشر، أبناء الأرض، على طبيعة تلك الأعمال لا يمكن أن يكون خالياً من الأخطاء بل يبقى ناقصاً وغير مكتملٍ مهما أوتينا من المعارف لأنَّ قدراتنا الفكرية المحدودة تحُدُّ من اكتسابنا للمعرفة في الزمان والمكان. وعلاوة على ذلك، هذه القدرات غير مستقرة وهي تخضع لعملية الإستهلاك مع التقدم في العمر وبلوغ مرحلة الشيخوخة. هذا هو القانون الطبيعي الذي يعلمنا بأنَّ الحواس الخمس تهرم وبالتالي قوة الرجل المتقدم في السن تصبح عرضة للضعف والإنحلال. في البداية، لا بدَّ من إثبات نقطتين:

النقطة الأولى: إذا وجد الله فهو واحد.

نحن نؤمن بأنَّ لهذا الكون خالق هو الله سبحانه.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لاختلَّ نظامُهما وخربتا للتنازع. لنفرض وجود إلهيين X و Y، كلُّ منهما يجب أن يكون قادراً على كلِّ شيء. وبالتالي X قادر

على أن يجعل من Y ذاته والعكس بالعكس. هذا يؤدي إلى تساوي X مع Y، وبالتالي نحصل على معادلة $Y = X$. التساوي مسألة حتمية وإلا عدم التساوي سيؤدي إلى تنازع. لنفرض بأنَّ أحدهما جعل الشهر القمري ٣٠ يوماً والآخر جعله ١٥ يوماً، سيؤدي ذلك إلى استحالة وجود القمر. أما إذا تمايزا بالقدرة، بمعنى لأحدهما X قدرة محدودة، ولآخر Y قدرة مطلقة، Y يستطيع حتماً إنهاء X وتحويله إلى عدم. الله واحدٌ في العدد وأحدٌ في الصفات.

النقطة الثانية:

الأفعال البشرية بخيرها وشرها تنتمي إلى عالم متناهٍ.

هذا ما يجعلنا نفترض ما يلي: استناداً إلى نظرية المجموعات (Theory of sets) في الرياضيات [Bartle & Sherbert (1992)] و [Arnaudès & Fraysse (1992)]، نرى بأنَّ الأفعال البشرية بخيرها وشرها $a_i, i = 1, \dots, n$ هي عناصر موجودة في المجموعة Ω .

$$\Omega = \{a_1, a_2, \dots, a_l\}$$

هذه المجموعة هي متناهية بدون شك لأنَّ البشر محدودون في أعمالهم، وهم محكومون بطرفي البداية والنهاية على الكوكب الأرضي، ونستطيع برهان ذلك بالمنطق الرياضي: لنفرض بأنَّ Ω غير

متناهية. بما أنَّ لكل عمل بشري مدة زمنية محدودة θ_k مدة a_k ، لأنَّ العمل يحدث في وقت معين وينتهي في وقت معين، ولنفرض بأنَّ θ هي أقل مدة حصل فيها عمل معين، سيكون لدينا التالي:

$$\sum_{i=1}^{\infty} \theta_k \geq \sum_{i=1}^{\infty} = \infty$$

هذا يعني بأنَّ الإنسان سيحتاج إلى مدة غير متناهية لإنجاز أعماله الدنيوية وهذا مستحيل لأنَّ الإنسان ميَّت وبالتالي محكوم بتناهي مدة حياته، إذاً Ω متناهية.

لنفرض بأنَّ هو عدد تلك الأعمال لجميع البشر. فالنظر في تلك الأعمال البشرية الظاهرة والباطنة (المخفية عن الآخرين) يدفعنا إلى التركيز أيضاً على المسائل الوجدانية من فرح وحزن، من جبن وشجاعة، من غضب وحلم وغير ذلك. فكل الأعمال الروحانيّة، ومسائل الوجدان، والمجردات، هي عبارة عن أعمال بشريّة لها وزنها في ميزان الخير والشر، وهذا ما يشير إليه القرآن في أماكن مختلفة. ومن المفيد ذكره هنا هو أنَّ البشر قد لا يتساوون في نوعية أعمالهم، لكن المهم أنَّ جميع الأعمال المختلفة والصادرة من جميع البشر، هي محدودة وموجودة في مجموعة الأعمال أي Ω (لكل فردٍ مسرحه الخاص به).

بما أنَّ الفعل البشري الصادر عن إنسان ما، لا يمكن أن يتصنّف خيراً وشرّاً في الوقت نفسه، وإنّما سيوضع في دائرة الشر أو في دائرة الخير، سنقوم بتقسيم Ω إلى مجموعتين مستقلتين (incompatible) تمثّلان الخير B والشر M دون اشتراك بينهما:

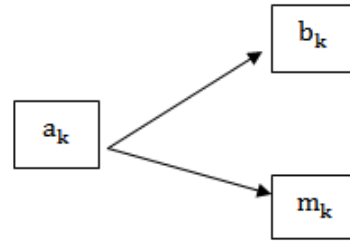
$$\Omega = B \cup M$$

B: تمثّل مجموعة الأعمال البشرية الخيرة
M: تمثّل مجموعة الأعمال البشرية السيئة.

وبما أنَّ النفس الإنسانية أمارّة بالسوء، إلا من رحم الله سبحانه، فوقّاه وزر السوء، ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسٍ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، نستطيع أن نعتبر ما يلي: $M \# \phi, B \# \phi$

عندما يقوم الإنسان بعملٍ معين، يتسجّل له في الإمام المبين، وزن عمله، لأنَّ الرقابة الإلهية موجودة وهي على اتّصال دائم بنا، من المهد إلى اللحد، ويُعبّر عنها بدالة متصلة أو مستمرة (continuous function). فانفصال العملية الرقابية في الزمن هو من خصائص الإنسان، ومهما أوتي من تقنيات حديثة، تبقى عمليات التشويش قائمة، وبالتالي يتعذر على الإنسان إمكانية الإحاطة الكاملة من خلال

رقابته على الأشياء. إذا رقابة الإنسان على أفعاله تخضع لدالة منفصلة (discrete function) مع إستحالة وزنها من جهة الخير والشر. لذلك فإن كان العمل خيراً، يتسجّل للإنسان أجره عليه، وإن كان العمل شراً، سيكتب له وزنٌ شره. وهكذا فحياة الإنسان هي عبارة عن سلسلة من الأوزان، ثوابٌ أو عقاب، وفي هذا فليتسابق المتسابقون. إذا تبقى مجهولة أوزان الثواب أو العقاب الناتجة عن أفعال الإنسان، وعليه فالله وحده الذي يحيط بها إحاطة مطلقة ولا يكشف تفاصيل تلك الأسرار الغيبية لأحدٍ من الخلق، بل تبقى محفوظة في علم الغيب الإلهي ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. إذا الفعل البشري سيكون إما خيراً b_k ، وإما شراً m_k :



ملاحظة: لنفرض شخصين (i, j) قاما بفعلٍ معين، على سبيل المثال، إغاثة شريدٍ في الصحراء، ولنفرض بأن هذا الفعل هو عنصر b_k ، أي كلٌ منهما قام منفرداً بهذا الفعل، سيكون لكلٍ منهما جزاؤه أي $b_k^i P$ و $b_k^j P$. من الواضح بأن الوزنين الناجمين

عن الفعل نفسه سيكونان مختلفين أو متساويين وليس بالضرورة متساويين فقط لأنّ العنصرين، أصحاب الفعل، مختلفان بكلّ التفاصيل الوجودية و الحياتية.

$$a_k^i P \neq a_k^j P \quad \text{أو} \quad i_k^i P = a_k^i P$$

هنا نستذكر الآيات ٦، ٧ و ٨ من سورة الزلزلة:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ (٦) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٦-٨]. وكذلك الآية ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. اشتاتاً هنا بمعنى متفرّقين على حسب أحوالهم، أي يخرج الناس، كلّ الناس، من دون تمييز بينهم، لأنّ التمييز سيحدث أثناء عملية فرز الأعمال، كلّ الأعمال، صغيرها وكبيرها. في المنظور الإلهي، الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً، وتوجد السيئة والحسنة. إذا لا يمكن أن تكون السيئة حسنة والحسنة سيئة.

بما أنّ مجموعة الأعمال Ω عبارة عن مجموعتين مُستقلتين $\Omega = B \cup M$ و $B \cap M = \emptyset$ ، وبما أنّ كل فعل بشريّ سيكون إما خيراً وإما شراً، علماً من ناحية توزيع ثنائِي الحدين (binomial distribution)، عدد الأفعال الحسنة من الممكن أن يساوي عدد الأفعال السيئة! ولتسهيل عملية الكتابة، سنفترض التساوي،

وبالتالي نستطيع تجزئة Ω إلى مجموعتين:
لكل إنسان i دالتان رياضيتان، دالة
تمثل الأفعال الخيرة f_i ، ودالة تمثل الأفعال
الشريرة g_i :

V_b هو مجتمع القيم الإلهية للأعمال
الحسنة و V_m هو مجتمع القيم الإلهية
للأعمال السيئة.

وبالتالي تتشكل أوزان الأفعال على
الشكل التالي:

f_i و g_i دالتان ليستا بالضرورة
تقابليتين (bijective function).

من الممكن أن نفترض بأن قيمة الفعل
البشري بالمنظور الإلهي، سيكون عدداً بين
الصفر والواحد. هذا لا يغير شيئاً في
حساب مؤشر المصير، لأنه من الناحية
الرياضية نستطيع إيجاد دالة رياضية بين
مجتمع القيم وبين الفسحة (interval)
[0,1].

إذا كان $b_k \neq b'_k$ من الممكن الحصول
على $b_k^i P = b_k'^i P$

وكذلك بالنسبة إلى لأفعال السيئة.

حسب القرآن الكريم البشر على فعل الخير
وتجنب الشر بل الإبتعاد عنه وأعلن هذا
بوضوح تام [المائدة: ٣٢]، فمن أحياء نفساً

فكأنما أحياء كل الناس وبالتالي سيكون
وزن ثوابه كبيراً جداً، ومن أفسد وقتل
نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً،
وبالتالي سيكون وزن عقابه هائلاً جداً:

﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ
أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

من المعلوم بأن تلك الآية أتت بعد قصة
قتل قابيل لأخيه هابيل ظلماً وعدواناً^(١).
وعن هذا العدوان، أنشد أحدهم قائلاً:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا
فَوْجُهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحٌ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ
وَقُلَّ بِشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحُ

يذكر الشيخ الطبرسي^(٢) تأويلات عدة
لهذه الآية، منها بأن إحياء النفس يكمن في
إخراجها من ضلال إلى هدى. إذاً المهم
بالنسبة إلينا هو كثافة فعل الخير دون أن
ننسى أهمية كل فعل خير. بالنسبة إلى
شخص معين i ، حياته الدنيوية تتحول إلى
أوزان خير وشر وبالتالي مجموع تلك
الأوزان في الإمام المبين سيكون محصياً

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء ٣، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

مع دقة مطلقة. قبل القيام بحساب مؤشر المصير، علينا بتذكر الآيتين الكريمتين التاليتين:

﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئِهِ مِثْلَهُمَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

بعد هذا، نستطيع أن نحسب مجموع أوزان الخير والشر.

مجموع أوزان أفعال الخير:

$$10 \times \sum_k^s = 1b_k^i P$$

مجموع أوزان أفعال الشر:

$$\sum_k^s = 1m_k^i P$$

من خلال هذين المجموعتين، نستطيع احتساب ما نسميه «مؤشر المصير (destiny index) لشخص i:

مثلاً حصل زيد على:

من الواضح رياضياً، أنَّ قيمة هذا المؤشر هي عدد يقع بين -1 و +1 أي في الفسحة $[-1, +1]$ ، $-1 < I_{d,i} < +1$ وبالتالي نحصل على حالات ثلاث:

الحالة الأولى: $I_{d,i}=0$

مجموع أوزان أفعال الخير = مجموع أوزان أفعال الشر

أي مصير ينتظر هذا الإنسان؟ لا جواب بشري على ذلك: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الحالة الثانية: $0 < -1I_{d,i} < 1$

مجموع أوزان أفعال الخير تفوق مجموع أوزان أفعال الشر

حسب المنطق العدلي، مصير صاحب هذا المؤشر هو الجنة.

الحالة الثالثة: $-1 < I_{d,i} < 0$

مجموع أوزان أفعال الشر تفوق مجموع أوزان أفعال الخير

حسب المنطق العدلي، وفي ضوء العدالة الإلهية، فإنَّ الفرد في هذه الحالة، سيكون من أصحاب السَّعِير لكن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة. ومن أجل أن تطمئن القلوب، لنقرأ الآية (٥٤) من سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، أي أنَّه سبحانه، أوجب على نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً. وهنا تبرز أهمية التراجع عن العمل المكروه، يتراجع المرء عن قناعة ووعي، فيُصْلِحُ عمله^(١). لذلك من أراد أن

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الجزء ٤ ص ٦٦.

يتذوق بلاغة الحكمة عند الإمام علي عليه السلام،
عليه أن يقرأ دعاء الرشاد في نهج البلاغة،
إذ يطلب الإمام فيه من الله سبحانه بأن
يحاسبه بالعفو لا بالعدل!

«اللهم إن فُهِتْ عن مسألتِي، أو عَمِيتْ
عن طَلْبَتِي، فدُلَّنِي على مِصَالِحِي، وخذ
بِقَلْبِي إلى مِرَاشِدِي، فليس ذلك بِنُكْرٍ من
هُدَايَاكَ، ولا بِبِدْعٍ من كِفَايَاكَ. اللَّهُمَّ
احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، ولا تَحْمِلْنِي عَلَى
عَدْلِكَ»^(١).

ومن وصيته لابنه الحسن بن علي:

«ولم يُؤْيِسْكَ (أي الله سبحانه) من
الرَّحْمَةِ، بل جعلَ نُزُوعَكَ عن الذَّنْبِ حَسَنَةً،
وحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وحَسَبَ حَسَنَتَكَ
عَشْرًا، وفتح لك بابَ المِتابِ، وباب
الاستِغاثِ»^(٢).

وهكذا فمن لا يفقه أهمية التوبة والتراجع
عن أفعال الشر التي اكتسبها، فكفر بربه
وابتعد عن طريق الإيمان والعمل الخير
والصالح، سيندم ساعة لا ينفع الندم، بل هو
شرُّ الدَّوَابِ عند الله ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

تصنيف البشر حسب مؤشر المصير:

من الناحية المنطقية، إذا حصل

شخصان على نفس القيمة لمؤشر المصير،
فإنهما سينتميان إلى المجموعة نفسها،
وبالتالي سيكون لهما المصير نفسه.

$$I_{d,i} = I_{d,j}$$

هذا يعني أنه سيتم تجميع الناس في
فئات وفقا لقيم مؤشر المصير، وبالتالي
سيكون من المستحيل على أي شخص أن
ينتمي إلى فئتين مختلفتين. إذاً سيتوزع
الناس، من آدم (ع) وحتى آخر مولود في
هذا العالم، في طبقات مختلفة، بحيث يكون
عدد الطبقات متساوٍ مع عدد القيم المختلفة
لمؤشر المصير.

لنفرض بأن H هو مجموعة البشر، كل
البشر، الذين خلقهم الله بمشيئته:

من الواضح عقلياً بأن هذه المجموعة
ستكون متناهية، لأنَّ للعالم بداية ونهاية.
وإذا أخذنا بعين الاعتبار مؤشر المصير،
نستطيع أن نقسّم H إلى ثلاث مجموعات
مستقلة فيما بينها من الناحية الرياضية
(incompatibles):

المجموعة الأولى H_b :

من كانت قيمة مؤشر مصيره إيجابية،
ينتمي إلى هذه المجموعة. لنفرض بأن عدد
المنتمين إلى هذه المجموعة هو D_b .
ستقسّم هذه المجموعة إلى طبقات مختلفة

(١) الشيخ الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح، نهج البلاغة، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩١-٤٠٠.

حسب القيم المختلفة لمؤشر المصير الإيجابي. لنفرض بأن عدد القيم المختلفة لمؤشر المصير هو K_b . فيكون H_b يساوي: $H_{b,l}$ هو مجموع الأشخاص الذين يمتلكون قيمة $V_{b,l}$ لمؤشر المصير وبحيث يكون:

$$V_{b,1} < V_{b,2} < \dots < V_{b,K_b}$$

وبالتالي نحصل على درجات الجنة المختلفة!.... والله أعلم !
هنا نستحضر قولاً للرسول الأعظم^(١):
«إِنَّ الْأَحْمَقَ يَصِيبُ بِحِمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فَجْورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا لِيَرْتَفِعَ الْعِبَادُ غَدًا فِي الدَّرَجَاتِ وَيُنَالُونَ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِمْ».

المجموعة الثانية H_m :

من كانت قيمة مؤشر مصيره سلبية، ينتمي إلى هذه المجموعة. لنفرض بأن عدد المنتمين إلى هذه المجموعة هو D_m . ستقسم هذه المجموعة إلى طبقات مختلفة حسب القيم المختلفة لمؤشر المصير السلبي. لنفرض بأن عدد القيم المختلفة لمؤشر المصير هو K_m . فيكون H_m يساوي:

$H_{m,1}$ هو مجموع الأشخاص الذين يمتلكون قيمة $V_{m,1}$ لدليل المصير وبحيث سنحصل على:

$V_{m,1} > V_{m,2} > \dots > V_{m,K_m}$
وبالتالي نحصل على دركات النار المختلفة!.... والله أعلم!

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

المجموعة الثالثة H_o :

من كانت قيمة دليل مصيره صفراً، ينتمي إلى هذه المجموعة. لنفرض بأن عدد المنتمين إلى هذه المجموعة هو D_o . تشكل هذه المجموعة طبقة واحدة وعدد المنتمين إليها K_o .

من حيث المنطق الرياضي لا جنة ولا نار لكن تبقى رحمة الله واسعة.

الخلاصة:

بعد الذي قدّمناه، نخلص إلى مسألة في غاية الأهمية، مفادها نقطتين جوهريتين: الأولى هي أن في القرآن الكريم دلالات واضحة عن مفهوم إحصائي ينسجم كلياً مع المفهوم العصري للإحصاء. فالوجود يُحصى بالعدد، والعدد هو نتاج قياس دقيق، وبالتالي الأمانة في جمع البيانات ودقتها شرطاً ضرورياً للقيام بدراسة الظاهرة وتحليل مساراتها، ومحاولة استشراف مستقبلها، وهذا هو مغزى الإحصاء في العصر الحديث وفي كل

(١) مجمع البيان، المجلد (٥)، ص ٥٣.

عصر. النقطة الثانية تُفيدُ بأنَّ الإنسان محاطٌ بحياته في مقياس إلهي يسجِّلُ حسناته وسيئاته، فرصيد الإنسان يتغير لحظة بلحظة، وبالنهاية سيكون لديه مؤشر إحصائي يعطي نتيجة سعيه الدنيوي (Score). لا يوجد بشريٌّ على الكرة الأرضية يستطيعُ أن يعرف قيمة مؤشر مصيره، أو مصير أي شخصٍ آخرٍ سواء أكان أباه، أمّه، أخاه، صاحبته، تلميذه، أستاذّه. كما أنَّه لا يمكن التفاضل لأسود على أبيض، أو لأمريكي على عراقي، أو لأعجمي على عربي، تفاضل مبني على حسابات بشرية منقوصة، مشبوهة ومغلوطه. بناءً عليه ومن باب علم المنطق وفوائده على الحكم الصَّحيح على الأشياء من حيث توافقها أو تعارضها، ومن باب التفكير في أوزان أفعالنا الكبيرة منها والصغيرة وبأنَّ تلك الأوزان سنراها في الميزان، في يوم الحاقة، حيث لا يفيدك لا جملٌ ولا ناقة، فتعالوا لنتوحد في حبِّ الله ولنستنير بالقرآن ولنسلك طريق المصطفى الأمين طريق مكارم الأخلاق. لنعمل من أجل الجنة إذ فيها الفوز العظيم من فضل ربِّ رحيم... هذه مجتمعاتنا تنادي ضمائرنا من أجل النهوض بها وبلوغ قمة ما هو أقوم على جميع الأصعدة الإقتصادية والتنموية والصحية والتعليمية، فلنترك خلافتنا حول من أولى بالجنة ولنعمل عملاً صالحاً فيه

عمارة الأرض على مبادئ الرحمة والإصلاح والعدالة. ليتنا لا ننسى بأننا نحن الفقراء والله سبحانه هو الغني، ونحن المساكين لا نقوى على الوتين أليس تقائلنا باسم الدين هو انحرافٌ عن جادة اليقين؟ أليس الشيطان من يقود أولئك المتشاحنين المتباغضين باسم الدين؟ وأنتم أين أنتم أيها العارفون، يا من قرأتم الله حباً ومعرفة، ومجدتم الله بتسامحكم، بتعاونكم، بإعماركم للأرض، بمحاربة الجهل، وبمقاومة سبات العقل، لماذا تسكتون؟ بل لماذا لا تتكلَّمون؟ ممن تخافون؟ في أي مجال تسعون؟ وسنون السبعون والتسعون إلينا زاحفون؟ وفي النهاية أعود إلى البداية، متوجّهاً إلى أخي الإنسان في أي مكانٍ كان، تعالى يا أخي الإنسان لنمحي عار قتل قابيل لأخيه هابيل، فنبنّي مجتمعاً على صورة الجنة حيث لا همٌّ لك بسببي ولا همٌّ لي بسببك، تعالى لنعمّر الأرض، لنحسن إدارتها، لنعرّف على الله في سعينا إلى الخير المتواصل، والهادف إلى التمتع بالمعرفة وكشف أسرارها الإلهية.

وأخيراً أسألُ الله العليّ القدير، بأن يكون هذا العمل المتواضع ذي فائدة ومنفعة لأهلي العرب والمسلمين والناس أجمعين. وخيراً ما أختم به هذا الدعاء القرآني العظيم، الآية (٢٨٦) من سورة البقرة:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ
نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾.

لائحة المصادر العربية

- ١ - أحمد هليل (٢٠٠٨) حصر وإحصاء كلمات القرآن الكريم كله. الإسكندرية جمهورية مصر العربية.
- ٢ - أحمد بدر (١٩٧٥) أصول البحث العلمي ومناهجه. الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات، الكويت.
- ٣ - دريد موسى الأعرجي (٢٠١٢) تناسق الأعداد في القرآن الكريم. مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، المجلد/٢ العدد/٢، ص ٣١-٥٧.
- ٤ - زغلول راغب محمد النجار (٢٠٠٤) السماء في القرآن الكريم. دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٥ - الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبعة الأولى (١٩٩٥)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- ٦ - سميح عاطف الزين (٢٠٠٧) معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. الطبعة الخامسة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان.
- ٧ - سميح عاطف الزين (١٩٩٤) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. المجلدات ١-١٤، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان.
- ٨ - صبحي إبراهيم الصالح (٢٠٠٤) نهج البلاغة. المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع)، عهد الإمام علي بن أبي طالب إلى مالك الاشر، ص ٤٢٦-٤٤٥، الطبعة الرابعة، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.
- ٩ - علي أبو الخير (٢٠٠٣) زبدة البيان - تفسير مفردات القرآن. الطبعة الأولى، دار الخير، دار القرآن الكريم، بيروت لبنان.
- ١٠ - فهد بن عبد الرحمن الرومي (٢٠١٠) ضوابط الإعجاز العددي في القرآن الكريم. المؤتمر الدولي الثاني للإعجاز العددي الذي نظمتها الهيئة المغربية

لائحة المصادر الأجنبية

- 1 - Arnaudès, J.M. & Frayse, H. (1992) Cours de mathématiques (I)- Algèbre. Dunod Université, Paris, France.
- 2 - Bartle, R.G. & Sherbert, D.R. (1992) Introduction to real analysis. John Wiley & Sons, Inc, New York, USA.
- 3 - Charnay, R. (1996) Pourquoi des mathématiques à l'école?. Édition ESF, Paris, France.
- 4 - Dahan- Dalmedico, SA. & Peiffer, J. (1987) Une histoire des mathématiques. Edition du Seuil, Paris, France.
- 5 - Dacunha-Castelle, D. (1996) Le hasard et le risque dans la société moderne. Flammarion, Paris, France.
- 6 - Johnson, R. A. & Bhattacharyya, G. K. (1996) Statistics: Principles and Methods. Third Edition, John Wiley & Sons, Inc, USA.
- 7 - Jouette, A. (1996) Le Secret des Nombres. Albin Michel, S.A., Paris, France.
- 8 - Hogg, R. V. & Tanis, E. A. (2010) Probability and Statistical Inference. Eighth Edition, Pearson Education Inc, New Jersey, USA.

للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الرباط خلال الفترة ١٦-١٧ تشرين الأول.

- ١١ - محمد أزهرى (٢٠١٣) أفق الإحصاء والتصنيف للمصطلح المعرف وغير المعرف في الدراسات القرآنية. المؤتمر العالمي الثاني للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، ١١-١٣ نيسان، فاس، المغرب.
- ١٢ - محمد زكي خضر وأكرم محمد زكي (٢٠١١) دراسة احصائية لكلمات القرآن الكريم. المؤتمر الثالث للغة العربية وأدابها، «الاتجاهات الحديثة في الدراسات اللغوية والأدبية»، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٨-٣٠ أيلول.
- ١٣ - محمد زكي محمد خضر (١٩٩٨) ضوابط الإعجاز العددي في القرآن الكريم. المؤتمر العالمي الرابع نحو فهم عصري للقرآن الكريم، ٢٠-٢٢ أيلول، استانبول - تركيا.
- ١٤ - محمد حسن المشهداني & أمير حنا هرمز (١٩٨٩) الإحصاء. بيت الحكمة، بغداد، العراق.
- ١٥ - المنجد في اللغة والأعلام (٢٠٠٢). الطبعة التاسعة والثلاثون، دار المشرق، بيروت، لبنان.

التجليات التراثية في قصيدة «السّمفونيّة الجنوبيّة الخامسة» لنزار قباني «السّمفونيّة الجنوبيّة الخامسة»

د. خليل عبد الله سعد

تمهيد

الفاسدة، الأمر الذي جعل من قصائده فوّهات ناريّة تقذف باروداً وحمماً تشعّ منها أنوار الدماء والتضحيات التي تُقدّم في سبيل الحصول على العزّة والكرامة والحرية.

وقد تميزت أشعاره بأسلوبه السّهل الممتنع الأمر الذي يثير في القارئ الحماسة ويجذبه اليه من خلال المفردات المؤتلفة مع المعاني التي تدغدغ المشاعر، وتناغم العواطف، لما فيها من صور تحاكي العصر والحياة اليوميّة للانسان العربيّ، وتحضّه على اليقظة الدائمة وعدم النوم على الأمجاد الغابرة. كان نزار قباني يدرك «أنّ اللّغة أداة اتّصال جماهيريّة لتوصيل أفكاره الملتهبة في الحبّ والسّياسة، ولهذا فهو يكتب قصائده في شكل منشورات تحريضية(التثوير)»^(١).

نعرض في هذا البحث لصور التّجليات التّراثيّة في قصيدة «السّمفونيّة الجنوبيّة الخامسة» للشّاعر نزار قباني، محاولين رصد مدى التّعالق بين الشّاعر وتأثره بالشّخصيات والمعتقدات التّراثيّة في المجتمع الجنوبيّ اللبنانيّ إبّان مرحلة الاحتلال الاسرائيليّ.

عُرف عن الشّاعر نزار قباني بأنّه شاعر المرأة وبأسلوبه الأدبيّ المشوّق وألفاظه المتنوّعة في مخاطبة القارئ ليخبره بخلجات نفسه، ولكنه عرف في جوانب أخرى من الشّعراء المبدعين الذين ارتقت أشعارهم إلى المراتب العليا وحازت على الإعجاب وتميزت بحريّة الفكر والجرأة فانتشرت في معظم الدول العربيّة والعالميّة سيما وأنّه من الثّائرين على الأنظمة

(١) مؤمن المحمدي، الأعمال الكاملة للشاعر نزار قباني شاعر الحب والثورة، مكتبة هاني، بغداد، ط ١، سنة ٢٠١٣، ص ١٥.

في هذه القصيدة الجريئة التي تنزف ألماً وحسرة وثورة على الواقع العربي المتردّي، ترشح من عباراتها زفرات الألم متوجّهة إلى من يلبي نداء الإنقاذ والتحرير من كل غيور على الأرض والأمة، يكرّس الشاعر الدور الكبير والمركزي الذي يلعبه الأدب في حياة الشعوب بمختلف مراحلها وتطوراتها المجتمعية، فيجسّده شكلاً من أشكال التقدّم الثقافي الواعي الذي يعكس حالات الإنسان وآماله وتطلّعاته، ويشاركه همومه وأفراحه، مواكبةً وتعاطفاً ومشاركة. يقول الشاعر نزار قباني: «كانت لغة الشعر متعالية بيروقراطية.. بروتوكولية لا تصافح الناس إلا بالقفازات، وكل ما فعلته أنني أقنعت الشعر أن يتخلّى عن ارسنقراطيته، ويلبس القمصان الضيقة المشجّرة.. وينزل إلى الشارع ليلعب مع أولاد الحارة، ويضحك معهم ويكي معهم.. وبكلمة واحدة رفعت الكلفة بيني وبين لغة (لسان العرب) و(القاموس المحيط) وأقنعتها أن تجلس مع الناس في المقاهي والحدائق العامة وتصادق التلاميذ والعمال والفلاحين»^(١).

بهذا المفهوم يصبح الشعر حالة من الوعي الاجتماعي بمفهوم العلاقة مع المتغيرات في المجتمع ومع الظروف التاريخية

والزمنية التي يعبر عنها بمسؤولية وأمانة وتوطيد التواصل بين المتلقي والنص الذي يعبر عن واقعه وتطلّعاته، لذا نجد في معظم النصوص الأدبية صور المجتمع وعاداته وتقاليده التي تضيء على هويته وانتمائه وتاريخه. ويتحدث «توماس كارليل» (١٧٩٥ - ١٨٨١) عن الشعر وتاريخ الأمم في نطاق تعليقه على كتاب في تاريخ الشعر الألماني قوله: «إنّ تاريخ شعر الأمة هو جوهر تاريخها السياسي والعلمي والديني فمؤرّخ الشعر المجيد يكون عارفاً بكل هذه الأشياء، إن الملامح القومية في إبداع خصائصها وخلال مراحل نموّها المتتابة تكون واضحة له. وهو يستطيع أن يكتشف أهمّ ميل روحي يسود كل حقبة، وماذا كان أسمى هدف ومقصد تحمست له الإنسانية في كلّ زمن، وكيف تطوّرت كل حقبة من الأخرى. وإنّ عليه أن يسجّل أسمى ما هدفت إليه أمة من الأمم في اتجاهاتها وتطوراتها المتتابة، فبهذه يترنّم شعر الأمة، هذا هو الجوهر الأساسي لأمانة تاريخ الشعر»^(٢).

وعلى هذا الأساس فالشعر في كل أمة له سمة خاصة بها يعبر عن الروح الوطنية والقومية وظروف الحياة العقلية والمادية

(١) نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٨١.

(٢) wissmatt and brooks: literary criticism, p530-531.

تعريف التّراث

كلمة تراث من الكلمات الشائعة الاستخدام في اللغة العربيّة الفصحى وفي لهجاتها المختلفة، فالتراث في اللغة هو كل ما يخلفه الرجل لورثته أي أبنائه وأهله من بعده. وفي تفسير المعجم العربي الأساسي وردت كلمة تراث بأنها: «١ - ما يخلفه الميّت لورثته: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩] ٢ - كلُّ ما يُمْلِكُ. ٣ - مجموع الأنماط والعادات الحضارية المتنقلة جيلاً إلى جيل «التّراث العلمي العربي»، «التّراث الاسلامي»، «التّراث الثقافي»، «التّراث الشعبي»^(٢). كما وردت بمعنى: «ورث يرث ورثاً ورثاً وإرثاً وإرثه وتراثاً فلاناً: انتقل إليه مال فلان بعد وفاته. يقال: «ورث المال والمجد عن فلان»^(٣).

وبهذا المعنى يكون موضوعه الانتقال تارة مادياً كانتقال الأملاك والمال من الميت إلى الأحياء، وتارة معنوياً كانتقال الحسب والنسب والشرف، وتارة يكون ثقافياً، وبهذا يكتسب التّراث خاصية الانتقال المؤثر من الماضي إلى الحاضر لاعتبارات مرتبطة بالعصر وحاجاته ومقتضياته.

ليصبح صورة لعصره، لأنّ «العمل الفنّي بحد ذاته يكون رمزاً للإنسانيّة أو لإحدى أمم الأرض أو لعصر من العصور»^(١).

وعلى الرغم من المفردات القاسية التي وردت في هذه القصيدة، بحيث تضع الأنظمة العربيّة في صورة الخيانة والاستهزاء والسخرية، إلا أنّ المآسي المستمرة التي يتعرّض لها الوطن العربي تركت أثراً مؤلماً حزيناً وغازباً في قلب الشّاعر، ليثور كفنّان حساس، يرسم مشاهد الألم التي تعكس تأثره الصادق مع نفسه في التعبير عن مشاعره الوطنيّة منذ اغتصاب أرض فلسطين وتشريد شعبها وصولاً إلى الاحتلال الإسرائيليّ لجنوب لبنان.

لقد أبدع شاعرنا نزار أيّما إبداع في معظم قصائده السّياسيّة وأصبح علماً يرفرف في سماء الانتفاضة على الجبن والهوان، يدعو لنبد التخاذل، وترك الخنوع، وإيقاظ الشعوب من سباتها ورضوخها للذل والاستعباد، فقدّم لنا الكثير من القصائد في هذا المجال ومنها القصيدة التي نحن بصددّها والتي أسماها «السّمفونيّة الجنوبيّة الخامسة».

(١) شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس، (في الأدب المقارن)، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥، ص ٢٠٨.

(٢) المعجم العربي الأساسي، تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب - لاروس، ١٩٨٨، ص ١٣٠٠.

(٣) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق بيروت، ١٩٨٦، ط٣، ص ٨٩٥.

«السّمفونيّة الجنوبيّة الخامسة»

سعى الشّاعر نزار قباني إلى تسليط الضوء على التّراث بكلّ مراحلهِ، وتوجيه الأنظار إلى ما يخبّئهُ من ثورات خالدة، ومحطّات فكريّة مشبعة بالقيم والعلوم الصّالحة للنّجاة والخلاص، فاختر رموزاً أضفت على قصيدته بعدها الفنّي والإنساني ليصبح التّراث لديه ركناً متيناً من التّكوين الشّعري لجذب الوجدان الإنساني عامّة بالإضافة إلى الأصالة التي ظهرت من خلال امتداد الماضي في الحاضر، واحترام الحاضر بجذوره الخصبة متخطياً حدود الزمان والمكان لتوطيد الرابطة القوية بين الواقع والماضي عن طريق استلهم المواقف الروحيّة والإنسانيّة. وتجدر الإشارة إلى براعة الشّاعر في استعمال العبارات التي تثير التّخفّز في القارئ وتسيطر على مشاعره وجذبه لمتابعة قراءة القصيدة المفعمة بصورها وعباراتها الاستفزازيّة لكسب التفاعل مع اللّغة ومع مضامينها ومعانيها.

عندما يشتدّ القهر، وتستباح الأرض، وتكبّل الحريات، ويخيّم الصمت، ينبري الشّاعر للتعبير عن مشاعره بطريقة فنّيّة وهذا ما لجأ إليه شاعرنا حين وجد في التّراث متنقّساً لتبيان مشاعره وأفكاره وذاته القلقة الباحثة عمّا يمدّها بالطاقة والأمل والاطمئنان لتكون منطلقاً للمواجهة،

ودرعا يقيه سهام الشرور ونبال الأهوال والمعاناة، ويصبح التّراث سبيلاً للخلاص والتّقدم وتجسيد رؤاه الفكريّة والأدبيّة من خلال النظريات والنماذج التّراثيّة التي أنتجتها العقول السالفة، وما تركته من تراكمات حضاريّة معرفية وفنّيّة استمرت عبر الأزمان، تتوارثها الأجيال وتلتزم بها، وتحاكيها للاستفادة منها في تطويل حاضرها، وضمان مستقبلها اللائق، وإغناء المكتسبات الإنسانيّة من خلال اختيار نماذج فكرية مشعّة مبنية على رؤية واعية في عملية عصرنة التّراث وإعطائه قيمة وغاية أنية تحييه من جديد، ليس بطريقة تقليدية مقولبة من الأمس، وإنما في إطار تبصّري للغد المشرق الذي يشكّل امتداداً يليق بالحياة البشريّة، ويستمر معها روحاً تسري في ضمير الشّعوب وعقولها وتدفع مسيرتها خطوات متقدمة ذات فاعلية وتأثير في ميادين التحدي والعلاقات الإنسانيّة.

تمظهر التّراث في القصيدة

تميّزت القصيدة بتعاملها مع التّراث بشتّى أبعاده ومصادره بطريقة مختلفة شكلاً ومضموناً عن سابقاتها فابتعدت من تسجيل الأحداث والوقائع عرضياً وإنما قامت باستدعاء الشّخصيات المؤثّرة وكلّ ما له علاقة تثير الإلهام القائم على التّفاعل القوي مع العناصر والمعطيات وإيصال أبعادها إلى المتلقّي، «إن عناصر التّراث

ومعطيته لها من القدرة على الإحياء
بمشاعر وأحاسيس لا تنفذ، وعلى التأثير
في نفوس الجماهير ووجدانهم ما ليس لأي
معطيات أخرى يستغلها الشاعر، حيث
تعيش هذه المعطيات التراثية في أعماق
الناس تحفّ بها هالة من القداسة والإكبار،
لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم
الفكري والوجداني والنفسي^(١). وهذا ما
برز أهمية التأثير وتفاعل المتلقي مع
القصيدة وإحياءاتها ما أكسبها أصالة
وتفرداً غنياً، حمل أبعاداً رؤيوية شعرية
على صلة وثيقة بمصادر وأدواتها
التعبيرية سواء على مستوى الصياغة
والتشكيل أو على مستوى الدلالة والرؤية
الغنية بالطاقات الإيحائية التي أبانت عواطفه
وأحاسيسه الشاعرة، التي تظهر ولعاً
واهتماماً بالتراث لتطفو على بنية القصيدة
محاكاة تعكس الثقافة الأصيلة وتوظف
عناصرها وما تنطوي عليه من مضامين
نصية رمزية تدلّ بوضوح على الهدف الذي
يصبو إليه الشاعر على الرغم من تباعد
المسافة الزمنية بينها.

تبدأ القصيدة بهالة سماوية يضيفها
الشاعر على الإنسان المقاوم في جنوب
لبنان الذي هبّ منتفضاً لمواجهة المحتل
الإسرائيلي مسطّراً أروع الملاحم التي

أنهلت العالم في زمن الخضوع والهروب
من الوقوف في وجه الآلة الصهيونية
الدمّرة. يقول الشاعر في مطلع القصيدة:

«سميتك الجنوب

يا لابساً عباءة الحسين

وشمس كربلاء

يا شجر الورد الذي يحترف الفداء

يا ثورة الأرض التقت بثورة السماء..»

في هذا المقطع الذي يستهل به الشاعر
قصيدته يشير إلى الصورة الرمزية التي
تمنح الجمالية الروحية التي يألّفها الإنسان
ويطمئن لها، حيث يقف العقل متأملاً في
إشعاعات النور التي تجتاح الذات. تلك
الصورة التي تنسج هالة من القداسة
القيمية ترخي بظلالها فوق عواصف القلق
والحيرة وزوابع الواقع المرتمي بأحضان
الضياع واليأس في زمن افتقاد الحلول
وغربة الأمان لتغيّر المشهد القاتم، وتمنح
الروح المتهاكة جسراً تعبر عليه من إसार
العدم إلى واحة الأمل وفضاء الحرية الذي
يقود إلى الوجود الآمن، فأعادنا بالذاكرة
إلى ثورة كربلاء وما تحمله من دلالات
إنسانية تختصر مسألة الصراع بين الحقّ
والباطل، وبين الظالم والمظلوم، فيرى أن
الجنوب وأهله يقفون اليوم في وجه الكفر

(١) علي عشري زايد، بناء القصيدة العربية الحديثة، ص ١٣٧.

والعدوان يستظلون عباءة قائد الثورة
الكربلائية الإمام الحسين (عليه السلام) كدلالة على
المبادئ التي يحملونها، ويدافعون عنها،
ويتمسكون بها، ويستنيرون بشعاع الثورة
الخالدة، ويحملون لواء العيش بعزة وكرامة
غير أبهين بفداحة الأخطار وقوة المعتدين
وكثرة عددهم. إنهم أبناء الحق الذي يساوم
ولا يهادن ولا يخادع ينطلقون من إيمانهم
بقضيتهم دون مساومة، صامدون
كالشجرة الضاربة جذورها في الأرض،
يزرعون دماءهم لتتفرع في سماء الشهادة
الموشاة باللون الأحمر، ويلتحقون بركب
الشهداء حيث الانعتاق من أسر الأجساد.

وفي المقطع التالي تحتشد الصور
الموحية بما تحمله من مشاهد غنية تضيفي
على مخيلة القارئ مطراً وثورة وحباً
وعطراً. يقول الشاعر:

«يا سيد الأمطار والمواسم
يا ثورة شعبية تحمل في أحشائها
التوأم

سميتك الحب الذي يسكن في الخواتم
سميتك العطر الذي يسكن في البراعم
سميتك السنونو
سميتك الحمام
يا سيد الأسيا، يا ملحمة الملاحم»

يرى الشاعر واقعاً محبطاً للأرض
العربية تشكو الجفاف، وفي المقابل يرى
الخير القادم من الجنوب يحمل الخصب
والنماء، فكما أن المطر يعتبر روح النبات
والزراع وما وجود بالنفع للناس، فإن
الشاعر اتخذ من المطر وسيلة للتعبير عن
واقع الإنسان الجنوبي الذي يقدم
التضحيات لكي تحيا النفوس وتنسم
الأرض دم الشهداء لتنبث ورداً وثورة.

لقد اعتمد الشاعر أسلوب التكرار
ليفصح عن مكنوناته الذاتية، فتحوّلت
الألفاظ المكررة إلى أداة تعبيرية تقوّي
المعاني والصور، فتشكلت في القصيدة
بأشكال مختلفة وأنماط متنوعة بدءاً من
الحرف وامتداداً إلى الكلمة أو العبارة.
والحديث عن ذاتية الفنان «لا حصر لها في
عمل معين تبذره عواطفه مباشرة بل إنها
خلق في ميادين شتى يمكن أن تكون في
قصة بأسلوب ملحمي أو مسرحي فيصوّر
فيها عواطفه بطريقته في تصوير
المواقف»^(١).

والتكرار لا يقوم فقط على مجرد تكرار
الحرف أو العبارة، وإنما ما تتركه هذه
اللفظة من أثر انفعالي في نفس المتلقي
وبذلك يعكس جانباً من الموقف النفسي
والانفعالي والدلالات المختلفة التي تفرضها

(١) شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، ص ٢٠٩.

طبيعة السياق، كما أنه يضيف مشهداً جمالياً يساعد على توضيح وفهم الصورة أو الموقف.

يتكرّر الحرف (يا) في القصيدة بتشكيل نسقي يكشف عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، ويرسم قوة العلاقة بين المنادى وارتباطه بالعناصر التراثية وما تتضمنه من إحياءات تراثية رافقت الأجيال المتعاقبة في جنوب لبنان وتمسكت بها وحافظت عليها فكانت مورد الرزق وغذاء الفكر وشراب مجالس السمر وأزيز رصاص الأفراح... حيث يقول:

«يا سفن الصيد التي تحترف المقاومة
يا سمك البحر الذي يحترف المقاومة
يا كتب الشعر التي تحترف المقاومة
يا ركوة القهوة فوق الفحم
يا سهرات الزجل الشعبي
يا لعلّة الرصاص في الأعراس...»

ومع تكرار الحرف أكثر من مرة تتغير المفردات مع المكرر ذاته، وتتلوّن المعاني، وتتماوج الإحياءات التي تقلنا في سفر طويل واضح وآمن إلى ذات الشاعر النائرة والمتأثرة بالحدث والمواقف التي يعيشها شعب الجنوب اللبناني. ويعالج الجاحظ التكرار بطريقة تميّزه عن غيره نظراً

لاختلاف التوجهات والاهتمامات الأدبية والثقافية، فيرى أن التكرار «ليس فيه حدّ ينتهي إليه ولا يؤتى على وضعه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ووظيفته عند الإفهام»^(١).

وقد أصبح التكرار للفظة أكثر من مرة سبيلاً للتوطيد وزيادة التوكيد أو التهويل أو التعظيم أو للتلذذ بذكر المكرر لما يتركه من أثر انفعالي في نفس القارئ أو السامع. يقول الشاعر:

«سميتك الجنوب
يا لابساً عباءة الحسين
وشمس كربلاء
يا شجر الورد الذي يحترف الفداء
يا ثورة الأرض التقت بثورة السماء
يا جسداً يطلع من ترابه
قمح.. وأنبياء...»

يعود الشاعر إلى الماضي الدفين، ويغوص في أغواره، ليكتشف الحاضر ابتغاء معرفته وإحيائه، فيبين صورة المأساة التي يعيشها أهالي الجنوب اللبناني وما يتعرضون له من أبشع أنواع الظلم والإجرام والحقْد الصهيوني من خلال استحضار التراث المعنوي لمأساة الإمام

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٩٦٨، ص ١٠٥.

الحسين عليه السلام وإسقاط تلك الأحداث على الزمن الحاضر لما فيها من تشابه حدثي فجعل من المعاناة وسيلة للتوحد بين المواجهات الدامية في الجنوب والثورة الكربلائية في وجه الطغيان والجبروت، وإذا كان الشعر «هو صورة كلامية لأعمال الانسان ونشاطاته فإنه ها هنا صورة كلامية أيضاً للنشاط العملي والفعل الإنساني»^(١). وكما الأرض تنبت قمحاً فإن الجسد المقاوم والروح الثورية التي تستعر في الصدور يطلع منها قادة ومقاومون يشيّدون واحات النضال والجهاد في صحراء الهزائم والانكسارات الرابضة على امتداد الأرض العربية الساكنة.

ثمّ ينقلنا الشاعر إلى مجلس المهابة والتقدير والإجلال للجنوب المقاوم متقدماً بخشوع راجياً منه السماح له بتقبيل السيف في الأيدي التي تقاوم وتقبض على سلاح الحرية والإباء لتهزم به آلة الحرب والعدوان. وتزداد مهابة المشهد لدى شاعرنا حين يعرج إلى محراب العبادة والقداسة في فضاء العيون المقاومة التي تحمل صورة الخالق المضيئة بنور الإيمان جاعلاً من ذلك المخضّب بدمه وردة جورية

منحته نسيم الحرية وشهادة الميلاد الحقيقي في ظل غياب الهوية المسلوبة من عزتها وعنفوانها، فيقول:

«اسمح لنا بأن نبوس السيف في يديك
اسمح لنا أن نعبد الله الذي يطل من عينيك

يا أيها المغسول في دمائه كالوردة الجورية

أنت الذي أعطيتنا شهادة الميلاد
ووردة الحرية...»

وهكذا يبرز الشعر كوسيلة تعبيرية يلجأ إليها الشاعر لتقوية العلاقة بين مشاعره وأحاسيسه وما يحيط به من أحداث يعيشها في حياته اليومية، لتكون الترجمان الحقيقي للنفس البشرية، فيزداد الشعر قيمة بازدياد قدرته الإيحائية، «والشعر العظيم لا يقاس بمجرد معناه المباشر وإنما يقاس بما يرتبط بهذا المعنى من معان وصور يثيرها في نفس متلقي الشعر»^(٢). لذا، فإن العمل الأدبي وخصوصاً الشعري يظهر أثره الإبداعي من خلال الرؤيا الفنية التي تجسّد المضمون وما يحتويه بأسلوب يجلو صورته، ويبرز فنّيته من خلال تدرّج المحتوى والشكل فيتكاملان في عمل أدبي

(١) ميشال عاصي، الفنّ والأدب، مؤسسة نوفل، ط٣، ١٩٨٠، ص١٤٧.

(٢) شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، ص٢٤٧.

هادف وملتزم... «إنما التزام الفنان شيء ينبع حراً من أعماق نفسه فإن لم ينبع الالتزام حراً من قلبه ومن بيئته وعقيدته فلا تلزمه قوة في الوجود.. يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان...»^(١).

يتبصر الشاعر في ما هو من حوله وما آلت إليه ظروف الواقع المأساوي فهالته الكوارث المروعة وتمثلت أمامه المعاناة الحية التي تستبد بالناس، فيعود إلى أسلوب النداء المتأوه جاعلاً من الجنوب «قمر الحزن» الذي يسافر من عيون فاطمة الصابرة على آلامها، ثم يتوجّه بحراً مستقلاً زورق التّراث ناشداً سفن الصيادين الذين حوّلوا «شباك الصيد» إلى بارود يحرق الأعداء، فيقول:

«يا قمر الحزن الذي يطلع ليلاً من عيون فاطمة

يا سفن الصيد التي تحترف المقاومة

يا كتب الشعر التي تحترف المقاومة

يا ركوة القهوة فوق الفحم

يا أيام عاشوراء، يا شراب ماء الزهر في صيدا

ويا مآذن الله التي تدعو إلى المقاومة..»

تحتشد الصور التّراثية التي رسمها

الشّاعر بحيث تعدّت حدود الزمان والمكان بنسيج فنّي تجاوز التضمين التقليدي وأسقط عليه أبعاداً سياسية واجتماعية وظّفها الشّاعر للتعبير عن رؤيته، فتسبغ على القصيدة فضاءً شعرياً واسعاً غنياً بالإشارات والدلالات، بهدف التعبير عن الواقع الراهن والصورة التّراثية المستحضرة من الماضي العريق للتماثل مع الواقع في محاولة لإعادة تشكيلها من جديد، الأمر الذي جعل التراكيب الشعرية المستمدة من الأجواء التّراثية تكتنز بالايحاءات الصافية، والأمر الذي أسهم في تعميق المعنى وأمدّ حركة القصيدة الداخلية بالمؤثرات الفنية هادفاً إلى مشاركة القارئ للاطلاع على حالته النفسية لاستنباط ما يهدف إلى البوح به من خلال إشارات النص الشعري وتلميحاته وإشاراته.

ومن خلال أسلوب النداء المتكرر تظهر براعة الشّاعر في الربط بين المفردات ودلالاتها على العادات والتقاليد التي تميّز بها أهالي الجنوب، لتندرج في سلّم علائقي يجسّد الصورة الحقيقية للناس وعيشهم اليومي وحرصهم على التّراث وقيمه على الرغم من أنها أصبحت قديمة، إلا أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم لا يمكنهم الاستغناء عنها، فهي الأصل

(١) توفيق الحكيم، التعادلية، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، لاط، لات، ص ٨٨.

والأساس في تكوينهم الروحي والفكري وما لها من أهمية في استعادة التاريخ واستذكاره عند الحاجة.

وتتوهج الدلالة على الواقع الجنوبي الذي يتوحد فيه الأهالي مع المقاومين وارتباطهم بالمصير الواحد والدور الواحد والتضحيات والمسؤولية المشتركة التي يحملها كل الناس، فيقول:

«.. يا فصائل النمل

التي تهرب السلاح للمقاومة...»

نرى في هذه الصورة التشبيهية مشهداً مختصراً جمع بين الشكل والمضمون تساوت فيهما البراعة الفنية الجمالية والطاقة الأدبية في صورة تصاعدية مؤثرة، واستعمال هذه التشبيهات على هذا النحو مظهر من مظاهر البساطة والإيجاز بحيث لا يستطيع الشاعر ذكر تفاصيل المشهد الذي يريد أن ينقله إلينا فيكتفي بذكر شيء شديد الشبه به مستغنياً عن التعرض لدقائق التفاصيل في الموصوف بحيث تحوّل فيها كل فرد من شعب الجنوب إلى مقاوم ومجاهد بقدر استطاعته يلبي نداء الجهاد والنضال، فلا يخشى خطر العدو ولا يهاب قوته وجبروته ملبياً نداء الواجب والمساهمة في تهريب السلاح وأدوات الصمود والدفاع للمجاهدين ذوداً عن الأرض وصوناً للكرامة والشرف.

لقد جمع في هذا المقطع من القصيدة معظم عادات وتقاليد الجنوبيين في كل ما ورثوه من السلف في شتى الميادين المادية والفكرية والنضالية والتعاون في ما بينهم، مستعيناً بالألفاظ والمعاني السهلة للوصول إلى تحقيق هدفه دون تعويق أو إعمال الفكر بالبحث عن عبارات بديعية، كما أفصح الشاعر عن مدى تقديره لهؤلاء الناس الذين يصرون على تمسكهم بتراثهم الحضاري الأصيل، فلا يسعون إلى تغليب حضارة الآخرين على حساب حضارتهم المجيدة، ذلك أن الكنوز التراثية تحفظ الهوية وتصون الكرامة على الرغم من المآسي والاعتداءات والضغط السياسي والإقطاعي وأساليب القهر.

تتراكم الصور الفنية في القصيدة لتتماهى مع الواقع المدهش الذي يصنعه الشعب المقاوم في الجنوب اللبناني، فتظهر حرفية الشاعر وقدرته المهارية في خلق التوازي والتقابل بين الماضي العريق وما يختزنه من موروث مادي أنتجه السلف ليصبح جزءاً من ثقافته الباهرة ومصدر عيشه الكريم: (صيد السمك.. حلقات الشاي والقهوة.. شراب ماء الزهر.. الحناء في أصابع العرائس.. شمع الكنائس.. شتلة التبغ.. أشجار البرتقال..) في مقابل الثقافة التي ازدانت بها المكتبات ومجالس الفكر والأدب والمعرفة، وما تخزنه من القصص

الشعبية والأهازيج والحداء والمدائح والأناشيد... وكل ما خلّفه التّراث وحفظه التاريخ ليصلنا من جيل إلى جيل أو مكتوباً ويصبح مصدر غنى للناس والأجيال القادمة فتشعر بالأمان والاستقرار حين تنهل من هذا المعين الصافي وتحافظ على منابعه الصافية التي سادت بها أسلافنا خصوصاً الفكرية والعلمية والدينية القادرة على مواكبة العصر والتكيّف مع متطلباته والتطورات الثقافية والسّياسيّة والاقتصادية والاجتماعية، وفهم المعطيات الجديدة التي تطرأ على الواقع في مختلف المراحل، وتمكّنها من حسن التعاطي مع المسارات والخيارات الوجودية والحياتية من حيث القيم والسلوك والالتزام الثابت مهما تنوعت أساليب الضغط والتأثير وصولاً إلى درجة التقديس.

لقد جعل الشّاعر من الجنوب سفينة النجاة للأمة أمام ما يسطره من الملاحم والبطولات، وألبسه ثوب الوقار والمهابة حين جعل من «آل البيت» صورة رمزية للعزّ والإباء ورفض الضيم والمهانة وتوظيفها في توليد مقارنة مقصودة على ما هو عليه المشهد العربي من استكانة وخوف، فيقول:

«من بحر صيدا يبدأ السؤال

من بحرها يخرج آل البيت كل ليلة

كأنهم أشجار برتقال

من بحر صور يطلع الخنجر، والوردة،
والموال

ويطلع الأبطال...»

من المعروف أن الأديان جاءت لخدمة الإنسانية في كل زمان ومكان وتأمين الحياة الكريمة لكل فرد وإقامة العدل واتباع سبل الصدق والصلاح والمساواة.. وبما أنّ الشعب الجنوبيّ اللبناني أثبت أنه على درجة عالية من الوعي للمفاهيم الفكرية والدينية فقد أكد على صلابته واقعه المؤثر في هذا الوجود وقابل المراحل الصعبة بوعي وحكمة وواجه التحديات والظروف القاهرة بعزيمة وإصرار متمسكاً بهويته وانتمائه وأفكاره وعلاقاته مع باقي المجتمعات القائمة على احترام الآخر وتقبّل الرأي المناقض والمختلف عنه في التوجّه والمعتقد، إيماناً منه بأن الدين لا يُكره أحداً وأن الحرية في الاختيار هي ملك الناس وحقهم في الإيمان تأكيداً لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] لذا، كانت المواقف التي سطرها المقاومون في لبنان خلال الاحتلال الإسرائيلي أولى بواكير النهضة الواعية المطلوبة في زمن مواجهة المعتدين فأعادت الاعتبار للحرية التي تمثّل قمة القيم الإنسانية وأيقظت الأفكار النائمة ونسجت شبكة علائقية كبرى تتمحور فيها مصالح الشعوب المقهورة فتستمد منها إشراقات

النور والوعي وتوقظ الذاكرة وتهديها إلى النهج الوجودي المنتج وتنمية الحسّ الثقافي والفكري والديني من دون أن يتضعع أو يضمحل ويتهاوى في دهاليز الثقافات العالمية التي تغزو مجتمعاتنا.

من هنا كانت التحولات الكبرى في منطقتنا العربيّة وخصوصاً في لبنان: المقاومة والرفض والنهوض في مسارٍ حركيٍّ فكان الاندماج الرائع مع التّراث يتجلى في تحقيق الانتصارات، وكسر حواجز الوهم التي سيطرت رديحاً طويلاً من الزمن، فأثبتوا أن التّراث رافداً قوياً في دعم مسيرتهم النضالية. «التّراث ليس أمراً ساكناً ميتاً أفرزته هزائم الأُمّة وانكساراتها التاريخية وإنما هو تلك الحيوية والفعالية المتدفقة في وجدان الأُمّة»^(١).

وهذا ما نجده لدى شاعرنا في هذه القصيدة فقد أجاد في استخدام التعبير المناسب لتجربته الشاعرية وإظهار رؤياه من خلال المضمون المكتنز بعبارات الموروث الفكري والديني والتي شكلت المصدر المشعّ بالقيم التي استقى منها أبيات القصيدة ليبني فوقها الصورة الشعرية المنسوجة من التّراث الذي لا يستغني عنه في توليد الأفكار ونشرها والتعبير عن اعتزازه وأحزانه في الوقت

نفسه وتوظيفها في تبيان ضمير الأُمّة الغاضب على تخاذل الحكام وخيانتهم وجبنهم، فتظهر ملامح اليأس لدى الشّاعر في معظم أجزاء القصيدة لكنه سرعان ما يمسك بالأمل والتفاؤل بمستقبل مشرق يحيي المجد النائم تحت عروش الحكام المنهزمين، فيأخذ الشّاعر دور الناصح الأمين على التاريخ الممتلئ بالمحطات المجيدة ويتوجه إلى المقاوم في الجنوب جاعلاً منه «الوليّ - المهدي» الذي سيحرر الأرض ويعيد الكرامة إلى الأُمّة الضائعة في مراتع اللهو والعبثية والتبعية، فيقول:

«... يا من يصلي الفجر في حقل من
الألغام

لا تنتظر من عرب اليوم سوى الكلام...
لا تنتظر منهم سوى رسائل الغرام...
لا تلتفت إلى الوراء، يا سيدنا الإمام
فليس في الوراء ليس في الوراء غير
الجهل والظلام
وليس في الوراء غير الطين والسخام
وليس في الوراء إلا مدن الطروح
والأقزام»

استخدم الشّاعر في هذا المقطع من القصيدة ألفاظاً بعيدة عن القوة والتهديد، واختار الألفاظ السهلة الموحية بكثير من

(١) عبد الجبار القحطاني، جدل التراث والعصر، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص ١٨.

إياك أن تسمع حرفاً من خطابات العرب
فكلها نحو...وصرف...وأدب
وكلها أضغاث أحلام، ووصلات طرب
لا تستغث بمازن أو وائل أو تغلب
فليس في معاجم الأقوام قوم اسمهم
(عرب)!

تبرز الصور في هذا المقطع حاملة في
مضامينها الاستعارات والكنائيات بأسلوب
مكشوف، يفضح فيه الشاعر زمن
السلاطين الأموات الذين بسبب جبنهم
ضاعت فلسطين، وأصبحوا شركاء الاحتلال
بصمتهم وعدم مناصرتهم للحق المهذور،
وما حبهم وعشقهم إلا خيانة وانزياحاً نحو
العصر الإسرائيلي، ومشاركة بعضهم في
المؤامرة على شعبنا العربي.

لو أجلنا النظر في المفردات الواردة وما
تحمله من حقائق عاشها الشاعر خلال
عمره وهو يسمع الوعود والخطابات
ورسائل الدعم من الحكام والأمراء لما
أعيانا البحث عن سبب غضبه ووصفه لهم
بالجبناء والخانعين، فمعظم الطبقات
الحاكمة في أنحاء البلاد العربية تقدم دعماً
خطابياً للمقاومة والنضال من أجل التحرير
ورد العدوان وتنعته بأبشع الأوصاف
الوحشية.. لقد ضاعت فلسطين وأجزاء
أخرى من الأوطان العربية وها هو لبنان
يتعرض للاحتلال والدمار وما شهد الشعب

المعاني التي تهامس المشاعر فلا يحتاج
القارئ لعناء في فهم العبارات التي شكلت
جسراً بين الكاتب والقارئ فينفعل معها
وتتوالد الصور التي تثير المشاعر وتجسد
أمانى البشر، فيخاطب الإنسان الحرّ في
الجنوب داعياً إياه إلى عدم انتظار نخوة
الحكام العرب، فهم مشغولون بالتواصل مع
ساداتهم المستعمرين، وها هو تاريخهم
يشهد عليهم حيث يعيشون حياة الجهل في
دهاليز الظلمة غير عابئين بما يتعرض له
الشعب العربي من ظلم وقتل وتشريد...

ولعل أروع تعبير ذاتي يبرزه الشاعر
حين يكشف هموم المواطن العربي
ومعاناته مع الحاكمين بأسلوب تهكمي
مأساوي ينقل الواقع المزري الذي تمرّ به
أوطاننا العربيّة باختلاف المراحل والأزمان،
حيث تسيطر الغيوم ويصبح في حالة من
القنوط واليأس من يقظة الملوك والحكام،
ثمّ يستذكر الوعود الكاذبة والأضاليل التي
استعمرت نيات الحكام الكاذبين، فيقول:

«يا أيّها السيف الذي يلمع بين التبغ
والقصب
يا أيّها المهر الذي يصهل في برية
الغضب

إياك أن تقرأ حرفاً من كتابات العرب
فحربهم إشاعة، وسيفهم خشب...
وعشقهم خيانة ووعدهم كذب..

العربي من الحكام غير الكلام الذي سرعان
ما يتبخر مع الصفقات التي تحصل على
طاولة المساومات.

إنّ مواقف الحكام الجبانة والخائنة
ليست جديدة فهي تنبع من علاقاتهم مع
الغرب المستعمر الذي يسعى إلى تفتيت
أوطاننا، فلا أمل من الاستنجاذ بهكذا حكام.
الحكام الذين يتبعون سياسات مستقلة
للحفاظ على عروشهم وضمّان توريثها
لأبنائهم من بعدهم. فلا يمكن الاعتماد على
كلامهم ووعودهم الدبلوماسية التي
أصبحت للبيع والإيجار مع المستعمرين،
ولا سبيل للتحرير الا بالنضال والمقاومة
في زمن السقوط والتراجع القومي
والفكري، وأنت وحدك اليوم أيها الجنوبيّ
تستحضر الماضي بصوره المشرقة للوفاء
وتعيد مجداً ضائعاً، وتبني صروح العزة
والكرامة، فيقول:

يا سيدي. يا سيد الأحرار

لم يبق إلا أنت...

في زمن السقوط والدمار

في زمن التراجع الثوري،

والتراجع القومي، والتراجع الفكري،

واللصوص، والتجار

في زمن الفرار

الكلمات أصبحت يا سيدي الجنوب

للبيع والإيجار

والمفردات يشغلن راقصات في بلاد
النفط والدولار...

لقد أدرك الشّاعر واقع الأمّة المحيط
المثخن بالجراح والقتل والدمار والقهر،
فأطلق قصيدته لتشعّ في سماء المجد
وتكون الصوت الصادق عمّا يخالج
مكنونات المواطن العربي وما يعانيه من
الطغمة الفاسدة القابعة على عروشها
مترجماً انفعالاته ومظهراً أحاسيسه
وهوميه أملاً في الخلاص من الواقع المرير
مستعيناً بمواقف العزة التي أغنت تراثنا
العربي فجعله الجسر الذي يعبر من خلاله
إلى محطات المجد لما يتضمنه من مراحل
بطولية وطاقات إيحائية تترك آثارها في
النفس البشرية وتثري تاريخ الأمّة في زمن
التراجع الثوري والإفلاس والتخفّي
والهروب من ساحة المواجهة.

«سيذكر التاريخ يوماً قرية صغيرة

بين قرى الجنوب، تدعى (معركة)^(١)

قد دافعت بصدورها..

(١) معركة: بلدة جنوبية في قضاء صور خاضت أول انتفاضة دموية ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي في ٢٤ شباط ١٩٨٤ يوم حاصر العدو البلدة مستعيناً بمئات الجنود والدبابات والطائرات وعندما دخلوا البلدة اشتعلت المواجهة مع الأهالي منذ الفجر لغاية مساء ذلك اليوم حيث استشهد ثلاثة من أهالي البلدة وجرح العشرات.

عن شرف الأرض، وعن كرامة العروبة
وحولها قبائل جبانة..
وأمة مفككة...

تميّز موقف الشاعر بالعفوية والسهولة
مبتعداً عن الصنعة والتكلف فإذا بأفكار هذه
القصيدة تترايط وفق بناء فني نسجه
الشاعر بعبارات متينة التراكيب تنتشر في
ثنايا القصيدة بأسلوب يجمع بين مرحلة
زمنية قديمة وبين الحاضر المتناغم مع
إيقاعات المجد والعنفوان، وفي هذا المقطع
يشير إلى قرية «معركة» في الجنوب
اللبناني التي انتفضت في وجه الاحتلال
غير عابئة بالأخطار وسطوة العدو،
تستنشق عبير الشهادة وتعانق إشراقة
شمس الحرية في صحراء الهزائم والخنوع،
ولم تنتظر نجدة من أولئك الجبناء فازدهت
بثوب الجهاد ورفضت الذل والاستسلام
فقاومت بصدرها الجيش «الأسطوري»
وقدّمت الشهداء إيماناً منها بأن تحرير
الأرض لا ينال بغير الدماء التي تسقي
التراب ليزهو واحات مجد وكرامة وإباء..

من الطبيعي أن يتأثر الشاعر بوجع
الجنوبيين لأن مأساة فلسطين تتكرر اليوم
على أرض الجنوب من خلال القتل
والاعتقال والدمار، فإذا به يعبر عن هذه
المآسي بعبارات مكتوبة بلهيب الشوق إلى
استشراق الأمل الذي يرى شعاعه فوق
سماء الجنوب فيتوجه إلى المنتفضين في

وجه الاحتلال بلهجة تحمل النداء المجدول
بغصة تكشف عن الحالة النفسية التي
يعيشها، وعطشه إلى رايات الانتصار
ترفرف في سماء هذه الأمة، فيقول:

«لم يبق إلا أنت..»

تسير فوق الشوك والزجاج
والأخوة الكرام، فوق البيض، نائمون
كالدجاج

ويهربون كالدجاج

يا سيدي الجنوب:

في مدن الملح التي يسكنها الطاعون
والغبار
في مدن الموت التي تخاف أن تزورها
الأمطار

لم يبق إلا أنت

تزرع في حياتنا، النخيل، والأعناب
والأقمار..

لم يبق إلا أنت.. إلا أنت.. إلا أنت..

فافتح لنا بوابة النهار..»

يخاطب الشاعر الإنسان الجنوبي
مفتخراً بصلابته وصموده على الرغم من
الجراح وشراسة المواجهة فإذا به يجمع
بين الانفعال والغاية، بين ما يشعر به من
فخر واعتزاز وبين اليأس من القوم الجبناء
النائمون فوق البيض كالدجاج يهربون لدى
سماعهم نداء الحرب والقتال.. إنهم

المصابون بداء الطاعون القاتل وقد غطى
عروشهم غبار الجبن والهروب في مدن
خاوية سرعان ما تذوب كالملح يخاف أن
يلمسه المطر... أنت وحدك أيها الجنوبي
تشيد بناء صرح الأمة وتعلي مجدها
وتزرع في صحرائها نخيل النصر
والفروسية والشهامة العربية... لم يبق إلا
أنت لينقذنا من معتقل الخوف وديجور
الزمن القاتم... لم يبق إلا أنت وأنت وحدك
تقتحم سجون العبودية والاستسلام لنرفع
رأسنا ونحيي الماضي المجيد في وضح
النهار...

اتبع الشاعر طريقة استدعاء
الشخصيات التاريخية في تشكيل البناء
الفني للقصيدة ودعمها بالأدوات الفنية
الشعرية المنتشرة في مضامينها بمختلف
أشكالها: الشخصيات الدينية.. الرموز
التراثية.. استثمار القيم.. أسلوب السخرية
تجاه الحكام.. كلها تصوّر الأزمة التي تمر
بها الأوطان العربية وما تعانیه من اعتداءات
واحتلالات فضلاً عن الزعماء المنغمسين
في الترف والملذات يبذرون خيرات البلاد
في وقت يعاني فيه أبناء الشعب الشقاء
والفقر والظلم. وقد عبّر الشاعر عن تلك
المعاناة بإحساس صادق تمتزج فيه ذات
الشاعر بآلام وطنه وعذابات جراحه
وتشوقه إلى الخلاص.

لقد قصد الشاعر تعرية الواقع وكشف

مساوئه انطلاقاً من التزامه بقضايا أمته
ومسؤوليته في إطلاق الصرخة بغية التنبيه
والتحذير من التخاذل والاستسلام فتعمد
إسقاط البعد السياسي المتمثل في خنوع
الحكام والملوك وتخليهم عن مناصرة أهالي
الجنوب وتحرير الأرض العربية، فيقول:
«لم يبق إلا أنت»

في زمن التخاذل والعجز وانحسار
القادة الشرفاء وأصحاب النخوة الذين
أصبحوا من الماضي، أنت وحدك سبيل
الخلاص من الوهن والضعف والتنازع.

خلاصة

كرّست هذه القصيدة روح التّوحد بين
الشاعر وعشق الحرية والعفوية والصدق
والانعتاق، فقرأنا من خلالها روحه المتألّئة
المرهفة التي تفوح بالأمل والتفاؤل
والمقاومة بأسلوب وجداني مزج بين الألم
والأمل. وقد اعتمد الشاعر طريقة الخطاب
المباشر في معظم مقاطع القصيدة مستعيناً
بالأمثلة والشواهد، بأسلوب شعريّ يقوم
على مخاطبة المشاعر ومناجاة الأحاسيس
بتصوير عميق وعاطفة صادقة تنسجه
الألفاظ المؤثرة في النفوس التي تحتزن
النبرة الحماسية، والتراكيب الغنية بغية
التأثير والتشويق، والإيقاع عبر تواتر
الألفاظ وتكرارها وانتقاء المفردات المتعددة
المعاني والإيحاءات المختلفة إلا أنها كلها

تتوجه إلى هدف واحد وموضوع واحد هو القتال والصمود في سبيل الحرية، فكانت ذات الشاعر هي المحور الحاضر بقوة، وقد غلبت عليها العاطفة والانفعال الوجداني والتفاعل مع الحوادث وما تحمله من هموم ومآسٍ، لتبيّن حقيقة الصورة التي تنعكس فيها.

لقد أحيّا شاعرنا التّراث وانتصر له... وفي خطابه الشعري يدعونا إلى مراجعته ومقاربته بموضوعية وعقلانية من خلال طرحه مقارنة الماضي المجيد بالحاضر الذي أفقده الحكام والملوك العرب هالة العزة والعنفوان لكأنه يخوض صراعاً مريراً مع الواقع المريض المثخن بالجراح من القريب والبعيد. لهذا كانت دعوته إلى استحضار الموروثات للتجديد في خلق جديد متكامل بعبارات جديدة تناغم المشاعر في إيقاعاتها وتجذبنا لاستعادة قراءتها لما تتضمّنه من أحاسيس صادقة معبّرة.

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم
- (٢) البقاعي، شفيق، الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس، (في الأدب المقارن)، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، طبعة أولى، سنة ١٩٨٥.
- (٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٩٦٨.
- (٤) جماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساسي، لاروس، ١٩٨٨.
- (٥) الحكيم، توفيق، التعادلية، مكتبة الآداب ومطبعاتها بالجماميز، لا طبعة، لا تاريخ.
- (٦) زايد، علي عشري، بناء القصيدة العربية الحديثة.
- (٧) عاصي، ميشال، الفنّ والأدب، مؤسسة نوفل، طبعة ثالثة، ١٩٨٠.
- (٨) عبد الجبار القحطاني، جدل التّراث والعصر، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١.
- (٩) المحمدي، مؤمن، الأعمال الكاملة للشاعر نزار قباني شاعر الحب والثورة، مكتبة هاني، بغداد، طبعة أولى، سنة ٢٠١٣.
- (١٠) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق بيروت، ١٩٨٦، طبعة ٣٤.
- (١١) wissmatt and brooks: literary criticism, p.530- 531

أسطورة السندباد في الشعر الحديث صلاح عبد الصبور - أنموذجاً

سلام نعيم حدّاد

١ - مقدّمة

حاول شعراء الحداثة ارتياد عوالم جماليّة وفكريّة جديدة، والانفتاح على تجارب مختلفة، بالاقتراب من كتابات شعريّة عالميّة والنسج على منوالها، رغبةً في التّمييز من جهة، وتجاوزاً للشّعريّة الكلاسيكيّة من جهة أخرى.

وكان اكتشاف الأسطورة بمنزلة الفتح الجديد، فاحتفى أكثرهم بمضامينها لتقاربها من الواقع، في ظلّ الظروف التي كان يمرّ بها العالمان الغربيّ والعربيّ، وهو ما عبّر عنه أكثر من شاعر، ومن بينهم صلاح عبد الصّبور.

وبعد أن كانت الأسطورة في المجتمعات القديمة «تدلّ على تاريخ حقيقيّ، بالإضافة

إلى أنّها كانت أنموذجاً يُحتذى به وقصّة حافلة بالمعنى... ولأنّ هذه الكلمة تُستعمل اليوم بمعنى التّخيّل أو الوهم...»^(١) غدا موضوعها في الشعر الحديث من الموضوعات التي استأثرت بجهود وبحوث كثيرة من قبل أكثر من باحث وناقد، بحكم ما كان للشاعر الحديث فيها ومعها من حضور فنيّ ورؤيويّ، ومواقف في التّعامل والممارسة الشعريّة، إلى أن صارت «الأسطورة والشعر شيئاً واحداً لا انفصال بينهما»^(٢).

أمّا الدّوافع التي تلاحمت لتشكّل ذلك الإقبال على توظيف الأسطورة فلم تكن خافية على دارس الشعر العربيّ الحديث، لقد كان الواقع العربيّ بما يشهده من نكبات

(١) إيليا ميسيا، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق - سوريا، ط ١، ١٩٩١، ص ٥.

(٢) رائفين. ك. ك، الأسطورة، ترجمة جعفر صادق الخليلي، عويدات للنشر والطباعة، ١٩٨١، ص ٩٣.

خفوت صوت الحركة الرومنسية العربيّة ولغتها الرّاتبة، ما استدعى ثورة عليها، بخاصّة في مجال التّعبير عن بؤس الشعب العربيّ وحرمانه.

وأزمات كفيلاً بخلق رغبة في تجديده على مستوى الشكل، وبعث روافده على مستوى البنى، ويتطلب ذلك البحث عن خطاب شعري يستخدم الأقنعة للتعبير عن الواقع المتردي في ظل الظروف السياسية والحضارية الصعبة، التي تتميز بالقمع والتخلف، زيادة على عوامل أخرى أسهمت بشكل أو بآخر في تشكيل النزوع نحو الأسطورة، ومنها:

- ظهور الترجمات العديدة للآداب الغربية الغنية بالموضوعات، وصاحبة المادة الفنية الكثيفة.

- التأثر بالاتجاه الرمزي في أوروبا على يد «بودلير، ومالارميه، وفاليري، وغيرهم...»، وما أثاروه من قضايا حولت اللغة إلى إحياءات، وجعلت الرمز عنصراً أساسياً في التعبير عن مكونات النفس.

٢ - دراسة الأسطورة:

بالنظر إلى طبيعة الأسطورة في بنيتها وجمالياتها وعمقها الفلسفي، وثراء لغتها، فهي تستدعي الاستقراء العميق والمتنوع؛ حيث إنَّ «الأسطورة هي العالم نفسه، وقد نُظر إليه باعتباره مجالاً للأفعال، واضعين

نُصب أعيننا مبدأنا القائل: إنَّ معنى الشعر أو نسقه هو بنية من الصور لها دلالات فكرية»^(١). لذا استقرَّ أهل الاختصاص أنَّه لا بدَّ في أية مقارنة من الاستعانة بالمعارف ومكتشفات العلوم الإنسانية لما فيها من غنى، ثمَّكنها من صياغة الإشكاليات، ومن تحليل الظواهر والخطابات الأدبية تحليلاً موضوعياً، وقد يكون السؤال الجدير بالطرح:

هل لظاهرة التأثير بالمنهج الأسطوري أسباب وخلفيات؟ وهل أثمر هذا التوجُّه نتائج تستحقُّ الذكر في الشعر العربي الحديث؟

الشعر العربي الحديث بجماليته ورؤاه الفلسفية يدعو إلى الدراسة والمحاورة؛ إذ إنَّ قضية الشاعر مع اللغة «لم تعد تُحلَّ ببساطة - كما كانت من قبل تُحلَّ - من طريق تحصيل ثروة كافية من ألفاظ المعجم الشعري القديم، وإنَّما صار الحلَّ الوحيد هو خلق معجم شعري جديد يناسب تجارب العصر»^(٢)، كما أنَّ تأثر الشعراء واستعمالهم الأسطورة يُثيران رغبة في التحليل للكشف عن الأبعاد الدلالية والجمالية، وغني عن البيان أنَّ هذا البحث يلزمه حيِّز واسع، وقد تستعصي حدوده

(١) فراي نورترروب، تشرح النقد، ترجمة حسن غلاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٧١.

(٢) إسماعيل عز الدين، الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٥.

على الدقة والشمولية، الأمر الذي يفرض الالتزام بجانب ضيق من قراءة الأسطورة التي اقتصر على شخصية السندباد.

٣ - تقنية التوظيف:

كان للشاعر إليوت ولآرائه النقدية الأثر البارز في الكثير من كتابات الشعراء والأدباء، وكانت طريقته الفنية في امتصاص عناصر التراث الموحية ورموزه وتضمينها في النصوص الشعرية، بمنزلة السحر الذي جذب إليه أكثر رواد المنهج الأسطوري، بعد أن أقر بأن «علم النفس بوضعه الحالي سواء كان رد فعلنا إزاءه ملهويًا أو جادًا، وعلم الأعراف البشرية، وكتاب الغصن الذهبي، قد اجتمعت لكي تجعل من الممكن ما كان متعذرًا، فبدلاً من منهج السرد نستطيع الآن أن نستخدم منهج الأسطورة، وهذا في ما اعتقد اعتقاداً جاداً خطوة نحو جعل العالم الحديث أمراً ممكناً للفن»^(١).

أمّا في هذا الصدد، فكان نهج صلاح عبد الصبور في التعاطي مع الأسطورة مقروناً بشرط، حيث أعلن صراحة مسأيرته

لها تارة، ومخالفته طوراً، حيث قال: «استطعنا أن نقبل بعضاً منها حين وجدناه عنصراً فنياً مندمجاً في كيان القصيدة ويحمل إحياءاتها، ولم نستطع أن نقبل كثيراً من صور استعمال الأسطورة حين وجدناها لصيقة بالقصيدة...»^(٢).

ويتم ذلك وفقاً لأسلوب فني يلتزم به في معالجة المادة التاريخية وتغلغلها ضمن القصيدة، ما يساعد في النفاذ إلى المعنى واستقبال الرسائل، وهو بهذا ينحو إلى «إخفاء المادة تحت السطح الظاهري للقصيدة، بحيث تختفي إلا عن الأعين النافذة الناقدة، فأنا أؤمن كل الإيمان بالقراءة الثانية للقصيدة»^(٣).

ولا يخفى إذاً، أنّ لصلاح عبد الصبور فلسفته وتقنياته في استخدام الأسطورة، حيث تجنب التوظيف المباشر الذي يدخل القصيدة في مجاهل الغموض انطلاقاً من قوله: «إنني أحاول دائماً أن استخرج التيمة thème في الأسطورة، وأن أعيد عرضها على تجربتي الخاصة بغية إكساب هذه التجربة بعدها الموضوعي، ولكنني أكره دائماً إلصاق الإسماء»^(٤).

(١) إليوت. ت. س، المختار من نقد ت. س. إليوت، ترجمة ماهر شفيق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٣٦.

(٢) عبد الصبور صلاح، الأعمال الشعرية الكاملة، حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩١.

وفي ضوء ما تقدّم، يرى الشّاعر أنّ الدّافع إلى استعمال الأسطورة في الشّعر «ليس مجرد معرفتها، ولكنّه محاولة إعطاء القصيدة عمقاً أكثر من عمقها الظاهر، ونقل التجربة من مستواها الشّخصي الدّاتي إلى مستوى إنسانيّ جوهريّ، أو بالأحرى حفر القصيدة في التّاريخ»^(١). وبهذا يُتاح للشّاعر استعمال المادّة التّاريخيّة المتاحة له من أساطير وقصص دينيّة وشعبيّة، وتأتي قيمة توظيف الأسطورة في توظيف رموزها وشخصيّاتها، وقد تكون محور النّصّ، كما يمكن أن يكون المتكلّم في القصيدة هو الشّخصيّة الأسطوريّة.

وعبد الصّبور عمد بفلسفته الخاصّة إلى استخدام تيمة من غير ذكرها مباشرة، كما في أسطورة الموت والانبعاث، وفي مقلب آخر عمد إلى التّصريح المباشر بالاسم، وكانت شخصيّة السّندباد خير مثال على ذلك.

٤ - أسطورة السّندباد

بات معروفاً أنّ شخصيّة السّندباد هي أكثر شخصيّات ألف ليلة وليلة شهرة، ولم يتأخّر الأدب العربيّ عن التّغنّي بها، «ويُعدّ

صلاح بعد الصّبور مكتشف رمز السّندباد الأوّل، وأكثر الشّعراء اختفاءً به واستخداماً به»^(٢)، وأمر مرافقة السّندباد لقصائد الشّاعر ليس خفياً على أيّ قارئ، وذلك منذ ظهور ديوانه الأوّل «النّاس في بلادِي»، في العام ١٩٥٧م، وفي أولى قصائده «رحلة في اللّيل»، شكّل السّندباد رمزاً محوريّاً في مقاطعها كاملة، وحمل المقطع الرّابع العنوان نفسه «السّندباد»، وتكرّر في عنوان فرعيّ من المقطع عينه، والمقاطع الّتي ورد فيها السّندباد هي: (١ - بحر الحِداد / ٢ - أغنية صغيرة / ٣ - نزهة الجبل، ٤ - السّندباد / ٥ - الميلاد الثّاني، ٦ - إلى الأبد).

وتوالى قصائد عبد الصّبور مُحمّلة بأوجه السّندباد في صراعاته ورحلاته، في الدّيوان نفسه، وفي دواوين أخرى إلى أن أنتج آخر قصائده «عندما أوغل السّندباد وعاد»، وبلورت هذه الشّخصيّة فكره وتطلّعاته، حيث إنّ «الصّيغ الأسطوريّة تهجّع في اللاّوعي الإنسانيّ، تعبّر عن ذاتها في الحلم على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعة، وتسمّى النّماذج الأصليّة»^(٣).

(١) المصدر نفسه، ٨٨.

(٢) أبو علي مختار غالي، سندباد صلاح عبد الصّبور، مجلّة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج ٢٤، العدد ٤، ١٩٩٦، ص ١٨٦.

(٣) فراي نوثرروب، تشريح النّقد، ترجمة حسن غلاب، ص ١٧١.

مع السَّندباد يسترجع الشَّاعر ذكريات
الطَّفولة، وحلمه بالغول، ومخاوفه في
الليالي العاصفة، وكأنَّ الشَّاعر يريد
الإفصاح بأنَّ معرفته بالسَّندباد تعود إلى
عهد الطَّفولة، حيث كانت تروي له والدته
قصص ما قبل النُّوم، وهذه المعرفة ليست
وليدة تأثُّر بالتَّيار الجديد الَّذي انصرف إلى
استخدام الأساطير في القصيدة الحديثة،
وأحلامه بدأت في قصيدته «الملك لك»^(١):

وفي اللَّيلِ كنتُ أنا مُعل حُجرِ أمِّي

وأحلمُ في غفوتي بالبشرِ

وعسْفِ القَدَرِ

وبالموتِ حينَ يدُكُ الحياهُ

وبالسَّندبادِ وبالعاصفة

وبالغولِ في قصرِهِ المارِدِ

فأصرُحُ رعباً...

وتهتِفُ أمِّي باسمِ النَّبيِّ

المعرفة المسبَّقة بالقصَّة تتحوَّل إلى
إيحاء، وانطلاقاً منها يَصوِّر عذابات الإنسان
ورغبته في الرَّحيل للبحث عن عالم أفضل،
وظهر هذا الرَّمز بمستويات مختلفة في
التَّجربة الشَّعريَّة، وهذه تعكس بدورها

صورة السَّندباد وأصواته، فأولى حركاته
امتزاج بعد تداخُل الرِّحلة في قصيدة «رحلة
في اللَّيل»^(٢):

في آخرِ المساءِ عادَ السَّندبادُ

ليرسي السَّفينِ

وفي الصُّباحِ يعقُدُ النَّدمانُ مجلسَ النَّدَمِ

ليسمعوا حكايةَ الضَّياعِ في بحرِ العدمِ

يَصوِّر الرِّحلة مُتعبَةً وشاقَّةً، وما إن

يهدأ بعد الحركة حتَّى يعود، وتظهر ألوان
الشَّقَاء في قوله^(٣):

السَّندباد

(لا تحكِ للرَّفيقِ عن مخاطرِ الطَّريقِ)

(إن قلتَ للصَّاحي انتشيتُ قال: كيف؟)

(السَّندبادُ كالإعصارِ إنَّ يهدأ يمُتُ)

تتماهى التَّجربة والعذابات بالأحلام،
ويُعيد الشَّاعر نسج خيوط الحكاية لتتجاوز
مع الحكاية - الحلم^(٤):

السَّندباد

في آخرِ المساءِ يمتلي الوسادُ بالورقِ

كوجهِ فأرٍ ميتٍ تَلاسمُ الحدودُ

وينضجُ الجبينُ بالعرقِ.

وبما أنَّ «الأسطورة ليست مُقدَّمة لأجل

(١) عبد الصُّبور صلاح، الأعمال الشَّعريَّة الكاملة، ص ١٤٤.

(٢) عبد الصُّبور صلاح، الأعمال الشَّعريَّة الكاملة، ص ١١١.

(٣) الموضوع نفسه.

(٤) الموضوع نفسه.

ذاتها، وإنّما كأداة لموقف ذي معنًى...»^(١)،
نرى الشّاعر يتوجّه إلى النّدامى المتمثّلين
بالنّاس ليتخيّلوا رحلة السّندباد، ليحاولوا
النّهوض والسّير في البلاد، ليعبروا من
العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة،
ومن الجمود إلى الحركة، ليكتشفوا أنّهم
كانوا أمواتاً في الفكر والإرادة قبل أن
يموتوا جسدياً، ليكون موقفهم قبل فوات
الأوان^(٢):

النّدامى

هذا محالّ سندباد أن نجوب في البلاد
إنّا هنا نضاجع النّساء
ونغرّس الكروم
ونعصر النّبيذ للشّتاء

وحينما تعود نعدو إلى مجالس النّدم
تحكي لنا حكاية الضّياغ في بحر العدم
وفي حديثه إلى ندمائه كان يأمل
بالولادة الحضاريّة، وبالنّهوض من غفوة
العهد الميت، لتكون اليقظة والهروب من
المصير المروّع، وليكون الميلاد الثّاني
والعودة إلى نزهة الجبل التي أرادها هو،
وليس تلك التي أرادها شعب حضارته
المتخاذل الغارق في هوة^(٣):

الميلاد الثّاني

في الفجر يا صديقتي تولد نفسي من
جديد
ما زلتُ حيّاً فرحتي! ما زلتُ والكلام
والسُّباب والسُّعال
وشاطئ البحر ما يزال يقذف الأصداف
واللّال...
صديقتي، عمي صباحاً، هل ذكرتُ نزهة
الجبل

والعالم حول الشّاعر يغرق في الظّلمة،
ورحلة السّندباد الميمونة تتحوّل رحلة
شاقّة في مجتمع الشّاعر، وبحر الكنوز
يتحوّل بحراً من الجّداد، ويموت طائر البحر
والأحلام الهانئة ظنوناً تقضّ المضاجع^(٤):

بحر الجّداد

اللّيل يا صديقتي ينفّضني بلا ضمير
ويطلق الظّنون في فراشي الصّغير
ويُنقل الفؤاد بالسّواد
ورحلة الضّياغ في بحر الجّداد...
الرّخ مات - فاحترس. الشّاه مات!...
وهكذا يُضمّر الشّاعر اسم السّندباد
حيناً، ويظهره حيناً آخر، لكنّه يلازم

(١) إليوت. ت. س، المختار من نقد ت. س. إليوت، ترجمة ماهر شفيق، ص ١٢٧.

(٢) عبد الصبور صلاح، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١، ١١٢.

(٤) عبد الصبور صلاح، الأعمال الشعريّة الكاملة، ص ١٠٩.

قصيدته، وكأنني بالشاعر يطبق مقولة
«الأسطورة أساس لا غنى للشعر عنه...»
والشعر أساس لا غنى للأسطورة
عنه...»^(١)، فتأتي قصيدة «عندما أوغل
السندباد وعاد»، لتكشف تصوّر الشاعر
وموقفه بعد طول تأمل وتعامل مع
السندباد، تبدو كأنها تشبه توقّف الزمن
واكتشاف اقترابه من المحطة الأخيرة، وبعد
الملل واللاجدوى من التجديف^(٢):

كل شيء تجلّى له وتكشف

كان انحدار المياه إلى النبع حتماً

وصار الرّحيل

ملاً يستطيل

ثبّت السندباد مجاديفه

وأدار الشراع عن الرّيح

واستعدّ ليوم المعاد

والرحلة ماضياً كانت كشفاً واكتشافاً،
حيث كان الكون جميلاً، تكتمل فيه دورة
الحياة باكتمال حركة السندباد في آفاق
البحار الواسعة الامتداد، ومن خلال شريط
زمني متسلسل، يعبر عن عمق التجربة وعن
تعدد ألوانها^(٣):

في فصول الرّحيل الطويل
عرف السندباد الصّباحات
عرف السندباد الأماسي
كان بعض الصّباحات يتسع البحر فيه
ويصبح كوناً من الطيب والعشب
والشمس...
يخرج البحر ألوانه
يمزج البحر ألوانه...

وتستمرّ الرحلة سعياً وراء متعة
الكشف، وتكتمل الصورة بتحقيق المبتغى
بعد سفر طويل، وبعد تجوال واكتشاف،
وهذه المرحلة يتشكّل مركز القصيدة،
ويأخذ أبعاداً متعدّدة في تصوير أوجه
الامتلاء من أحلام الصبا واكتشافات الطفل،
وأسئلة الحالم، وشغف الشاعر^(٤):

ينتشي السندباد وبمراى الزّمان يعود
إليه، وينفي ويثبت فيما حوّل عينه من
رؤى،

وما احتملت من ظلال البلاد

وما احتملت من شجى كامن

ويبحر في عرقه ودماه، ويرسي بشط

الزّمان البعيد القديم.

(١) رائفين. ك. ك.، الأسطورة، ترجمة جعفر صادق الخليلي، ص ٩٣.

(٢) مجلّة الهلال المصريّة، العدد ١٠، أكتوبر ٢٠٠١، ص ١٧٥.

(٣) مجلّة الهلال المصريّة، العدد ١٠، أكتوبر ٢٠٠١، ص ١٧٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٥.

وهذا الزمان يعود به إلى زمن الطفولة
وغبطتها، وإلى زمن الأحلام التي أراد أن
يستعيدها من عمر الفرح والبراءة، حيث
الرغبة في الاكتشافات والمعرفة^(١):

وتعود للسندباد طفولته، وتعود الحقول
حقولاً، ويعود الغدير ليمتد...

وتعود السكينة كي تتمدد فوق الغدير
وتعود نجوم المساء...

ويعدو... ويعدو...

(يضحك السندباد لصورته، وهو يعدو)

وتصلصل في قلبه الطفل
أجراسه الذهبية،

يعدو... ويعدو...

لا تلبث الفرحة أن تتقلص، ويبدأ الزمان
بالانحدار والانكماش، وتخفت أنوار الغبطة،
وتفتر حيوية الصبي، والشاعر يفقد بريق
الأمل، وتنحسر الحركة بانحسار الزمن^(٢):

لقد خانتك الوقت يا سندباد

تسرّب فوق رمال حياتك

حياتك مقفرة كشتاء الصحارى،

كنت قضيت من الوجد والحزن،

أوغل أذن سندباد، احترق

خيمة الأفق...

وتحول عموداً من الفرح والنار،
ثم يهوي كبرق أضاء، كبرق خبا،
وتقضي زمن الصبا...

أهذا هو البحر؟...

موتٌ تننّ به جهشاً المجاديف...

يسعى الشاعر إلى رسم أثر المعاناة،
وإلى خلق الإحساس بالتجربة الشعرية،
ويكون هذا «بوساطة الخلق التصويري
الذي يكون معادلاً لانفعال الشاعر على
إعادة تحليل وتركيب البناء اللغوي، وذلك
ببث حيوية جديدة»^(٣)، وهنا يقوم عبد
الصبور بخلق صورتين متناقضتين، ما بين
ماضيه وحاضره، فهو من خلال شعره
يوضح أنه ذلك الإنسان الذي يحاول أن
يتمسك بذكرياته الجميلة الهائلة التي
تنتشله من حزنه الحالي وتجعله يحتفظ بما
تعلمه في طفولته، وبما كسبه من
اكتشافاته، غير أن هذه الذكريات الباهتة
تخونه وتغادر مخيلته، وتقوي الحركة
الانحدارية، وتتسلل الحسرة إلى قلبه،
وتدفعه إلى الاستسلام للأسى، وبهذه
الصور المختلفة أجاد في تركيب قصيدته،
وفي رسم صورة القهر المعنوي^(٤):

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

(٢) مجلة الهلال المصرية، ص ١٧٦.

(٣) عيد رجاء، لغة الشعر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١١٤.

(٤) مجلة الهلال المصرية، ص ١٧٦، ١٧٧.

وجدتُ... فقدتُ... وجدتُ...

ورأيتُ الذي قد سمعتُ

وسمعتُ الذي قد رأيتُ...

أخلفتُ وعدّها السُّحبُ، لم تتفتَحْ

حدائقُها عن زهورِ النّجيماتِ...

نفسُكَ مثقلةً بالهمومِ...

ويثقلُ نفسُكَ ما حملتُ من رؤى

وما احتملتُ من ظلالِ البلادِ...

ويُعلنُ الشّاعرُ استسلامَ المجتمعِ العربيّ، ويعبّرُ عن أسفه لما يجري حوله فأناسَ مجتمعه استسلموا لحالهم وليأسهم، وأغمضتُ الأعينَ عن رؤيةِ الحقيقةِ إلّا عيني السّندبادُ الذي يمثّله الشّاعرُ، والشّاهدُ على كلّ ما يدور حوله من مآسٍ، ويبقى الوحيدُ المرتفعُ والباحثُ عن كلّ ما هو أفضلُ للحياة^(١):

أيا سندبادُ، قد ثملَ النّدماءُ وأغفوا

ونامتْ أيادي رجالِكَ فوقَ المجاديفِ،

لا شاهدَ لارتفاعِ البراقعِ إلّا عيونكَ

جرّتْ طباقَ الهواءِ الثّمانِ الكثيفةِ...

بحرٌ وسبُعُ سماءاتٍ، وأصبحتْ معنى...

وحده السّندبادُ يرى الضّوءَ، ويتلمّسُ

بريقَ الأملِ الحضاريّ، الذي يراه مفقوداً

في أعين أناس مجتمعه، ما اضطّره على
المضيّ بمفرده بحثاً عن الكمال، ورفضاً
للاستسلام، حاملاً في قلبه الأسى، وتبوء
رحلاته بالنّعْب اللّامجدي^(٢):

يمتطي السّندبادُ الظّلامَ

المنقَطَ بالضّوءِ

يُبحرُ نحو مياهِ السّماواتِ،

وحدكُ تمضي...

ينهار الحلم ويبقى السّندباد وحيداً،
وتنتهي رحلته في شعر عبد الصّبور كما
بدأت، إنّها سُنّة الحياة، تبدأ بالبراءة
والطّفولة والمرح، وتنتهي بالأسى
والحسرات، إلى أن يحين موعد الرحيل.

ومع هذه القصيدة انتهت رحلة صلاح
عبد الصّبور، ولم يُكتب لقصيدته أن تُنشر
في ديوانه، وكانت آخر قصائده، ووقفته
الأخيرة في رحلة الحياة التي قضاها يعبّر
عن هواجسه من ناحية وعن هواجس أمّته
من ناحية أخرى.

والشّاعر واحد من الرّواد الذين وظّفوا
الأسطورة لإسقاطها على الواقع العربيّ
المعاصر، حتّى إنّ «أروع النّماذج الشعريّة
قد تحقّقت بمدى الاقتراب من المنهج

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٢) مجلّة الهلال المصريّة، ص ١٧٧.

الأسطوري»^(١)، الذي ساعد في رسم تمنّيات الشاعر الحديث وأحلامه، تلك الأحلام الباحثة عن الدائم المتجدّد، ولا يخفى أنّ اتّخاذ هذا المنهج كانت له آثاره، كما يُعدّ نقلة نوعيّة في تاريخ الشعر الحديث؛ إذ إنّ استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجراً للمواقف الثوريّة فيه وأبعدها أثراً إلى اليوم»^(٢)، كما أنّنا نراها ما زالت تحاكي الواقع الزّاهن وتثور عليه، فعصر الأسطورة يظهر بأنّه قابل للامتداد حاضراً ومستقبلاً بفعل ما تُفرزه الحضارات.

٥ - الخلاصة

تُعدّ التجربة الشعريّة الحديثة، بما تحمله من مُنجزات، وبما تعنيه من مواقف، خير دليل على عمق هذه التجربة، وكسرت التقليد وقاطعت القديم، لتخضع لأسئلة الإنسان العربيّ التي تهّم مصيره وعلاقته بالعالم من حوله، وبذاته وتاريخه أيضاً، كسرت الجمود واندفعت نحو ابتكار الجديد الذي جعل الماضي حاضراً في المستقبل.

اتّسعت رقعة الحداثة وقُدّمت أُسساً حديثة للحضارة تضمن من خلالها

استمرار الشعر العربيّ الحديث، ورسمت علاقة الشاعر على المستوى الجماعيّ، كما سمحت بتشكيل رؤية جديدة لإعادة بنائها وفقاً لتصوّرات جديدة.

يتوافق هذا الجديد مع إبداعات صلاح عبد الصّبور وتطلّعاته، ومن الطّبيعيّ ألاّ يخالف هذا الشاعر غيره من الشعراء الذين تأثّروا بالمناهج والأفكار الوافدة، وبفلسفة المفكرين والشّعراء من أمم أخرى. وعبد الصّبور في نزعتة الجماليّة، ورغبته في تغيير الواقع الإنسانيّ العربيّ، استخدم لغة مغايرة، تبتعد من التقليد، وخلق صوراً تؤثر في الشّعور وتدعو إلى تحريك الأحاسيس وتبديل المواقف، حيث حمل معجمه الشعريّ هموم النّاس وطموحاتهم.

ومن هذا المنطلق نلاحظ أنّ شعر صلاح عبد الصّبور يبقى تشكيلاً متداخلاً من التجربة الحسيّة والمنطق العقلي، وهذه التجربة ملفوفة بالعقل الأسطوريّ، ما يدعو إلى رفع رؤية الشاعر إلى مستوى منطق الفيلسوف وحكمته، وهذه الرؤية تقوم على جمع عناصر مختلفة داخل تركيبة القصيدة، واستطاع هذا الشاعر أن يُبرز نجاحه في محاولته امتصاص المفيد من الثقافة

(١) إسماعيل عزّ الدّين، الشعر العربيّ المعاصر، قضايا وظواهره الفنّية والمعنوية، ص ٩٩.

(٢) عباس إحسان، اتّجاهات الشعر العربيّ المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٥٥.

اليونانية والفلسفة الشرقيّة، بشكل يخدم الغرض من الشعر في تحريك النفوس من أجل تحقيق الأهداف، ولا ننس أن عبد الصبور نقطة في بحر وفي مواجهة كيان أمة واسعة يتطلّب جهوداً وعهوداً لترميم ما انكسر منها.

إذاً، استخدام الأسطورة في الشعر يُظهر قدرة الشاعر على استلهام التّيمات والتقاطها، من خلال استقراء الأساطير المختلفة، ومن قدرته على كشف نوع المشكلة، لربط العلاقات ولمعرفة أوجه الشّبه بينها، بحيث يدمجها في شعره دمجاً فاعلاً. ويبقى السّؤال:

– هل حقّق استخدام الأسطورة غاية الشاعر في الشعر العربيّ الحديث؟

– وهل هناك من دوافع وخلفيّات خفيّة لاستخدام الأسطورة؟

المصادر والمراجع

- ١ – عبد الصّبور صلاح، الأعمال الشعريّة الكاملة، دار العودة، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ٢ – أبو غالي مختار علي، سندباد صلاح عبد الصّبور، مجلّة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج ٢٤، العدد ٤، ١٩٩٦م.
- ٣ – إسماعيل عزّ الدين، الشعر العربيّ المعاصر، قضايا وظواهره الفنيّة والمعنويّة، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٤ – إليوت. ت. س، المختار من نقد ت. س. إليوت، ترجمة ماهر شفيق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ج ٣، ٢٠٠٠م.
- ٥ – إيليا ميرسيا، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خيّاطة، دار كنعان، دمشق – سوريا، ط ١، ١٩٩١م.
- ٦ – راثفين. ك. ك، الأسطورة ترجمة جعفر صادق الخليلي، عويدات للنشر والطباعة، ١٩٨١م.
- ٧ – عبّاس إحسان، اتّجاهات الشعر العربيّ المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م.
- ٨ – عبد رجاء، لغة الشعر، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٥م.
- ٩ – فراي نورثروب، تشريح النّقد، ترجمة حسن غلاب، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.
- ١٠ – مجلّة الهلال المصريّة، العدد ١٠، أكتوبر ٢٠٠١م.

سؤال الحداثة

محمد قاسم فقيه^(١)

الفكر الإيديولوجي، بشكل مفاهيم عقلية، وقواعد نظرية مترابطة ومتماسكة. في حين أنَّ الحداثة، بحكم كونها بذوراً تنمو وولادة تنبثق، يتعيّن عليها بدءاً أن تخوض في معترك الصّراع، وهي لمّا تزل أفكاراً في الذّهن، وتصورات نظرية لم يتوافر لها بعد انتظام إيديولوجي شامل ولم يُتَح لها أن تتجسد في مسلكية عملية وفي نهج حياتي مطابق^(٢).

أضف إلى ذلك أنَّ الحداثة، إذ تخوض هذا الصّراع، مطالبة في الوقت عينه بأن تحدّد لنفسها موقعاً من الاتجاهات المتناقضة في صراع العصر، ومن الاتجاهات المتناقضة في صراعات التّراث. لذلك فإنّ الصّراع بين القديم والحديث صراع طويل وشاقّ، وهو ذو أدوار عدّة وأوجه متنوّعة. غير أنّه يبقى، فوق كلّ اعتبار، دليل عافية وحيوية، وإشارة دخول

تمهيد

الحديث والقديم وجهان من وجوه الحياة. وجهان متجاذبان، متعايشان أبداً ما دامت الحياة تستمر بالولادة والموت، وتتجاوز ذاتها بذاتها، ومن ذاتها، بلا توقف ولا انتهاء.

وعلاقة القديم بالحديث، وإن تكن علاقة تعايش وتداول، إلا أنّها، في جوهرها علاقة صراع وتنازع بقاء، وبمقدار ما يتباطأ زوال القديم، ويطول حضوره، تتسارع في المقابل، خطى الجديد الدّاهم، ويعنف إيقاعه، بمقدار ذلك يحتدم الصراع في ما بينهما، وتتوقد ناره والعكس بالعكس.

إنّ الإشكالية التي يطرحها الصّراع بين القديم والحديث تكمن في «أنّ القديم قائم فعلاً» سلوكياً مكتملاً، ونهجاً عملياً مسيطراً في العادات والتقاليد. وهو إلى ذلك قائم في

(١) محمد قاسم فقيه، طالب سنة أخيرة في المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية.

(٢) عاصي، د. ميشال، في النقد الأدبي، بيروت، دار العلم للملايين ط ١ ص ٢٢٥.

في مناخات العصر، وآفاق التقدّم والتطوّر.

١ - الحداثة لغة

تعود الحداثة إلى الجذر (ح د ث): حدث الشّيء، يحدث حدوثاً وحادثة: نقيض قدم، والحديث نقيض القديم، والحدوث نقيض القدمة والحدوث: كون شيء لم يكن. أحدثه الله فهو محدث وحدثان الأمر كحادثته: ابتداءه وأوله. والحدثان من الدهر نوبه. والحديث هو الجديد من الأشياء. وأحدث: ابتدع ولم يكن قبل، وابتدأ. وحدث الأمر: وقع^(١).

يظهر من هذا الملخص للشرح المعجمي أن للحداثة الدلالات الآتية:

أ - الزمنية، فهي نقيض القدمة من هنا ارتباطها بالعصر.

ب - المكانية، فهي ابتداء، استحداث بدئي غير مسبوق. من هنا ارتباطها بحيز مكاني معيّن.

ج - القيميّة، فهي فعل حدوث في الحاضر، وما حدث قبله لا يماثله، إنّه حدث جديد ومتميز، من هنا أهميّة محتوى الحدثان على الشكل^(٢).

٢ - الحداثة اصطلاحاً

أ - عند الغربيين

لقد تأثر تحديد هذا المصطلح بتصورات

وتثير الحداثة معضلات ماهيّتها وتاريخيتها على السواء، فهي ليست مصطلحاً خاصّاً بالنقد والأدب، ولكنها تشير إلى صيغ عديدة دالة على الحضارة والتقدّم، فهي ابتداء، تدلّ على التغير مع الأنماط السّابقة، وتتمرد على خصائصها وسماتها.

ويؤخذ الباحث بالدهشة والغربة عند النّظر في حصيلة ما توصّل إليه عند دراسة مصطلح الحداثة إذ لا يعثر على أي تألف أو انسجام بين النّظريات التي تناولته بل تجد التناقض متحكّماً بالنّظرية نفسها عند الشّاعر الواحد أو النّاقّد نفسه.

من هنا تبرز الصّعوبة في إقامة الحدّ لهذا المصطلح (الحداثة)، على أنّنا سوف نحاول في هذه الأوراق أن نلّم ولو قليلاً بمفهوم الحداثة فنبحث في معناها اللغوي والمعجمي ثم ننتقل إلى البحث في معناها الإصطلاحي باختصار شديد عند الغربيين والعرب، لنمرّ على مفهوم الحداثة فنعرض باقتضاب إلى آراء بعض الشّعراء والنّقاد لنصل إلى إظهار بعض مآزق الحداثة العربية.

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د، ت، مادة: حدث.

(٢) أيوب، د. نبيل، البنية الجمالية في القصيدة العربية الحديثة، بيروت، منشورات المكتبة البولسية ط١، ١٩٩٢ ص١٣٤ و١٣٥.

مفكرى التّوير الذين يؤكّدون على العقلانيّة العلمانيّة والتّقدم الماديّ والديمقراطية، كما قد أسهم في تأسيس أصوله مفكرون تميّزوا بتمردهم على الأسس التّقليديّة، وجعلوا الكثير من اليقينيّات محطّ تساؤل، مثل التّصورات الدينيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، ولعلّ أبرز هؤلاء: فريدريك نيتشه، وكارل ماركس، وسيغموند فرويد، ولذا فإنّ الحداثة تنطوي على قدر كبير من الاختلاف الجذريّ مع الأسس التّقليديّة للثقافة والفنّ في الغرب.

وتميّزت الحداثة الغربيّة بخصوصيّتها الزّمانية والمكانيّة من ناحية، وبطبيعة التّيارات الفكريّة والفنيّة التي تشتمل عليها، من ناحية ثانية، إذ تبدأ الحداثة - زمانياً - في أواخر القرن التّاسع عشر، وتبلغ ذروتها في الرّبع الأول من القرن العشرين، وتمتدّ - مكانياً - من روسيا إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وتضمّ مذاهب مختلفة في الفنّ والأدب كالمستقبليّة والتّصويريّة والانطباعيّة والسّراليّة.

ب - عند العرب

يتفاوت الدّارسون العرب في تحديدهم لماهيّة الحداثة ووظيفتها، إذ لها خصوصيّتها من الناحية اللغوية من ناحية،

وصعوبة تحديد دلالتها الاصطلاحيّة من ناحية ثانية، فهي من النّاحية اللغويّة تستدعي معارضها أو نقيضها، إذ لا يقال: «حدث...إلا مع قدم» و«الحديث نقيض القدم»^(١). بمعنى أنّ دلالة معارضها لا تغيب، وإنّ فعاليّة نقيضها تُسهم في تحديد ماهيّتها.

وقد أحدث مصطلح - Modernism Modernity إرباكاً لدى القارئ العربي، إذ يبدو أنّه مصطلح واحد، فتمّ تعريبهما بكلمة واحدة «الحداثة» وميز آخرون بين الحداثة والحداثيّة والحداثيّة لأنّ المصطلح الأوّل لا يتقيد باشتراطات مذهبيّة أو مفهوميّة في أدب أمّة معيّنة، أمّا الثّاني فإنّه يدلّ على حركة أدبيّة ونقدية لها سياقاتها التاريخيّة والمعرفيّة والفنيّة في الأدب الغربي.

مفهوم الحداثة

يُعدّ أدونيس من أبرز من تكلم على الحداثة، فهي هاجسه الأكبر في الإبداع والتّنظير، ويتأسس مفهوم الحداثة لديه على ضوء المُغايرة والاختلاف، والمعاصرة، والتّجريب، ويميز أدونيس بين المُغايرة الشكليّة والجوهريّة، فالمغايرة الشكليّة مقصودة لذاتها، ولا تعني شيئاً مضافاً، إذ لا تتجاوز الفعل على إنتاج النّقيض، بمعنى

(١) أبو جهجة، د. خليل، الحداثة الشعريّة العربيّة بين الإبداع والتّنظير، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط ١، ١٩٩٥ ص ١٥ و ١٦.

أن الإبداع يُناقض الذي سلفه لمجرد المغامرة^(١) ويصدق هذا على الإبداع وغيره، أمّا المغامرة الجوهرية الحدثية فن وإبداع فيها يتغاير «من حيث التجربة وأشكال التعبير»^(٢)، ومن ثم فهو مختلف عما سبقه، وليس مؤتلفاً معه.

وفي ضوء هذا تسهم المغامرة الجوهرية في تحديد ماهية الحدثية وخصائصها، وهي تعني - عند أدونيس - التغاير مع الماضي العربي والآخر الغربي في آن، وقد أكد ذلك بقوله: «تقتضي الحدثية قطعاً مع التأسلف والتّمغرب»^(٣). لذا فالكتابة الإبداعية الحدثية هي التي «تمارس تهديماً شاملاً للنظام السائد وعلاقاته أعني نظام الأفكار»^(٤)، ومن ثم «فلا تُنشئ الحدثية مصالحة، وإنما تُنشئ هجوماً، تُنشئ إذن، خرقاً ثقافياً جذرياً وشاملاً، لما هو سائد»^(٥).

وتُساهم المغامرة مع الآخر في تجلية ماهية الحدثية عند أدونيس، فالحدثية العربية ليست نسخاً وتقليداً للآخر وليست

«مقاييس الحدثية في الغرب، ومقاييس للحدثية خارج الغرب بمعنى أن المماثلة بكل أشكالها وأنماطها إنّما هي استلاب كامل للإنسان العربي، لأنّه، والحالة هذه، يحركه الشّعور بالنقص إزاء التّراث لعدم إمكانية تجاوزه، وإزاء الآخر في عدم قدرة مجاراته، وفي كلتا الحالتين يوسم الشّعور بالتّخلف لأنّه في حالة محاكاة الشّعور العربي القديم يُعيد الشّاعر «إنتاج الوهم الأسطوري - التّراثي» وفي حالة مماثلة الآخر الغربي «يُعيد إنتاج شعر ذلك الآخر»^(٦).

في ضوء هذا تعني المغامرة تجاوز المحاكاة والتّقليد، لأنّنا في هذه الحالة إنّما نعيد «إنتاج العلاقات نفسها، علاقة نظرة الشّاعر بالعالم والأشياء، وعلاقة لغته بها، وبنية تعبيره الخاصة التي تعطي لهذه العلاقات تشكيلاً خاصاً»^(٧). ويمكن تأمل مفهوم الحدثية عند جابر عصفور في ضوء ثلاثة مكونات:

أولها: دور الأنا الفاعلة في تحديد ماهية

(١) أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، بيروت، دار العودة، ١٩٩٣ ص ٣١٤.

(٢) أدونيس، زمن الشعر، بيروت، دار العودة، ١٩٩٣، ١٤٧.

(٣) أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، مصدر سابق، ص ٣١٥.

(٤) أدونيس، زمن الشعر، مصدر سابق، ص ٢٩٦٨ - نفسه، ص ٣١٥.

(٥) أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ص ٣١٥.

(٦) نفسه، ص ٣١٩.

(٧) عصفور، جابر، هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٤، ص ٦١.

الأنا من ناحية، والوعي الضدّي وأثره في تدعيم البنايَّة للحادثة.

ثانيهما: المدى الجغرافي للحادثة (المدينة).

ثالثهما: كون الحادثة وجهاً آخر للتحديث.

تنبثق الحادثة من اللحظة التي «تتمرد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المعتادة في الإدراك، سواء كان إدراك نفسها من حيث هي حضور متعين فاعل في الوجود، أو إدراك علاقتها بمواقعها، من حيث هي حضور مستقل في الوجود»^(١) أيّ أنّ هناك ذاتاً فاعلة واعية تعي نفسها أولاً، وواقعها ثانياً، غير أن هذا الوعي المركّب للذات والواقع لا يكفي لتحديد الحادثة ونشوتها، وإنّما لا بد من التمرّد على طرائق الإدراك المعتادة، إنّ هذا الوعي يضاد وعياً قائماً، ولذلك أُطلق على وعي الذات نفسها وواقعها وكيفيات تمردها: الوعي الضدّي، وهو وعي لا يستسلم لليقين والذات العارفة لكل شيء، وإنّما يستبدل «بالمطلق النسبي وباليقين الشك»^(٢).

ويتحدد المدى الجغرافي للحادثة

بالمدينة، التي يتضمّن وجودها التحديث بالضرورة، سواء كانت هذه المدينة ذات طبيعة صناعية أم «المدينة الكوزموبوليتية» التي تعيش عصر ما بعد الصناعة^(٣).

وإذا كان ما سلف يحدد للحادثة مكونات بنيّتها الداخليّة ومداها الجغرافيّ فإنّ الحادثة ليست معلّقة في الهواء، فهي قرينة التحديث، الذي يتحدّد «بتغيير أدوات الإنتاج المادية في المجتمع وتثوير علاقاته»^(٤) وتتحدد الحادثة في الفكر والإبداع بحيث يكونان «وجهين لعملة واحدة لا ينفصل طرفاها في علاقاتهما الجدليّة»^(٥). ويتحدّث د.نبيل أيوب عن الحادثة الشعريّة فيقول:

لقد كثرت التسميات والمصطلحات التي ابتدعها النقاد والشعراء والرواد حدّاً وتميّزاً للشعر المستجد في الخمسينات من هذا العصر: شعر التفعيلة، الشعر المنطلق، الشعر المستحدث، ودار حول البعض الآخر جدال، من الشعر الحرّ إلى الشعر الجديد والشعر المعاصر والشعر الحديث.

ويورد بعض الملاحظات:

أ - إنّ مصطلح الشعر الحرّ هو ترجمة حرفيّة لمصطلح غربي. وقد أُطلق في الغرب

(١) نفسه، ص ٦١.

(٢) نفسه، هوامش على دفتر التنوير ص ٦٣.

(٣) نفسه، ص ٦٢.

(٤) نفسه، ص ٩٢.

(٥) أيوب، د. نبيل، مصدر سابق، ص ١٣٣ و ١٣٤.

على الشعر الخالي من الوزن والقافية معاً وهو الشعر الذي بدأه والت وايمان وكان له متابعات عندنا منذ بدايات هذا القرن من قبل أمين الريحاني وجبران ثم تابعه محمد الماغوط وتوفيق صايغ وجبرا إبراهيم جبرا.

ب - إن مصطلح قصيدة النثر، وجد لتحديد بعض كتابات بودلير ورامبو النثرية الطافحة بالشعر. وقد تابع هذا النمط أنسي الحاج وأدونيس ويوسف الخال.

ج - إن مصطلح الشعر المعاصر لا يصلح كتحديد وتمييز لنوع أو لصفة، لأن المعاصرة تعني التزامن والتواقت بين ظاهرتين أو حدثين ضمن حيز زمني واحد، أي أن المعاصرة ذات ارتباط زمني محدد لا تفصل بين الجدة والتغيير وبين التقليد والثبات.

د - إن مصطلح الشعر الجديد كان مفيداً وذا دلالة بارزة لأن للجديد، معنيان: زمني وفني.

هـ - إن مصطلح الشعر الحديث هو الذي ثبت، وهو مصطلح أطلقه الشاعر اللبناني يوسف الخال في محاضرة ألقاها في الندوة اللبنانية عام ١٩٥٧م. تحدث فيها عن الشعر الحديث المعاصر، ثم تبنته مجلة

شعر كما تبناه الشعراء والنقاد لأنهم رأوا فيه ما يفي بالمدلول المطلوب من ثورة على الشكل والمحتوى معا^(١).

خلاصة

يُحسن النقد النّظر في «الحداثة» لاستخلاص الدلالات ويؤسس ما يقارب «المفهوم»، فاللفظة العربية «الحداثة» تُشتق من حدث، الحدث، بما يشير إلى الحدث أو الوقوع أي فعل الحدث في الزّمان، وبما يوحي بأهميّة المضمون الحادث، «الحداثة» ترتبط بما له أكثر دلالة عما يقع، إنّه ما يحدث، فليس الشكل هو المهم، ليس هو الصورة التي تبرز. وارتباط الحداثة بالزّمن يعني أولاً ارتباطها بالحاضر منه ثم انفتاحها على المستقبل.

وحتى يكون للحداثة جوهر يجب أن تمتاز بكثافتها الدلالية، بارتباطها بالذات الخلاقة المتحوّلة، بالفعل بزمانها الخاص وبمبدأ النسبية من هنا أهميّة المضمون وأفضليته على الشكل، وبذلك يكون للحداثة فرادتها وشموليتها، إنّه تقدم حدثها مفاجأة، تجعله يتقدم على نظرائه.

وهي تنبثق من الحدث، تُسقط عليه لتعطيه الفرادة والخصوصيّة، كما إنّ فيها نوعاً من الجدليّة، تحقق ذاتها في لحظة

(١) نفسه ص ١٣٤.

معينة، ثم تقفز متجاوزة ذاتها، إنها حركة وتغير، إنها تركز على التغيير المستمر وعلى التبدل والتحرر، هي لا تغاير القديم بالضرورة، إنما تغاير وتعارض حكماً التقليد.

نستخلص مما تقدم:

أ - ارتباط الحداثة بالتميز والخصوصية والفردة وبالكثافة الدلالية.

ب - ارتباط الحداثة بالذات الفاعلة المحولة والمتحوّلة، وبالفعل في زمنها الإبداعي وبمبدأ النسبية.

ج - ارتباط الحداثة بالمضمون ذي الامتياز وتقديم المضمون على الشكل.

د - ارتباط «الما يحدث» مع «الما قبل» بالمغايرة ومع «الما بعد» بالفردة والخصوصية.

تلك هي تأويلات الحداثة، فهل هذا هو ما أدركه الرواد ودعاة التجديد في الأدب بعامة والشعر بخاصة؟

في الإجابة عن هذا السؤال نذكر ما يلي:

أ - إن قراءة الظاهرة الشعرية الحديثة وما كتب حولها يوضح بأن الشعراء والنقاد ما كانوا على رؤية واضحة لما يريدون الوصول إليه، كان هدفهم التغيير وأن يكون ما يبتدعونه متوافقاً مع روح العصر، لذلك انصرفوا إلى التجريب، كل من موقعه، كما انصرفوا إلى التنظير، وعلى اختلاف آرائهم

وتناقض مواقعهم فقد اجتمعوا على هدف واحد هو التغيير.

ب - إن الإشكاليات التي طرحت وكانت الرؤية النقدية فيها قاصرة هي إشكاليات الحداثة نفسها: المضمون والشكل في الحداثة، المغايرة والحداثة، علاقة الحداثة بالتراث، أهى علاقة انقطاع أم تواصل؟، علاقة عالم القصيدة والعالم الواقعي: الممكن والواقع، الحداثة إشكالية عربية أو إشكالية عالمية...؟

ج - توصل النقاد والشعراء إلى أن الإبداع الشعري الجديد لا يصدر إلا عن تجربة شعرية تتكون من تجربة ذاتية، عند شاعر مثقف يعيش كيانياً هموم عصره وحال مجتمعه، يعيش حالة شعرية.

د - إن التجربة الشعرية تتكون من عناصر «الشكل» بإبداع شكل جديد من أنغام داخلية وصور وطريقة استخدام للغة وتعبير جديد ومن عناصر «المضمون» أي من رؤيا وموقف وجودي...، فإن هذا المصطلح شكّل في مفهومه التباساً وإشكالاً بين معظم النقاد والكتّاب والشعراء، وقد نظر إليه كل من موقعه الفكري والإبداعي فتعددت الآراء والنظريات بتعدد الاتجاهات والإيديولوجيات.

هـ - إتكَأت الحداثة في التراث العربي على التنظير والتجريب وتفاعلت مع واقع بالغ الحركة والتغيير والصرورة. واشتملت

- تاريخياً - على تيارين: سياسي - فكري، وفني، أمّا الحداثة الغربيّة، فإنّها وليدة تطوّر وتحولات وتبدّلات في صميم الحياة الغربيّة، أحدثتها الثورة الصناعيّة، فحوّلت في أنظمة الحياة والواقع، وغيّرت في طبيعة الأدب وأنظمته وبنائه اللغوي، وهذا يعني أن الحداثة في الغرب تعبّر عن أوجه التحوّل السّريع التي حدثت في الواقع.

وهكذا عانت الحداثة العربيّة من أزمة انفصام إذ تعامل معها الباحثون بمعزل عن سياقات تاريخيّة واجتماعيّة ومنظوماتها الفكرية.

وإذا كانت الحداثة العربيّة فهمت حداثة الآخر فهماً سطحياً فإنّها بقيت مغتربة عن الواقع الاجتماعي العربي ومتعالية عليه فقد قدّم الحداثيون نصوصاً تعكس واقعاً مختلفاً ومتغائراً فبقيت الحداثة أسيرة مجموعة من المثقّفين أو الأنتلنجسيا. في حين تتطلب الحداثة وعياً آخر للعالم والمجتمع والإنسان وانتاج قيم جديدة.

الوكالة الإيطالية للتعاون من أجل التنمية في لبنان

دانيال جوزف عازار

مقدمة

يُعَدُّ التَّوَاصلُ الثقافي بين مختلف الشُّعوب شكلاً من أشكال الاتِّصال العالمي. وقد أتى مستقلاً في بعض الأحيان وذلك في (الترجمة)، ومترافقاً في أحيانٍ أخرى كما في (التجارة وما شابه). وهو يحمل في طياته مجموعةً واسعةً من الخلفيات الدينيّة والاجتماعيّة والعرقية والتربويّة. في هذا المعنى، هو يضع النَّاسَ أمام إشكالية فهم الآخر؛ والتفاعل معه لإدراك حقيقيٍّ للعالم.

وقد بات التَّوَاصلُ الثقافي أمراً مهماً في العمل اليومي، فالسَّفر السريع؛ ووسائل الإعلام الدوليّة؛ وشبكة التَّوَاصل الاجتماعي؛ ووسائل سهّلت التَّوَاصل بين النَّاس في جميع أنحاء العالم. وما عاد ممكناً العمل في عزلةٍ عن عمليّة العولمة؛ والقضايا العالميّة مثل البيئة والفقر والإرهاب، ولكن يجب أن نتفاعل مع بقيّة العالم من أجل البقاء. ما يبين أنَّ الطابع العالمي يدعو إلى الكثير من المشاكل الحديثة والمتنوعة على

نطاقٍ واسعٍ، وذلك بغية التعاون بين الأمم، إذ لم يعد التَّوَاصل الثقافي خياراً، بل ضرورة.

فرضت التَّطورات الأخيرة، كلمة العولمة وهي الكلمة الطنانة اليوم؛ وبات هذا المصطلح اليوم جزءاً من روح العصر. أصبحت جميع المشاكل عالميّة في غضون سنوات قليلة: التَّمويل، والاقتصاد، والسياسة، والتكنولوجيا، والاتصالات، والثقافة أيضاً، وتتجلى العولمة أيضاً في المجال الثقافي، والتي هي إشكالية بحدّ ذاتها تخلق المزيد من الانقسامات، لأنّها لا تؤثر على التَّجار والاقتصاديّين والمسؤولين في البلاد فقط، ولكن على المواطنين أيضاً.

في عصر العولمة، يتميَّز عالمنا، بعددٍ متزايدٍ من الاتِّصالات بين النَّاس ذوي الخلفيات اللُّغوية والثقافيّة المختلفة؛ وفي مجالات الأعمال التجاريّة، والتَّعاون العسكري، والعلوم، والتَّعليم، ووسائل الإعلام، والتَّرفيه، والسياحة، وبسبب

التقنيات الجديدة التي أحدثتها التطور في جميع أنحاء العالم؛ بات سهلاً الاستنتاج أن التواصل البيثقافي^(١) يشير ببساطة إلى تبادل المعلومات بين ثقافتين، ويشير أيضاً إلى أن الأمر يزداد تعقيداً، حين ندرك أن هذا التواصل أوسع بكثير، إذ يعتمد نجاح المنظّمات وشُعوبها، في العالم الذي تتزايد أطرافه ترابطاً، على التواصل الفعال بين الثقافات.

في هذا السياق سنعرض جزءاً من دور وزارة الخارجية الإيطالية ومؤسساتها الحكومية في التواصل البيثقافي بين لبنان وإيطاليا، من خلال «الوكالة الإيطالية للتعاون من أجل التنمية في لبنان»^(٢).

التعاون من أجل التنمية من خلال وزارة الخارجية الإيطالية

إن التعاون من أجل التنمية، الذي يُعد جزءاً لا يتجزأ من السياسة الخارجية لبلدنا، يرتكز على قاعدتين أساسيتين.

الأولى: هي ضرورة التضامن لضمان صون الحياة؛ والكرامة الإنسانية لكل سكان الأرض.

والثانية: هي أن تجد في التعاون الوسيلة الفضلى لإقامة العلاقات بين الدول المختلفة والمجتمعات المختلفة وتعزيزها. إذ يهدف هذا التبادل بين الأكفاء، فضلاً عن تنمية المعرفة المتبادلة الضرورية لفهم الاحتياجات الواقعية للمجتمعات المحلية التي تُوجّه لصالحها أعمال التدخل، إلى تيسير العلاقات الرامية لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وإنسانية بصفة خاصة، تحترم البيئة والاختلافات الثقافية؛ وقادرة على صيانة الثروات المشتركة مثل المياه والطعام والطاقة على نحو يكفل نمو الشعوب وازدهارها؛ وتساهم في تحقيق السلام بينها.

كما تهدف السياسة الإيطالية إلى التعاون من أجل التنمية لتحقيق هذه الأهداف بالاشتراك مع الدبلوماسية

(١) التواصل بين ثقافتين؛ اعتمد مركز اللغات والترجمة في الجامعة اللبنانية هذا المصطلح عنواناً لشهادة الماجستير الجديدة في اختصاص «التواصل البيثقافي: دراسات لبنانية - إيطالية»، بالشراكة مع جامعة سينا في إيطاليا ابتداءً من العام الجامعي ٢٠١٠ - ٢٠١١.

راجع عنوان موقع الجامعة اللبنانية الإلكتروني التالي:

URL = <https://www.ul.edu.lb/faculte/branch.aspx?branchId=57&lang=1>

URL = <http://www.ul.edu.lb/common/news.aspx?newsId=117&lang=1/>

٩/٢١/٢٠١٢ - د. وفاء بري اطلقت حزمة من اختصاصات الديبلوم والماستر في كلية الآداب: تفتح آفاقاً جديدة للطالب وتربط دراسته بسوق العمل بما يخدم مجتمعه ووطنه.

AGENZIA ITALIANA PER LA COOPERAZIONE ALLO SVILUPPO. (٢)

الاقتصادية والثقافية والأمنية مُعززة بذلك دور وصورة بلدنا في العالم^(١).

صداقة وتعاون في مجالات متعددة من التجارة والثقافة وغيرها.

لمحة تاريخية عن «التعاون الإيطالي»

نشأ «التعاون الإيطالي» عام ١٩٥٠م في المستعمرات الإيطالية، وذلك بتقديم عددٍ من المساعدات للتعويض عن الأضرار التي خلفتها الحرب العالمية الثانية. بعد ذلك، أطلقت إيطاليا التعاون الهادف إلى المساهمة في الجهود الدولية، الرامية إلى التخفيف من حدة الفقر في العالم ومساعدة الدول النامية على تعزيز مؤسساتها. وفي الآونة الأخيرة، ونظراً لحالات الطوارئ الجديدة، ازدادت أهمية التعاون في خيارات السياسة الخارجية الإيطالية، في وئامٍ مع تدابير الحفاظ على السلام^(٢).

بدأ مشروع «التعاون» في لبنان عام ١٩٨٢م بعد الاجتياح الإسرائيلي للجنوب عام ١٩٨٢م، حين قدم إلى الحكومة اللبنانية مساعدة بقيمة ٣٠ مليون دولار^(٣) لبرنامج إعادة الإعمار ودعم عملية السلام في البلاد. في ما بعد تطوّر المشروع في لبنان من خلال برامج امتدّت على سنوات عدّة؛ وقُدّرت قيمتها بمئتي مليون دولار. نُفّذ قسمٌ منها على القنوات الثنائية والمتعددة الأطراف، مع مشاركة كبيرة واستراتيجية من المنظمات غير الحكومية الإيطالية والمحلية.

هذه المبادرات تهدف إلى دعم الزراعة والتنمية الريفية، وإمدادات المياه ومعالجة مياه الصرف الصحي، ودعم الخدمات الصحية والاجتماعية وحماية الفئات الأكثر

«التعاون الإيطالي» من أجل التنمية في لبنان

ارتبط لبنان منذ التاريخ القديم بحضارة المدن الإيطالية، ونشأت بينها أواصر

(١) راجع عنوان موقع وزارة الخارجية الإيطالية الآتي:

URL = http://www.esteri.it/mae/ar/politica_estera/cooperaz_sviluppo/

(٢) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.cooperazioneallosviluppo.esteri.it/pdgcs/italiano/cooperazione/intro.html>

“Nell’esperienza storica, la Cooperazione italiana si è sviluppata a partire dagli anni Cinquanta con una serie di interventi di assistenza messi in atto in paesi legati all’Italia da precedenti vincoli coloniali. Successivamente l’Italia ha avviato un’attività di cooperazione più sistematica intesa a contribuire agli sforzi internazionali volti ad alleviare la povertà nel mondo e aiutare i Paesi in via di sviluppo a rafforzare le rispettive istituzioni. Più di recente le nuove emergenze hanno conferito alla cooperazione un ruolo sempre più fondamentale nelle scelte di politica estera italiana, in armonia con gli interventi per il mantenimento della pace”.

(٣) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/en-US/timeline/10/>

ضعفًا، وحماية البيئة، وتعزيز حقوق المرأة، وتعزيز التراث الثقافي^(١).
يركّز على الزراعة والمياه، والتراث الثقافي، والخدمات الاجتماعية والصحية^(٥).

يُنجز «التعاون الإيطالي» في لبنان عمله وفق النظام الإيطالي، وذلك من خلال استغلال وتطوير أوجه التآزر التي تنشأ على أرض الواقع، بين مختلف الجهات الفاعلة (الوحدة التقنية المحلية^(٢) UTL والمنظمات غير الحكومية، والتعاون اللامركزي والتعاون المدني)^(٣).

يتّسم الوجود الإيطالي الحالي في لبنان، والذي يتمثّل بمكتب التعاون في السفارة (UTL)، بمبادرة طوارئ قوية (برنامج^(٤) ROSS: دعم التأهيل والمهن والخدمات والتنمية) وبرنامج تنمية واسع النطاق، يدعم «التعاون الإيطالي» من أجل التنمية في لبنان الجهود الرامية إلى تحقيق

(١) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.cooperazioneallosviluppo.esteri.it/pdgcs/italiano/Speciali/Ut11/Beirut.htm>
“L'impegno della Cooperazione in Libano, paese legato all'Italia dalla comune appartenenza mediterranea e da intensi scambi commerciali e profonde relazioni umane e culturali, data a partire dal 1983, quando mette a disposizione del governo libanese una linea di credito di aiuto di 30 milioni di dollari per un programma diricostruzione e per sostenere il processo di pacificazione del paese”.

(٢) الوحدة التقنية المحلية

UTL: Unit. Tecnica Locale

(٣) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.cooperazioneallosviluppo.esteri.it/pdgcs/italiano/Speciali/Utf/Beirut.htm>
“La Cooperazione italiana in Libano si presenta come azione a tutto campo del Sistema Italia, sviluppando e valorizzando le sinergie che nascono dalla presenza sul terreno dei diversi attori (Utl, Ong, cooperazione decentrata e unit. Cimec del nostro contingente in ambito Unifil) sotto il coordinamento complessivo dell'Ambasciata”.

(٤) برنامج دعم التأهيل والمهن والخدمات والتنمية

ROSS: Riabilitazione, Occupazione, Servizi e Sviluppo

(٥) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = http://www.cooperazioneallosviluppo.esteri.it/pdgcs/italiano/Speciali/Ut11/Beirut_ross.htm
“Il Ross, complesso insieme di iniziative di Emergenza, promosso dalla Direzione generale per la cooperazione allo sviluppo (Dgcs) del Ministero degli Affari Esteri”

الاستقرار التّدرّجي للحالة الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية في البلد. إنّ التّعاون الإيطالي، النّاشط في تنفيذ مبادرات الطوارئ، لا يُمثّل فقط أحد الشّركاء الرئيسيين للحكومة اللبنانية في ما يتعلق بأنشطة التّعاون الإنمائي الثنائي، ولكنه أصبح أيضاً مُحاوراً تفضيلاً في قطاعات عدة أيضاً، وذلك بفضل الاستراتيجية التي اعتمدها للرّد على الأزمة السورية.

استجاب تطور الاستراتيجية المذكورة آنفاً، بدءاً من إنشاء الوحدة التّقنيّة المحليّة في السّفارة الإيطالية في بيروت في عام ٢٠٠٧م، إلى احتياجات البلد؛ من خلال التّمويل أولاً: لبرامج الطوارئ بعد فترة ما بعد الصراع عام ٢٠٠٦ م، ثانياً: من خلال مبادرات أخرى على مرّ السنين، إذ تهدف إلى تحقيق تنمية أطول أجلاً.

تم تمويل مشاريع مختلفة من خلال القنوات الثنائيّة التي تدعم سياسات التنمية الاجتماعية (دعم الأطفال والنساء وقضايا المساواة بين الجنسين وتحسين الخدمات الصحية)، وحفظ البيئة (تعزيز الظروف البيئيّة، وتنميّة الطاقات المتجددة، والاستخدام المُستدام للموارد الطبيعيّة)، وسياسات الهياكل الأساسيّة، ولا سيما تلك المتعلقة بشبكة إمدادات المياه (محطات تنقية المياه، ومعالجة مياه الصّرف الصحيّ، وتركيب قنوات الرّي) وسياسات

التّخلص من النّفايات، والزّراعة، والتّنميّة الرّيفيّة، وحماية الثّراث الثّقافيّ وتعزيزه (الحفاظ على المواقع الأثريّة، وإعادة تأهيل المدن التاريخيّة، والتدريب).

يولي عمل التّعاون الإيطالي في لبنان اهتماماً خاصاً للحفاظ على التّوازن الإقليمي والديني في توزيع مشاريع المعونة والتنمية. وذلك من خلال التّوقيع على اتفاق لتوفير القروض الميسّرة - بروتوكول ١٩٩٧-١٩٩٨م - بمبلغ يزيد على ١٣٢ مليون يورو، ساهمت إيطاليا في تحقيق الاستقرار في البلد، منذ صراع ٢٠٠٦م، عن طريق إصلاح وإعادة بناء الهياكل، والبنية التحتيّة، والخدمات الأساسيّة. وعقدت ثلاثة اتفاقات بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٩م، امتثالاً لالتزامات مؤتمر باريس الثالث (٢٠٠٧م) ومؤتمر فيينا للمانحين (حزيران ٢٠٠٨م) لصالح التّدخلات في قطاع البنية التّحتيّة.

ومع تصاعد النزاع في سوريا في عام ٢٠١١م، تحوّلت الاستراتيجية الرّئيسيّة التي اعتمدها التّعاون الإيطالي نحو المساعدات الإنسانيّة، استناداً إلى ضرورة دعم تلك القطاعات المتضررة بشكل مباشر من الوضع الحالي.

وبعد أكثر من ثلاث سنوات من الأعمال العدائيّة، من المناسب أن نتحدث عن «أزمة» حقيقة، يجب معالجتها من خلال تدخلات

ذات طابع إنمائي، بالإضافة إلى المشاريع الأخرى التي تستهدف اللاجئين الفلسطينيين في لبنان^(١).

الشؤون الاجتماعية

يغطي نظام الرعاية الاجتماعية في لبنان بشكل حصري استرداد بعض المصاريف الطبية والتقاعد الاجتماعي، ولا يعتبر تعويض البطالة أو الحوادث أو الوظائف المستقلة جزءاً من خطط الخدمات الاجتماعية. إن «الشبكات» غير الرسمية للضمان الاجتماعي، القائمة على العلاقات المجتمعية والدينية، تحلّ محلّ النظام العام بانتظام، وبالتالي يكون للقطاع الخاص حرية إدارة قطاعي الصحة والتعليم.

لقد ساهم التدفق الهائل للاجئين القادمين من سوريا في إضعاف الموارد غير الكافية التي استخدمت لتغطية احتياجات الفئات الأكثر ضعفاً من السكان. وأصبح الدعم المُقدّم من خلال المبادرات المختلفة التي يُنفّذها التعاون في الميدان الاجتماعي أكثر أهمية؛ ويتطلب «استقرار» الخدمات التي تهدف إلى إتاحة الوصول المتناسب إلى عدد أكبر من المستخدمين زيادة كبيرة في الميزانية العامة.

إنّ عدم كفاءة الكيان الاجتماعي هو منشأ التوتر بين المجتمعات السورية واللبنانية، وتفشّي الأمراض ومخاطر الوباء، وتسرب الطلاب، ما يتسبّب بالتالي في ظواهر عمل الأطفال وإساءة معاملتهم، وتدهور ظروف الوصول إلى البنية التحتية الاجتماعية الأساسية (المياه، ونظام الصرف الصحي، والكهرباء)، وبالتالي فإنّ القطاع الاجتماعي يؤدّي دوراً مهماً كنظير رئيسي للجهات المانحة العاملة في سياق المساعدات الانمائية في لبنان^(٢).

وتبيّن الوثائق الرسمية المتبادلة بين الوزارات اللبنانية المعنية (الشؤون الاجتماعية، والتعليم، والصحة) في ما يتعلق بأولوياتها، أنّ التركيز ينبغي أن يشمل المجالات الآتية:

- مكافحة الفقر/الضعف.
- توسيع خطط التقاعد وصناديق البطالة.
- توسيع ضمانات استرداد التأمين الصحي.
- حماية الطفولة.
- تعزيز المساواة بين الجنسين.

(١) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/en-US/what-we-do/9/#sthash.cXcIPH7H.dpbs>

(٢) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/en-US/socialUaffairs/24/>

– إدخال تكنولوجيات جديدة في التّعليم العام.

– نمو قطاع «التدريب المهني».

– تطوير شبكة مراكز الإسعافات الأولية، وتحسين خطط الإدارة الصّحية (البيانات، الحوسبة، العلاجات، الوقاية، الموارد البشرية)^(١).

يدعم «التّعاون الإيطالي» من أجل التنمية في لبنان حالياً عدداً من المبادرات الفاعلة وتتوزّع على مجالات مختلفة، نذكر منها^(٢):

- التعليم للجميع: فرص أكبر للأطفال في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة والرّشيدية

يهدف هذا المشروع إلى توفير المزيد من فرص التّعليم الشّامل الرّسمي وغير الرّسمي لأطفال مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة والرّشيدية، فضلاً عن توفير التّعليم للأطفال اللاجئين من سوريا.

الميزانية \$ ٧٤٦,٦٣٨,٨٠

تاريخ المشروع ٢٠١٦ – ٢٠١٨م

- تعزيز مشاركة المرأة في الحكم المحلي وفي التنمية - المرحلة الثّانية

نظراً إلى انخفاض نسبة النّساء

اللبنانيات اللواتي يشغلن مناصب صنع القرار والمشاركة على المستويات المؤسسية، إنّ المشروع سيتدخل من أجل زيادة نوعيّة وكميّة الحضور النّشط للمرأة ومشاركتها في الحكم المحليّ.

وسيتحقق هذا الهدف من خلال وضع استراتيجية من شأنها أن تحدّ من التّحالفات بين الأطراف المؤسسية وغير الحكومية من أجل تقليص الفجوة بين المركز والأطراف.

الميزانية \$ ٦٦١,٠٠٠,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠١٦ – ٢٠١٧م

- تحسين ظروف الاحتجاز في السّجون اللبنانية

يهدف المشروع إلى دعم الحكومة اللبنانية في عملية إصلاح النّظام القانوني بهدف تحسين ظروف المعيشة داخل سجون الدّولة.

ميزانية \$ ٧٠٠,٠٠٠,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠١٦م

- تعزيز الخدمات الاجتماعيّة والتّعليميّة لصالح الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في مخيم مار الياس وبرج البراجنة والرّشيدية في لبنان

(١) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/en-US/social-affairs/24/>

(٢) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/en-US/social-affairs/24/>

يهدف المشروع إلى المساهمة في تحسين الظروف المعيشية للأطفال الذين يعيشون في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

الميزانية \$ ١,٦٢٩,٥٥٤,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠١٥ - ٢٠١٧ م

- حماية حقوق المهاجرات واللاجئات في لبنان

يهدف المشروع إلى المساهمة في صون الحقوق الأساسية للنساء المهاجرات واللاجئات السوريات في لبنان. وسيتم تقديم الدعم للمهاجرات من خلال التجديد الجزئي لمأوى ريفون، وتوفير المساعدات الإنسانية الأساسية في مركز برج حمود. ومن المتوقع عقد جلسات للدعم النفسي الاجتماعي بالإضافة إلى المشورة القانونية لتسوية بعض الحالات أو التخطيط للعودة إلى بلد المنشأ. وسيتم إطلاق دورات اللغة الإنجليزية والعربية والتدريب المهني من أجل تعزيز إعادة الإدماج في المجتمع، بالإضافة إلى الأنشطة الترفيهية الأخرى التي تعالج الإجهاد والاكتئاب.

ميزانية \$ ٨٥٩,٢١٧,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠١٤ - ٢٠١٧ م

- إطلاق مركز لزراعة نخاع العظم في مستشفى رفيق الحريري الجامعي في بيروت
يهدف هذا المشروع إلى زيادة القدرة

على التحمل ونوعية الحياة للمرضى الذين يعانون من بيتا الثلاسيميا Beta Thalassemia ومن أمراض الأورام وأمراض الدم.

ميزانية \$ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠٠٩ - ٢٠١٥ م

- البرنامج الوطني للتنمية الاجتماعية - الاقتصادية المحلية من خلال تعزيز مراكز التنمية الاجتماعية وإطلاق صندوق التنمية الاجتماعية

يساهم البرنامج في الاستراتيجية الوطنية لوزارة الشؤون الاجتماعية لصالح تحقيق التنمية الاجتماعية مع إيلاء اهتمام خاص لحماية الفئات الأكثر ضعفاً. ويتألف المشروع من عنصرين يرميان إلى تعزيز الاستراتيجية الوطنية لحماية أضعف فئات السكان، وكذلك من خلال الاستثمارات في التنمية المحلية التي تقوم بها وزارة الشؤون الاجتماعية.

الميزانية \$ ٢,٤٦٦,٦٠٠,٠٠

تاريخ المشروع ٢٠١١ - ٢٠١٦ م

MoSAIC تعزيز المؤسسات اللبنانية ودعم الفئات الأكثر ضعفاً على المستوى المحلي

الهدف الرئيسي للبرنامج هو المساهمة في تعزيز المؤسسات اللبنانية من حيث دعم سياسات الطفولة؛ وتستهدف الاستراتيجية المعتمدة كلا المستويين

الوطني والمحلي (البلديات والمناطق). وهو ينطوي على أبعاد مختلفة مثل: فهم وتحليل السياق اللبناني. وتعزيز قدرات المؤسسات المعنية وموظفيها؛ تحليل الموارد الإقليمية المتعلقة بحماية الطفل، وبالتالي إقامة شراكات إقليمية «شبكات الضمان الاجتماعي».

الميزانية ١,٩٠٠,٠٠٠,٠٠ \$

تاريخ المشروع ٢٠١٢ - ٢٠١٦م

الشركاء^(١)

- التنسيق العسكري المدني في لبنان^(٢) - CIMIC

- الاتحاد الأوروبي في لبنان^(٣)

- المنظمات الدولية في الأردن

● مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين - تدعم برنامجاً للصحة الأولية والثانوية للاجئين السوريين

http://www.unhcr.org/

pages49e486566.html

● اليونيسيف - تدعم مبادرات حماية الطفولة:

<http://www.unicef.org/infobycountry/jordan.html>

● برنامج الأغذية العالمي - يدعم برنامج توزيع الوجبات والقسائم الغذائية للاجئين السوريين:

<https://www.wfp.org/countries/jordan>

● اللجنة الدولية للصليب الأحمر - تدعم مبادرات استضافة وحماية اللاجئين في البلاد:

<https://www.icrc.org/en/where-we-work/middle-east/jordan>

● المنظمة الدولية للهجرة - تنفيذ مشاريع لتحسين قدرات السلطات المحلية على إدارة الإتجار بالأشخاص وتساعد على العودة الطوعية إلى الوطن:

<http://www.jordan.iom.int/>

● هيئة الأمم المتحدة للمرأة - دعم اللاجئين والنساء الأردنيات من حيث المساعدة والتّمكن والعنف القائم على النوع الاجتماعي:

(١) راجع عنوان موقع «التعاون الإيطالي» الإلكتروني الآتي:

URL = <http://www.aicsbeirut.org/portal/it-IT/partners/41/>

(٢) راجع عنوان الموقع الإلكتروني الآتي:

URL = <http://unifil.unmissions.org/>

(٣) راجع عنوان الموقع الإلكتروني الآتي:

URL = http://eeas.europa.eu/delegations/lebanon/index_en.htm

- www.un.org.lb/Subpage.aspx/
pageid = 50?
- منظمة العمل الدولية: <http://www.ilo.org.lb/>
- IAM Bari: <http://www.iamb.it/> ●
- اليونيسيف (منظمة الأمم المتحدة للطفولة): <http://www.unicef.org/infobycountry/lebanon.html>
- IDLO: <http://www.idlo.int/> ●
- مؤئل الأمم المتحدة: <http://unhabitat.org/lebanon/> ●
- دائرة الأمم المتحدة للأعمال المتعلقة بالألغام: <http://www.mineaction.org/unmas>
- مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين: <http://www.unhcr.org/pages/4a02db416.html> ●
- PAM (برنامج الأغذية العالمي): <http://www.un.org.lb/Subpage.aspx?pageid = 395> ●
- المنظمة الدولية للهجرة: <http://www.iom.int/cms/en/sites/iom/home.html> ●
- المنظمات غير الحكومية الإيطالية في الأردن ●
- A R C S : <http://www.arculturaesviluppo.it/>
- <http://jordan.unwomen.org.en>
- الأونروا - دعم إدارة المخيمات الفلسطينية، برامج الطوارئ:
- <http://www.unrwa.org/where-we-work/jordan>
- المنظمات الدولية
- منظمة الأغذية والزراعة:
- <http://www.fao.org/countryprofiles/index/en/lang=en&ISO3=LBN>
- سوريا: <http://www.fao.org/countryprofiles/index/en/iso3=SYR&subject=1>
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي:
- <http://www.lb.undp.org>
- سوريا: <http://www.sy.undp.org/>
- صندوق الأمم المتحدة للسكان:
- <http://www.unfpa.org.lb/>
- سوريا: <http://www.unfpa.org/emergencies/crisis-syria>
- اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة):
- www.unesco.org/new/en/beirut/home/
- منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو): <http://>

- GVC: <http://www.gvc-italia.org/>
- ICU: <http://www.icu.it/index.php>
- INTERSOS: <http://intersos.org/paese/progetto/lebanon>
- JRS: <http://en.jrs.net/>
- OXFAM ITALIA: <http://www.oxfamitalia.org/>
- RC: <http://www.ongrc.org/lang/ita/cgi-bin/gk.pl?pg=home>
- CeLIM: <http://www.celim.it/>
- Regione Toscana: <http://www.tnetenpi.com/>
- Armadilla: <http://armadilla.coop/>

المؤسسات الوطنية في الأردن

- MOPIC: <http://www.mop.gov.jo/Default.aspx>.
- SECRETARIAT: <http://www.jrpsc.org/>
- RMS: <http://www.jrms.gov.jo/Default.aspx?tabid=54>
- Department for Palestinian Affairs (DPA):
- partner for initiatives supporting palestinian refugees in

المؤسسات الوطنية في لبنان

- Governo Libanese: <http://www.pcm.gov.lb/arabic/index.aspx?pageid=5>
- CDR: <http://www.cdr.gov.lb/>

خاتمة

لقد بات التّواصل البيثقافي جزءاً لا يتجزأ من حياة الفرد اليوميّة. فقد جعلت

- AVSI: <http://www.avsi.org/>
- C I S P : <http://www.developmentofpeoples.org/site/intro>
- EPOS: <http://www.eposweb.org/>
- ICU: <http://www.icu.it/>
- INTERSOS: <http://www.intersos.org/>
- Terre des Hommes Italia: <http://terredeshommes.it/>
- Un Ponte Per...: <http://www.unponteper.it/>
- Vento di Terra: <http://www.ventoditerra.org/>

● المنظمات غير الحكومية الإيطالية

في لبنان

- A R C S : <http://www.arciculturaesviluppo.it/libano>
- AVSI: <http://www.avsi.org/nazione/mondo-avsi/libano/>
- C I S P : <http://www.sviluppodeipopoli.org/Italiano/Attivita/cosafacciamo/Frameset.html>
- COOPI: <http://www.coopi.org/it/cosafacciamo/nelsuddelmondo/dove-interveniamo/paesi/41/libano/>
- COSV: <http://www.cosv.org/progetti/aree-di-intervento/mediterraneo/libano/>
- COSPE: <http://www.cospe.org/progetti/c/asia/n/lb/>
- CTM: <http://www.ctm-lecce.it/progetti/>
- ENGIM: <http://internazionale.engim.it/>

العولمة التّواصل بين الثقافات أمراً لا مفرّ منه. يميّز التّواصل البيثقافي الأعمال اليوم، والفصول الدّراسيّة، والمجتمع، فالتكنولوجيا وخاصةً الإنترنت قد زادت من احتمال أن كل ما تمّ توثيقه ستتمّ قراءته عبر الإنترنت من قبل شخصٍ من ثقافة أخرى. التّواصل الثّقافي هو معرفة كيفيّة التّواصل مع الثقافات الأخرى. والغرض الرئيسيّ من التّواصل بين الثقافات هو زيادة فهم الظواهر المشتركة من جهة وتلك المختلفة من جهة أخرى ومعالجتها، تماماً كما تعمل «الوكالة الإيطالية للتّعاون من أجل التنمية في لبنان».

تأتي هنا الحاجة إلى بلورة استراتيجية واضحة، في ظلّ إشراك المنظّمات اللّبنانيّة في دورة المشاريع. والتّحديث المباشر للجوانب التنفيذيّة الميدانيّة، التي يمكن أن تفعّل دور الطرفين: الشّرقيّ المستفيد، والغربيّ الشّريك الرئيسيّ في عمليات التنمية المحليّة. وذلك من خلال الاستفادة من الجوانب المختلفة، والموجودات المتاحة، لتحقيق الأغراض المتّفق عليها.

إيطاليا هي واحدة من أولى الجهات المانحة للبنان، تقدّم برامج التّعاون والتّبرّعات وتعزّز بالتالي نهجاً تنموياً، وعلاقة وثيقة مع السلطات المحليّة والمركزيّة، فتغدو شريكاً رئيسياً في تفعيل عمليات التّنمية المحليّة. هذه هي السّمات

الرئيسيّة التي تميّز عمل السّفارة و«التعاون الإيطالي». فالتّعاون اللامركزي هو نهجٌ استراتيجيّ من «التعاون الإيطالي» في لبنان، وهو ما يعزّز وينسّق تطوير العمل المحلي ضمن التخطيط الاستراتيجي لإيطاليا.

يُبرزُ الموضوع العلاقات التي تجمع البلدين، والتقاءهما في محور التنمية المستدامة، وبالتالي تقييم مباشر للتّواصل بين الثّقافتين، والذي يمكن أن يقربّ العالمين: الشرق والغرب. وذلك من خلال دراسة نشاطات «التعاون الإيطالي» من جوانب مختلفة، لتلبية متطلّبات الواقع الميداني اللّبناني، وعلاقته بالجانب الإيطالي العمليّ التّنفيذي. حالتان تعزّزان أهداف مشتركة، للتفكير في واقعٍ معيّن، من خلال تطوير منطق وأخلاقيّات الاستدامة في العالم الحقيقي. عالمان يظهران وجهات نظر، قد تكون متشابهة عامّةً، ومختلفة خاصّةً، في الوقت نفسه. وتختبئ في طيّاتهما أهداف مشتركة، وأبعاد متفاوتة.

لائحة المصادر والمراجع

URL = <https://www.ul.edu.lb>

URL = <http://www.esteri.it>

URL = <http://www.coopera>

zioneallosviluppo.esteri.it

URL = <http://www.aicsbeirut.org>

URL = <http://unifil.unmissions.org>

URL = <http://eeas.europa.eu>

تطوّر الأدب النسوي في لبنان وإيطاليا في النّصف الثّاني من القرن العشرين: «ميكيلا مورجا» و«جومانا حداد» أنموذجان

جينا أبي كرم

العشرين حيث بدأ وضعها يتغيّر وبدأت تظهر جمعيّات ومؤسسات تُعنى بحقوقها، وتدافع عنها ضد كلّ التّمييز الذي عانتها طوال الأزمان السابقة^(٢).

المرأة في إيطاليا

كان الأدب الإيطالي في النّصف الأوّل من القرن العشرين أدباً يسيطر عليه الرّجل إلى حدّ بعيد، مع بعض التّدخّلات الخجولة من بعض الكاتبات الاستثنائيات اللواتي وجدن في الكتابة نوعاً من الهروب من واقعٍ مرير، أو طريقة لمحاولة قول «لا» للمجتمع وللعادات والتقاليد المجحفة بحقّهن، و«لا» للرجل الذي كان يعتقد أنّه الوحيد الذي باستطاعته تشكيل الثروة الأدبية

اعتُبرت المرأة عبر الزمن كائناتٍ ضعيفاً، وأدنى مستوى من الرجل، إذ كانت تعيش في مجتمع بطريكي ذكوري، يتمّ قمعها بوساطة العادات الاجتماعية، ومن دون أيّ ذكرٍ لها بحق الحرية والمساواة^(١). على اعتبار أنّها مخلوق ضعيف.

في المقابل كانت المرأة غائبة عن مجالاتٍ عديدةٍ وخصوصاً عن مجال الأدب؛ وكان وجودها الأدبي يقتصر على الحديث عنها، إذ إنّ الأدباء والكتّاب كانوا يصفونها بأحلى الأوصاف ويشيدون بجمالها ومحاسنها^(٢). لم يكن يحقّ لها الدّخول في المجال الأدبي والكتابة، حتى أوائل القرن

(١) Cfr. De Beauvoir Simone, Il Secondo Sesso, Milano, il Saggiatore, 1994, p. 52.

(٢) Cfr. D'Afflitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Roma, Carocci, 1998, p. 102.

(٣) Cfr. Corona Daniela, Donne e scrittura, Palermo, 1988, p. 31.

الإيطالية^(١)، وأنَّ بقمعه للمرأة سيجد مجالاً رحباً للكتابة ولتحقيق الذات، تاركاً للمرأة المهمّات التي تتطلّب الخضوع والتبعية.

١ - تبدّل وضع المرأة في النّصف الثّاني من القرن العشرين

تغيّر وضع المرأة في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثّانية، مع إقرار حقّ الانتخاب للنساء. وهنا باستطاعتنا التحدّث عن تغيّرات جذريّة طالت المرأة ابتداءً من السّتينات والسّبعينات من القرن الماضي، إذ شهدت القوانين الإيطالية تغيّراً لمصلحة المرأة، واعتُبر مبدأ المساواة بين المرأة والرجل في العمل من أهمّ الخطوات التي ساهمت في فتح الطريق أمام تحرير المرأة^(٢). هكذا بدأت رحلة نيل جميع الحقوق وتغيّير القوانين التي من شأنها التّمييز بين الجنسين، كتلك المتعلّقة بالزّواج القسري وجريمة الشّرف ومعاقبة المرأة الزانية^(٣)؛ وأقرّت قوانين تضمن حقّ المرأة باستخدام وسائل منع الحمل والحقّ بالإجهاض؛ كما أقرّت قوانين متعلّقة

بالطلاق وبالحضانة، ما يبيّن أنّ تغيّرات عديدة في القانون الإيطالي أعطت المرأة الحقّ وساوّتها بالرجل؛ إلا أنّ هذا لم يكن كلّ شيء بل إنّ هناك حقوقاً أخرى انتظرت المرأة حتى التّسعينات من القرن الماضي للحصول عليها، مثل قانون معاقبة المغتصب، ذلك أنّ المرأة كانت الملامة الوحيدة في هذه القضية والمسؤولة الوحيدة عنها^(٤).

وعلى الرغم من تغيّير القوانين الإيطالية وتطويرها لتصبح منصفة بحقّ الجنسين، أخذت العقليّة والعادات والتّقاليد السّائدة في المجتمع الإيطالي وقتاً أطول لكي تتبدّل^(٥)، إذ لا يكفي تعديل القوانين لكي تدخل المساواة حيّز التّنفيذ في المجتمع، بل على المجتمعات تقبّل فكرة المساواة كي تستطيع تطبيق تلك القوانين ولا تكون مجرد حبرٍ على ورق. لهذا السبب استمرّت الاضطهادات ضدّ المرأة، وارتفعت وتيرة العنف الممارّس من الرجال، وكل ذلك بسبب التّربية التي كانت تكتسبها المرأة والتي تعلّمها الخضوع والصمت تجاه

(١) Cfr. Conti Bruna, La donna e il femminismo. Scritti 1897-1910, Roma, Editori Riuniti, 1978, p.87.

(٢) Cfr. Rossilli Maria Grazia, I Diritti delle donne nell'Unione Europea-Cittadine migranti schiave, Roma, Edizioni Ediesse, 2009, p.28.

(٣) Ivi, p. 45.

(٤) Cfr. Rossilli Maria Grazia, I Diritti delle donne nell'Unione Europea-Cittadine migranti schiave, Op. cit., p. 30.

(٥) Cfr. Carretti Lanfranco, Sul Novecento, Pisa, Nistri Lischi, 1976, p. 188.

الظلم، وتعلّم الرجل كيفية السّيطرة عليها ومعاملتها كما لو كانت غرضاً يمتلكه^(١).

مع ذلك، وحتى يومنا هذا لا يزال وضع المرأة الإيطالية في ميدان العمل غير مرضٍ، فالراتب الذي يُدفع للمرأة الإيطالية أدنى من راتب الرجل، وبحسب دراسة نُشرت عام ٢٠٠٩ م، فإن راتب المرأة الإيطالية هو أدنى بنسبة تصل إلى نحو ٢٥٪ من راتب الرجل، حتى لو كانت ذات درجة متقدّمة عنه^(٢)، ما يدلّ على أنّ في الظاهر لا عائق يقف أمام تحرير المرأة، أمّا في الباطن وكما تقول الكاتبة الإيطالية «ميكيلا مرتزانو»: «كلّما سعت المرأة إلى الصّعود كلّما واجهت عوائق خفية تمنعها من تخطّي عتبة ما»^(٣).

وكما سبق وذكرنا، يجب أن تتبلور المساواة ما بين الجنسين بشكل أوضح في المجتمع، أيّ ضمن العائلة والمدرسة والعمل والعادات الدّينية، من هنا طرحت الكاتبة الإيطالية «ميكيلا مورجا» في كتابها «السّلام عليك يا مريم» هذا الموضوع فقالت إنّ: الكنيسة اختلقت صورة المرأة، ومن ثمّ تحدّثت عن علاقة الكنيسة بصورة

المرأة عند المسيحيين، فبينت «مورجا» في هذا الكتاب: كيف أنّ الكنيسة حمّلت المرأة مسؤولية الخطيئة كاملةً، وأنّ كلّ المسؤولية تقع على عاتق «حواء» التي أغرت «آدم» المسكين وأطعمته التفاحة^(٤). ما جعل المرأة تعتاد على الشّعور بالذّنب الكامل أمام التّاريخ والعالم، ما يشكّل صراعاً حقيقياً بينها وبين المجتمع، وبالتحديد المرأة الإيطالية في علاقتها بمجتمعها الكاثوليكي.

من ناحية أخرى، إنّ الهوية النّسائية في المجتمع الإيطالي المعاصر هي هوية مرتكزة على جمال الجسد وعلى صعوبة تقبّل فكرة الشيخوخة، لذا عالجت «مورجا» هذه النّقاط وشرحت كيف أنّ الإعلانات الإيطالية تُظهر الشّيوخوخة كما لو كانت مرضاً أو ذنباً، فنرى عبارات دعائية كالآتية: «اهتمّي بنفسك» و«لأنّ لك قيمة» كما لو أنّ المرأة بمواجهة تهديد مميت، أو كما لو أنّ قيمتها تكمن في كونها جميلة، كذلك أصبح الجسد هاجس كلّ امرأة إيطالية فحوّلتها إلى غرضٍ أو سلعة^(٥). ويكفي النّظر إلى صور

(١) Cfr. Forni Piera, Sibilla e Rina: l'Aleramo tra giornalismo e letteratura, Firenze, Centro Editoriale Toscano, 2006, p. 76

(٢) Cfr. Marzano Michela, Sii Bella e Stai Zitta, Milano, Mondadori, 2012, p. 21.

(٣) Ivi, p. 108.

(٤) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Milano, Einaudi, 2011, p. 20.

(٥) Ivi, p. 90.

المرأة المهيمنة على التلفزيون أو في الإعلانات للاقتناع أنه بعد سنوات عدة من النضال من أجل تحقيق المساواة، أتت «الإباحية» لتقضي على كل شيء، ولتندل المرأة التي تحولت إلى مُنتج. هذه المرأة التي ظنّت أنها توصلت إلى حلم المساواة، هي اليوم مهددة من «الإباحية» التي تعود بها سنوات عديدة إلى الوراء^(١).

تناولت «مورجا» في كتابها، نصائح الجمال التي باتت تشكل هاجساً للمرأة الإيطالية وموضوعاً جوهرياً لها، يذكرها بدورها كزينة إلى جانب الرجل، أو زخرفة أو رمزاً للإثارة والجاذبية الجنسية، فأصبحت فتيات الاستعراض والأزياء تشكل صورة المرأة الإيطالية المعاصرة. وبناءً على ذلك، أصبحت المرأة الإيطالية مقتنعة اليوم أنّ مفتاح النجاح يقتصر على جمالها وشبابها، وبهذا تستطيع الحصول على كل ما تريد^(٢)، وتقول الكاتبة إنّ على المرأة ألاّ تعتبر جسدها وسيلة، ولكن عليها احترامه فتفرض بذلك احترام الرجل لها ولجسدها، ولا يعود ينظر إلى جسدها

كقطعة جنسية بحتة، ولذلك على المرأة الإيطالية ألاّ تكتفي بأن تكون جميلة وصامته بعد كلّ ما توصلت إليه وبعد معاناة كبيرة^(٣).

٢ - دور المرأة في الأدب الإيطالي المعاصر

بعد التّوصّل إلى إقرار حقوقها، أصبح للمرأة الإيطالية دور كبير في مجتمعها، وراحت تركز أكثر فأكثر على المجال الأدبي^(٤). هذا المجال الذي حلمت به طويلاً، إذ حلمت أن تصبح فيه الكاتبة ليس موضوع الكتابة فقط، أو الفكرة والكلمة، بل في أن تصبح الريشة والحبر، وفي أن تكتب وألاّ تكون موضوع الكتابة. من هذا المنطلق راحت نسبة الكاتبات في إيطاليا ترتفع، فبرزت أسماء كاتبات مثل: «داتشا ماراييني» و«إلسا مورنتي» و«نتاليا جينزبرغ» و«ميكيلّا مورجا» وغيرها من الأسماء التي دخلت عالم الأدب الإيطالي من الباب العريض، أسماء شاركت في إنتاج إرث أدبيّ إيطاليّ أضاف نكهة وطعماً مختلفاً على الأدب بشكل عام^(٥).

لم تعد الكاتبات الإيطاليات اليوم

(١) Ivi, p. 91.

(٢) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 25.

(٣) Ivi, p. 92.

(٤) Cfr. Laurenzi Elena, Il Multiculturalismo in questione. Donne in rete contro i fondamentalismi, 2005, p. 142.

(٥) Cfr. Zancan Marina, Il doppio itinerario della scrittura. La donna nella tradizione letteraria italiana, Torino, Einaudi, 1998, p. 53.

مُجبرَات على الكتابة عن تجاربهن الشخصية المؤلمة كسابقاتهن في الأدب، مثل الكاتبة «سببلا أليرامو» التي كتبت عن معاناتها المريرة في كتبها. ففي حين تحدّثت هذه الكاتبة في كتاباتها في أوائل القرن الماضي عن تجربتها القاسية كأُمّ والمثيرة للشفقة، انتقدت «ميكيلا مورجا» فكرة الأم التي تعاني، وانتقدت معها فكرة صورة «مريم العذراء» الضعيفة الجاثية تحت أقدام الصليب والتي كانت مثلاً للمرأة الضعيفة لقرون عدّة^(١)، وشرحت كيف أنّ هذه الصورة «للعذراء» تحوّلت إلى صورة القوة والشجاعة للنساء المسيحيّات في يومنا هذا، وكيف أنّ المجتمع الإيطالي كان يحسب الـ «نعم» التي قالتها «مريم العذراء» للملاك حين بشرها بأنّها حامل من الرّوح القدس، هي «نعم» ضعيفة، لكنّه اليوم بات يحسبها «نعم» جريئة قالتها «العذراء مريم»^(٢) في وقت كان يُعتبر فيه حمل فتاة عزباء خطيئة تستحقّ الرّجم حتّى الموت.

كان ينقص الأدب في بدايات القرن العشرين المواضيع التي تُعتبر ممنوعة كالجنس مثلاً، فكانت الكاتبة إذا أرادت

الحديث عن هذا الموضوع، تختبئ وراء عباراتٍ خجولة، ومثالاً على ذلك عندما وصفت الكاتبة الإيطالية «سببلا أليرامو» عام ١٩٠٦م حادث الاغتصاب الذي تعرّضت له، إذ إنّها استخدمت بعض التّعابير والكلمات التي لا تشرح كثيراً ما حدث، والتي لا تسمّي فيها الأمور بأسمائها، فتقول مثلاً: «كان يجبرني على تحمّل مسؤولية ما حدث»^(٣) و«كان يمتلكني رجل»^(٤). ومن هنا نلاحظ كم كانت الكلمات خجولة، فاستخدمت عبارة «ما حدث» بدلاً من كلمة «اغتصاب»، وعبارة «كان يمتلكني رجل» عوضاً عن عبارة «قام باغتصابي رجل». أمّا اليوم لم تعد الكاتبة الإيطالية تخجل من تسمية الأمور بأسمائها، فـ «ميكيلا مورجا» مثلاً تنتقد الكنيسة في كتابها، وتقول إنّ الكنيسة تدفع المرأة بطريقة غير مباشرة إلى أن تكون جاهزة لتلبية احتياجات الرّجل، مسميةً تلك الاحتياجات بـ «الواجبات الرّوجيّة»، ما يفرض على المرأة حالة من «الانفصام في الشّخصيّة»، ما يعني فرقاً كبيراً بين ما تريد وما تفعل^(٥)، وهذا يُظهر كيف أنّ

(١) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 34.

(٢) Ivi, p. 52.

(٣) Aleramo Sibilla, Una Donna, Milano, Feltrinelli, 1973, p. 27.

(٤) Ibid.

(٥) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 96.

«مورجا» كانت واضحة ومباشرة، وابتعدت عن الاستعارات التي اختبأت وراءها «أليرامو».

تؤكد الكاتبة الإنكليزية «فيرجينيا وولف» أنَّ التَّغيير البارز الحاصل في الأدب النَّسوي هو تغيير بالسلوك، أي أنَّ المرأة التي تكتب لم تعد متألمة ولا غاضبة، ولم تعد تريد أن تعترض أو تطالب بحقِّها، وأنَّه لم يعد هناك أيُّ تأثير خارجي يعكِّر صفو كتاباتها، وأنَّه أصبح بإمكان المرأة اليوم أن تركِّز على نظرتها في الأمور من دون أي تأثير^(١). إنَّ كتاب «ميكيلا مورجا» هو المثل الأكبر الذي يبيِّن عدم صلاحية هذا القول، لأنَّ الكنيسة ونظرتها للمرأة هما الأمران اللذان دفعا «مورجا» للكتابة. إنَّ خبراتها الشخصية في التَّعامل مع مسؤولي الكنيسة هي التي طرحت العديد من الأسئلة في رأسها؛ وإنَّ مجتمعها الذَّكوري هو الذي دفعها للتصرّف والكتابة.

بناءً لما تقدّم يمكننا القول: إن كتاب «مورجا» هو ردّة فعل، أو بالأحرى نتيجة واقعية لكلّ ما يحصل في الحياة اليومية، ما يشير إلى أنَّ التَّأثير الخارجي موجودٌ دوماً، وهذا ما تدلّ عليه أيضاً مقدّمة هذا الكتاب،

الذي أهدته الكاتبة إلى كلّ امرأة ورجل، من أجل الابتعاد عن الأخبار والأساطير الكاذبة التي عاشوا بظلالها منذ قرون^(٢).

من المهمّ ملاحظة أمر بارز ألا وهو دور المرأة في الأدب الإيطالي المعاصر، وهو أنَّ المرأة أصبحت مهتمة أكثر من قبل ببقية النساء، وهذا أمر جديد في الأدب النَّسوي إذ إنَّ في بدايات القرن العشرين كتبت الأديبات عن سيرتهن الشخصية، لأنَّ الكتابة كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة للتعبير عن الوجدان ولوصف المعاناة^(٣). أمّا اليوم فأصبحت المرأة تراقب حياة بنات جنسها، تنتقد وتعلّق على ما تشاهد وعلى ما يدور من حولها، وليس فقط على ما تختبر، وهذا ما يُظهره كتاب «مورجا» التي عنونت كلّ فصل فيه بالتَّالي: «ذكريات كاثوليكية»، هذه الذَّكريات التي طبعت حياة نساء عايشن الكاتبة، جمعتها كلّها في كتاب وقامت بنشره.

إذا أردنا الحديث عن مميّزات الأدب النَّسوي المعاصر في إيطاليا، يمكن القول إنَّه أدب شجاع، صادق وانعكاس حقيقي لما تشعر به النساء؛ وهو أدب حرّ من كلّ الحواجز التي كانت تخاف من ردّة فعل الرّجل والمجتمع البطريركي الذَّكوري^(٤).

(١) Cfr. Woolf Virginia, Le Donne e la scrittura, Milano, la Tartaruga edizione, 2003, p. 42.

(٢) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 3.

(٣) Cfr. Olivieri Mariarosaria, Tra libert. e solitudine. Saggi su letteratura e giornalismo femminile: Matilde Serao, Sibilla Aleramo, Clotilde Marghieri, Roma, Edizioni dell'Ateneo, 1990, p. 109.

(٤) Cfr. Marzano Michela, Sii Bella e Stai Zitta, Op. cit., p. 123.

٣ - التقدّم والتطوّر (من النّصف الأوّل من القرن العشرين إلى النّصف الثّاني)

لا يسعنا أن ننكر أنّ التحسّن في الأدب النّسوي الذي شهدته السنوات الأخيرة، هو تحسّن كبير ومهم، ومتّصل بالتطوّر الذي يطال شروط وظروفها حياة المرأة الإيطالية. تقول الكاتبة الفرنسيّة «سيمون دي بوفوار»: «ليس وضع المرأة المتدنّي والوضيع هو الذي حكم على عدم وجودها التاريخي، إنّما عدم وجودها التاريخي هو الذي أودى بوضعها إلى الوضاعة والتدنّي»^(٤). هذا ما تؤكّده مسيرة المرأة الإيطالية، فهي وبعد تنشّقها عبير الحرّيّة، رحنا نرى كاتبات كـ «ميكيلا مورجا» و«دانشا مراييني» وغيرها، وبعد شعورها بالاستقلال، وبعدم الخوف من حكم الكنيسة والمجتمع، رأينا انتشار كتاب مثل «السلام عليك يا مريم: الكنيسة اختلقت صورة المرأة»^(٥) الذي نقد صورة المرأة التي وضعتها الكنيسة منذ قرون عدة.

هذا الكتاب لا يُهاجم الدّين المسيحي، لكنّه ينتقد بعض تعاليم الكنيسة المسؤولّة عن وضع صورة خاطئة للمرأة، مبتدئة

وكتاب «مورجا» هو الدّليل الواضح على ما ذكرت، لكن هذا الأدب مطبوع دائماً بروح نسويّة غاضبة. فعلى الرّغم من كلّ التطوّر الذي طال أوضاع المرأة والذي أثر بدوره على أدبها، تبقى المرأة دائمة الشّعور بكونها مضطهدة وبأنّ عليها أن تستمرّ بالمطالبة بحريتها من خلال الكتابة^(١).

صحيح إنّ دور المرأة في الأدب الإيطالي المعاصر قد تحسّن كثيراً مقارنةً ببدايات القرن الماضي، لكنّ هناك شيئاً ما ينقصه! ما ينقصه هو ثقة الآخرين به، ولا يمكننا أن ننسى أنّه منذ حوالي خمسين سنة فقط، فُتحت طريق التّحرّر أمام المرأة. من هذا المنطلق لا يسعنا أن ننتظر من المرأة الكاتبة ما ننتظره من الرّجل الكاتب، ليس لأيّ سبب، إنّما لأنّ المرأة كالطّفل الذي بخطواته الأولى هو بحاجة لثقة الآخرين للتعلّم تدريجيّاً كيف يمشي معتمداً على نفسه^(٢)، المرأة بحاجة إلى اكتساب بعض التّقدير، ومن أجل إيجاد الثّقة بنفسها عليها أن تتعلّم ألاّ تعتمد على نظرة الرّجل إليها، وألاّ تشعر أنّها ذكيّة فقط عندما يقدّر رئيس عملها، أو عندما تحصل على تقديرٍ مصدره رجل^(٣).

(١) Ivi, p. 131.

(٢) Cfr. Cassano Franco, Zolo Danilo, L'Alternativa mediterranea, Milano, Feltrinelli, 2007, p. 147.

(٣) Cfr. Marzano Michela, Sii Bella e Stai Zitta, Op. cit., p. 65.

(٤) De Beauvoir Simone, Il Secondo Sesso, Op. cit., p. 154.

(٥) Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 156.

بحواء وبخطيئتها التي كلّفتها عقاباً مريراً،
ألا وهو وجع الولادة الذي يرافق المرأة،
وشقاء آدم من أجل الحصول على لقمة
العيش، هذه اللامساواة في العقاب كانت
واضحة منذ البداية، ولكن لا أحد تكلم عنها
بسبب الاعتقاد أنّ المرأة هي التي تسببت
بهذه النتيجة ما شرّع قساوة العقاب^(١).
وعلى هذا الأساس بنت الكنيسة صورة
المرأة على أنّها: كائن ضعيف، تقع عليه
مسؤولية المعاناة البشرية بأكملها^(٢).

لا يسعنا، في بدايات القرن العشرين،
إيجاد كاتبات يتمتّعن بشجاعة «مورجا»
نفسها، فينتقدن الكنيسة، كما ينتقدن فكرة
مكوّنة منذ البدء عن المرأة، كون المرأة
الإيطالية كانت تعيش على هامش المجتمع،
وظروفها كانت تمنع تطوّرها. لذلك ينتقد
مناهضو المرأة فكرة تأثيرها في مجتمعاها
ككاتبة، بحجة أنّ المرأة لم تكتب يوماً شيئاً
عليه القدر والقيمة، ووحدهم الرجال قاموا
بكل التطوّر الأدبي والاجتماعي الذي يشهد
عليه تاريخ البشرية^(٣). إنّه تفكير مغلوط،
لأنّ ظهور كاتبات مثل «أليرامو» في بدايات

هذا القرن يؤكّد عكس ذلك، ولكن حقيقة أنّ
هذه النّجاحات النسويّة هي نادرة، فهذا
شيء طبيعيّ يعود للظروف التي كانت
تحيط بوضع المرأة آنذاك.

في الماضي وبحسب «فيرجينيا وولف»
كانت الكتابة النسويّة عبارة عن «كلمات
مبعثرة مكتوبة على ورقة ومتركة هناك
لكي تجفّ وتصبح أحرفاً وكلمات»^(٤). تؤكّد
الكاتبة الإيطالية «سبيللا أليرامو» في كتابها
«امرأة» هذا القول، حيث تصف بالتفصيل
كل أحداث حياتها وكلّ المشاعر التي
رافقتها والمعاناة بطريقة محددة ومملّة.
وهي تلفّ حول الموضوع من دون ذكره
مباشرة^(٥). بالمقابل، وفي أيامنا هذه أصبح
الأدب عند المرأة الإيطالية مثل الأدب عند
الرجل: فنّ يُدرس، يرافقه الموهبة المهدّبة
والواضحة المعالم. لم تعد كاتبات المرأة
الإيطالية اليوم مساحةً لتدقّق المشاعر
الشخصيّة الدّفينّة، بل تحفة فنيّة بحدّ
ذاتها^(٦). وكتاب «السلام عليك يا مريم:
الكنيسة اختلقت صورة المرأة» هو بالفعل
تحفة فنيّة خالٍ من الأحاسيس والمعاناة

(١) Ivi, p. 86.

(٢) Ivi, p. 87.

(٣) Cfr. Corona Daniela, Donne e scrittura, Op. cit., p. 288.

(٤) Woolf Virginia, Le Donne e la scrittura, Op. cit., p. 46.

(٥) Cfr. Folli Anna, Penne leggere. Neera, Ada Negri, Sibilla Aleramo. Scritture femminili italiane fra Otto e Novecento, Milano, Guerini e Associati, 2000, p. 192.

(٦) Cfr. Murgia Michela, Ave Mary. E la chiesa invent? la Donna, Op. cit., p. 167.

ويرمز إلى حقيقة علمية بهدف محاولة تحسين الواقع.

كتبت «فيرجينيا وولف» منذ سنين عدة، وكأَنَّها كانت تتوقَّع، ما يلي: «إنَّ المرأة ستكتب في المستقبل القليل من الروايات والكثير من الشَّعر والنقد»^(١). وتضيف إلى أنَّه عندما تصل المرأة إلى هذه المرحلة يمكن الحديث عن عصر ذهبيٍّ وعصر أسطوري تحصل فيه المرأة على ما حُرمت منه منذ زمن: الوقت والمال والمساحة الكاملة لها^(٢). كما يمكن اليوم إيجاد كتب لكاتبات إيطاليات، كتباً نقديةً وتاريخيةً ككتاب «ميكيلا مورجا». لكن، أيمكننا حقاً أن نسمي هذا انتصاراً للأدب النسوي؟ أيمكننا التكلُّم عن تطوُّر فعلي؟ أصبح أنَّه قد وصلنا إلى العصر الذهبي في الأدب النسوي الإيطالي؟ أصبح أنَّ المرأة الإيطالية المعاصرة تتمتع بكلِّ ما كان ينقص المرأة الإيطالية في بدايات القرن العشرين، وبذلك أصبح لديها إمكانيةٌ إغناء المكتبات الإيطالية والعالمية بكتابات جديدة؟

إنِّي وعلى المستوى الشَّخصي أعتقد، وبعد مشاهدة الكتب الإيطالية العائدة لكاتبات تغزو مكتبات العالم، أعترف أنَّ

الأدب النسوي بلغ حدّاً كبيراً من التطوُّر. لكنَّ الطَّريق لا تزال طويلة للوصول إلى الهدف المبتغى. وباستطاعتنا هنا الحديث عن تطوُّر ملحوظ في ظروف المرأة وأدبها، لكنَّه لا يمكننا بعد الحديث عن عصر ذهبيٍّ، لأنَّ هناك خطوات كثيرة تنقص هذا الأدب، وهي خطوات متعلِّقة بوضع المرأة في إيطاليا التي عليها بعد أن تثبت نفسها على الأصعدة كلّها، كي تصل إلى مستوى أفضل على الصَّعيد الأدبي.

في لبنان

١ - تطوُّر دور المرأة اللبنانية في المجتمع المعاصر

خجولةٌ هي الأسماء اللبنانية العائدة لكاتبات شاركن في الإنتاج الأدبي اللبناني في النِّصف الأوَّل من القرن العشرين. فعدا الكاتبة اللبنانية «مي زيادة» التي لمع اسمها في عالم الأدب العربي، وأطلق العنان لمسيرة النِّساء في المجال الأدبي، لم تلمع أسماءٌ كثيرة لنساء رائدات. وكل ذلك عائد بالتَّأكيد إلى الظُّروف التي كانت تحيط بوضع المرأة آنذاك. لكن مع مرَّ السنين استطاعت المرأة في لبنان الحصول على بعض الحقوق الإضافية^(٣). إذ نرى اليوم نساءً يؤدِّين أدواراً أساسيةً في مجتمعنا

(١) Woolf Virginia, Le Donne e la scrittura, Op. cit., p. 47.

(٢) Woolf Virginia, Le Donne e la scrittura, Op. cit., p. 47.

(٣) راجع البعني نجيب، صحافيات لبنانيات رائدات وأديبات مبدعات، بيروت، نوفل، ٢٠٠٨، ص ١٣.

اللبناني، فنجدهن في البرلمان وفي مجلس الوزراء. كما نلاحظ مستوى علمياً مرتفعاً في المدارس والجامعات وحضوراً قوياً للفتيات اللواتي يقصدن هذه الجامعات والمدارس^(١)، الأمر الذي يؤكد أنّ التطوّر الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي شهده لبنان في الآونة الأخيرة، والتأثر بالثقافات الغربية على الصّعد كافة، ساهم في تحرير المرأة اللبنانية.

إنّ اللبنانيين وبالفطرة هم شعبٌ ورث عن أجداده الفينيقيين شغف السفر والاكتشاف والتعرّف على حضاراتٍ جديدة وثقافاتٍ مختلفة، كما وإنّ موقع لبنان الجغرافي الواقع على البحر الأبيض المتوسط، جعل من هذا الشعب ينظر للمتوسط وكأنّه وسيلة للتّواصل مع الآخر^(٢)، هذا الآخر البعيد الذي يسكن في بلد مختلف وقارة مختلفة. وبما أنّ المرأة تشكّل نصف المجتمع فهي تتمتع بالميزات نفسها التي يتمتع بها هذا الشعب، وإذا أردنا أن نلخص شخصية هذه المرأة، نقول إنّها امرأة منفتحة ومتقّنة ومتقبّلة لأفكارٍ جديدة^(٣).

صحيحٌ إنّ ظروف المرأة في لبنان شهدت تحسّناً خلال السّنوات الأخيرة، ولكن على الرغم من ذلك، هناك دائماً عادات وتقاليد وقوانين تحدّثت عنها الكاتبة اللبنانية «جومانا حداد» في كتابها «قتلت شهرزاد»، تعود بها خطوات إلى الوراء، ولا تسمح لها بالوصول إلى حقوقها كافة، ومثالاً على تلك القوانين كما تقول «حداد»، إنّ المرأة اللبنانية لا يحقّ لها أن تعطي جنسيّتها لأولادها إذا تزوّجت من رجل أجنبي، وفي الوقت ذاته هذه المرأة تستطيع أن تستفيد من قرض مصرفي في حال أرادت الخضوع لعمليات تجميلية^(٤). هذا يدلّ على التناقض في وضع المرأة اللبنانية، امرأة لديها كامل الحقّ والحرية بتغيير معالم جسمها ووجهها، ولكن لا حقّ لها بإعطاء جنسيّتها لأولادها! إنّ واقع مضحك ومثيرٌ للشّفقة في نفس الوقت^(٥)! هذا التناقض في وضع المرأة موجود فقط في مدينة بيروت، وكما تقول عنها الكاتبة: «بيروت ملكة التناقضات، المحجّبة والمنفتحة... الشرقية والغربية، المغرية والمصلية»^(٦).

(١) راجع كلاس جورج، الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة، دار الجيل، ١٩٩٦، ص ١٦.

(٢) Cfr. D'Afflitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Op. cit., p. 35.

(٣) Cfr. D'Afflitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Op. cit., p. 38.

(٤) Cfr. Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrazad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit., p. 45.

(٥) Ivi, p. 41.

(٦) Ivi, p. 45.

إنَّ الأحكام المسبَّقة السَّائدة عند الغرب مخطئةٌ جداً بحقِّ المرأة اللبنانيَّة التي يعتبرها امرأةٌ مقموعة ومضطهدة، امرأةٌ ضعيفة لا يسعها سوى الطَّاعة. تقول «حداد» في كتابها: «إنَّ هذه المرأة موجودة في لبنان لكنَّها لا تشكِّل الأكثرية من النِّساء»^(١). وعندما نتكلَّم عن امرأة لبنانيَّة نتكلَّم عن جميع النِّساء من كلِّ الطوائف، لأنَّه أيضاً شائع في الغرب أنَّ المرأة اللبنانيَّة المسيحيَّة هي أكثر انفتاحاً من اللبنانيَّة المسلمة كونها تتصرَّف بحرية أكبر، أي ترتدي ما يحلو لها وتخرج عندما تريد^(٢). لكنَّ الكاتبة تقول في هذا الأمر، «إنَّ هذه المرأة بالذَّات مجرَّدة من حقوقها كزوجة وكوالدة، وتتساءل إذا كان فعلاً «هذا هو المعنى الحقيقي للحريَّة والانفتاح؟»^(٣).

إذا أردنا مقارنة المرأة اللبنانيَّة بالمرأة في مختلف البلدان العربيَّة، نستطيع التَّأكيد أنَّ المرأة في لبنان تعيش عصراً ذهبيّاً بالنسبة إلى المرأة في البلدان العربيَّة^(٤). فإذا أردنا أن نتحدَّث عن أوضاع المرأة في

المملكة العربيَّة السَّعوديَّة نرى أنَّ المرأة لا يُسمح لها بالقيادة ولا أن تخرج من منزلها من دون مرافقة رجل لها؛ حتَّى أنَّها إذا تعرَّضت لتحرش جنسيٍّ أو اغتصاب، تكون هي الملامة وتتحملُ الذَّنْب وتُدفع ثمنه جلدًا أو رجماً، أمَّا في بقيَّة البلدان العربيَّة فوضع المرأة ليس أفضل بكثير، فهي مهمَّشة قانونيًّا واجتماعيًّا^(٥).

تعرِّف «حداد» في كتابها أنَّ بيروت مختلفة عن بقيَّة العواصم العربيَّة وهي «أكثر انفتاحاً وأكثر تنوعاً وأكثر مساواة»^(٦) من غيرها، لكنَّها تضيف أنَّها ليست المدينة المثاليَّة للمرأة، خصوصاً بعد ظهور بعض المُتشدِّدين التَّابعين لبعض الحركات السياسيَّة المتطرِّفة، الذين يناهضون حريَّة المرأة كونها قضية لا أخلاقيَّة حسب معتقداتهم الخاصة، ما يزيد الأمر صعوبة وما يظهر صعوبة تغيير الذهنيَّة اللبنانيَّة الذَّكوريَّة. إذاً إنَّ حريَّة المرأة والمساواة في لبنان لم تبلغ بعد الهدف المنشود، لأنَّ الإرادة الجماعيَّة باعتبار المرأة مساوية للرجل في الحقوق

(١) Ivi, p. 29.

(٢) Cfr. Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrazad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit., p. 22.

(٣) Ivi, p. 106.

(٤) Cfr. D'Afflitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Roma, Carocci, 1998, p. 124.

(٥) Ivi, p. 125.

(٦) Ivi, p. 47.

والمسؤوليات والقدرات لا تزال غير مكتملة^(١)، ولذلك هناك حاجة للنضال من أجل الوصول إلى مجتمع تسود فيه المساواة، فالطريق إذاً لا تزال طويلة وصعبة.

يقول: «أمين الريحاني»: «عشرة نساء يمشين في الشارع مكشوفات الرأس، هن أكثر فعالية من مئات الكتّاب الذين يدافعون عن تحرير المرأة»^(٢)، على المرأة أولاً أن تطالب بحقوقها وأن تعي مقدار المسؤولية التي تحملها على أكتافها، وأن تستوعب هي أولاً مبدأ المساواة والحرية، وتقول الكاتبة بهذا الصدد: «على المرأة أن تستيقظ وتتصرّف لتصل إلى ما تريد»^(٣) لا أن تمضي حياتها بالتذمّر من دون أن تقوم بشيء.

٢ - الكاتبات اللبنانيات بوجه الاحتكار الذكوري للأدب

تقول الكاتبة الفرنسية «سيمون دي بوفوار»: «تعتبر المرأة وبحسب المجتمع: «فتاة قاصر»^(٤)، هكذا اعتادت المرأة على

مرّ التاريخ أن تتصرّف كونها قاصر، أخذت دور مصدر الوحي بدلاً من دور الكاتبة معتادة ألا تؤدي دوراً رئيسياً في مجتمعها الذكوري، حيث للرجل فقط الصوت المدوي والدور الأبرز، ولها العمل خلف الكواليس وتحضير الذخيرة وتصنيعها^(٥)، من دون الدخول في ميدان النضال لمحاربة الاحتكار الذكوري للأدب.

تؤكد الكاتبة الإنكليزية «فيرجينيا وولف» أنه لا يزال لدى المرأة العديد من الأشباح لمواجهتها، والعديد من الأحكام المسبقة لحرها^(٦)، وتضيف: «في الحقيقة أظنّ أنّ الكثير من الوقت عليه أن يمرّ قبل أن تجلس المرأة على طاولتها وتكتب كتاباً من دون أن تكتشف شبحاً عليها قتله وحجراً عليها زينه»^(٧) هذا التحليل للكاتبة الإنكليزية يتماشى مع الكاتبات اللبنانيات المعاصرات اللواتي يرين في كلّ محاولة للكتابة شبحاً جديداً. تراءى هذا الشبح أيضاً لـ «جومانا حداد» وتمثّل بشخصية «شهرزاد»، بطلّة كتاب «ألف ليلة وليلة»، هذه المرأة التي كانت تقصّ على السلطان

(١) Cfr. DÆAffitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Op. cit., p. 140.

(٢) أمين الريحاني، زنبقة الغور، بيروت، نوفل، ١٩٣٤، ص ١٣٢.

(٣) Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrazad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit. p. 47.

(٤) De Beauvoir Simone, Il Secondo Sesso, Op. cit., p. 152.

(٥) كلاس جورج، تاريخ الصحافة النسوية، نشأتها وتطورها، مذكور آنفاً، ص ٨٩.

(٦) Woolf Virginia, Le Donne e la scrittura, Op. cit., p. 59.

(٧) Ibid.

في كل ليلة حكاية مثيرة، لتزرع في نفسه الشوق لمعرفة ما سيحصل فيتركها تحيا لليوم التالي وهكذا دواليك، إلى أن وقع السلطان بحبها، وبهذا تكون شهرزاد قد أنقذت حياتها وحياة ملايين الفتيات بعدها.

شرحت «حداد» كيف أنّ شخصية «شهرزاد» تمثل الذكاء الحادّ وقوة السحر وقيمة الكلمة في الشرق وفي الغرب، هذه الفتاة التي تصفها حداد بـ «الذكية حيث أنّها أنقذت نفسها من الموت المحتّم، بعد أن سحرت الرجل بقصصها المشوقة التي لا تنتهي»^(١). هذه المرأة التي شغلت العالم ومنذ قرون، عالم الأدب والسينما والفنّ، لم تكن ذات قيمة عند «جوماننا حداد» التي وبحسب رأيها، تعطي رسالة سيئة للمرأة العربية ألا وهي: «أقنعي الرجال، واعطهم ما تملكين وما يتمنّون، وهم بالمقابل سيخلّصونك»^(٢). إذاً إن شهرزاد بنظر الكاتبة هي الشّبح الذي عليها مقاتلته لأنّه لم يعد يصلح في هذا الزّمن إرضاء الرجل بقصة أو بأيّ حاجة أخرى من أجل الاستمرار في الحياة. ولذلك قتلت الكاتبة «شهرزاد»، لأنّها ليست بطلّة ولا هي رمز

للثورة النسائية العربية، بل هي عبارة عن امرأة لديها «القدرة الجيدة للوصول إلى التّسويات»^(٣).

تتغيّر الأزمان والأساطير والقيم الحياتية والأساليب وظروف الحياة والعلاقات بين الرجل والمرأة، وتبقى شهرزاد تُولّد في كلّ مرّة في الكتب والأفلام، إلى أن أعلنت «جوماننا حداد» موتها، معترفة بقيامها بنفسها بالجريمة، وهي تصف في كتابها كيف تمّت عملية القتل بكلمات قاسية مثل: «لقد ظلّيت أشدّ يداي حول عنقها الهش»^(٤)، كما لو كانت بالفعل شبحاً يهدّد حياتها، وهذا ما يؤكّد تحليل «ولف» عن الكاتبات والأشباح التي لا يدعهن يكتبن بسلام.

أمّا الأحكام المسبقة التي تحدّثت عنها «ولف»، مرّت أيضاً في كتاب «حداد»، وتحديداً في أولى الصفحات عندما توجّهت الكاتبة للقارئ الغربي، شارحة له أن كتابها ليس تأكيداً لأفكاره ولأحكامه المسبقة المتعلقة بالعرب، إنّهُ عكس ذلك تماماً، فهو يطيح بكلّ الأفكار المتوارثة عند الغرب^(٥). بالإضافة إلى ذلك، إنّ السّبب

(١) Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrzad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit., p. 129.

(٢) Ibid.

(٣) Ivi, p. 131.

(٤) Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrzad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit., p. 132.

(٥) Ivi, p. 2.

الأول والرئيسي الذي استفزها ودفعها إلى كتابة هذا الكتاب ونشره هو محاربة الأحكام المسبقة التي كوّنها الغرب عن المرأة العربية، وقد جاء بعضها على شكل عبارة لصحافية أجنبية قالتها للكاتبة وهي: «الكثير منا نحن الغربيين، لم نكن نتصور أن هناك نساءً عربيات منفتحات مثلك»^(١).

فلنُعد صياغة تحليل «فرجينيا وولف» إذاً: متى يمكن للمرأة اللبنانية أن تجلس على طاولتها وأن تكتب من دون أن تكتشف شبحاً عليها قتله أو حجراً عليها زيحه أو أحكاماً مسبقة عليها محوها وتخطيها؟

أما بما يتعلق بأسلوب الكتابة، يتلّطى الكتاب اللبنانيون عادةً خلف التشابيه والاستعارات، وتعطي «حداد» في كتابها مثلاً عن الكتاب الذين يستعملون «التلال والجبال» أو «التفاح والإجاص» بدلاً من كلمة «ثدي»، كطريقة للتخفي في مجتمع يخاف من الكلمة ويقتن «فنّ الانفصام»^(٢) الذي يستخدمه لقول ما يفكر به بألفاظٍ وتعابيرٍ تضمينية. وهي إذ تنتقد القارئ اللبناني الذي يتقبل كلّ كلمة يكتبها كاتب رجل، ويحكم على الكاتبة التي تتكلم عن الجنس مثلاً أنها «كاتبة شبقية وقحة»^(٣).

أما بالنسبة إلى الرجل فهو موضوع يشبه المواضيع كافة. لذلك إنَّ حرّية التعبير لدى المرأة محدودة جداً؛ وخاضعة لرقابة لا تسمح لها أن تكتب ما تريد.

تقول الكاتبة الإيطالية «ميكيلا مرتزانو»: «في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، كان هناك اعتقاد سائد أنَّ السّاحرات الشريرات يستعملن سحرهن من أجل الإيقاع بالرجل، ومنعه من الدخول إلى الجنة؛ أمّا اليوم فهؤلاء السّاحرات هنّ النساء المتحرّرات؛ هنّ اللواتي يشكّلن خطراً عليه من خلال قدراتهن العقلية أكثر من قدرتهنّ على الإغواء»^(٤). هكذا تُعتبر الكاتبات اللبنانيات اليوم، هن الكاتبات اللواتي يدافعن عن المرأة ويطالبن بمساواتها بالرجل. وبما أنَّ «جومانا حداد» تنضم إلى هذه الفئة من الكاتبات، أصبحت تُشكّل بحدّ ذاتها شبحاً لشريحة كبيرة من المجتمع اللبناني عليها الإطاحة به، ومثال يُحتذى به للشريحة الأخرى التي تؤمن أنَّ فترة احتكار الرجل للمجال الأدبي قد أصبحت من الماضي، وأنّه حان الوقت للمرأة اللبنانية أن تدافع عن القيم التي تؤمن بها، وقد آن لها الأوان أن تتحرّر من

(١) Ivi, p. 7.

(٢) Haddad Joumana, Ho ucciso Shahrazad; Confessioni di una donna araba arrabbiata, Op. cit., p. 14.

(٣) Ivi, p. 59.

(٤) Marzano Michela, Sii Bella e Stai Zitta, Op. cit., p. 137.

صورة الضحية لأنها ليست كذلك على حد قول الكاتبة.

٣ - صعود الكاتبة اللبنانية سلم التطور (من النصف الأول إلى النصف الثاني من القرن العشرين)

إذا أردنا أن نتصفح كتب التاريخ، نقرأ أنّ الفينيقيين ومنذ أن سكنوا السواحل اللبنانية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كانوا شعباً يعيش من التجارة والإبحار؛ وهذا الشعب هو الذي اكتشف الحرف واستعمله في كتابة لغته؛ كذلك إنّ الفينيقيين كانوا ينقلون البضائع من مناطق الشرق الأوسط إلى أوروبا وبذلك كانوا يصدرون ثقافتهم، ويستوردون ثقافة الغرب بوساطة بواخر متينة جداً مصنوعة من أرز لبنان^(١). ما يؤكد أنّ لبنان هو البلد الذي صدر الأبجدية إلى العالم، وأننا نتكلم عن حضارة عمرها أكثر من ستة آلاف سنة.

وإذا أكلنا قراءة تاريخنا القديم، نتوقف أمام عصر ذهبي آخر وهو عصر الملكة «أليسار» ملكة مدينة صور، وهي التي بنت مدينة قرطاج والتي أصبحت اليوم من أهم المدن وأكثرها ثراءً في تونس^(٢)، ما يعني أنّ لبنان كان ولا يزال البلد الذي يخرج النساء اللواتي يعملن على تأسيس مدن

وبناء مدن أخرى، بعد تحقيقهن ذواتهن في بلدن الأم؛ وهن يتفوقن في لبنان؛ ويبحثن عن أماكن أخرى من أجل تصدير نجاحاتهن.

كان من الواجب الحديث عن هاتين القصتين من أجل إنعاش الذاكرة العالمية؛ وتذكيرها بأهمية هذا الوطن في نشر الثقافة في البلدان العربية والغربية. وفقاً لذلك، نستطيع التأكيد أنّ الثقافة اللبنانية والظروف المحيطة بالمرأة في الأمس البعيد كانت بحالة أفضل من اليوم. في الماضي رأينا «إليسار» تبني مدينة خارج أسوار بلدها، أما اليوم إنّ المرأة اللبنانية تجد صعوبة في إثبات ذاتها في مدينتها وداخل بلدها.

أما إذا أردنا التكلم عن الأمس القريب أيّ النصف الأول من القرن العشرين، عندها يسعنا القول إنّ هذه الظروف شهدت تحسناً، ما انعكس إيجاباً على الأدب النسوي. إذ خلال تلك الفترة لمعت أسماء بعض النساء المفكرات اللواتي أثرن في مجال الأدب والصحافة وتحرير المرأة، وأشهرهن الأديبة «مي زيادة» التي عملت بجد في أوائل القرن العشرين من أجل تحسين ظروف المرأة، لكنّه لا يسعنا

(١) Cfr. D'Afflitto Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Op. cit., p. 142.

(٢) Ivi, p. 140.

الحديث عن نجاح مدوّ في هذا المجال^(١). كما وأنّ الحرب الأهلية التي ضربت لبنان عام ١٩٧٥م، خلقت فوضى سياسية وثقافية، ولم تساعد بخلق جوّ يستطيع فيه اللبناني أن يعمل في مجال حقوق الإنسان والمرأة^(٢).

تقول الكاتبة الجزائرية «آسيا جبار»: «أرى طريقاً واحداً من أجل تحسين وضع الأدب النسوي وهو الكلام والكلام من دون خوف من الأمس ولا من اليوم، التكلّم بيننا في كلّ الأماكن، في البيوت التقليديّة والشعبية، التكلّم والنظر إلى خارج الحائط وخارج السجون»^(٣). الكلام والكلام يعني الحصول على الثقة بالنفس، لأن من دونها لا مكان للخلق والإبداع؛ ولا يمكننا الوصول إلى الحرية المنشودة، إذا لم تفهم المرأة اللبنانية أنّ التفكير بأنّها أدنى مرتبة من الرجل هو نتيجة مرض اجتماعي لا يمكن الشفاء منه إلاّ عن طريق الكتابة؛ ذلك أنّها بالكتابة تستطيع أن تتحدى المجتمع وأن تقول لا، كما فعلت «جومانا حداد» التي قالت «لا» للمجتمع، فنجحت في أن تثبت ذاتها باعتبارها امرأة كاتبة لا تخشى شيئاً؛ وتقول «لا» لتهميش النساء في المجتمع اللبناني.

نختم هذه الدراسة مستنتجين ما يلي: إنّ لبنان وإيطاليا أرضان خصبتان لنموّ الأدب النسوي الملونّ بالمعاناة والنضال والثورة والتّجديد. وإنّ إيطاليا بلد أوروبي ما زال متعلّقاً ببعض التقاليد المسيحيّة والقيم التي تنفخ فيه روحانية الشرق. كما وإنّ لبنان بلد عربي لكنّه مزيج من حضارات ومن أديان تجعل منه نافذة مطلّة على الغرب، تجعله شديد التّأثر بأفكار الغرب الجديدة والرّوح الغربيّة المنفتحة. وبعد دراستنا لكتابيّ «ميكيلا مورجا» و«جومانا حداد» يبدو جلياً كم أنّ الأدب النسوي متعلّق بالظروف المحيطة بالمرأة وتأثير المجتمع عليها. وعندما يصبح لدينا كتب لأديبات لا يجدن الحاجة فيها للتطرّق لوضع المرأة ولا للتكلّم عن معاناتها وعن قمعها ولا للمطالبة بحريتها وبحقوقها. وعندما تكتب المرأة من دون أن تخاف من حكم القارئ عليها. وعندما تتساوى بالرجل قانونياً واجتماعياً يسعنا أن نتحدّث عن عصرٍ ذهبيّ للأدب النسوي في لبنان كما في إيطاليا.

(١) راجع نصر الله إميلي، نساء رائدات، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٦، ص ٨٧.

(٢) Cfr. D'Afflito Isabella Camera, Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi, Op. cit., p. 165.

(٣) آسيا جبار، نساء جزائريات في بيوتهم، فلورنس، جوتي، ١٩٨٨، ص ١٢١.

المراجع والمصادر

العربية

- 10 - Murgia Michela, *Ave Mary. E la chiesa inventò la Donna*, Milano, Einaudi, 2011.
- 11 - Laurenzi Elena, Il Multiculturalismo in questione. *Donne in rete contro i fondamentalismi*, 2005.
- 12 - Zancan Marina, *Il doppio itinerario della scrittura. La donna nella tradizione letteraria italiana*, Torino, Einaudi, 1998.
- 13 - Woolf Virginia, *Le Donne e la scrittura*, Milano, la Tartaruga edizione, 2003
- 14 - Olivieri Mariarosaria, *Tra libertà e solitudine. Saggi su letteratura e giornalismo femminile: Matilde Serao, Sibilla Aleramo, Clotilde Marghieri*, Roma, Edizioni dell'Ateneo, 1990.
- 15 - Cassano Franco, Zolo Danilo, *L'Alternativa mediterranea*, Milano, Feltrinelli, 2007.
- 16 - Folli Anna, *Penne leggere. Neera, Ada Negri, Sibilla Aleramo. Scritture femminili italiane fra Otto e Novecento*, Milano, Guerini e Associati, 2000.

- ١ - البعيني نجيب، صحافيات لبنانيات رائدات وأدبيات مبدعات، بيروت، نوفل، ٢٠٠٨.
- ٢ - كلاس جورج، الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة، دار الجيل، ١٩٩٦.
- ٣ - أمين الريحاني، زنبقة الغور، بيروت، نوفل، ١٩٣٤.
- ٤ - كلاس جورج، تاريخ الصحافة النسوية، نشأتها وتطورها، دار الجيل، ١٩٩٦.
- ٥ - نصر الله إميل، نساء رائدات، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٦.
- ٦ - آسيا جبار، نساء جزائريات في بيوتهم، فلورنس، جونتني، ١٩٨٨.

الأجنبية

- 1 - Aleramo Sibilla, *Una Donna*, Milano, Feltrinelli, 1973.
- 2 - De Beauvoir Simone, *Il Secondo Sesso*, Milano, il Saggiatore, 1994.
- 3 - D'Affitto Isabella Camera, *Letteratura araba contemporanea dalla Nahdah a oggi*, Roma, Carocci, 1998.
- 4 - Corona Daniela, *Donne e scrittura*, Palermo, 1988.
- 5 - Conti Bruna, *La donna e il femminismo. Scritti 1897-1910*, Roma, Editori Riuniti, 1978.
- 6 - Rossilli Maria Grazia, *I Diritti delle donne nell'Unione Europea-Cittadine migranti schiave*, Roma, Edizioni Ediesse, 2009.
- 7 - Carretti Lanfranco, *Sul Novecento*, Pisa, Nistri Lischi, 1976.
- 8 - Forni Piera, *Sibilla e Rina: l'Aleramo tra giornalismo e letteratura*, Firenze, Centro Editoriale Toscano, 2006.
- 9 - Marzano Michela, *Sii Bella e Stai Zitta*, Milano, Mondadori, 2012

السِّبْكُ الصَّوْتِي فِي رَسَائِلِ ابْنِ زِيدُون^(١) النَّثْرِيَّةُ دراسة تطبيقيّة

حنين جزيني

الملخّص

إنَّ نثر ابن زيدون يزخر بمقومات الإبداع والإثارة؛ حيثُ استطاع بإبداعه وسحره وقدرته على المتابعة الفنية العالية، على استجلاب عقل القارئ والتأثير فيه، ما يدل على أنه كان يستحضر متلقيه بقوة، ويدرك جيداً أحواله ووعيه؛ لذا نجح بأسلوبه الرائع والمتميز في إثارة المُتلقّي، واستمالة قلبه، ما منح نصوصه درجةً عاليةً من الكفاءة الإعلامية بشكل عام.

السِّبْكُ وأهميّته ووسائله وصولاً إلى دراسة ديناميّة التّكرار والسّجع والجناس والتّوازي في الرّسائل النثرية لأهميّتها في تحقيق التماسك النّصي من حيث التأثير الموسيقي المتلاحق الذي يُحدثه الصوت في المتلقي.

الكلمات المفتاحيّة: السِّبْك، تماسك النّص، مقوّمات السِّبْك الصوتي: التكرار، السّجع، الجناس، التّوازي.

المقدمة

يُعَدُّ السِّبْكُ الصَّوْتِي أحد مستويات التّماسك النّصي عند علماء لغة النّص، فقد توقف دي بوجراند ودريسليير^(٢) ١٩٨٣م أمام مصطلح التّنغيم بوصفه من المحاور الصوتيّة الرئيسيّة لمصطلح السِّبْك، وتحدّث

لقد سعت هذه الدّراسة إلى الكشف عن مقومات السِّبْك الصوتي في رسائل ابن زيدون السّبع التي تمثّل أهم عيون النثر في الأدب الأندلسي، انطلاقاً من تحديد ماهية

(١) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، ولد في الرصافة ٣٩٤ / ١٠٠٣م، تولى الوزارة لأبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة، الذي اتهمه هذا الأخير بالميل إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، فحبسه. عام ٤٤١هـ تمكن من الهرب ولحق ببلاط المعتضد، وأقام في إشبيلية حتى توفي ودفن بها في أول رجب ٤٦٣. (٢) روبرت دي بوجراند و فلجانج ديسلر: هما من أطلقا مصطلح المعايير النصية السبعة في تحليل النص، والتي بدونها لا يكون النص نصاً وهي: السِّبْك cohesion، والإلتحام، والقصد، ورعاية الموقف، والقبول والتناص والإعلام.

عن أنواعه بَيَّنَّ استعمال التَّنْغِيم الصاعد والتَّنْغِيم الهابط^(١).

وإذا حاولنا التَّوَقُّف عند اهتمامات علماء العربية بهذا المستوى سنجد أن لهم إشارات متنوعة في البحث عن القيم الصوتية بشكل عام، وعن دورها في تكوين النَّصِّ وسبكه، وقد كان للبلاغة العربية الدور البارز في هذا الجانب؛ حيثُ قدَّمت إسهامات مهمة في الكشف عن أنواع الروابط الصوتية في النُّصوص العربية من سجع وجناس، ووزن وقافية^(٢).

وتحدث النُّقَّاد والبلاغيون القدماء عن الوسائل التي تؤدي إلى توفر ما اصطلاح عليه النَّصِّيُّون المحدثون بالسَّبْك الصوتي، عندما تحدثوا عن «الإيقاع الصوتي بَيَّنَّ الألفاظ والعبارات والجمل، مِنْ خِلَالِ علم البديع وبحثوا ذلك على مستوى سطح النَّصِّ»^(٣).

ويعتبر السَّبْك الصوتي ذا بُعْدٍ واضح في رسائل ابن زيدون؛ إذ يمثل عنصراً أساسياً في بنائها العام، ولا تخلو أية رسالة من سجع أو جناس أو أي نوع آخر من أنواع الإيقاع الصوتي، ويتجلى السَّبْك

الصوتي في الرَّسَائِل مِنْ خِلَالِ العناصر الآتية: التكرار - السجع - الجنس - التوازي. وتسهم - جميعها - في عملية تماسك النَّصِّ من حيثُ التأثير الموسيقي المتلاحق الذي يخلقه الصوت في المُتَلَقِّي.

المبحث الأول: السَّبْك

ما يمكن بيانه قبل التحليل هو إضاءة مصطلح السَّبْك، والوقوف عند حدوده لتتضح أبعاده ومعالم الدراسة فيه، حتى نسلك طريقاً واضحاً ينير دربنا برؤية جلية في معالجة النصوص وتحليل الرَّسَائِل.

أولاً: مفهوم السَّبْك

ورد في لغة العرب معانٍ ودلالات تخص المصطلح، ومن ذلك ما ورد في لسان العرب لابن منظور حول مادة (سَبَ كَ) قوله: «سَبَك: سَبَكَ الذَّهَبَ وَالْفُضَّةَ وَنَحْوَهُ مِنَ الذَّائِبِ يَسْبِكُهُ وَيَسْبِكُهُ سَبْكَاً وَسَبْكَه: ذَوَّبَهُ وَأَفْرَعَهُ فِي قَالِبٍ. وَالسَّبِيكَةُ: الْقِطْعَةُ الْمَذْوِبَةُ مِنْهُ، وَقَدْ انْسَبَكَ اللَّيْثُ: السَّبْكَ تَسْبِيكُ السَّبِيكَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ يُذَابُ وَيُفْرَغُ فِي مَسْبَكَةٍ مِنْ حَدِيدٍ كَأَنَّهَا شِقُّ قَصَبَةٍ، وَالْجَمْعُ السَّبَائِكُ»^(٤).

(١) Beaugrande & Dresler, Introduction to Text Linguistics. P, 76

(٢) ينظر. أحمد عفيفي، علم لغة النَّصِّ بين النظرية والتطبيق، ص: ٣٣٨.

(٣) عبد الخالق سرحان شاهين، أصول المعايير النَّصِّيَّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، إشراف د. عبد الزهرة، ماجستير جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللُّغة العربية، ٢٠١٢م، ص: ٨٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سَبَكَ) ج ١٠/٤٣٨.

استخدام علماء العربية القدماء، وأنَّ ترجمته بالسَّك «هي التَّرجمة الأكثر قبولاً وشيوعاً، وَهِيَ المنقولة من التيار الأدبي والنحوي»^(٣).

وبذلك يتضح أن مفهوم السَّك هو الأقرب في تصوير عملية إنتاج النَّص وتكوينه اللُّغويَّ على مستوى المتن النَّصي.

ولو استعرضنا تناولات الدَّارسين المُحدثين من الغرب لهذا المعيار؛ فإنَّنا واجدون المعنى الَّذِي ذكره الجاحظ يلتقي مع أفكار روبرت دي بوجراند عن التتابع الرَّصفي؛ إذ يقول: «وأريد بالتتابع الرَّصفي (Cohesion) أن أشير إلى كل نشاط وكل إجراء غايته رصف عناصر اللُّغة في ترتيب نسقي مناسب بحيث يمكن للكلام أو الكتابة أو السَّماع أو القراءة أن تتم في توالٍ زمني»^(٤).

ومن ثَمَّ توسعت العرب في استخدامه، وأصبح يطلق على كلِّ ما يتمُّ تنقيته وتشكيله في قوالب معينة، حتى لكأنَّه يشير إلى مجموعة من الآليات الإجرائية المستعملة لإنتاج عناصر جديدة بصورة منظمة ومتقنة على المستويين المادي كسبك الذهب والفضة والمعنوي كالفكر واللُّغة.

كما أنَّ مصطلح السَّك ليس غريباً عن استعمالات النُّقاد العرب القدامى، فقد أخذ في تصور الجاحظ وغيره قِيَم الجودة في نظم الشُّعر العربي؛ إذ يجري في انتظامه حسب قوله: «كما يجري على الدهان»^(١).

وعلى الرغم من تعدد التَّرجمات لمصطلح السَّك عند الدارسين واختلافهم إلاَّ أنَّني أميل إلى ترجمة مصطلح cohesion بالسَّك دون غيره^(٢)؛ لأنَّه يقترب من

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ص: ٧٥.

(٢) اختلف الدارسون العرب في ترجمته فترجم إلى ما يلي:

- التماسك: العلاماتية وعلم النص، منذر عياشي، مجموعة أبحاث مترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١ ٢٠٠٤م، ص: ١٣٢.

- نسيج النَّص، الأزهر الزناد، ص: ١٥.

- الاتساق: لسانيات النَّص، محمد خطابي، ص: ١٠.

- الربط: علم لغة النَّص المفاهيم والاتجاهات، سعيد بحيري، ص: ٢٠.

- التضام: إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النَّص، ص: ٢٥.

- السبك: في ترجمته النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند: ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط٢ القاهرة، ٢٠١٤هـ-٢٠٠٧م، ص: ١٠٣، في البلاغة العربية واللسانيات الحديثة، سعد مصلوح، ص: ٢٢٦.

- التماسك: الأزهر الزناد، نسيج النَّص، ص: ١٥.

- الربط: سعيد بحيري علم لغة النَّص المفاهيم والاتجاهات، ص: ٢٠.

(٣) أشرف عبد البديع، الدرس النحوي النَّصي، ص: ٨٧.

(٤) روبرت دي بوجراند: ترجمة تمام حسان، النَّص والخطاب والأجراء، ص: ١٣٦.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول إن: «كل إجراء أو وسيلة تؤدي إلى رصف عناصر اللُّغة في سياق يظهر فيه التتابع والتعاقب الزمني هي وسيلة من وسائل السبك»^(١).

أهمية السبك

يُعدّ السبك من أهمّ المعايير النَّصِّيَّة عند علماء لغة النَّصّ، فهو عنصر جوهري في تشكيل النَّصّ وتغيّره؛ إذ يسهم في «جعل الكلام مفيداً، ووضوح العلاقة في الجملة، وعدم اللبس في أداء المقصود، وعدم الخلط في عناصر الجملة، واستقرار النَّصّ وثباته وذلك بعدم تشتيت الدلالة الواردة في النَّصّ»^(٢).

كما أن للسبك أهمية مخصوصة من بَيِّن المعايير النَّصِّيَّة الأخرى تتجلى في الجوانب الآتية^(٣):

- يفيد كثيراً في اختصار النَّصّ، إذ يمكن لمنشئ النَّصّ أن يأتي بكلمة واحدة تُنشِط كمّاً كبيراً من المعلومات، وتحلّ محلها في النَّصّ، ويستغني بها عن كل هذه المعلومات وبذلك يؤدي إلى اختصار النَّصّ. - يتعاطى مع النَّصّ كالجمله الواحدة، وذلك بسبب الروابط بَيِّن النصوص

وتماسكها الشديد الَّذِي يُحدثه السبك. - يؤدي إلى الفهم الصحيح للمفردات، وأحياناً تتعدد معانٍ معجمية لمفردات معينة في النَّصّ، يكون للسبك الدور الأكبر في إبراز تلك المفردات.

- يفرق بَيِّن ما هو نص وما هو غير نص؛ فالجمل إذا خلت من السبك لا تكون نصّاً، وإنّما توالٍ من الجمل لا تعطي معنى متكاملًا.

وبهذه الاعتبارات تتضح أهمية هذا المعيار؛ باعتباره من أكثر المعايير اتصالاً بالنَّصّ من حيث البنية السطحية للنَّصّ ذاته؛ ولذلك يرى سعيد بحيري بأنّه «عنصر جوهري في تشكيل النَّصّ وتفسيره»^(٤).

وسائل السبك

يتحقق السبك بوسائل نحويّة ومعجميّة تؤدي إلى وصف النَّصّ بِسمة الاستمرارية، أيّ تعاقب الأحداث اللُّغويّة الَّتِي نقرأها أو نكتبها أو نسمعها.

وتختلف هذه الأدوات وتلك الوسائل وأماكن عملها تبعاً لاختلاف القطاعات الَّتِي تعمل فيها تلك الأدوات الرابطة بَيِّن مكوناتها طولاً وقصرًا، كونها تفرض أنماطاً

(١) ينظر. أشرف عبد العال، معايير النَّصِّيَّة دراسة في نحو النَّصّ، ص: ٣٠.

(٢) صبحي الفقي، علم اللُّغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص: ٧٤.

(٣) ينظر. أشرف عبد العال، معايير النَّصِّيَّة، ص: ٣٢، ٣٣، ٣٤.

(٤) سعيد بحيري، علم لغة النَّصّ المفاهيم والاتجاهات، ص: ١٤٤.

من الوسائل التَّنظيميَّة على ظاهر النَّصّ - أي التشكيلية المعروضة من الكلمات^(١).

ومن ثَمَّ فإنَّ ما يمكن رصده من آليات السَّبك والحبك ولوازمه النَّصِّيَّة - لدى علماء النَّصِّيَّة - ينتظم في شبكة هرمية متداخلة الأنواع وأهمها^(٢):

- الاعتماد في الجملة / الاعتماد في ما بيِّنَ الجمل / الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة. الاعتماد في ما بيِّنَ الفقر أو المقطوعات / الاعتماد في جملة النَّصّ.

وتتحقق هذه الاعتمادات في أشكال متعددة وفق ترتيب الوقائع على المستوى السطحي للنَّصّ.

ومما تقدم يتضح أنَّ هناك علامات بيِّنَ المفردات تؤدي إلى تكوين جملة متماسكة لها معنى معين، هذه الجملة ترتبط مع

الجملة السابقة لها، واللاحقة، وبوسائل سبك تجعل من هذه الجمل فقرة، أو مقطوعة متماسكة منسبكة، وهذه الفقرة بدورها ترتبط مع الفقرة السابقة لها واللاحقة بوسائل سبك تجعل من النَّصّ نصّاً متماسكاً متلاحم الأجزاء، حيثُ تقوم تلك الوسائل على مبدأ الاعتماد النحوي^(٣).

المبحث الثاني: تجليات السَّبك الصَّوتيِّ في رسائل ابن زيدون النثرية

يتمثَّل السَّبك الصَّوتيُّ بتلك العلاقات الصوتيَّة المرتبطة بالموقف الكلامي، وطرقه القائمة كالنَّوْازي والتَّنْغيم وغيره وما تؤديه من انسجام وتأثير بيِّن المفردات والوقائع داخل النَّصّ. جاء هذا المبحث لدراسة كيفيَّة تجلِّي السَّرد في رسائل ابن زيدون حسب موضوع الخطاب فيها:

اسم الرسالة	الهزلية	الجدية	البكرية	المظفرية	العامة	الرسالة العبادية	ليلة نعيم
موضوع الخطاب	منافسة ابن عبدوس لابن زيدون في حببته ولادة	استعطاف الخليفة ابن جهور للخروج من السجن.	معانيته لصديقه أبي بكر بن مسلم وطلبه منه التوسط بينه وبين ابن جهور.	التودد إلى سيف الدولة أبو بكر والأفطس وطلبه منه الشفاعة لأحد أصدقائه.	التمهيد لقدمه لأرض إشبيلية وتهنئته لأبي عامر بن مسلم بولايتها.	يشفع فيها لأحد أصدقائه عند المعتضد بن عبَّاد ويعتذر عن رسالة سابقة	وصف فيها ليلة قضاه مع محبوبته ولادة.

(١) ينظر. إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النَّصّ، ص: ٧٠.

(٢) ينظر. سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأساليب اللسانية، ص: ٢٢٧.

(٣) ينظر. صبحي الفتحي، معايير النَّصِّيَّة، ص: ٣٦.

أولاً - التكرار

يُقصد بالتكرار إعادة العنصر اللفظي نفسه، أو مرادفه، أو شبه مرادفه، وفي ذلك نوعٌ من الربط بينَ الجمل التي يحدث فيها التكرار في إطار النصّ، وهو نوع من الربط الذي يقوم في حقيقته على مبدأ التشابه حين تتشابه الأشياء مع بعضها^(١).

والتكرار يسهم في تحديد القضية الأساسية في النصّ بمقتضى التأكيد على محتوى معين أو التركيز على الكلمات المفاتيح، ويُعدُّ التكرار من الظواهر التي ترتبط بالقدرة على الفهم؛ إذ يكون الفهم أسرع في حالة استخدام التكرار ولا تتوقف قيمته على تحقيق التماسك النصّي بينَ الجمل بل يغدو وسيلة إقناعيّة تسهم في ترابط النصّ دلاليّاً^(٢).

ويسهم التكرار وظيفياً في دعم التماسك النصّي من خلال قيامه بالوظائف الآتية^(٣):

١ - الاستمرارية: فالاستمرار في تكرار كلمة معينة يسهم في تتابع النصّ وترابطه.

٢ - من خلال الاستمرار والاطراد؛ حيثُ يسهم التكرار بربط الوحدات النصّيّة الكبرى بالوحدات النصّيّة الصغرى.

٣ - كثافة الكلمات المكررة داخل النصّ، فالكلمة الأولى تختلف عن الكلمة الثانية؛ إذ إنّ الكلمة المكررة تكتسب كثافة أعلى، ولذلك يسهم في نسج النصّ وتوكيده.

٤ - إعادة اللفظ تمنح مُنتج النصّ القدرة على خلق صورة لغوية جديدة؛ لأنّ أحد العنصرين قد يسهم في فهم الآخر.

٥ - يسهم التكرار في استيعاب الكلام، وفائدته تتمثل في أنّه يظهر تعانق الجمل بعضها ببعض.

وبذلك يمثل التكرار مكوناً أساسياً من مكونات النصّ النثريّ بشكل عام؛ حيثُ يُشكل ظاهرة مهمة في النثر الأندلسي، ويتجاوز هذا التكرار ذلك العصر من إطاره العادي إلى دائرة التكلّف والتّصنع ما يبعث على الملل والسّأم.

كما أنّ التكرار يُحقق الجرس الصّوتيّ - وهو موضوع بحثنا - بالكلمة نفسها والتي يُقصد بها إعادة العنصر اللفظي نفسه من غير أن يحدث فيه أي تغيير، ويكون تكراراً باللفظ والمعنى ويسميه النصّيون تكراراً تاماً أو محضاً^(٤).

(١) ينظر. محمد خطابي، لسانيات النصّ، ص: ٢٤.

(٢) ينظر. د. خالد المنيف، نوال بنت إبراهيم الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي مقارنة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات، مجلة أم القرى لعلوم اللغة وآدابها، العدد الثامن، مايو، ٢٠١٢م، ص: ١٣.

(٣) ينظر. المرجع نفسه، ص: ٢٥.

(٤) ينظر. جميل عبد الحميد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّيّة، ص: ٨٠.

وينشأ التكرار في بنية الرسائل ما بين إعادة العنصر اللفظي نفسه أو بعضه، من خلال الاشتقاق أو الترادف... على نحو يجعلنا على بصيرة من أمر هذه الظاهرة النصية في رسائل ابن زيدون؛ إذ تجري تبعاً لثنائية من المبادئ النصية وهما الثبات والاقتصاد اللغوي^(١).

وقد تشكل التكرار الصوتي للفظ نفسه في الرسائل ما بين تكرار الأداة وتكرار الحرف وتكرار الفعل وتكرار الاسم، فمن صور تكرار اللفظ نفسه في الاسم ما نجده من تكراره لاسم (السجن) في الرسالة البكرية على نحو قوله: «وصالحي من هذه الفتيا على النصف، بتأخير الإعذار، وتقديم السجن...» وكنث أول حبسي قد وضعت في السجن... فمنيت من مطالبة بعض من ياتمر الناظرون في السجن له ويسمعون منه... وتقدم إلى الموكل بالسجن... فأصعدت إلى غرفة في السجن أقنعني بها على خساستها... ومن ظلمة السجن مع السفلة والسقاط^(٢). فتكرار كلمة السجن عدة مرات في هذه الرسالة - وإن كان متباعداً - حمل طاقةً وظيفية مهمة في التماسك الدلالي إلى جانب التماسك الصوتي، وهو

تماسك يخلق الاستمرارية في ذهن المتلقي مع مروره بالنص؛ إذ يعيد إيقاع الكلمة المكررة في ذهنه ما فهمه من السياق السابق، ومن شأن هذا التكرار - لكلمة بعينها - أن يجعل من النص في إطاره العام «بؤرة التعبير الظاهرة للقارئ، وتكرار مثل هذه المفردات بعينها يؤكد على أهميتها في بناء المعنى كما يؤكد على محوريته»^(٣).

كما يمثل تكرار حرف السين الذي تكرر أكثر من عشر مرات في هذا النص إيقاعاً صوتياً فيه، والتكرار الصوتي للحرف أو للعنصر المفرد بعينه يسهم إلى جانب السبك الصوتي بالتطابق بين الوحدات اللغوية والرؤية القصصية للكاتب؛ حيث أنها تمثل مقصده في تبليغ الرسالة عن طريق التكرار سواء كان التكرار متقارباً أو متباعداً، فلكل منهما خصائصه وظروفه، وإذا تتابعت الوحدات المكررة فإنها تؤكد على مغزى الكاتب في الحدث والإسراع ولفت الانتباه^(٤)، كما يسهم في المحافظة على الحدث حاضراً في ذهن المتلقي حتى نهاية النص. ومن الشواهد على ذلك ما نجده في متن

(١) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: ٣٠٣.

(٢) الرسالة البكرية، ديوان ابن زيدون ورسائله النثرية، ص: ٧٢٨-٧٣٥.

(٣) ينظر. حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص: ١٠٨.

(٤) ينظر. المرجع نفسه، ص: ٣٧.

الرَّسالة الهزليَّة من تكرار لفظ (أَنْكَ) كما في قوله: «وَأَنْكَ راسلتني مستهدياً من صِلتي ما صَفرت منه أيادي أمثالك، وَأَنْكَ ستنزل عنها إليَّ ... وَأَنْكَ انفرد بالجمال... وَأَنْكَ الذي أقام البراهين... ووضع القوانين... وَأَنْكَ فتحت لأبي معشر طريق الفضاء... وَأَنْكَ لو شئت خرقت العادات ... وَأَنْكَ المقول فيك كل الصيد جوفَ الفَرَا»^(١) فقد تكررت (أَنْ) وضمير المخاطب (الكاف) مرات عدة من بداية الرسالة إلى نهايتها - الذي قصد به ابن عبْدُوس - وهذا التَّكرار الصوتي ربط أجزاء النَّصِّ حول شخصية ابن عبْدوس وأسهم في استمرار المعنى وجعله أكثر حضوراً في وعي المُتلقِّي، والتكرار بشكل عام يأتي لأغراض متعددة أهمها، التعظيم والتهويل والتهديد والتوكيد والسخرية»^(٢)، وَقَدْ زاد هذا التكرار من ترسيخ القضية الأساسية في الرَّسالة وهي السخرية من ابن عبْدوس الذي لا يرتقي مع كل من ذكرهم في النَّصِّ، إضافة إلى تحقيق التكرار للتماسك النَّصيِّ مِنْ خِلالِ إعادة الجَرْس الصوتي للفظ نفسه مرات عدة على مستوى سطح النَّصِّ بشكل عام.

ويتجلى التَّكرار الصَّوتي أكثر في بُنية الرَّسائل من خلال بعض الألفاظ التي ساقها المرسل في جمل متتابعة - ليست متباعدة - على نحو ما نجده في تكرار لفظ (إِنَّمَا) في قوله: «وَأَنْ مالِك بن نويرة إِنَّمَا رَدِفَ لك، وعروة بن جعفر إِنَّمَا رحل إليك، وكليب بن ربيعة إِنَّمَا حمى المرعى بعزتك، وجساساً إِنَّمَا قتله بأنفك، ومهلهلاً إِنَّمَا طلب ثأره بهمك، والسموئل إِنَّمَا وفَّى عن عهدك، والأحنف إِنَّمَا اجتبى في بردك، وحاتمأ إِنَّمَا جادَ بوفرك، ولقي الأضياف ببشرك، وزيد بن مهلهل إِنَّمَا ركب بفخذك، والسُّليك بن السلكة إِنَّمَا عدا على رجلك، وعامر بن مالك إِنَّمَا لاعب الأسيئة بيدك، وقيس بن زهير إِنَّمَا استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إِنَّمَا استضاء بمصباح ذكائك، وسحبان وائل إِنَّمَا تكلم بلسانك وعمرو بن الأهمم إِنَّمَا سحر ببيانك»^(٣) إذ تكررت الأداة (إِنَّمَا) خمس عشرة مرة في النَّصِّ، ومن شأن هذا التكرار أن يؤكد مقصدية ابن زيدون في النَّيل والسخرية من ابن عبْدوس، وهو مع هذا التَّكرار يعتمد على أسلوب إيقاعي مُوحَّد؛ حَيْثُ يُذكر الاسم ثُمَّ اللفظ المتكرر (إِنَّمَا) ثُمَّ الفعل وَقَدْ ساعد هذا التَّركيب على زيادة الإيقاع

(١) الرسالة الهزلية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٦٤٩

(٢) د. خالد المنيف، د. نوال بنت إبراهيم الحلوة، اثر التكرار في التماسك النصي، ص: ٢١.

(٣) الرسالة الهزلية، ديوان ابن زيدون ورسائله الثرية، ص: ٦٣٩

الصَّوْتِيَّ فِي النَّصِّ، وَالَّذِي أَسْهَمَ بِدَوْرِهِ فِي السَّبْكِ الصَّوْتِيَّ، وَجَعَلَ النَّصَّ بِنْيَةً مَتَمَّاسِكَةً يَتَّأَزَّرُ مَعَ بَعْضِهِ.

وبهذا المنطق نجد أن للتكرار أَهْمِيَّةً كبرى في إعانة الْمُتَلَقِّي عَلَى الْفَهْمِ وَالتَّأْوِيلِ وَهُوَ إِجْبَازٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، لِأَنَّهُ يُحَقِّقُ الْاِقْتِصَادَ اللَّغَوِيَّ فِي النُّصُوصِ وَيَتَجَنَّبُ الْإِسْهَابَ وَالْإِطْنَابَ، وَالتَّكَرُّارَ الصَّوْتِيَّ لِلْفِظِ بَعِيْنِهِ أَوْ بِأَشْكَالِهِ الْمُخْتَلِفَةِ يَحَقِّقُ التَّمَّاسِكَ الصَّوْتِيَّ مِنْ جِهَةٍ فِي الْبِنْيَةِ اللَّفْظِيَّةِ فِي النُّصُوصِ، وَتَحْقِيقَ التَّمَّاسِكَ التَّرْكِيبِيِّ وَالدَّلَالِيِّ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

ثَانِيًا: السَّجْعُ

السَّجْعُ مُصْدَرٌ سَجَعَ الرَّجُلُ سَجْعًا إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَهُ فَوَاصِلُ كَفَوَاصِلِ الشَّعْرِ، وَالسَّجْعُ «حَدُّهُ أَنْ يَقَالَ: تَوَاطَوْا الْفَوَاصِلُ فِي الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ»^(١).

وَيَعْتَبَرُ السَّجْعُ فِي الدِّرَاسَاتِ النَّصِّيَّةِ مِنَ الْعُنَاوِرِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا بِشَكْلِ أُسَاسٍ فِي صَنْعِ تَمَاسِكٍ صَوْتِيٍّ قَائِمٍ عَلَى الْمِمَاطِلَةِ

المَعْقُودَةِ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنْ النِّهَايَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي يَخْلُقُهَا السَّجْعُ تَعْطِي الدَّعْمَ الصَّوْتِيَّ الَّذِي يَشْكَلُ بِدَوْرِهِ وَسِيلَةً لِلْإِقْنَاعِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ الْمَسْجُوعَتَيْنِ عِلَاقَةٌ دَلَالِيَّةٌ، وَالاِقْتِنَاعُ عَنْ طَرِيقِ السَّجْعِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الثَّابِتَةِ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ.^(٢)

وَيَجْرِي عَلَى ابْنِ زَيْدُونَ فِي اسْتِعْمَالِهِ لِلْسَّجْعِ مَا يَجْرِي عَلَى كُتَّابِ عَصْرِهِ؛ حَيْثُ أَخَذَ الْكُتَّابُ الْأَنْدَلُسِيُّونَ بِالْكِتَابَةِ الْمُتَأَنِّقَةِ، فَأَكْثَرُوا مِنْ اسْتِخْدَامِ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ فِي رِسَائِلِهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ الْكُتَّابُ الْمَشَارِقَةُ؛ إِذْ كَانَ السَّجْعُ مِنْ أَكْثَرِ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ شَيْوعًا فِي عَصْرِهِمْ؛ حَيْثُ مَثَلُ سِمَةٍ زَخْرَفِيَّةٍ فِي كِتَابَاتِهِمْ.^(٣)

وَقَدْ أَسْرَفَ ابْنُ زَيْدُونَ فِي اسْتِعْمَالِ السَّجْعِ فِي كِتَابَاتِهِ، فَجُلُّ رِسَائِلِهِ إِنْ لَمْ نَقُلْ كُلُّهَا قَائِمَةٌ بِشَكْلِ أُسَاسِيٍّ عَلَى السَّجْعِ بِأَنْوَاعِهِ: التَّرْصِيعُ وَالْمُطَرَّفُ وَالْمُتَوَازِي،^(٤) وَهُوَ أحيانًا سَجْعٌ مُبَالِغٌ فِيهِ يَقُومُ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّكْلِيفِ، عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُهُ فِي

(١) أَبُو الْفَتْحِ ضِيَاءُ الدِّينِ ابْنُ الْأَثِيرِ، الْمِثْلُ السَّائِرُ فِي أدَبِ الْكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ (ت: ٦٣٧)، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ، بَيْرُوت - ١٤٢٠، ١/ ١٩٥.

(٢) يَنْظُرْ. حَسَامُ أَحْمَدُ فَرْجٌ، نَظَرِيَّةُ عِلْمِ النَّصِّ رُؤْيَا مَنَهْجِيَّةً فِي بِنَاءِ النَّصِّ الثَّرِي، ص: ١١٧.

(٣) يَنْظُرْ. فَايزُ عَبْدِ النَّبِيِّ فَلَاحُ الْقَيْسِيِّ، أدَبُ الرِّسَائِلِ فِي الْأَنْدَلُسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهَجْرِيِّ، فَايزُ عَبْدِ النَّبِيِّ فَلَاحُ الْقَيْسِيِّ، دَارُ الْبَشِيرِ، الْأُرْدُنْ، ط ١، ١٩٨٩م، ص: ٣٤٦.

(٤) التَّرْصِيعُ: هُوَ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْمِمَاطِلَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ فِي الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، أَمَّا الْمُطَرَّفُ فَيَكُونُ فِي الْمِمَاطِلَةِ فِي التَّفْقِيَةِ الَّتِي يَنْتِجُ عَنْهَا الْاِخْتِلَافُ فِي الْوِزْنِ. يَنْظُرْ: مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفُ بْنُ أَحْمَدَ السَّكَاكِيِّ (ت: ٦٢٦ هـ)، تَحْقِيقُ: عَبْدِ الْحَمِيدِ هِنْدَاوِي، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوت، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، ص: ٤٣١.

قوله: «وكسرى حمل غاشيتك وقيصر رعى مَاشيتك والاسكندر قتل داراً في طاعتك واردشير داهم ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك...»^(١). ويبدو أن تكلف ابن زيدون في السجع يعود إلى طبيعة العصر وروح المنافسة في الرُخفة البديعية؛ إذ كان الإتيان بالسجع مجالاً يتبارى فيه كل كاتب لإظهار ثراء لغته ومفرداته وتمكنه من استخدام أي منها، ووضعها في صور جميلة تظهر معناها بالنظر إلى غيرها مما يماثلها شكلاً ومعنى.

ويجري السجع بأنواعه في رسائل ابن زيدون، ومن الشواهد على السجع المُرصع ما نجده في قوله: «ظاهر الوسّاس، منتن الأنفاس، كثير المعاييب، مشهور المثالب، كلامك متممة، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفو، وضحكك قهقهة، ومشيك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة»^(٢). إلى جانب التوازي يطرد السجع في هذا النص بكثافة، ففي كل الجمل السابقة يأتي حرف الروي مجانس للكلمة الذي قبلها مع اختلاف الحرف في كل جملة من الجمل، والسجع في هذا النص متقارب

من حيث التتابع الجملي وهذا التقارب بدوره «يؤكد على رغبة الكاتب في الحفاظ على أكبر درجة من التماثل الصوتي، والذي يؤثر في الإيجاب في قبول القارئ له»^(٣).

ومن النماذج على السجع المَطرف ما نجده في قوله: «ولما اطرّد هذا النثر لحسن اتساقه، ولذ مساقاة، هزّت النظم أريخية جُذِب لها بعنانه، وعارضه بها في ميدانه؛ وأبت أن ينفرد النثر بلقاء الحاجب ومشافهته، ويستبد بأن تلمح غرته، وتُخدم بالحضور حضرته»^(٤) اختلف السجع في هذا النص من حيث التقارب والتتابع الجملي؛ حيث أتى متباعداً - إلى حد ما - بين الكلمات، وعدم التقارب في السجع، جعل النص يبدو أكثر سلاسة وانسياباً؛ إذ لا يشد ذهن المُتلقي بقوة في التركيز على حرف الروي ويجعله محاصراً في تكرار حرف واحد متقارب؛ بل يجعل له متنفساً يخرج فيه القارئ من التكلف الحاصل الناتج عن حشر حروف الروي وتقاربها في الكلمات، إلى رحاب أوسع مع المحافظة على حرف الروي الذي من شأنه أن يخلق تماسكاً نصياً من خلال السبك الصوتي بحرف الروي المتكرر مع نهاية كل جملة

(١) الرسالة الهزلية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٦٣٧.

(٢) الرسالة الهزلية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٦٥٨.

(٣) ينظر. حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص: ١١٨.

(٤) الرسالة المظفرية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٧٦٠.

وكلّ ذلك كان له أثرٌ في التماسك النصّي من حيث التّركيز الصّوتي على حرف الرّوي وتكراره.

وللسّجع وظائف أخرى إلى جانب وظيفة التّماسك الصّوتيّ فبالإضافة إلى جعله النّصّ قطعة واحدة فنية على مستوى من السلاسة والوضوح لما يعود به على النّصّ من جمال وروعة ورقة وإحساس؛ فهو يبعد الملل والسّأم والشّعور بالفتور، ويسهم في دخول الأدب موقع القلب والوجدان.^(١) ويظهر التّماسك الصّوتيّ في السّجع من خلال ما يحدثه «من أجراس متناغمة توفر محطات ومفاصل في سيرورة الرّسالة الكلاميّة تتيح للمرسل التّحكم في الأداء وللمتلقي التّحكم في الاستقبال»^(٢). وفي ضوء كلّ ما سبق يمكن القول إنّ السّجع بأنواعه، خلّق تآلفاً موسيقياً ودالياً بيّن أجزاء النصوص؛ ما جعل بنيتها أكثر تماسكاً وتلاحماً.

ثالثاً: الجناس

الجناس هو تشابه الكلمتين في اللفظ،

ومنه التام والناقص، أما التام فهو عدم تفاوت المتجانسين باللفظ من حيث أنواع الحروف وأعدادها وأشكالها وترتيبها، أما الجناس الناقص فهو عدم اتفاق بيّن الكلمتين واختلافهما إما بزيادة أو نقص^(٣).

والجناس يساهم في إظهار الجرس الموسيقي والتّناغم الصّوتيّ، وله علاقة معنويّة إذا كانت الكلمة المتجانسة متسقة ملائمة في موقعها من حيث التّركيب، ولها تأثير في نفس القارئ، ولا تتوقف وظيفة الجناس على التأثير في المتلقّي فحسب بل «يتعداه إلى ربط الكلام مع بعضه ببعض»^(٤).

ويجري على الجناس ما يجري على السّجع من حيث تأثيره على المتلقّي من حيث الإيقاع الصّوتيّ، وابن زيدون في ذلك يحاول أن يمزج بيّن السّجع والجناس والتّنغيم ليخلق نوعاً من التّناغم في الجرس الموسيقيّ، لكن دور السّجع أكثر بروزاً من الجناس من حيث الإيقاع الصّوتيّ بشكل عام وذلك «لما يحدثه السّجع من تنغيم

(١) ينظر . فائد محمود محمد سلمان، فن الرّسائل عند سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة، دراسة فنية موضوعية موازنة، فائد محمود محمد سلمان، ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، ٢٠١١م، ص: ١١٠-١١٢.

(٢) الرسالة الهزلية قراءة في الوجه الآخر، ص: ٢٤٤.

(٣) يوسف بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ٤٢٩/١.

(٤) سهل ابن هارون وعمرو ابن مسعدة، فن الرّسائل النثرية، ص: ١٠٦.

وموسيقى وإيقاع يعوض عن استخدام الجنس»^(١).

وإذا كان السجع يظهر الموسيقى من خلال نهاية التراكيب، ليخلق لدى المتلقي إحساساً بالانتلاف مع النص؛ فإن الجنس يظهر بعض الكلمات المهمة التي يرغب الكاتب في تكثيف تواجدها الدلالي على نحو ما نجده في قول ابن زيدون: «فكيف وقد زارتنى رسم خدمتك، وزهاني وسنم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل في سماطك، وقمت المقام المحمود على بساطك»^(٢).

فالجنس الناقص في الكلمات (رسم، وسنم) (زارني، زهاني) (أبليت، البلاء) (قمت، المقام) (سماطك، بساطك) قائم على انتظام الحركة الصوتية بين ازدواج السجع والجنس المتمثل في حرف الكاف في نهاية كل جملة، وهذا الازدواج بين السجع والجنس المتمثل في حرف الكاف في نهاية كل جملة، يؤكد أن الإيقاع الصوتي في الجنس الناقص يؤدي إلى تكثيف المعنى ويزيل الرتبة عن السامع، مما يسبك النص، ويقوي نسجه.

من الشواهد الأخرى على الجنس

ودوره في التماسك الصوتي ما نجده في قوله: «والميل عمن يميل إليك وهلاً كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاه لمن رضاه لك»^(٣)؛ إذ تتضح ألفاظ الجنس في هذا النص في (الميل - أميل) (هواك - وهواه) (رضاك - رضاه) ويتعاقب السجع فيها إلى جانب الجنس وذلك من خلال حرف الخطاب الكاف الذي تكرر في النص خمس مرات (إليك، هواك، فيك، رضاك، بك)، وهذا التعاقب بين السجع والجنس مثل دعماً للعنصر الصوتي، وكان له أثره ووقعه لدى القارئ، فحرف الكاف المتكرر في النص أظهر الكلمات المتجانسة دلاليًا، ومن ثم فإن مشاركة السجع والجنس في العمل من خلال ظاهرة صوتية واحدة يخلق نوعاً من المقاربة الصوتية؛ حيث يتوهم القارئ أن الكاتب يقصد مجرد التجنيس بين كلمتين فإذا به يرى ما بينهما من سجع يدعم ذلك المعنى عنده ويجعله أشد بروزاً، كما أن هذه الشبكة من عناصر السبك الصوتي تؤدي دوراً وتطبيقاً آخر، هو أن ما يقوم به الكاتب انعكاس لمقدرة لغوية وبلاغية^(٤).

ويجري في رسائل ابن زيدون مزجه

(١) فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص: ٣٥٥.

(٢) الرسالة الجدية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٧٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٧١١.

(٤) ينظر. حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص: ١٢٠.

بَيْنَ الجَنَاسِ وَالتَّنْغِيمِ وَالتَّبَاقِ وَالسَّجْعِ عَلَى
نَحْوِ مَا نَجَدَهُ فِي قَوْلِهِ: «وَاللَّهُ لَقَدْ أَظْهَرَ
مَدَحَهُ، وَأَضْمَرَتْ نُصْحَهُ، وَتَمَمَّتْ عَلَى
الصِّيَاغَةِ قَبْلَهُ، وَجَرِيَتْ مِلءَ الْعِنَانِ إِلَى
الاعْتِلَاقِ بِهِ، أَسْقِيَهُ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وَدِّي،
وَأَكْسُوهُ السَّابِغَ مِنْ بُرُودِ حَمْدِي»^(١).

يَتَجَلَّى الْجَنَاسُ فِي النَّصِّ فِي أَلْفَاظٍ
(أُظْهِرَتْ / أَضْمَرَتْ) (السَّائِغَ / السَّابِغَ)
وَيَتَجَلَّى التَّبَاقُ فِي الْأَلْفَاظِ نَفْسَهَا (أُظْهِرَتْ /
أَضْمَرَتْ)؛ إِذْ إِنَّ الظَّهْرَ ضِدَّ الْإِضْمَارِ،
إِضَافَةً إِلَى التَّنْغِيمِ الَّذِي يَحْشُرُهُ الْكَاتِبُ فِي
النَّصِّ بِكَثَافَةٍ مِنْ خِلَالِ الْحَرْفَيْنِ (الصَّادِ /
وَالسَّيْنِ) حَيْثُ أَنَّ أَصْوَاتَ الصَّفِيرِ فِي
النَّصِّ طَغَى إِيقَاعُهَا عَلَى الْأَصْوَاتِ الْآخَرَى
فِي الْأَلْفَاظِ (الصِّيَاغَةِ / اسْقِيَهُ / السَّائِغَ /
أَكْسُو / السَّابِغَ) إِلَى جَانِبِ حُرُوفِ أُخْرَى
تَكَرَّرَتْ فِي النَّصِّ كَالْمِيمِ وَالْيَاءِ وَالذَّالِّ
وَكُلُّهَا سَاهَمَتْ فِي إِظْهَارِ الْجَرَسِ الصَّوْتِيِّ،
وَالْتَّنَاعَمِ الْمَوْسِيقِيِّ، وَالَّذِي خَلَقَ بِدَوْرِهِ
إِحْسَاساً لَدَى الْمُتَلَقِّيِّ، بِالْإِتِّلَافِ وَالتَّمَّاسِكِ
فِي النَّصِّ.

وَهَكَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ الْجَنَاسَ - إِلَى جَانِبِ
السَّجْعِ وَعُنَاوَرِ الْإِيقَاعِ الْآخَرَى - أُسْهِمَ
فِي خَلْقِ الْإِيقَاعِ الصَّوْتِيِّ مِمَّا يَحْقُقُ سِبْكَاً

نَصِيّاً مُتَنَاعِماً عَلَى مَسْتَوَى سَطْحِ النَّصِّ فِي
الرَّسَائِلِ النَّثْرِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْحِفَافِ
عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْاسْتِقْرَارِ السَّمْعِيِّ لِلْقَارِئِ،
يُسَاعِدُهُ فِي ذَلِكَ سُرْعَةُ تَتَابُعِ الْأَخْبَارِ
وَإِدْرَاكِهَا، وَالْمُتَلَقِّيُّ يَسْتَهْوِيهِ أَوَّلُ مَا
يَسْتَهْوِيهِ الْبَعْدُ الْمَوْسِيقِيَّ لِلُّغَةِ خُصُوصاً إِذَا
كَانَ الْأَدَاءُ الصَّوْتِيُّ لِلنَّصِّ يَسِيرُ عَلَى خَطِّ
إِيقَاعِيٍّ مُنْتَظَمٍ فِي مَقَاطِعِ النَّصِّ وَهَذَا النُّظَامُ
الصَّوْتِيُّ بِمَا لَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْثِيرِيٍّ قَادِرٍ عَلَى
التَّوَازِي بَيْنَ الْكَاتِبِ وَالْقَارِئِ مَعاً فِي لَحْظَةٍ
تَلْبِيَةِ أَحْتَاجَاتِهِ الْعَاطْفِيَّةِ وَالذَّهْنِيَّةِ^(٢).

رَابِعاً: التَّوَازِي

يَقُومُ مَفْهُومُ التَّوَازِي مِنْ مَنْظُورِ عِلْمِ
اللُّغَةِ النَّصِّيِّ عَلَى التَّقْطِيعِ الْمَتَسَاوِيِّ لِأَقْسَامِ
الْخُطَابِ بَغَضِ النَّظَرِ عَنْ تَوَافُقِهَا وَاخْتِلَافِهَا
الْمَعْنَوِيِّ، وَيَقْصَدُ بِالتَّوَازِي التَّنْزِيقَ
الصَّوْتِيَّ وَاللَّفْظِيَّ وَالْإِيقَاعِيَّ فِي الصِّيَاغَةِ،
أَوْ هُوَ تَكَرُّرُ الْبُنْيَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ مَعَ مِلْئِهَا
بِمَحْتَوَى مُخْتَلَفٍ فَيُعَادُ اسْتِخْدَامُ سِلَاسِلِ
مُتَشَابِهَةٍ^(٣)، وَيَحْتَلُّ مَفْهُومُ التَّوَازِي مَكَانَةً
مُرْكَزِيَّةً فِي نَظَرِيَّةِ جَاكَبْسُونِ، كَمَا أَنَّ
التَّوَازِي يَظْهَرُ فِي الشُّعْرِ أَكْثَرَ مِنَ النَّثْرِ
كَوْنَهُ مُوزُوناً مُقْفًى مُتَوَازِياً رَأْسِيّاً، وَيَكُونُ
فِي الْمَنْثُورِ كَذَلِكَ وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ خُلْدُونِ إِلَى

(١) الرِّسَالَةُ الْجَدِيدَةُ، دِيوَانُ ابْنِ زَيْدُونِ وَرِسَائِلُهُ، ص: ٧٤٩.

(٢) يَنْظُرُ. حَسَامُ أَحْمَدُ فَرْجٌ، نَظَرِيَّةُ عِلْمِ النَّصِّ رُؤْيَا مَنَهْجِيَّةً فِي بِنَاءِ النَّصِّ النَّثْرِيِّ، ص: ١٢١.

(٣) عَزَّةُ شَيْلِ مُحَمَّدٍ، عِلْمُ لُغَةِ النَّصِّ، ص: ١٣.

أن التّوازي أصله في الشّعْر لكنّه لا يقتصر عليه حيث يقول: «كما يكون في المنظوم يكون في المنثور، ويعتبرونه الموازنة والمشابه بين القطع غالباً، وقد يقيّدونه بالأسجاع وقد يرسلونه»^(١).

وقد كثّر الحديث عن التّوازي وعن أنواعه في دراسة النّصّ، فمنهم من جعل مستوياتها في التّوازي (النّحوي والصّرفي والصّوتي والدّلالي) ومنهم من حدد بنيته الشكليّة في (التّوازي التّرادفي والطبائقي والتركيبي) لكن التّوازي الصّوتي هو أقصى مظهرات الإيقاع وهو تعادل في المباني والعبارات والجمال^(٢)، ولأن التّوازي يمثل الإيقاع؛ نجد أن هناك خلطاً بين التّكرار والسّجع والتّنعيم، فيدرسها البعض تحت أفق التّوازي ولذلك وجدنا من يدرس السّجع في إطار التّوازي بـ (توازي حروف الروي) والتّكرار بالتّوازي التّكراري والتّنعيم بالتّوازي الجزئي، إلى جانب من جعل السّجع ثلاثة أقسام: التّرصيع والمطرّف والتّوازي، وبعضهم يجعله في التّوازي التّام والتّوازي النّاقص^(٣).

وقد سبقت الإشارة إلى السّجع بنوعيه

(المرصع والمطرّف) وتجاوزنا القسم الثالث (التّوازي) إلى هذا المبحث، وذلك لأنّ التّوازي يشكل - بحد ذاته - مرتكزاً أساسياً في رسائل ابن زيدون، ومن الشّواهد على ذلك ما نجده في قوله: «فلماً طوى النّهار كافوره، ونشّر اللّيل عبيره، أقبلت بقدر كالقضيّب، وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الحجل، فملنا إلى روض مدبج، وظلّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودرّ الطلّ منثور، وجيب الرّاح مزّور، فلماً شبّنا نارها، وأدركت منّا ثأرها، باح كلّ منّا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني إقحوان الثّغور، ونقطف رمان الصّدور...»^(٤).

في هذا النّصّ يتجلى دور التّوازي التركيبي من خلال التقطيعات الصوتيّة في التّراكيب القصيرة، هذا التّوازي الصوتي يخلق التماسك والتّلاحم من خلال ربط الجمل مع بعضها وتضافرها في ما بينها وذلك «بعطف الجملة على الجملة المتشابهة لها؛ حيث يكون التركيب أكثر انسجاماً، وأكثر قبولاً»^(٥).

(١) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، (ت: ٨٠٨)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: درويش جويدي، ط١، ١٩٩٩م، ص: ٥٨١.

(٢) د فريد عوض حيدر، فصول في علم اللّغة التطبيقي، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص: ٢٦٨.

(٣) ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النّصّ رؤية منهجية في بناء النّصّ النثري، ص: ١٠٤.

(٤) رسالة ليلة نعيم، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٧٧٩.

(٥) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الأردن، ط٤، ص: ٤٤٥.

ورسائل ابن زيدون تقوم بالأساس على التّوازي التّركيبي - كما أشرنا - ويبدو أن ولع ابن زيدون بالتّوازي كان جلياً ظاهراً؛ حيثُ مال إلى ما جنح إليه كُتّابُ عصره من حيث الزّخارف اللفظيّة وأشكالها السّطحية البديعيّة كافة، وقد بُني هذا التّوازي في الرّسائل على التّقارب الصّوتيّ بينَ الجمل والتّراكيب، وتماثُل حرف الرّوي، وتكون هذه التّراكيب المتوازية بحرف العطف ومن دونه، وقد تنوعت المقاطع المتوازية في الرّسائل بينَ المقاطع القصيرة والمقاطع الطويلة، وأحياناً يمتزج أدائه بينَ الجمل القصيرة والطويلة في الفقرة الواحدة على نحو ما نجده في قولة: «أما بعدُ أيّها المصاب بعقله، المورطُ بجهله، البينُ سقطه، الفاحشُ غلظه، العائرُ في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقطُ سقوطَ الذبابِ على الشرابِ، المتهافت تهافت الفراشِ في الشّهابِ، فإنّ العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوص، وإنك راسلتي مُستهدياً من صلتني ما صُفرتُ منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلّتي لما قد أعيت فيه أنوفُ أشكالك، مرسلأ خليلتك مُرتادة، مُستعملاً عشيقتك قوادة، كاذباً نفسك في أنّك ستنزّل عنها إليّ، وتخلّف بعدها عليّ»^(١).

في هذا النّصّ نلاحظ اختلافاً وتسلسلاً

في بُنية التّوازي التّركيبيّ، من حيثُ طول الجملة الأفقيّة وقصرها؛ إذ يبدأ الكاتب بالجمال القصيرة، ثمّ المتوسطة، ثمّ الطويلة، ثمّ الأكثر طولاً، ويتجلى ذلك بشكل أوضح من خلال الجدول الآتي:

التراكيب القصيرة	التراكيب المتوسطة	التراكيب الطويلة	التراكيب الأطول
المصاب بعقله	العائر في ذيل اغتراره	الساقط سقوط الذباب على الشراب	وإنك راسلتي مستهدياً من صلتني ما صُفرت منه أيدي أمثالك
المورط بجهله	الأعمى عن شمس نهاره	المتهافت تهافت الفراش في الشهب	متصدياً من صلتني ما قد أعيت فيه أنوف أشكالك
البين سقطه	فإنّ العجب أكذب		
الفاحش غلظه	ستنزل عنها إليّ		
	وتخلّف بعدها عليّ		

والى جانب هذا التّسلسل في استعمال التّوازي التّركيبيّ يلحظ الباحث أن الكاتب يكثر في رسائله من استخدام التّراكيب الاسميّة في بداية الجمل بشكل يكاد يكون مطرداً، كما يتضح ذلك من خلال التّراكيب في الجدول السابق في الألفاظ الاسميّة (البين/ الفاحش/ المورط/ الساقط/ المتهافت/ الأعمى... الخ).

(١) الرسالة الهزلية، ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: ٦٣٥.

والمتمأمل في هذا النص يجد أن التوازي الجزئي (التنغيم) يجري إلى جانب التوازي التركيبي؛ حيثُ تتكرر بعض الحروف بعينها على نحو ما نجده من تكرار حرفي السين والقاف في (السَّاقط سقوط) وتكرار حروف التاء والهاء والفاء في (المتهافت تهافت)، وقد تآزر هذا التوازي الجزئي مع السَّجع والجناس في الجملتين السَّابقتين ومن شأن «تكرار التراكيب نفسها على مسافات متساوية أن يخلق إيقاعاً تألفه إذن السَّامع، ويقوي هذه الإيقاع بَيْنَ أواخر التراكيب المتشابهة، وهذا يؤكد على أن عناصر السبك لا تأتي منفصلة في الإطار النصي الفعلي»^(١).

يمكن القول من كل ما سبق إن التوازي خلَقَ تناغماً صوتياً لدى المُتلَقِّ، هذا التناغم أدى بدوره إلى تماسك النص مع بعضه من خلال ترجيعات الصوت المتكررة والتي تشكل منه نغماً موسيقياً موحداً يصل السَّابِقَ باللاحق، ومن هنا تحقق التماسك النصي بتمازج الأجراس الموسيقية في النص إلى جانب التوازي الصوتي الذي مثل محور الارتكاز ومركز الثقل في السبك الصوتي في الرِّسَائِل بِإِطَارِهَا العام.

الخاتمة:

- إنَّ عودة لما تقدم في سياق الوقوف على المُنجز المعرفي الذي تحقق للدراسة، يجعلنا أمام طائفة من النتائج هي كالآتي:
- تمثل رسائل ابن زيدون من أهم عيون النثر في الأدب الأندلسي
- تعددت وسائل السبك في رسائل ابن زيدون، واختلفت بنية ورودها وتوظيفها من نصٍّ لآخر.
- مثَّل عنصر السبك الصوتي في الرِّسَائِل عنصراً أساسياً في بنائها بشكل عام؛ إذ يشيع استعمال التكرار والسَّجع والجناس والتوازي، وكلها أسهمت في عمليَّة تماسك النص من حيث التأثير الموسيقي المتلاحق الذي يُحدثه الصوت في المتلقي.
- كان للسبك الصوتي وظائف أخرى في الرِّسَائِل إلى جانب وظيفته في التماسك النصي، تَمَثَّلَتْ في جعل النص النثري قطعة واحدة متينة على مستوى عالٍ من السلاسة والوضوح، لما يعود به على النص من جمال وروعة ورقة وإحساس؛ حيثُ يبعد عنه الملل والسأم.
- لقد مثَّل عنصر السبك الصوتي في

(١) حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، ص: ١٠١.

الرسائل النثرية عنصراً أساسياً في بنائها بشكل عام؛ إذ يشيع استعمال التكرار والسجع والجناس والتوازي، وكلها أسهمت في عملية تماسك النص من حيث التأثير الإيقاعي الموسيقي الذي يُحدثه الصوت في المتلقي ويبعد هذا الأخير عن الملل.

المصادر

- ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٦٧م.

المراجع القديمة

- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (ت: ٦٣٧)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت- ١٤٢٠هـ.
- ابن خلدون. المقدمة، (ت: ٨٠٨)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: درويش جويدي، ط ١، ١٩٩٩م.
- ابن خلكان، أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٠٠م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الياضي، ط ٧، ١٩٩٨م.
- السكاكي، مفتاح العلوم، (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

المراجع الحديثة

- إبراهيم الفقي، صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكية)، صبحي، دار قباء للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٢١ هـ. ٢٠٠٠م.
- أبو غزالة، إلهام، مدخل إلى علم لغة النص، (تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند وولفانج دريسلر)، علي خليل حمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٩م.
- أحمد فرج، حسام، نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري) مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م. نسج النص (بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً)، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- الصبيحي، محمد، مدخل إلى علم لغة النص، الدار العربية للعلوم، ط ١، ٢٠٠٨م.
- القيسي، فايز، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، الأردن، ط ١، ١٩٨٩م.
- بحيري، سعيد، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٤م.
- بحيري، سعيد، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، كتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥.
- شبل محمد، عزة، نظرية علم النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- حيدر، فريد، فصول في علم اللغة التطبيقي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨م.
- خطابي، محمد، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠٦م.
- عبد البديع، أشرف، الدرس النحوي النصي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩.
- عبد المجيد، جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

- عفيفي، محمد، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
- عفيفي، أحمد، نحو النص إنجاز في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤م.
- مصلوح، سعد، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ٢٠٠٣م.

المراجع المترجمة

- دي بوجراند روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- فان دايك، تون، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٣م.

المراجع المترجمة

- Introduction to Text Linguistics, Robert Alain De Beaugrand and Wolfgang Dressler: Longman, London and New York 1981.

الدوريات والرسائل العلمية

- المنيف، د. خالد، ونوال، د. الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي مقارنة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات مجلة أم القرى لعلوم اللغة وآدابها، العدد الثامن، مايو، ٢٠١٢م.
- عياشي منذر، النص (ممارساته وتجلياته، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد (٩٦-٩٧)، ١٩٩٢م.
- لعلوحي، فهمية، علم النص تحريات في دلالة النص وتداوله، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العددان ١١ - ١٢، لشهري يونيو ويوليو، ٢٠١٢م.
- ابرابر، سميرة، مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز، رسالة ماجستير، جامعة عنابة، الجزائر، ٢٠١١م.
- سلمان، فائد، فنّ الرّسائل عند سهل ابن هارون وعمرو ابن مسعدة، دراسة فنية موضوعية موازنة، ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، ٢٠١١م.
- عبد العال، أشرف، معايير النصّية دراسة في نحو النص، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.
- شاهين، عبد الخالق، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، إشراف د. عبد الزهرة، ماجستير جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠١٢م.

التنظيمات المدنية المحليّة في طرابلس قبل الدستور ودورها في ما يشبه مجالس الإدارة والبلديات بعد صدور الدستور

غنى مراد

يُسمّى بـ «مجلس إدارة ومجلس بلديات»، فحاجة السكان لحل مشاكلهم الخاصة بمدينتهم ساهم في إيجاد نوع أو شكل آخر من التنظيم تمثل بـ «التنظيم المُدني المحلي». قام هذا التنظيم المدني المحلي بمهام البلدية في يومنا الحاضر، فاهتمّ بكل مشاكل الناس في حياتهم العادية من توفير الماء وتنظيف الشوارع؛ وإنارتها وحراسة المدينة والترميم والتعمير وغيرها من الأمور التي تتعلق بالخدمات العامة.

إلا أنّ نظام الحكم والإدارة في مدينة طرابلس منذ بداية العهد العثماني وحتى صدور الدستور، قد مرّ بمراحل عدة من حيث طبيعة العلاقة بين الحكام المحليين والرعايا، حيث أنّ هذه العلاقة هي انعكاس لوضع السلطة المركزية في استنبول. فقد

لم يكن المجتمع المدني قبل صدور الدستور عام ١٨٧٦م يعيش في ظلّ غابة معدومة القوانين والأسس، بل كان هناك دستور مستمد من الشريعة الإسلامية ينظّم حال الرعيّة بمختلف جوانبها، ولاسيّما من النّاحية الإدارية. حيث ورّعت الدولة العثمانية صلاحيات حكم الولايات وإدارتها قبل صدور الدّستور بين ثلاث مؤسسات يُكمّل بعضها بعضاً هي: السلطة الإدارية المدنية، والسلطة التنفيذية العسكرية، والسلطة القضائية. وقد مثّلت تلك السّلطات في الولاية سطوة الدّولة، وقدرتها على الحكم، وحفظ الأمن، وتطبيق الشّريعة، والقانون على الأهالي^(١).

ولا بدّ من الإشارة؛ أنّه لم يكن يوجد في المدينة في مرحلة ما قبل التنظيمات ما

(١) عادل مناع، لواء القدس في أواسط العهد العثماني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٩٥.

الإشراف على المدينة أو من حيث الخدمات العامة، وذلك من خلال اعتمادي الأكبر على وثائق سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس والتي تعود للفترة المتعلقة بموضوع البحث أي القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. إذ كانت هذه السلطات تعبر عن مصالح أفرادها كالطوائف الحرفية ومشايخ الحارات والطوائف الدينية التي كان لكل منها تقاليد وأعراف حالت دون إهمال حقوق أفرادها أو خرق قواعدها.

أولاً: التنظيم المحلي من حيث الإشراف على المدينة

كانت الدولة العثمانية تُدرك مدى صعوبة إدارة الولايات البعيدة عن مركز العاصمة «إستنبول»، لذلك عمدت في إدارة ولاياتها إلى طوائف وهيئات محلية حلّت مكان الإدارة المحلية وأدت دور الوسيط بين المجتمع والسلطة، متجاهلة مدى تأثير نفوذها السياسي في المستقبل وكل ذلك مقابل جني الضرائب لميزانيتها. ذلك أنه مع التدهور التدريجي للنظام العثماني «اكتسبت هذه الأشكال التنظيمية القديمة أهدافاً سياسية أكثر تحديداً، كما ازدادت قوة أنشطتها في الحياة الحضرية أكثر فأكثر»^(٢). واتخذت هذه الطوائف والهيئات

كان القرن السادس عشر فترة ذهبية بالنسبة إلى السلطة المركزية التي أحكمت قبضتها على حكم الولايات، أما القرن السابع عشر فنلاحظ أنّ التنظيمات أو الهيئات المحلية، بدأت تزيد من سلطتها ونفوذها. إلا أنّ القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فإنّ النُخب المحليّة وصلت إلى الحكم وأصبحت شريكة فيه وأدت دوراً أساسياً في الإدارة المحليّة، وكانت الوسيط بين الدولة والمجتمع المحلي الذي قاداته ومثله^(١). لذلك ستركز البحث حول القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وذلك لبروز النخب المحلية ومشاركتها بالحكم. ويُعتبر النظام الذي اعتمدته الدولة العثمانية في حكم الولايات غاية في المرونة والتّطور سواء من النّاحية الإدارية، أو السياسية، أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية أو غيرها من الجوانب المهمة التي شملت جميع مناحي الحياة العامة والخاصة.

أما الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على هذه النظم التي لم تلقَ الاهتمام من قبل الدارسين إلا قليلاً، هذا وتناولتُ التنظيم المحلي المدني في مدينة طرابلس في فترة ما قبل الدستور سواء من حيث

(١) عادل مناع، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢) A.H.Hourani, *The Changing Face of the Fertile Crescent in the XVIIIth century*, Studia islamica, 8, 1957, P. 97.

أشكالاً وأنواعاً عديدة: منها طوائف مهنية حرفية (مشايخ الطوائف)، وأخرى طوائف دينية (شيخ الطائفة)، وأخرى جغرافية (مشايخ الحارات والمحلات). وقد تمتع المجتمع في ظل هذه الهيئات والطوائف بنوع من الاستقلالية بعيداً عن أعين الدولة.

أ - الهيئات الحرفية ومشايخها

كان المجتمع الطرابلسي مجتمعاً حرفياً إنتاجياً تجارياً، وذلك من خلال حجم إنتاج المدينة الصناعي وقيمة صادراتها التي تعكس حجم النشاط الاقتصادي فيها^(١). وقد دخل معظم السكان في العمل الحرفي لكسب العيش وتأمين حاجاته. حتى صُنِّفت العائلات نسبةً إلى الحرفة التي اشتهرت بها، فحافظت على نسبها من خلال توريث المهنة من الأب إلى الابن، وتعليم الأبناء أسرار المهنة أو الصنعة وعدم كشفها للآخر.

وتميّزت هذه الهيئات الحرفية بوجود نظام خاص لكل حرفة على حدة، وهو ما يُعرف بـ «نظام الطوائف»، حيث كان لكل حرفة أعراف وتقاليدها تتبعها وتسير عليها،

وتُشبهه في تنظيمها اليوم ما يُعرف بـ «النقابات». كما كان لكل منها شيخ مسؤول عنها يُطلق عليه «شيخ الطائفة». وكان لزاماً على أبناء كل حرفة أن يختاروا واحداً منهم ليكون مسؤولاً عليهم ويُعرف بـ «شيخ الحرفة» ويكون معتمداً من قبل السلطات المحلية في المدينة. فلا تقوم أية طائفة بعمل شيء ما، من دون علمه أو معرفته، وعلى الطائفة أخذ مشورته والانقياد بها وعدم مخالفتها^(٢).

وكان يتم اختيار شيخ كل حرفة من قبل معلمي الحرفة، ويقوم أعضاء هيئة الحرفيين المنتسبين إلى الطائفة بانتخابه^(٣)، وهم الأساتذة المتقدمون فيها، وبعد إجراء مناقشات ومداولات في صفات المرشحين يتم إجماع الآراء على انتخابه. وإذا لم يتفق المجتمعون على اختيار الشيخ، يُرفع الأمر إلى شيخ المشايخ، الذي يقوم بتعيين أحد المرشحين. ويشترط في اختياره أن تتوفر فيه بعض الصفات منها: اتقان الحرفة، الأمانة والاستقامة والعفة بغض النظر عن طائفته الدينية^(٤).

نقلاً عن أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م، ص ٩٨.

(١) Adel Ismail: Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche-Orient du XVIIIe siècle à nos jours, T. 3, Editions des œuvres politiques et historiques, Beyrouth - Lebanon, 1976, P. 316, 350-351, 356, 363-364, 365, 369, 373, 397-398.

(٢) سجل ٢١، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سجل ٤، ص ١١٤؛ سجل ٧، ص ١٢ و ٩٧ و ١٠٤.

ولا يُعد هذا الاختيار رسمياً ما لم يحضر الشيخ المُنتخب، وأعضاء هيئة الاختيارية إلى المحكمة ويقرون أمام القاضي باختيارهم، فيقوم القاضي عندها بتنصيب الشيخ رسمياً، وبإصدار حجة بالواقعة تُسجل في سجل المحكمة الشرعية، إذ ليس بمقدوره القيام بمهامه ما لم يأذن له القاضي بذلك^(١). وفي بعض الأحيان يحضر الشيخ المعزول والشيخ الجديد المُنتخب، ويبدى أعضاء هيئة الاختيارية أسباب عزلهم للشيخ القديم، ويقرون باختيارهم للشيخ الجديد^(٢).

كطائفة «البازارباشية» حيث كان يتوجب على كل من يتعاطى كار السمانة مبلغ مئة قرش في الشهر لشيخ حرفته، ومن لا يدفع هذا المبلغ يتم إقفال دكانه^(٣)، وإلى جانب شيخ الحرفة كان هناك منصب أعلى في التنظيم الحرفي هو «شيخ المشايخ»، الذي كان يتم انتخابه بحضور مشايخ الحرف، الذين يحضرون ويقررون انتخابه أو عزله، ولا يعتبر انتخابه رسمياً إلا بموافقة الحاكم الشرعي على قرارهم، ويُفترض في شيخ المشايخ أن يكون ذا عفة وديانة واستقامة^(٤).

لقد تنوعت مهام «شيخ الحرفة» التي صبّت بلا شك في مصلحة الدولة وإدارتها، حيث كان عليه السهر على مصالح الحرفة بالعدل والاستقامة، والإشراف على جودة الإنتاج وسعر السلع المنتجة، وفضّ الإشكالات داخل الحرفة، وجمع الضرائب المتوجبة على أفراد طائفته، ونرى أحياناً في بعض الوثائق أنّ هناك طوائف كانت تدفع لشيخوخها مبالغ معينة مقابل خدماتهم

ونجد هذا التنظيم الحرفي ودقته في عملية جمع الضرائب والذخائر والعوارض التي كانت مفروضة على أصحاب الحرف والمحلات، حيث كانت هذه الضرائب تُحدّد حسب دخل كل حرفة على حدة وبمعرفة شيخها^(٥). ولتسهيل عملية جمع الضرائب كانت كل حرفة تتجمّع في سوق معيّن لها يحمل اسمها مثل: سوق العقادين، وسوق العطارين، والحدادين، والبازركان،... إلخ^(٦).

(١) المصدر نفسه.

(٢) سجل ٤، ص ١١٤.

(٣) سجل ١٦، ص ٧٨.

(٤) سجل ٧، ص ٩٧.

(٥) سجل ٦، ص ١٨٩؛ سجل ١٠، ص ٢٧٠؛ سجل ١٢، ص ٢٤٧؛ سجل ١٥، ص ١١٦؛ سجل ٢٣، ص ٢٧٨؛ سجل ٢٤، ص ٧٧ مكرر؛ سجل ٢٦، ص ١٣٧.

(٦) سجل ٤، ص ١٥١؛ سجل ٧، ص ٢٩؛ سجل ٩، ص ١٣٢؛ رقم ١٤، ص ١٨ و ٣٥٧؛ سجل ١٥، ص ٧٧؛ سجل ٢٢، ص ١٦؛ سجل ٢٣، ص ٢٣١؛ سجل ٢٤، ص ٢٠.

فهذا التنظيم الحرفي لم يمارس نشاطه اجتماعياً وإدارياً فقط وإنما أيضاً فرض نشاطه جغرافياً فوجدت كل طائفة نفسها ضمن رقعة جغرافية معينة، ما سهّل على شيخ الحرفة عمله بسبب تجمع أفراد حرفته في سوق معيّن، وكذلك مكنته من مراقبة عمل أفرادهِ وجودة إنتاجهم وتحديد الأسعار^(١).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ نظام الطوائف هذا، تمتّع بالتّماسك والوحدة بين جميع الأفراد من دون تمايز في الطائفة الدينية، فأهل الذمة من الحرفيين شاركوا زملاءهم من المسلمين في العمل وفي الأماكن الإنتاجية كالحوانيت والطواحين والأفران وأعمال البناء وغير ذلك ما يدل على أنّ الإنتاج كان محلياً، كما تساندوا مالياً في حال تعسر أحد من أهل الطائفة على دفع ما عليه من الديون.

وقد شجعت الدولة وساعدت على استمرار هذا التنظيم الحرفي لكونه أداة مريحة لجمع الضرائب ومراقبة النشاط الاقتصادي، فما كان على الدولة سوى

إصدار تعليماتها إلى «شيخ الحرفة» الذي يقوم بدوره بنقلها وشرحها للأفراد، ونلاحظ لجوء هذا التنظيم إلى السلطة الشرعية في حال فشل الشيخ في فصل الخلافات القائمة بين الطوائف^(٢)، أو في حال أخلّ شيخ حرفتهم بشروط ونظام الحرفة^(٣).

ونجد أيضاً دوراً للحاكم الشرعي في تثبيت أو عزل شيخ أو تاجر الحرفة، فالطائفة تختار من تجده مناسباً، ليكون شيخاً أو تاجراً عليها، لكنّ شرعيته لا تحتسب من دون موافقة الحاكم الشرعي عليه، وإعطائه الإذن بممارسة مهامه^(٤)، أو إصدار أمر عزله متى دعت الحاجة^(٥)، وفي كلا الحالتين نجد أنّ الأمور لم تكن بهذه البساطة ذلك أنّ الحاكم الشرعي كان بحاجة إلى موافقة أغلبية أهالي الطائفة وكان مقيداً في أحكامه بتقاليد كل طائفة وأعرافها. وقد يكون لجوء الطوائف إلى الحاكم الشرعي ربما لإعادة ضبط استقلالها الداخلي والحفاظ على تنظيماتها وتقاليدها.

(١) عبد الكريم رافق، مظاهر التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني، بحث نشر في أعمال المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦-١٩١٨، الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، طرابلس، ١٩٩٥م، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) سجل ٤، ص ٢١٢؛ سجل ١٧، ص ٢١١.

(٣) سجل ٤، ص ٧٦.

(٤) سجل ٤، ص ١١٤ وص ١٣٤؛ سجل ٧، ص ١٢ و ٩٧ وص ٢٨٤؛ سجل ٢١، ص ٢٩٠.

(٥) سجل ٦، ص ١٢٢؛ سجل ٨، ص ٢١٥؛ سجل ١٦، ص ٤٩.

بوجود هكذا تنظيم، ذلك أنّ امتناع أحد الأشخاص عن الدفع كان يتسبب بضرر للملتزم ولخدمته لكونه يعجز عن دفع المتوجب عليه لجهة مال الخزينة^(٤).

ب - مشايخ المحلات

أدى مشايخ المحلات دوراً هاماً في ما يعرف اليوم بمهام «البلديات»، فقد ساهم هؤلاء في تنظيم المدينة إدارياً وجغرافياً، فكانت المحلة عبارة عن خلية اجتماعية أساسية في تحقيق إطار للسكان على المستوى الجغرافي، مثلما فعلت الطوائف الحرفية على المستوى المهني، وذلك لأنّ الجانب الاجتماعي من حياة السكان كان يدور كله في إطار الحي^(٥).

ومن صلاحيات شيخ المحلة أن يكون مسؤولاً عن أهالي محلته وأمنهم، فهو يمثلهم، ويدافع عنهم ويسعى لتأمين حوائجهم، والفصل بين الخصوم، ومصالحتهم مع بعضهم. كما ونجد الشيخ

وختاماً يمكن القول إنّ هذا التنظيم ساهم في تنمية الأفراد على مستوى الطائفة الحرفية، ولكنّه خدم بالدرجة الأولى السلطة، حيث كان من الأفضل للدولة أن تتعامل مع شيخ طائفة من أن تتعامل مع أفراد^(١)، كما احتاجت الدولة إلى خدمات هذه الطوائف ومنتجاتها الحرفية في أوقات السلم والحرب، وطلبت رسمياً من هذه الطوائف اختيار من يقدم هذه الخدمات مقابل أجر. كما احتاجت إليهم في مواسم الحج، وخدمات النقل والتموين، حيث كانت الطوائف الحرفية تتحاسب مع الوالي على ثمن ما تقدمه للجردة^(٢) من بقسمات (كعك) وزيت وأرز وشعير وحبال وملابس مما يلزم للحجاج، كما حافظت الدولة على المال الميري المتعلق بهذه الطوائف، حيث كان مشايخ الطوائف الحرفية يجمعونها من الأفراد ويسددونها إلى ملتزم الحرفة^(٣). ولم يكن التهرب من دفع الضرائب ممكناً

(١) عيسى سليمان أبو سليم، الأصناف والطوائف الحرفية في مدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠٠٠م، ص ١١٨-١١٩.

(٢) الجردة هي القافلة التي تحمل المؤن إلى قافلة الحاج وهي في طريق عودتها من الحجاز، وذلك عندما كان يقودها والي طرابلس. وقد ألحقت الدولة ميناء اللاذقية بباشوية طرابلس ليستعين الباشا بإيراداتها في إعداد الجردة التي يقودها. نقلاً عن أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥ هـ (١٧٤١-١٧٦٢م)، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط ١، ١٩٥٩م، هامش ص ١١.

(٣) سجل ٢٣، ص ١٤١، حيث كان على الدلال باشي دفع الميري المرتب لجهة الاحتساب كل شهر بشهره يجمعها من الدلالين؛ وأيضاً سجل ٢٢، ص ١٢، حيث تعهّدت طائفة البازارباشية بدفع المتوجب عليها للبازارباشي الجديد.

(٤) سجل ١٠، ص ٢٨٤.

(٥) أندريه ريمون، مرجع سابق، ص ٢٢١.

موجوداً في شكوى المحلة ضد أحد الكبار من الأمراء أو الشيوخ أو ما شابه، وبالمجمل هو المرجع والملجأ لهم عند الحاجة، فهو مارس دور «المختار» في أيامنا هذه. وكان يعاونه أيضاً أعيان المحلة عند أي اتفاق جماعي، وعلى مشايخ المحلات القيام بشرح أوامر السلطة للسكان، ومن صلاحياتهم أيضاً تحصيل الضرائب المفروضة على هذه الأحياء^(١)، كما كان يتم فرض المبلغ الضريبي على كل حي وفقاً لعدد وحداته الضريبية (المساكن الأسرية)، هذا بالإضافة إلى الضرائب العارضة التي كانت تفرض على سكان الحي، فشيخ المحلة شكّل جسراً بين أهالي الحي والسلطة.

فقد كانت مدينة طرابلس مقسّمة إلى

أربع وعشرين محلة، وعليه كان هناك أربعة وعشرون شيخاً يتم اختيار كل واحد منهم من قبل أهالي محلته، وقد بقي عدد المحلات أربع وعشرين محلة طوال القرن الثامن عشر حسب سجلات المحكمة الشرعية^(٢). هذا بالإضافة إلى أنّ كل محلة كانت تقسم إلى أحياء وكل حي بدوره يضم شبكة من الأزقة الفرعية، وللحفاظ على أمن المحلات كان يتم إغلاقها ليلاً بواسطة «بوابات»، وأشارت الوثائق إلى أنّه كان يوجد في مدينة طرابلس إحدى عشرة بوابة مقسّمة على الأربع وعشرين محلة، باعتبار أنّ لكل محلتين بوابة، كما وأشارت الوثيقة إلى موقع البوابات بالنسبة إلى المحلات^(٣).

(١) سجل ٧، ص ٢٤٦؛ سجل ١٥، ص ٤٦؛ سجل ١٧، ص ٥٠.

(٢) سجل ٧، ص ١٧٧. وهذه الوثيقة تعود لسنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م.

المحلة	شيخ المحلة	سوقة الخيل	السيد أحمد
زقاق الحمص	علي بيك	إلى طرق	محمد شرافه
القناتي	حسن قلموني	مسجد خشب وفضل الله	السيد محمد
الثوري	محمد رقية	الحجارين	أبو سنه
عديمي المسلمين	عبيد	عديمي نصاري	السيد أحمد
قواسير	عبد الله	اليهود	داوود
النبانة	الحاج محمد عبيد	باب الحديد	حيدر
التربعة	سيد محمد	الصباغة	حسن
المزابيل	محمد شبتجي	الرمانة	محمد بن أحمد
ساحة عميرة	مصطفى بلوكباشي	يعقوبية	حميدان
قبة النصر	الحاج شعبان	العوينات	السيد أحمد
الإي كوز	ميخايل	الناعورة	ديب
بين الحسرين	الحاج شعبان مصري		

(٣) سجل ٧، ص ١٧٧. وهي على الشكل التالي:

وقد شكّلت هذه المحلات أيضاً أمناً واستقراراً لأصحاب الطوائف الدينية، حيث نجد أنّ كلّ طائفة اتخذت محلة خاصة بها ونُعتت باسمها كمحلة عديمي المسلمين ومحلة عديمي النصارى ومحلة اليهود. ولا شك في أنّ هذا التّجمع كان يُعطي أهل الطائفة شعوراً بالراحة والأمان، وفي الوقت نفسه، نجد المجاورة بين هذه المحلات الثلاث ما يعطينا دلالة على وجود للعيش المشترك، وعدم عيش الطوائف الدينية في عزلة.

وقد أدى شيخ المحلة نوعاً من الرقابة باعتبار محلته مكاناً مغلقاً، فكل أهاليها معروفون لديه فرداً فرداً، فالشخص الغريب كان يلفت نظرهم ويدركونه سريعاً، وهذا أمر طبيعي ما دام سكان كل حي مسؤولين عن أي اضطراب قد يحدث والذي قد

يعرضهم إلى عقوبات أو غرامات مالية. ونلاحظ ذلك من خلال سجلات المحكمة الشرعية عند دخول الأشقياء والزوّار إلى المحلات ولجوء أهالي المحلة إلى المحكمة الشرعية لإبراء ذمتهم من وجود أي من هؤلاء في محلّتهم^(١).

ونظراً لكون مشايخ المحلات هم صلة الوصل بين الوالي والأهالي، وهم المسؤولون عن كل إخلال بأمن المحلة، فكان يتم استدعائهم وتكليفهم بالسيطرة التامة على الأهالي، واستخدام الوسائل اللازمة لاستتباب الأمن. ففي سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م نتيجة دخول الأشقياء والزوّار إلى المحلات، تعطلت الأعمال والمصالح، وغادر أهالي المدينة بعيالهم، فاضطر الوالي إلى إصدار أمر إلى القاضي بجمع أئمة المحلات ومشايخ الحرف

البوابات	المحلات
الحجارين	النوري والحجارين والقناتني
الدباغة	اليهود والتريبعة
الغنشاء	إق طرق وزقاق الحمص والأبي كوز
دار السعادة	الصباغة والعوينات
القلعة	القواسير والمزابيل
التيانة باب حلب	التيانة وساحة عميرة
باب الحديد	باب الحديد نائين والرمانة ثلث
الطواحين	اليعقوبية والناعورة
باب بيروت	سوقة الخيل ومسجد الخشب
عقبة الحمراء	بين الجسرين وقيّة النصر
الأمير محمد علي	عديمي المسلمين وعديمي النصارى ثلثين

(١) سجل ٧، ص ١٧٩ إلى ص ١٩٥.

ليقوموا بتطبيب خاطر الأهالي للعودة^(١).

كما أنّ هذا التنظيم بالنسبة إلى المحلات ساهم بممارسة أهلها لدور الرقابة على الآداب والسلوك، ففي سنة ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م حضر جماعة من تفاق المسلمين إلى مجلس الشرع الشريف، وأخبروا بمواجهة الرجل مصطفى الزيات وزوجته الحرمة خديجة، والرجل طرفه وزوجته صفية، بأنهم من الأشرار المضرين للناس بأيديهم وألسنتهم وأنهم جميعاً لا يتحاشون ممن يدخل عليهم من الأجانب والأغراب وهم مستحقو الإزالة، فأفتى الحاج عثمان أفندي المفتي آنذاك بطرابلس الحاضر بالمجلس بقوله يجب إزالتهم، حكمنا بقتلهم حسماً لمادة الفساد ولأجل راحة العباد ورفعاً للضرر العميم عن المسلمين^(٢). وأيضاً في السنة نفسها حضر تفاق مقبولو الشهادة إلى المجلس الشرعي وشهدوا بمواجهة الرجل المدعو أحمد بأنه رجل مضر يؤذي الناس بيده، ولسانه فأفتى الحاج عثمان أفندي مفتي طرابلس آنذاك بقتله^(٣).

وختاماً يمكن القول إنّ هذه المحلات هي جزء لا يتجزأ من النظام الإداري الذي

كان متبعاً في الولاية، فهي لا تختلف بتنظيمها عن الطوائف الحرفية، حيث اعتمدت الدولة العثمانية على مشايخها لإحكام الأمن والسيطرة وجباية الضرائب.

وإلى جانب مشايخ المحلات كان هناك مشايخ القرى، حيث كان لكل قرية شيخ مسؤول، ويكون شيخ القرية بمثابة «المختار» حسب مفهوم اليوم، وهو المسؤول والمتكلم عن أهالي قريته^(٤)، ويشترك بتوزيع الضرائب عليهم بناءً على معرفته بمحصولهم^(٥)، وكانت المحاسبة تبدأ أولاً بين مشايخ القرى وملتزم المقاطعة بموجب حجة إقرار تُظهر بوضوح أسماء شيخ كل قرية، قبل أن يقوم الملتزم بتسليمها إلى أمين الناحية^(٦)، كما كان يتم تسجيل ما بقي في ذمتهم لصالح الملتزم، وما تبقى عليهم من ذمم يأخذون به سند وصول من الملتزمين^(٧).

ج - رجال الدين

يُعتبر المفتي شخصية محلية من الأهالي يتم اختياره من بين العلماء ويعينه في منصبه شيخ الإسلام في استامبول. ويشترط في من يتولى الإفتاء أن يكون من

(٥) سجل ٩، ص ٨٧.

(٦) سجل ١١، ص ٢٣ و ٣٦.

(٧) سجل ١١، ص ١٢ و ١٥.

(١) سجل ٧، ص ٢٦٤.

(٢) سجل ١٥، ص ٣٨.

(٣) سجل ١٥، ص ١٣٨.

(٤) سجل ٢٠، ص ١٢٥.

أهل الفضل، والخلق، والدين، واللياقة، والأهلية لهذا المنصب، وكان المفتي يظل في منصبه طوال حياته حتى إنهم احتكروا هذه الوظيفة ونقلوها لأبنائهم، ومن مهمة المفتي إصدار الفتاوى في مختلف القضايا، حيث حظي المفتي بنفوذ كبير لدى الأهالي إذ كان بيته مفتوحاً للجميع، حيث كانوا يحضرون إليه مسبقاً لمعرفة كيفية تحصيل حقوقهم أو تبريرها قبل الترافع والتداعي أمام الحاكم الشرعي^(١).

وكان الحاكم الشرعي يعتمد على المفتي في بعض القضايا التي تحتاج إلى فتوى شرعية، فيستند في فتواه على أحكام الشريعة الإسلامية وعلى مذهب أبي حنيفة النعمان وعلى رأي أئمة الدين، وبناءً على جواب السادة الحنفية كان يتم الفصل في القضايا المطروحة أمام القاضي^(٢). وقد تنوعت هذه القضايا: فمنها قضايا تتعلق بأمر الوقف، وأخرى تتعلق بالإرث والنفقة والطلاق وغيرها.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الحاكم

الشرعي يطلب موافقة المفتي في القضايا التي تتعلق بالقتل للأشخاص الأشرار، بالإضافة إلى شهادة جماعة من تفاق المسلمين، فبعد صدور فتوى القتل كان الحاكم الشرعي يأمر بالحكم^(٣). ففي سنة ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م حضر تفاقاً مقبولاً الشهادة إلى المجلس الشرعي وشهدوا بمواجهة الرجل المدعو أحمد، أنه رجل مضر يؤذي الناس بيده ولسانه، فأفتى الحاج عثمان أفندي مفتي طرابلس آنذاك بقتله^(٤).

هذا الدور المحلي الذي حظي به المفتي كان كافياً لتحريك ثورات العامة، ضد الظلم والفساد الذي مارسه بعض الولاة. ففي سنة ١٧٣٠م قامت انتفاضة ضد إبراهيم باشا العظم الذي قام باحتكار البضائع والحبوب، شارك فيها الأهالي واليرلية المحلية ورجال الدين، وقاموا بمهاجمته في السرايا^(٥).

كل المعطيات السابقة عن دور المفتي جعلته بمثابة هيئة محلية ضرورية للمجتمع المدني، وإلى جانب المفتي هناك دور محلي

(١) خالد زيادة، الصورة التقليدية للمجتمع المدني، قراءة منهجية في سجلات محكمة طرابلس الشرعية في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثالث، طرابلس، ١٩٨٣م، ص ٩٧.

(٢) سجل ٥، ص ٥٦؛ سجل ١٥، ص ٣٤-٣٥-٣٦ و ٦٢ و ٩٠-٩١ و ٩٥-٩٦؛ سجل ١٨، ص ٦٣-٦٤؛ سجل ١٩، ص ٧٠-٧١ و ٩١-٩٢.

(٣) سجل ١٥، ص ٣٨.

(٤) سجل ١٥، ص ١٣٨.

(٥) عبد الغني عماد، مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية، دار الإنشاء، طرابلس، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٣٢-١٣٣.

لكل من السادة الأشراف والعلماء. الأشراف أو السادة هم المنتمون إلى سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهي السلالة الوحيدة الأرستقراطية الدم - إن صحَّ التعبير - في التاريخ الإسلامي، لأنَّ الانتماء إلى هذه الفئة كان بالوراثة عن طريق النَّسب، وقد اكتسب الأشراف منذ بداية الإسلام امتيازات ومكانة اجتماعية واقتصادية خاصة. فقد تميَّز هؤلاء بملابسهم وخصوصاً غطاء الرأس واللون الأخضر المخصَّص لهم دون غيرهم، بالإضافة إلى امتيازات أخرى تتعلَّق بالضرائب والأوقاف وعدم تجنيدهم في الخدمة العسكرية^(١). وقد أشار إليهم السلاطين بـ «فرع الشجرة الذكية»^(٢).

وكان للعائلات الشَّريفة نقيب يتكلم باسمهم، ويحافظ على مصالحهم وامتيازاتهم أمام الدولة والأهالي، وكان يتم تعيين نقيب الأشراف في طرابلس من قبل نقيب أشراف الممالك العثمانية، وتشير

السجلات إلى تعيين النقيب في هذه الوظيفة لمدة طويلة بل ويورثها إلى الأبناء، وقد تولى هذه الوظيفة في طرابلس عبد القادر أفندي بركة من سنة ١٧٤٧م إلى سنة ١٧٦٢م، ثم نقلها إلى ابنه السيد علي أفندي بن عبد القادر بركة^(٣).

وقد حظي نقيب الأشراف بمكانة رهيبة اجتماعية ودينية عالية، وكان يتم تعيين بعض النقباء في وظيفة الإفتاء أو نائب القاضي^(٤)، وعلى الرغم من أنَّ هذه الوظيفة لم تكن رسمية، لكنها كانت جزءاً لا يتجزأ من جهاز الإدارة والحكم نظراً لتعدد مسؤولياتها وصلاحياتها، فمن صلاحيات النقيب الحكم بين الأشراف، ومراقبة استعمال غطاء الرأس الأخضر للأشراف، وتكثُر سجلات المحكمة الشرعية بهذا النوع من الوثائق^(٥)، والتحقق من الأشراف لإعفائهم من الضرائب وعدم خروجهم إلى الحروب، وإطلاعهم على العوارض السلطانية التي تلحق أهالي الحرف والمحلات^(٦). كما كان الوالي يعهد إلى

(١) عادل مناع، مرجع سابق، ص ١٦٩؛ وأيضاً سجل ١٥، ص ١٠٠.

(٢) سجل ٢٣، ص ١٣٢.

(٣) سجل ٩، ص ٦٢؛ سجل ١٠، ص ٢٧٠؛ سجل ١٣، ص ٣٦ و ١٣٦؛ سجل ١٦، ص ١١٧؛ سجل ١٧، ص ١٣٦ و ١٥٤؛ سجل ٢٢، ص ٢٣٩.

(٤) سجل ٩، ص ٦١؛ سجل ٢٣، ص ١٣٢. وتشير الوثيقة الثانية أنَّ السيد علي أفندي بركة من الأشراف وهو مفتي طرابلس سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م.

(٥) سجل ١٥، ص ١٠٠؛ سجل ١٧، ص ١٦.

(٦) عمر تدمري، وثائق نادرة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس، مؤسسة المحفوظات الوطنية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٣٩١.

نقيب الأشراف صيانة ونظام أهل المدينة في حال حدوث عصيان وخروج عن الطاعة. ففي سنة ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م وجّه والي طرابلس بيورلدي إلى نقيب الأشراف فيها السيد عبد الرحمن أفندي بركه زاده بسبب توجهه إلى اللاذنية لأجل نظامها وصيانة سكانها^(١).

ويمكن القول إنّ المهمات الملقاة على عاتق العلماء ومنهم الأئمة والخطباء والمدرسين والوعّاظ والقراء، منحتهم مكانة اجتماعية واحتراماً من قبل الأهالي. فلم يكتفوا بهذه الوظائف بل أشارت السجلات إلى اختلاط الأشراف والعلماء بالحياة المدنية وامتلاكهم مصالح اقتصادية، ففي إحدى الوثائق تضمنت مرسوماً سلطانياً لميرميران طرابلس عن تحديد كمية الطحين للفرن التابع لأحد الأشراف^(٢). كما ومارس الأشراف والعلماء الحرف ولاسيما حرفة القصابة وامتلكوا حوانيت لبيعها أعفيت من الضرائب^(٣)، وكان الوالي يحدّد لهم رؤوس

الغنم للذبح^(٤)، ويحاسبهم القصاب باشي كغيرهم من أهالي حرفة القصابة على ما جلبه لهم من اللحم^(٥). كما تولى الأشراف مناصب عدّة كنظارة البيمارستان^(٦) والعتارباشية^(٧).

وبالنظر إلى سجلات المحكمة الشرعية نجد العديد من الفرمانات التي تبدأ بحضور المفتي والعلماء ورجال الدين إلى المجلس الشرعي أو إلى ديوان الوالي، والطلب منهم إبلاغ أو تنبيه الرأي العام لتوجيهات وقرارات معيّنة، ما يعطينا صورة واضحة عن مشاركة رجال الدين ودورهم في الإدارة المحلية^(٨).

د - العسكر

أقصد بالعسكر هنا الإنكشارية اليرلية التي تشكّل عناصرها من السكان المحليين، حيث أصبح بإمكان العامة الدخول إلى هذا السلك الإنكشاري نظراً لما يكسبهم من امتيازات، فقد كان لانخراط أرباب الحرف بالإنكشارية اليرلية مفاعيل عديدة، أبرزها

(١) سجل ٧، ص ٢٨٤.

(٢) سجل ٢٣، ص ١٣٢.

(٣) سجل ٩، ص ٦٠ و ١٥٣؛ سجل ١٢، ص ٣؛ سجل ١٤، ص ١٤٠؛ سجل ٢٢، ص ٢١.

(٤) سجل ٢٣، ص ١٣٢.

(٥) سجل ١٠، ص ٣٠؛ سجل ١٤، ص ٩٤؛ سجل ٢٢، ص ٢١.

(٦) سجل ٨، ص ٢٨.

(٧) سجل ٢١، ص ٢٩٠.

(٨) سجل ٦، ص ١٠٨؛ سجل ١٩، ص ١٨١ و ١٨٥؛ سجل ٢٥، ص ١٥٣؛ سجل ٣٦، ص ١ و ٤٦ و ٤٩ و ٧٧ و ١٤٧؛ سجل ٣٧، ص ٤؛ سجل ٤٧، ص ١٣؛ سجل ٤٩، ص ٢٢ و ٣٣ و ٧٤؛ سجل ٥٠، ص ٤١ و ٤٤.

أنَّ عقاب المخالفين من أعضاء الطوائف أصبح معقداً، فهناك قانون قديم ينص على عدم معاقبة الإنكشارية إلا على أيدي ضباطهم. وكان هذا القانون لا يزال سارياً على الرغم من أنَّ رجال الطوائف الحرفية المنتسبين إلى الإنكشارية لم يكونوا جنوداً إلا بالاسم. لهذا كان القاضي يضطر أن يسلم إلى ضباط الإنكشارية من يمثل أمام محكمته متهماً ببعض المخالفات، كما أنَّ هذا الانخراط قلل من صلاحية مشايخ الحرف والنقباء الذين لم ينتسبوا لأوجاق اليرلية، وبالتالي لم يعودوا قادرين على إيقاف الأعضاء المخالفين لقواعد حرفتهم دون الرجوع إلى سلطة أخرى هي الإنكشارية.

ولعله من أبرز الأسباب الداعية لانخراط أرباب الحرف في «اليرلية»، هو توفير الحماية والتغطية، للقيام ببعض المخالفات التي تنعكس ربحاً سريعاً، هذا بالإضافة إلى بعض الامتيازات التي يكتسبها الحرفي، كإعفائه من بعض الضرائب، والمكانة الاجتماعية التي تتدعم لديه بعد انتسابه إلى قوة لا يستهان بها^(١). ويمكن القول إنَّ انتقال القيادة العسكرية إلى يد النُخب المحليَّة أفقد المتسلَّم القدرة على فرض سياسات غير مقبولة على النُخب المحليَّة، هكذا نجحت النُخب المحليَّة في السَّيطرة على مراكز القوَّة، والمشاركة في حكم الولاية وإدارتها.

وقد أدَّى انخراط الإنكشارية^(٢)

(١) عبد الكريم رافق، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

(٢) الإنكشارية: هو مصطلح محرّف من «يكي جري» أو «يني جري» التركية أي الجيش الجديد. أطلقت هذه اللفظة على نوع من الجنود الجديدة، أي مجموعة من فرق المشاة النظاميين والتي كوّنها السلطان أورخان العثماني في القرن الرابع عشر الميلادي من صغار أسرى النصارى من البلاد المغلوبة، فعمل على تربيتهم تربية إسلامية وتدريبهم على أعلى مستوى من التقدّم - بالنسبة لزمهم - وقد درّبوا على أسلحة ووسائل حربية حديثة، إضافة إلى أنَّهم جنود محترفين، أي متفرغين للحرب متفانين في فتح البلاد ونشر الإسلام. وكانوا من أكبر عوامل نجاحهم في الفتوحات التي قاموا بها في القرن الرابع عشر الميلادي وصولاً إلى القرن الثامن عشر، حيث أخذ هذا الجيش يتراجع بشكلٍ مذهل حتى إنه خسر معظم معاركه التي خاضها ضد الجيوش المعادية، وذلك بعد أن استعصى على كل محاولات الإصلاح والتحديث، وفي نهاية المطاف استطاع السلطان محمود الثاني أن يدمره تماماً سنة ١٨٢٦م. أما من الناحية التنظيمية، فقد كان جيش الإنكشارية يقسم إلى مئة وست وتسعين وحدة، يطلق على الواحدة منها اسم «أورطة» ويرأس هذه الوحدات جميعاً «آغا الإنكشارية» المعبر عنه باللغة التركية «يني جري آغاسي». نقلاً عن أماني الغازي، دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية «الجيش الجديد»، دار القاهرة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٢٣؛ وأيضاً حسان حلاق، وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٢٨؛ وأيضاً سميح وجيه الزين، تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ط ١، ١٩٦٩م، ص ٢٦١-٢٦٢.

اليرلية^(١) بالمجتمع إلى توثيق الصلات بينهم وبين السكان المحليين، فقد وقفت الإنكشارية إلى جانب السُّكان وبعض الولاة ضد ولاة ظالمين، ومحتكرين للتجارة، لكون ما يجري على الناس يجري عليهم. ففي سنة ١٧٣٠م صدر أمر من والي طرابلس إبراهيم باشا إلى آغا الإنكشارية بإرسال مئتي عنصر إلى اللاذقية بناءً على طلب ابنه الذي كان حاكماً على تلك المدينة، فرفضت الإنكشارية الذهاب وانتفضوا ضده، وذلك لاحتكاره جميع البضائع والحبوب التي كان يبيعها بأسعار مضاعفة، فجمعوا حولهم أنصاراً من السكان وهاجموا مقر الباشا في السرايا وقذفوه بالحجارة وبطلقات نارية طيلة النهار.

وفي اليوم التالي جدد المنتفضون هجومهم على السرايا على الرغم من محاولة والي احتواء الموقف عن طريق الإعلان عن تخفيض أسعار المواد الغذائية، وقد توسعت هذه الانتفاضة لتشمل معاوني والي، ولم تهدأ حتى مجيء قبوجي مبعوثاً من الباب العالي فجمع كبار وجهاء المدينة، ورجال القضاء وقرأ عليهم أوامر السلطان بإلقاء القبض على الباشا، وبالفعل قبض

عليه، وتمّ وضعه في السجن وتمت مصادرة أملاكه وأمواله، وعيّنت الدولة عثمان باشا خلفاً للوالي المعزول، فاصطحب معه جيشه، وتلافى أي خلاف مع سكان المدينة وإنكشاريتها، إلا أنّ الهدوء لم يستتب فقد وقع خلاف بين إنكشارية المدينة وجنود والي، حيث تمكن جنود هذا الأخير من السيطرة على مداخل المدينة، واستصدر أمراً بإطلاق النار على إنكشارية المدينة ورجالها، وقد استطاعوا قتل رجال الباشا، والسيطرة على المدينة والأحياء، ثم وقع اتفاق بين الطرفين على أن يعزل الباشا أخاه الضابط المكلف بوظيفة كاخيا، وبعض ضباطه الآخرين وأن يُخرج كل الفرق التابعة له من المدينة، وتعهد إنكشارية المدينة بحمايته وتأمين الحراسة اللازمة له^(٢).

وقد استعان والي أحمد باشا الجزار بالإنكشارية سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م عندما تشبث المتسلم خضر بيك وأخيه بالمتسلمية وتمنعوا عن تسليم المدينة والقلعة للمتسلم الجديد الذي عيّنه، فأصدر والي المذكور بيورلدي إلى الحاكم الشرعي والمفتي والنقيب وينكجريان

(١) اليرلية: هي صنف من الجنود النظاميين الذي تشكّل من السكان المحليين في كل بلد، وكان بمثابة وحدات داعمة للقوات الإنكشارية ونحوها، ويتقاضون رواتبهم من واردات الولاية. نقلاً عن حسان حلاق، وعباس صباغ، المرجع نفسه، ص ٢٣٧.

(٢) عبد الغني عماد، مرجع سابق، ص ١٣٢-١٣٦.

أغاسي (أي رئيس الإنكشارية) بالتفتيش عنهما والقبض عليهما، بعد أن صدرت منهم تصرفات غير مرضية، وأن المتسلم خضر بيك قد مدّ يده إلى قرش الميري والمقاطعات، فوصل الأمر إلى الدولة العلية، وقد طلب الوالي المذكور من هؤلاء رفعهم إلى القلعة تحت الحراسة والحفظ إلى حين صدور أوامر الدولة العلية^(١).

ووصلت شوكة الإنكشارية إلى حدّ التمرد على الوالي لتحقيق المكاسب، ففي سنة ١٨٠١م تمرد قائد الإنكشارية بربر آغا على أوامر الوالي عبد الله باشا العظم، الذي عين إبراهيم سلطان متسلماً على المدينة، فمنعه من دخول المدينة، وقد استعان هذا الأخير بالسكان المحليين والأهالي، وأوعز إليهم بإرسال عرائض إلى الوالي بتنصيبه هو مكان المتسلم «إبراهيم سلطان»^(٢).

وختاماً يمكننا القول، إنّ تسلل القوات الإنكشارية اليرلية إلى الطوائف الحرفية وحصولهم على امتيازات وإعفاءات خاصة بهم، واندماجهم بالمجتمع الحرفي والتّجاري كل ذلك أدّى إلى تعقيد البنية

الاقتصادية والاجتماعية وإفسادها، ونشوء مراكز قوى وصراعات.

ثانياً: شؤون البلدية (من حيث أمن المدينة والخدمات العامة)

أ - توصيل المياه

كانت مدينة طرابلس تعتمد على إمدادها بالماء من «قناة طرابلس»^(٣)، وفي الإسكلة قناة ثانية تُعرف بـ «قناة الإسكلة»^(٤)، ومن هاتين القناتين كان يتم جرّ الماء إلى نقطة أصل يُقال لها «الطالع» وهي بمعنى «الفرخة»، وعند هذه النقطة يتم توزيع الماء بوساطة مُقسّم أو فروع عبر قساطل فخارية إلى أحواض الدور والبساتين والأسبلّة. لذلك فإنّ كلّ طالع ينقسم إلى عدد من الدُّور يقوم المستفيدون من مائه، بدفع مبلغ معيّن على مقدار الماء الواصل إليهم، وذلك لسد نفقات السياق والتّرميم والتّعزِيل.

ونلاحظ من خلال سجلات المحكمة الشرعية أيضاً وجود تنظيم محليّ بخصوص الماء ومراقبتها، فكان على كل فرع من فروع الماء «قنواتي» يتم انتخابه

(١) سجل ٢٨، ص ١١٦.

(٢) غنى مراد، مصطفى بربر آغا وعلاقته بالقوى المحلية وبالدولة العثمانية (١٧٦٧-١٨٣٥م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة بيروت العربية، بيروت، ٢٠١٠م، ص ٣٠.

(٣) سجل ٤، ص ٣؛ سجل ١٣، ص ٢٧؛ سجل ١٤، ص ٣٦٩؛ سجل ١٤، ص ٣٩٧-٣٩٨، سجل ٢١، ص ٢٢٢؛ سجل ٢٦، ص ٨١.

(٤) سجل ٤، ص ١١٧ وص ٥٨-٥٩؛ سجل ٦، ص ٢٩؛ سجل ١٢، ص ١٥٨.

من قبل أصحاب فرع الماء (أي المستفيدين من الماء)، ويتوفر في «القنواتي» خصائص وصفات منها أن يكون عليمًا بطريق الماء ومسلكها، ليتمكن من إيصال الماء بطريقة صحيحة إلى البيوت والبساتين. وفي حال عدم معرفته بأمور القنواتية يتم عزله بناءً على رغبة أصحاب الحقوق في الفرع^(١). ففي سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م حضر جماعة من أصحاب الحقوق في فرع الماء من «قناة طرابلس» الواصلة إلى بيوتهم المعروف بفرع «القواسير» وأشاروا إلى أنهم تضرروا من قنواتي الفرع عبد الواحد بن الحاج محمد، ومحمد بن قرط لأنهما قد ضيَّعا عليهم حقوقهم في الماء المذكور حيث خلطوا الماء من طرقاتها في بعضها البعض فانقطع الماء عن بيوتهم، وقد التمسوا من الحاكم الشرعي عزل القنواتيين عن تعاطي القنواتية للفرع المذكور، وتنصب قنواتي جديد على هذا الفرع هو السيد مصطفى بن شحادة القنواتي لعلمه بطريق الماء وتسليكها، ليوصل الماء لمستحقه^(٢)، وكان يجب على القنواتي

العمل في ساقية الماء بإذن مالكها^(٣)، وكان القنواتية يحصلون على أجورهم من المساهمات التي يدفعها المستهلكون، وكذلك الحال بالنسبة إلى أهالي المحلات والطوائف الحرفية حيث كان يؤخذ منهم رسم لجهة تعزيل الماء^(٤).

وقد قامت الأسبلة بدور هام وخاص في تمويل المدينة بمياه الشرب ولا سيما بالنسبة إلى الفقراء، وكذلك الحال بالنسبة إلى البرك العامة، حيث كانت تسمح بتخزين المياه، وأغلب هذه الأسبلة شيدها الواقفون في العصر العثماني وكان على الجهة الوقفية الاهتمام بتمويلها، ومن أسماء البرك التي كانت موجودة في طرابلس: بركة السمك^(٥)، بركة الشَّحم تجاه سوق الملاحه^(٦)، بركة الشيخ بالسوق الكبير^(٧)، أما الأسبلة فقد ذكر منها ثلاثة موجودة في العقبات الآتية: عقبة الحمراءوي، وعقبة بني شوك، وعقبة بن الأوزن في محلة بين الجسرين^(٨).

وهذا النظام كغيره من الأنظمة لا بدَّ أن

(١) سجل ٢١، ص ٢٢٢.

(٣) سجل ١٦، ص ٢١؛ سجل ١٩، ص ٢٩.

(٥) سجل ١٠، ص ٦٤؛ سجل ١٥، ص ١٧.

(٧) سجل ٨، ص ٥٦.

(٨) حيدر الشهابي، الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، طبعه أسدرستم وفؤاد البستاني، سنة ١٩٣٣م، ص ٤؛ وأيضاً إغناطيوس الخوري، مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس واللاذقية (١٧٦٧-١٨٣٥م)، جروس برس، طرابلس، ١٩٨٥م، ص ٣١.

يحوي مشاكل، ويبرز أهمها بعدم توفير المال في أغلب الأوقات، فيتعهد أحد الأشخاص ممن يملكون المال بصيانة القساطل، وسياق الماء وترميمها وتعزِيلها على أن يحصل مقابل ذلك على حصّة منها.

في هذه الحالة جرت العادة، أن يقوم أحد الأشخاص ممن يملكون المال والذي هو من أبناء المحلة التي يوجد فيها السبيل، بالتعهد أمام المحكمة الشرعية بسياق الماء، وترميمها مقابل الانتفاع بها، فيعيّن القاضي كاتباً للكشف على السبيل، وبعد الكشف وشهادة الجمع الغفير من المسلمين يأذن للمتعهد بسياق الماء، فيحصل مقابل ذلك على مقدار معيّن من هذا الماء يقوم بسياقه إلى داره الذي يكون قريباً من السبيل، ويدفع هو ومن يشركه في هذا السبيل مصاريف السياق والترميم^(١).

وقد يحدث تدخل من جانب الولاية لمعالجة بعض الصعوبات وصيانة سياق الماء والأسبلة، ففي سنة ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م تضرر الوزير الحاج محمد ارسلان باشا سكان عقبة الحمراء، وسكان عقبة بني شوك وسكان، عقبة بيت الأوزن الكائن ذلك في محلة بين الجسرين من قلة الماء وشدة اضطرابهم إليها، ما حدا به إلى أن يُنشئ لهم ويعمّر ثلاث سبلات هي: سبيل كبير

في عقبة الحمراء، وسبيل صغير في عقبة بني شوك، وسبيل ثالث في عقبة الأوزن، وساق إليهم ماءً جديداً وأجراه في قساطل جديدة من قناة طرابلس من الكوة الصغيرة التي بقرب القناة إلى الطالع الذي بناه وعمّره الرّاكب على جنينة الشيخ لطفی بالمحلة المذكورة، وقسمه ثلاثة أقسام، القسم الأول: اثني عشر قيراطاً يجري إلى السبيل الكبير السّالف الذكر في عقبة الحمراء، والقسم الثّاني: يجري منه قيراطان إلى بيت محمد بشه الحكيم المعروف قديماً ببيت ابدال آغا، والقسم الثالث: عشرة قراريط تجري إلى الطالع الذي بناه بجدار الحاج محمد جاويش بيت شوك المقسوم ثلاثة أقسام: قيراطان منه يجري إلى بيت الحاج محمد جاويش، وقيراطان تجري إلى بيت الدّراوشة ملك الحاج أحمد آغا بشه، والقسم الثالث: وقدره ستة قراريط تجري إلى السبيل الثاني الكائن بعقبة بني شوك، وفائض هذا السبيل يجري إلى السبيل الثالث الكائن بعقبة بني الأوزن، وفائضه يجري إلى بيت الحرمة تجار، وأنّ طريق ماء السبيل الذي يستحق ستة قراريط الكائن بعقبة بني شوك، قد خرب وتعطل وتكسّرت قساطله، وضاع تحت الأرض في الطرقات وقلّ الانتفاع به

(١) سجل ٢٠، ص ٤٨-٤٩.

للشاربين، والناقلين للماء حيث قلّ ماء السبيل الثالث وقرب من انقطاعه بالكلي، فرغب حسين بشه أن يصرف عليه من ماله، ويعمّره ويضع له قساطل وسياقه سياقة جديدة، حيث تصل الستة قراريط إلى أنبوبه، وأخذ من الأنبوبة مقابل ما صرفه قيراطان من الماء، وقد بلغ ما صرف نحو خمسين قرشاً وزيادة، وحضر ساكنو المحلة، والمجاورون لها والمستحق بعضهم في أصل الماء، لأجل موافقة حسين بشه على إصلاح القساطل في مقابل إعطائه قيراطين من أصل أربعة وعشرين، يتناوله في قساطل إلى بيته الجديد الذي بناه بالقرب من السبيل، ويتصرف في هذه الحصة تصرف الملاك في أملاكهم، ولم يكن عليه لجهة الوقف قرش لجهة مرمة الماء بطريق الحكر الشرعي^(١).

وفي سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م حضر عثمان آغا المتولي على وقف سبيل الماء الكائن خارج بوابة الحدادين بالقرب من جبانة الرمل الذي أحدثه والده المرحوم يوسف أفندي، وساق إليه الماء وسبّله للمارين والدواب وأباح لهم تناول الشفة منه، وأقرّ المذكور أنّ طريق الماء المرقوم

مع مرور الزّمان عليه، قد انكسرت غالب قساطله وخربت وبذلك قلّ ماؤه وصار يخرج في الأزقة والطرق، ولم يكن بيده مال ليصلحه بها فيدوم النّفع، فالتمس من جناب الوزير الحاج سعد الدين باشا، أن يدفع له مئة قرش من خالص ماله، ليصلح بها ما فسد من طريق الماء فدفعها له وقبضها منه، فإذا صار الماء إلى محله وكثر كعاداته الأصلية، أباح لجناب الوزير أن يتناول منه بقساطل ممدودة إلى الدار التي اشتراها الوزير لكريمته الست فاطمة خانون من ماله الموهوب لها منه، وقد استحكره منه لمدة ثلاث سنوات وبعدها على الدوام بحكر قدره في كل سنة ربع القرش هو حكر المثل، على أن يتناول المستحكر (الوزير) فائض الماء المذكور، ويصبح من انتفاعات الدار وليس عليه لجهة الوقف سوى الحكر، فيتناول المتناول كل سنة ليصلح به ما يفسد من طريق الماء^(٢).

وقد أشارت وثائق سجلات المحكمة الشرعية إلى وجود منازعات على الماء بسبب تلاعب فيها^(٣)، وهذا الأمر كان يتطلب الكشف من قبل القاضي لإظهار الحق، ففي سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م حصل

(١) سجل ١٠، ص ٢٨٥.

(٢) سجل ١١، ص ٧٠.

(٣) سجل ٩، ص ٦٢؛ سجل ١٤، ص ٣٩٧-٣٩٨؛ سجل ١٧، ص ١٠٢-١٠٣.

تلاعب في الماء من مقسم التربيعة بين أصحاب الحقوق، فالتمس شيخ طائفة اليهود الشيخ سليمان بوكالته عن أهل طائفته وإبرام اليهودي الكشف على طالع ماء اليهود من هذا المقسم المذكور، مدّعين على كل من السيد محمد جلبي دبوسي، والسيد خليل الدبوسي الوكيل عن أبيه والخوaja نقولا الصراف الأصيل والوكيل عن طائفة الكبوشيين وعن ابن حنا مسعد أنّ لكنيستهم حق ماء هو الربع من الماء المذكور في فرض قديم، وقد وقع تلاعب بكسر ونقر في طالع محلة اليهود وطالبوهم برد القديم على قدمه، لكنّ المدّعى عليهم أجابوا بالإنكار، وبعد حصول الكشف تبين وجود نقر في محلة اليهود بشهادة السيد محمد، والسيد مصطفى ابني شحادة القنوتاتي، ونقر في فرض دار السيّد إبراهيم الدبوسي وجنيّة السيد محمد، وأنّ فرض دار السيّد إبراهيم والجنيّة كان قبل النقر والكسر بقدر الربع، فأمر مولانا بوضع المقسم على أن يكون النصف فرض محلة اليهود، لطالعتها بقرب المدرسة لأصحابه، وفرض كنيسة اليهود الربع، وفرض دار السيّد إبراهيم وجنيّة السيد محمد الربع^(١).

وكان بعد سياقة الماء، وترميمها

وإصلاح القساطل، يتم إعداد دفتر يتضمن كل ما تمّ صرفه، ليتم خصمها من الإيجار في حال كون الماء المساق يعود لجهة خان أو بيت أو لجهة وقفية (جامع ومدرسة أو غيرها).

ب - تنظيف المدينة وإنارتها

جرت العادة أن تقوم طائفة الزبالين بعملية تنظيف المدينة، وشوارعها مقابل أجرة من أصحاب البيوت والحوانيت، وأشارت إحدى الوثائق في سجلات المحكمة الشرعية أنّ الكناسين قاموا بعمل «الترابية»، حيث كان من مهمتهم أيضاً نقل الأتربة من الحفارة للعمارة وبالعكس أي رفعها عن المدينة، بالإضافة إلى نقل الزبل إلى البساتين وذلك على ظهور الحمير^(٢).

وغالباً ما كان يتم استئجار الزبالين للغايات السابقة الذكر، ففي سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م استأجر السيد عبد الكريم أفندي البركة الزبال المدعو حسين بن أبي بكر البيروتي لينقل له الزبل إلى بساتينه^(٣).

وقد اهتمت السلطة بشوارع المدينة وأزقتها، ففي سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م أصدر الوالي بيورلدي إلى القاضي قراراً يطالبه فيه بضرورة تبليط الأزقة وأمام البيوت في المدينة، وأن يعمل اهتماماً زائداً في هذا الشأن، وكان الوالي يعين من طرفه مباشراً

(١) سجل ٢٣، ص ٢٤٨.

(٢) سجل ٨، ص ٤٤.

(٣) سجل ٨، ص ٤٤.

لمتابعة هذه القضية، لتكون عمارة متينة لكونها أماكن عبور ومرور، وكان أصحاب هذه الأزقة والعمارة ملزمين بدفع نفقات هذه الصيانة^(١). وفي سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م صدر مرسوم مطاع من الوزير عثمان باشا إلى قائمقامه بطرابلس خضر بيك، بأنه صادر من القهوة التي بقرب خان الصاغة عادة غير مرضية، حيث يقوم القهوجي في كل ليلة بفرش أمام باب الخان المزبور تخوت وآلات قهوته، وهذه يصدر منها مفاسد غير لائقة وتؤول إلى مفاسد وسرقة ومحرمات، ومن المعلوم أنّ الخان ملقى ومأوى للتجار، ويضم خزينة لكل تاجر، فأمره الوزير بأن ينبّه القهوجي برفع التخوت وآلة القهوجية وأن يقرؤوا المرسوم على الخاص العام، ونبهوهم أنّه كل من يريد فرش ونصب تخوت أمام خان الصاغة بالليل عليه لعنة الله^(٢).

ج - الحراسة والشرطة الليلية

أمّا بالنسبة إلى حراسة المدينة فكان يقوم بها فرقة خاصة عُرف قائدها

بـ «العساس باشي»^(٣)، وجرت العادة أن يتم تعيينه من والي طرابلس الذي بدوره يُعلم القاضي وقائد الجند بالقلعة، ومهمة هذه الفرقة الدوار في شوارع المدينة، وحراستها ليلاً ونهاراً من أصحاب الفجور ومن اللصوص والأشقياء ومن ينتهكون الحرمات وإلقاء القبض عليهم^(٤).

وفي وثيقة عثرت عليها تبين ما كان يتقاضاه الحراس من أصحاب الحرف لقاء حراستهم لحوانيتهم، فقد توجب على كل حرفه سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م ما يلي^(٥):

الحرفة	القيمة
بازركان	٣ مصرية
عطار	٣ مصرية
سمان	٣ مصرية
حائك حرير	٣ مصرية
قواف ومن يتبعه	مصرية
أوطرقجي	مصرية
خضرجي	مصرية
خياط	مصرية
عقاد	مصرية
حداد	مصرية
قصاب	مصرية
صايغ	مصرية
والباقي على كل دكان	مصرية

(١) سجل ٧، ص ١٨.

(٢) من «عسس» وتعني الحراس، و«عسس باشي» مصطلح كان يطلق في العهد العثماني للدلالة على صنف من الجند مهمتهم التجوال بصورة دائمة ليلاً ونهاراً، وتفقد المحلات، والسهر على عدم تعدي العسكر على الأهليين، وإلقاء القبض على أي مخالف للنظام وقواعد الشريعة. نقلاً عن حسان حلاق، وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ١٥٤.

(٤) سجل ٩، ص ١٢٠.

(٥) سجل ٢٦، ص ١٧٩ مكرر.

د - ترميم المباني

لم تعطِ السلطة جانب الترميم وتعمير المباني أهمية خاصة، وجرت العادة أنه في حال وهن بناء ما، وشكّل ضرراً على الناس والمارة، كان أهالي المحلة المتواجد فيها البناء، يقصدون المحكمة الشرعية لإجبار صاحب البناء على الترميم. ففي سنة ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م حضر الترجمان برونس ترجمان طائفة الإفرنج الفرنسية بطرابلس، والوكيل الشرعي من قبل الخواجة كنيان الفرنسية، وقرر بوكالته المحكية أنّ ما هو من جملة دار ملكه الكائنة بمحلة القواسير من محلات طرابلس جميع القبوة الراكبة على الطريق الداخل إلى بوابة البلدة، وتُعرف ببوابة عائشة البشناوية، وبالقرب منها الراكب على القبوة المرقومة طبقة موكله التي هي من جملة داره، وأنّ أهالي المحلة المرقومة تقدموا إلى موكله بنقض القبوة المزبورة لتخلخل أحجارها ووهن بنائها، وتفسخها وسقوط حجر منها بالأمس، وإن تهاون بنقضها تنهدم على الطريق، فربما يصيب أحداً من المارين فتقتله.

وطُلب من الحاكم الشرعي أن يرسل كاشفاً يكشف على القبوة المرقومة، فعين معه لذلك نجله السيد زين العابدين أفندي، فتوجّه وصحبه كاتبه فخر المحررين محمد

أفندي بن عبد الحق أفندي، المعين معه وجماعة من المسلمين إلى أن وصلوا إلى القبوة المرقومة الراكبة على الطريق العام التي هي إحدى عضاضيتها في دار الخواجة كنيان المرقوم من جهة الغرب، والأخرى معلّقة على أساس دار الذمي جبارة ولد حنوش من جهة الشرق، وكشفوا عليها فإذا هي واهنة البناء مخلخلة الأحجار وهي متفسخة عن بعضها آيلة إلى الانهدام، وربما تنهدم على المارين وهدمها واجب، دفعاً للضرر عن الناس.

وبذلك أخبرت الشهود وعاد السيد زين العابدين أفندي وكاتبه محمد أفندي المرقوم، وأخبرا الحاكم الشرعي بما وقع فأمرهم بهدم القبوة المذكورة وبتجديد بنائها، فاستأذن من الحاكم الشرعي أن يزيد في مساحتها فوق الطريق إذ فيه نفع من غير ضرر، ويضع عضاضة أخرى في أساس دار الذمي جبارة المذكور، فأذن له غير أن حضر جبارة المذكور، وأذن للوكيل المذكور أن يضع موكله عضاضة أخرى مقدار أربعة أذرع في أساس بيته إذناً شرعياً، وبعد إتمام تجديد بنائها يبني طبقتة التي هي الآن عليها بمقدار القبوة بعد البناء إذ لا ضرر، ولا أحدث مضرّة بالعامّة بل إصلاح ما فسد، وتجديدها لا ضرر فيه كما أخبر به جماعة من المسلمين، فالتمس

الترجمان من الحاكم الشرعي المشار إليه أن يُسَطر لموكله بذلك صكاً شرعياً^(١).

خاتمة

لا شك أنَّ الدولة العثمانية اعتمدت على هيئات محلية لمساعدتها في توطيد حكمها وجمع ضرائبها إلى الخزينة، إلا أنَّ تخطيط المدينة الإسلامية خلق لهذه التنظيمات المحليّة بيئة حاضنة لها، مكنتها من القيام على نطاق واسع بشؤون الإشراف على المدينة وتنظيم أمورها الخدمانية. عدا عن ذلك نجد أنَّ هذه التنظيمات تقسّمت وفق أطر جغرافية معيّنة، حيث سيطر مشايخ الحرف على الأسواق والخانات، ومشايخ المحلات على الحارات، كما وسيطر مشايخ القرى على قرى المدينة، فأصبح تطور المدينة ونموّها مرتبط بـهؤلاء المشايخ وبمبادرات أفرادها.

صحيح أنَّ هذه التنظيمات كانت تتلقى توجيهاتها من الدولة لكن لا يمكننا تجاهل دور هذه التنظيمات المحلية التي قامت بعمل ما يُسمى اليوم «مجلس الإدارة والبلدية من حيث تلبية حاجات المدينة الأساسية وحاجات سكّانها، فكان همّ الدولة العثمانية من هذه التنظيمات بالدرجة الأولى توطيد الأمن حتى يتسنى لها الاستمرارية،

وباقى الأمور الحياتية لم تأخذها بالحسبان تركتها لهذه التنظيمات التي التفتّ حولها السكان فشعروا بالأمان معها، وعبروا عن آرائهم بحرية بعيداً عن أعين الدولة.

ومن إيجابيات هذه التنظيمات أنها شكّلت نوعاً من الرقابة ليس فقط على الأفراد وإنّما أيضاً على رجال الدولة وقراراتهم، حيث نجد وقوف الأفراد والهيئات مع بعضهم ضد جور وظلم وتعدّي أحد الولاة، أو ضد أي فرمان يمسّ بتوجهاتهم.

ويمكن القول إنّ هذه الهيئات والتنظيمات ساهمت في إرساء الحكم، بل واعتُبرت أداة فعّالة في المشاركة، فقد دعمت هذه الهيئات جهود تنمية الأفراد ولاسيما الحرفية من خلال مبدأ التكافل والتضامن الذي أقامت عليه عرفها أو دستورها.

ونخلص إلى القول، إنّ من أهم شروط الحكم الرشيد هو وجود علاقة بين الدولة وهيئات محلية، لكون هذه الهيئات تمارس دورها كمراقبة ومحاسبة، ومساوية في تكافؤ الفرص بين الأفراد، ومنع الفساد. فالبيئة التي حضنت هذه الهيئات والقيم التي قامت عليها جعلتها تساهم في تحقيق التنمية الشاملة للمدينة. ولكن التساؤل هنا

(١) سجل ٧، ص ١٣٢.

هل تحققت هذه التنمية الشاملة في ظل دولة يقوم دستورها على أساس الشريعة؟ وعلى أساس التمييز بين الطوائف؟ وهل استطاع الدستور الجديد الجمع بين المواطنة بمفهومها الغربي القائم على تشكيل دولة بدل أمة ومجتمع مدني بدل مجتمع عصبي؟ وهل استطاعت هذه الهيئات الانسجام مع صدور الدستور واختراق العقلية الإيديولوجية؟.

المصادر والمراجع

- ١ - سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس:
سجل ٤ تاريخ (١١٢٧-١١٣٦هـ/ ١٧١٥-١٧٢٣م).
- سجل ٥ تاريخ (١١٤١-١١٤٢هـ/ ١٧٢٨-١٧٢٩م).
- سجل ٦ تاريخ (١١٤٣-١١٤٥هـ/ ١٧٣٠-١٧٣٢م).
- سجل ٧ تاريخ (١١٥٠-١١٥٤هـ/ ١٧٣٧-١٧٤١م).
- سجل ٨ تاريخ (١١٥٦-١١٥٩هـ/ ١٧٤٢-١٧٤٦م).
- سجل ٩ تاريخ (١١٥٩-١١٦٠هـ/ ١٧٤٦-١٧٤٧م).
- سجل ١٠ تاريخ (١١٦١-١١٦٢هـ/ ١٧٤٨-١٧٤٩م).
- سجل ١١ تاريخ (١١٦٣-١١٦٤هـ/ ١٧٤٩-١٧٥٠م).
- سجل ١٢ تاريخ (١١٦٤-١١٦٥هـ/ ١٧٥٠-١٧٥١م).
- سجل ١٣ تاريخ (١١٦٦-١١٦٧هـ/ ١٧٥٢-١٧٥٣م).

- سجل ١٤ تاريخ (١١٦٨-١١٧٠هـ/ ١٧٥٤-١٧٥٦م).
- سجل ١٥ تاريخ (١١٧٠-١١٧١هـ/ ١٧٥٦-١٧٥٩م).
- سجل ١٦ تاريخ (١١٧٤-١١٧٥هـ/ ١٧٦٠-١٧٦١م).
- سجل ١٧ تاريخ (١١٧٥-١١٧٧هـ/ ١٧٦١-١٧٦٣م).
- سجل ١٨ تاريخ (١١٧٧-١١٨٢هـ/ ١٧٦٣-١٧٦٨م).
- سجل ١٩ تاريخ (١١٧٨-١١٨٠هـ/ ١٧٦٤-١٧٦٦م).
- سجل ٢٠ تاريخ (١١٧٩-١١٨١هـ/ ١٧٦٥-١٧٦٧م).
- سجل ٢١ تاريخ (١١٨٢-١١٨٦هـ/ ١٧٦٨-١٧٧٢م).
- سجل ٢٢ تاريخ (١١٨٧-١١٩٠هـ/ ١٧٧٣-١٧٧٦م).
- سجل ٢٣ تاريخ (١١٩٢-١١٩٤هـ/ ١٧٧٨-١٧٨٠م).
- سجل ٢٤ تاريخ (١١٩٤-١١٩٧هـ/ ١٧٨٠-١٧٨٢م).
- سجل ٢٥ تاريخ (١١٩٨-١٢٠٠هـ/ ١٧٨٣-١٧٨٥م).
- سجل ٢٦ تاريخ (١٢٠٣-١٢٠٦هـ/ ١٧٨٨-١٧٩١م).
- سجل ٢٨ تاريخ (١٢٠٧-١٢٠٩هـ/ ١٧٩٢-١٧٩٤م).
- سجل ٣٦ تاريخ (١٢١٥-١٢١٨هـ/ ١٨٠٠-١٨٠٣م).
- سجل ٣٧ تاريخ (١٢٢٥-١٢٢٧هـ/ ١٨١٠-١٨١٢م).
- سجل ٤٧ تاريخ (١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م).

- ٩ - عبد الغني عماد، **مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية**، دار الإنشاء، طرابلس، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١٠ - عبد الكريم رافق، **مظاهر التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني**، بحث نشر في أعمال المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية ١٥١٦-١٩١٨، الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، طرابلس، ١٩٩٥م.
- ١١ - عمر تدمري، **وثائق نادرة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس**، مؤسسة المحفوظات الوطنية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ١٢ - عيسى سليمان أبو سليم، **الأصناف والطوائف الحرفية في مدينة دمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠٠٠م.
- ١٣ - غنى مراد، **مصطفى بربر أغا وعلاقته بالقوى المحلية وبالدولة العثمانية (١٧٦٧-١٨٣٥م)**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة بيروت العربية، بيروت، ٢٠١٠م.
- 14 - Adel Ismail, Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du Proche-Orient du XVIIIe siècle à nos jours, T. 3, Editions des œuvres politiques et historiques, Beyrouth - Lebanon, 1976.
- 15 - Ali Hourani, The Changing Face of the Fertile Crescent in the XVIIIth century, Studia islamica, 1957.
- سجل ٤٩ تاريخ (١٢٣٩-١٢٤٠هـ/ ١٨٢٣-١٨٢٤م).
- سجل ٥٠ تاريخ (١٢٤١-١٢٤٣هـ/ ١٨٢٥-١٨٢٧م).
- ٢ - أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥هـ (١٧٤١-١٧٦٢م)**، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط١، ١٩٥٩م.
- ٣ - إغناطيوس الخوري، **مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس واللاذقية (١٧٦٧-١٨٣٥م)**، جروس برس، طرابلس، ١٩٨٥م.
- ٤ - أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- ٥ - حسان حلاق، **وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية**، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ٦ - حيدر الشهابي، **الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان**، طبعه أسد رستم وفؤاد البستاني، دن، ١٩٣٣م.
- ٧ - خالد زيادة، **الصورة التقليدية للمجتمع المدني**، قراءة منهجية في سجلات محكمة طرابلس الشرعية في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، معهد العلوم الإجتماعية - الفرع الثالث، طرابلس، ١٩٨٣م.
- ٨ - عادل مناع، **لواء القدس في أواسط العهد العثماني**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

الأوضاع الاجتماعية لمدينة بيروت أثناء الحقبة العثمانية (١٥١٦-١٩١٨)

د. شربل فرح

مقدمة

لقد شهدت بيروت تطورات بارزة أثناء العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٨ م) وذلك على الصّعيدين الاجتماعي والاقتصادي، بالإضافة إلى دور الحركات التبشيرية في نشر الثقافة الغربية على أراضيها. وعلى الرّغم من أنّ أهل بيروت كانوا يطبقون الشريعة الغراء في حياتهم الاجتماعية، إلا أنّهم تأثروا بالأوروبيين وانجرفوا في تيار الليبرالية؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور طبقة بورجوازية تجارية جديدة تأثرت بالعادات والتقاليد الإفرنجية.

وقد ظهر التقليد الأوروبي جلياً في المجتمع البيروتي منذ أواخر القرن التاسع عشر، وذلك على أنقاض الدولة العثمانية وأنهيارها. ويبدو أنّ مدينة بيروت التي خضعت للنفوذ العثماني نحو «أربعمائة عام» لم تخسر روح المحبة والتعاون بين أبنائها، بل إنّ القوانين والفرمانات العثمانية

والضرائب الجائرة على البيروتيين؛ زادت من وحدة المسلمين والمسيحيين فيها. ومما لا شك فيه أن بيروت المحروسة بلغت ذروتها العلمية والثقافية في عهد العثمانيين، الذين أنشأوا المدارس والمؤسسات الدينية؛ لمناهضة سياسة «التفرنج» التي ظهرت في بلاد الشام ورسّخت جذورها في هذه المدينة. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنّ الحقبة العثمانية تستحق الدراسة المنهجية المعمّقة، لأنّها أثّرت على العائلات البيروتية، وأسهمت في تعزيز الروابط الاجتماعية بين الأهالي، كما أنّ الحركة التجارية انتعشت في هذه الفترة.

وتجدر الإشارة إلى أن بيروت كانت مسرحاً للعابثين بأمنها واستقرارها، وذلك قبيل سيطرة الإدارة العثمانية عليها، إضافةً إلى محاولات الصليبيين المستمرة للإطاحة بها والاستيلاء على مقدراتها ونهب

ثرواتها. ونظراً لما قدمته السلطنة العثمانية من ضبط للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بيروت فإنّي اخترت أن تكون دراستي البحثية في هذه الحقبة التاريخية.

المبحث الأول: الواقع الاجتماعي في بيروت العثمانية

أ - أوضاع بيروت الاجتماعية في القرن التاسع عشر

وصف الرحالة محمد بيرم التونسي مدينة بيروت في كتابه (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) فقال: «إنّها بلد جميلة المنظر؛ لأنّ ديارها محسّنة الحيطان من خارج وحسّن أكثر طرقها غير أن بجانب الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربّما أضرت بالمارّين والبناء طينه مخلّط بالجير فهو حسن المنظر. ويقرب شكل الديار من ديار تونس غير أنّهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجاً مكشوفة في البطحاوات الخاصة بالديار. وجعل في البلد طريق للمعجلات وهذا الطريق واصل إلى دمشق الشّام جعلته شركة إفرنجية منتظم السير في

أوقات معلومة وكراء معيّن وتغيّر الخيل في مراكز معيّنة ليلاً ونهاراً»^(١).

أما الرحالة جون كارن فقد وصف بيروت في القرن التاسع عشر ومما قاله: «بيروت أوفق مكان يتخذ المرء مسكناً في لبنان. إنّها بديعة الموقع، والمشاهد التي تُطلّ عليها من كلّ جانب حلوة جميلة. على أن المدينة نفسها قذرة ممجوجة، إذا قوبلت بطرابلس الحسنة البناء ونهرها قاديشا المنساب انسياباً رائعاً عذباً». وعن أهمية موقع بيروت، أضاف جون كارن فقال: «أجل، إن بيروت هي أفضل المدينتين موضع سكني. ويستطيع المقيم فيها أن يشهد إلى منزله، في أجل وجيز، أسباب الراحة والبهجة كأنّه في دمشق...»^(٢).

هذا، وتُصور لنا بعض الأبحاث ومذكرات الرحالة أوضاع بيروت الاجتماعية في القرن التاسع عشر. ومما يذكره د. أسد رستم عن واقع بيروت في عهد إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا ما يفيدنا في بعض الجوانب الاجتماعية كقوله: «لو أُتيح لك أن تدخل مساكن هؤلاء الأغنياء لوجدتها خالية من

(١) محمد بيرم التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ج ٤، تونس، المجمع التونسي للعلوم، ١٩٩٩م.

(٢) جون كارن، رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، تعريب: رثيف خوري، بيروت، دار المكشوف، ٢٠١٩م، ص ١٣.

قسم كبير من الأثاث الذي نُعده اليوم ضرورياً لراحتنا، فلا ترى فيها الأسرة الأوروبية التي نراها اليوم ولا الخزانات لحفظ الثياب. فإنَّ البيروتيّ سنة ١٨٣١م كان ولا يزال مصرّاً على استعمال المصابيح الفخاريّة والمعدنيّة...»^(١).

ويذكر الرَّحالة الأديب محمد بيرم التونسي ما شاهده حول الواقع الاجتماعي في بيروت عام ١٨٨٠م، ومما قاله: «إنَّ أهالي بيروت وإنَّ كانوا قسمين، مسلمين ونصارى، لكنَّهم جميعاً في غاية الألفة بعضهم مع بعض، وعوائدهم جميعاً واحدة، حتى في محاسن أخلاقهم. وقد شاهدتُ من فضلاء القسمين ما أشكرهم عليه من محاسن الأخلاق والفرح بالضيّف، مثل الشيخ الدّاركة البليغ البارع إبراهيم الأحذب، وله ديوان شعر شهير، ومثل الأعيان الأجلاء حسين بيهم وفخري بك رئيس الجمعية الخيرية، وعبد القادر القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» إحدى الجرائد العربيّة المتكاثرة في هاته البلد...»^(٢). ومما لا شك فيه أنَّ هذا النص يوضّح بعض مظاهر التعاون والألفة والمحبة بين أهالي بيروت في القرن التّاسع عشر، وما يتمتع به المجتمع البيروتيّ من

خصال حميدة يُحتذى بها في مكارم الأخلاق.

ب - دور العائلات البيروتيّة في العهد العثماني

كانت العائلات البيروتية تكوّن المجتمع البيروتي الذي شهد موجات من الوافدين الأتراك والأوروبيين وموجات أخرى وافدة من الولايات الإسلامية والعربية. وعبر الحقب التاريخيّة تمت حركة تشابه في العادات والتقاليد والممارسات مع ما تتميز به العائلات البيروتية من بعض التّباين؛ بسبب المعتقدات الدّينيّة. وبشكل عام فقد كان المجتمع البيروتيّ مجتمعاً متشابهاً في كثير من مظاهره، وقد كانت المسلمات والمسيحيات محتجبات خاصة إلى حد كبير، كما أنَّ المسلمين والمسيحيين من الرجال كانوا يلبسون ثياباً موحدة كالسّرّوال العثماني (الشروال) والقمباز والصدريّة الكشمير واللاستيك (الجزمة) خاصة الأغنياء منهم، ويعتَمرون الطربوش.

ومن الجدير ذكره أنَّ الفئات المثقفة من مختلف الطوائف قد بدأت تتفرنّج بلباسها وعاداتها وتقاليدها منذ أواخر القرن التّاسع عشر. وما يجمع العائلات البيروتية محكمة

(١) رفعت صدقي النمر، وآخرون، بيروت في المرحلة العثمانية، ط١، بيروت، مجلة تاريخ العرب والعالم، ١٩٩٤م، ص٤٧-٤٨.

ج - دور الفرنج والأوروبيين في الحياة البيروتية

بدأت ملامح «التفرنج» تظهر في بيروت منذ العام ١٨٣٣م، وازدادت عمليات الاحتكاك بالأوروبيين، فتأثرت العمارة بالهندسة المعمارية الأوروبية، وشاع في بيروت استخدام الأثاث الإفرنجي، فابتاع البيروتيون الأسرة والخزانات والكراسي والطاولات، واقتنوا الصحف والشوك والسكاكين والملاعق الإفرنجية. وقد تأثر الشعب بزي أفراد الجيش المصري، فالتعديلات التي طرأت على لباس الجيش سرت وتناولت لباس أفراد الشعب، فخفف لباس العمامة من لباس الرأس، وقلّ الاقتصار على لبس الجبة والقمبان، وأدخلت الطرابيش المغربية والصّداري وكبابيت التفتيك. وبعد أن كان البيروتي يميل إلى اقتناء الثياب ذات اللون الأحمر والبنفسجي، أخذ يهجرها شيئاً فشيئاً، ويتخذ الأسود والكحلي منها. وشاع أيضاً في هذه الفترة من تاريخ بيروت استخدام الكلسات (الجوارب)^(١). ويؤكد عبد الرحمن بك سامي في كتابه («القول الحق في بيروت ودمشق») والذي زار بيروت في العام

بيروت الشرعية التي كانت تبحث أمور مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية واليهودية أيضاً. فمعاملات الإرث والأوقاف والديون والدعاوى والشكاوى وتعيين علماء الدين، كانت كلها تسجل في سجلات المحكمة الشرعية للدولة العلية في مدينة بيروت المحروسة^(٢).

وعن نساء بيروت في القرن التاسع عشر، يمكن القول: إنّ منهن من يلبس الإزار الأبيض أو الملائة (الملاية) الحرير، وعلى وجوههن المناديل الرقيقة الأسلامبولي، وفي أرجلهن اللستيكات (الجزم) الإفرنجي، ولا يظهرن من أبدانهن شيئاً، وهنّ النساء المسلمات خاصة. أما نساء النصاري فيلبسن الفساتين الواسعة وعلى رؤوسهن الطرح الرقيقة، وهنّ مكشوفات الوجوه وربما الزنود، ويمشين في الأسواق والشوارع والحارات ويتحدثن مع الرجال الأجانب في الطرقات والبيوت، ويقلدن الأوروبيات حقّ التقليد. وبعضهن كنساء أوروبا في إرخاء الذبول ولبس الأعراف والبرانيط على رؤوسهن، ولا يختلفن عنهن إلا باللسان واللغة^(٣).

(١) محمد بيرم التونسي، (المصدر السابق)، ج ٤، ١٩٩٩م.

(٢) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٤٧.

(٣) د. حسّان حلاق، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، ط ١، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٩، ص ٩٧.

١٨٩٠ م من أن العادات الاجتماعية في بيروت مختلطة من العوائد الإفرنجية والشرقية، وأنه ليس عند البيارة محلات لساقيات البيرة (الجعة) وتقل عندهم المواخير والملاهي وأماكن المومسات التي تطرح الإنسان إلى مهاوي الفقر، وتصرفه عن لذة الاجتماع بأهله وخلانه^(١).

ويبدو أن الأثرياء من آل سرسق وبسترس وثابت وتويني وكرم وفرعون وطراد وهاني وغيرهم، كانت تغلب عليهم العادات الغربية؛ لكثرة أسفارهم إلى أوروبا، دون أن يهملوا العرف الشرقي المألوف بين جميع المواطنين^(٢).

المبحث الثاني: العادات والتقاليد في بيروت العثمانية

أ - الأعياد الرسمية والدينية

يفيدنا الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي القادم من مصر إلى بيروت إثر حركة أحمد عرابي عام ١٨٨٢ م، عن الكثير من العادات والتقاليد البيروتية، والكثير من الملامح الاجتماعية في بيروت العثمانية والتي شاهدها بنفسه. وعن هذا يقول: «...وبالجملة فبيروت مدينة إسلامية ديناً وغيره وحمية،

أوروباً وديناً نظاماً وبناءً وحربيةً، فإنهم مع كثرة مخالطتهم لغير أهل دينهم من وطنيين وأجانب في غاية الصلابة والتحفظ على شعائر الدين. ولم يقلدوهم في طول مدة العشرة إلا في مراعاة القوانين والنظامات...»^(٣).

ومما يذكر عن عادات أهل بيروت في أعيادهم الإسلامية لا سيما عيدي الفطر السعيد والأضحى المبارك، أن يصلوا في المساجد، لا سيما في المسجد العمري الكبير في باطن بيروت، وهو مسجد البلد الكبير. وكان مفتي بيروت في مقدمة المصلين حيث يؤمهم في الصلاة. ويتم الإعلان والاحتفال بالعيد بطلقات عدة من المدفعية في بيروت وطرابلس وصيدا وبقية المدن الإسلامية. وبعد الانتهاء من الصلاة يزور المسلمون مقابر موتاهم في جبانات المصيطبة والباشورة والغربا والمغارة وسواها، وبعد ذلك تبدأ الزيارات للمعايدة بقول العبارة التالية: «كل عام وأنتم بخير» و«كل عام وأنتم سالمون»، وإذا كان العيد هو عيد الأضحى، فيقول الزائر بالإضافة إلى العبارات السابقة عبارة: «إن

(١) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٤٨.

(٢) عبد الرحمن بك سامي، القول الحق في بيروت ودمشق، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣-١٤.

(٣) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط ٢، دار النهار للنشر، ١٩٨٠، ص ٣٤.

شاء الله السنة المقبلة نراك على عرفة»
والمقصود بها القيام بتأدية الحج
وشعائره^(١).

ومن عادة البيروتيين (المسلمين) في
أعيادهم تقديم الحلوى للمعائدين، وكانت
أفران بيروت تعج في فترة الأعياد بالأواني
(الصواني) التي كانت تخبز عادة في تلك
الأفران. وكانت أجرة الفران أحياناً قطعاً
يتناولها بعد انتهاء الخبز^(٢).

أما في شهر رمضان الكريم، فإن
بيروت تعتبر في هذه الفترة من المدن
الزاهية المزدانة، حيث تكسوها حلّة جديدة
لا سيما شوارعها ومساجدها وزواياها.
وكانت الدولة العثمانية قد خصّصت
«مدفعجي» خاص لإطلاق مدافع الإفطار
ومدافع السُحور. وكان البيارة يقضون
طيلة النهار في أعمالهم كالمعتاد، يحملون
معهم من السوق في باطن بيروت حوائجهم
من اللحوم والخضار والحلوى. وكان أهم
ما يميز سفرة رمضان (طاولة الطعام)
أشهى أصناف المأكولات والحلويات وفي
مقدمها الفتوش وهي جملة خضار متنوعة،
ومن الحلوى: القطايف (بالجبين، والجوز،

والقشطة، والكنافة، وكانت هذه الحلوى
تُجلب موادها الأولية من سوق القطايف في
باطن بيروت، ثم تخبز في المنزل مساءً أو
عند السُحور.

وبعد تأدية صلاتي المغرب والعشاء
تبدأ السهرات الرمضانية التي كانت تعج
فيها المنازل البيروتية والتي لا تنتهي عادة
إلا عند الفجر. كما كانت المساجد تشهد
الاحتفالات اليومية، وكان أهم احتفال هو
ليلة القدر. ولا يمكن أن ننسى في ميدان
الحياة الاجتماعية احتفال أبناء بيروت
بموسم سنوي هام هو «أربعة أيوب» الذي
يصادف في فترة الربيع، حيث ينتقل
البيارة إلى منطقة الرملة البيضاء يفترشون
الرّمال، حاملين مأكولاتهم ومشروباتهم لا
سيما أكلة «المفتقة» الصفراء، وقد استمر
احتفال البيارة بهذه العادة إلى الخمسينات
من هذا القرن^(٣). وقد وصف عبد الرحمن
بك سامي أيام العطل وكيفية قضاء أهل
بيروت هذه الأيام، فأشار إلى أن شباب
بيروت يركبون الخيول ويلعبون الجريد،
ويرتادون ميدان حرج بيروت الشهير،
ويتسابقون على ظهور الجياد^(٤).

(١) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٤.

(٢) د. حسّان حلاق، بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٤٩.

(٣) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٤٨.

(٤) حسّان حلاق، بيروت المحروسة في العهد العثماني، (المرجع السابق)، ص ١٥٠.

ب - الأُفراح والمناسبات الخاصة

أما عادات البِيارتة في الأُفراح، فهي توزيع الدَّعوة لحضور الخطوبة أو عقد القران (الكتاب). وكان المتبع أن يتوجه صاحب الدَّعوة بنفسه لدعوة الأقارب والأصحاب، ودعوته بنفسه كان لها معنى ومغزى معين، تعبر عن مدى احترامه وتقديره للمدعوين ومدى التزامه بالأصول. وبعد اجتماع المدعوين يجتمع الرجال على حدة والنساء على حدة، ويبدأ الحفل عادةً بتلاوة آي من القرآن الكريم وقراءة المولد النبوي الشريف تبركاً وتقرباً، ويحضر كل من دُعي إلى مكان متسع في الدار أو ما يسمى الإيوان (ليوان)، ويفرشون هذا المكان بالمفروشات الجميلة. وينصبون للشَّيخ الذي يقرأ المولد كرسي القراءة مسجى بالحريز والديباج والكشمير. وحين يبدأ القراءة يرفع المدعوون النراجيل (الأراكيل) ويتركون شرب الدخان وينصتوا احتراماً.

بعد قراءة المولد والقرآن الكريم تُنشد الأشعار والموشحات النبوية على الطريقة القديمة التي كانت متبعة في مصر منذ زمن قديم، وبعد انتهاء المولد وعقد القران يُوزَّع على المدعوين قراطيس الملابس والشراب. والعادة المتبعة في عقد القران (كتب

الكتاب) أن يحضر وليّ الرّوَج ووليّ الرّوْجة أو وكيلاهما بين يدي القاضي أو المفتي، ويسمّون المهر ثم بعد الانتهاء من هذه المراسيم تقرأ الفاتحة على نيّة التوفيق والصّلاح. وفي حفل الرّفاف تجري بعض الأمور المتشابهة في العقد، مع زيادة في مراسيم أخرى، مثل توزيع الشُّموع على الأولاد، والدَّق على الطبل والمزمار والعود. ويخرج العريس من منزله مصحوباً بالأهل والجيران، ووجهتهم منزل والد الفتاة وذلك لاصطحابها إلى المنزل الزوجي^(١).

ج - الأُحزان والمآتم

أما عادات أهل بيروت في المآتم فتتلخّص بأنّه يُصلّى على المتوفى في أحد مساجد المدينة، ثم يدفن في إحدى الجبانات المقامة خارج سور بيروت، وهناك تتلى عليه آيات من القرآن الكريم. وبعد تقديم العزاء، تُمد طاولة الطعام على نية المتوفى في منزله. والأمر اللافت للنظر أن الأقارب والجيران هم الذين يطبخون في هذه المناسبة الحزينة، ويقدمون المأكولات وينقلونها إلى منزل المتوفى؛ كي تقدّم للمعزّين. كما أن أهل المتوفى لا يُكلّفون بشيء في الأيام الثلاثة أو الأيام السبعة التي تلي الوفاة، وفجر اليوم التالي من الوفاة يتجه أهل المتوفى إلى الجبانة لزيارة

(١) عبد الرحمن بك سامي، (المصدر السابق)، ص ١٨.

ضريحه، أو كما يقال اصطلاحاً «لفك وحدته»^(١). ثم تُقام ذكرى الأربعين بقراءة القرآن الكريم وذكر مآثر المتوفى؛ اعتماداً على القول الشريف «أذكروا محاسن موتاكم». ومما قيل في أهل بيروت «لا يظهر على الرجل منهم كآبة الحزن والترح، ولا تلاًّ وجهه بالسرور والفرح. فهم رجال لا تلهيهم عن معاشهم أفراح ولا أتراح فليت أهل مصر يتشبهون بهم والتشبه بالرجال فلاح»^(٢). ومن العادات الاجتماعية الحميدة في مدينة بيروت عدم الجهر بالمعاصي كشرب الخمر والزنى، لا سيما بالنسبة إلى الطائفة الإسلامية التي حُرّم عليها الخمر والزنى، بينما الطائفة المسيحية حُرّم عليها الزنى وأُحِّل لها الخمر. كما لا يتعاطى أهل بيروت المنكرات كتناول الحشيش وبقية أنواع المخدرات، ولا يوجد في مدينتهم مراكز للمومسات^(٣).

المبحث الثالث: الأوضاع السكانية في بيروت العثمانية

أ - التغيّيرات الديمغرافية والتّطور السكانيّ

يقول رالف بود نشتاين: «حتى

الثلاثينات من القرن التاسع عشر (١٨٣٠م) كانت بيروت ميناءً صغيراً للمشرق، وتتندى رتبته عن موانئ طرابلس وصيدا وعكا، وأثناء الاحتلال المصري (١٨٣٢-١٨٤١م) جعل إبراهيم باشا من بيروت مركزاً إدارياً. وبعد استعادة السيطرة على البلاد السورية، جعل العثمانيون من بيروت العاصمة، أولاً لولاية صيدا في سنة ١٨٤٢ م ثم لولاية بيروت المُحدّثة في سنة ١٨٨٨م.

هذه الأهمية السياسية المتنامية ترافقت مع نمو ميناء بيروت البحريّ وتطوره إلى مركز التّصدير والاستيراد لجبل لبنان والدّاخل السوري والذي أدّى إلى طبقة بورجوازية مدنيّة تجارية جديدة. وازداد عدد السكان في المدينة من ١٠,٠٠٠ نسمة إلى حوالي ١٢٠,٠٠٠ سنة ١٩٠٠م، ما أدّى إلى إنشاء أحياء سكنية جديدة خارج سور المدينة»^(٤). وقد تطور عدد سكان بيروت من ثلاثين ألف نسمة سنة ١٨٥٢ م، إلى أربعين ألف نسمة ١٨٧١ م، ومائة ألف سنة ١٨٨٥ م. وعندما أصبحت بيروت مركز ولاية سنة ١٨٨٨م، ارتفع العدد حتى بلغ مائة وخمسين ألف نسمة سنة ١٩١٠م،

(١) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٤٩.

(٢) د. حسّان حلاق، بيروت المحروسة في العهد العثماني، (المرجع السابق)، ص ١٥٢.

(٣) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، (المصدر السابق)، ص ٥٠.

(٤) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٥٠.

وكانت أغلبية السكان من المسلمين^(١). وقد أشار عبد الرحمن بك سامي إلى الطبقات الاجتماعية في بيروت بقوله: «تحتوي هذه المدينة على كل طبقات الناس، ففيها الأغنياء وأصحاب البنوك كالسّادات: بيهم وأياس والخواجات بسترس وسرسق وتويني وغيرهم. وفيها المتوسطون كتجار المانيفاتورة... وفيها أصحاب الحرف والصنائع وغيرهم. وكل هذه الطبقات تأتلف بعضها مع بعض، ولا سيما في أيام المواسم والأعياد حتى تكاد لا تُميّز بين غنيهم وفقيرهم... وكلهم على أتم الوفاق كأنهم قد أدركوا أنّ لكل إنسان وظيفة في هذا العالم، وهذه الوظائف مجموعة معاً تؤلف الهيئة الاجتماعية... إكرام البيروتيين ولطفهم ما يجعلني أردد عبارات الثناء تكراراً عليهم...»^(٢).

ب - العلم والثقافة في العهد العثماني

أشار الأمير محمد علي باشا حفيد محمد علي الكبير الذي زار بيروت في العهد العثماني، وسجّل انطباعاته عما رآه من

أحوال اجتماعية ومما قاله: «كان سروري يتجدد كلما كنت أرى أولئك الناس متشبّثين بالعوائد الشرقية و متمسكين بالملابس القديمة والأزياء الفطرية...» أما عن التعليم في مدارس بيروت فقد أوضح محمد علي باشا «بأنّ التعليم في مدينة بيروت ما يُسر أنصار العلم وعشّاق المعارف ومحبيّ التّقدم والرّقيّ. ولهذا كنت أرى معظم الأهالي يجيدون القراءة والكتابة، وقلما وجدتُ مدينة أهلها كذلك في كل بلاد الشام»^(٣). وقد تقبّل لبنان، في عهد فخر الدين الثاني وخلفائه المؤثرات الثقافية الغربية، بصورة خاصة. فأقدم الجزويت، الذين يعود نشاطهم في المنطقة إلى سنة ١٦٢٥ م، بالاشتراك مع الموارنة، على إنشاء أول مدرسة يجوز اعتبارها حديثة، وذلك سنة ١٧٣٤ م في قرية عين طورا من قرى لبنان^(٤). أما عن اللغة السائدة في بيروت فهي اللغة العربية، وهناك لغات أخرى مستخدمة كاللغات التركية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية^(٥). ويبدو أن الصّراع الأوروبي - العثماني حول

(١) The Empire in the city: Arab provincial Capitals in the Late Ottoman Empire: Edited by Jens Hanssen, Thomas Philipp, Stefan Weber-Beirut: Orient-Institute De DMG, 2002, p. 106.

(٢) د. عصام شبارو، تاريخ بيروت، دار مصباح الفكر، بيروت، ١٩٨٧.

(٣) عبد الرحمن بك سامي، (المصدر السابق)، ص ٣٣-٣٤.

(٤) محمد علي باشا، الرحلة الشامية، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١، ص ١٧، ٥٢.

(٥) د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: د. كمال اليازجي، ج ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٢٠.

السيطرة الاقتصادية والثقافية؛ أسهم في انتشار الثقافة الغربية في بيروت، وما يؤكد ذلك قول ليلي فواز في مقالتها (الوجود الأجنبي والحكم العثماني في بيروت): «إنَّ ازدواجية النُّفوذ الأوروبي والعثماني في بيروت أمَّن انفتاحاً سياسياً واجتماعياً بقي مميّزاً شخصياً لهذه المدينة في الأزمنة الحديثة...».

وتتابع فتقول: «وبطريقة ما، فإنَّ الصِّراع على النُّفوذ بين القناصل الأوروبيين والعثمانيين والنِّزاعات حول السيطرة الاقتصادية والثقافية، وإنشاء المدارس وتكثير الصحف والوظائف الاجتماعية التي تولّد عنها؛ ساهمت في تأسيس التقليد الليبرالي في بيروت، والذي ساد في القسم الأكبر من القرن العشرين، بعد اندحار السلطنة العثمانية، وبعد انسحاب الأوروبيين من المنطقة^(١)».

ج - الأسواق والمهن والحرف في المجتمع البيروتي

تظهر ملامح الحياة الاجتماعية في بيروت العثمانية وأنماطها وحركتها عبر الأسواق التجارية والعلاقات الاقتصادية وأماكن ممارسة الحرف والصناعات

والتجارة، وما لا شك فيه أن هذه الأسواق شكّلت عنصراً هاماً في حياة المجتمع البيروتي، وهو مجتمع الفئة العاملة أو مجتمع الحرفيين والتجار الذين قاموا بدور أساسي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بيروت^(٢)، ومن بين هذه الأسواق:

١ - سوق الأساكفة: وهو من الأسواق المتخصصة الذي يتجمّع فيه الأساكفة العاملون في مهنة الجلود والأحذية بمختلف أنواعها وأشكالها. وكان هذا السوق يقع في باطن بيروت قرب الجامع العمري الكبير، بالقرب من دكان وقف «قفة الخبز». وكان يوجد فيه القهوة التي يتجمّع فيها الأسكافيون والمعروفة باسم قهوة سوق الأساكفة. وكان هذا السوق قريباً من سوق النجارين^(٣).

٢ - سوق البازركان: كان يتجمّع في هذا السوق بصورة أساسية أصحاب المهن المتعلقة بالأقمشة والخياطة. وتمركزت فيه دكاكين الخياطين، الذين كانوا يصنعون الألبسة العثمانية - البيروتية المعروفة في تلك الفترة. ولما تفرّجت بيروت صار يعرف هؤلاء باسم «الخياطين العربي». وقد وُجد في هذا السوق ميزان الحرير وسوق

(١) رفعت صدقي النمر، وآخرون، (المرجع السابق)، ص ٥١.

(٢) The Empire in the city: Arab provincial Capitals in the Late Ottoman Empire, p. 93.

(٣) د. حسان حلاق، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، (المرجع السابق)، ص ١٠٠ (بتصرف).

الصَّاعَة، حيث مُورست المهن والحرف والتَّجارة المتعلقة بالحرير والذهب والفضة...

٣ - سوق الحدادين: كان مركزاً لعمل الحدادين العاملين في تصنيع الأشغال الحديدية، وكان مركزاً لدور سكنية عديدة على عادة الأسواق القديمة، حيث يسكن بعض أصحاب المهنة قرب مراكز عملهم. وكان يقع هذا السوق في باطن بيروت في الطريق إلى الميناء، حيث يلتقي بالباب الشرقي للجامع العمري الكبير^(١). وقد أكد عبد الرحمن بك سامي على همّة البيارة وكرمهم وحسن ضيافتهم مشيراً إلى أنّ «أهل بيروت ذوو همّة في الأشغال يقومون صباحاً قبل الشّمس ويشغلون طول النّهار بلا ملل، كلّ في عمله، ولا تكاد ترى بينهم باهلاً يتردد بلا عمل إلا في ما ندر»^(٢).

الخاتمة

بعد أن استطاع العثمانيون السيطرة على بيروت المحروسة وتوطيد دعائم دولتهم الإسلامية في المجتمع البيروتي المتعدد الطوائف والانتماءات العرقية أو المذهبية، وذلك على غرار نزوح بعض العائلات البيروتية المثقفة نحو سياسة

«التفرنج» الأوروبية، فقد عمدت الإدارة العثمانية إلى ضبط الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بيروت، في المقابل كان الضغط قوياً من جانبهم على الحريات العامة فأبناء المدن الساحلية «بيروت، طرابلس، وصيدا» كانوا محكومين بالذهاب إلى التّجنيد الإجباري في الجيش التركي رافقها هروب عدد كبير من عائلات بيروتية «آل سرسق، آل تقلا، وآل اليوسف» إلى مصر، حيث برزت حقبة تطور الصحافة والطباعة العربية هناك، فأسسوا كُبريات الصحف المصرية التي لا تزال تصدر لغاية الآن «كالأهرام، وروز اليوسف» وسواها، فيما تنادت العديد من العائلات البيروتية، وأهالي جبل لبنان خاصة، وذلك من خلال أبنائها المثقفين والمتعلمين «كآل البستاني، آل اليازجي، وآل سعد» وغيرهم إلى رفض حملة التتريك على اللغة العربية.

وفي نهاية المطاف لا يمكن أن ننسى قافلة الشّهداء الذين أُعدموا في ساحة البرج (أيار - ١٩١٦م) و(حزيران - ١٩١٧م) شنقاً بأمر من الوالي التركي جمال باشا، فدفع الثمن أفراد من عائلات بيروتية عريقة.

(١) أنظر، د. حسان حلاق، أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، سجلات المحكمة الشرعية، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، ط ١، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٤.

(٢) د. حسان حلاق، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، المرجع نفسه، ص ١٠١ (بتصرف).

ومما لا شك فيه أن هذه الدراسة التاريخية سلطت الضوء على الأدوار المتعددة التي لعبها العثمانيون في مرحلة حكمهم للمنطقة العربية زهاء «أربعمائة عام»، فكشفتِ القناع عن وجوههم الماكرة، فشاركوا في حياكة الكثير من المؤامرات والدسائس التي رُكِّبت بحسب مصالحهم مع الدول العظمى.

المصادر والمراجع

أ - المصادر

- ١ - القاياتي، الشيخ محمد عبد الجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- ٢ - سامي، عبدالرحمن بك، القول الحق في بيروت ودمشق، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
- ٣ - التونسي، محمد بيرم، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ج ٤، تونس، المجمع التونسي للعلوم، ١٩٩٩م.
- ٤ - باشا، محمد علي، الرحلة الشامية، نسخة مصورة عن دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

ب - المراجع العربية والمعربة

- ١ - كارن، جون، رحلة في لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، تعريب: رثيف خوري، بيروت، دار المكشوف، ط٢، ١٩٤٨م.
- ٢ - حلاق، د. حسان، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والدعاوى والتوكيلات الشرعية والقانونية للمسلمين والمسيحيين وللرعايا العثمانيين والأجانب في العهد العثماني، ط١، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٩م.
- ٣ - حلاق، د. حسان، أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني، سجلات المحكمة الشرعية، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٤ - حلاق، د. حسان، بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت.
- ٥ - النمر، رفعت صدقي، وآخرون، بيروت في المرحلة العثمانية، ط١، بيروت، مجلة تاريخ العرب والعالم، ١٩٩٤م.
- ٦ - حنّ، د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: د. كمال اليازجي، ج ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.
- ٧ - الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط٢، دار النهار للنشر، ١٩٨٠م.

ج - المراجع الأجنبية

1 - Jens Hanssen, Thomas Philipp, Stefo Weber
The Empire in the City: Arab provincial capitals in the Late Ottoman Empire: Beirut: Orient-Institute De DMG.2002.

الرئيس سليمان فرنجية وحكومة الشباب سنة ١٩٧٠ الإحباط وفشل الإصلاح الإداري

دكتور نصر قرحاني

إيجابية لدى السياسيين، وترضي الرأي العام.

صحيح إنّ تكتل الوسط نجح في إيصال رئيس الجمهورية إلى كرسي الرئاسة، إذ كان يحظى بتأييده، وبتأييد تحالفات محددة ومتنوعة، سواء من جهة الحلف الثلاثي الذي ضم كميل شمعون وريمون إده وبيار الجميل، أو من جهة جبهة النضال الوطني برئاسة كمال جنبلاط، إلا أنّ ذلك التأييد كان مشروطاً بتحقيق بعض المطالب الوزارية لهذه الفئات.

إذ أعلن جنبلاط صراحة أنّه يسعى لتحقيق مطالب محددة، وذلك واضح في قوله، يوم استقالة الحكومة الكرامية: «إن كل ما كنت أتمناه لم يحصل، لأسباب عدة، منها ظروف عربية، ودولية وتناقضات

تُغفل كتب التاريخ ذكر الحكومة الأولى التي ألفها الرئيس صائب سلام، والتي لم تبصر النور، ووقع خلل دستوري بسبب الإعلان عنها، قبل أن تخرج إلى حيز الوجود، والمؤرخ الذي أفصح عنها، كان يعمل في الداخل، من داخل مجلس الوزراء.

وألصق الناس بالرئيس صائب سلام، أنه أمين عام مجلس وزراء الدكتور عمر مسيكة. فبعد استقالة الرئيس رشيد كرامي^(١)، قام الرئيس سليمان فرنجية بتكليف حليفه صائب سلام بتشكيل الحكومة الجديدة الأولى في عهده، وكان الرئيس سلام مبعداً عن تأليف الحكومات مدة عشر سنوات^(٢)، لذا وجدناه متشوقاً ومتلهفاً لتأليف حكومة، تخرج من غرفة العناية الفائقة بسرعة، وتشكل صدمة

(١) ماجد، ماجد، تاريخ الحكومة اللبنانية ١٩٩٦، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٨٦.

(٢) مسيكة عمر، أحداث وخفايا في لبنان والمنطقة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٩٥.

داخلية. إن تكتل الوسط وحلفاءه، جَمَعهم العداء للشهابية، وفَرَّقتهم في ما بعد صراعات المكاسب والمصالح، وهذا ما بدا واضحاً عند بدء الاستشارات لتأليف الحكومة الجديدة.

لقد بدأت المطالبة ترتفع بوزارات محددة الأقطاب، في حين كان الرئيس سليمان فرنجية يدرك أن حكمه يقوم على وزارات أساسية، لا يمكنه أن يفرط بها، أو يجعلها للحلفاء لا للموالين، ومنها وزارات الدفاع والداخلية والخارجية والاقتصاد، كان متوافقاً مع الرئيس صائب سلام، على أن تقوم حكومة قوية متجانسة، على أساس الديمقراطية والحرية، فوق أنقاض الشهابية، وفي مواجهة حكم الجيش والمكتب الثاني، وكان طموحهما تأليف حكومة برلمانية موسعة تعكس تيارات المجلس وكتله النيابية وقوتها. وقد ظهر في هذا المجال رأيان:

الأول: يقول بحكومة اللون الواحد، وهو ما نادى به كمال جنبلاط، والعميد ريمون إده، باعتبار أن الديمقراطية تقول إن من يتولى الحكم يكون من الجهة المنتصرة، وتبقى الجهة المعارضة خارج الحكم، لأن وجودها قد يعيق الانسجام داخل الحكومة، وذلك ما فعلته العناصر الشهابية يوم

استلمت زمام الأمور، **والرأي الثاني:** قال به بيار الجميل، يقضي بتأليف حكومة، تضم بعض النهجين، وحجته أن الظروف تحتم الائتلاف^(١).

بعد الاستشارات النيابية، واستطلاع آراء النواب التقليدي، حول مطالبهم وتصورهم لشكل الحكومة، برزت بعض العراقيل، منها مثلاً مطالبة العميد ريمون إده بتسليم حقيبة وزارة الدفاع، وقد أعلن ذلك صراحة: «إما أن أتولى حقيبة وزارة الدفاع أو لا أشارك». وطالب كمال جنبلاط في الوقت نفسه بحقيبة الدفاع وإلا فوزارة الداخلية^(٢). وبدأت الشروط والمطالب تتوارد من كل اتجاه، وأعلن الرئيس صائب سلام أنه يطمح إلى حكومة أقطاب، تضم الزعامات الكبرى في البلاد، وطرح بعض الأسماء كالعميد ريمون إده وكمال جنبلاط، وبيار الجميل وكاظم الخليل ونزيه البزري، وأمين الحافظ كممثل عن الرئيس رشيد كرامي الصامت والمتفرج. ووضع الرئيس سلام لائحة بإثني عشر اسماً، توزعت إلى جانبها الحقائق الوزارية أمام كل منها، ورحب بها الجميع، ثم دخل بها إلى الرئيس فرنجية، ثم طلب إلى أمين مجلس الوزراء إعداد مشاريع المراسيم المتعلقة بها.

(١) المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٢) مرجع سابق، ص ١٩٥.

وأعلن للصحافيين، عند خروجه من القصر الجمهوري، أنَّ الحكومة قد شكلت وقد أذيعت الأسماء من خلال الإذاعة اللبنانية، التي كانت وحدها في الساحة.

بعد إذاعة الأسماء، بدأت ترد تباعاً إلى دارة الرئيس صائب سلام، أصوات إما موافقة، أو مترددة، أو معترضة، أو رافضة، وارْتُئي أن الرئيس سلام قد وقع في ورطة دستورية، وقد دفعه ذلك إلى طي مراسيم التأليف في مهدها^(١). وهكذا لم يُكتب النجاح لتأليف الحكومة في المحاولة الأولى، وسارعت صحيفة النهار إلى إصدار طبعة ثانية تشير إلى الخلل الدستوري الحاصل، وعنونت الصحافة يومها، بـ «كلام الليل يمحوه النهار»^(٢).

استغل الرئيسان فرنجية وسلام التجاذبات الحاصلة، والمناورات المتبادلة بين المرشحين لدخول الوزارة، واغتنما الفرصة السانحة كي يطلعا على اللبنانيين بأمر جلل جديد، كانا عزمًا عليه من قبل. فبعد شروط جنبلاط وزيارته رشيد كرامي، تلك الزيارة التي حملت مغزى خاصاً، مفاده التهويل على الذين يريدون تقليص دوره، وتكبير حجمهم، بحجة أنه

أصبح وحيداً، ولم يعد متحالفاً مع النهج، ردَّ الرئيس سلام على هذه المناورة، بالاعتكاف في منزله، وأدى عناد كل من الرئيسين سليمان فرنجية وصائب سلام، وتشبثهما برأيهما إلى خروج الحكومة من الدوام، عبر صيغة لا يتوقعها الجميع، وهي صيغة «ثورة من فوق» أو صيغة حكومة الشباب، التي قيل عنها في الصحافة آنذاك بأنها حكومة المجهولين. وقبل أن نورد أسماء أعضاء تلك الحكومة، وللدلالة على عناد الرئيس غبريال خوري، رئيس الاتحاد العمالي العام، وضع في تشكيلة الوزارة الجديدة، وحين إصراره على تولي حقيبة وزارة العمل، أسندها إلى سواه مما أدى إلى اعتذاره^(٣).

في ١٣ تشرين الأول ١٩٧٠م، صدر المرسوم القاضي بتشكيل حكومة العهد الأولى على الوجه الآتي:

- ١ - صائب سلام: رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للداخلية.
- ٢ - غسان تويني: نائباً للرئيس ووزيراً للتربية الوطنية والأنباء.
- ٣ - المهندس هنري إده: وزيراً للأشغال العامة.

(١) مسيكة عمر، المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٢) جريدة «النهار»، عدد ٢٧ أيلول ١٩٧٠.

(٣) مسيكة عمر، أحداث وخفايا في تاريخ لبنان والمنطقة»، ص ٢٠٣.

- ٤ - الدكتور حسن مشرفية: وزيراً للتصميم العام.
- ٥ - الدكتور صائب جارودي: وزيراً للاقتصاد الوطني، والسياحة.
- ٦ - الدكتور إدوار صوما: وزيراً للصناعة، والدفاع الوطني.
- ٧ - الدكتور إميل البيطار: وزيراً للصحة العامة.
- ٨ - الدكتور جميل كبي: وزيراً للعدل، والبريد والبرق.
- ٩ - الدكتور إلياس سابا: وزيراً للمالية.
- ١٠ - المهندس جعفر شرف الدين: وزيراً للموارد المائية والكهربائية.
- ١١ - المحامي منير حمدان: وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية.
- ١٢ - المحامي خليل أبو حمد: وزيراً للخارجية والمغتربين.
- وتميزت هذه الحكومة بأئمة من خارج أعضاء مجلس النواب الثاني عشر، باستثناء رئيسها^(١). وهي مؤلفة من وجوه جديدة من الشباب الليبراليين، وكان معظمهم من
- خريجي الجامعة الأميركية في بيروت^(٢)، ما يعني أنَّ الثقافة الإنكليزية بدأت تثبت وجودها، وتحلَّ محل الثقافة الفرنسية، في دفع أصحابها إلى تسلم المراكز العليا في البلد، وعرفت هذه الحكومة بحكومة الشباب لترمز إلى تحرير البلد من قبضة الشهابية^(٣). وأعلن صائب سلام نيّة النظام بإدخال نفحة من الحياة في السياسة اللبنانية ولوهلة قصيرة ساد الوطن مزاج متفائل^(٤).
- بعد تشكيل الحكومة على ذلك النحو، ألقى البيان الوزاري في المجلس النيابي في جلسة ١٧/١٠/١٩٧٠ م، ونوقش البيان خلالها، ونقلت وقائع الجلسة بواسطة الراديو والتلفزيون، واستؤنفت الجلسة ست مرات ما بين ١٧ و ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٠ م ونالت الحكومة الثقة بأكثرية ٧٦ صوتاً ضدّاً، وامتناع ٤، وغاب عن الجلسة ١٧ نائباً^(٥).
- وعقب إعلان التشكيلة الحكومية، بدأت تظهر بعض الإشكالات، حتى قبل انطلاقها في العمل، فقد اعتذر الوزير أدوار صوما

(١) محاضر مجلس النواب، ١٩٧٠ الجلسة الأولى، ص ٨١٩-٨٢٠.

(٢) هانف تيودور، لبنان تعيش في زمن الحرب، نقله عن الألمانية مورييس صليبيا، مركز الدراسات العربي الأوروبي، باريس، ١٩٩٣، ص ١٦٤.

(٣) Cobran Helena. The making of Modern Lebanon, 1985, p.111.

(٤) Saliba Kamal. Crossroads To Civil War, Lebanon 1958-1976, New York, 1976. P.56.

(٥) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٨٩.

عن الاشتراك في الحكومة، بسبب وجوده على رأس منظمة الأغذية والزراعة الدولية، التابعة للأمم المتحدة، فأُسندت الوزارتان اللتان كان من المزمع أن يتولاهما: الأولى وهي وزارة الدفاع إلى الوزير إلياس سابا بالوكالة، والثانية وهي وزارة الزراعة إلى الوزير هنري إدّه^(١).

وكان من الطَّبِيعِي أن يجيء البيان الوزاري، على غير ما كانت عليه البيانات، وعلى الصورة المليئة بالطموح، التي رسمها الرئيس صائب سلام في الحكم، وفي السياسة الجديدة للعهد الجديد، تجسد الإيمان بالديموقراطية، والحرية، والنظام الديمقراطي البرلماني.

لقد جاء البيان وثيقة عمل واضحة بسيطة مباشرة، وصريحة، وثيقة عمل لدولة عصرية. ويكشف البيان الوزاري أن السياسة العامة في هذه الحكومة، هي امتداد لإرادة مجلس النواب، التي تمثلت في انتخابات فرنجية رئيساً، إنها الإرادة الشعبِيَّة التي تحتم أن يولي الحكم قضايا الشعب الأهمية والأولوية^(٢)، كما يلي:

أولاً: التهيئة لتخطيط متكامل للمستقبل اللبناني.

ثانياً: تمكين الدولة من توفير الخدمات.

ثالثاً: مراجعة جميع برامج التربية والتعليم.

رابعاً: إقامة حكم النظام والقانون.

خامساً: حماية الوطن، ووسائل الصمود.

سادساً: القضية الفلسطينية ومساندة العمل الفدائي^(٣).

لقد حاول غسان تويني في وزارة التربية وهي أم الوزارات، أن يُحدث ثورة فعلية، ويحقق إصلاحات تربويّة على صعيد البرامج والمناهج والإنسان، فلم يتسن له ذلك، واكتشف كم أن أخطبوط التقليد والفساد، ناشر امتداداته في أرجاء الوزارة فاستقال من الحكومة بعد بقائه في الوزارة أقل من ١٥ أسبوعاً وقد كانت استقالته في ٢٠ كانون الثاني ١٩٧١م وقبلت وأُسندت وزارة التربية إلى الدكتور نجيب أبو حيدر ووزارة الأنباء إلى هنري طربيه^(٤) وإذا عدنا إلى كتاب استقالته والبيان الذي أصدر بعد الاستقالة لتبينت لنا الأسباب التي أدت إلى ذلك وهو يوجز ما كان وضعها: استمرار الوزير في الحكم هو رهن بشروط

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٩.

(٢) مسيكة عمر، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٤) جريدة النهار ٢١ آب ١٩٧٠.

لعل أهمها استمرار ثقته بالقدرة على تحقيق ما جاء من أجله ووعد نفسه والناس به أرجو قبول استقالتني لشعوري بأن استمرارني في الحكم أصبح غير ذي موضوع لأنّ الوضع الحاضر لم يُمكنني من تحقيق ما تكون لدي أثر ثلاثة أشهر من الممارسة بغير الأساليب التي في متناول هذه الحكومة^(١).

وفي بيانه بعد الاستقالة يتوسع غسان تويني في الشرح ويوضح مزيداً من التفاصيل:

بعد دخولي الحكومة بدأت أحس بشيء من الغربة داخل الحكم شعرت بتعلق وعدم اطمئنان إلى أنني موجود حيث يجب أن أكون موجوداً جاءت هذه الحكومة وأطلق عليها بعض الصحف لقب حكومة الثورة من فوق وكانت حكومة شباب وكان عليها بالفعل إمّا أن تقوم بثورة من فوق أو لا تستمر في الحكم إنما منذ نشأة هذه الحكومة لم تكن في وضع يمكنها من أن تمارس من الصلاحيات أكثر مما يمكن أن تمارسه حكومة عادية حالت شخصياً منذ مجيئي أن أحصي المشاكل التي تواجه وزير تربوية وطنية. حضّرنا إحصاء قد يكون مضحكاً عن مطالب الطلاب والمعلمين

فوجدنا أن لهم ٤٥ مطلباً ٤٥ قضية متراكمة عبر عهود طويلة من اللاعنانية فجعلنا شعار العمل في وزارة التربية المشاركة والحوار^(٢).

ويعدد غسان تويني المشاريع التي قدمها عدا قانون المعادلات:

إعادة تنظيم وزارة التربية - إنشاء وزارة الثقافة - تنظيم التعليم الخاص - كما يشكو تويني من الاضطرابات والمظاهرات التي انطلق آخرها يوم تقديمه الاستقالة: وعلى الصعيد التربوي أنا فخور بأن أقول إنّه في خلال المظاهرات وآخرها تظاهرة صباح اليوم - ١٩٧١/١/٢٠ - والاضطرابات وآخرها حلّ أمس ومساء بقرارات اتخذت ليلاً وهي اضطرابات التعليم المهني تكونت لدي صداقات جديدة هي صداقات الأساتذة والطلاب الذين كنت أجتمع معهم وكان همّي أن أعيد الحوار بينهم وبين الدولة وأن أعيد الثقة المفقودة عبر تراكم سنوات عدة^(٣).

ويوضح الدكتور عمر مسيكة المشاكل التربوية بالقول: كانت اهم نقاط الضعف اللبناني تكمن في الوضع التربوي انطلاقاً من المشاكل المزمنة للطلاب والأساتذة على صعيد المدرسة الرسمية كما على صعيد

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جريدة النهار، عدد ١٢/١/١٩٧٠.

الجامعة اللبنانية واستطاعت هذه المشاكل والمطالب أن تؤثر على الوضع الحكومي وتؤدي إلى استقالة أو إقالة وزراء فقد شهد العام ١٩٦٨ الثورة الطلابية على غرار الثورة الطلابية في فرنسا واجتاحت التظاهرات والإضرابات المناطق وقد عرف مطلع العام ١٩٧٣ إضراباً شاملاً للأساتذة ودعوات إلى التظاهر وهكذا وقع ٢٦٠٠ معلم على عريضة تدعو إلى الإضراب وأعلنوا أنهم بدأوا بذلك وكانت الجلسة الاستثنائية لمجلس الوزراء في ٢٦/٢/١٩٧٣ المحك للموقف من ذاك الإضراب حيث ذكر الرئيس فرنجية أن القضية أكبر من أن يتحملها وزير بمفرده^(١).

وانطلاقاً من سياسة العناد التي اتصف بها الرئيسان وسياسة كسر العظم لجأ مجلس الوزراء إلى فصل عدد من المعلمين والمعلمات في المراكز القيادية النقابية وتم طردهم نهائياً من سلك التعليم وكان المحرك للإضرابات في القضايا التربوية مشاكل تربوية عانى منها الطلاب في مختلف المستويات:

الثانوية والجامعية منها مثلاً مسألة معادلات الشهادات التي ينالها الطلاب في الخارج وقضية العلامة اللاغية التي تساهم في رسوب عدد كبير من الطلاب بسبب

ضعفهم في اللغات الأجنبية لأن المدارس الرسمية إجمالاً لا تؤهلهم لإتقان تلك اللغات ويتفرع عن هذه المشكلة قضية تعريب المناهج التي ظن الطلاب أنهم بتعريبها يتخلصون من الضعف المزمن ويتشابه ذلك كله مع ضرورة الاتفاق على كتابة التاريخ المدرسي الوطني الذي لا يخدم جهة معينة ومسألة تكافؤ الفرص في تولي الوظائف العامة واعتماد معيار الكفاءة والجدارة.

وأما الدكتور إميل البيطار فقد حاول أن يقوم بثورة reforme في مجال وزارة الصحة. لقد أدرك أن هذه الاحتكارات هي التي تسيطر على عالم الدواء وتتحكم بأسعاره لتفرضها على المواطن الفقير الذي ترهقه فاتورة الدواء وفاتورة الاستشفاء وكم من مريض توفي على أبواب المستشفيات من دون أن يجبرها أحد على إلزامية إدخاله واستقباله والعناية به وصمم الوزير بيطار على الوقوف في وجه مافيا الدواء والتصدي لتحكمها بالسوق واتخذ قراراً بخفض أسعار الدواء بنسبة ٢٥٪ فثارت ثائرة تجار الأدوية وأقدم بعض مستوردي الأدوية على التوقف عن استيراد بعض الأصناف التي كانوا يستوردونها قبل قرار خفض الأسعار فتقدم الوزير البيطار

(١) مسيكة عمر، أحداثاً وخفايا...، ص ٢١٩.

خلال جلسة مجلس الوزراء التي انعقدت في ٢٢/١٢/١٩٧١ بمشروع قانون معجل مكرر يقضي بسحب رخص استيراد الأدوية من هؤلاء المستوردين وهنا طرحت المشكلة بكل أبعادها وأثارت جدلاً واسعاً على الصعيد الحكومي والشعبي ففي خلال الجلسة حصل جدال حول القانون أصر خلاله الوزير بيطار على مشروعه معتبراً أنه الوسيلة الوحيدة لتأمين الأدوية إلا أن الأمور لم تكن بمثل تلك البساطة فقد كان جواب الوزراء وبينهم وزير الاقتصاد والمال والتربية الوطنية أنهم مع تأييدهم المبدئي للمشروع يرون أن في الإمكان درس اقتراحات أخرى من شأنها تأمين الدواء من دون خلق متاعب سواء لدى عرض المشروع على مجلس النواب أو مع المستوردين^(١).

وفي جملة هذه الاقتراحات إعطاء رخص جديدة لمستوردين جدد أو تحويل صندوق الضمان الاجتماعي استيراد الأدوية المفقودة.

إلا أن الوزير بيطار قال: إنه لا يجوز أن يؤخذ المستوردون باللين فقد ظهر عندما استعملت الدولة الشدة معهم أن جاؤوا

للتفاوض مع وزارة الصحة مبدين استعدادهم للعمل بما تقترحه الوزارة فإذا تراخت الحكومة الآن فقد يعودون إلى التصلب وتعذر عندئذ معالجة أزمة الدواء وقال: إن مشروعه هو الوسيلة الفضلى لمعالجة القضية وأنه يعتبر نفسه مستقيلاً إذا لم يؤخذ به^(٢).

وانتهى الأمر بالوزير بيطار إلى تقديم استقالته ما يعني عجزه عن تنفيذ خطته ولأن سياسته قوبلت بمقاومة قوية من الصيادلة المسيطرين على السوق والذين يضمون مجموعة من أقرب الأصدقاء والمساعدین للرئيس فرنجية^(٣).

ونص استقالته هو التالي:

«يؤسفني أن أؤكد لفخامتكم استقالتي الشفهية خلال جلسة مجلس الوزراء الذي انعقد يوم الأربعاء في ٢٢/١٢/١٩٧١ أثر عدم تبني مشروع القانون المعجل المكرر الذي يخول وزير الصحة سحب رخص استيراد الأدوية بغية توفيرها اتقاء لكل ما من شأنه الإضرار بصحة المواطنين والسلامة العامة والذي نالت على أساسه تأييد إجماع النواب في جلسة المجلس النيابي المنعقدة بتاريخ ١٤/١٢/١٩٧٠

(١) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٩٣.

(٢) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٩٣.

(٣) Saliba Kama, Crossroads To Civil War. Op cit. p56.

ولم يصوت خلالها على الثقة رسمياً لأسباب تعلمونها تمام المعرفة وبالمناسبة أود أن أؤكد لكم أن سياستي كانت دائماً مستوحاة من البيان الوزاري الذي وضع في طليعة أهدافه تنظيم الاقتصاد الحر للمحافظة على أسسه السليمة»^(١).

أما استقالة الوزير حسن مشرفية من وزارة التصميم فلها قصة أخرى وقد ترافقت مع حملة متبادلة مع كمال جنبلاط ورئيس الحكومة صائب سلام ما حمل المراقبين على الربط بين الاستقالة والحملة المتبادلة إذ يبدو أن الوزير مشرفية اليساري كان محسوباً على كمال جنبلاط.

غير أن مشرفية نفى ارتباط استقالته بالحملة بين الزعيمين وردها إلى اقتراب موعد الانتخابات في نيسان ١٩٧٢ ولأن لا دور لوزارة التصميم في العملية الانتخابية:

بعد تقديم استقالته في ١٧/٣/١٩٧٢ عقد الوزير حسن مشرفية مؤتمراً صحفياً نفى فيه أن يكون لاستقالته أية علاقة بالصراع القائم بين الرئيس سلام والسيد كمال جنبلاط وقال: أنا في الحكم رجل علماني ولم أتعرض لأي ضغط طائفي أو غير طائفي لأستقيل وإني أنفي ذلك نفياً قاطعاً وإذا كانت استقالتي قد صادف

توقيتها وجود حملة اتهامات متبادلة بين الرئيس سلام والأستاذ كمال جنبلاط فلا يعني أن لها ارتباطاً بها بل حصلت مصادفة وأن أسباب استقالتي معروفة وهي كما قلت تتصل برغبتي في أن لا أبقى في الوزارة عندما تباشر مهمة الإشراف على الانتخابات ولا يبقى بالنسبة إلي كوزير للتصميم أي عمل^(٢).

وقد عدد الوزير مشرفية الإنجازات التي حققها في وزارته:

لقد أعربت عن رغبتي في الاستقالة منذ أن قدم السيد هنري اده استقالته إلا أن الرئيس فرنجية طلب مني البقاء لوضع الخطة السداسية وبعد الانتهاء من وضعها نبحت في الاستقالة^(٣).

وبعدما انجز وضع الخطة السداسية والإحصاء عن قوى اليد العاملة وهو يقع في خمسة مجلدات واستغرق إعداده جهداً كبيراً و١٦ شهراً من العمل فأتحت الرئيس فرنجية والرئيس سلام مجدداً قبل أن يقع الاعتداء الإسرائيلي الأخير على الجنوب لكنني وجدت أن الواجب الوطني يفرض علي البقاء وتأجيل الاستقالة بعدما وقع العدوان إلى وقت مناسب لكنني أبلغت الرئيسين فرنجية وسلام أنني لن أبقى في

(١) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٩٣.

(٢) جريدة النهار، عدد يوم السبت ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٢ و ٥.

(٣) جريدة النهار، عدد ١٨/٣/١٩٧٢.

الحكومة عندما تبدأ مهمة إشرافها على الانتخابات^(١).

أما الوزير هنري اده، وزير الأشغال الأصيل ووزير الصناعة بالوكالة فكان الثاني الذي قدم استقالته بتاريخ ١٠/١/١٩٧١^(٢) بعد الوزير غسان تويني وبطبيعة الحال فالسبب هو أن الأعمال لم تكن جارية كما يرغب من حيث الدقة والشفافية ووضع كل شيء في نصابه.

وأما الدكتور إلياس سابا وزير المالية وهو مساعد مقرب للرئيس ومستشار له فقد حاول إدخال مشروع إنمائي خلال ست سنوات ركز فيه على ضرورة إصلاح نظام الضرائب وإدخال تدابير رقابية جديدة وزيادة الضرائب على الكماليات المستوردة وذلك في المرسوم الشهير الذي حمل رقم ٤٣ ومرافق للموازنة العامة ويوازيه اليوم المرسوم رقم ٩ المشهور الذي يمس جيوب الناس إلا أن تلك التدابير المقترحة للإصلاح استتارت ردة فعل قوية من قبل التجار أصحاب النفوذ الأقوياء ورؤساء غرف التجارة والصناعة وكان لابد في النهاية من التخلي عن كل تلك التدابير واضطر الوزير إلى سحب قراره أي تقديم

استقالة من نوع آخر، كما أن الوزير سابا وزميله وزير الاقتصاد: صائب جارودي باءا بالفشل في محاولات الحد من الزيادة الخطيرة في كلفة المعيشة وقد كان من أسبابها الارتفاع العالمي للأسعار من ناحية والجشع والطمع في الأرباح العالية التي يتميز بها التجار والمستوردون اللبنانيون^(٣). وفي أواخر ربيع ١٩٧٢ أثبتت التجربة السلامة مع حكومة الشباب كان الانهيار السريع للآمال والطموحات التي عقدها اللبنانيون في بداية العهد.

أما الدكتور عمر مسيكة فيلخص أسباب فشل حكومة الشباب إلى المعارضة القوية التي صادفتها: تصاعد المواقف المعارضة للحكومة داخل المجلس النيابي بعدما عجزت عن حل القضايا المعيشية والتربوية والصحية والشعبية نتيجة لقدرة الاحتكارات المالية على تحريك الساحة ضدها كلما حاولت القيام بأي إصلاح، مزودة بغطاء سياسي لها من ضمن صفوف^(٤) أهل السياسة في مختلف المواقع.

ويعطي المؤرخ كمال الصليبي أسباباً إضافية لفشل الإصلاح هي ما سمي

(١) جريدة النهار، عدد ١٨/٣/١٩٧٢.

(٢) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٩٠.

(٣) هانف تيودور، المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٤) مسيكة عمر، أحداث وخفايا في لبنان والمنطقة، ص ٢٢٠.

بـ «نظام المحاسيب». فقد استمرت عملية تطهير الإدارة من الشهابيين وكان عدد الشهابيين الذين احتلوا مراكز إدارية عالية وابقوا في مناصبهم قليلاً جداً.

وقد تم استبدالهم الواحد تلو الآخر ليحل محلهم في أكثر الأحيان رجال من حاشية الرئيس الشخصية ما عرض النظام للاتهام بالعودة إلى نظام البطانة والحاشية إذا لم يظهر الرئيس أي انزعاج من ظاهرة انتفاع أصدقائه وأنصاره من مكاسب السلطة ولم يُقم أي اعتبار لردة الفعل الشعبية على مثل هذه التصرفات وعلى الرغم من أن الفساد الإداري ليس جديداً على لبنان إلا أنه في الواقع أحرز تطوراً سريعاً ما ساهم في أضعاف العهد وخاصة بعد فشل برنامج الإصلاح لحكومة الشباب وأخذت البلاد تغرق بعد يأسها من إمكانية الإصلاح في مزاج كثيف من الشك لم تعرفه من قبل^(١).

هل أدرك الآن أصحاب الطموحات الكبيرة في الإصلاح، أن الحرب بالنظارات هينة، وهل حفظوا الأمثلة التي كان يرددها فؤاد شهاب دوماً، والتي أبعدته عن تناول كأس الحكم المرة مرة أخرى لقد اقتنع فؤاد

شهاب من خلال تجربته في الحكم أن لبنان يحتاج إلى تغييرات جذرية في الدستور والحكم والسياسة الاقتصادية والاجتماعية ولكنه كان قد أدرك بالفعل أن اللبنانيين ليسوا مؤهلين ولا مستعدين ولا راغبين في أي تغيير جذري أو أساسي بل إنهم كانوا مستمرئين للأوضاع الراهنة وغير مدركين كل الإدراك لتصديق الميثاق الوطني وللأخطار التي تتربص بهم^(٢).

وقد قال لباسم الجسر مرة قبيل وفاته بشهر: «إن الزعماء السياسيين مستمرون في اعتبار الدولة بقرة حلب، ولا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية أو الطائفية أو الإقليمية ولا يشعرون بأن الأرض تتحرك من تحتهم إنهم سيستيقظون يوماً ليروا الثورة في كل مكان وقد يطردهم الطفرانون والمسحوقون حتى من منازلهم ويضربونهم في الشوارع»^(٣).

لقد تصدعت حكومة صائب سلام إذاً من الداخل باستقالة خمسة وزراء على التوالي من وزاراتهم ثم جاء حدث خارجي ففجرها ودفع رئيسها صائب سلام إلى تقديم استقالة الحكومة كاملة في ١٠ أيار ١٩٧٣ وكان ذلك إثر الهجوم الإسرائيلي

(١) Saliba kamal. Crossroads To Civil War. Op cit. p.58.

(٢) الجسر باسم، فؤاد شهاب ذلك المجهول، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٨، ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

على قلب بيروت في ١٠ نيسان ١٩٧٣^(١)
ومقتل الفدائيين الثلاث في بيروت^(٢).

وبعد استقالة الحكومة السلامية الأولى
في عهد الرئيس سليمان فرنجية، كلف
الرئيس صائب سلام بتشكيل الحكومة
الثانية إلا أن هذه الحكومة ما لبثت أن
انهارت كذلك بفعل حدث خارجي هذه المرة
تمثل بالهجوم الإسرائيلي على قلب بيروت
في ١٠ نيسان ١٩٧٣ ومقتل الزعماء
الفدائيين الثلاثة محمد يوسف النجار
وكمال عدوان وكمال ناصر ما دفع الرئيس
صائب سلام إلى تقديم الاستقالة فوراً
احتجاجاً على عدم تصدي الجيش للهجوم
وعدم موافقة رئيس الجمهورية سليمان
فرنجية على إقالة قائد الجيش العميد
اسكندر غانم^(٣).

المصادر والمراجع

أولاً - المراجع العربية

- الجسر باسم، فؤاد شهاب ذلك المجهول، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٨.
- ماجد، ماجد، تاريخ الحكومة اللبنانية ١٩٩٦، ١٩٩٦، بيروت، ١٩٩٧.
- مسيكة عمر، أحداث وخفايا في لبنان والمنطقة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦.

ثانياً - المراجع المترجمة:

- هانف تيودور، لبنان تعيش في زمن الحرب، نقله عن الألمانية مورييس صليبا، مركز الدراسات العربي الأوروبي، باريس، ١٩٩٣.

ثالثاً - الجرائد والمجلات:

- جريدة النهار، عدد ١٢/١/١٩٧٠.
- جريدة النهار ٢١ آب ١٩٧٠.
- جريدة «النهار»، عدد ٢٧ أيلول ١٩٧٠.
- جريدة النهار، عدد يوم السبت ١٨/٣/١٩٧٢.
- جريدة النهار، ١١/٤/١٩٧٣.

رابعاً - الوثائق والمحاضر:

- محاضر مجلس النواب، ١٩٧٠ الجلسة الأولى، ص ٨١٩ - ٨٢٠.

خامساً - المراجع الأجنبية:

Cobran Helena. The making of Modern Lebanon, 1985.

(١) ماجد ماجد، تاريخ الحكومات اللبنانية، ص ١٩٦.

(٢) مسيكة عمر، المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣) جريدة النهار، ١١/٤/١٩٧٣.

أوضاع بلاد الشام والعراق قبيل الحروب الصليبية

(٣٣٤-٤٩٠هـ / ٩٨٤٥-١٠٩٧م)

د. فواز فرحات^(*)

الأوضاع السياسية في العراق

تنصيب الخليفة أو الخلفاء وعزلهم أو حتى قتلهم^(١).

بقيت سيطرة الأتراك على الخلفاء العباسيين حتى تولى الخلافة المستكفي بالله حيث دخل بني بويه بغداد في عهده بعد هروب الأتراك منها، وهنا تمّ إنهاء سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية^(٢)، وبدأت سيطرة بني بويه عليها^(٣).

ويمكن القول: إنّ سيطرة بني بويه استمرت ما يقارب مئة وثلاث عشرة سنة، حيث تعاقب على الخلافة العباسية أربعة خلفاء فقط، وهم المطيع^(٤) الذي تولى

كانت الدولة العباسية تعيش حالة من الوهن والضعف وكان للأتراك دورهم في تفتيت وإضعاف الدولة العباسية ونشوء أقاليم كثيرة داخل جسم الخلافة العباسية. فالتأثير التركي كان بداية على الخليفة العباسي المنتصر بن المتوكل الذي بويع له بالخلافة في الليلة نفسها التي قتل فيها أبو المتوكل، وكانت خلافته ستة أشهر فقط. ومن هنا بدأت سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية، فكان لهم دور وإسهام في

(*) دكتور في الجامعة اللبنانية - الفرع الرابع، وفي جامعة بيروت العربية.

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (المتوفى: ٢٩٢هـ / ٩٠٤م): تاريخ اليعقوبي، ج ١، ٢، دار صادر، بيروت ج ٢، ص ٤٩٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٩٢، ٤٩٤.

(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط ١، ج ١٤، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، ج ١٤، ص ٤٢.

(٤) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: (المتوفى: ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات تاريخ الإسلام المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ١، ج ٣٣، دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج ٢٦، ص ٣٢٨.

الدولة، وقد استقلت نسبياً عن الخلافة، وفي أحيان كانت هذه الدويلات تدخل في مواجهات مع الخلافة، ومن هذه الدول بني حمدان^(٤)، والدولة الإخشيدية في مصر^(٥)، كما كان هناك نوع آخر من الدول التي أثرت بشكل كبير في إضعاف سلطة الخلافة على بلاد المشرق الإسلامي، من هذه الدول كانت دولة بني بويه التي سيطرت على الدولة العباسية، والدولة السلجوقية التي أزاحت دولة بني بويه، وسيطرت على الخلافة. وهكذا نجد أن الخلافة العباسية قبيل الحروب الصليبية قد فقدت سيطرتها على بلاد المشرق الإسلامي، فقد كانت تحت تأثير القادة العسكريين الأتراك، ولم يكن للخليفة إلا الاسم وليس له سيطرة فعلية على مقاليد الحكم.

نشأة دولة بني بويه

ظهرت دويلات وممالك مستقلة عن تأثير الخلافة العباسية في بلاد فارس، ومن هذه الدول دولة عرفت باسم دولة بني

الخلافة سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، وتنازل عنها لولده الطائع لله^(١)، حتى خلع، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وتسعة أشهر، بويع بعده القادر^(٢) في اليوم نفسه الذي خلع فهي الطائع، وبقي القادر في الخلافة حيث توفي سنة (٤٢٢-١٠٣٠م)، وكانت مدة خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وبموت القادر تولى الخلافة بعده ابنه القائم حيث بقي في الحكم إلى أن مات سنة (٤٦٧-١٠٧٤م) وقد حكم أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر، فكان آخر خليفة من خلفاء بني العباس في دولة بني بويه، حيث انقرضت الدولة البويهية في عهده، وتولى الخلافة من بعده حفيده المقتدي، ثم خلفه ولده المستنصر بعد وفاته مباشرة، وبقي المستظهر في الخلافة حتى موته، وفي عهد المستظهر بدأت الحروب الصليبية^(٣).

ازداد وهن الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري، وبدأت تظهر دويلات داخل

- (١) ابن سمعون، أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي: (المتوفى: ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م): أمالي ابن سمعون، تحقيق: عامر حسن صبري، ط ١، ج ٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٨٩-٩٠.
- (٢) ابن الجوزي: المنتظم، مصدر سابق، ج ١٥، ص ٢٢٠.
- (٣) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، ط ١، ج ٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ج ٢٣، ص ١٤٧.
- (٤) ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي: (المتوفى: ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، ج ١، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م، ج ١، ص ١٣٤.
- (٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مصدر سابق، ج ٥، ص ٦١.

بويه^(١) وبنو بويه من الفرس، ونسبوا إلى الديلم لطول مقامهم ببلادهم^(٢)، وهم من الشيعة، وأول من عرف من هذه الأسرة هو أبو شجاع بويه، الذي يرجع في نسبه إلى ملك الفرس، وكان صياداً للسمك، وله خمسة أولاد المشهور منهم ثلاثة وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد.

فهؤلاء الذين ملكوا البلاد، فقد بدأوا كجنود ثم تدرجوا في المناصب لشجاعتهم، حتى ملكوا الكثير من بلاد فارس، وأول مدينة استولوا عليها كانت أصفهان، ثم سيطروا على بغداد بعد أن قويت دولة بني بويه. وقد كانت بداية هذه الدولة في العراق في عهد معز الدولة بن بويه، وكانت مغالاة كبيرة في التشيع في دولة بني بويه، حتى أن عصرهم كان عهد صراع بين السنة والشيعة، فكانوا أول من ابتدع النياحة بشكل سيء في عاشوراء على الحسين بن علي. حيث أوجدنا معز الدولة بن بويه^(٣) في سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣م)، إذ لم تدم الوحدة داخل البيت البويهى طويلاً، فقد

وقع خلاف في ما بينهم، وعند وفاة معز الدولة سنة (٣٥٥هـ / ٩٦٥م) استخلف ابنه بختيار الذي لقب بمعز الدولة، الذي انشغل باللهو ومعاشرة النساء والبحث عن الملذات، وأساء إلى كبار رجال الدولة في المعاملة، فكان أول الخارجين عليه أخوه مشيد الدولة حبشي، وقد كان حاكماً للبصرة، إذ لم ينجح في عصيانه، فتم اعتقاله، واستمرت الانقسامات، حيث خرج عليه الحاجب سبكتكين وهو من الأتراك السنة، فاستولى على بغداد، والتفت العامة حوله، حيث وقعت الفتنة بين الشيعة و السنة، فكانت الغلبة لهم. وقد وجد أهل السنة من ينصرهم على تغول الشيعة عليهم في عهد بني بويه، لكن سبكتكين لم يبق طويلاً حيث مات وخلفه الفتكين^(٤)، ولكن هذا التمرد تم القضاء عليه بمساعدة عضد الدولة بن بويه، وهو ابن عم عز الدولة، ولكنه طمع في الملك فاستولى على العراق واعتقل عز الدولة وأخوته، ثم ما لبث أن أعاد عز الدولة إلى ما كان عليه من حكم العراق على إثر تدخل ركن الدولة بن بويه

(١) ابن الجوزي: المنتظم، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٤٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٦، ص ٩٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٦، ص ١١٠.

(٤) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم: (المتوفى: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م). الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ ج ٧، ص ٣٥٥، ٣٥٨.

والد عضد الدولة، حيث رجع الأخير إلى ما كان في يده من بلاد فارس^(١).

لم تكن الانقسامات والصدامات داخل الكيان البويهى هو الخطر الوحيد المهدد للدولة، إنما وجود الدولة الحمدانية في الموصل، والتي واجهت الدولة البويهية سنة (٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، حيث وقع الصدام بين معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحمداني، حتى انتهى الصراع بتوقيع اتفاق بين الطرفين^(٢)، وعادت وتكررت الصدامات بين الدولتين، حيث اشتبك معز الدولة وناصر الدولة حيث سيطر معز الدولة على الموصل، عاصمة الحمدانيين، وانتهت هذه الجولة من الصراع بتوقيع صلح في ما بينهما^(٣)، أمّا داخل البيت البويهى فقد استمر الصراع الداخلي بين أبنائه، فلما توفى ركن الدولة عهد بالأمر من بعده إلى ابنه عضد الدولة، ولولده الثاني فخر الدولة على همذان وأعمال الجبل، ولولده الثالث مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها، وجميعهم

تحت سلطة عضد الدولة^(٤)، فلما مات ركن الدولة طمع عضد الدولة بحكم العراق، التي كانت تحت إمرة ابن عمه عز الدولة، فذهب إلى بغداد، واشتبك مع ابن عمه عز الدولة حيث نجح عضد الدولة بالسيطرة على العراق، وأخذ عز الدولة أسيراً ثم قتله، كما وقع خلاف بين عضد الدولة، وأخيه فخر الدولة حيث استطاع عضد الدولة أن يسيطر على ولاية فخر الدولة التي ضمت همذان والري، وضمها إلى أملاك أخيه مؤيد الدولة الذي كان تابعاً لعضد الدولة^(٥)، وعند وفاة الأخير سنة (٣٧٢هـ / ٩٨٢م)، خلفه ابنه كاليجار المرزبان الملقب بصمصام الدولة، فوقع خلاف بينه وبين أخيه شرف الدولة، حيث اعتقل شرف الدولة أخاه صمصام الدولة في إحدى قلاع بلاد فارس، وسيطر على بغداد. وبعد موت شرف الدولة تولى أخوه بهاء الدولة الحكم^(٦)، ولم يلبث بهاء الدولة حتى دخل في مواجهة مع أخيه صمصام الذي استطاع الهرب من سجنه،

(١) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج٢٦، ص١١٢-١١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٢٢٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج٢٦، ص١٠٩؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: (المتوفى: ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط٩، ج١٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ج١٥، ص١١٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣٦٤؛ القلقشندي، أحمد بن عبد الله (المتوفى: ٨٢١هـ / ١٤١٨م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٢، ج١، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٥م، ج١، ص٣١٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٣٨٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٤٣٦.

ودخل في مواجهة مع أخيه بهاء الدولة فتصالحا على تقسيم دولة بني بويه بينهما. وهكذا استمر الصراع داخل البيت البويهى بين الأخوة والأبناء وصولاً إلى الملك الرحيم الذي كان آخر ملوك بني بويه^(١).

نشأة الدولة السلجوقية

تأسس الكيان السلجوقي في مدينة خراسان سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٩م) في الوقت الذي ضعفت فيه دولة بني بويه، وكان أول ملوك السلالة (طغرل بك)^(٢) وهو من السُّنة، وتزامناً مع ضعف دولة بني بويه، جاءت حشود الملك طغرل بك وقواته من فارس إلى بغداد، ودخلتها سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)^(٣).

وظل حكم طغرل بك إلى أن توفي، فخلفه في حكم دولة السلالة ابن أخيه ألب أرسلان^(٤)، الذي تمكن من توسيع سلطنة

السلالة باتجاه بلاد الشام، حيث سيطر على مدن ساحل الشام^(٥)، وتوسعت دولة السلالة لتصل حتى بلاد الرُّوم، وأبرزها الإمارة التي أسسها قتلмыш بن اسرائيل بن سلجوق في مدينة قونية ونواحيها^(٦)، وعرفت هذه الإمارة باسم إمارة سلالة الروم^(٧).

توسع نفوذ السلالة في بلاد الشرق الإسلامي وخصوصاً بعد نصرهم في معركة (ملاذكرد)^(٨) على الروم سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧١م)^(٩)، وبعدها انتدب ألب أرسلان أتمسز بن أوق أحد قاداته الأتراك لبسط السيادة السلجوقية على عموم بلاد الشام، فانتزع مدينتي الرملة والقدس من قبضة الدولة العبيدية (الفاطمية) في سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، وبعدهم مقتل ألب أرسلان في إحدى معاركه، خلفه ابنه ملكشاه^(١٠).

(١) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٦، ص ١٤١-١٥٢.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٢٩، ص ٤٢.

(٣) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٧، ص ٤٢؛ الصلابي: دولة السلالة، ص ٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣٦٠، ٣٦٢.

(٥) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨٨.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (المتوفى: ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون، ط ٥، ج ١-٥، دار النشر، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٥، ص ١٨٦.

(٧) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٠١؛ شاعر: التاريخ الإسلامي، ج ٦، ص ٢١٨.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٢، ٣٧.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣٩٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٣٢، ٣٨.

(١٠) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي: (المتوفى: ٧٣٢هـ / ١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، ط ١، ج ١، المطبعة الحسينية، مصر، ج ١، ص ٢٧٨.

سنة^(٦) حين كلفه أخوه ملكشاه شؤون الشام وفي سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)^(٧)، توفي السلطان ملكشاه وبموته ضعفت الدولة السلجوقية وتمزقت قوتها ووحدتها ويقول ابن الأثير في ذلك: «مات السلطان وانحلت الدولة ووقع السيف»^(٨).

أهم الممالك والدول التي قامت في أرض العراق

أولاً: الدولة الحمدانية

حكم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون ولاية الموصل، سنة (٢٩٢هـ / ٩٠٤م) وذلك بتكليف من الخليفة المكتفي^(٩) ويُعد أبو الهيجاء أول من حكم من بني حمدان ولاية الموصل، وبني حمدان من الشيعة، وفي سنة (٣٠٣هـ / ٩١٥م) قام الخليفة المقتدر بالله باعتقال أبي الهيجاء ووضع في السجن هو وأخوته،

تمددت دولة السلاجقة في عهد ملكشاه كثيراً، فامتدت مملكته لتشمل بلاد الترك وبلاد اليمن وملك الروم والخزر^(١)، واستولى (أتسز بن أوق) على دمشق، واستطاع أن يسيطر على غالبية مدن الشام^(٢)، ثم اتجه نحو مصر سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٦م). حيث دخل في مواجهة مع جيش العبيديين على الأراضي المصرية، وكانت الغلبة للعبيديين، حيث لم يستطع أتسز بن أوق دخول مصر فارتد إلى الشام، وتحصن في دمشق، واستنجد بتتش بن ألب أرسلان^(٣)، الذي وصل إلى أرض الشام بعد أن كلفه أخوه ملكشاه بتولي شؤونها سنة (٤٧١هـ / ١٠٧٨م)^(٤)، وعند وصول تتش مدينة دمشق^(٥)، اعتقل (أتسز بن أوق) ثم قتله، وتسلم هو حكم مدينة دمشق، حيث كان تتش يبلغ من العمر ١٤

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (المتوفى: ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م). البداية والنهاية، ج ٩، مكتبة المعارف، بيروت، ج ١٢، ص ١٤٢.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٣٢، ص ٣٧-٣٨.

(٣) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد (المتوفى: ٥٥٥هـ / ١١٦٠م): تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط ١، دمشق، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٦٧؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ٣٤٨.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ج ١، ص ٦٧.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ج ١، ص ٦٧؛ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (المتوفى: ٥٧١هـ / ١١٧٥م): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تحقيق: محب الدين أبي سعيد بن غرامة العمري، ج ١٧، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٧، ص ٣٤٨.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٩٥.

(٧) أبو الفداء: المختصر، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨٠.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٤٧٩.

(٩) ابن شداد: الأعلام الخطيرة، مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٤.

والدولة العقيلية والتي قامت في الموصل^(٣).

ثانياً: الدولة المروانية

أنشئت هذه الدولة على يد باذ الكردي، فكما هو معروف فإن بني مروان من الأكراد^(٤)، فاستطاع باذ الكردي أن يؤسس له دويلة في ديار بكر، فقد كان كثير الغزوات في تلك المناطق. فسيطر على ميفارقين وكثيراً من ديار بكر بعد موت عضد الدولة، ودخل في مواجهات عدة مع الدولة البويهية، واستطاع أن يصد الهجمات التي شنّها البويهيون ضده، فوطد أركان دولته الناشئة، ولكنّه قُتل حين حاول أن يستولي على الموصل، وأخذها من أيدي الحمدانيين.

تولى من بعده ابن أخته أبو علي بن مروان، ولم يلبث أبو علي بن مروان^(٥) طويلاً حتّى قُتل في مدينة آمد، حيث سيطر عليها من بعده ابن عبد البر شيخ آمد، أما ممهد الدولة بن مروان أخو أبو علي بن مروان، فاستطاع السيطرة على ميفارقين، وقُتل بعدها على يد أحد قادته ويُدعى

ولكنه أطلق سراحه في ما بعد، وولاه على طريق خراسان والدينور، وضم إليه الموصل سنة (٣١٤هـ / ٩٢٦م)^(١) وكان أبو الهيجاء مقيماً ببغداد، وقد خلفه في الموصل ابنه ناصر الدولة إلى أن قتل سنة (٣١٧هـ / ٩٢٩م). خلف ناصر الدولة والده أبو الهيجاء على ولاية الموصل الذي احتفظ بولاية الموصل إلى أن قبض عليه ابنه أبو تغلب، وبعد سنة مات ناصر الدولة في (٣٥٧هـ / ٩٦٧م). ووقع الخلاف بين أبنائه فاقتتلوا في ما بينهم، ووقعت حروب أفضت إلى قتل بعضهم البعض، وبقي هذا الحال إلى أن سيطر عضد الدولة البويهي على معظم المدن التي كانت تحت سيطرة بني حمدان، باستثناء بعض المدن كحلب وديار مضر وربيعة، واستطاع بعدها ابنا ناصر الدولة (أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين) استعادة الموصل، وبقيت الدولة الحمدانية في الموصل حتى سنة (٣٨٠هـ / ٩٩٠م)^(٢)، وبزوال الدولة الحمدانية قامت على أنقاضها دولتان الأولى الدولة المروانية والتي قامت في ديار بكر،

(١) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج٢٦، ص٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٤٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٤٤٣-٤٤٤-٤٤٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٤١٥؛ ابن شداد: الأعلام الخطيرة، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٧، ص٤١٥، ٤٤٣.

المكارم مسلم بن قريش^(٤)، فكان من أعظم شخصيات الدولة العقيليّة، حيث اتسعت مملكة بني عقيل في عهده، فاستطاع ضم حلب^(٥)، وسيطر على ديار ربيعة ومضر، وأخذ الآتاوة من بلاد الروم، وتوجه إلى دمشق وحاصرها وكاد يأخذها^(٦)، ثم قتل شرف الدولة مسلم بن قريش، وتولى بعده أخوه إبراهيم بن قريش^(٧)، الذي قتل سنة (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) فتولى الأمر من بعده ابنا مسلم بن قريش، علي ومحمد، اللذين اقتتلا في ما بينهما حتى اندثرت دولتهم على يد السلاجقة في سنة (٤٨٩هـ / ١٠٩٥م)^(٨).

وهكذا كانت حال العراق قبيل الغزو الصليبي لبلاد الشام، حيث وجدت أحوال الخلافة العباسية التي لم تعد تسيطر على مقاليد الحكم لصالح القادة والأمراء الأتراك والديلم على السواء، ولم يعد للخليفة

شروه، وقد سيطر على معظم بلاد بني مروان، وكان لدى ممهد الدولة أخ آخر يدعى أبو نصر أحمد، استطاع أن يعيد جميع بلاد بني مروان من يد شروه، واستمر في حكم البلاد حتى توفي وتوزعت دولته بين أبنائه، فتولى ابنه نصر بن أحمد ميافارقين، أما أخوه سعيد بن أحمد فملك آمد، وكان نصر بن أحمد هو آخر ملوك الدولة المروانية^(١)، حيث تمكن السلاجقة من إسقاطها^(٢).

ثالثاً: الدولة العقيلية

سيطر أمير بن عقيل أبو الذواد محمد بن المُسيّب على الموصل، وقتل أبا الطاهر بن ناصر الدولة بن حمدان، وقتل أولاده وعدداً من قادته سنة (٣٨٠هـ / ٩٩٠م)^(٣) وبقيت في يده إلى وفاته، ووليها أخوه المقلد إلى أن قُتل، وتوالى الحكام في هذه الدولة، وصولاً إلى شرف الدولة أبو

(١) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (المتوفى: ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢) ابن الوردي: تاريخ، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٠؛ طقوش، محمد سهيل: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ط ٣، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٦١.

(٣) أبو الفداء: المختصر، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٣٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣٥٥.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٦٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج ١٧، ص ٦٣٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٤٣٧.

(٨) ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٤٨.

العباسي سوى المكانة الدينية، أما بالنسبة إلى الدولة البويهية، فقد كثرت في عهدها الفتن بين السنة والشيعة، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت البويهي إلى أن ضعفت دولتهم وسقطت في يد الدولة السلجوقية، فكان العراق في بداية حكم السلاجقة قوياً إلى أن توفي السلطان ملكشاه، كما نشأت دويلات وممالك صغيرة أقل شأنًا من الدولة البويهية والسلجوقية مثل دولة بني عقيل وبني مروان، حيث استطاعت الدولة السلجوقية أن تبتلع هاتين الدولتين.

الأوضاع السياسية في بلاد الشام

تكتفت هجمات الروم في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري، حيث تعاقب على عرش الإمبراطورية البيزنطية عدد من القادة ذوي الكفاءة العالية^(١)، في المقابل كانت الدولة الحمدانية هي من تأخذ على عاتقها الدفاع عن بلاد المسلمين، حيث استطاع سيف الدولة بن حمدان من دخول بلاد الروم على رأس جيش عظيم مكون من ثلاثين ألفاً، توغل فيها وفتح حصوناً وقتل خلقاً وأسراً أمماً وغنم شيئاً كثيراً، ثم عاد

فقطعت عليه الروم طريق العودة فقتلوا معظم من معه، وأسروا البقية واستردوا ما أُخذ، ونجا سيف الدولة في نفر يسير من أصحابه^(٢)، واستمر الروم في عدواتهم، فقد هجموا على مدينة سروج وتمكنوا من السيطرة عليها، فأحرقوا مساجدها وسبوا أهلها. وفي عام (٣٤٣هـ / ٩٥٥م)، قام سيف الدولة بغزو بلاد الروم فجرت بينهم وقعة عظيمة انتصر فيها سيف الدولة، وأسّر في هذه الوقعة قسطنطين ولد المستق الذي مر عنده ومات.

وفي سنة (٣٤٥هـ / ٩٥٧م) غزا سيف الدولة بلاد الروم مرة أخرى، وفتح حصوناً عدة وأحرق ودمر، وأكثر من القتل فيهم ثم رجع، وعندما سمع الروم بما فعل، هاجموا ميفارقين وأحرقوا معظمها ونهبوها وسبوا أهلها وعادوا^(٣).

أما الكارثة الكبرى التي حدثت للمسلمين فكانت حين دخل الروم بقيادة المستق مدينة حلب بعد هروب سيف الدولة منها، وانشغال ما تبقى من جنده في سرقة بيوت الناس في حلب، فاستغل المستق ذلك ودخل مدينة حلب دون قلعتها التي تحصن بها بعض أهل حلب، فقتل معظم سكان

(١) ياقوت، أبو عبد الله بن عبد الله الحموي: (المتوفى: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، ج ٢، ٣، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٨٠.

(٢) الذهبي: العبر، ج ٢، ص ٢٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ١١، ص ٢٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٥٧.

حلب من الرجال، وسبى النساء، وخرب المدينة وغادر^(١).

وفي سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٤م) هاجم الروم مدينة الرها حيث قتلوا وأسروا من أهلها الكثير، ثم دخل ملك الروم مدينة المصيصة، ثم سار إلى طرسوس، فطلب من أهلها الأمان فأمنهم، وتسلم طرسوس وهجر أهلها عنها فرحلوا إلى أنطاكية، وجعل جامع طرسوس اسطبلاً، وأحرق المنبر، ثم عاد ملك الروم إلى القسطنطينية^(٢).

وحدثت العديد من المواجهات مع الروم حيث تمت مهاجمة مدينة آمد، ونصيبين التي هرب أهلها منها، وهاجموا أنطاكية وطرسوس، وفي سنة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) فُجع المسلمون بسقوط حمص في يد الروم بعد أن أخلوها من أهلها، وأحرقوها وسبوا نحو مائة ألف إنسان. وهاجم الروم مدينة طرابلس ومعظم مدن الشام الساحلية حيث غزوها ونهبوها وخربوها، ثم عادوا إلى بلادهم ومعهم من الأسرى والغنائم ما لا يحصى^(٣).

وعند دخول الروم أنطاكية، أخرجوا الشيوخ والأطفال من البلد، وخيروهم ما

بين الرحيل حيث يشاؤون، أو السبي مع الشباب والنساء وكانوا أكثر من عشرين ألفاً^(٤). ثم اتجهوا إلى حلب، فسيطروا على المدينة وحاصروا القلعة التي تحصن فيها أمير حلب، ثم تمَّ الاتفاق على مبلغ من المال يُدفع كل سنة إلى ملك الروم، حيث ضم الاتفاق أن يتم دفع المال المقرر عن حلب، وحماة وحمص وما حولهم إلى ملك الروم، فرحلت الروم عن حلب، وعاد المسلمون إليها، كما قام ملك الروم بإرسال جيش إلى ملاذكرد من بلاد أرمينيا، وحاصرها ودخلها بالقوة وأصبحت البلاد تعيش حالة الفوضى، وعندما دخل الروم نصيبين سنة (٣٦٢هـ / ٩٧٣م) استباحوها وقتلوا كثيراً من الرجال، وسبوا النساء وأتوا على ديار ربيعة بكاملها، فلجأ من بقي من أهل تلك البلاد إلى بغداد واستقروا في الجوامع، وكسروا المنابر، ومنعوا الخطبة، وحاولوا الهجوم على دار الخليفة المطيع لله، فأرسل عز الدول البويهى جيشه بعد أن استنفر الناس، فخرج معه عدد كبير من عامة الناس، فهزم الروم، وقتل منهم خلق كثير، وأسر أميرهم^(٥).

-
- (١) ابن العديم: زبدة الحلب، مصدر سابق، ج ١، ص ٧٨؛ أبو الفداء: المختصر، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٠.
(٢) أبو الفداء: المختصر، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٠؛ ابن الوردي: تاريخ، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨٠، ٢٨١.
(٣) أبو الفداء: المختصر، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٤.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٢٠١.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٢١٤.

بدأت الأحوال تتغير في بلاد الشام سنة (٣٨١هـ / ٩٩٢م) وخلالها فقد تواجعت الدولة الفاطمية مع الدولة البيزنطية عند محاولة البيزنطيين السيطرة على بلاد الشام بقيادة منجوتكين التركي الذي استولى على مدينة دمشق وبسط سيطرته على حمص وحماة، ثم توجه إلى مدينة حلب فحاصرها، وهزم جيوش الحمدانيين وجيوش الروم المتحالفين ضده، لكنه لم ينجح في السيطرة على حلب^(١).

وفي بداية سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) استولى الروم على مدينة الرها، وقتلوا المسلمين فيها وخرّبوا المساجد وسيطروا على مدينة فامية، وملكوا قلعتها، وغنموا فيها الكثير، ولكن سرعان ما استعاد المسلمون مدينة الرها من أيدي الروم^(٢).

كما اجتاحت السلاجقة بلاد المشرق الإسلامي في منتصف القرن الخامس الهجري، فاجتاحت بلاد الروم وسيطروا على الكثير من المدن والقلاع الخاضعة تحت حكم الدولة البيزنطية، ما دفع الروم لمهاجمة مدينة منبج ونهبها وقتل الكثير

من أهلها، وفي سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧١م) حشد ملك الروم جموعاً كثيرة بلغ تعدادهم مائتي ألف، وتوجه بهم إلى بلاد المشرق الإسلامي فوصلوا إلى ملاذكرد، وخرج إليهم السلطان ألب أرسلان حيث بلغ تعداد جيشه خمسة عشر ألف جندي، فهزم الروم وأسر ملكهم^(٣)، فكانت هذه المعركة بمثابة نهاية عصر القوة للإمبراطورية البيزنطية، واستطاع المسلمون بعدها استعادة مدينة منبج على يد نصر بن محمود بن صالح، والتي كانت قد سقطت في يد الروم، كما استطاع سليمان بن قتلمش حاكم مدينة قونية من فتح مدينة أنطاكية التي كانت في يد الروم^(٤).

قام البيزنطيون بحروب عديدة على بلاد الإسلام، وكان هدفها هو الانتقام والكسب المادي والسيطرة على عددها المعروف المتمثل بدويلات العالم الإسلامي المحيطة بهم، وهذا هو الفارق بين هجمات البيزنطية والحملات الصليبية التي اجتاحت العديد من مدن الشام، والتي كان الهدف منها استيطانها بحت^(٥).

(١) أبو الفداء: البواقيت، ج ١، ص ٣٢؛ النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٦، ص ٩٠، ٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٧، ص ٢٢٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣٦٨-٣٧٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٨، ص ٤٣٥؛ النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٣، ص ١٤٣.

(٥) براور: الاستيطان الصليبي، ص ١٣.

ومن جانب آخر فقد عانت بلاد الشرق الإسلامي من هجمات الروم المتكررة على بلادهم حيث كبدتهم العديد من الخسائر البشرية والمادية على السواء ما سيكون له بالغ الأثر على قوة الشام وصمودها في مواجهة الحملات الصليبية.

القرامطة وسيطرتهم على الشام

بعد اندثار القرامطة وإخراجهم من الشام سنة (٢٩٣هـ/٩٠٥م) عادوا للظهور مرة أخرى سنة (٣٥٣هـ/٩٦٤م). فهاجموا مدينة طبريا واستولوا عليها وأخرجوا منها الأخشيدي صاحب مصر والشام، وطلبوا من سيف الدولة أن يمددهم بالسلاح، فأرسل إليهم ما طلبوا^(١)، وفي سنة (٣٥٧هـ/٩٦٧م) استولى القرامطة على مدينة دمشق^(٢)، ثم رجعوا إلى بلدهم الإحساء، ثم عادوا إلى دمشق وأخذوها من يد الفاطميين حيث أن أمر دمشق قد آل من قبل العبيديين^(٣)، وقد تلقى القرامطة الدعم من عز الدولة بختيار البويهبي أثناء مسيرهم

نحو دمشق وبعد سيطرتهم على دمشق، توجهوا صوب مدينة الرملة فملكوها، وملكوا كل المدن الواقعة بين دمشق والرملة، فهرب ما تبقى من جيش العبيديين إلى الرملة وتحصنوا فيها، حيث حاصرهم القرامطة، الذين زحفوا نحو مصر، وتواجهوا مع جيش العبيديين في منطقة عين شمس، وكاد القرامطة أن يهزموا جيش العبيديين إلا أن القرامطة في النهاية هزموا ورجعوا إلى الرملة^(٤)، وعندما أرسل الفاطميون جيشهم لملاحقة القرامطة، استطاعوا أن يطردوهم من الرملة في السنة نفسها، ولكن القرامطة ما لبثوا أن عادوا إلى الرملة، حيث ضربوا الحصار عليها، ودخلوا في مواجهات مع حاميتها، فأرسل الفاطميون جيشهم بقيادة جوهر الصقلي لقتالهم، فاستمر القتال سجال بين قوات الفاطميين والقرامطة، وانتهى بسيطرة الفاطميين على الرملة^(٥)، وبعدها سيطر الفاطميون على الشام وانتهى أمر القرامطة فيها^(٦).

(١) ابن الأثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ١١، ص ٢٥٤.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق، ج ٢٥، ص ٢١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٧، ص ٣٢٦؛ المكي، عبد الله بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي (المتوفى: ١١١١هـ/١٦٩٩م): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٥٤٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج ٧، ص ٣٢٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٥، ص ١٨٥-١٩١.

(٦) الهمذاني، أبو الفضل محمد بن عبد الملك بن إبراهيم (المتوفى: ٥٢١هـ/١١٢٧م): تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، ط ١، ج ١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٢٢٦-٢٢٨.

السيطرة الفاطمية على الشام

بعد سيطرة الفاطميين على مصر، وجهوا جيشاً إلى الشام حيث استطاعوا ضم مدينة الرملة كما تحدثنا سابقاً، وخضعت مدينة طبريا في السنة نفسها للفاطميين دون مقاومة وسيطروا على مدينة دمشق، كما ذكرنا سابقاً. وبهذا يكون الفاطميون قد سيطروا على أعمال دمشق وطبرية وفلسطين^(١) وسيطروا أيضاً على مدينة طرابلس سنة (٣٦٤هـ)^(٢) وبسطوا سيطرتهم على العديد من مدن الشام الساحلية، مثل صيدا وعكا ويافا وصور، واتسعت رقعة دولتهم، فاستطاعوا ضم مدينة حمص بعد أن دخل حاكمها بكجور في طاعة الفاطميين^(٣)، وضموا أيضاً مدينة قنسرين إلى حكمهم، وقد دام حكم الفاطميين لمدينة دمشق حتى سنة (٤٦٨هـ / ١٠٧٥م) حيث انتزعها منهم السلاجقة.

الدول السلجوقية في الشام

كبرت الدول السلجوقية في فترة حكم ملكشاه، فضم العديد من المدن الشامية، وسوف نذكر أهم الدويلات السلجوقية التي قامت في بلاد الشام.

في سنة (٤٧١هـ / ١٠٧٨م) وصل تتش بن ألب أرسلان مدينة دمشق وتسلمها بعد أن كلفه أخوه ملكشاه بولايتها، وبدأ تتش ببسط سيطرته على مدن الشام، فسيطر على مدينة حلب، وسيطر أيضاً على طرطوس وغيرها^(٤)، وتسلم مدينة حمص، كما دخل تتش في مواجهة مع ابن عمته سليمان بن قتلمش^(٥)، صاحب إمارة سلاجقة الروم، عند أبواب حلب حيث انهزم سليمان بن قتلمش وقتل^(٦) وذلك في سنة (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م)، وبعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه طمع تتش في الأمر بعده^(٧)، فاستولى على العديد من المدن حيث سيطر على مدينة حلب بعد أن قتل

(١) المقرئزي: أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد تقي الدين (المتوفى: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): إتحاف الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقي: جمال الدين الشيال، ط ٢، ج ١، وزارة الأوقاف، مصر، ١٩٩٦م، ج ١، ص ١٢٦.

(٢) النويري: نهاية الأرب، مصدر سابق، ج ٢٨، ص ٩٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، مصدر سابق، ج ١، ص ١٨.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٣٢، ص ٦، ص ١١.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٤.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٣٢، ص ٢٨.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ٣٣، ص ٢٣٩.

حاكمها آق سنقر وزحف باتجاه الشرق فقطع نهر الفرات وسيطر على كل مدينة مر بها، فأخذ مدينة حران، وسار إلى الرها فتسلمها، كما تسلم ديار بكر، وخطب له على منابر الإسلام في الشام والفرات وبغداد، وبعد مقتل تتش في إحدى معاركه التوسعية، اقتسم ولداه دولته فتولى بعده في حلب ابنه فخر الملوك رضوان، وتولى دمشق ابنه دقاق الملقب شمس الملوك.

واستمرت المعارك بين الأخوين رضوان ودقاق، للسيطرة على أملاك الآخر، فنشبت حروب ومعارك، ولكن بعد معارك عدة، تم الاتفاق على عقد صلح بين الطرفين، ولكن بسبب هذه المعارك والنزاعات نجد أن الدولة السلجوقية تمزقت على أيدي أبناء تتش، رضوان في حلب، ودقاق في دمشق، وانشغل الأخوان في بداية الأمر بالحفاظ على أملاكهما من جهة، وإعادة الوحدة إلى بلاد الشام من جهة أخرى، من خلال انتزاع كل منهما أملاك الآخر وضمها إلى أملاكه، وبهذا تكون العلاقة قد اتسمت بالعدائية، وفي ظل هذا التمزق السياسي والصراع العسكري، وصلت طلائع الحملات الصليبية في سنة (٤٩٧هـ / ١٠٩٧م) وبلاد الشام على هذا الحال.

قائمة المراجع والمصادر

- ١ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم: (المتوفى: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط٢، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ٢ - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). تلبس إبليس، تحقيق: السيد الجميلي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٣ - ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، ج١٤، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ.
- ٤ - ابن العديم، المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ١٩٩٦م.
- ٥ - ابن العماد، شذرات الذهب.
- ٦ - ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد (المتوفى: ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٣م.
- ٧ - ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (المتوفى: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٨ - ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأتابكي (المتوفى: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م). مرد اللطافة في متولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٩ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة.
- ١٠ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (المتوفى: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م): تاريخ ابن خلدون، ط٥، ج١-٥، دار النشر، بيروت، ١٩٨٤م.

- ١١ - ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (المتوفى: ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.
- ١٢ - ابن سمعون، أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي: (المتوفى: ٣٨٧هـ/٩٩٧م): أمالي ابن سمعون، تحقيق: عامر حسن صبري، ط١، ج٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ١٣ - ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي: (المتوفى: ٦٨٤هـ/١٢٨٥): الأعلام الخطير في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، ج١، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م.
- ١٤ - ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (المتوفى: ٥٧١هـ/١١٧٥م): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تحقيق: محب الدين أبي سعيد بن غرامة العمري، ج١٧، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- ١٥ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (المتوفى: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية، ج٩، مكتبة المعارف، بيروت.
- ١٦ - أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي: (المتوفى: ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، ط١، ج١، المطبعة الحسينية، مصر.
- ١٧ - براور: الاستيطان الصليبي.
- ١٨ - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: (المتوفى: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، ج٣٣، دار الكتاب العربي، لبنان/بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ١٩ - الذهبي، _____: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط٩، ج١٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ.
- ٢٠ - الصلابي، علي بن محمد، دولة السلاجقة.
- ٢١ - طقوش، محمد سهيل: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ط٣، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ٢٢ - القلقشندي، أحمد بن عبد الله (المتوفى: ٨٢١هـ/١٤١٨م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٢، ج١، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٥م.
- ٢٣ - المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد تقي الدين (المتوفى: ٨٤٥هـ/١٤٤١م): إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقي: جمال الدين الشيال، ط٢، ج١، وزارة الأوقاف، مصر، ١٩٩٦م.
- ٢٤ - المكي، عبد الله بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي (المتوفى: ١١١١هـ/١٦٩٩م): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٢٥ - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، ط١، ج٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ٢٦ - الهمداني، أبو الفضل محمد بن عبد الملك بن إبراهيم (المتوفى: ٥٢١هـ/١١٢٧م): تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، ط١، ج١، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.
- ٢٧ - ياقوت، أبو عبد الله بن عبد الله الحموي: (المتوفى: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، ج٢، ط٣، دار الفكر، بيروت.
- ٢٨ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (المتوفى: ٢٩٢هـ/٩٠٤م): البلدان، مدينة ليدن المحروسة، طبعة بريل، ١٨٩٠م، تاريخ اليعقوبي، ج١، ط٢، دار صادر، بيروت.

اضطراب الانتباه

د. نازك بدير

مقدمة

يُعد الانتباه من الوظائف المهمة في حياة الإنسان، فما من عمل يؤديه الفرد في أي من مجالات الحياة المهنية والاجتماعية إلا ويعتمد على الانتباه بصورة أساسية.

ومن المشكلات التي تواجهنا في المجتمع هي اضطرابات الانتباه، سواء في المدرسة أو في المنزل أو في العمل. فهناك الكثير من الأفراد الذين يُظهرون ضعفًا أو عدم القدرة على حصر الانتباه والتركيز لمدة زمنية كافية لنقل رسالة ما إليهم، وتحليلها، وللإجابة عنها.

ودائمًا ما يكون اضطراب الانتباه لدى الأطفال مصحوبًا بنشاط حركي مفرط ما يجعلهم يتحركون بكثرة وعشوائية في المكان الذي يتواجدون فيه من دون سبب أو هدف واضح. وهؤلاء الأطفال يُشخصون في الطب النفسي بأنهم يعانون من

اضطراب عجز الانتباه المصحوب بنشاط مفرط^(١).

وكثيرًا ما تصادفنا هذه المشكلة مع المتعلمين في المرحلة الثانوية وغيرها، وهي تترك آثارًا على العملية التعليمية. فتشكّلت الانتباه يؤدي إلى شرح في التواصل بين المعلم والمتعلم، وهذا الشرح يؤدي إلى إخفاق عملية التعلم، إذ لا بد من إيجاد طرق للتعاطي مع مثل هذه الحالات.

يركّز البحث على متطلّبات الانتباه، والعوارض التي تساعد على تشخيص مشكلة اضطراب الانتباه، إضافة إلى عرض الأمراض التي ترافقه، والسلوكيات المترتبة عليه.

I - تعريف الانتباه:

الانتباه هو قدرة الفرد على حصر حواسّه وتركيزها في مثير داخلي (فكرة/ إحساس/ صورة خيالية) أو في مثير

(١) Carlson, E.A. Jacobvitz, D. and Sroufe, L.A: A Developmental Investigation of inattentiveness and hyperactivity. Child Development, 1995, 66, pp:37-54.

خارجي (شيء / شخص / موقف) أو هو
بؤرة شعور الفرد في مثير ما. ويرى علماء
النفس أنّ بؤرة شعور الفرد تمتلئ
بالموضوع الذي يجتذب اهتمامه ويكون
مركز انتباهه، وما عداه يشكّل هامش
الشّعور أو الانتقال بين البؤرة والهامش
عملية مستقرة أثناء اليقظة^(١).

متطلبات الانتباه:

لكي يكون الانتباه مثمرًا ومدخلًا إلى
المعرفة والتعامل مع مثيرات البيئة
والاستفادة منها لصالح الإنسان، يتعين أن
يتسم بالصفات التالية:

١ - انتقاء المثير: نحن لا ننتبه عادة
لكل المثيرات، سواء في داخلنا أو في البيئة
الخارجية، وإنما ننتبه لتلك التي تلفت نظرنا
وتثير اهتمامنا، لأهميتها في حياتنا، وندع
ما عداها في هامش شعورنا وخارج نطاق
حواسنا^(٢).

٢ - مدى استمرارية الانتباه: يتعين
على الفرد أن ينتبه وقتًا كافيًا للمثير الذي
يجتذب اهتمامه حتّى يستوعبه ويلمّ
بعناصر المفهوم الذي يدلّ عليه، سواء تعلّق
بشيء (آلة ما) أو شخص (معلّم) أو موقف
(تعلّم).

٣ - نقل الانتباه ومرونته: الشخص

السويّ هو الذي يستطيع أن ينقل انتباهه
بمرونة وسلاسة بين المثيرات المختلفة.
يدلّ هذا على مرونة تفكيره وعدم جموده،
ولا يساعده هذا على الإلمام بعناصر المثير
متكاملة مترابطة فحسب، إنّما يمكن أن
تكون تلك المرونة مدخلًا للإضافة والتّعديل
والابتكار.

٤ - الانتباه إلى تسلسل المثيرات

المعروضة: نحن عادة لا ننتبه لمثيرات
مفردة، وإنّما غالبًا لعدة مثيرات متتابعة.
فالطالب، أثناء شرح الدرس، ينتبه لتسلسل
الكلمات التي تخرج من فم المعلّم،
وللعروض المكتوبة على السبورة، أو
بواسطة الوسائل التعليمية التي يستعين بها
المعلّم في الشرح. والشّيء نفسه يصدق
على مشاهدتنا لفيلم، أو أدائنا لعمل حيث
يستدعي هذا استمرار الانتباه لكافة
العناصر والمكوّنات أو المشاهد المتتالية^(٣).

II - أنواع أمراض اضطراب الانتباه والنشاط الزائد وغيرها من الأمراض السلوكية السائدة بين المتعلّمين:

١. اضطراب الانتباه والنشاط الزائد:

أ. اضطراب الانتباه عارض رئيسي

ب. النشاط الزائد عارض رئيسي

(١) [http://aqeta.qc.ca/ Association Québécoise des troubles d'apprentissages](http://aqeta.qc.ca/Association%20Queb%C3%A9quoise%20des%20troubles%20d'apprentissages)

(٢) المقدادي، قيس، وآخرون الصعوبات التعليمية مؤسسة الحريري. ط ١، ٢٠٠٢ ص ٥٩.

(٣) المقدادي، قيس، وآخرون، الصعوبات التعليمية م.س. ص ٦٠.

ب - غالباً ما تكون هناك صعوبة
بمتابعة الانتباه في واجبات مدرسية أو في
اللعبة.

ج - يبدو على الفرد عدم الإنصات
عندما يكلمه الآخرون.

د - يبدي صعوبة زائدة في تنظيم
أشغاله أو وظائفه.

هـ - يأبى أو يتملّص أو لا يحبّ (أو
عنده تردد) بأن يبدأ عملاً أو وظيفة بحاجة
إلى جهد عقلي وتركيز طويل (في المدرسة
أو الدراسة).

و - غالباً ما يفقد أشياء مهمّة لإكمال
الفروض أو الوظيفة، أو للعبة معيّنة (مثلاً
لعبة، فرائض مدرسية، أقلام).

ز - شرود ذهني سريع بسبب أيّ
أصوات، أو أشياء تحدث من حوله.

ح - ذاكرة ضعيفة، وينسى كثيراً من
وظائفه ونشاطاته اليومية.

٦ - ستّة (أو أكثر) من العوارض
التالية تدلّ على النشاط غير الطبيعيّ
بالنسبة إلى العمر.

ومن مظاهر العجز في الانتباه أو
صعوبته:

ج . النشاط الزائد واضطراب الانتباه

٢ . مرض الشغب (سلوك مشاغب)
(Conduct Disorder)

٣ . مرض الرفض والتحدي
(O.D.D.)

٤ . اضطراب الانتباه والنشاط الزائد
- غير مصنّف

٥ . مرض شغب سلوكي غير
مصنّف^(١)

يُعدّ اضطراب الانتباه حالة مثيرة للجدل،
يعتقد البعض أنّه اضطراب صحيّ محدد، إلّا
أنّ باحثين آخرين يعتقدون أنّ الاسم يُخفي
وراءه العديد من المشكلات الأخرى، مثل
ضعف السمع أو النّظر أو التّغذية غير
الملائمة^(٢).

العوارض المُشخصّة للمرض^(٣):

١ - ستّة (أو أكثر) من عوارض الانتباه،
شريطة أن تدوم هذه مدّة أقلها ستّة أشهر،
إلى درجة أنّها تؤثر سلباً على حياة الفرد أو
من حوله، وهي غير طبيعيّة لعمر الفرد.

أ - غالباً ما يُخفق الفرد بالانتباه اللازم
إلى التفاصيل، ويرتكب أخطاء بسبب إهمال،
سواء في المدرسة أو في العمل.

(١) المصدر نفسه، ص. ٢٢-٢٣.

(٢) Georges, K, attention deficit; nature, nurture, or nicotine?, journal of NIH research, 1996,8,11,24-26.

(٣) <http://www.caducee.net/DossierSpecialises/psychologie/hyperactivite1.asp>.

إنَّ الطَّالِبَ لا يتمتَّعون بقدرات متساوية على الانتباه إلى المثيرات لأسباب طبيَّة (جسميَّة) أو نفسيَّة أو اجتماعيَّة.

وقد صنَّف العلماء مظاهر العجز في الانتباه وصعوباته فيما يلي:

١ - عدم الانتباه:

ويُقصد به عدم انتباه الطَّالِب إلى المثير المعروض أمامه، ربَّما لأنَّه لا يثير اهتمامه أو بسبب عزوفه عنه لأنَّ هناك مثيرًا أكثر أهميَّة في حياته، أو بسبب صعوبة فهم دلالته، ما يثير التوتُّر لديه، فيضيق ذرعًا به، ويبتعد منه.

٢ - القابليَّة للتشتُّت:

يُقصد بها عدم قدرة الطَّالِب على تركيز انتباهه مدَّة كافية في المثير المعروض. وقد يرجع ذلك إلى أسباب عضويَّة أو نفسيَّة، مردِّها ملله، أو عجزه عن فهم المثير، أو بسبب إخفاقه في تحقيق التأهُّب العقلي أو التهيؤ الذهني المطلوب، أو إخفاقه في اصطفاء المثيرات ودوام التركيز عليها، واستبعاد ما عداها أثناء قيامه بالإحاطة بمختلف جوانب الموقف المثير الذي يجذب انتباهه.

٣ - تثبيت الانتباه:

ويُقصد به ثبات انتباه الطَّالِب على مثير معين يستهويه، أو عدم تمتَّعه بالمرونة الكافية لنقل انتباهه بين المثيرات المختلفة

بسبب جموده أو تعبهِ أو إجهاده، وهو الأمر الذي يجعله يتابع عناصر الدرس المتتالية جيِّدًا، فلا يلمَّ بصيغتها الإجماليَّة، فيشعر بالعجز عن فهمها.

٤ - الحركة الزائدة أو النِّشاط الزائد:

ويُقصد به عدم تمتُّع الطَّالِب بالاتِّزان والاستقرار الانفعالي الذي يُمكنه من التركيز على المثيرات المعروضة والانتباه إليها. وهو يشكِّل جملة من الأعراض النفسيَّة تتمثَّل في:

أ - المستوى المرتفع من النشاط الحركي، ما يعوق الاستفادة والإنجاز.

ب - سرعة تشتُّت الانتباه، ما يحول دون الإلمام الكافي بالموقف.

ج - عدم القدرة على ضبط النَّفس أو الاندفاعيَّة، ما يؤدِّي إلى الوقوع في الخطأ.

٥ - الاندفاعيَّة:

ويُقصد بها عدم التَّروي في التَّعامل مع المثيرات، فينجم غالبًا عواقب غير مأمونة، من مثل الرد السَّريع على السَّؤال قبل الانتباه إليه جيِّدًا، ومعرفة مضمونه وعناصره، فيقع الطَّالِب في الخطأ. أو مثل الاستجابة الفوريَّة من دون مراجعة النَّفس في موقف حياتي، وذلك يؤدِّي بالفرد إلى سلوك عدوانيٍّ يضرُّ به، أو بالآخرين، أو بالاثنين معًا.

● **التشخيصات الأخرى الواجب التفكير فيها:**

✓ تصرفات عادية بالنسبة إلى عمر المريض.

✓ تخلف عقلي.

✓ تصرفات عكسية ومشغبة.

✓ وجود المريض في مكان أو في صف معين ليس فيه تحد أو تشجيع لمقدرته على التعلم وكسب المعرفة والتقدم.

✓ أمراض مزاجية واكتئابية (اكتئاب شديد، المرض ذو القطبين).

✓ انفصام الشخصية.

✓ أمراض القلق النفسي المتنوعة.

✓ أمراض الشخصية.

✓ أمراض سببها الكحول أو المواد المدمنة (المخدرات، حبوب للنوم...)

✓ أمراض مزمنة من مثل أمراض عدم القدرة على التحدث، والاجتماع مع الغير.

✓ أمراض مدرسية وعدم قدرة على التعلم (حساب، قراءة...)

✓ أمراض سلوكية.

✓ أمراض جسدية وطبية

✓ أعراض جانبية لعقاقير وأدوية (أدوية

ومن ثم تعكس الاندفاعية نقصاً في الانتباه الكافي، وقصوراً في الإدراك، وعجزاً عن التفكير، يؤدي إلى سرعة الاستجابة، والوقوع في الخطأ^(١).

● **من المفيد القيام بنشاطات وفحوصات أخرى، منها:**

✓ فحص جسدي من قبل طبيب أعصاب.

✓ فحص كتابي لليأس.

✓ التاريخ والمقابلة للأّم وللأب كل على حدة، ثم الاثنين سوياً.

✓ خطة مكتوبة ومتكاملة للعلاج بنّاءاً بنّاءاً،

ويشترك فيها جميع العاملين أو الاختصاصيين الذين يعالجون المتعلم.

✓ المتابعة والاجتماع كفريق عمل معالج على طريقة دورية. وفي بعض هذه الاجتماعات، يجب أن يحضر الوالدان أو أحدهما والمعلم(ة).

✓ دراسة بيئة البيت وبيئة المدرسة، بالنسبة إلى التلميذ، من قبل مرشد أو مرشدة اجتماعية.

✓ فحص الوالدين والأولاد (الأخوة والأخوات) لمعرفة إذا كان أحدهم يعاني من اضطراب الانتباه، أو النشاط الزائد، أو أحد الأمراض النفسية الأخرى المصاحبة.

(١) www.Psychologynet.org/add.html

المضاعفات والأمراض السيكلوجية

الأخرى:

– الإدمان على الكحول، المخدرات.

– الاكتئاب.

– القلق.

– المشاكل السلوكية.

– الانتحار.

ماذا يحصل للمريض مع الوقت؟

– مرض مزمن لا يُشفى.

– يبقى المرض حتى بلوغ المراهقة وما

بعدها^(٢).

III - استراتيجيات علاج العجز عن الانتباه:

لكي نقوم بتحسين الانتباه عند المتعلّم، يُفضّل أن تُتخذ عدّة إجراءات من شأنها تحسين قدرته على الانتباه، نوجزها بما يلي:

التدريب على تركيز الانتباه:

أي توجيه انتباه الطالب نحو المثيرات المهمة ذات الصلة بموضوع الدّرس، وترك باقي المثيرات. ويتضمّن ما يلي:

أ – لفت انتباه الطّالب إلى المثيرات المهمة حتى يركّز عليها ويعزف عن غيرها، كأن يقول المعلّم (ة): انتبهوا إلى النّقاط

هرمونية، أدوية السّل، أدوية صعوبة التّنفس...

● الأعراض المرافقة لهذا المرض والناجمة عنه:

✓ عناد.

✓ غضب شديد.

✓ اكتئاب شديد.

✓ هرب الأصدقاء.

✓ عدم الثّقة بالنّفس والشّعور بالإخفاق.

✓ الرسوب في المدرسة.

✓ الغضب من قبل الأهل.

✓ مشاكل اجتماعية ومشاكل مع القانون.

● فحوصات مخبرية:

الفحوصات التي سبق وصفها

– تخطيط الرّأس الكهربائي (EEG)

– تخطيط الرّأس بصور CT وMRI

وPET

المضاعفات الجسدية:

– زيادة نسبة الحوادث.

– عوارض جانبية للدواء.

– مرض الرّبو.

– ارتفاع حصول حوادث سير عند

البالغين.^(١)

(١) www.psychologynet.org/add.html

(٢) www.Psychologynet.org/add.html

الرئيسية التالية. ثم يكتبها على اللوح، ويستطرد في شرحها.

ب - تبسيط المثيرات المقدّمة، وتقليل عددها، وإزالة تعقيداتها حتّى يستطيع الطالب أن ينتبه إليها، ويلمّ بها، ويستوعبها.

ج - زيادة تركيز الطالب على المثيرات الأساسية بتلويينها، أو وضع خطوط تحتها، كما هو الحال في الحروف الهجائية، والقوانين، والنظريات، والأقوال المأثورة، وخلاصات الدروس المشروحة.

د - استخدام المثيرات والخبرات الجديدة وغير المألوفة حتّى نلفت انتباه المتعلّم، لأنّ الاعتياد على المثيرات يجعل المتعلّم يملّها، فلا تثير اهتمامه^(١).

هـ - توظيف أكثر من حاسة ونشاط في الانتباه، من مثل الاستعانة بالعين والسمع في تعلم القراءة والكتابة، وإضافة اللمس في الدروس العلمية والفنية.

و - عرض المواد العلمية في شكل مجموعات متجانسة يكون لها دلالة ومغزى، فيسهل على المتعلّم فهمها واستيعابها بالتركيز عليها، كما هو الحال في تصنيف المقررات الدراسية على أسس منطقية.

ز - الاستعانة بالخبرات السابقة للمتعلم، والانطلاق منها لتقديم خبرات تربوية جديدة ترتبط بها، فلا يجد صعوبة في الانتباه إليها، وفهمها، والإلمام بها^(٢).

● زيادة مدّة الانتباه:

وذلك بطريقة تدريجية، بالاستعانة بالإجراءات التالية:

أ - أن يحدّد المعلّم للمتعلم، بالضبط، ما يجب القيام به وتحقيقه في صورة هدف إجرائي يسهل تحديده وتنفيذه وتقويمه وقياسه، كأن يقول: أريد أن أشدّ الطالب لشرح درس لمدة نصف ساعة.

ب - أن يستخدم المعلّم ساعة توقيت Stop Watch لقياس مدّة الانتباه لدى الطالب.

ج - العمل على زيادة مدّة الانتباه لتحقيق التقدّم في المجال.

د - توفير أوقات راحة بين مهام التدريب على زيادة الانتباه عملاً بالقاعدة: التمرين الموزّع غالباً ما يكون أفضل من التمرين المتّصل. فقد يكون الخير أدعى إلى التعب والملل.

هـ - العمل على تعزيز الزيادة في مدة الانتباه بالتشجيع، عملاً بالقاعدة: النجاح يؤدي إلى مزيد من النجاح^(٣).

(١) حافظ، نبيل، صعوبات التعلم، م.س.، ص. ١٤.

(٢) م. ن، ص. ٧١.

(٣) حافظ، نبيل، صعوبات التعلم، م.س.، ص. ١٥.

● زيادة المرونة في نقل الانتباه:

ويتضمن ذلك اتخاذ الإجراءات التالية:

أ - إعطاء وقت كافٍ لانتقال انتباه الطالب من مثير إلى آخر. وبعد أن يستوعب المفهوم الدال عليه، يقدم له مفهوماً آخر بمثير آخر، وهكذا...

ب - التقليل التدريجي من مدة انتقال الانتباه من مثير إلى آخر، بعد أن يتمرن المتعلم على ذلك.

● تحسين تسلسل عملية الانتباه:

يُقصد بتسلسل عملية الانتباه أن يركز المتعلم حواسه في مثيرات متتابعة عبر زمن تقديم الخبرة، أو الخبرات التعليمية، بحيث يصل، في النهاية، إلى إلمام متكامل وفهم شامل لها.

ولكي يتم ذلك، يُستحسن اتباع الخطوات التالية لتحسين قدراته في هذا المجال:

أ - زيادة عدد الفقرات التعليمية التي ينتبه إليها المتعلم تدريجياً.

ب - وضع عناصر المهمة العلاجية (الفقرات التعليمية المطلوب زيادة مدة الانتباه إليها) في شكل وحدات يسهل تعلمها مثل الحروف المتجانسة مع بعضها

(ب، ت، ث)، أي إخضاعها إلى مبادئ تداعي المعاني الخمسة التي وضعها «أرسطو».

ج - التكرار والتدريب حتى يستطيع المتعلم السيطرة على المهمة التعليمية.

الإطار النفسي والتربوي لتحسين الانتباه:

ويُقصد به الوسائل النفسية والتربوية التي يتعين اتباعها لعلاج صعوبات الانتباه، مثلاً:

١ - التعامل مع المتعلم كفرد له خصائصه الجسمية، وقدراته العقلية، وسماته الشخصية، وظروفه الخاصة، وتدريبه بناء على ذلك.

٢ - أن تُناسب المواد المطلوب تعلمها قدرات المتعلم التي تم قياسها، وميوله الدراسية التي تم التعرف إليها، وسماته الشخصية التي تمت دراستها.

٣ - التشجيع والتحفيز المستمر عند أداء المتعلم المهام العلاجية، والمكافأة بعد حسن قيامه بها.

٤ - تدريب المتعلم على مراقبة سلوكه، وتقويم أدائه ذاتياً، وتشجيعه على تعديل سلوكه حتى تنبع الرغبة في التغيير من نفسه، فيتفاعل إيجابياً مع المعالج.

٥ - المعالجة الطبية إذا اقتضى تشخيص حالة الطالب ذلك^(١).

(١) حافظ، نبيل، صعوبات التعلم، م.س، ص.ص. ١٧-١٨.

مبادئ أساسية للتعامل مع المتعلم الذي يعاني من اضطراب الانتباه:

١ - استخدام الأسلوب الوقائي

- خلق جو إيجابي ومنظم في الصف.
- قوانين الصف يجب أن تكون معلّقة وواضحة، ويتم التذكير بها دائماً.

٢ - الاهتمام بكيفية إعطاء

الملاحظات

- ابتكار إشارة متفق عليها.
- تقديم الإرشادات بدقة، واحدة تلو الأخرى.
- فسح المجال للمتعلّمين لإعادة الإرشادات.

٣ - تنوع أسلوب التعليم:

- الصوت: قد يخلق الأستاذ جواً مثيراً، يخفض صوته أو يرفعه في الصف، أو يبطئ كلامه، وذلك للفت الانتباه.
- الوسائل: استعمال مجموعة متنوعة من وسائل التعليم كالصور والملصقات والأفلام والخرائط وغيرها، تساعد على جذب حواس الطالب الشارد الذهن.
- الاستراتيجية: إذا اعتمد الأستاذ أسلوب التلقين، فهو سيضخم مشكلة ضعف الانتباه. لذلك يجب على الأستاذ أن ينوع أساليبه التعليمية، ومنها المناقشة،

والمحادثة، والألعاب التربوية، والتمارين التطبيقية على أنواعها، والتّمثيل، والموسيقى.

٤ - التركيز على التدريب والنظام:

يتم من خلال وضع الدفاتر والأوراق في ملفات خاصة مرقمة ومرتبّة. والتّشديد على حسن مظهر الدفاتر والكتب وطاولة الدرس، ووجود القرطاسية بكاملها.

٥ - الإكثار من التّشجيع والمكافأة وتجنّب من العقاب والتوبيخ:

- المدح والثناء.
- يجب أن تكون الملاحظات دقيقة، وفورية، وصارمة.

٦ - تشجيع العمل التعاوني والنقاش:

وهذا لا يعني وضع المتعلم القليل الانتباه في مجموعة، بل يجب أن تكون مسؤوليات كل فرد محدّدة، وأن تكون النشاطات ضمن العمل التعاوني مبنية على مساعدة بعضهم البعض للوصول إلى هدف واحد. وهنا يمكن استعمال نماذج معرفة للتعاون الجماعي^(١).

٧ - ابتكار برنامج لإدارة السلوك مبني على النقاط:

يستطيع المتعلم القليل الانتباه أن يجمع

(١) عويني، أحمد، الصعوبات التعليمية، م.س.، ص. ١٥٣-١٥٤.

نقاطًا مقابل كل مرة يكون فيها منتبهًا في الصف.

وعند الحصول على رقم متفّق عليه، ينال مكافأة من اختياره. وتحضير هذا البرنامج مهمّ، ويتطلّب الكثير من التدريب، والخبرة، والممارسة، لضمان نجاحه^(١).

● اقتراحات لعلاج الانتباه واضطرابه:

١ - تخاطب مع المتعلّم مشفاهة، واكتب بعبارات بسيطة موجزة.

٢ - كن متماسكًا في توجيهاتك، ولتكن قائمة على مبدأ واحد.

٣ - كن سريعًا في إجابتك، ولتكن ردودك حاضرة دائمًا.

٤ - احرص على توفير الأدوات والوسائل المساعدة إن كانت مفيدة، مثل الأدوات والملصقات ولوحات تعليم الحروف...

٥ - اعمل على توفير الوسائل السمعية المناسبة.

٦ - استخدم الأشكال وما في حكمها كموجبات إرشادية للتعلّم.

٧ - استخدم جميع سبل التعلّم والوسائل التعليمية المناسبة بجميع أنواعها لمساعدة ذوي صعوبات التعلّم، وتمكينهم

من الحفظ والاستيعاب، وتشمل الوسائل الحركية والسمعية والبصرية.

٨ - لا تثقل كاهل المتعلّم بالمنبهات والمحفّزات.

٩ - افحص المواد الموجودة لديك للكشف عن التكرار والتسلسل السياقي.

١٠ - قم بمراجعة المواد بحرص وعناية لفحص الحشو والتسلسل والتغذية الراجعة.

١١ - لا تعرّز الخطأ الذي يقع فيه الفرد فيترسّخ في فكره، بل أخبره بالإجابة الصحيحة، أو أعد صياغة السؤال.

١٢ - تكلم بوضوح وإيجاز عند إصدار التوجيهات، وتقديم الإرشادات، وتجنّب الإسهاب.

١٣ - ضع الخطّة المناسبة لتغيير الدرس في منتصف الحصّة، إذا اتّضح أنه غير مناسب للمتعلّم.

١٤ - تجاهل السلوك غير الحميد أو النّشاط غير الملائم، ما لم يكن بالفعل سلوكًا لا يمكن السّكوت عليه.

١٥ - دع الابتسامة تملو شفّتك، والبهجة تشعّ في عينيك.

(١) عويني، أحمد، الصعوبات التعليمية، م. س.، ص-١٥٤.

المراجع

المراجع العربية

- ١ - باشا عماد وآخرون، الصعوبات التعليمية، مؤسسة الحريري، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢
- ٢ - حافظ، نبيل، صعوبات التعلم، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٩٨.
- ٣ - سليم، مريم، علم نفس التعلم، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

المراجع الأجنبية

- 1 - Georges, K, attention deficit; nature, nurture, or nicotine?, journal of NIH research, 1996.
- 2 - Carlson, E.A. Jacobvitz, D. and Sroufe, L.A: A Developmental Investigation of inattentiveness and hyperactivity. Child Development, 1995, 66, pp:37-54.

المواقع الإلكترونية:

- 1 - WWW.psychologynet.org/add.html
- 2 - Association Québécoise des troubles d'apprentissages.
- 3 - http://www.caduces.net/DossierSpecialises/psychologie/hyperactivite1.as

المكان في الرواية الفلسطينية

هند حنا صعيب

شعوبها، وفتحت أعينهم على روافد جديدة لأدبهم آنذاك»^(٢).

فالرواية الفلسطينية شكّلت مدوّنتها السردية الخاصة بها عبر مسار تاريخي طويل، يمتدّ إلى ما قبل النكبة بفترة طويلة، إذ إنّ الكتابة الروائية في فلسطين بدأت قبل ذلك، على أيدي نفر من الأدباء الرواد، لعلّ أبرزهم خليل بيدس (١٨٧٥-١٩٤٩ م) صاحب رواية **الوارث** (١٩٢٠ م) التي تُعتبر «أول رواية فلسطينية أياً كان الخلاف حول مستواها الفني»^(٣)، وإسحاق موسى الحسيني (١٩٩٠-؟ م) صاحب رواية **مذكرات دجاجة** (١٩٤٣ م) التي قد تكون «أول عمل قصصي معاصر يستفيد استفادة مباشرة من التراث الأدبي العربي»^(٤). فقد حظيت حركة التأليف

بات من نافل القول إنّ الرواية العربية فنّ حديث نسبياً في الأدب العربي، ساهمت في نشوئه حركة المثاقفة مع الغرب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فهي «نشأت وتطوّرت ضمن سيرورة المثاقفة وهواجس النهضة، وإيقاع التصنيفات الاجتماعية، وتبدّل القيم، وتوالد اللغات داخل اللغة الواحدة»^(١). والرواية العربية الفلسطينية، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها في سائر الأقطار العربية، نشأت «في أحضان الصحافة، وعبر الترجمة التي كانت مزدهرة إلى حدّ كبير في ذلك الجزء من الجغرافية العربية، فلسطين، بسبب تعرّضه للغزو الأجنبي المتعدّد الأشكال والجنسيات، وبسبب الإرساليات التبشيرية التي عرّفت الأدباء الفلسطينيين إلى ثقافات

(١) محمّد بّزادة، «الرواية العربية المعاصرة استشراف لآفاق التطوّر المستقبلي»، ضمن الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوّع، ص ١٩٦.

(٢) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٣.

(٣) أحمد أبو مطر، الرواية في الأدب الفلسطيني، ص ٤٩، الهامش الرقم (٢).

(٤) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ج ١، ص ٤٢.

الروائيّ في فلسطين حتّى عام ١٩٤٧ م «بمجموعة من الأعمال الروائيّة المتقدّمة نسبياً»^(١)، لكنّها اقتصرّت على محاولات متفرّقة لم تستطع «أن تشكّل إرثاً وجذراً تتنامى منهما المحاولات الروائيّة الفلسطينيّة في السنوات اللاحقة»^(٢). ويعود ذلك إلى أسباب شتّى، لعلّ أهمّها «عدم قدرة كتّابها على الإمساك بأدوات الكتابة الروائيّة، و... ابتعادهم عن معالجة الواقع الذي كان يواجه محاولات مسعورة لنفي الفلسطينيين خارج أرضهم، ولتشويه حقائق وجودهم التاريخي على هذه الأرض»^(٣).

وقد كان التحديّ الذي واجه كتّاب تلك المرحلة، أو الصراع على حدّ تعبير الجيوسي، «مزدوجاً، إذ لم يكن عليهم أن يتقنوا استخدام أدوات هذا النوع الفنّي الجديد وحسب، بل كان لزاماً عليهم كذلك أن يتّخذوا موقفاً من المآزق السياسيّ الذي فرضته على شعبهم الاستراتيجيّة

الصهيونيّة العالميّة الخطرة»^(٤). هذا فضلاً عن أنّهم «لم يجدوا أمثلة جاهزة يحذون حذوها، ذلك لأنّهم تأثّروا بالفنّ القصصيّ الغربيّ الذي لم يكن يعرف الالتزام السياسيّ لارتباطه بعهود أكثر هدوءاً وطمأنينة»^(٥). وهذا ما جعل جمهور النقاد يُجمع على عدم ظهور رواية فلسطينيّة متميّزة فنّيّاً قبل النكبة^(٦). ففي ذلك الوقت «كان الاتجاه التعليميّ الوعظيّ هو السائد في معظم الأعمال التي تعكس مجتمعاً كان لا يزال طابعه الغالب تقليديّاً يقاوم بشدّة الهجمة الشرسة لثقافة غربيّة تتناقض مبادئها مع مبادئه الأساسيّة تناقضاً تامّاً، وهي ثقافة المهاجرين اليهود الأوروبيّة»^(٧).

وفي ربيع عام ١٩٤٨ م وقعت نكبة فلسطين التي تركت أثراً واضحاً في الوجدان الإنسانيّ، إذ «إنّ فلسطين - بوصفها أرضاً انتهكت وشعباً شرّد في الآفاق بحثاً عن الحياة بعد أن تعرّض لأشدّ أنواع الإرهاب والقتل والإبادة قسوة

(١) أحمد أبو مطر، الرواية في الأدب الفلسطينيّ، ص ٣٢.

(٢) فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص ٣٣.

(٣) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٦.

(٤) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٤٣.

(٥) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٤٤.

(٦) انظر تفصيل ذلك في: أحمد أبو مطر، الرواية في الأدب الفلسطينيّ، ص ١٣-٥٣؛ فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص ١٣-٣٣؛ سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٤٠-٤٤.

(٧) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٤٩.

ووحشية - أصبحت واحدة من المعالم التي تؤكد جانب المأساة في هذا العصر»^(١). وبالتالي كان على الأدب العربي عامة والفلسطيني خاصة أن يتأثر بهذه المأساة تبعاً لعمق إحساس الأديب بها ووعيه بأبعادها وآثارها السلبية على الوطن العربي بأسره. فقد «تمثل الأدب جوانب هذه التجربة الإنسانية المتشعبة في معانيها وظلالها وتأثيرها لا سيما مأساة الإنسان الذي قُتل أهله، وهدمت داره أمام ناظريه، واقتلع قسراً من أرضه ليظل معلقاً على حبال الغربة والألم والانكسار والنزف المستمر»^(٢).

استؤنفت الكتابة الروائية الفلسطينية عقب النكبة بسنوات عدة، فبرزت «ثلاث أسماء استطاعت أن تبني معماراً متماسكاً حول سؤال الوجود والهوية غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وإميل حبيبي»^(٣). فشكّلت أعمالهم علامة فارقة في تاريخ الرواية العربية، واحتلت مركز الريادة في التجربة الروائية الفلسطينية. وقد عاصرهم، ثم تلاهم طائفة كبيرة من الروائيين الفلسطينيين، نحو رشاد أبو شاور ويحيى

يخلف وإبراهيم نصر الله وخليل صويلح وسحر خليفة وليانة بدر وغيرهم. وقد حاول كلّ منهم أن يخطّ مساراً إبداعياً خاصاً به، من دون أن يخرج عن إثارة أسئلة الأرض والوجود والهوية، تلك الأسئلة الجوهرية ذات الحضور الدائم في نفس الفلسطيني ووجدانه. فجاءت أعمالهم «بطاقتها التجريبية اللافتة، وبحثها في الغنى النوعي للأشكال وقدرتها على تجسيد الأفكار والتجارب، تعبيراً خلاقاً عن الحلم الفلسطيني وابتكار الهوية»^(٤). وقد ركّزت هذه الأعمال على الإشكالية الفلسطينية المصيرية التي مثلت جوهر تجربة الفلسطينيين ومعنى وجودهم، والمصير المأساوي لشعب انشطر إلى نصفين: داخل الوطن وخارجه.

وبذلك يمكن القول إنّ النكبة شكّلت المنطلق الأساس للكتابة الروائية الفلسطينية والبداية الفعلية لما سيعرف لاحقاً بالرواية العربية الفلسطينية التي ستستفيد من إنجازات الرواية الغربية والعربية السابقة عليها، وتتمثلها، لتمسي قادرة على صياغة الواقع الفلسطيني بعد النكبة، والتعبير عن

(١) سلمى الخضراء الجيوسي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦.

(٢) محمد بركة، «الرواية العربية المعاصرة استشراف لآفاق التطور المستقبلي»، ضمن الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع، ص ٢٠١.

(٣) فخري صالح، قبل نجيب محفوظ وبعده، ص ١٢٣.

(٤) فخري صالح، المصدر نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

تجربة الاقتلاع والنفي والإصرار على العودة إلى الأرض. وبالتالي كان من الطبيعي أن «ينجدل تاريخ الرواية الفلسطينية حول بؤرة أساسية تتصل بالشتات وهجرة الفلسطينيين القسرية عن أرضهم بعد اغتصاب الصهاينة لفلسطين عام ١٩٤٨ م. وعلى الرغم من أن ثمة روائيين فلسطينيين بدأوا الكتابة قبل ضياع فلسطين... فإن الكتابة الروائية الفلسطينية لم تتبلور ثيماتها الأساسية إلا بعد مرور أكثر من عقدين من الزمن على النكبة التي شرّدت أهل فلسطين، ووضعتهم في مواجهة سؤال العيش والوجود والهوية المهددة بالمحو والزوال، حول سؤال الوجود والهوية انبنت معظم الروايات التي كُتبت بعد طرد الفلسطينيين وتشريدهم من بلادهم»^(١).

وقد تمكّنت الرواية الفلسطينية من تجسيد معاناة الفلسطينيين بعد النكبة، وتصوير حياة البؤس والشقاء التي عاشوها، وما واكبها من ظروف سياسية واجتماعية صعبة، تركت أثراً سلبياً على الفرد الفلسطيني، الذي وجد نفسه وحيداً في مواجهة العالم، سواء على أرض الوطن أم في الأقطار العربية المجاورة. إذ شرعت الأعمال الروائية المنجزة عقب النكبة تلتفت

إلى تصوير ذلك كله، مشددة على إبراز فداحة هذه الظروف، وأثرها السلبي على الفلسطيني الذي أخذ يشعر بالانكسار النفسي كونه إنساناً منتقص الكيان والانتماء والهوية. فقد شكّلت النكبة، بما تنطوي عليه من مواقف إنسانية يمكن أن تتحوّل إلى رؤية بطولية ومأساوية في آن معاً، ومعيناً ثراً ومادة غنية للروائيين الفلسطينيين ليمتأحوا منها لدى تأليف نصوصهم الروائية، التي أرادوها أن تكون تعبيراً فنياً وجمالياً راقياً عن عمق تلك المأساة التي حلّت بأبناء شعبهم، وتركت أثارها على مختلف نواحي حياتهم وأحداثها وظروفها.

فقد وجد الروائيون الفلسطينيون أنفسهم ينغمسون في التعبير عن هذه التجربة الإنسانية الوجودية، ويتفاعلون معها بكل قوّة، انطلاقاً من هويتهم الفلسطينية، وواجبهم الأخلاقي تجاه قضيتهم وشعبهم وأرضهم المغتصبة، ورفضهم حياة التشرد والذلّ والهوان بسبب ضياع الوطن. وقد انطلقوا في مقاربة ذلك كله من المكان الذي ضاع أو يكاد، في محاولة منهم لاستعادته عبر المخيلة الروائية، لتبقى صورته وتفصيله وملامحه حاضرة في الذاكرة الوطنية

(١) فخري صالح، قبل نجيب محفوظ وبعده، ص ١٢٣.

الفلسطينية، جغرافياً وتاريخياً وحضارياً وثقافياً. فحسّ المكان «حسّ أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصاً إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط المشيمي برحم الأرض الأم، ويرتبط بهناء الطفولة وصبابات الصبا، ويزداد هذا الحسّ شحداً إذا ما تعرّض المكان للفقد أو الضياع، وأكثر ما يشحذ هذا الحسّ هو الكتابة عن الوطن من المنفى»^(١). وانطلاقاً من هذا التصوّر اتخذ العديد من الروائيين الفلسطينيين «وضع أبناء وطنهم في منافيهم في البلدان العربية وأقطار أخرى موضوعاً لرواياتهم حيث عبّروا بأساليب مختلفة عن حنينهم لوطنهم وشعورهم الحتمي بالغربة»^(٢).

فالكتابة الروائية الفلسطينية تجاوزت كونها مجرد معالجة فنية لواقع معين أو نقل رؤية فنية عنه بطريقة سردية أدبية، لتصبح شهادة حيّة مفعمة بشغف التعلّق بالمكان، ورؤية تتميز بفرادة تاريخية تنطلق من إيمان عميق بالأرض والوطن، وترسم صورة المكان قائماً أو مفقوداً، بأسلوب فنيّ تتضافر في تشكيله عناصر الجغرافيا والتاريخ والحضارة والثقافة، إلى

جانب خصوصيّة الإنسان الفلسطيني التي يسبغها على المكان بأبعاده كافة: الفيزيائية والجغرافية، التاريخية والاجتماعية، الحضارية والثقافية، الزمنية والنفسية، الموضوعية والذاتية، الفردية والجماعية، الدلالية والفنية. وهي أبعاد يتّصل بعضها ببعض، إذ من غير الممكن أو الجائز الفصل في ما بينها، لا على المستوى الواقعي، ولا على المستوى الأدبي. وإن حدث ذلك، فلا يكون إلاّ فصلاً تعسفياً تقتضيه ضرورة البحث العلمي.

لقد تبلور مفهوم المكان في الرواية الفلسطينية مرموزاً إليه بالأرض، بوصفها امتداداً للإنسان الفلسطيني في المكان، الذي يشكّل (أي الفلسطيني) بدوره امتداداً لها في الزمان أيضاً. لذلك، كان من الطبيعي أن يتنامى الإحساس بالحنين إلى المكان الفلسطيني على المستوى الفردي والشعبي، «لأنّ الإحساس بالحنين إلى الوطن يزداد مع تنامي الشعور بالنّفي، خصوصاً كلّما بُعد المنفى واختلف»^(٣). وهذا ما جعل الروائي الفلسطيني يعبر عن حنينه إلى الوطن، وهو يعيش «معلقاً بين الانتماء إلى وطن ضائع، والحياة في مكان لا يسمح هو

(١) اعتدال عثمان، إضاءة النصّ، ص ٦.

(٢) روجر آلن، الرواية العربية، ص ٦٨.

(٣) وليد أبو بكر، «بعض التحوّلات الخاصة في الرواية الفلسطينية الجديدة»، تبين، المجلد ١، العدد ٢، خريف ٢٠١٢، ص ١٣٨.

ولا يرغب الفلسطينيّ فيه، ولو فكرياً، بأن يتشكّل فيه وطن بديل»^(١).

فقد «شكّلت الأرض، كمكان وكيان جغرافي، وكذلك كموثّل وحضن يأوي إليه الإنسان، بؤرة الخطاب الفلسطينيّ، اليوميّ والثقافيّ، السياسيّ والأدبيّ، إلى الحدّ الذي جعل حياة الفلسطينيّين، خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان، حفراً وسواسياً على المعاني المتكاثرة للأرض ودلالاتها الحافّة وبؤرها الرمزيّة»^(٢). إذ نعثر في هذا الخطاب «على تكرار ورود لفظة الأرض، ومرادفاتها ومشتقّاتها وصورها الرمزيّة ومعانيها الحافّة، إلى الحدّ الذي يحيل التراب والمكان الجغرافيّ إلى كيان وجوديّ نابض يزاحم الفرد والجماعة وجودهما، إن لم نقل إنّّه يحوّل هذا الوجود إلى مأزق، إلى تجربة مؤجّلة، إلى وعد ينتظر التحقق... لا شيء غير الأرض ودلالاتها الرمزيّة ومعاني غيابها وانتظارها ورغبات العودة إليها والإيواء إلى حضنها والالتحام بها ودخول فردوسها المفقود، بل إلى الغور فيها والاندفان تحت سطحها، ما يعادل... بين الرّغبة في العيش في الأرض والرّغبة

المهووسة بالموت من أجل الأرض أو التضحية فداء لها»^(٣). تأسيساً على هذا المعنى، تحوّلت الأرض في الرواية العربيّة الفلسطينيّة «إلى ذات حيّة تسكن جسداً، وداخل هذا الجسد يقيم الأديب علاقاته الجديدة، ويرسم صورة الشخصيّات وهي تعيش ألم الانفصال عن هذه الذات»^(٤).

وربّما كان الروائيّ الفلسطينيّ من أكثر الروائيّين العرب إحساساً بالمكان الذي كان له وجود فاعل في إبداعه، وفي تشكيل خطابه الروائيّ وبلورة دلالاته. فإشكاليّة المكان فرضت نفسها على الرواية الفلسطينيّة، باعتبارها ذات دلالة خاصّة فيها. فقد اكتسب المكان أهميّة خاصّة، بوصفه يرمز إلى الوطن المتروك تحت نير الاحتلال، والمائل في ذاكرة الشخصيّات الفلسطينيّة التي تعيش تداعيات ضياع الوطن، وفقدان الأرض، وهي ما انفكّت تحلم باستعادته بكلّ تفاصيله وجغرافيّته وتاريخه وطقوس أهله، ليس بوصفه مجرد ملاذ آمن وموئل لها، بل بوصفه خشبة خلاص وفردوساً منتظراً وأملاً مرتجىً، ورمزاً للانتماء وتأكيد الوجود والتشبّث

(١) وليد أبو بكر، المصدر نفسه، ص ١٣٨.

(٢) فخري صالح، «يوم الأرض في الخطاب الثقافيّ الفلسطينيّ: الرمز والدلالة»، جريدة العربيّ الجديد، الأحد ٢٧/٣/٢٠١٦ (ملحق فلسطين).

(٣) فخري صالح، المصدر نفسه.

(٤) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبيّ في رواية الصراع العربيّ - الصهيونيّ، ص ٢٠.

بالبهوية ومقاومة التهويد، وإعلاء ثقافة الصمود، وحفظ الذاكرة الوطنية الجماعية من الاندثار.

وقد جاءت الرواية الفلسطينية لتجسد، على نحو شديد الدلالة، علاقة الفلسطيني بأرضه القائمة على الرغبة في الالتحام بها وحمايتها من الدنس والاغتصاب، وتعبّر عن التجربة الوجودية للفلسطينيين، على المستويين الفردي والجماعي. وبهذا المعنى جسّدت هذه الرواية «تجربة وجودية جماعية تتعانق فيها الأرض الفلسطينية، كجسد بعيد وناء، مع الذات الجماعية المهدّدة بالانمحاء والذوات الفردية التي تتحلّل وتذوب في ذات الجماعة»^(١). وقد أدّى ذلك إلى إضفاء نوع من القدسية على الأرض لتصير «أشبه ما يكون بديانة سياسية حقيقية، يتجاوز فيها بعد هذا العنصر العلاقة الاجتماعية والاقتصادية، لتصبح الأرض هي التاريخ، وهي الدين، وهي الوجود»^(٢).

فكان طبيعياً أن تزخر المدونة السردية الفلسطينية الحديثة بأسماء مدن فلسطين وقراها، بمساجدها وكنائسها ومعالمها الأثرية وبيوتها وشوارعها، ببياراتها

وبساتينها وحقولها وشواطئها، بعبق زهر برتقالها وزيتونها. إنّها الأمكنة التي أرادها الفلسطيني أن تظلّ شامخة بوجودها، راسخة بحضورها فوق الأرض، على الرغم من أنّ أبناءها، مغتربين فيها أو منفّيين عنها، لا يستطيعون الإقامة فيها أو العودة إليها. فقد تجاوز الإبداع الروائي الفلسطيني مجرد كونه تعبيراً عن خسارة المكان، وما يرافق ذلك من مشاعر الفقد والحنين، إلى النظر إلى المكان بوصفه فكرة مجردة تعيش في نفس الفلسطيني وذاكرته ووجدانه، بدلاً من أن يكون هو من يعيش فيه.

على أنّ هذا المكان الواقعي، وإن تحوّل إلى فكرة ذهنية في بنية النصّ السردية، بقي حاضراً في ذاكرة الشخصيات الفلسطينية التي تستدعيه بكلّ ملامحه وتفاصيله وأشياءه. لذا، لم يكن من قبيل الصدفة أن تكون بعض الروايات، كالمتمشائل والبحث عن وليد مسعود، بمنزلة «سياحة أدبية - فكرية في تاريخ القضية من أيام الصليبيين إلى الاحتلال البريطاني ثم الاستعمار الاستيطاني اليهودي مروراً بشوارعها وطرقاتها وعادات سكّانها وما واجهوه من تدمير

(١) فخري صالح، «يوم الأرض في الخطاب الثقافي الفلسطيني: الرمز والدلالة»، جريدة العربي الجديد، الأحد ٢٧/٣/٢٠١٦ (ملحق فلسطين).

(٢) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي - الصهيوني، ص ١٥٧.

معنويّ ومادّيّ ونفيّ واقتلاع، وعلى الرغم من ظلّوا صامدين منزعجين في مساكنهم، ومن خرج منهم ظلّ يطمح بالعودة إلى تلك الأرض حيث ماضيه وحاضره ومستقبله، كلّ ذلك من خلال إشارات تاريخيّة تغطّي مراحل القضية كافّة»^(١).

فالأمكنة تحضر في النصّ الأدبيّ بجغرافيّتها وتراثها وتاريخها وعادات أهلها، وبما شهدته من مآسٍ حوّلت ساكنيها إلى لاجئين تائهين في وطنهم، وفي بلدان الشتات واللجوء. وصور المكان تقف شاهدة على حوادث الماضي وويلاته، وعلى تحولات الحاضر الذي لا يترك تأثيره على الأمكنة التي تُهوّد وتُزال عن وجه الأرض وحسب، وإنّما على الفلسطينيّ الذي يفقد أصالته وجذوره، ويُزيّف حاضره وماضيه على حدّ سواء.

ففي المدوّنة السرديّة الفلسطينيّة، ولا سيّما في أعمال حبيبي وكنفاني وجبرا، ثمة مزج خلاق بين ذاكرة المكان والبشر الذين يقيمون فيه. إذ ينهض المكان في هذه المدوّنة بصفته حاضناً لوعي الفرد وذاكرته الوقّادة، ومخيّلة الكاتب الذي يرغب في استحضار شخصيّة فلسطينيّة صادقة فنّيّاً في التعبير عن وعيها بأهميّة المكان، بعيداً

عن أيّة مقولات أيديولوجيّة أو فكريّة أو سياسيّة. فقد حثّت رواية رجال في الشمس (١٩٦٣م) لکنفاني على الثورة، وتنبّأت بها روايته ما تبقى لكم (١٩٦٦م)، ورفضت روايته عائد إلى حيفا (١٩٧٠م) الهزيمة وحرّضت على الكفاح المسلّح. وصنّفت رواية حبيبي سداسيّة الايام الستّة بين روايات التغيير الثوريّ^(٢)، وحرّضت رواية جبرا السفينة (١٩٧٤م) على العودة إلى الوطن والعيش فيه، حتّى ولو تحت الاحتلال، ودعت روايته البحث عن وليد مسعود (١٩٧٨م) إلى نبذ المنفى وتبنّت الكفاح المسلّح والنضال داخل فلسطين.

ولئن كانت الروايات التي عالجت المكان، بوصفه محوراً رئيساً فيها، قليلة إجمالاً، فإنّ ذلك لا ينفي وجود عدد من الروايات التي تنطلق من المكان المرجعيّ الواقعيّ، كروايات حبيبي وكنفاني وجبرا وباب الساحة (١٩٩٠م) لسحر خليفة وتفتح المجانين (٢٠٠٨م) وبحيرة وراء الريح (١٩٩١م) ليحيى يخلف، وسمك اللجّة (١٩٨٤م) لفیصل حوراني. وقد يعود السبب في ذلك إلى أنّ عدداً لا بأس فيه من الروائيّين الفلسطينيّين لم يتفتّح وعيه في

(١) أحمد أبو مطر، الرواية في الأدب الفلسطينيّ، ص ٢٧١.

(٢) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، ص ٧٧٣-٧٧٤.

فلسطين أو لم يولد فيها أصلاً، لذا كان من الطبيعي أن لا يدرك المكان الفلسطيني إدراكاً تاماً أو لا يعرفه البتّة، فيحضر المكان لديه بوصفه فكرة ذهنيّة مجردة أكثر من كونه واقعاً مادّياً معاشاً، «يحضر بأبعاده الفيزيقيّة والمجرّدة معاً في آنٍ واحد... بعناصره المكانيّة الحسيّة وأبعاده الذهنيّة المجرّدة»^(١). فنجد روايات هؤلاء تصوّر الأماكن التي عاشوا فيها، فيما تتوارى صور الأمكنة الفلسطينيّة بفعل الغياب الطويل عنها أو عدم معرفتها البتّة. وهذه حال معظم الكتّاب الذين ولدوا إبّان النكبة أو بعدها، وعاشوا خارج فلسطين في أماكن متفرّقة، لم تغنهم عن مكانهم الأصليّ الذين ظلّوا يمتّون أنفسهم بالعودة إليه، متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فالفنّ الروائي الفلسطيني عامّة هو فنّ مكانيّ بامتياز، إذ إنّه ألحّ على المكان على نحو لافت، لأنّ تجربة الاقتلاع والنفي القسريّ للفلسطينيّ عن أرضه قد فرضت نوعاً من الخصوصيّة في علاقته به. لذا جاء المكان في الرواية الفلسطينيّة ليجمع بين ألم الوجد والتذكّر، وأمل العودة القريبة. فالرواية الفلسطينيّة لا تسأم من الإلحاح

على خصوصيّة المكان عند الفلسطينيّ وحساسيّته تجاهه، وهي بهذا إنّما تحاول أن تعبّر عن همّ الفلسطينيّ الأوّل المتمثّل في فقدانه لمكانه الأوّل وقناعاته الراسخة أنّ العودة هي الحلّ الأوحد لوقف نزيف المعاناة^(٢). غير أنّ حلم العودة هذا «يبقى في منطواه العميق وجعاً يخزّه، لأنّه تعويض عن الخسارة، وليس عبوراً إلى مستقبل يراد له أن يتحقّق»^(٣).

فالمعاناة التي عاشها الفلسطينيّ، ولا يزال، جعلت المكان في المدوّنة السرديّة الفلسطينيّة ذا خصوصيّة تميّزه من غيره في الآداب الأخرى. فقد برز ذلك على نحو جليّ، بعد نكبة عام ١٩٤٨ م، وما تلاها من نكبات حلّت بالفلسطينيّ في الوطن والشّتات على حدّ سواء. فأصبحت الأرض هاجسه الأوّل، وتحوّلت جزءاً لا يتجزّأ من كيانه، وظلّت حاضرة في تفكيره ووجدانه وحياته. فالأرض، بصرف النّظر عن كونها واقعاً أو حلماء، مكاناً جغرافياً أم رمزاً للانتماء، «هي ذروة العلاقات الحميمة للفلسطينيّ مع الأشياء، إنّها نقطة الدائرة التي انزلق عنها الفلسطينيّ في الانحناء الهابطة في رحلة الغربة، وهي النقطة ذاتها

(١) اعتدال عثمان، إضاءة النصّ، ص ١٠.

(٢) وليد محمود أبو ندى، «المكان في رواية البّيّارة الضائعة»، مجلة الجامعة الإسلاميّة، (سلسلة الدراسات الإنسانيّة)، المجلّد ١٩، العدد ١، يناير ٢٠١١، ص ٩٢٩-٩٣٠.

(٣) كريم مهدي المسعودي، الواقع الفلسطينيّ في الرواية، ص ١٦.

التي يطمح للوصول إليها بارتقائه للانحناءات الصاعدة عبر الممارسة النضالية»^(١). لذا، كان لا بدّ للروائيين الفلسطينيين من أن يسعوا إلى تجسيد معنى الأرض في ذاكرة الفلسطيني ووعيه في عوالمهم الروائية.

والمكان في الرواية الفلسطينية يتأسس على مفهومَي الوطن والمنفى، مما يمنحه فرادة وخصوصية تميزانه من أيّ مكان روائي آخر. فتجربة الشعب الفلسطيني في المنفى، بما انطوت عليه من تهجير وفقدان للأرض وخسارة للوطن الذي أقيمت على أنقاضه دولة استيطانية هي دولة إسرائيل، تجربة فريدة في التاريخ الحديث^(٢). وهو يقوم على مبدأ الثنائيات الضدية والتقاطبات المكانية، باعتباره يتمثّل في مجموعة من القضايا والمسائل المتعارضة التي طبعت حياة الفلسطينيين منذ النكبة حتّى يومنا هذا. ذلك أنّ الظروف التي مرّوا بها، والحوادث التي عاشوها، جعلت حياتهم بعد النكبة نقيضاً لحياتهم قبلها. «وقد آمن الفلسطينيون بهذا التصرّو للثنائيات، وربّما كان تصوّرهم هذا نابعاً من ظروفهم التي قلبت حياتهم رأساً على عقب، لتصبح أكثر العلاقات، والمكانية فيها بشكل خاص،

قائمة على التضادّ بين الماضي والحاضر»^(٣).

فبنية المكان في الرواية الفلسطينية تتأسس على ثنائية الوطن والمنفى، بحيث تقوم الحبكة الروائية في معظم الأحيان على مبدأ فقد المكان الأموميّ: الوطن، واللجوء إلى مكان آخر بغية الإقامة فيه على نحو مؤقت، إلى أن يتمّ استرجاع الوطن السليب، بوصفه المكان الموعود، وذلك انطلاقاً من مبدأ السعي إلى تعويض فقدان المكان بالإقامة في أمكنة مؤقتة عدّة، على أمل استعادة المكان الأصليّ والعودة إليه.

وهكذا تتشكّل في الرواية الفلسطينية ثنائية مركزية، طرفاها الوطن المفقود ومكان اللجوء حيث يعيش الفلسطيني لاجئاً يواجه قساوة الواقع ومرارته، فيستحضره من الذاكرة فردوساً مفقوداً يسعى إلى العودة إليه بشتّى الوسائل المتاحة، ومقيماً في طريق هذه العودة بأمّاكن كثيرة في بلاد اللجوء والشتات والاغتراب. فيتشكّل بذلك فضاء روائي فلسطيني ذو شقين: فضاء الوطن وفضاء اللجوء، بحيث يشمل هذا الفضاء الأمكنة الروائية جميعها، وأشياءها، وعلاقتها ببعضها، وعلاقتها

(١) فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص ٥٥-٥٦.

(٢) يوسف حطّيني، مكوّنات السرد في الرواية الفلسطينية، ص ٧٧.

(٣) يوسف حطّيني، المصدر نفسه، ص ٨٢.

بسائر عناصر القصّ، في سياق تشكّل بنية النصّ الكلّيّة. وقد تمثّل هذا الفضاء بشقّيّه أو بأحدهما في معظم النصوص السردية الفلسطينية، فكان له دور فاعل ومؤثر في إنتاج فاعليّتها الدلاليّة والجماليّة، بوصفه هويّة من هويّاتها، ومحوراً أساسياً من محاورها، والعنصر البنيويّ الأقدر على تمثّل المأساة الفلسطينية، والتعبير عن تجربة الفلسطينيّ في العيش في الوطن تحت نير الاحتلال أو الإقامة في بلاد اللجوء في ظلّ واقع قاسٍ تفرضه ظروف الحياة.

انطلاقاً من علاقة الفلسطينيّ بأرضه، تختلف رؤية الروائيّ الفلسطينيّ المقيم في فلسطين إلى المكان عن رؤية ذلك النّازح عنها، والمقيم بعيداً عنها. فالأوّل يعيش واقعاً أليماً بسبب ما يعانیه أبناء شعبه من قهر وإذلال وقضم للأراضي وطمس للتّاريخ، ويدعوهم إلى النّضال، والمقاومة، «إلى التّمسك بهذه الأرض، وإلى الإصرار على البقاء فيها رغم محاولات الاحتلال لنفيهم خارجها»^(١). أمّا الثاني فيعبر عن غربته وحزنه لفراقها، ويستذكر ذاك الماضي الجميل، أملاً العودة إليها، ليستأنف حياته فيها من جديد كسائر البشر.

ولا مناص هنا من أن نشير إلى أنّ المكان، في الرواية الفلسطينيّة في المنفى، شكّل فضاءً متخيّلاً ذا طبيعة خاصّة، تتحرّك فيه الشخصيات وترتبط به خطوط السرد، وتتنامى عبر الزّمن الروائيّ الذي يتّخذ مساره في بلاد المنفى الفلسطينيّ القسريّ. فقد بدا هذا المكان، في نظر الفلسطينيّ المطرود من وطنه، مكاناً معادياً، ومنفراً في الأغلب، إذ ظلّ مسكوناً بالمكان الأصليّ بوصفه المكان الأموميّ الأليف، وظلّت الأمكنة في الشّتات عابرة ومؤقّته، مهما طالت إقامته فيها. فد «من الأمور التي تبرز، عند القراءة المتأنّية لأدب الشتات، انعدام الارتباط بالأمكنة الجديدة التي نزل فيها الفلسطينيّون في أيّ مكان خارج وطنهم»^(٢).

وهذا ما يفسّر التداخل بين الماضي والحاضر في الزّمن الروائيّ الفلسطينيّ الذي جاء منشطراً بين الزّمن النّفسيّ الذي يعود بالشخصيات إلى ما قبل النّكبة، والزّمن الفيزيائيّ الذي يصوّر حالتها في بلاد اللجوء بعد النّكبة. فبدت هذه الشخصيات عصابيّة مأزومة، عاجزة عن التّأقلم مع واقعها الراهن، وغير قادرة على التّفاعل مع الزمان والمكان الطارئين. على

(١) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ٤٩.

(٢) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٧٢.

الرَّغْم من أنَّ بعض هذه الأمكنة ارتبط ارتباطاً وثيقاً وعضوياً بالفلسطيني، كالمخيم الذي بدا في سني النكبة الأولى رمزاً للبوأس والتشرّد والشقاء، ليغدو في ما بعد رمزاً للهويّة الوطنيّة الفلسطينيّة التي أقامت حبكتها على استعادة المكان/الوطن من الذاكرة، مستعيدة معه الزمن أيضاً، إذ في الوقت الذي كانت فيه الشخصيات الرّوائيّة تنخرط في المجتمعات العربيّة، وتعيش أحداثها، وتتفاعل مع قضاياها، كانت تعود زمنياً إلى الوراء لترتبط كلّ ما يحدث بماضي الوطن، فتتحدّث بالتفصيل عن أمكنته، على نحو لا تفعل مثله إزاء الأمكنة التي تقيم فيها حالياً، والتي تنسج الرواية فيها أحداثها. وقد ساهم ذلك في تقديم نصّ قصصيّ فلسطينيّ ذي طابع ذهنيّ تجريديّ، على الرّغم من كونه يحيل على مرجع واقعيّ، تحرّكت فيه الشخصيات في إطار سرد حكايّ يتأسّس على ذاكرة قويّة خصبة، تستعيد أزمنتها وأمكنتها الأليفة الأولى لتخلق حياة متخيّلة موازية للحياة الواقعيّة التي تحياها في أمكنة المنفى، التي تبقى طارئة ومعادية إلى حدّ بعيد في نظر تلك الشخصيات، بصرف النّظر عمّا توفّره لها من شروط الحياة

اللائقة والعيش الكريم. ولعلّ هذا ما دفع الروائيّين الفلسطينيّين إلى الالتفات «إلى ضرورة حضور الذاكرة في الرواية كفعل مقاوم... لتحكي قصّة المقاومة الفلسطينيّة منذ النكبة... فإنّ الفلسطينيّين حاربوا الغياب الذي جاءت به النّكبة بالإصرار على استحضار المكان والتاريخ... [و] تنبّهوا إلى ضرورة تدوين الذاكرة خوفاً عليها من الضياع... [لكي] تعمل على تأكيد الحضور الفلسطينيّ، وتقاوم المحو الذي تجهد الصهيونيّة في تثبيته»^(١). ذلك «أنّ ذاكرة المكان والزّمان في الأدب الفلسطينيّ الملتزم هي ظاهرة لافتة مرتبطة باستحضار التاريخ الفلسطينيّ الذي تحاول إسرائيل طمسه. وكردّة فعل على هذا التناسي والاستبعاد من التاريخ، تحفّزت الذاكرة الفلسطينيّة وبقيت يقظة، لأنّ في النسيان موت فلسطين»^(٢).

(١) نجمة خليل حبيب، «التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة والجماليّة في الرواية الفلسطينيّة على مشارف القرن الواحد والعشرين»، تبين، المجلّد ١، العدد ٢، خريف ٢٠١٢، ص ١٥٤.

(٢) جمال شحيّد، الذاكرة في الرواية العربيّة المعاصرة، ص ٢١٤.

في هذا الأدب صورة متصلة لمكان معرّض للمخاطر يتحرّك فيه الشاعر [أو الروائي] أبداً نحو مكان محدّد في وطنه الأصلي يجد فيه الأمان والاستقرار المنشودين»^(١). والرواية الفلسطينية، إذ تبحث عن مكانها تجده في الذاكرة، فتستحضره في صورته القديمة التي لم تعد تشبهه الآن، بعدما أصابه التّغيير المتعمّد، فتصطدم الذاكرة بوطأة الواقع وقسوته. وعلاقة الفلسطيني بمكانه هي علاقة حبّ وتشبّث وارتباط، على الرغم ممّا شاب هذه العلاقة من أحداث مؤلمة ومأسّ، ألحقت بالغ الضرر بالإنسان الفلسطيني معنوياً ومادياً، منذ ما قبل نكبة عام ١٩٤٨ م حتّى يومنا هذا بسبب خسارته هذا المكان.

لقد تحوّل المكان في الرواية الفلسطينية، بصفة عامّة، إلى شخصيّة مركزيّة محوريّة، بوصفه العنصر البنائيّ الرئيسيّ إلى جانب عناصر السرد الأخرى التي تتضافر لتتممّ دوره وتعضده. لذا أتى النّصّ السرديّ الفلسطينيّ ليشكّل فضاء دلاليّاً حافلاً بصور المكان الأوّل، بناسه وطقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم وثقافتهم ومعتقداتهم، وسوى ذلك. فضلاً عن ذكرياتهم في هذا المكان، وما يرتبط به من أحداث. وجاء ذلك متداخلاً مع

البعد التاريخيّ الجغرافيّ للمكان، إذ اهتمّ الروائيّون الفلسطينيون باستعادة تاريخ فلسطين استعادة أدبيّة فنيّة تأكيداً لهويّتها العربيّة وتكريساً لحقّهم التاريخيّ والدينيّ والثّقافيّ فيها، بوصفها الرّمز والقيمة، حتّى، ولو كان ذلك عبر الخيال الروائيّ. وهكذا أدّى الحضور المكانيّ في الرواية الفلسطينية وظائف عدّة، لعلّ أهمّها: استعادة صور المكان جغرافياً وتاريخياً من الذاكرة التي تحتفظ بصور المكان البكر قبل أن تدنّسه، تغييراً وتهويداً، آلة الدمار الإسرائيليّة. بالإضافة إلى إثارة الوعي وتحفيز إرادة الصمود والتحدّي والفعل والتغيير في نفوس أبناء الشعب الفلسطينيّ ليتمكّنوا من مواجهة مسعى إسرائيل الحثيث إلى تغيير الواقع وتزييف التاريخ وتشويه وعيهم الجمعيّ وبتّ علاقتهم بأرضهم وتراثهم وجذورهم، وذلك بترسيخ حضورهم في وطنهم، وتكريس حقّهم التاريخيّ في أرضهم، والحفاظ على ثقافتهم وأصالتهم، والدفاع عن هويّتهم العربيّة الفلسطينية، وحفظها من المحو والزوال. فالأعمال الروائيّة الفلسطينية تشترك «في موضوع رئيس هو كتابة الذاكرة الفلسطينية وتوثيق المحطّات المهمّة من رحلة النضال والنفي الفلسطينيّ، ويكاد

(١) سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر، ج ١، ص ٧٤.

يكون زمانها ومكانها واحد»^(١). علاوة على تجسيد مشاعر الشوق العارم والحنين الجارف التي تعتمل في نفوسهم تجاه وطنهم السليب. إنَّ هذه الوظائف، التي قد تتخذ في بعض الاحيان، منحى أيديولوجياً أو سياسياً أو ثقافياً، أو تكتسب بُعداً تاريخياً أو جغرافياً أو نفسياً، تتداخل وتتآزر لترمي إلى غاية أسمى، ألا وهي تأكيد حقَّ الفلسطينيين في العيش على أرض فلسطين باعتبارها رمز الوجود والهوية والانتماء.

إنَّ المكان في الرواية الفلسطينية يتجاوز كونه عنصراً من عناصر السرد أو حاضناً للأحداث وحركة الشخصيات، ليغدو فضاء دلاليًا يسمو على المستوى الواقعي المرجعي على الرغم من أنَّه ينطلق منه. إذ يبدو، على هذا النحو، مرجعاً للجغرافيا والتاريخ الفلسطيني، مع أنَّه مكان فنيّ متخيل، يسهم في جعل النصِّ الروائيِّ الفلسطينيِّ يواجه محاولات الإسرائيليين الحثيثة والمستمرّة لإلغاء الذاكرة الفلسطينية الجمعيّة. ويتمّ ذلك بإبراز علاقة الشخصيات الفلسطينية وغيرها بالمكان، على نحو يتعدّى الواقع إلى الخيال الذي

ينحو بالأحداث منحى تخييلياً، ويجعل وصف المكان يتجاوز قواعد الوصف القائم على المحاكاة. فيأتي النصُّ الروائيُّ الفلسطينيُّ، في كثير من الأحيان، بعيداً عن السرد الواقعيِّ للأحداث أو التصوير الفوتوغرافيِّ للأماكن. ذلك «أنَّ الوجود في المنفى يعني الانقطاع عن الوجود في الوطن، كما يعني في الوقت نفسه تمّدداً داخلياً لهذا الوجود ذاته. وحين يصبح وجود الوطن داخلياً تنشط حركة الخيال وتظهر مستويات متعدّدة للحلم والذاكرة، فيفترق المكان الواحد إلى أمكنة عدّة، ويتحوّل زمن الحياة تحت سمائه إلى أزمنة تاريخيّة أو شخصيّة أو أسطوريّة. وتشكّل هذه العناصر مجتمعة بناء لغويّاً يكون بديلاً عن الانفصال الخارجي عن الوطن، ومن ثمّ لا يكون الانسحاب الاختياريّ، أو الاقتلاع القسريّ من المكان الذي يحدث في الواقع موتاً لفكرة الوطن، وإنّما تظلّ قادرة على النموّ في الغربة»^(٢).

ولعلّ من المفيد الإشارة إلى أنَّه على الرغم من إقرارنا أنَّ المطابقة بين المكان الروائيِّ والمكان الواقعيّ أمر غير جائز، استناداً إلى مفهوم المنهج البنيويّ، وعلى

(١) نجمة خليل حبيب، «التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة والجماليّة في الرواية الفلسطينية على مشارف القرن الواحد والعشرين»، تبين، المجلّد ١، العدد ٢، خريف ٢٠١٢، ص ١٥٥.

(٢) اعتدال عثمان، إضاءة النصّ، ص ٧.

الرغم من اعترافنا أنَّ الأوَّل إنَّما «صنعت» اللغة انصياعاً لأغراض التخيل الروائيِّ وحاجاته»^(١)، فإنَّ الفصل بين هذين المكانين، وتمييز أحدهما من الآخر، أمر في غاية الصعوبة في الرواية الفلسطينية، «لأنَّهما معاً لا يبدوان في هذه الرواية متداخلين فحسب، بل متطابقين أيضاً، ويسعيان في الوقت نفسه إلى رسم الصورة الحقيقيَّة الحيَّة لأرض فلسطين»^(٢). غير أنَّ هذا «المرجعيَّ صار في الذاكرة لا كما تصير كلُّ أزمنة الحياة وفق سننها الطبيعيَّة، أو وفق مضيِّها في الزمان... بل بدوافع الاستبدال والمجيء بأناس ليأخذوا المكان من أصحابه... بدوافع التشويه لمعاني الواقع والتاريخ»^(٣). فالرواية الفلسطينية، انطلاقاً من هذا التصرُّو للمكان، لم تكتفِ بتشكيل المكان الفلسطينيِّ كما هو، إنَّما خلقت مكاناً فنِّيَّاً متخيلاً، ذا أبعاد متميِّزة، مكاناً ذا دلالات ومعانٍ شتَّى، حمل قيماً حضاريَّة وتراثيَّة وثقافيَّة ودينيَّة وإنسانيَّة، مرتبطة بحياة الفلسطينيِّ، فشاركت بذلك الرواية العربيَّة والعالميَّة في معالجة إحدى القضايا الإنسانيَّة الحيَّة التي تمسُّ البشريَّة جمعاء.

والمكان، الذي ترسمه هذه الرواية، مكان متميِّز، لأنَّه لا يقتصر على البعد الجغرافيِّ، الذي تعاقبت عليه طوائف مختلفة من البشر، بل يتعدَّى ذلك ليحفر عميقاً في تاريخ هذه المنطقة، ويميط اللثام عن الأبعاد الرمزيَّة الدينيَّة والقوميَّة والتَّاريخيَّة والحضاريَّة للصراع العربيِّ الإسرائيليِّ؛ هذا الصِّراع الذي تصوِّره الرواية الفلسطينيَّة بوصفه صراع وجود وهويَّة، وليس صراع حدود وجغرافية وحسب. فالإنسان الفلسطينيُّ يروم أن يحقق ذاته، ويكرِّس هويَّته، ويرسِّخ جذوره، من خلال وجوده وحضوره على أرض فلسطين، بوصفها «القيمة المركزيَّة في معادلة الصراع العربيِّ الإسرائيليِّ»^(٤). من هنا، نجد الرِّواية الفلسطينيَّة تستند، في مقاربة ذلك، إلى قراءة ذات مرجعيَّة ثقافيَّة عربيَّة في مواجهة القراءة الإسرائيليَّة ذات المرجعية الثقافيَّة التوراتيَّة، التي تحسن توظيف الدعاية العالميَّة والقوَّة العسكريَّة في هذا الصراع. «فالأرض هي مركز التقاطع الذي يحدث التوقُّف عنده، يُسقط عليها طرفا الصراع هموم سعيهما،

(١) سمر روجي الفيصل، الرواية العربيَّة البناء والرؤية، ص ٧٢.

(٢) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٠٦.

(٣) يمني العيد، فنُّ الرواية العربيَّة، ص ١١٥-١١٦.

(٤) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبيِّ في رواية الصراع العربيِّ - الصهيونيِّ، ص ١٦٣.

ويستعيرها^(١) نموذجاً أيديولوجياً لتكريس مقومات الوحدة الوطنية، مقابل مختلف النزعات الجهوية والعرقية. لذلك فالأرض تمثل الرمز الحدودي... [و] القيمة التي يسعى كل طرف في الصراع إلى امتلاكها، وتستخدم شتى الوسائل (الحرب، الدعاية الإعلامية، التوعية، التعبئة الجماهيرية، إلخ) لتحقيق ذلك^(٢).

والرواية الفلسطينية، حين تصوّر المكان، تبرز أثره على الفلسطيني، الذي يحمل صليبه في طريق الآلام والجلجلة، حالماً بالعودة إلى وطنه، فردوساً أرضياً موعوداً، يستحق أن يتحمّل في سبيل العودة إليه رحلة القهر والعذاب والإذلال والنفي والتشرد، على الرغم من أنه يراه يزول شيئاً فشيئاً، وحلم العودة إليه يتلاشى تدريجياً، فيقع فريسة اليأس والإحباط، ويعيش في منطقة تتأرجح بين الواقع والمرجى، بين الحقيقة والحلم. فنحن نعثر في الرواية الفلسطينية على ذلك البوح الموجه والحنين الممض، الذي ينتاب الفلسطيني التائه والتائق للعودة إلى مكانه الأول. و«يجد الحنين هنا علته في فقدان

المكان بشكل قسري»^(٣)، والحنين هنا «ألم تبتّ فيه الذاكرة متعة التذكّر، إذ ترسم للعالم المفقود صورة متخيّلة في المرجعي المستعاد»^(٤)، فيوقظ «ذاكرة الصوت المغيب في بُعد المسافة... ويحيى العالم المطمور تحت أنقاض زمن ما زال يهدمه الغاصب»^(٥)، ويرسّخ «معنى الهوية المتشبّثة بذاتها والمعرّضة للنسيان في منفاها»^(٦). وتظهر هنا ذاكرة المكان «وسيلة استرجاع... لكل الأمكنة الأليفة»^(٧).

وقد استحوذت علاقة الفلسطيني بأرضه، نفسياً ورمزياً، على عناية كثير من الروائيين الفلسطينيين، وشغلت مساحات واسعة من رواياتهم، فشكّلت هذه الأرض، بوصفها المكان السليب المتنازع عليه، محوراً رئيساً في تلك الروايات، انطلاقاً من كونه «يتمثّل في الخصوصية التي تميّز بها البيئة المكانية بأبعادها الطبيعية والحضارية والاجتماعية، لكونه وعاء فكرياً يؤدي دوراً حيويّاً في تشكيل الذاكرة الجماعية للمنتمين إليه؛ وبوصفه المعبر عن عدم استقرار الفلسطيني في محطات التشرد والشتات، والمذكّر بالأرض المفقودة التي سلبها المغتصب، فكان ردّ

(١) كذا وردت، والصواب «يستعيرانها».

(٢) عبد القادر شرشار، المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٣) يمني العيد، فنّ الرواية العربية، ص ١١٥.

(٤) يمني العيد، المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٥) يمني العيد، المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٦) يمني العيد، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٧) يمني العيد، المصدر نفسه، ص ١١٦.

– الصهيوني، فالإنسان هو الأرض، وهي تتحرك في الزمان، إنها الأساس الوحيد للإحساس بالانتماء الفكري والأيدولوجي في الزمان والمكان. لذلك تحولت دلالة الأرض لتصبح موضوعاً للرؤية تستلهم المادة الأدبية جوهرها منها. ولم تعد الأرض فضاءً للديكور، بل تحولت إلى موضوع يبحث لا شرعية الاستيطان الصهيوني، وانتزاع الأرض من أهلها. ومن ثمّ يتماهى موضوع الأرض بالدين والتاريخ والإنسان»^(٤).

فقد عنيت الرواية الفلسطينية بالمكان عناية جلية واضحة، بوصفه يمثل لبّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بأوضح صورته. وهو أدى «دوراً وظيفياً واضحاً لدى معظم الكتاب... وشغل حيزاً بارزاً في رواياتهم، وفي تفكير العديد من الشخصيات الروائية واهتمامها. واتخذ معانٍ ودلالات ورموزاً متنوعة، ارتبطت بمراحل الصراع العربي الصهيوني، والزمن الفلسطيني في صعوده وهبوطه»^(٥). ولم يكن اهتمام الروائي الفلسطيني بالمكان

الروائيين على هذا المغتصب أن جعلوا من تراب الوطن مكاناً مقدساً، مؤكدين هويتهم الوطنية، وحاضراً في كتاباتهم حضوره الأبدي في وجدانهم»^(١). وبالتالي ليس بغريب أن «يشكل عنصر الأرض البعد المركزي في تركيب نصّ المدونة [الفلسطينية]، إذ يكون الرمز مقروناً بدلالات مميزة، حيث يكتسب عنصر الأرض دلالة جديدة بانتقاله من رواية إلى أخرى، ويمارس عنصر الأرض وظيفته الجمالية في إطار الثقافة الأيدولوجية العامة»^(٢). فلسطين، شأنها شأن الأندلس، تستقرّ «في البنية اللاشعورية الثاوية في العقل العربي.... بوصفها الجنة العربية الضائعة، أو الفردوس الأرضي المفقود»^(٣).

لذلك لا مندوحة، لدى الكلام على المكان في الرواية الفلسطينية، من الانطلاق من موقف الفلسطيني الخاص من أرضه التي خسرها بسبب هجرته القسرية من وطنه بعد اقتلعه منه عنوة، ما جعله يعاني ويلات التشرد واللجوء. فقد مثّلت «الأرض القيمة المركزية في معادلة الصراع العربي

(١) عبد الرحيم حمدان، «المكان في رواية بكاء العزيرة»، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٥، العدد ٢، يونيو ٢٠٠٨، ص ٢٥.

(٢) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي - الصهيوني، ص ١٠.

(٣) اعتدال عثمان، إضاءة النص، ص ١٠.

(٤) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي - الصهيوني، ص ٢٠.

(٥) حسان رشاد الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينية ١٩٦٥-١٩٨٥، ص ٢٥٨.

انطلاقاً من وعيه بدوره الجمالي في الرواية باعتباره ركناً أساسياً في بنائها الفني، بل إدراكاً منه للدور الذي يضطلع به في إبراز القضية الوطنية التي يعالجها، وتوضيح علاقة الشخصية الفلسطينية بأرضها وأمكناتها.

وقد تباينت طرق تناول الروائيين الفلسطينيين للمكان تبعاً لتباين أسلوب الروائي وأدواته الفنية من جهة، وطبيعة الأحداث التي يتناولها، والدلالة التي يبتغيها أو المغزى الذي يروم إيصاله إلى القارئ من جهة ثانية. فنحن نلاحظ «تفاوتاً واضحاً لدى الروائيين في العناية بوصف المكان وأبعاده، وتتبع جزئياته، وتوظيفه فنياً، بحيث يندمج مع سائر العناصر الروائية، وهذا يعني أنهم ليسوا على سوية واحدة، في التوظيف الفني للمكان، وإن كانوا جميعاً متفقيين على أهميته، ومشدودين إليه بكل حواسهم، لأنه جزء من وجود الإنسان وكيانه»^(١).

واهتمام هؤلاء بالمكان جعلهم يسمون الكثير من رواياتهم بأسماء أمكنة فلسطينية «تتصل بالواقع اتصالاً وثيقاً للغاية، بمعنى أنها أسماء معروفة في الجغرافية

الفلسطينية، وليست علامات لفضاءات متخيلة»^(٢)، نحو عائد إلى حيفا لغسان كنفاني، وحارة النصاري لنبيل خوري، وغيرهما. وليس خافياً أن ذلك عائد إلى تصدي هؤلاء الروائيين «للمحاولات المسعورة للاحتلال الصهيوني في طمس الشخصية العربية لأرض فلسطين، ولمحاولاته المحمومة التي استهدفت، ولا تزال تدمر عدد كبير من القرى، وإزالتها من الخارطة الفلسطينية، كما استهدفت تغيير الأسماء العربية لما تبقى منها إلى أخرى عبرية، وإبقاء ما رأت أنه ذو أصل توراتي، لتأكيد دعوى الحق التاريخي المزعوم في أرض فلسطين»^(٣).

واهتمام الروائيين الفلسطينيين بالمكان لم يقتصر على عنونة رواياتهم بأسماء الأمكنة وما يتصل بها وحسب، بل تجاوز ذلك إلى جعله المحرك الرئيس لأحداثها، انطلاقاً من كون الإشارة إلى المكان ضرباً من بحثهم عن وطنهم وذاتهم، ومسوغ بقائهم وعلّة وجودهم، والتشبّث بأرضهم. فـ «قد تغيب الأرض عن الواجهة في بعض النصوص، وينأى المؤلف عنها إلى قضايا تتعلق بالشخصيات، ويتخذ له مستقراً في

(١) حسان رشاد الشامي، المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(٢) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٠٦.

(٣) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٠٦-١٠٧.

حوارها، ولكن ذلك كله ليس إلا تفرّعاً وامتداداً أو جنوحاً مؤقتاً - وإن طال - فالمصبّ الأخير هو الأرض، ونهاية المطاف هي الأرض»^(١).

صفوة القول إنّ المكان ركن بنائيّ ودلاليّ مهمّ من أركان الرواية الفلسطينية، فأحداثها تجري وشخصياتها تتحرّك في فضاء تخيليّ يرتبط، على نحوٍ أو آخر، بمرجع حيّ واقعيّ. فيشكّل المكان بذلك إطاراً فنياً جامعاً لعناصر البنية الروائيّة جميعها، تلك العناصر التي تتحد وتتآزر لتؤدي دلالة الرواية الأعمق، وتمنح المكان أبعاداً رمزيّة متنوّعة فكريّة ونفسيّة واجتماعيّة وسياسيّة ودينيّة، تبعاً لموقف الروائيّ من القضايا التي يتناولها في خطابه الروائيّ، إذ إنّ أبعاد المكان ودلالاته المختلفة تتجلّى بصورة مثلى من خلال علاقته بسائر عناصر البناء الروائيّ.

فالأمكنة في الرواية الفلسطينية متعدّدة ومتنوّعة، وقد استثمرها الكاتب الفلسطينيّ ووظّفها في تشييد خطابه الروائيّ، وإمطة اللثام عن رؤاه ومواقفه منها، في إطار معالجته لقضيّة الصراع العربيّ الإسرائيليّ الذي ينطلق في الأساس من المكان، الذي اكتسب قيمةً خاصّةً، بوصفه مكاناً مغتصباً

حرّم منه أهله، بعدما هُجّروا منه، فذاقوا مرارة الشتات واللجوء، وعانوا حسرة انتظار العودة إليه، تلك العودة القريبة التي وُعدوا بها، فطال انتظارهم، ولم تتحقّق.

وهكذا غدا المكان في الرواية الفلسطينية قيمة مقدّسة، يسعى الروائيّون إلى الحفاظ عليه، وعلى تفاصيله حيّة في الذاكرة، بوصفه المكان الواقعيّ الذي يجدر بهم تثبيتته على الخارطة الفلسطينية، مقابل الأمكنة الطارئة المتعدّدة التي يقيمون فيها، والتي لم تشكّل بديلاً عن مكانهم الأصليّ الذي ظلّوا يمتّنون النفس بالعودة إليه، إذ لا تكاد تخلو رواية فلسطينيّة من استحضار صوره من الذاكرة التي ظلّت محتفظة بها، كما كان عليه قبل أن تدنسه آلة الاحتلال وتغيّر معالمه. وهذا ما يؤكّد حضور المكان الفلسطينيّ في روايتهم حضوراً لافتاً يشي بعنايتهم في توظيفه على نحوٍ ينسجم مع مضامينها، ويندرج مع عناصر بنائها الأخرى في إطار نسيجها الروائيّ الكلّيّ.

فقد نجحت الرواية الفلسطينية، انطلاقاً من المكان، وإلى حدّ بعيد، في التعبير عن محنة الفلسطينيّ ومعاناته الناجمة عن قمع سلطات الاحتلال الإسرائيليّ واستبدادها، وفي «كتابتها للذاكرة وتوثيقها لرحلة

(١) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبيّ في رواية الصراع العربيّ - الصهيونيّ، ص ١٧٢.

النضال والنفي»^(١)، وهي إذ «تكتب كُلاً من الواقع الناجم عن الاحتلال من ناحية، والواقع الغائب نتيجة الاقتلاع والنفي من ناحية أخرى، تعتمد إلى استراتيجيات نصّية مغايرة تتوخّى استنهاض الذاكرة، وطرح فلسطين في مواجهة المحو المنظم الذي يمارسه مشروع الاستيطان الصهيوني على أرضها»^(٢). فقد هجست التجارب الروائية الفلسطينية، إلّا أقلّها، بالمكان وحلم العودة إليه، «فسواء كانت التجربة من الداخل الفلسطيني أو من الضفة الغربية أو من الشتات قريبة أو بعيدة، فإن هنالك دائماً حبل سرّة يشدّها نحو فلسطين، إمّا قضية أو مكاناً أو زماناً وإمّا خلفيّة أو مناخات رؤيويّة»^(٣).

يقوم الخطاب الروائي الفلسطيني برمّته على الإحساس المؤلم بفقدان المكان، الذي ينهض بدوره على أساس التناقض بين ما كان وما هو كائن، بين حلم الوطن الجميل وواقع المنفى القاسي، وما يرافق ذلك من أحلام بفضاء من الأمل، تملؤه حنيناً وتزيده

اتّقاداً تلك الهوة السحيقة الفاصلة بين المكانين. إنّها سيرة المكان الجميل، بآمال ناسه وطموحاتهم، بانكاسارتهم وخبائثهم. لذا، فهو يقف شخصيّة فاعلة تؤثر في الشخصيات، وتشكّل وعيها، وتحدّد، بدرجات متفاوتة، حركتها وتصرفاتها وسلوكها وردود أفعالها إزاء الواقع الذي تحياه، ويؤدّي «دوراً بالغ الأهمية في تطوير الحدث، وفي بلورة القيم الفكرية والجمالية، من هنا كاد... أن يمثل شخصيّة متكاملة بكل أبعادها وتأثيرها في السياق الروائي العام... وهو أهمّ ما ينتظم العناصر الإبداعية، ويعدّ منظماً لا يمكن الابتعاد عن تأثيره في الأعمال الروائية، فالزمان والشخوص والسمات النفسية مظاهر لا تتجلى ولا تتحرّك إلّا داخل المكان»^(٤).

بناءً على ما تقدّم كلّ، صار بوسعنا القول إنّ الروائيين الفلسطينيين أولوا المكان اهتماماً بالغاً، فاحتلّ مكانة خاصّة لديهم، وشكّل قضية محوريّة في أعمالهم، انطلاقاً من أنّ جوهر الصراع الفلسطيني

(١) صبري حافظ، «الرواية العربية والتحوّلات الاجتماعية والثقافية»، تبين، المجلّد ١، العدد ٢، خريف ٢٠١٢، ص ١١.

(٢) صبري حافظ، المصدر نفسه، ص ١١.

(٣) نجمة خليل حبيب، «التحوّلات السياسية والاجتماعية والجمالية في الرواية الفلسطينية على مشارف القرن الواحد والعشرين»، تبين، المجلّد ١، العدد ٢، خريف ٢٠١٢، ص ١٥٨.

(٤) عبد الرحيم حمدان، «المكان في رواية بكاء العزيرة»، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد ٥، العدد ٢، يونيو ٢٠٠٨، ص ٢٦.

الصهيونيّ هو المكان أو الأرض، التي
تحوّلت «إلى عنصر للصراع يمارس
حضوره لدى طرفيّ الصراع من أجل
التعبير عن شرعيّة البقاء والصمود في وجه
الآخر»^(١). وهذا ما دفعهم إلى تغطية
الخارطة الفلسطينية كلّها، «إلى الحدّ الذي
يمكن القول معه إنّ الرواية الفلسطينية
تشكّل ثبوتاً تكاد تكون تامّة لجغرافيّة
وطنها، وذاكرة أمينة تحفظ للأجيال القادمة
ملامح الهوية العربيّة المميّزة لأرضها التي
استهدف الاحتلال الصهيونيّ، ولا يزال،
محوها وإزالتها من الوجود»^(٢).

(١) عبد القادر شرشار، خصائص الخطاب الأدبيّ في رواية الصراع العربيّ - الصهيونيّ، ص ١٥٧.

(٢) نضال الصالح، نشيد الزيتون، ص ١٤٨.

أهمية حركات الإعراب في الدلالة على المعاني

أ. حسن محمود الشل

واختلافات وتفرعات، يكاد يكون إتقاناً غيبياً».

أولاً: في العنوان: «يا مجمع اللغة العربية، أرحنا من حركات الإعراب».

أقول هي دعوة خاصة غير عامة، وهي دعوة فردية غير جماعية، وهي دعوة من مُنْعَب من الحركات الإعرابية، لا ممن يحبها، ويتنسم عطرها، ويستوحي معانيها، وهي دعوة فيها قفزة إلى الإلغاء، قبل طرح فكرة تسهيل تقنيات تعليم النحو. وهي دعوة على فرضية صوابيتها - ولا مجال لذلك - تدعو إلى هدم كيان موسيقي مكتمل متناسق منسجم، يشغف به أهل الصوت والنغم، وهو ميدان دراسات رحب في النحو، والصرف، واللغة، والفقه اللغوي.

ثانياً: في الإهداء (ص-٥٠)

يروى المؤلف الدكتور يعقوب حادثة كسر الزجاج في منزله؛ فيهرع ليكتشف أن

هذه المقالة تناقش آراء الدكتور إميل يعقوب في رده على أحمد بن فارس في دلالة الحركات الإعرابية على المعاني في كتابه: «يا مجمع اللغة العربية، أرحنا من حركات الإعراب»، نشر المؤسسة الحديثة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

الاستهلال

يقول شكري المبخوت: «إن هذه العبقرية التي صنعت نحو العرب هي التي أبهرت المستشرقين، وهذه العبقرية تحديداً هي ما تحتاج إليه العربية اليوم كي تتفاعل مع العصر الرقمي وتحولاته وتحدياته، بدل الحديث الأيديولوجي عن «جناية سيبويه»، كما توهم بعض الكتاب من غير المختصين باسم تيسير النحو العربي»^(١).

وأقول: «من ينظر - من أهل المحبة والتصوف - يرى هذا النظام اللغوي المتكامل المبهّر، بما فيه من شذوذ ولهجات

(١) شكري المبخوت. كاتب وناقد تونسي، مجلة العربي الكويتية، العدد، ٦٩٩، فبراير، ٢٠١٧، ص ٣٥.

ابنه «وسام» هو الذي كسرهما، فيسأل ابنته عن ما حدث؛ فتجيب - وهي تريد صرف العقوبة عن أخيها الذي فعل - فقالت: «انكسرت المرآية»، فقال الدكتور: «بسيطة. أعربي: انكسرت المرآية»، فقالت: «انكسرت فعل... والمرآية: فاعل...»، وسرّ الجميع بهذا الإعراب، ثم حدث أن ضرب «وسام» أخته «سنا» على رأسها؛ فهرع الوالد، وعالج المسألة، وبعد أن هدأت «سنا»، قال لها الوالد: «أعربي»: انجرحت سنا؛ فانتفضت ثائرة، وقالت: «شو بدّي بإعراك ونحوك؟ «وسام» ضربني، ولازم تقااصصو».

والتعليق على هذه الرواية، وبغض النظر عن إعراب اللهجة العامية، وهذا أبعد مما نريد، فإنّه يبدو جلياً هذا الإبداع للنحو العربي، بما فيه من صيغ صرفية؛ ففي المرة الأولى كانت «سنا» تريد الدفاع عن أخيها، وأعربت: «انكسرت المرآية: فعلاً وفاعلاً، أي نسبت الفاعلية إلى المرآية، وهذا سليم، وقد حققت «سنا» هدفها بمساعدة «مطاوعة الفعل»، وعبر نسب الفاعلية إلى «المرآية»؛ فالفاعل هو من فعل الفعل، أو اتّصف به، وأمّا في الحالة الثانية، وقد طلبت «سنا» القصاص من أخيها؛ لأنّه ضربها، فكذلك استعانت بالنحو، وكان مطواعاً لها؛ فقالت: «وسام ضربني ولازم تقااصصو»، فقدّمت «وسام» للإضاءة عليه، ثم أسندت إليه فعل اختيار «ضربني»، لكي

تطلب الجزاء «لازم تقااصصو». وهنا أبدع النحو في مراعاة مقتضى الحال عبر تشكيلاته المناسبة للمعنى. وما أروع هذا النحو الذي ساعد فتاة يافعة على دقّة تصوير المعنى الذي اعتمل في نفسها في الحالين! ومن اللطيف أنّ «سنا» ردّت على والدها/المؤلف عندما قال لها: «أعربي» انجرحت سنا، فقالت: «لا، شو بدّي بإعراك ونحوك»، فكأنّها قالت: أنت تريد تغيير وظيفة النحو لغاية أنت تسعى إليها عبر استخدامه صياغة لغوية غير ملائمة، ولا تراعي الحالة الشعورية المطالبة بالقصاص من أخيها.

ثالثاً: يقول المؤلف في المقدمة (ص-٧) «توجّهت في أبحاثي ودراساتي نحو دعوات تبسيط اللغة العربيّة. ونحن نرى أنّه كان من الأجدى لو توجّه الباحث إلى تبسيط تعليم اللغة عبر آليات وتقنيات حديثة. ويقول في الصّفحة الثامنة بأنّه رفض الدّعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني: لأنّها تقطع صلتنا بالتراث العربيّ، وتجعل ملايين المؤلّفات غريبة عنّا، وتجعلنا عاجزين عن الاستفادة ممّا تحويه من آداب، ومعارف مختلفة».

ونحن نستخدم هذه القاعدة الجليّة التي استخدمها المؤلّف، لنقول بأننا إذا استغنيا عن الحركات الإعرابية، فإننا سندفن مئات المؤلّفات النحويّة لمئات من الأعلام

الجهابذة، ليس أولهم سيبويه ولا آخرهم الشيخ عبد الله العلايلي، فضلاً عن المؤلفات المرتبطة بالقرآن الكريم إعراباً، وتفسيراً، وقرارات، ولطائف، ومعارف.

وتعليقاً على اعتراف المؤلف في الصفحة التاسعة بالإمكانيات العظيمة للغة العربية التي استوعبت شتى أنواع العلوم في العصر العباسي - مثلاً - بل لقد زادت على تلك العلوم، فنقول: لم يكن للغة العربية هذه الخاصية الاستيعابية التي أضافت لو لم تكن هذه اللغة معربة بالحركات، تضع الحركات مكانها ليتضح المعنى المراد منها، لئلا تختلط العلوم، والمقادير، والنسب، وغيرها مما يحتاج إلى تحديد بالغ الدقة، ولا يزال الدليل موجوداً على أن لغة الأبحاث والنتائج كانت لغة معربة بالحركات.

وقد ذكر الكاتب في المقدمة (ص، ٩) فلسفة «العامل»، وهي التي استفاد المؤلف في دراستها في كتابه: يا مجمع اللغة العربية أرحنا من هذا النحو، وقد خلص إلى نتيجة مفادها أنه من باب التسهيل لو اعتمدنا المنهج الوصفي بدل فلسفة «العامل»، وهو الداعي إلى فهم السبب في وضع حركة معينة على كلمة معينة، فنقول: لا ضير في ذلك بأن نقول: هذه الكلمة فاعل مرفوع، أو مفعول به منصوب - مثلاً - لورود ذلك عن العرب

استقراءً، دون البحث عن الفلسفة وراء ذلك، إلا أنه قد يشكل علينا بعض الحالات المتشابهة الحركات في البناء، أو الإعراب. كما أن المنهج الوصفي يوحى بالقوة الغيبية الصّانعة للغة، ويبعد نظرية وضعيتها.

رابعاً: ويقول المؤلف في مقدمته (ص، ١٢) «إن قضية الإعراب والتي شغلت العلماء والباحثين قد انقسم حولها الباحثون فريقين؛ الأكثرية قالوا بأهميته في الدلالة على المعاني المختلفة، وأنه إذا ألغى الإعراب ماتت الفصحى، وفريق قال بأنه مجرد زخرف لفظي لوصل الكلام، وللإيقاع الموسيقي في الشعر».

- صحيح إن أكثر النحاة القدامى قالوا بأهمية الحركات الإعرابية الدالة على المعاني، والذي يذكرنا بقول عنتره: «هل غادر الشعراء من متردٍ...»، ويذكرنا بقول أبي تمام:

إنّي وإن كنت الأخير زمانه

لأت بما لم تستطعه الأوائل

إن هذه الأكثرية من العقول النحوية الخلاقة للجهابذة القدامى هي أقرب إلى الصواب، وإلى روح اللغة منّا نحن المتأخرين، لما هو معلوم من أصالتهم، وتغربنا. يقول عبد القاهر الجرجاني: «اعلم أن لكل نوع من المعاني نوعاً من اللفظ هو

به أخصّ وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السَّمع له أوعى، والنَّفْس إليه أميل^(١). كما يقول الجرجاني في «أسرار البلاغة» بأنّه: «في ما يختصّ باللغة العربيّة من الأحكام نحو الإعراب بالحركات، والصّرف ومنع الصّرف^(٢). ولمناسبة ذكر الجرجانيّ نتساءل: ماذا يبقى من دراسة الإعجاز القرآنيّ إذا ألغيت الحركات الإعرابيّة ودلالاتها المعنويّة؟!.

ويقول صبحي الصّالح: «لم يَرْتَبْ أحد من اللّغويّين القدامى في أنّ الإعراب من خصائص العربيّة، بل هي أشدّ هذه الخصائص وضوحاً، وأنّ مراعاته هو الفارق الوحيد بين المعاني المتكافئة^(٣). ويتابع فيقول: «وإنّ أدلّة كثيرة لتقوم على شعور العرب بوراثتهم لغتهم معربة، فهذه أمارات الإعراب باطرادها وسلامتها واضحة في ما صحّ من أشعار الجاهليين، وذلك هو التّصّرف الإعرابيّ ما فتى يراعى بدقّة بالغة حتّى أوائل القرن الثّالث الهجريّ، يوم كان الرّواة يختلفون إلى الأعراب في البادية، ليأخذوا من أفواههم اللّغة (معربة)،

ويعودوا ألّسنتهم الفصاحة والبيان. وأمّا ترتيلهم القرآن معرباً، فما نحسب عاقلاً في الدّنيا يرتاب فيه، ولم يزعم أحد من العلماء في الشّرق والغرب، قديماً أو حديثاً، عاميّة الأسلوب القرآنيّ، أو تجرّده من ظاهرة الإعراب؛ لأنّ ما في القرآن من الألفاظ الصّالحة لأن تقرأ رسماً بأكثر من وجه كان السّياق فيه غالباً يعيّن قراءته المثلى، ويفرض وجهه الأفضل، ولا يعيّن قراءة ما إلّا بتحريك الأواخر بالحركة المناسبة^(٤).

وعلى ما أورده الصّالح من وجود الإعراب في الشّعور الجاهليّ وفي القرآن الكريم، فإنّ المؤلّف يسعى إلى إلغاء موجود، لا إلى نظريّة تسهيل تعليم، وهذا يمسّ بشكل كبير بالنّص المقدّس.

وأزيد على قول الصّالح بأنّ في قراءات القرآن كلّها يمكن الوقوف على «بعض الحركة»، وهو ما يسمّى الرّوم، وهو الإتيان ببعض الحركة بحيث يسمعه القريب دون البعيد؛ لأنّها غير تامّة، ويكون الرّوم في ما كان متحرّكاً بالرّفع، أو الضّمّ، نحو: نستعين، عذابٌ عظيمٌ، من قبل، يا صالح، وكذلك ما كان متحرّكاً بالخفض، أو الكسر، مثل: الرحمن الرحيم، مالك يوم

(١) الرّسالة الشّافية، ثلاث رسائل، دار المعارف المصريّة، ص، ١١٧.

(٢) دار المعرفة (لا طبعة، ولا تاريخ)، ص، ٢٦.

(٣) دراسات في فقه اللّغة، دار العلم للملايين، ط، ٨، ص، ١١٧.

(٤) نفسه، ص، ١١٩.

الدِّين. يقول محمّد بن محمّد الجزريّ في قصيدته المعروفة بالجزريّة:

**وحاذر الوقف بكلّ الحرك
إلا إذا رُمت فبعض الحرك^(١)**

ويقول المؤلّف في المقدّمة (ص، ١٣) «وأما إذا كان إسقاط الإعراب يسيء إلى لغتنا، أو تراثنا، أو ديننا، أو وحدتنا القوميّة، أو إلى أيّة قيمة من قيمنا الأخلاقيّة، أو التّربويّة، أو غيرها، فإنّ كلّ دعوة إلى إسقاطه تصبح مرفوضة».

استخدم الكاتب كلمة «إسقاط»، وهذا يعني أنّها دعوة ليست إصلاحيّة، بل إلغائيّة، ونحن نرى أنّ «إسقاط» الإعراب سيؤدّي إلى ما تخوّف منه المؤلّف الدّاعي إلى إسقاط الإعراب، وأخطر ما في الأمر هو ما له علاقة بالقرآن الكريم، وفي ما يتعلّق بالدّاعين إلى إسقاط الإعراب، فإنّ الدّكتور يعقوب لم يذكر لنا عددهم، أو زمنهم، أو نسبتهم مقابل الدّاعين إلى المحافظة على الحركات الإعرابيّة، بل لقد قال: بأنّ فريقاً قال: بأنّها مجرد زخرف لفظي لوصل الكلام، وللإيقاع الموسيقيّ في الشّعر.

فنقول: إذا كان زخرفاً لفظياً، فلماذا تتخالف الحركات؟ ولماذا تتباين مع اتّفاق المواضع أحياناً؟ وإذا كان زخرفاً لفظياً، فما

الدّاعي إلى إسقاط هذه الجماليّة الصّوتيّة؟ ومن الذي قال بأنّ الحركات هي للإيقاع الموسيقيّ في الشّعر فقط؟ أليس في النّثر موسيقى وإيقاع؟.

ويستشهد المؤلّف في حاشية (ص، ١٣) بقول اللّغويّ الأمريكيّ إدوارد سابير بأنّ قارئ العربيّة يتردّد، أو يتعلّثم، هل يقرأ كلمة مساجد بالفتح، أو الكسر، أو التّنوين، أو الرّفع؟ وهذا كلّ لا يؤثّر على الفهم، أو الإفهام، وقال يفهمها كلّ عربيّ سواء أكانت معربة، أو غير معربة.

ولا أدري كيف فات المؤلّف أنّ الإعراب هو للكلام في سياق، لا للكلمات منعزلة وحدها؛ فالمتكلم، أو القارئ يريد أن يفهم الكلمة في سياقها من جملتها، ثمّ لو كان المتكلم، أو السّامع عربيّاً لهان الأمر:

ولكنّ الفتى العربيّ فيها

غريب والوجه واليد واللّسان

ثمّ ما علاقة التّنوين في هذا الموضع من سؤاله؟ وأخيراً: لماذا الاستشهاد بالعالم الغربيّ؟ ولماذا اختار سابير كلمة «مساجد»؟!

خامساً: الرّدّ على المؤلّف في ردّه على آراء أحمد بن فارس في أهميّة الإعراب.

(١) وراجع علم التّجويد للغوثانيّ، يحيى بن عبد الرّزّاق، دار الغوثانيّ، سوريا، المستوى الثّاني، ط ١٠، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١، ص ١٤٠.

عرّف المؤلّف ابن فارس (لاحظ هذه الجملة من دون حركات، ما يكون معناها؟) بأنّه أحمد بن فارس بن زكرياء القزوينيّ (٣٢٩-٣٩٥هـ / ٩٤١-١٠٠٤م) ... ومن مؤلّفاته: مقاييس اللّغة، ومعجم المجل، والصّاحب في فقه اللّغة، وسنن العرب في كلامها، وغيرها العديد، ويقول بأنّ له آراء فاسدة، ومنها أنّه اللّغويّ الأبرز الذي أعطى الإعراب هذه الأهميّة؛ فقد قال: «ولولاه (أي الإعراب) ما ميّز بين فاعل ومفعول، ولا مضاف ولا منעות، ولا تعجّب ولا استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد» (ص، ٧٣).

ويشرع المؤلّف الدّكتور بمناقشة ابن فارس بأرائه:

أولاً: دور الإعراب في التّمييز بين الفاعل والمفعول: يذكر الدّكتور يعقوب بأنّ أوّل من قال بهذا الدّور هو عبد الرّحمن بن إسحاق أبو القاسم النّهاونديّ الملقّب بالزّجاجيّ (ت، ٣٢٧هـ - ٩٤٨م)، وهو شيخ العربيّة في عصره، وله كتاب: الجمل الكبير، وهذا كان كتاب المصريّين، وأهل المغرب، والحجاز، واليمن، والشّام، وله الإيضاح في النّحو. وكذلك قال به أبو الفتح عثمان بن جنيّ (ت، ٣٩٢هـ - ١٠٠١م)، وعرفه المؤلّف بأنّه أحقّ أهل الأدب، وأعلمهم بالنّحو، والتّصريف، أخذ عن أبي عليّ الفارسيّ، ثمّ حلّ محله. من مؤلّفاته: سرّ صناعة الإعراب،

والخصائص. وكذلك قال يعيش بن أبي يعيش أبو البقاء (٥٥٣-٦٤٣هـ / ١١٦١-١٢٤٥م)، وهو من كبار العلماء بالعربيّة، من مؤلّفاته: شرح المفصّل، وشرح التّصريف الملوكيّ. وقال بذلك من المحدثين: رمضان عبد التّوّاب، وهو باحث مصريّ متخصص باللّغة العربيّة وآدابها، وله العديد من المؤلّفات، منها: فقه العربيّة، وأسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه، والرّكام اللّغويّ للظّواهر المندثرة في اللّغة العربيّة، كما حقّق العديد من الكتب، وله العديد من البحوث المنشورة في مجلّة مجمع اللّغة العربيّة. وكذلك قال عليّ النّجديّ ناصف (١٣١٦-١٤٠٢هـ / ١٨٩٨-١٩٨٢م)، وهو بحّاثه مصريّ، من مؤلّفاته: سيبويه إمام النّحاة، ومن قضايا اللّغة والنّحو، ومع القرآن الكريم، وأبو الأسود الدؤليّ، وغيرها، كما حقّق بعض الكتب (ص، ٧٥-٧٦).

والملاحظة الأولى هي أنّ كبار العلماء في العربيّة وعلى رأسهم سيبويه قالوا بهذا التأثير للحركات الإعرابيّة، وهناك الكثير من النّحاة القدامى لم يستقصهم البحث، ومن المحدثين الكثير، ومنهم صبحي الصّالح وغيره، والذي يبدو لي أنّ المنادين بالإصلاح، أو الألغاء والإقصاء هم القلّة القليلة.

يقول الدّكتور يعقوب في نقطته الأولى

بالرّد على ابن فارس بأنّه يمكن لنا أن نميّز بين الفاعل والمفعول دون الحاجة إلى الحركات، وذلك عبر قرائن، منها:

أ - القرينة المعنويّة، أو الإسناد، مثال:

١ - أكل موسى الكمثرى.

٢ - يحمل جدّي العصا.

٣ - اصطاد زياد أرنب.

٤ - اشترى والدي محفظتي

٥ - خرق المسمار الثوب.

وفي هذه الجمل الخمسة قام الدّكتور بتغيير مواقع الكلمات بعدّة صور، ويقول بأنّ المعنى يبقى ظاهراً فيها، ويحدّد فيها الفاعل والمفعول بكلّ بساطة.

فنقول: إنّ هذه الجمل التي اختارها المؤلّف واضحة الدّلالة من وقوع الفعل من مختار على ما هو غير مختار؛ فكان المعنى واضحاً بسبب ذلك، ولكن ماذا لو اخترنا بعض الجمل ممّا يتساوى فيه العاقل، أو غير العاقل. ولقد اختار المؤلّف أفعالاً واضحة الدّلالة، وحقيقيّة التعبير، فماذا لو اخترنا أفعالاً غير حقيقيّة الدّلالة، أو مفاعيل غير واضحة المعنى، نحو: علق موسى الهوى، أو: بعث أخي أبي؟ ثمّ ماذا لو كنّا نحكي قصّة خياليّة، مثل: «أليس في بلاد العجائب»، فقلنا: اصطاد أرنب هرّ؟ وهذا

الفعل يمكن أن يحدث من الاسمين، كما معروف للمطلّع على هذه القصّة.

وبالنّسبة إلى الجملة الأخيرة: خرق المسمار الثوب، فالقرينة المعنويّة بالغة الوضوح، إلّا أنّ بعض العرب ألغز في هذه الجملة، أو تفنّن، أو جاءت هذه الجملة على سبيل الشّواذّ.

ومن أدلّته على مفهوميّة المعنى أنّنا لو نصبنا الفاعل ورفعنا المفعول لبقى المعنى واضحاً، واستشهد على ذلك ب: خرق المسمار الثوب، وبقراءة ابن كثير: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، بفتح كلمة (آدم) ورفع كلمة (كلمات).

فنقول: إنّ قراءة ابن كثير من القراءات السّبعة الصّحيحة المتواترة، وهذه الآية الكريمة مع جملة: خرق الثوب (بالرفع) المسمار (بالنصب)، لم يتأثّر المعنى فيهما لوضوحهما بشكل لا يقبل الالتباس، وقد ورد في حجة القراءات لأبي زُرعة عبد الرّحمن بن محمّد قوله: «وقد قرأ ابن كثير المكيّ (فتلقّى آدم) بالنّصب، و(كلمات) بالرفع، جعل الفعل للكلمات؛ لأنّها تلقت آدم ﷺ، وحجّته أنّ العرب تقول: «تلقيت زياداً»، و«تلّقاني زيد»، والمعنى واحد؛ لأنّ من لقيته، فقد لقيك، وما نالك فقد نلت»^(١).

(١) تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرّسالة، ص ٩٤.

ونقول: لا ضير من أن نصطلح على وضع الفتحة للفاعل، والضمة للمفعول لو اصطالحنا على ذلك - ولن يحدث هذا - وعليه فلن يتغير شيء، وتبقى القضية على حالها، ولكن لماذا نفعل ذلك؟ وماذا نفعل بكل التراث، وكيف نفهمه من جديد؟ وماذا يكون من أمر فهم القرآن الكريم وأحكامه؟ وبالنسبة إلى لقراءة ابن كثير، فلعل فيها سرّاً من أسرار القرآن الكريم، ولما يكشف عنه بعد، أو لعلها وردت على لهجة من لهجات العرب، وهذه بعض أسرار استقطاب القرآن الكريم بعض القبائل، ولعل ما ورد يفتح مجالاً واسعاً للأبحاث والدراست.

وقد أورد المؤلف قول محمد بن مالك في شرح الكافية (٢/٦١٢، ص ٧٩)

ورفع مفعول لا يلتبس مع نصب فاعل فلا تقس

وقد منع ابن الحاجب القياس على نصب الفاعل ورفع المفعول، كما أورد الدكتور قول ابن هشام عبد الله جمال الدين تعليقا على هذه الجملة: خرق الثوب المسمار: «من ملّح العرب إعطاء الفاعل إعراب المفعول، وعكسه عند أمن اللبس»، وقد نقل كلامه عبد القادر البغدادي (ت نحو، ٩٠٠هـ - ١٤٩٥م) (أي موافقا)، كما نقل المؤلف لابن هشام من المغني اللبيب (٢/

ص، ٥١٩-٥٢٠): «وإذا نُصب الفاعل ورفع المفعول به، يعرب النّحاة المرفوعَ فاعلاً، والمنصوبَ مفعولاً؛ لأنّ الفاعل عندهم مرفوع أبداً، والإعراب إنّما يجري على حسب اللفظ دون المعنى» (شرح الجمل ١/ ١١٦ ص، ٧٩).

واللطيف في اقتباس المؤلف أنّه على النظرية لا لها. كما يدعم الدكتور يعقوب نظريته بأنّه يرى أنّ قراءة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أنّه يصحّ فيها ما يصحّ في جملة: خرق الثوب المسمار، وأنّ هذا لا يؤثّر على المعنى، وإن اختلفت الحركات، ويذكر المؤلف بأنّها قراءة عمر بن عبد العزيز، وأبي حنيفة النعمان، وابن حيوة.

فنقول إنّ من شرائط القراءة القرآنية الصحيحة موافقة الرسم القرآني، ولقد رسمت همزة كلمة العلماء على حرف الواو (العلماء) وذلك لدفع الالتباس، ثمّ يحكم المؤلف على الأستاذ رمضان عبد التّوّاب بأنّه أخطأ بقوله:

«إذا أسقطنا الحركات للتبّس المعنى بأنّ الله هو الذي يخشى العلماء»، فنقول بأنّ عبد التّوّاب لم يخطئ؛ لأنّه يمكن توجيه المعنى بأنّ الله يخشى (وليس يخاف) أن يفسد العلماء النّاس إذا ضلّوا، وأضلّوا، ويقول صبحي الصّالح عن هذه الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١) تناقل على الوجه المتواتر من قراءة الآية هو الذي حمل القراء على الحكم بشذوذ القراءة برفع: (الله) ونصب (العلماء)».

ثم إن عمر بن عبد العزيز وأبا حنيفة ليسا من أصحاب القراءات، وإنما لهما أحرف فما وافق منها القراءة الصحيحة فهو صحيح تبعاً، وما خالف منها فيرد؛ لأنهما - على جلالة قدرهما - ليسا من أهل هذا الفن.

كما يدعم المؤلف رأيه بقراءة عبد الله بن عباس، وأبي الشعثاء، وجابر، وغيرهما: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهي برفع (إبراهيم)، ونصب (ربه) والمؤلف يخطئ عبد التَّوَّاب بقوله: «إذا أسقطنا الإعراب للتبس المعنى».

فنقول: إن ابن عباس هو حبر الأمة، وترجمان القرآن، ولكن ليس له قراءة خاصة، وإنما قد يكون له بعض الأحرف، أو الكلمات، وكذلك أبو الشعثاء، فما وافق قواعد بعض القراءات الصحيحة فهو منها، وإلا فلا تُقبل.

ونقول تعليقاً على تخطئته عبد التَّوَّاب برأيه: إنه قد يلتبس المعنى إذا تغير الإعراب برفع (إبراهيم) ونصب (ربه) بأن الإنسان

قد يبتلي ربه بالاختبار، على ما ورد في رواية أن رجلاً سأل النبي موسى: «إذا رميت نفسي من أعلى الجبل، فهل أنا قتلت نفسي، أم مُتَّ بأمر الله؟»؛ فقال موسى: «ويلك، إن الله يبتلي العبد، وليس العبد هو الذي يبتلي ربه».

وبالعودة إلى مسألة القرآن الكريم، فإن كل ما أورده الدكتور يعقوب من أن اختلاف الحركات لا يؤثر على المعنى، فننقل هذه الأبيات من متن «طيبة النشر في القراءات العشر لمحمد بن محمد الجزري التي تفيد أن النحو معتبر في تحديد القراءة الصحيحة، يقول:

وليجتهد فيه وفي تصحيحه
على الذي نقل من صحيحه
فكل ما وافق وجهه نحو
وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصحَّ إسناده هو القرآن
فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت
شذوذه لو أنه في السبعة^(٢)

وهذا لا يعني أن النحو حاكم على القرآن الكريم، بل على أن النحو خادم للفهم الصحيح للمعنى في القرآن، كما أن النحو مستقى من القرآن، وإن علم النحو ما كان

(١) دراسات في فقه اللغة، ص ١١٩.

(٢) الأبيات: ١٤-١٧.

ليكون لولا خدمة فهم القرآن فهماً سليماً.

وبالنسبة إلى قرينة المعنى في تحديد الفاعل والمفعول دون الحاجة إلى حركات الإعراب، فنقول: خارج الجمل الساذجة التي مثل بها الدكتور، فما القول في هذه الآيات، وكيف يتم تمييز الفاعل من المفعول فيها؟

- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ﴾ [النمل: ٣٦]، يمكن أن تكون (سليمان) فاعلاً، أو مفعولاً به.

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، يمكن أن تكون كل من (سليمان، وداود) فاعلاً، أو مفعولاً به.

- ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

- ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِكَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠].

- ﴿وَكَذَلِكَ زَيْتٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

- ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦]، يصح في كلمة (الحق) الرفع والنصب.

ثم إن قرينة المعنى قد تكون ذات فائدة في الدلالة على المعنى عند الإنسان العربي ذي الفطرة اللغوية العربية السليمة، وأتى هذا؟!، وإن المطلوب هو أن نفهم العربي وغير العربي هذه اللغة بما تتضمن المعاني عن طريق رموز يفهم المعنى من ورائها. ثم

إن المؤلف يدل على عدم أهمية الحركات في تحديد الفاعل والمفعول بقرينة «الرتبة»، ويمثل على ذلك بـ:

- ساعد عيسى يحيى.

- حياً والدي معلّمي.

- ساعد أخي مصطفى.

ويقول عن هذه الجمل بأنه يجب اعتبار الأول فاعلاً والثاني مفعولاً (وكنتم أفضل كلمة «عدّ» بدل اعتبار)، وهنا يخطئ الدكتور يعقوب ابن يعيش في قوله: «بأنك إذا قلت «ضرب زيد عمرو» لم يُعلم من الفاعل ومن المفعول، ونحو: «أنفذ الوالد الولد».

فنقول لم يخطئ ابن يعيش، خاصة وأن الجمل التي طرحها لا يعرف من الفاعل من المفعول، بخلاف الكلمات المنتهية بالأف، أو الباء كالجمل التي طرحها المؤلف، ونقول: إن هذا الدليل «الرتبة» إنما اعتمده النحاة القدماء بديلاً، أو نائباً عن عدم ظهور الحركة، أو بسبب عدم ظهورها.

كما أنه لا يمكن اعتماد دليل «الرتبة»، خاصة في الجمل ذات خاصية التقديم والتأخير، وأخطرها ما يتعلق بالقرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ [الأنعام: ٦١].

ويقول عباس حسن في النحو الوافي باب تقديم وجوب الفاعل: «يجب تقديم أحدهما (الفاعل، والمفعول) في خمس

مسائل، منها: إذا خشي الالتباس، والوقوع في الشك، بسبب خفاء الإعراب مع عدم القرينة، فلا يعلم الفاعل من المفعول؛ فيجب تقديم الفاعل، نحو: علم موسى عيسى، وأكرم ابني أخي، وغلب هذا ذاك»^(١).

ومن أدلة المؤلف على عدم الحاجة إلى الحركات قرينة «تذكير الفعل»، ومثّل على ذلك بـ: «أكرم يحيى سعدى»، والحقيقة هذا مثال بسيط إذ الفعل حدّد الفاعل، وعليه فقد حدّد المفعول، ولكن ليست كلّ الجمل بهذه البساطة، وهنا يمكن أن يُشكل علينا بعض الجمل ممّا يكون فيه الفاعل مؤنثاً مجازياً، مثل: طلع الشمس، أو الشمس طلع، وكقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧]، وشبيه به قول الله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُفْطَرٌّ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨].

ومن الأمثلة التي وردت، وهي تدحض هذا الدليل: «سافر اليوم فاطمة - ويعود غداً زينب - ويطلع الشمس - وانتهى الحرب - وبكى التواكل»^(٢).

ومن أدلة الدكتور يعقوب دليل تأنيث الفعل، مثال: «زارت سعدى يحيى»، وهنا أقول الأفضل أن يُقال لحوق علامة التأنيث للفعل للدلالة على الفاعل. والجواب على هذا الدليل، أولاً: سذاجة هذا المثال، وليست كلّ

الجمل بهذه البساطة، ويصحّ ردّاً على هذا الدليل، ما صحّ من لغة العرب من الأمثلة الواردة آنفاً في الردّ على الدليل السابق، وأزيد عليه مثال: «ضربت الغلمان سعدى».

ومن الممكن أن يُذكر هنا إشكالية حذف المفعول به، نحو: أكلت الماشية...، فمن الممكن هنا أن نقدرّ الفاعل، وأن نقدرّ المفعول، وإشكالية نزول الفعل المتعدي منزلة اللازم، أو نزول اللازم منزلة المتعدي، (كما ورد في معلّقة امرئ القيس من عدّ فعلي: سحّ يسحّ، ودرّ يدرّ فعلين لازمين، أو متعديين)، وإشكالية حذف المفعول لعدم تعلّق غرض بالمفعول، فلا يذكّر له مفعول، ولا يُقدّر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ومن ذلك قولهم: «من يسمع يخل»، أي يخل أنّ ما يسمعه حقّاً، ومن المفيد هنا القول إنّ هذه القرينة يعقلها العربي، أو من كان ذا سليقة عربيّة، ولكنّ غيره يحتاج إلى قرينة الحركات، لكي ترشده إلى المعنى المراد، خاصّة وأنّ المفعول قد يتقدّم على الفاعل.

ومن الإشكاليات ما كان من باب حذف المفعول؛ تقول العرب: «خيراً لنا، وشرّاً

(١) وراجع الغلاييني، مصطفى. جامع الدروس العربيّة، دار ابن حزم، ط ١، ص ٣٩٩-٤٠٠.
(٢) الجارم، عليّ. وأمين، مصطفى. النحو الواضح، المكتبة اللغويّة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ط ١، ص ٥٥.

لعدونا»، وهنا يجوز الرفع لما ورد منصوباً^(١).

كما تُذكر هنا إشكالية «التضمين»، كأن يتضمّن الفعل اللازم معنى المتعدي، أو العكس، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ...﴾ [النور: ٦٣] تضمّن «يخالف» معنى «يخرج»، أو «يشاقق» ونحو ذلك، ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] أي تنصرف، أو تبتعد، أو تهجر^(٢)، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ [الإنسان: ٦] تضمّن «يشرب» معنى يرتوي، وقول العرب: «طلع القمر اليمن».

زد على ذلك ما لو أردنا فهم الغريب من الشعر كأشعار روبة بن العجاج مثلاً إذا يقول:

وجل ليل يحسب السدوس
يستسمع السّارب به الجروس
هماهم يسهرن أو إدريس
علوت حين يخضع الرّعوس
قرع يد اللّعبة الطّسيس

وقد أوردت هذه الأرجوزة دون حركات.

يقول شوقي ضيف: «واقرأ في أراجيزه (يعني روبة) فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلاّ بعد أن تعكسه على فهمك مراراً، وتعود إلى معاجم اللّغة، وتنظر في سيبويه وغيره ممّن عُنوا بتوجيه الصّيح في شعره»^(٣).

وإذا قرأنا طرفة بن العبد مثلاً إذ يقول:

«وصادق سمع التّوجّس للسّرى
لجس خفيّ أو صوت مند»^(٤)
وهذا البيت كذلك من دون حركات، ولا تنوين، وكذلك قوله:

من يعابيب ذكور وقح
وهضبات إذا ابتل العذر
جافلات فوق عوج عجل
ركبت فيها ملاطيس سمر»^(٥)

ومن شعر الفرزدق غالب بن صعصعة:
فمدافع الرّيان عري رسمها
خلق كما ضمن الوحي سلامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها
وودق الرّواعد جودها فرهامها»^(٦)

ومن أدلة الدّكتور يعقوب على عدم

(١) حسن، عباس. النحو الوافي، دار المعارف، (لا ط، ولا ت)، ج٢، ص ١٦٨.

(٢) نفسه، ج٢، ص ١٧١-١٧٢.

(٣) العصر الإسلامي، دار المعارف، ط٧، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٤) ديوان طرفة، دار صادر، البيت ٣٣.

(٥) نفسه، ص ٥٧.

(٦) العصر الإسلامي لضيف، ص ٢٦٨.

أهميّة الحركات بالدلالة على المعنى قرينة المشاهدة، أو بيان الحال، ومثّل على ذلك كأن تومئ إلى رجلٍ، أو فرس، وقلت: «كَلَمْ هذا هذا، فلم يجبه، أو ولدت هذه هذه...»، فتعيّن بإشارتك الفاعل والمفعول (ص، ٨٥). وهذا سليم، ولكنّه لا ينطبق على حالتي القراءة والكتابة، فسقط الدليل.

ويستدلّ المؤلّف بقرينة السّياق، ويعني بها إمكانيّة تحديد الفاعل والمفعول من خلال فهم سياق القصّة، أو الرواية، كأن تتحدّث عن مجرم اسمه زيد، ثمّ تقول: قتل زيد زياد، فتفهم من الفاعل، ومن المفعول به.

ولكن يرد على هذا الدليل أنّه ليس كلّ كلام مدرج في قصّة، أو رواية، ثمّ ما الذي يمنع أن يقتل زياد "زيد"، انتقاماً، أو خطأ، وماذا لو كان اسم القاتل، أو المقتول اسماً مركّباً، مثل: محمّد عليّ؟ وماذا لو كان القارئ غير عربيّ؟ وهذا يحتاج إلى إشارات، أو رموز ليفهم المعنى الصّحيح.

ويخلص الدّكتور إلى أنّه يمكن تمييز الفاعل من المفعول عن طريق إحدى تلك القرائن إلّا في بعض الكلام الذي وصفه بالنّدرة، كقول أحمد شوقي (١٢٨٥-١٣٥١هـ/١٨٦٨-١٩٣٢م):

وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت

عينيّ في لغة الهوى عيناك

ونقول: إنّ هذا الأسلوب: تقديم المفعول (عينيّ) على الفاعل (عيناك) هو أسلوب مألوف شائع، ثمّ ماذا لو كان البيت بيتاً فرداً، وليس بيتاً من قصيدة يتحدّد رويها مسبقاً؟ وكيف للمؤلّف أن يحكم بالنّدرة، وهذا لا يكون إلّا بعد استقراء شبه كاملٍ للشّعْر العربيّ؟ ويعلّق المؤلّف على البيت نفسه بأنّ من لغات العرب من يرفع كلاً من الفاعل والمفعول، ومنهم من ينصبهما معاً، ويقول بأنّ هؤلاء العرب يفهمون ما يريدون دون حركات الإعراب (ص، ٨٧).

ونقول دحض المؤلّف دليله بنفسه عندما ذكر أنّ قبيلة ما ترفع الفاعل والمفعول كلاهما، والثّانية تنصبهما معاً؛ فهذا، أولاً، فكر يمزّق، ولا يجمع، ثمّ أيّ اللّغتين نعتد؟ ولماذا؟ خاصّة، ونحن نبحت عن ما يوحدنا في لغتنا، وقضايانا الكبرى! ثمّ يحضرني معنى قول للجاحظ بأنّ النّاس يعقلون عن بعضهم بعض أقوالهم، وإنّ أخطأوا، ولحنوا بالقواعد النّحويّة، أو الصّرفيّة، وذاك لأنّهم تساوا بالجهل، بل إنّ الحيوانات العجم تعقل مراد الإنسان، وتستجيب لحاجته من خلال الصّوت والنّبرة.

ويبقى السّؤال الأهمّ: ماذا نفعل بلغة القرآن الكريم؟ وكيف نفهم معانيه؟ وآية لغة نعتمد في طبعاته الجديدة؟ وماذا يفعل العربيّ غير المتقن للغة في محاولة فهمه ما

يقرأ؟ وهذا حال الغالب من العرب اليوم في ظلّ العولمة الغربيّة؟ وماذا نفعل بكتب التّفسير، والنّحو، والقراءات، والتّاريخ، وباقي العلوم؟ ماذا نفعل إذا اختلط الحابل بالنّابل؟.

ويطرح الدّكتور أخيراً أهميّة استخدام الضّمائر في تحديد كلّ من الفاعل والمفعول، كقولك: «محمّد ضرب سمير»، فيكون «محمّد» الفاعل، و«سمير» المفعول، فنسأل ما لو أردنا «محمّد» مفعولاً به على التّقديم للاهتمام؟.

وأخيراً، وهاك بعض الآيات لا يميّز المراد منها إلاّ بالحركات الإعرابيّة:

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ويصحّ في (خير) المرفوعة خبراً لمبتدأ محذوف «خيراً» مفعولاً به.

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وهنا صحّت (خبراً) مفعولاً به لـ (يحسبن).

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، ويصحّ في (معيشتها) الرّفعة والنّصب.

- ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَدِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فمن القاتل، ومن المقتول؟.

الخلاصة

إنّ للحركات الإعرابيّة أهميّة كبرى في تحديد المعاني، وفهم المراد، وقد خلصت هذه المقالة اللّطيفة إلى أنّه لا يمكن لنظريّة «إلغاء» الحركات الإعرابيّة أن تعيش، ولقد ثبت ضعف هذه النّظريّة، ومجانبتها الصّواب في ما يتعلّق بتحديد الفاعل والمفعول فحسب، فكيف لو بحثت جميع أبواب النّحو والصّرف، وما فيهما من تشعّبات وتفرّعات؟.

مع التّأكيد والتّشديد على أهميّة هذه الحركات لتماھيها مع التّراث، والتّراث الدّينيّ المقدّس، على وجه الخصوص.

المصادر

- ١ - شكري المبخوت. كاتب وناقد تونسي، مجلة العربي الكويتية، العدد، ٦٩٩، فبراير، ٢٠١٧، ص ٣٥.
- ٢ - الرسالة الشافية، ثلاث رسائل، دار المعارف المصرية، ص ١١٧.
- ٣ - دار المعرفة (لا طبعة، ولا تاريخ)، ص ٢٦.
- ٤ - دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط ٨، ص ١١٧.
- ٥ - نفسه، ص ١١٩.
- ٦ - وراجع علم التجويد للغوثاني، يحيى بن عبد الرزاق، دار الغوثاني، سوريا، المستوى الثاني، ط ١٠، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١، ص ١٤٠.
- ٧ - تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ص ٩٤.
- ٨ - دراسات في فقه اللغة، ص ١١٩.
- ٩ - الآيات: ١٤-١٧.
- ١٠ - وراجع الغلاييني، مصطفى. جامع الدروس العربية، دار ابن حزم، ط ١، ص ٣٩٩-٤٠٠.
- ١١ - الجارم، علي. وأمين، مصطفى. النحو الواضح، المكتبة اللغوية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ط ١، ص ٥٥.
- ١٢ - حسن، عباس. النحو الوافي، دار المعارف، (لا ط، ولا ت)، ج ٢، ص ١٦٨.
- ١٣ - نفسه، ج ٢، ص ١٧١-١٧٢.
- ١٤ - العصر الإسلامي، دار المعارف، ط ٧، ص ٤٠٣-٤٠٤.
- ١٥ - ديوان طرفة، دار صادر، البيت ٣٣.
- ١٦ - نفسه، ص ٥٧.
- ١٧ - العصر الإسلامي لضيف، ص ٢٦٨.

ماهية البحث الادبي

حسين علي النمر

١ - مِمَّ يتألف البحث

التعب، وكأن صراعاً لا يزال ناشئاً بين أمواجه ورمال الشاطئ. حتى ليظن أنهما يتعانقان عناق المحبين، وترتد الأمواج على استحياء، وقد أشرب وجهها حمرة الخجل.

والحق أن الأديب ينبغي أن يمتزج بمجتمعه حتى يكون جزءاً لا يتجزأ منه، وحتى يُعبّر عن كل خواطره الجماعية وكل ما يموج به من أفكار وأحاسيس، وما من ريب في أنه لا يصنع أدبه لنفسه، وإنما يصنعه للجماعة التي يعايشها، وإلا ما خاطبها به ولا نشره فيها، بل كان يطويه في أدراج مكتبته. وهو لا يطويه، بل يبادر دائماً إلى إذاعته كلما وجد الفرصة المهيأة لذلك، إذاً فلا بد من ملاحظته الجماعة بحيث يخاطبها بما تفهم أو تريد أن تفهم وينقل إليها ما تشعر به في أطوائها من الحوائج والعواطف والمواقف الشعورية المعينة. ولعل هذا الاتساع في المعاني الأدبية هو الذي جعل الأدباء من قديم يحملونها معاني

معلوم أن مضمون البحث الأدبي هو الشعر والنثر وما تفرع منهما، والأدب يُقصد به إثارة المشاعر في قلوب الناس. ولذلك كان يعتمد على الخيال في التركيب الكلي لآثاره، على نحو ما يلاحظ في تكوين العمل الروائي وخلق شخصه ما يجري على ألسنتهم من أقوال وعلى أيديهم من أفعال، كما يعتمد عليه في عناصره الجزئية ووحداته المفردة، على نحو ما يلاحظ في لغته التصويرية وما يتداخل فيها من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة^(١). إذ الأديب لا يتحدث حديث الشخص العادي المجرد كلامه من التصوير، بل يتحدث حديثاً تصويرياً، وهو حديث يختلف باختلاف معانيه واختلاف مواقفه واختلاف أحاسيسه ومشاعره، فقد يقف على شاطئ بحر، فيحس كأن البحر يئن ويلهث من

(١) شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية، البحث الأدبي، دار المعارف بمصر، ط ٢، ص ١٠.

كثيرة، وتوضّح ذلك المعاجم اللغوية حيث نجد للكلمة الواحدة معانٍ متعددة، وهي ليست -كما يُظن - معانٍ مترادفة. إذ بينها دائماً كميات من الاختلاف القليل أو الكثير في المعنى.

وكأنّما توجد نواة تعبّر بينها. ومن حول النواة تتكون معانٍ متفاوتة تحمل فروقاً متقاربة أو متباعدة، وكأن معنى الكلمة اللغوي غير منحصر^(١). ويجانب هذا المعنى للكلمات الأدبية يوجد معنى ثانٍ هو المعنى البياني أو المجازي. إذ يضطر الأديب في أثناء بحثه عن الأداء الدقيق لمعانيه العاطفية غير المحددة أن يسمي أشياءه بأسماء أخرى كأن يسمي الكريم بحراً. وقد يطلق الكلمات على مدلولات جديدة. كأن يطلق كلمة اليد على النعمة أو على القدرة. وأصحاب البلاغة يدرسون ذلك في بابي المجاز المرسل والاستعارة، وحيث يكثر من الإشارة إلى الألفاظ تتغير على ألسنة الأدباء وتتمحور قليلاً أو كثيراً حسب إرادتهم الفنية، ما يدل بوضوح على أن للكلمات عند الأدباء معانٍ بيانية بجانب معانيها البلاغية.

١ - انتقاء البحث

ليس انتقاء البحث الأدبي شيئاً سهلاً، إذ للذين يبحثون عن ثقافة واسعة كي يهتدوا

إلى بحث أدبي طريف، ولذلك كان ناشئة الباحثين يجدون صعوبة في اختيار موضوعات أبحاثهم، وكثيراً ما يلجأون إلى بعض الباحثين وخاصة أساتذة الجامعات ليدلوهم على موضوعات يبحثونها. وهي طريقة خطيرة، إذ قد يدلّهم هؤلاء الباحثون على موضوعات لا تتفق وميولهم الحقيقية، فيتعثّرون فيها وقلمها يحسونها لعل في ذلك ما يجعل أول واجب على هؤلاء الناشئة أن لا يلقوا بزمامهم في بحوثهم إلى غيرهم، وأن يعملوا على الاهتداء إليها من خلال قراءاتهم وعكوفهم على كتب الباحثين من قبلهم يستعرضون موضوعاتها ويقرؤون فيها حتى يستبين لهم موضوع يتفق وميولهم، ويحاولون بحثه ودراسته.

ولهذه الطريقة فوائد كثيرة، إذ لا يتناول الباحثون الناشئون ما يمكن أن نسميه بالموضوعات المعدة، والتي قد لا يحسونها مهما تكلفوا لها. لسبب طبيعي، وهو أنها لا تتفق واستعدادهم، وإنّما يتناولون موضوعات اكتشفوها بأنفسهم. وفي أثناء قراءاتهم لكثير من البحوث الأدبية. وهي قراءة من شأنها أن تنشئ في عقولهم كثيراً من الأفكار والخواطر التي يمكن استغلالها في ما يبحثون ويختارون من موضوعات،

(١) مسعود بوبو، دراسات في اللغة، مطبعة ابن حسان دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٨.

وأيضاً فإنّها تنشئ في أنفسهم إحساساً عميقاً بأنّ سباقاً حاداً عنيفاً سينشب بينهم وبين من اتصلوا بهذه البحوث، وأنّ واجباً عليهم لا أن يقرؤوهم فحسب، بل أن يجدّوا كل الجد في الإكباب على ما قرؤوا وأن يحاولوا - بكل ما استطاعوا - النفاذ إلى أفكار وآراء لم يصل إليها سابقوهم في البحث ولا سجلوها في بحوثهم.

ولا بد للدارس الناشئ للأدب من ثقافة واسعة بعلوم العربية من النحو^(١) والصّرف والبلاغة والبيان وبالأخبار والتاريخ. ولا بد له من الوقوف على الفكر الفلسفي حتى يفهم شاعراً مثل أبي العلاء^(٢). ولن يستطيع باحث في الأدب العباسي أن يسبر أغواره من دون الوقوف على المذاهب الكلامية وآراء المعتزلة والمرجئة وغيرهما، إذ دخلت من ذلك كله أسراب كثيرة إلى الأدب والأدباء، كما دخلت أسراب أخرى من ثقافات الأمم الأجنبية. وكل ذلك ينبغي أن يتزود منها زاداً يمكّنه من الحكم على الأدباء المعاصرين الذين أخذوا بحظوظ مختلفة من تلك الآداب. وزاداً مهماً جدّاً ينبغي أن يتوفر له، وأقصد زاد النقد الأدبي الحديث، وهل يمكن لدارس أن

يتحدث عن شاعر معاصر، وهو لا يعرف شيئاً عن نظرية الشعر في تصوير النقاد المعاصرين من الغربيين ولا عما كتبوه في اتجاهات النقد من نفسيّة وجماليّة وطبيعيّة واجتماعيّة وذاتيّة وموضوعيّة.

إن ذلك كله ضروري ضرورة الزاد والشراب للأحياء حتى يمكنه أن يدرس وأن يفهم ويفقه ما يدرسه ويحلله ويستخرج حقائقه دون عوج أو التواء. وزاد آخر لا يقل أهمية عن كل ما قدمناه، وهو زاد المعرفة بتاريخ الأدب العربي معرفة تقف الباحث في وضوح على تطوره وتحوله من زمن إلى زمن، بحيث يستقرّ في وعيه تيار ماضينا الأدبي من مصادر انحداره الأولى إلى الزمن الذي يعمل فيه، فإذا كان ميدان عمله في العصر الحديث وجب أن يعي هذا التيار بجميع ظواهره على مر التاريخ، حتى يُصدر أحكامه عن علم دقيق بتاريخنا الأدبي وتقاليده التي ثبتت له طوال الأزمنة الماضية. وخطأ جسيم أن يظن باحث معاصر أن أدبنا الحديث ينفصل عن أدبنا في الأزمنة السابقة، وإن لا يوجد أدب غربي ولا شرقي خليق بأن يسمى أدباً من غير أن يتصل بماضي الأمة وبروحها الخالدة^(٣).

(١) عبد الحفيظ السطلي، العجاج: عبدالله بن رؤية حياته ورجزه، رسالة الدكتوراة ١٩٦٩، ط ٢ ص ٤٦.

(٢) أنظر إعتقادات زمن المسلمين والمشرّكين للإمام الرازي، ص ٦٨-٦٩ عن كتاب العجاج.

(٣) محمد زكي العشماوي، النبغة الذبياني مع دراسة للقصيد العربية في الجاهليّة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ص ٢١٦.

ولو أن أدباً ينشأ في عصرنا مجتثاً الأصول لا رابط بينه وبين ماضٍ أدبي لأتمته لكان من الخطأ أن نطلق عليه اسم كلمة أدب لأمة منبت الصلة بأدبها الماضي، بل دائماً توجد وشائج وثيقة تربط أدبها الحاضر بأدبها الماضي. وعلى الباحث مبتدئاً وغير مبتدئ أن يوضح دائماً هذا التواصل بين الأبناء والآباء في الأمة، وهو تواصل من شأنه أن يفتح أبواباً كثيرة أمام الباحثين، إذ يقارنون بين الأدباء المعاصرين والأدباء الماضين مقارنات طريفة، ويحاولون التعرف على شخصية الأمة وشخصية أدبائها ومدى تمسك نفر منهم بالتقاليد الأدبية ومدى تخلص نفر آخر من تلك التقاليد وخاصة ما استحال منها إلى قواعد جامدة.

٢ - ترتيب نسيج البحث

قد يبدو لأول وهلة أن تنسيق مواد البحث الأدبي لا يحتاج إلى أكثر من جمعها ثم وضعها في فصول متناسقة. وهذا صحيح، غير أنه حين يخرج إلى التطبيق يبدو ما فيه من عسر شديد، فعن المواد التي يجمعها الباحث - وخاصة إذا كان مبتدئاً - قد يحمل في تضاعيفها أشياء كثيرة يظن أنها ذات صلة بالبحث. فحين يحاول سردها جميعها يتخلل الموضوع

ويصبح مليئاً باستطرادات لا حصر لها. وذلك كان ينبغي أن يحدد موقفه وموقف بحثه من المواد التي يجمعها. فليس كل ما يجمعه جدير بأن يُسرد في البحث. ونفس المواد المتصلة بالبحث ينبغي أن تنسّق في ما بينها، وكأنه إزاء قياس منطقي له مقدمتان ونتيجة، فكل ما يحشده ينبغي أن يأخذ موضعه في المقدمة الأولى أو المقدمة الثانية أو في النتيجة، وأما حين تُسرد المواد سرداً وتتوالى في شكل سيول من دون رابط أو روابط ضعيفة فإن البحث يصبح مفككاً.

وليست فقر البحث الأدبي هي التي ينبغي أن تأخذ شكل قضية منطقية فحسب، بل أيضاً الفصول ينبغي أن تكون مترابطة ترابط أجزاء القضية المنطقية، وكأنَّ البحث كله قضية ترتّب أجزاؤها ترتيباً منطقياً سديداً. فليس هناك حشو ولا استطراد ولا عبارة تلقى إلقاءً أو فقرة تسرد سرداً من دون أن يكون لها ارتباط شديد بالبحث. إذ ليس مجرد ملء فراغ من أوراق إنما هو عمل علمي^(١). وكما أننا في الكتب العلمية وخاصة في عرض تجربة من تجاربها لا نلتقي بأي شيء خارج عنها، بل يطرد الكلام وكأنه حلقات في سلسلة مترابطة، فلا تتقدم حلقة عن موضعها ولا تتأخر عنه

(١) شوقي ضيف، البحث الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف بمصر، ط ٢ ص ٢٧.

ولا يدخل بينها وبين أية حلقة أخرى ما يوهن العلاقات المنطقية، كذلك ينبغي أن تكون البحوث الأدبية.

ولا بد أن تتوافر العلاقات المنطقية بين الفصول و بين محتوياتها الداخلية، ولا بد أن يتحول الكلام في كل فصل إلى ما يشبه مجموعة من الأدلة المنطقية، تتضامن في إقامة بنائه العام، حيث تصبح كل فقرة جزءاً من هذا البناء بل تصبح كل عبارة فيه لبنة محكمة من لبناته. فهي جزء لا يتم له من دونها تكامله، جزء متمم لما قبله ولما بعده. فلا يتم فهم ما تقدمه وتأخر عنه من دونه. ولو أننا حذفنا عبارة لأحسنا باضطراب البنيان كله. فما بالنال لو حذفنا فقرة؟ إذن يتداعى البنيان من أساسه بالضبط كما نحذف جزءاً من وصف تجربة. ولتكن الفقرة ج أو د، فإن الكلام يصبح غير مفهوم. ولا تؤدي بقية الأجزاء المعنى المراد.

فالارتباط بالترتيب الزمني أساس أول في تنسيق مادة البحث، وقد يتخذ المكان قاعدة بدورة للترتيب. ويتضح هذا في الأندلس لعصر أمراء الطوائف الذي امتد إلى القرن الخامس. فإن الأندلس انقسمت

في هذا العصر إلى إمارات وأندلسيات كثيرة، إذ أصبحت كل بلدة إمارة مستقلة. وعادة يبحث الدارسون الشعر الذي نُظم في الأندلس جميعاً بحثاً واحداً، لا يراعى فيه سوى الترتيب الزمني للشعراء، ومن الممكن أن يضاف إلى ذلك الترتيب المكاني، لأن الشعر ازدهر ازدهاراً عظيماً في بلدان كثيرة في قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وغرناطة وطليلة^(١)، فهل يساق كله مساقاً واحداً أو تراعى في مساق البحث البلدة التي ينتسب إليها الشاعر. حيث يوزع البحث على بلدان كثيرة، وهذا الاتجاه نفسه يهدي الباحث الناشئ إلى شيء آخر، هو أنه من الممكن أن يتخذ بلدة واحدة من هذه البلدان أساساً لبحثه فيدرس مثلاً الشعر في قرطبة لعصر أمراء الطوائف أو في إشبيلية أو في غيرهما من المدن الكبيرة، ويتعمق في بحثه تعمقاً من شأنه أن تفيد منه الدراسات الأدبية بأكثر مما لو ظل متساعاً بالموضوع ودرس الشعر في تلك المدن جميعاً دراسة زمنية فحسب^(٢). إذ يخشى أن تضع في ثنايا ذلك ضروب النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، أو لا تتضح اتضاحاً تاماً، إذ يرتبط فيها بيئة واحدة معينة، حيث يشتق أحكامه منها

(١) محمد رضوان الداية، الأدب العربي في الأندلس والمغرب، ١٩٨٤، مطبعة جامعة دمشق ص ١.

(٢) راجع في دراسة ابن حمديس، مقدمة الديوان بتحقيق الدكتور إحسان عباس، مختارات من الشعر الأندلسي للمؤلف . .

مباشرة، وتتضح له ظروفها السياسية والعقلية والاجتماعية، فلا يشتط في حكم ولا يذهب مذهب المبالغة أو مذهب التعميم.

وإذا تركنا المقدمات والتمهيدات إلى البحث الأدبي نفسه وأبوابه وفصوله، كان من الواجب أن يتم بعضها بعضاً حيث يترتب بعضها على بعض ترتيباً يجعلها كلاً واحداً أو جسداً واحداً تتولد أعضاؤه تولداً طبيعياً، وخير ما يصور البحوث الأدبية من هذه الناحية قرننها بعمل أدبي معروف هو المسرحية، فكما أن المسرحية تنقسم إلى فصول ومشاهد كذلك البحث الأدبي ينقسم إلى فصول وأجزاء، وكما أنه ينبغي أن تسود في المسرحية وحدة الحدث كذلك ينبغي أن تسود في البحث الأدبي وحدة العمل بحيث تتسلسل أجزاؤه تسلسلاً دقيقاً، بل يصبح كالمسرحية تعمها وحدة عضوية تتولد في أثنائها المشاهد، وكما أنه من الخطر على المسرحية أن يدخل على مجرى الحدث أي أشياء عارضة، كذلك من الخطر على البحث الأدبي أن يدخل عليه أي أشياء خارجة عن دائرته الخاصة لأدنى ملاسة.

فهنا وهناك لا بد من الربط المتوتر الحاد بين الأجزاء حيث لا تُعطى أية فرصة للاستطراد، بل تكون كل عبارة لها ضرورتها في السياق، ولها دلالتها في المعاني المطلوبة التي تصور الشخص

والأحداث. وهذا التوتر العنيف في حدث المسرحية يقتضي دائماً الانتخاب والاختيار: اختيار الموضوع والأفعال والأقوال التي تفسره والتي تبرز من خلالها بروزاً بيّناً بما يكشفها من وقائع ويجلوها من مصادفات. والبحث الأدبي يشبهها من هذه الناحية أدق الشبه، فالباحث ينتقي موضوعه، ويظل الانتقاد ديدنه في كل ما يكتبه، فهو دائماً ينتقي النصوص والأفكار، كما يظل التوتر والحدة يلزامانه، حتى يبرز ما يريد إبرازه من الآراء، وحتى يسقط عليه من الأضواء ما يكشفه في وضوح كشفاً تدعّمه الأدلة الحادة القاطعة. وكما أن المسرحية تقوم على التطبيق في الزمان والمكان والحدث والشخص، كذلك البحوث الأدبية تقوم على التضييق في العرض حتى لا يدخلها أي اضطراب، فكل فصل فيها، بل كل فقرة من فقر الفصل حلقة في سلسلة تتتابع فيها الحلقات بإحكام من دون أي إسهاب أو أي إسترسال، فذلك ليس مجاله البحوث الأدبية والمسرحيات الرفيعة، إنما مجاله القصة حيث يستطيع صاحبها أن يطيل فيها ويسهب كما يشاء، ويسترسل وقد يستطرده حسب حاجته القصصية، ولذلك كان من الممكن أن تصبح القصة مجلداً ضخماً أو مجلدين، على حين لا تزيد المسرحية عادة على مائة صفحة لما ذكرناه من أنها عمل متوتر حاد، عمل سريع

مُتَوَثِّبٌ، لا تتخلله ثغرات ولا شلالات ولا استطرادات ولا جنوح ذات اليمين أو ذات الشمال في عبارة داخل حوار، وكأنما لا تترك لمشاهدها فرصة كي يسترد أنفاسه ويبتلع ريقه، إذ لا تزال تأخذ بخناقها، حتى تنتهي العبارة الأخيرة فيها.

وينبغي أن تكون هذه الصورة هي نفسها صورة البحث الأدبي، فلا استطراد ولا حشو. بل سببية حادة وتسلسل محكم للأفكار السابقة واللاحقة، وكأنما البحث حدث كحدث المسرحية، تلتحم فيه الدوافع والتأثيرات والمقدمات والنتائج المنطقية في شكل متصل مترابط ترابطاً حاداً^(١). وفي ذلك ما يصور من بعض الوجوه كيف أن البحوث الأدبية التي تطول طولاً مسرفاً لا يرافقها التوفيق، لأنها غالباً تفقد عناصر التوتر والربط المنطقي الحاد بين أجزائها وفصولها فضلاً عن فقرها الداخلية. ولعلي لا أغالي إذا زعمت أن أي بحث أدبي يزيد على خمسمائة صفحة من صفحات المطابع المتوسطة يحمل في أطوائه غالباً ما يتداعى به تداعياً مؤكداً، إذ فارق خصائص البحوث الأدبية القائمة على الانتخاب والتركيز والتسبب والاتساق والتنظيم ودخلته ضروب لا تكاد تحصر من الاستطراد ومن

حشد المعارف المهمة وغير المهمة ومن صور الإطناب والإسهاب ومن التفاصيل التي لا تدعو إليها حاجة، وكل ذلك يفسده إفساداً لا صلاح له بعده.

٣ - دلالة البحث

تقوم البحوث الأدبية على عمليتين أساسيتين هما استقراء الحقائق الجزئية واستنباط الحقائق الكلية والقضايا العامة، ولا يراود بالاستقراء جمع الحقائق المفيدة وغير المفيدة، فدائماً لا بد من الانتخاب والاختيار والانتقاء، ولا بد أيضاً من الاستقصاء الدقيق والإحاطة التامة بكل الحقائق المتصلة بالبحث الأدبي ونصوصه الجزئية، حتى يمكن الوصول إلى الحقائق والصفات الكلية، ولذلك ينبغي على الباحث في الأدب أن يبدأ بجمع الأمثلة والنصوص ويضعها حسب الموضوعات التي يتناولها في بحثه المعين^(٢).

ومن المهم أن نعرف أن البحوث الأدبية تشبه العوام الطبيعية، فهي تبدأ بالجزئيات أو من الجزئيات وتنتقل منها إلى الكليات. تبدأ بدراسة الخاص وتنتقل منه إلى دراسة العام، فالأساس هو الجزئيات وهو الأمثلة المتنوعة لا كما يصنع أصحاب العلوم الرياضية الذين يبدؤون من الحقائق الكلية

(١) مسعود بويو، دراسات في اللغة، مطبعة ابن حسان دمشق، ص ٨٢.

(٢) شوقي ضيف، البحث الأدبي، دار المعارف بمصر، ط ٢ ص ٣٨.

وينتقلون منها إلى الحقائق الجزئية، أو بعبارة أخرى يبدوون من العام ويتحولون منه إلى الخاص يبدوون بنظرية مجردة، ثم يطبقونها على الجزئيات وقد يكون لها ولجزئياتها ما يجسّمها جميعاً في الواقع المحسوس وقد لا يكون. والرياضية بذلك تجرّ إلى افتراضات وأبحاث خيالية كثيرة بخلاف العلوم الطبيعية فإنها تعتمد على الواقع المادي الملموس، ولا تزال تبحث في جزئيات منه حتى تضع خاصية أو نظرية لها مشتقة منها بعد أن تكون قد رتّبت وميّزت وصنّفت وعرفت فصائلها أو أنواعها وصفاتها. وبالمثل البحوث الأدبية، فهي تبدأ من الجزئيات والمفردات والأمثلة، تبدأ مثلاً من قصيدة وتُقرّن إليها قصائد أخرى في عصر معين. لتستخلص ما تشترك فيه من خصائص أو ظواهر معينة، وقد تبدأ من أبيات مفردة في قصيدة لتصل إلى خاصية أو ظاهرة تقيّد بها. ولا ينعكس الموقف أبداً حيث يرفع البحث الأدبي مجموعة من خصائص أو ظواهر كلية يدرس على أساسها نصوص زمن معين. إنه حينئذ لا يكون بحثاً أدبياً علمياً، لأنه قام على الفرض ولم يعترف بالاستقراء، بل ألغاه إلغاءً.

والاستقراء لا يُلغي الفرض، ولكنه يؤخره حتى ينتهي من جمع الجزئيات، حتى إذا جمعها الباحث الأدبي مضى

يدرسها ويحاول استخلاص خصائصها، وحينئذ قد يفترض خاصية. ولكنه يعود إلى الجزئيات ليرى مدى صحتها، وهي بذلك تخرج عن حيز الفرض المطلق إلى حيز الفرض المقيد الذي يُفحص من خلال الجزئيات ليعرف أهو صحيح أم غير صحيح. ولا ريب في أن ذلك يتطلب دقة في الملاحظة وأن يوجّه الباحث الأدبي عقله على مجموعة من الجزئيات والأمثلة ليستنبط خاصية أو ظاهرة. وهو حين يستنبطها يلاحظ الأسباب التي تدفع إليه، أو قل إنه يخضع لقوانين السببية في استخلاص الخصائص واستنباطها. فدائماً يُعنى بعرض أسباب ودوافع مختلفة تؤكد كل فرض من الفروض التي يستظهرها. وفي الوقت نفسه تسند الفرض، النصوص والأمثلة والجزئيات المختلفة. ومعنى ذلك لا بد أولاً من إحصاء الأمثلة، ولا بد أن تشتق الصفة أو الخاصة المفروضة منها. ولا بد أن تؤكد لها قوانين السببية العامة حتى يصبح الاستنباط صحيحاً قد زُوّد بالأدلة الكافية من الأمثلة والبراهين.

وعلى هذه الشاكلة يمضي البحث الأدبي، فهو استقراء واستقصاء للنصوص والإحاطة بها من أطرافها جميعها، وهو استنباط واشتقاق من النصوص للخصائص والصفات، مع بيان العلل الباطنة المستكنة. ولا بد مع كل استنباط

من نصوص يستخرج منها. أما إذا لم يقترن الاستنباط بنصوص فإنه لا يكون حينئذ استنباطاً بل فرضاً. ولا يؤدي البحوث الأدبية شيء كما تؤذيها الفروض التي لا تستند إلى نصوص ولا تدعمها نصوص، وينبغي أن يستقر في الأذهان أن البحوث الأدبية لا تتعامل مع فروض وإنما تتعامل مع نصوص تشتق منها الظواهر والخصائص.

والفرض إن لم تسعفنا الشواهد والنصوص بصحته فقد قيمته فقداناً تاماً. ومن أجل ذلك كان ينبغي الاحتياط في استخدامه ومن المؤكد أن مهمة الباحث الأدبي ليست إحداث الفروض وإنما دراسة النصوص والأمثلة واستخلاص الخصائص والظواهر الأدبية.

على أن من الباحثين من يكون واسع الخبرة وقوي الإلهام، فيدلي بفرض ولا يدعّمه بنصوص كافية، ويأتي باحث من بعده فيؤيده بنصوص كثيرة يدل بها على صحة الفرض وصدقه. وممن تكثر الفروض عنده طه حسين لخصب ملكاته العقلية، ونكتفي بعرض مثالين، أولهما: فما لاحظته عند عبد الحميد الكاتب من كثرة استخدامه للحال النحوية في صياغاته، وجعله ذلك يفترض أنه يتأثر بالثقافة

اليونانية إذ يستخدم الحال في رأيه على طريقة استخدام اليونان القدماء له. وأصل الفرض الصحيح وهو كثرة استخدام عبد الحميد للحال أن أستاذة سالماً يفرط في كتابته أيضاً في استخدام الحال وكذلك ابنه عبد الله، والحال موجودة في العربية والقرآن الكريم بكثرة. ثانيهما: فهو ما ذهب إليه من تشكك في نسب المتنبي شاعر العربية وذلك في فواتح كتابه عنه^(١)، إذ مضى يذكر أنه لم يمدح أباه ولم يفخر به ويرثه ولا أظهر الحزن عليه، وأنه أعرض أيضاً عن ذكر جده وتشكك في أمه أكانت عربية أم أعجمية، ويعود فيقول: إنه لا يشك في أنه كان عربياً، ولكن لا عروبة الجنس، وإنما عروبة الجماعة التي عايشها، ويقول ليكن عربياً من قحطان أو من عدنان أو فارسياً أو ليكن ما شئت.

وينتهي من كل ذلك إلى أنه مقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذاً، وهي فروض من الممكن أن تضاف إلى أي شاعر قبله، من الممكن أن تضاف إلى البحتري مثلاً لأنه لم يتحدث في شعره عن آبائه. ومن المؤكد أن الذي دفع طه حسين إلى هذا الفرض وما يماثله من كثرة الفروض عنده إنما هو خصب ملكاته وقدرته الرائعة على النفوذ إلى الآراء الجديدة.

(١) إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل. ط ١ ص ٢١٨.

فهذا المتنبي كان كثير الخصب وكان فيه استعلاء يوغر صدور كثيرين عليه من الشعراء وغير الشعراء. فلو أنه كان مدخول النسب لشنع به خصومه أقبح تشنيع، وأشعاره طافحة بإيمانه بعروبه وبانتسابه لها وصدوره عنها حتى ليعدّ أكبر شاعر تجسدت في قلبه مشاعرها وظل يرددها حتى أنفاسه الأخيرة.

من تشرب روحه لمبادئ المانوية. **والمثال الثاني:** فهو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، وهي رحلة خيالية في عالم الجنّ والشياطين حيث يلتقي ابن شهيد شياطين الشعراء والكتّاب وينشدهم من أشعاره، ويتلو عليهم من منثورهم، ما يبهرهم فيجيزونه.

٤ - قراءة والتحليل

ولعل شيئاً لا يؤذي البحوث والدراسات الأدبية كما تؤذيها قلة الاستنباطات. إذ يحس القارئ أنه أمام باحث لا يتعمق في ما يبحثه. ونضرب لذلك بعض الأمثلة. أما **المثال الأول:** فهو أبو العتاهية، إن من يقرأ زهدياته ومواعظه وما يذكر من الثواب والعقاب يتخيل إليه أنه كان صحيح الإسلام والعقيدة وأنه كان يستمد زهده من مصادر إسلامية، غير متنبّه إلى شكّ معاصريه، فزهده واتهامهم له إنما كان يستمدّه من المانوية، حتى إذا رجع إلى ما كتبه الجاحظ عن أصحابها في كتاب الحيوان من أنهم كانوا يؤمنون بأن أجناس الخير تخالف أجناس الشر وأن في كل حاسة من حواس الإنسان جنساً قائماً بذاته من النوعين ثم قرأ عند أبي العتاهية النظرية نفسها في مثل قوله: الخير والشر هما أزواج لذا نتاج، ولذا نتاج. وقف على صحة ما قال القدماء عنه

لا بد للباحث الأدبي من القدرة على تذوق النصوص الأدبية، وهي ملكة تنشأ من طول الإكباب على قراءة الشعر وآثار الأدباء في القديم والحديث. إذ تصبح استجابة صاحبها لما يقرأ استجابة صادقة. وهي أول خطوة في البحث الأدبي، ولا بد أن يحسّ الباحث بالعمل الأدبي ويشعر أنه أثر فيه بروعته، أو قل لا بد أن تتكون عنده حاسة فنية تُمكنه من أن يتذوقه تذوقاً سليماً، وهو تذوق يتأثر بشخصيتنا وما يمتزج فيها من المشاعر والأحاسيس والأهواء والعادات، ومن أجل ذلك يدخل فيه غير قليل من معتقداتنا وأخلاقنا وأفكارنا، وينبغي أن نجرّده من كل عنصر يفسده حتى يكون تذوقاً سديداً. وحتى تكون استجابتنا للعمل الأدبي استجابة صحيحة، أو قل حتى يكون تمتعنا به تمتعاً سليماً^(١).

(١) شوقي ضيف، البحث الأدبي، دار المعارف بمصر، ط ٢ ص ٦٣.

التصوير عنده فإذا منه تدبج وتجسيم
وتشخيص وصور خيالية مبتكرة لا تكاد
تحصى، ويزدوج ذلك كله بالفلسفة والثقافة
العميقة. فينتشر في أشعاره غموض حالم
كغموض الطبيعة في أوقات السحر مع ما
يشع فيها من الرمز ونوافر الأضداد
والأقيسة الفنية مع محالة الكشف عن
حقائق الحياة في أغوارها الخبيثة، ومع
المزاوجة بين العقل والحس والشعر
مزاوجة رائعة. وفنُّ شاعر مثل المتنبي
تُحلَّل مصادر روعته بتجسيده لمعاني
العروبة وأحاسيسها ولمعاني الفتوة
والبطولة وتصويره الرائع للاعتداد بالنفس
والترفع عن الدنيا والأحاساس الذي لا يحدُّ
بالكرامة وما يشبع في شعره من التشاؤم
والتفكير في حقائق الحياة.

وعلى نحو ما، ينبغي من التحليل لفن
الشاعر تحليل شخصيته في كتابات التاريخ
الأدبي إذ تُردُّ إلى العناصر الداخلية
والخارجية، أو بعبارة أخرى العناصر التي
تجمع من حياة الشاعر وآثاره ومن بيئته
وعصره، إذ هو ثمرة ظروف كثيرة
متشابكة، منها ما يرجع إلى ظروف
مجتمعه ومنها ما يرجع إلى ظروف أسرته
الاقتصادية وظروف تربيته والمؤثرات
الذاتية والثقافية التي عملت في تكوينه،
والظروف الدينية والاعتقادية التي أحاطت
به وما تقلَّب فيه من فضائل ونقائص في

وحين نَحكي هذا التمتع وأصداءه في
نفوسنا نكون قد بدأنا خطواتنا نحو البحث
الأدبي، ولكنها خطوات أولية. فالبحث
الأدبي لا يكتفي بوصف أحاسيس الباحث
إزاء الآثار الأدبية، بل يحاول أن يعلل هذه
الأحاسيس وأن ينتقل من التذوق إلى العلل
والأسباب انتقالاً يحلل في تضاعيفه الأثر
الأدبي تحليلاً يوضح عناصر جماله
وتأثيره في النفوس. وإذا كان التذوق هو
الأساس الذي يقوم عليه البحث الأدبي فإن
التحليل هو البناء كله أو قل ينبغي أن يكون
البناء كله، فكل ظاهرة وكل قصيدة وكل
عمل أدبي وكل أديب، كل ذلك ينبغي أن
يحلَّل إلى العناصر التي يتكوَّن منها، أو قل
ينبغي أن يُفصلها عن بعض حتى تُرى رؤية
واضحة وحتى تُعرَف معرفة دقيقة، فمثلاً
فن زهير في العصر الجاهلي يردُّ إلى
العناية بالتصوير، والتصوير يحلَّل
بالاعتماد على التفاصيل والزمان والمكان
واللون واستخدام العبارات التي تعطي
المصورات قوة المنظورات والعناية
بالصور الغريبة غير المألوفة.

وشاعر مثل أبي تمام يُحلَّل الفن عنده،
باستخدامه لألوان الجناس والطباق
والمشاكلة والتصوير ممتزجة، حيث يتَّشح
اللون بألوان أخرى تطوقه أو تعانقه أو تقع
في ذروته أو حاشيته، وكأنما تتبدل هيئة
اللون بما يمازجه من ألوان أخرى. ويُحلَّل

حياته وعلاقاته بالناس من حوله. وعلى هذا النحو ترسم دائماً مع كل كاتب وشاعر المؤثرات التي اشتركت في تكوين شخصيته الأدبية.

وبهذا العرض السريع لمادة البحث الأدبي واختياره وتنسيق مواده، ثم استقراءه واستنباطه، وتذوقه وتحليله، نكون قد ألقينا بعضاً من الأضواء على طبيعة البحث الأدبي.

المراجع العربية

- شوقي ضيف، البحث الأدبي، دار المعارف بمصر، ط ٢.
- مسعود بوبو، دراسات في اللغة، مطبعة ابن حسان دمشق.
- إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل. ط ١
- عبد الحفيظ السطلي، العجاج: عبدالله بن رؤية حياته ورجزه، رسالة الدكتوراة ١٩٦٩، ط ٢.
- محمد رضوان الداية، الأدب العربي في الأندلس والمغرب، ١٩٨٤، مطبعة جامعة دمشق.
- محمد زكي العشماوي، النبغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف في مصر ط ٧.

ما الفلسفة؟

علي نعمه عبدون

من خلال المميزات التي منحها النظام الديمقراطي في أثينا تحديداً من حرية الرأي واحترام الاختلاف والتنوع في طرح الأفكار.

بدأت في بلاد الإغريق تتشكل ملامح الفلسفة ومظاهرها، وأولها الدهشة من الأمور العادية والغريبة، وثانيها منهج الشك، وثالثها البحث الدائم عن الحقيقة، وكل تلك المظاهر استندت إلى تفكير عقلائي، منطقي في فهم الظواهر الطبيعية والسعي إلى تفسيرها.

هكذا مثلت الفلسفة اليونانية لحظة تأسيس حقيقية في مسار تطور الفلسفة، وقد تناولت هذه الفلسفة اليونانية مع سقراط وأفلاطون وأرسطو، مواضيع عدة منها (الفلسفة السياسية، والأخلاقية، وعلم الوجود ontology، والمنطق، وعلم الأحياء، والبلاغة، وعلم الجمال...).

تعني كلمة فلسفة من حيث الأصل اللغوي اليوناني «محبّة الحكمة»، وهي تشتق من الجذر اليوناني «فيلوس» و«صوفيا»، وتدل كلمة «فيلوس» على المحبة، أما كلمة «صوفيا» فتعني الحكمة، لذلك كان يطلق على الفيلسوف محب الحكمة^(١).

ومحب الحكمة هو الشخص الذي رفض الواقع وتمرد عليه، وحاول فهم كل ما يجري حوله بطريقة مختلفة، فلم يقبل بالمسلّمات وآمن بأن كل شيء قابل للنقاش والتحليل.

كان هذا الظهور في اليونان القديمة في القرن السادس قبل الميلاد، حيث تنوعت العوامل التي ساهمت في نشأة الفلسفة هناك، وأبرزها العوامل الفكرية التي عبرت عن تطور الفكر لدى الناس، ووعيهم وبحثهم الدائم عن الحقيقة التي تقف وراء الأمور، فضلاً عن العوامل السياسية، وذلك

(١) راجع: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ومن المعروف أن هذه القضايا ليست وحدها التي شغلت تفكير اليونانيين، حيث حوّل العديد من المفكرين انتباههم إلى علوم أخرى مثل (علم الكون، والرياضيات، والطب...)، هكذا دخلت الفلسفة في جميع مجالات الحياة وأصبحت محور العملية الثقافية والفكرية في بلاد اليونان.

الفلسفة العربية الإسلامية الوسيطة:

لقد انتهى تراث اليونان الفلسفي إلى المسلمين، وذلك عندما طلب الخليفة العباسي المأمون نقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية، بدافع من نشأته العقلية وانتسابه لحركة الاعتزال، فلم يجد المأمون حوله غير السريان^(١) لنقل هذا التراث. وما يعنينا في هذا الشأن أن نظهر مدى المكانة التي بلغتها الفلسفة في العصر الإسلامي الوسيط، حيث احتلت مكانة مهمة وراقية، بفضل تشجيع سياسي لحركة ترجمة التراث الفلسفي اليوناني، فقد سبق العرب الغرب إلى مناهل الفلسفة اليونانية، ومن ثم التأسيس لفلسفة عربية إسلامية أنارت قروناً من التاريخ الإنساني.

هكذا استدعت الفلسفة لأول مرة في الثقافة العربية عبر ترجمة أو تعريب

الفلسفة اليونانية، فتبلورت نتيجة لذلك ثلاث مجالات للنظر العقلي في الحضارة العربية الإسلامية الوسيطة وهي: علم الكلام، الفلسفة، التصوف، ومن المهم القول إن الخطاب الفلسفي أنتج على أرضية العلاقة الحية المتبادلة بين الإسلام كعقيدة دينية وبين الواقع الجديد الذي أوجدته السلطة السياسية المنفتحة على علوم الآخرين وخاصة في عهدي المنصور والمأمون^(٢).

الفلسفة في العصور الحديثة:

مما لا شك فيه أن النزعة الإصلاحية الدينية في أوروبا (الإصلاح البروتستانتي) ساهمت في فتح آفاق القطيعة بين الدين والدولة وتعميق تطور مفاهيم المجتمع المدني، وتطور الفلسفة التجريبية والمنهجية العلمية، ما أدى إلى فقدان الدين لسيطرته في ميداني العلم والفلسفة. وفي ضوء هذا التطور الذي أصاب كل مناحي الحياة في عصر النهضة، رفع فلاسفة هذا العصر رغم الاختلافات بين مذاهبهم شعار «العلم» من أجل تدعيم سيطرة الإنسان على الطبيعة وقد ظهر ذلك من خلال ما قاله ديكارت: «بأن معرفة مفيدة في الحياة تجعل من أنفسنا سادة الطبيعة

(١) راجع: محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) راجع: محمد علي أبو ريان، مرجع سابق.

وملاكمها»^(١). وقد ذهبت الفلسفة أبعد من ذلك، بأن حولت وظيفتها الأساسية إلى النقد الذي يعتمد على العقل فقط.

فأصبح المنهج النقدي الرافض للأفكار المسبقة والاعتقادات الشائعة، والأوهام المسيطرة على عقول الناس، هو السمة الأبرز للفلسفة في هذا العصر، التي سعت إلى حل مشاكل الإنسان المعرفية والاعتزاز بالعقل وتخليص الإنسان من كل الأساطير والخرافات.

يمكننا القول، إستناداً الى ما سبق، إن الإرث الفلسفي الذي بات مألوفاً لدينا، لم يأت عفويّاً ولم يخرج قط للتو، وإنما هو نتاج ومحصلة كدح جميع الأجيال السابقة من الجنس البشري، وبالتالي لا يمكن حصر الفلسفة في هوية تاريخية أو أيديولوجية معينة، لأنها واحدة في حقيقتها، وغاياتها أعمق وأشمل من أن يتم حصرها بحقبة زمانية أو حضارية معينة.

ولكن في الوقت ذاته، يمكن للفلسفة أن تتعين في سياق تاريخي، دون أن تفقد طابعها الكلي، أو الشمولي، أو أن تحصر مصيرها به، أو تنسب إليه فحسب، ذلك إنها كما كان هيغل يقول ليست تمثالاً حجرياً

صلباً وجامداً، إنما كائناً ينمو ويتشكل ويتضخم. وهذا ما يؤكد تاريخ الفلسفة نفسها، الذي يعلمنا أن ثقافة ما لأمة بعينها، يعترئها الجمود في فترة من تاريخها، فيبأرحها التفكير الفلسفي الواعي لأمد غير قصير، كما كان حال الأوروبيين في العصور الوسطى قبل أن يصبحوا أوصياء على التفكير الفلسفي الحديث والمعاصر.

هكذا تثبت الفلسفة حضورها كونياً في سياق زمكاني آخر، بعد أن تكون قد خفتت في سياق زمكاني سابق، ذلك أن غواية التقدم هي التي تدفع الفلسفة إلى الالتصاق بالتاريخ والبشر والأمم الأكثر تقدماً ويقظة ونشاطاً، فتتقدم كظاهرة في الزمن ويكون لها تاريخها الخاص، ضمن إطار أمة قادرة على أن تحقق في ذاتها شمولية التقدم المتنامي للواقع الانساني، وبمعنى من المعاني تغدو الأمة منتسبة إلى الفلسفة، لا العكس، ومنتمية إليها ومحددة تقدمها بتقدم الفلسفة.

الفلسفة في الواقع العربي اليوم:

لا مناص إذناً أن نعرض واقع الفلسفة في المجتمعات العربية اليوم، مستعرضين صلتها بالظروف التاريخية والسياسية،

(١) انظر: جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، دار الحقيقة، بيروت.

فالشكل المتحقق لفلسفة ما يكون معاصراً
نمط متحقق ومحدد من الشعوب، ويعكس
بالتالي روح هذا الشعب، وتنظيم حياته،
والجوانب المتنوعة لإبداعاته المادية
والنظرية.

تتداخل الأسباب التي أدت إلى تقهقر
الفلسفة وتراجعها في المجتمعات العربية
اليوم، حيث أضحت الفلسفة في المجال
العربي غريبة عن المجتمع، وجعلت
المجتمع ينظر بغرابة إلى الفلسفة. فمن هذه
الأسباب ما هو ذاتي، يعود إلى طبيعة
المقاربة الفلسفية، ومنها ما هو يتعلق
بالواقع السياسي والديني في العالم العربي
وانعكاسات هذا الواقع على الصعيد
التربوي.

١ - الخطاب الفلسفي العربي المعاصر:

تترسخ الفلسفة في الطبيعة الإنسانية
بشكل فطري، إذ ترتبط جوهرياً بالتفكير،
لذلك يصعب المراهنة على موت الفلسفة.
وتبقى حاجة ضرورية للمجتمعات
الإنسانية، فهي بمثابة الغذاء الروحي
للإنسان الذي مازالت تشغله الأسئلة
الكبرى، ويؤرقه الواقع المأزوم بمشكلاته
الوجودية. فالفلسفة تمد هذا الإنسان
بالأدوات النقدية والمنهجيات البحتة التي
يحتاجها لطرح الأسئلة والسعي إلى
الأجوبة.

ولكن هل ينطبق هذا الحال على الإنسان
العربي؟ هل تستطيع الفلسفة أن توفر له
سبيلاً إلى نهضة فكرية وثقافية؟ هل في
طبيعة الفلسفة أصلاً ما يفيد الواقع العربي؟
وهل هناك فلسفة عربية محضة، لجهة
الأسئلة، والمشكلات النظرية؟ هل ثمة
أصالة حقيقية في سماتها وأطاريحها؟ هل
أبدع العرب أنساقاً فلسفية أصيلة؟

لقد اجتمعت عناصر عديدة ساهمت في
تقزيم منزلة الفلسفة في واقعنا العربي
المعاصر، فإذا ابتعدنا عن الماضي وأمعنا
النظر في الحاضر نجد أن هناك عقبات
ذاتية ساهمت في تردي واقع التفكير
الفلسفي في عالمنا العربي اليوم، منها ما
يعود إلى طبيعة الفلسفة ذاتها، حيث نرى
وبوضوح أن معظم النظريات والأفكار
الفلسفية التي نتباحثها مصدرها أوروبا،
فالفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة،
سيطرت على مسرح الفلسفة في القرنين
الأخيرين لما حملته من مضامين معرفية
وأنساق منهجية شكلت قفزة نوعية في
التفكير الفلسفي. فمن المعروف أن حالة
اليقظة الأوروبية تركت تداعياتها على
مجتمعاتنا العربية وأحدثت خلخلة بنيوية
ومجتمعية كبيرة. كما وكشفت عن حالة
إرباك وحذر فعليين لمفكري العالم العربي،
الذين حاولوا جاهدين التوفيق بين ثنائيات

(أصالة وحداثة، عقل ونقد، إصلاح وتبعية، دين وديمقراطية...) (١).

هكذا دخلت الفلسفة الغربية بكل ذخائرها المعرفية في النسيج الثقافي العربي، وتفتشت مفاهيمها ومصطلحاتها في أبحاث المفكرين العرب وأعمالهم منذ عصر النهضة وحتى اليوم. ولكن لا نستطيع إنكار أن العالم العربي اليوم استطاع إنتاج أساتذة كبار في الفلسفة، لكن في الوقت نفسه لا بد من الاعتراف، بغياب فلاسفة كبار بمستوى الفلاسفة العرب في العصر الوسيط، أو بمستوى ما أنتجته الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، وهذا يعود إلى الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التي يعاني منها الواقع العربي، مما يؤدي إلى استحالة وجود فيلسوف عربي وفق تعبير جورج طرابيشي (٢)، ما يقود إلى تقلص دور الفلسفة وتراجعها. وهذا ما يؤكد دور الفيلسوف في إعلاء شأن الفلسفة في واقعه، إذا لا فلسفة أصيلة دون فيلسوف أصيل. في حين أن واقع الحال، يشير إلى عدم توافر فيلسوف عربي يستطيع بإنتاجاته الأصيلة والهامة أن يعيد النظر في التراث، وأن يحدث تأثيراً إيجابياً على الواقع اليومي.

ذلك أن العرب منذ عصر النهضة إلى اليوم، انقسموا في اتجاهين: الاتجاه الأول التمسك الكامل بالموروث الحضاري والدعوة إلى القطيعة التامة مع الغرب بدعوى أيديولوجية. أما الاتجاه الثاني فانقسم بدوره إلى فريقين، الأول ذهب إلى تبني التجربة الأوروبية بكاملها فكان مقلداً أعمى بامتياز، بينما جل ما فعله الفريق الثاني كان في طرحه للمسائل الفكرية والفلسفية بنفس توفيقى يدعو إلى الاستفادة من الفلسفة الغربية لما فيها من معارف وعلوم إنسانية وتكنولوجيا متجددة دوماً، ولكن مما يتوافق مع الروح الإسلامية العربية وموروثاتها الاجتماعية والدينية، وقد تناسى الاتجاهان أنه لا يمكن إيجاد فلسفة أصيلة معاصرة بلغتها وأنساقها وأطاريحها دون صوغ وانضاج مبادئ لها، فلا بد من شروط سياسية ودينية وتربوية تساهم في هكذا ولادة.

لذلك لم تستطع الفلسفة في العالم العربي خلق فضاء معرفي خاص بها، أو أن تبني مفاهيم ومناهج وتصورات علمية، كما فعل الغرب الأوروبي من ديكارت إلى كانط وباسكال، ونيتشة، الذين ساهموا وبشكل مؤثر في فتح آفاق فلسفية جديدة إن من

(١) راجع: معاذ حسن، حاجة العرب إلى الفلسفة، مدونة مصر المدنية ٣٠/٥/٢٠١٧.

(٢) راجع: جورج طرابيشي، حوار مع جريدة الشرق الأوسط، ٢٣/١/٢٠٠٨، العدد ١٠٦٤٨.

حيث التصورات أو الأفكار، أو البنى البحثية الأصلية، لذلك لن تتقدم الفلسفة في المجتمعات العربية اليوم من دون خطاب فلسفي عربي أصيل.

هكذا تتجلى الأسباب الذاتية، بالمشكلة الكبرى في التفكير الفلسفي العربي الراهن، الذي يتكئ دوماً على مرجع منفصل عن سياقه الثقافي، وهذا ما جعله يعاني غربة مزدوجة عن الواقع الثقافي الذي يعاند كل تفكير عقلاني تنويري، وغربة عن روح الفلسفة من حيث هي قوة نقد وسلب، فالطبيعة الفلسفية المكتسبة من الغرب كما يقول د. عادل ضاهر^(١)، رسخت قصوراً للفلسفة عند عدد من المشتغلين بها في المجال العربي، إذا جردوها من وظيفتها الاجتماعية ومن توصلها النقدي مع المجتمع، تأثراً بالفلسفة التحليلية التي سيطرت لفترة طويلة على مسرح فلسفة القرن العشرين، والتي نظرت إلى الفلسفة باعتبار أنها مجال معرفي محايد يجب أن تحصر وظيفتها بالبعد التقني كالتحليل النقدي للغة وما يماثله من مواضيع. فغدت الفلسفة في المجال العربي، جراء ذلك، عملاً تقنياً، عقلياً مجرداً، يبعد عن الممارسة الإجرائية، ولا يساهم في تنشيط مسار

التنمية الاقتصادية والاجتماعية المنشودة.

الحقيقة أن عدد كبير من المفكرين العرب، استعانوا بالخطاب الفلسفي الغربي لدى التصدي لأسئلة التاريخ والهوية والمصير. فكان لهم قراءات فلسفية مأثرة في هذه المجالات وغيرها، لكنها لم تصل إلى مستوى القول الفلسفي المتماسك، كما لم يبلغوا مستوى الأنساق الفلسفية، سواء من جهة المفاهيم والرؤى، أو من جهة المناهج. حيث غدت التيارات الفلسفية الغربية الحديثة والمعاصرة مصادراً رئيسية للوعي الفلسفي العربي المعاصر، وأخذ المفكر العربي يجتهد في ضوء مفاهيم المذاهب الفلسفية الغربية الحديثة المعاصرة وأولياتها النظرية ومناهجها. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، لقد استعان طه حسين بالشك الديكارتي في منهجية بحثه ومثله فعل قسطنطين زريق! وكان حضور راسل وكارناب صارخاً في وضعية زكي نجيب محمود المنطقية (كتابه خرافة الميتافيزيق)، كذلك اتكأ فؤاد زكريا على عقلانية اسبينوزا في كتابه (اسبينوزا والتفكير العالمي)، وكانت التومائية حاضرة في كتابات يوسف كرم وشروحاته الفلسفية، وطلعت بنويوة ألتوسير الماركسية على كتابات مهدي عامل^(٢).

(١) راجع: عادل ضاهر، دور الفلسفة في المجتمع العربي، المؤتمر الفلسفي العربي الأول، عمان ١٩٨٣.

(٢) راجع: زكي الميلاد، أزمة العلاقة بين الفلسفة والمجتمع، الأهرام اليومي، القاهرة.

هكذا أضحت الفلسفة الغربية الحديثة أداة منهجية توجه رأي المفكرين العرب وتحفز أسئلتهم، ناهيك عن كونها مصدراً ثرائي لأجوبتهم الفكرية عن قضايا المصير والتحرر.

يظهر مما سبق، افتقار العالم العربي للمشاريع الفلسفية، وهي إن وجدت فلا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، إذ تعود بأغلبها إلى مجرد دراسات للتراث الثقافي ومحاولة توفيقه مع الحداثة بمقولاتها وآلياتها ومناهجها. لذلك لم يخرج مشروع فلسفي عربي أصيل في طبيعة تكوينه من حيث المفاهيم والمنهج والاهداف، طبعاً لا يمكننا أن نتجاوز المشاريع الفلسفية لأركون والجابري وحنفي... لكونها محاولات جادة ومهمة لدخول التنوير والحداثة، ولكن قلة الاهتمام على مستوى المجتمع والناس هي السمة الغالبة. لذلك بقيت هذه المشاريع محصورة في اطار النخبة فقط، ودون أن يكون لها أثر في واقع المجتمعات العربية.

٢ - الواقع السياسي:

تمر الفلسفة في العالم العربي اليوم بفترة صعبة جداً بالقياس إلى المكانة التي احتلتها في العصر الإسلامي الوسيط، إذ تعيش أزمة حادة ومعقدة، ولا يمكن أن ننسبها إلا لكونها مظهراً من مظاهر أزمة العالم العربي ثقافياً وسياسياً واجتماعياً

وحضارياً. لذلك لم تخرج الفلسفة عن هذا الواقع المأزوم فأصابها الضعف والتراجع بكونها نتيجة من نتائج الواقع السياسي المتأزم واحدة من مخلفاته فلا يمكن أن نؤسس لحركة فلسفية نهضوية في ظل المشاكل السياسية الحادة التي تشكل عائقاً جادة يمنع فعل التفلسف ويعيق دور الفلسفة.

لا تخرج الفلسفة في العالم العربي عن صورة التأزم والتراجع اللذين يسيطران على جميع مظاهر الحياة في مجتمعاتنا العربية اليوم. فالعالم الذي يعيش حالة من الارتباك والضياح فضلاً عن جملة من العوارض البنيوية التي تسيطر على الأفراد من جراء الفساد والاستبداد والتخلف ما يزيد الوضع اختلالاً، ويجعل من الإنسان العربي يبحث عن مكان له في الوجود بشكل يحفظ حقوقه الأساسية وينقله إلى حالة تمكنه من تكوين رؤية مستقبلية واضحة لأهدافه التي يسعى إليها.

في ظل هذا الواقع، هل استطاعت الفلسفة إن تسجل حضوراً لافتاً في خضم الأحداث السياسية في العالم العربي؟ وهل استطاعت الثورات العربية نفسها أن تطرح إشكاليات فلسفية؟ هل كان للمشتغلين بالفلسفة دور في التخطيط للثورات التي حدثت في مصر وتونس؟ كشفت الثورات التي حدثت في العالم

العربي عن دور فاعل يود الشباب العربي لعبه لإحداث تغيير بنيوي في طبيعة الأنظمة السياسية وفي تكوينها. لقد حمل الشباب لواء التغيير في مصر وتونس وليبيا فخرجوا إلى الشارع بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة من فقر وبطالة وفساد وتضخم، إلا أنّ هذه الظروف وعلى أهميتها لم تكن هي العامل الوحيد الذي ساعد في انطلاق شرارة الاحتجاجات، فالبعد السياسي هنا لا يمكن إغفاله، إذ شكلت العوامل السياسية بواعث مهمة في الاحتجاجات فالحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية، ورفض الاستبداد، ورفض احتكار السلطة والهيمنة على مؤسسات الدولة من أصحاب النفوذ، شكلت عناوين أساسية لشباب عربي أراد إحداث تغيير جذريّ في أرض الواقع، والانطلاق نحو واقع جديد.

أمام هذا الواقع ما كان دور المشتغلين بالفلسفة في العالم العربي؟

لم يكن للمشتغلين بالفلسفة دور هام في التحضير للثورات في العالم العربي، أو المشاركة فيها، فواقع الحال يدل على أنه لم يكن للفلسفة علاقة بالإحداث السياسية التي حصلت، بل نكاد لا نجد حضوراً لها على الإطلاق، رغم أن الأحداث السياسية في

العالم العربي حملت عناوين فكرية وطرحت إشكاليات فلسفية، وهذا أمر يجب التوقف عنده، فأهم حدث سياسي في تاريخ أوروبا المتمثل بالثورة الفرنسية ١٧٨٩م دفع العديد من الدارسين للقول إنه يرجع الفضل فيه لجان جاك روسو^(١)، فلو تأخر ميلاد روسو لتأخرت الثورة الفرنسية، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الدور الفاعل للفلاسفة في إحداث الثورات وتوجيهها.

والأهم من ذلك كله، لم يقيم المفكرون في بلداننا العربية بممارسة الدور النقدي تجاه الأنظمة الحاكمة، ولم يتسلحوا بسلاح النقد لكشف أسباب الإخفاق والتراجع والانحطاط. لقد تعاطت الفلسفة مع المجتمعات العربية تعاطي النخبة والأعيان، ولم تتعاط مع باب الاكتراث الصريح لمشاكل الناس وهمومهم. لقد بقيت أبحاث مشغليها بعيدة عن اهتمامات الشارع وشعاراته، ما زاد في ضعف الوعي الفلسفي بين العامة وزاد من تفاقم العلاقة بين المجتمع العربي والفلسفة.

ولكن لا بد من القول، إن الفلسفة لا تتحمل وحدها المسؤولية عن هذا الواقع، فهي بنت الواقع وربيبته، إذ لا يمكن لها أو بالأحرى للتفكير الفلسفي النقدي القائم على الحرية والاستقلال عن أية وصاية مهما

(١) راجع: سمير بلكفيف، ما مدى حاجة العرب إلى الفلسفة اليوم، مجلة النصر، ٢٠١٦/١٢/١.

كان مصدرها، أن ينمو ويزدهر في ظل أنظمة سياسية استبدادية تعيق التفكير الحر الذي هو شرط التنوير كما يرى إيمانويل كانط، فروح الشك والقدرة على الرفض والاستدلال والمرونة والاختلاف لا يمكن أن يتكونوا في مناخات التخلف والقهر والظلم، وفي ظل ظلامية سياسية وغياب الحرية السياسية، وتجاهل البحث العلمي، ونبذ الديمقراطية ورفض التعددية في كافة الحقوق.

فكيف نطلب من الفلسفة ونطالب الفلاسفة بدور فاعل في معركة التغيير السياسي ورسم مستقبل الأفراد، وهي تعيش في بيئات تمنع إبراز الرأي المخالف، وترفض النقد أو تحيله إلى تشكيك بالانتماء والوطنية!.

ومع ذلك تبقى الفلسفة مطلباً استعجالياً، لأن التغيير المنشود في العالم العربي يتطلب فضلاً عن الحماس والنشاط والاندفاع، نخبة فكرية ملتزمة لها قدرة على توجيه المجتمع نحو خطاب عقلاني هادف بفضل ما تمتلكه من امكانية تتيح لها القدرة على الرؤية العقلية للأمور، وتجعلها في موقع رسم تطلعات العامة.

فالواقع السياسي في مجتمعاتنا العربية يجعل من الفلسفة حاجة ضرورية في وقتنا الراهن، نظراً للتحديات التي يواجهها العالم العربي على المستويات كافة. فالفلسفة فعل

تفكير ضروري لتشخيص الأزمة والبحث عن الآليات التي تسمح بالخروج منها، إنها ضرورية لكونها تنشد ثقافة التغيير والتجديد والابتكار.

٣ - الواقع التربوي:

إذا تركنا الواقع السياسي جانباً، وأمعنا النظر في واقع الفلسفة في النظام التربوي الثانوي والجامعي في العالم العربي، فالفلسفة في وطننا العربي شأنها شأن باقي الاختصاصات الإنسانية الأخرى توجد في وضع مأزوم جعلها لا تواكب المستجدات الحاصلة في بلداننا العربية اليوم. وهذا يدل على أن الفلسفة تواجه عوائق تمنعها من أن تؤدي دوراً فاعلاً في سبيل إحداث التغيير المنشود، ويؤكد هذا التحليل، واقعها الحالي في جامعاتنا وفي مدارسنا الثانوية.

تعاني مادة الفلسفة في الثانوية العامة من صعوبات عديدة تجعل من الطالب لا يحبذ الدرس الفلسفي لما فيه من ابتعاد عن الواقع وعن حاجيات المتعلم، فالمنهاج الفلسفي الثانوي في لبنان مثلاً وضع منذ عشرين سنة تقريباً وفيه تجاهل واضح لمتطلبات الحاضر، فلا نعثر فيه على ما هو راهن وجديد، بل يحتوي أطروحات ثقافية تمتد إلى ماضي الفلسفة وتاريخها والذي لم يعد يثير اهتمامات التلميذ اليوم بحكم التحولات التي يفرضها نظام التربية.

هذا النقد الموجه إلى مادة الفلسفة مردّه إلى طبيعة المادة التي ترهق المتعلم نتيجة الإكثار من النظريات والأفكار والمفاهيم الفلسفية المطروحة، ما يجعل المتعلم عاجزاً أمام هذه المقاربة لما تتطلبه من حفظ وتخزين معلومات من دون أية مراعاة للجوانب التحليلية عنده. وبالتالي يتحول تعليم الفلسفة إلى عمل مضمّن وشاق لا ينسجم بتاتاً مع واقع التلميذ المعرفي اليوم، فلا تعود المادة تلقى قبولاً أو استجابة من المتعلم.

لقد تحولت مادة الفلسفة في الثانوية العامة إلى ثقل إضافي على المتعلم، وذلك نتيجة لعدم مبادرة الدولة إلى تطوير المناهج التربوية لجعل المواد الدراسية ومنها الفلسفة تتلاءم مع متطلبات العصر ومع النظريات التربوية الحديثة، نتيجة لذلك تفاقم وضع الفلسفة أكثر في التعليم الثانوي، وبات ينظر إليها كمادة فرعية لا قيمة لها إلى درجة الدعوة إلى إلغائها من المناهج التعليمية.

لا يختلف كثيراً واقع الفلسفة في التعليم الجامعي عن واقعها في التعليم الثانوي، إذ تتشابه صور النفور من الفلسفة في الواقعين، كما يزداد الابتعاد عن التخصص في الفلسفة في الجامعة، حيث لا نرى إقبالاً كبيراً للشباب على هذا الاختصاص. وفي نظرة سريعة على البلدان العربية، نرى أن

كثيراً منها لا تضم في جامعاتها أقساماً للفلسفة، وحتى الدول التي تضم قسماً للفلسفة في جامعاتها، لا نرى لهذا الاختصاص أي أثر أو تأثير داخل المؤسسات الجامعية، وهذا ما يجعل من حضورها في معادل العلم والمعرفة يقل ويخفت ما يطرح علامات استفهام كبرى عن مصير الفلسفة ومستقبلها.

هناك أزمة واضحة وجليّة بين الفلسفة والمجتمع، ويتضح ذلك بقلّة الإقبال على اختصاص الفلسفة في الجامعات من قبل الشباب العربي، فالفئة الغالبة من الشباب تنظر إلى الفلسفة كمادة تاريخية لا علاقة لها بواقعنا الحالي، كما تبتعد عنها لتصورها بأن هذا التخصص لا يكفي لكسب القوت اليومي وعليه تبحث عن اختصاصات تحاكي عصر التقنية والعولمة لما فيها من مستقبل ينبئ بمكانة مادية أفضل.

أما في ما خص مراكز الدراسات والأبحاث في العلوم الإنسانية والاجتماعية والتي تعتبر مرجعية فكرية في أوروبا وأمريكا، لما لها من قدرة على رسم الاستراتيجيات الكبرى في الاقتصاد والسياسة وغيرها. فنرى أن هذا الأمر لا يتوافر في العالم العربي إذ تقتصر وظيفة مراكز البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية على بعض مؤتمرات وندوات

محاولات التوفيق بين الاثنين منذ الفارابي وابن رشد وصولاً إلى عصر النهضة حيث ارتكز المشروع على المصالحة بين الدين من جهة والعلم والفلسفة من جهة أخرى، هذا السياق التاريخي قاد اليوم إلى سيطرة الاتجاه القائل برفض الفلسفة وعدم جدواها في عالمنا العربي.

لقد شكلت الفلسفة فكر مزاحم للدين في مسائل الألوهية والحقيقة والعقيدة، وهذا ما لا يمكن للاتجاهات الدينية المتطرفة السماح به، لأن هذا التغلغل الفلسفي يفقد الوصاية الدينية هيمنتها على هذه المسائل.

هكذا تراجعت الفلسفة في المجتمعات العربية اليوم، وذلك لغياب الشروط اللازمة لتقدمها، فالفلسفة تعني البحث والتفكير والنقد والقراءة والتحليل وهذا ما يوقعها في مواجهة مباشرة مع السائد من الناحيتين العقائدية والفكرية. لذلك انهمكت الفلسفة في العالم العربي بمشاريع فكرية لم تتجاوز أفق التوافق، فظلت تلك المشاريع الفلسفية منشغلة على الدوام بمحاولة بناء علاقة انسجام وتوافق مع الدين، ولم تستطع إلا نادراً تجاوز القواعد والثوابت، حيث استخدمت في بعض الأحيان كأداة منهجية في سبيل نشر الأيديولوجيا الدينية.

هامشية لا دور لها في رسم السياسات ولا فاعلية. يقول د. بو بكر الجيلالي في هذا الصدد: «حال الفلسفة وأهلها أدهى وأمر، فالفلسفة لا تمتلك مراكز وهيئات بحث إلا بعض الجمعيات القليلة جداً المغمورة التي لا يسمع عنها إلا القليل رغم توافر وسائل وأساليب الحصول على المعرفة بتطور وسائل وتقنيات البحث والدراسة، وغياب جدوى مركز البحث والدراسة في العلوم الإنسانية والاجتماعية في بلادنا وانعدام المراكز المتخصصة في الفلسفة يعود أصلاً وأساساً لغياب الاهتمام على المستوى الرسمي والشعبي بالفلسفة والفلاسفة... وتركيز الاهتمام على العلوم التجريبية والتكنولوجية على سبيل نقلها واستغلالها لا على سبيل الإسهام في إنتاج المعرفة العلمية واختراع التكنولوجيا وامتلاك شروطها ولوازمها...»^(١).

٤ - الواقع الاجتماعي - الديني:

لا يمكن للفلسفة أن تزدهر وتتألق في البيئات الاجتماعية الوثوقية - اليقينية^(٢) حيث الانتشار الكاسح للثقافة الدينية، فالصراع التاريخي بين الدين والفلسفة يمتد منذ بدايات الأخيرة في العصر الإسلامي الوسيط، وعلى الرغم من كل

(١) انظر: بو بكر الجيلالي، الفلسفة في الوطن العربي بين الأمس واليوم، موقع maakom.com، ٢٠١٢.

(٢) راجع: سمير بلكنيف، مرجع سابق.

لقد كانت العوائق الدينية سبباً مهماً في إضعاف الفلسفة في بلداننا العربية، نتيجة التخوف مما يمكن أن تؤديه من تغيير شامل على مستوى الفكري، هذا التخوف مرده إلى طبيعة الفلسفة كفكر للنقد والتنوير وتحرير العقول من الأوهام والخرافات لأنه فقط عن طريق الفلسفة يمكننا أن نتطلع إلى بناء ثقافة نقدية جديدة تقوم على الانفتاح والجرأة والقدرة على طرح الأسئلة ورفض ما يخالف المنطق، وهذا ما نحتاجه فعلاً في سعيينا إلى تغيير حقيقي وشامل في عالمنا العربي.

أما في الواقع الاجتماعي، فالفلسفة أداة فاعلة في هذا المجال، حيث تكمن وظيفتها وقيمتها في نشر ثقافة الحوار السلمي المبني على استيعاب الاختلاف والتنوع الثقافي في سبيل إحياء قيم التسامح والرغبة في العيش معاً. فالفلسفة توفر مناخاً ملائماً لالتقاء النخب وتبادل الآراء والمواقف، وتستشرف مستقبل المجتمعات من خلال أبحاث مفكرها وكتاباتهم، إنها أحد أنجح الطرائق وأفضل الوسائل التي من شأنها أن تحقق نهضة المجتمع.

ولكن السؤال الأساسي هل تحظى الفلسفة بالمكانة اللائقة بها في المجتمعات

العربية؟ وهل فعلاً تمارس هذا الدور التنويري التثقيفي في بلداننا العربية اليوم؟ وأين الفلسفة من قضايا المجتمع وتحدياته ورهاناته؟

ما لا شك فيه أن دور الفلسفة قد تراجع كثيراً في المجتمعات العربية، وذلك يعود لأسباب عدة: **أولها:** طبيعة العصر الذي نعيش فيه حيث يجتاحه الفكر المادي، إذا استطاعت الثقافة المادية مما تحمله من علم وتقنية وانجازات نوعية حققت للناس أقصى درجات الرخاء والرفقي المادي، ونتيجة لذلك ابتعد الشباب عن العلوم الإنسانية بشكل عام وعن الفلسفة بشكل خاص.

ثانيها: تراجع الفلسفة ذاتها، إذ إن معظم التيارات الفلسفية في أوروبا منذ القرن العشرين انكفت عن قضايا المجتمع والسياسة واتجهت إلى مجالات معرفية أخرى بعيداً عن اهتمامات الناس ومشاكلهم^(١)، وبالتالي لم تعد الفلسفة تمارس أية وظيفة نقدية، كما تخلت عن أدوارها في السياسة والمجتمع، وانغمست في نوع من الترف الفكري، هذا الواقع الأوروبي الغربي انعكس على واقع الفلسفة في المجتمعات العربية مع الفرق أن

(١) راجع: جمال حمود، الفلسفة في العالم العربي بين مطالب التغيير ومضاعب الواقع، مركز أفاق للدراسات والبحوث، ٢٠١٣/٢/٧.

الفلاسفة في الغرب حين جردوا الفلسفة من وظيفتها النقدية اجتماعياً وسياسياً كان ذلك في ظل تطور العلم لاسيما علوم الإنسان وعلوم المجتمع، وهذا المناخ لا يتوفر عليه مجتمعنا العربي المعاصر.

لذلك كان على المفكرين العرب أن يساهموا في تطوير دور الفلسفة في المجتمعات العربية، وجعلها تنخرط في همومها وقضاياها لتمارس وظيفتها النقدية في المجال الاجتماعي بدل الانصراف إلى قضايا فكرية بعيدة عن واقع الإنسان العربي وعن قضاياها.

لقد أدى التفكير النخبوي في الفلسفة إلى انصراف العامة عنها لابتعادها عن محاكاة الآلام الحادة والأمراض الفتاكة الموجودة في مجتمعاتنا العربية. فالفلسفة مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى الانخراط في قضايا المجتمع وإشكالياته وتحملها المسؤولية والدور المنوط بها كمادة للتفكير والنقد ومشروع لنشر الوعي في فضاءات المجتمعات العربية.

لا يمكن اعتبار هذه الدعوة إلى إعادة الاعتبار لدور الفلسفة في المجتمعات العربية اليوم، وكأنها دعوة من أجل أن تقود الفلسفة حركات التغيير في البلدان العربية، بل إنها دعوة إلى المشاركة الفعالة في الأحداث الاجتماعية والسياسية واتخاذ

المواقف اللازمة من مجريات الأمور ومآلها. فالفلسفة هي الوحيدة القادرة بكونها فكراً عقلانياً نقدياً من استخلاص الدروس والعبر وبث الوعي وإحداث التغيير المنشود، إنها مشروع ثوري تثويري لا غنى عنه، بدلاً من السير في تقليد الاتجاهات الفلسفية في أوروبا ومسايرتها ومحاولة السير على الدرب نفسه الذي سلكته بالتخلي عن وظائفها الاجتماعية والسياسية.

أخيراً، لا بد في ظل هذا الواقع العربي الرديء بمختلف مظاهره وتجلياته، من إعادة الاعتبار للفلسفة من خلال دارسيها ومفكرها، وذلك لا يكون إلا بالمساهمة الفعالة التي تستطيع الفلسفة تأديتها من خلال الاحتكاك بالواقع الملموس ومحاولة فهم أمراضه ومشكلاته، واستيعاب أزماته والعمل على إيجاد الحلول اللازمة له، ووعي الرهانات الجديدة التي يقتضيها الراهن العربي من خلال نظرة استشرافية تساهم بإعادة العرب إلى المكانة اللائقة بهم في التاريخ المعاصر، ولن يكون ذلك ممكناً إلا بترقية الإنسان ودفعه نحو تحقيق نهضة شاملة على المستويات كافة.

مراجع

- (١) راجع: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- (٢) راجع: محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- (٣) راجع: محمد علي أبو ريان، مرجع سابق.
- (٤) انظر: جون لويس، مدخل إلى الفلسفة، دار الحقيقة، بيروت.
- (٥) راجع: معاذ حسن، حاجة العرب إلى الفلسفة، مدونة مصر المدنية ٢٠١٧/٥/٣٠.
- (٦) راجع: جورج طرايشي، حوار مع جردية الشرق الأوسط، ٢٣/١/٢٠٠٨، العدد ١٠٦٤٨.
- (٧) راجع: عادل ضاهر، دور الفلسفة في المجتمع العربي، المؤتمر الفلسفي العربي الأول، عمان ١٩٨٣.
- (٨) راجع: زكي الميلاد، أزمة العلاقة بين الفلسفة والمجتمع، الأهرام اليومي، القاهرة.
- (٩) راجع: سمير بلكفيف، ما مدى حاجة العرب إلى الفلسفة اليوم، مجلة النصر، ١/١٢/٢٠١٦.
- (١٠) انظر: بو بكر الجيلالي، الفلسفة في الوطن العربي بين الأمس واليوم، موقع maakom.com، ٢٠١٢.
- (١١) راجع: سمير بلكفيف، مرجع سابق.
- (١٢) راجع: جمال حمود، الفلسفة في العالم العربي بين مطالب التغيير ومصاعب الواقع، مركز أفاق للدراسات والبحوث، ٧/٢/٢٠١٣.

القطاع العام اللبناني بين الحوكمة والخصخصة

إعداد بياريت فريفر/ ٢٠١٧

مقدمة

يُعرّف الإصلاح الإداري على أنه «عملية تفعيل الإدارة العامة للقيام بواجباتها، وفي طليعتها السهر على تنفيذ القوانين وضمان الخدمات العامة بأقصر وقت ممكن وبأقل كلفة ممكنة». (حلو، ١٩٩٣، ص ٩).

غدا الإصلاح الإداري همّاً يشغل بال الحكومات المتعاقبة منذ بناء الجمهورية اللبنانية، خصوصاً بعد ازدياد أدوار الدولة، وتعدّد ظروف الحياة وتشعبها، وازدياد حاجات المواطن اللبناني، الذي بات يريزح تحت ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية وأمنية صعبة. كما عانت الدولة الكثير من الصراعات والويلات والحروب المتنقلة على أرضها، عندها اضطرت لأن تنصرف للدفاع عن أمنها وحدودها لتأمين الاستقرار وإعادة الأمان والانصهار.

بالإضافة إلى ذلك، تعاني الدولة من عجز في الخزينة وازدياد أرقام الدين العام

الناتج عن تضخم حجم النفقات العامة وانخفاض الإيرادات. ويعود سبب ذلك إلى تغلغل الفساد والهدر في أروقة الإدارات والمؤسسات العامة، خلل في تركيبة النظام الضريبي، خسارات فادحة ببعض منشآت ومرافق القطاع العام وغير ذلك من المشكلات التي تنغمس الدولة في إيجاد حلول لها ولكن دون جدوى.

هل فشلت حقاً الدولة في أداء مهامها بإدارة قطاعاتها الإنتاجية؟ وهل يمكن لعملية الخصخصة والقطاع الخاص أن ينتشل القطاع العام من أزماته وكبواته المتلاحقة؟ وهل تكون الحوكمة الحل الجذري لمشكلات الركود والفساد والانهيال؟

١ - مشكلة الدراسة

تكاثر في الآونة الأخيرة الحديث عن ضرورة الإصلاح الإداري في الإدارات والمؤسسات العامة نظراً لما يعاني من

مشكلات تكبّد خزينة الدولة الكثير من التكاليف وترهق كاهلها كما كاهل المواطن الذي يعاني الأمرين للحصول على حقوقه وخدماته، ناهيك عن بعض المرافق العامة التي تقع تحت عجز سنوي دون أن تكون في المستوى المطلوب. هذا الواقع حتم إعادة النظر بالمشكلات والأسباب والنتائج بغية ترميم أو تصحيح الخلل لمساعدة لبنان للنهوض من كبواته المتلاحقة والمتراكمة. إنطلاقاً من هنا، يُطرح السؤال الرئيس الذي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه وهو:

ما هي المشكلات التي يعاني منها القطاع العام اللبناني وما دور الخصخصة والحوكمة في تحسين أدائه؟

٢ - أسئلة الدراسة

للإجابة على السؤال الرئيس سيكون من الضروري الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:

- ما هو القطاع العام وما هي أدواره؟
- ما هي العوائق التي تؤثر على أداء القطاع العام؟
- ما دور السلطات الرسمية في مراقبة أداء القطاع العام؟
- هل الخصخصة والحوكمة قادرتان على تحسين أداء القطاع العام؟

٣ - أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

- إبراز أدوار الدولة أو القطاع العام في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.
- إلقاء الضوء على العوائق التي تعيق عمل القطاع العام.
- التعرف إلى دور السلطات الرسمية في رقابتها على عمل القطاع العام.
- بيان أهمية الخصخصة ودورها في تحسين أداء المنشآت العامة.
- بيان ثقافة الحوكمة في القطاع العام.
- اقتراح بعض الحلول لتحسين أداء القطاع العام وتعزيز قدراته التنافسية.

٤ - الدراسات السابقة

أجرت وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية (٢٠٠١م) دراسة تحت عنوان «إستراتيجيات تنمية وتطوير الإدارة العامة في لبنان»، وردت أبرز المشكلات التي تعاني منها الإدارة العامة كالمركزية الإدارية، ضعف في صنع السياسات، الفائض في العمالة، تدني فعالية الأنظمة الإدارية... كما تم التطرق إلى أبرز الأسباب التي أدت إلى فشل المحاولات العديدة للإصلاح الإداري ومنها: عدم توفر الدعم

اللازم من الحكومات، عدم توفر الإجماع السياسي حول ضرورة إجراء الإصلاح،... بعد ذلك، تم التطرّق إلى مبادئ الإدارة الحديثة من مثل الالتزام بالقانون، الحكم الجيد، المساءلة، اعتماد معايير ومؤشرات للأداء الجيد،... ليصار بعد ذلك، إلى وضع خطة لتنمية وتطوير الإدارة والتي تتضمن أهدافاً استراتيجية وتشمل: اعتماد هيكليات إدارية فاعلة، تعزيز القدرة على صنع وتنفيذ السياسات، الحصول على العنصر البشري الكفؤ، تطوير نظام المساءلة والمحاسبة، واعتماد الرقابة. وفي نهاية الدراسة، تم وضع مخطط زمني يمتد على خمس سنوات لتحقيق التنمية الإدارية.

بعد مرور عشر سنوات على هذه الدراسة، أصدرت وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية دراسة جديدة ضمن العنوان والسياق ذاته (٢٠١١م)، عادت وتناولت فيها المشكلات الأساسية التي تواجه الإدارة العامة والتي لم تختلف عما كانت عليه في العام ٢٠٠١، من بعدها أعيد سرد المبادئ العامة الواجب تطبيقها في الإدارات العامة، من مثل: الالتزام بسيادة القانون، المساءلة والمراقبة، الحكم الصالح، الشراكة مع القطاع الخاص،... ليتم بعد ذلك، طرح الأهداف والتوجيهات الإستراتيجية لتحديث الإدارة العامة والتي بدورها لم تحمل أي جديد. بالإضافة إلى ذلك، تم استعراض

ست برامج من شأنها معالجة المشكلات الأساسية التي تعاني منها الإدارة العامة، وتتضمن كل من هذه البرامج المعلومات التي تساعد على فهم أهدافه، الجهة المعنية بإدارته، الإدارات المستفيدة، المشاريع الداعمة، المخرجات الرئيسية، النتائج، ومعايير الأداء.

وفي دراسة أجراها حسن صالح (٢٠١١) تتناول تطوير أداء الخدمات الحكومية في لبنان، وقد بيّنت هذه الدراسة واقع الفساد في الإدارات العامة اللبنانية وأسبابها كانهدام المحاسبة والمساءلة، عدم وضع الشخص المناسب في الوظيفة المناسبة، المحسوبيات والتدخلات السياسية... كما تطرّق إلى أبرز الخطط والإصلاحات التي أجريت في فترات سابقة لتصحيح الخلل والإضاءة على نتائجها التي لم تكن بالمستوى المطلوب. بعد ذلك، عرض الباحث مجموعة من الاقتراحات الهادفة إلى تنمية وتطوير الخدمات الحكومية وتعزيز ثقة المواطن بإداراته العامة على سبيل المثال: تطبيق الحكومة الإلكترونية، تحفيز الموظفين ذوي الأداء المتميز ومعاقبة المخلّين والمرتشين، توصيف الوظائف بغية توظيف الشخص المناسب في المكان المناسب...

أما صباح الساعدي (٢٠٠٨م) فقد تناول في دراسته دور السلطات العامة في

مكافحة ظاهرة الفساد الإداري في العراق، فقد طرح بدايةً مفهوم الفساد وأسبابه وأنواعه المختلفة، من ثم تطرّق إلى دور السلطات الرسمية (التشريعية، التنفيذية، القضائية) في مكافحة هذه الظاهرة من خلال سن تشريعات جديدة، والقيام بأعمال الرقابة البرلمانية بغية محاسبة ومساءلة المخالفين أمام القضاء.

أولاً: مفهوم الدولة وأدوارها

١ - الدولة

الدولة هي «تلك السلطة التي أوكل إليها الناس في قوم، أو أوكلت هي لنفسها، حق الاشتغال بما يحقق المصالح المشتركة لأبناء القوم، أو لتحقيق مصالح تلك الجماعة التي أوكلت لنفسها السلطة». (قبيسي، ٢٠١١، ص ١١).

إنها «المؤسسة السياسية والاجتماعية المنبثقة من المجتمع والتي تملك وحدها الحق في ممارسة القوة وباسم القانون بذريعة حماية الأمن المجتمعي». (المضحكي، ٢٠١٣).

تعتبر الدولة رمز السلطة وهي تجسدها بأدواتها المختلفة ومؤسساتها، حيث تقوم بتنظيم العلاقات بين الأفراد وفقاً للقوانين والتشريعات التي تفرضها، كما تقوم بفرض السياسات التي تراها مناسبة بغية تأمين استمرارية المجتمع وتطويره.

أما القطاع العام أو الإدارة العامة، هي «الأداة التي بواسطتها تستطيع الحكومة تنفيذ السياسة العامة للدولة وتحقيق متطلبات المجتمع» (بربر، ٢٠١٢، ص ١٩).

ويعرّفها ويلسون (Woodrow Wilson) بأنها: «الغاية أو الهدف العملي للحكومة وأن موضوعها هو إنجاز المشروعات العامة بأكبر قدر من الفاعلية والاتفاق مع رغبات الناس وحاجاتهم». (جاهين، ٢٠٠٦، ص ٥).

إذن، تعتبر الإدارة العامة الأداة التي من خلالها تنفذ الدولة سياساتها الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية. لا تعد الإدارة العامة أداة لضمان فعالية وضع السياسات وإدارة الموارد السليمة وتقديم الخدمات الأساسية فقط، بل أيضاً كوسيلة أساسية لتعزيز القواعد والمبادئ لتعزيز العلاقات الدولية والانصهار في عملية الانفتاح العالمي.

٢ - أدوار الدولة

تعددت أدوار الدولة ووظائفها واختلفت بين الأنظمة السياسية، إلا أنها ظلّت صاحبة السلطة والمسؤولية عن استمرارية المجتمع والمحافظة عليه، وبُيّنت التطورات التاريخية أن للدولة دوراً أساسياً في تنظيم أوجه الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية...

فهي التي تضمن لأبنائها الأمن والحماية وتعمل على رعايتهم وتأمين متطلباتهم الأساسية، وتحرص على تطبيق الأنظمة والقوانين التي تضعها في سبيل تحقيق غايات المجتمع وأهدافه. فهي المشرّع الأول والأساس للقوانين والأنظمة والساهرة على تطبيقها عبر سلطاتها وأجهزتها كافة، كما تؤمّن حدود الوطن من أي اعتداءات وتحميه من الاضطرابات الأمنية.

بالإضافة إلى ذلك، تؤدي الدولة أدواراً بارزة في تحقيق التنمية من خلال تأهيل وتطوير البنى التحتية وبناء المرافق العامة، وتوفير السلع والخدمات العامة، ومواكبة التطورات، إلخ...

ونظراً لازدياد إحتياجات المواطنين وتعقدتها، وازدياد التفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين الطبقات، بات للدولة والقطاع العام أهمية بارزة في رعاية أبنائها وتخفيف التفاوت بينهم وتأمين متطلباتهم المتنوعة، هذا الأمر استدعى اتساع أنشطتها في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

أ - الدور الإقتصادي للدولة.

تؤدي الدولة دور المنتج إلى جانب دوريّ الموزّع والمنظّم. ولتحقيق الدور الأول تقوم الدولة بإنتاج سلع وخدمات تسويقية تبغي من خلالها الربح، على سبيل المثال، إنتاج الكهرباء، تأمين وسائل النقل

والمواصلات، والاتصالات، والإنترنت، إلخ... كما تقوم بإنتاج سلع وخدمات عامة موجهة إلى جميع أفراد المجتمع من دون مقابل تسعى من خلالها إلى الإرتقاء بحياة الفرد نحو الأفضل والعمل على تحقيق التنمية وتعزيز النمو الاقتصادي، تتناول هذه السلع والخدمات مجالات مختلفة تطل التعليم والصحة والسكن والغذاء والأمن وغيرها.... (البلاوي، ١٩٩٨، ص ٢٢).

بالإضافة إلى ذلك، تلعب الدولة دور الموزّع والمنظّم، فهي تتدخل في الحياة الاقتصادية عبر عدّة سياسات وإجراءات تهدف إلى تعزيز النمو الاقتصادي ومراقبة الأسواق ودعم التنمية ومتطلباتها بالإضافة إلى أهداف أخرى تضعها السلطات العليا. فهي تقوم بسنّ التشريعات والقوانين اللازمة لحماية النشاط الاقتصادي وتنظيم العلاقات بين الأطراف الفاعلة ولضمان إستقرار الأسواق وحماية الإنتاج إلى جانب حماية حقوق كل من المستهلك والمنتج معاً. كما تلجأ إلى تأمين بعض المنشآت الخاصة بغية المشاركة في الإنتاج المحلي، والتأثير على الأسعار في الأسواق منعاً لحدوث حالات تضخم أو احتكارات، وللمحافظة على فرص العمل القائمة أو تلك المهددة في الصرف من منشآت غير قادرة على الاستمرار في نشاطها الاقتصادي. (Zeng, 2010P Kabaka, 2016, p4).

لهذا، تعتمد الدولة مجموعة من السياسات الاقتصادية التي من شأنها التدخل في الشؤون الاقتصادية وحمايتها من التقلبات وأبرزها: السياسة المالية والضريبية، السياسة النقدية والمصرفية، السياسة الخارجية (التصدير والاستيراد)، سياسة الأجور، وسياسة القطع.

ب - الدور الاجتماعي للدولة.

بعدما كان دور الدولة يقتصر على الأمن والدفاع عن أرضها، وتمويل بعض مشاريع البنى التحتية دون أن يكون لها أي أدوار أخرى، باتت اليوم الضامن الأساس لمختلف مفاصل الحياة، فهي التي توفر الخدمات التعليمية والصحية والرعاية لأبنائها، كما تعمل على تخفيف التفاوت الاجتماعي بين الطبقات، وتحاول أن تساوي بين جميع المواطنين في حصولهم على مختلف التقديمات الاجتماعية.

تهدف الدولة من خلال أدوارها الاجتماعية إلى الارتقاء بالإنسان إلى مستويات حياتية فضلى، فهي تؤمن التعليم للجميع على اعتبار أن التعليم هو بوابة التقدم والتطور. كما تقدم الرعاية الصحية لكافة أبنائها من طبابة وإستشفاء ورعاية المسنين وضمان الشيخوخة،... بالإضافة إلى ذلك، فهي تسعى إلى التخفيف من بؤس وعوز المحتاجين عن طريق منح تعويضات بطالة، تقديمات اجتماعية، بدلات سكن،...

كل هذا من شأنه أن يعزز حياة الفرد ويحقق التنمية الاجتماعية التي بدورها تسهم في استمرارية المجتمع وتطوره.

يمكن تعريف الدور الاجتماعي للدولة على أنه: «ما يجب أن تقوم به مؤسسات الدولة من تدخلات لحماية مواطنيها اقتصادياً واجتماعياً من خلال التدخل سياسياً وتشريعياً بوضع السياسات وسنّ التشريعات اللازمة لتنظيم قوى السوق وإصلاح الاختلالات الناجمة عن عملها لتحقيق العدالة الاجتماعية وضمان الاستقرار الاجتماعي، من خلال توفير شبكات الأمن الاجتماعي ضد المخاطر والأمراض الاجتماعية كالفقر والتهميش والفوارق الجوهرية وتوفير المواد الداعمة والخدمات العامة والحد من الآثار السلبية للعولمة». (راجحي، ٢٠١٦).

من خلال هذا التعريف، يمكن إستخلاص أدوار الدولة الاجتماعية بالتالي:

- تحقيق العدالة الاجتماعية عبر تخفيف التفاوت بين المواطنين.
- تأمين الرعاية الصحية لأبنائها.
- توفير الشبكات والمؤسسات الاجتماعية للحد من مظاهر الفقر والعوز.
- تأمين التعليم لجميع المواطنين وتنمية الرأس مال البشري.

ثانياً: مشكلات القطاع العام

يعاني القطاع العام اللبناني من مشكلات عديدة تجعله يتلاشى وينهار، وتتأثر به شرائح المجتمع كافة. ونظراً لأهميته في الحياة الإقتصادية والإجتماعية وعلى اعتباره ضماناً لإستمرارية المجتمع، لا بدّ من إلقاء نظرة على أبرز المشكلات التي يعاني منها هذا القطاع للوقوف عليها والتمحيص بها بغية إيجاد الحلول المناسبة لها منعاً لانتهياره.

- **تجاوز القوانين والأنظمة:** إن عدم احترام القانون والالتزام بتطبيقه يولّد الكثير من المخالفات الإدارية والمسلكية والتي بدورها تؤدي إلى إضعاف المصلحة العامة وتعزيز الفساد.

- **غياب الثقافة السياسية أو الوعي السياسي:** التي من شأنها معرفة مدى امتلاك الفرد الوعي الكافي لترشيد سلوكه واختياراته وقراراته السياسية.

- **غياب التشريعات اللازمة وغموض بعضها** يؤدي حتماً إلى استغلال البعض هذا الفراغ القانوني وتفسيره بما يتلاءم مع المصالح الخاصة، عندها تضحل المصلحة العامة لصالح المنافع والخدمات الخاصة.

- تخلف الوسائل والأساليب الإدارية:

المتمثّل في استعمال أنظمة وأساليب وأدوات تقليدية من شأنها أن تولّد البطء في الإجراءات والمعاملات التي أحياناً تمتد لأشهر عندها إما يعجز المواطن عن الحصول على خدمته المطلوبة أو يلجأ لأسلوب الرشوة.

- نقص كفاءة الموظفين: يمثّل

الموظف العمود الفقري بتشغيل المرافق العامة وتنفيذ سياسات الدولة، لذا من الضروري أن يتم اختياره وتعيينه بما يتلاءم مع مؤهلاته العلمية والعملية بغية تحقيق الإنتاجية المطلوبة. إن أي نقص في كفاءة الموظف يترد سلباً على سلوكه وأدائه الوظيفي الأمر الذي ينعكس سلباً على الإدارة. تعود أسباب نقص الكفاءة إلى عدة عوامل ومنها:

● سوء اختيار الموظفين الناتج عن التوظيفات العشوائية والمحسوبيات السياسية والأقارب...

● بيع الوظائف الشاغرة في القطاع العام

● غياب الإعداد والتدريب للموظفين

● النقص في المهارات والخبرات.

● الرفض من أصحاب المعارف والخبرات والكفاءات العالية للعمل

أعمال الصيانة والتأهيل، وعدم وجود
المواقف. رغم هذا الوضع المتردي،
إلا أن الخزينة تتكبد الكثير من
التكاليف لدفع بدلات إيجار هذه
المباني.

- **عدم القدرة على ضبط الفساد:** إن
الإفتقار بالحصول على المعلومات،
وعدم توفّر تقارير دورية التي تصف
الأعمال والأنشطة والإنجازات من
مختلف الإدارات العامة، كما أن فقدان
ثقة المواطن بأجهزة الدولة في
التحقيق بعمليات الفساد يجعله
ينصرف عن تقديم الشكاوى
والمطالبة بحقه. كل هذه الأمور تعدم
القدرة على ضبط الفساد ومنفذه.

- **إنعدام الابتكار والتجديد:** إن عدم
إنخراط عناصر بشرية كفوءة وجديرة
في القطاع العام نتيجة انخفاض
الرواتب والعائدات المالية، ومحدودية
التقنيات والتكنولوجيا المستخدمة،
وازدیاد حجم النفقات العامة والدين
العام، وضعف الاستثمارات التوسّعية،
والبيروقراطية وغيرها من الأسباب
لعدم الابتكار والتجديد في القطاع
العام.

- **تفشّي ظاهرة الفساد الإداري
وتغلغلها في أروقة الإدارات
العامة:** إنها ظاهرة استغلال الوظيفة

في القطاع العام نتيجة تدني
الرواتب

- **غياب الرقابة:** إن أجهزة الرقابة غير
فعّالة وهي غير قادرة على المساءلة
والمحاسبة وعلى ضبط المخالفات.
ويعود سبب ذلك إلى حجم التدخلات
السياسية والمحسوبيات والضغوطات
التي تتعرّض لها مختلف هذه
الأجهزة، الأمر الذي يسمح بتغطية
العديد من ملفات الفساد والمفسدين.
بالإضافة إلى ذلك، إن أغلبية الشكاوى
المقدّمة من المواطنين تلقى في أدراج
المعنيين ولا يبت إلا القليل منها.

- **البيروقراطية والروتين الممل:** إن
مركزية القرار تجعل من اتخاذ
القرارات أمراً معقداً ويحتاج إلى
الوقت، وهذا الأمر يفقد الخدمات
جودتها ويسمح للمواطن بدفع
الرشاوى بغية الحصول على مطلبه
بأسرع وقت.

- **ضعف البنى التحتية:** تعاني أغلبية
المباني الحكومية من افتقار في البنى
التيّنية، فالبعض منها مستأجر ولم
يكن أصلاً مخصصاً لاستعماله
كإدارة عامة بل بناءً سكنياً وغير
مجهّز بالتقنيات اللازمة التي من
شأنها تسيير شؤون الوظيفة، ناهيك
عن التقادم وسوء الحالة والنقص في

العامة ونفوذها لتحقيق مكاسب شخصية مادية أو معنوية بشكل يتعارض مع القوانين سواء تم ذلك بشكل فردي أو جماعي. يتميز الفساد الإداري بوصفه تعبيراً عن انتهاك الواجبات الوظيفية وممارسة خاطئة تُعلي من شأن المنفعة الشخصية على حساب المصلحة العام.

(حسين، ٢٠١٤، ص ١٢٨؛ وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية، ٢٠١١، صص ١٢-٢٥)

ثالثاً: سبل المعالجة

بعد ما تم الإضاءة على أبرز مشكلات القطاع العام وتكشف أسبابها، لا بد من تضافر الجهود من شرائح المجتمع كافة للنهوض به، بدءاً من مهام السلطات الرسمية في البلاد، مروراً بأخلاقيات المواطنين، ووصولاً إلى سلوك الموظفين.

إذاً، بادئ الأمر، تبدأ سبل المعالجة مع ممارسة السلطات الرسمية دورها في الإشراف والرقابة والتدخل وسن القوانين والتشريعات وغير ذلك. من ثم، العمل على نشر ثقافة الإدارة الرشيدة أو الحوكمة التي تصبو إلى بناء إدارة عامة سليمة سواء أكان ذلك بجهود الدولة أم بالشراكة مع القطاع الخاص.

فيما يلي لمحة عن أدوار السلطات

الرسمية في المراقبة ومكافحة الفساد، ودور الحوكمة والخصخصة في تعزيز قدرات القطاع العام وتطويره.

١ - دور السلطات الرسمية

تتمتع أغلبية السلطات الرسمية في لبنان بصلاحيات تخولها محاربة الفساد ومراقبة أعمال القطاع العام بدءاً من السلطة التشريعية والتنفيذية، مروراً بالسلطة القضائية وديوان المحاسبة، وصولاً إلى دور مجلس الخدمة المدنية والتفتيش المركزي.

أ - السلطة التشريعية

للسلطة التشريعية دور هام في مكافحة الفساد والمراقبة، فهي تمتلك موقعاً أساسياً في الحياة السياسية وصلاحيات تمنحها تمنحها حق المساءلة والمحاسبة. فهي السلطة التي تشرّع القوانين وتصادق عليها (قانون تبييض الأموال، مكافحة الفساد،...). كما لها الحق في الرقابة على تطبيق هذه القوانين ولها أن تحاسب السلطة التنفيذية عند سوء التطبيق عبر عدة وسائل، منها الأسئلة والاستجابات والتحقيق البرلماني. (جبارة، ٢٠٠٨، صص ٣-٦)

ب - السلطة التنفيذية

نصت المادة ٦٥ من الدستور اللبناني على مهام السلطة الإجرائية أو التنفيذية وأبرز ما جاء فيها:

«السهر على تنفيذ القوانين والأنظمة والإشراف على أعمال كل أجهزة الدولة من إدارات ومؤسسات مدنية وعسكرية وأمنية بلا استثناء».

كما تم التأكيد على مهام السلطة التنفيذية في اتفاق الطائف (١٩٨٩)، ومن الصلاحيات التي يمارسها:

– «وضع السياسة العامة للدولة في جميع المجالات ووضع مشاريع القوانين والمراسيم، واتخاذ القرارات اللازمة لتطبيقها.

– السهر على تنفيذ القوانين والأنظمة والإشراف على أعمال كل أجهزة الدولة من إدارات ومؤسسات مدنية وعسكرية وأمنية بلا استثناء.

– تعيين موظفي الدولة وصرفهم وقبول استقالتهم وفق القانون».

ج – السلطة القضائية

تعتبر السلطة القضائية تلك السلطة التي يلجأ إليها صاحب الحق للحصول على ما هو له وقد سلب منه. لذا، فهي قادرة على حماية حقوق المواطنين من خلال رقابتها على أداء القطاع العام، وذلك عبر:

– **القضاء العدلي:** يلاحق هذا القضاء مرتكبي جرائم الفساد بمن فيهم موظفي القطاع العام مثل الرشوة، تبويض الأموال، الكسب غير

المشروع، إساءة استعمال الوظيفة والوساطة والمحسوبية.

– **القضاء الإداري:** يعتبر هذا القضاء الضامن للحقوق الأساسية والحريات العامة من خلال رقابة الأجهزة الإدارية للدولة وذلك بناءً على الطعون المقدمة من أصحاب الشأن والتي تطال إساءة استعمال السلطة، قرارات اعتباطية، عدم احترام الوظيفة العامة،... من شأن القضاء الإداري أن يساهم في الإصلاح الإداري وضمان الحريات العامة وحقوق المواطنين.

– **القضاء الدستوري:** الذي يقضي إلى حماية الشرعية الدستورية في الدولة، من شأنه إبطال النصوص التشريعية المخالفة لقواعد الدستور، بطلان التشريعات المخلة بالحقوق والمبادئ الدستورية العامة. (الجهمي، ٢٠١٢).

– **ديوان المحاسبة:** إنه محكمة إدارية تتولى القضاء المالي، مهمتها السهر على الأموال العمومية والأموال المودعة في الخزينة وذلك:

◀ بمراقبة استعمال هذه الأموال ومدى انطباق هذا الاستعمال على القوانين والأنظمة المرعية الاجراء.

◀ بالفصل في صحة وقانونية معاملاتها وحساباتها.

◀ بمحاكمة المسؤولين عن مخالفة القوانين والأنظمة المتعلقة بها. وتخضع لرقابة ديوان المحاسبة:

- إدارات الدولة.

- المؤسسات العامة التابعة للدولة والبلديات الخاضعة لرقابة ديوان المحاسبة.

- هيئات الرقابة التي تمثل الدولة في المؤسسات التي تشرف عليها أو في المؤسسات التي تضمن لها الدولة حداً أدنى من الأرباح.

- المؤسسات والجمعيات وسائر الهيئات والشركات التي للدولة أو للبلديات أو للمؤسسات العامة التابعة للدولة أو للبلديات علاقة مالية بها عن طريق المساهمة أو المساعدة أو التسليف. (ديوان المحاسبة، ١٩٨٣)

د - مجلس الخدمة المدنية:

أنيط بالمجلس تعيين الموظفين وإجراء المباريات التي تؤهل لاختيارهم على أساس الجدارة والاستحقاق، ترقية وترفيعهم وتعويضاتهم، ونقلهم، تأديبهم وصرفهم من الخدمة، تدريبهم أثناء الخدمة، وسائر شؤونهم الذاتية.

كما أنيطت بالمجلس مهام تتعلق بتنظيم الإدارات العامة والمؤسسات العامة والبلديات وتحديد ملاكاتها بما في ذلك من

إعطاء المبادرة له في تقديم الاقتراحات المتعلقة بهذه المواضيع مباشرة إلى مجلس الوزراء.

هـ - التفتيش المركزي:

يعنى التفتيش المركزي بإجراء الرقابة الدورية والتفتيش الشامل على مختلف الدوائر التابعة لمختلف الإدارات والمؤسسات العامة التي تعنى بتقديم الخدمات المختلفة للمواطنين. فهي من شأنها:

- **تفعيل العمل الإداري:** توجيه الإدارة لوضع مؤشرات تنظيمية لمختلف مجالات العمل التي تتولاها، تبين بوضوح مدى اطلاع الإدارة بالمهام المنوطة بها، بهدف تحديد مكان الخل لمعالجتها، ورفع مستوى الأداء الإداري، لا سيما في مجال خدمة المواطن وإنجاز المعاملات ضمن المهل المحددة لها.

- **حسن الإدارة المالية:** لجهة تحقق الضرائب والرسوم وتعزيز جبايتها، ومراقبة استعمال الموارد العامة وحسن تنفيذ الصفقات، وإجراء الجردات الدورية ومسك محاسبة المواد، منعاً للهدر في المال العام ولتحسين وضع الخزينة.

- **تفعيل الرقابة الداخلية الذاتية:**

- التحقق من تنفيذ بعض المعاملات بالسرعة المرجوة، وعدم التأخير في إنجازها، وعدم اقتران تنفيذها بتحقيق منفعة شخصية.
- حث الإدارات على وضع دليل بالمعاملات المتعلقة بالمواطنين وكيفية إنجازها.

● وضع الإدارات:

- مدى الحرص على ممتلكات الإدارة.
- الأبنية المستعملة ومدى استيفائها لظروف العمل المناسبة.
- مدى توفر التجهيزات والمعدات اللازمة.
- مدى تطبيق أعمال المكننة في الإدارات العامة. (التفتيش المركزي، ٢٠١٤، صص ٢-٥)

٢ - الخصخصة

أ - التعريف

عرّف مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الأونكتاد) أن الخصخصة «هي جزء من عملية الإصلاحات الهيكلية للقطاع العام في البنيان الاقتصادي، وتتضمن إعادة تحديد دور الدولة والتخلي عن الأنشطة التي يمكن للقطاع الخاص القيام بها، مستهدفة بوجه عام رفع الكفاءة الاقتصادية» (في اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ١٩٩٩، ص ٥).

التأكد من تمرّس الرؤساء التسلسليين بالمهام الموكولة إليهم، وضبط العمل في الوحدات التابعة لهم، وحسن استعمال الأجهزة وبرامج العمل، وإعطاء القدوة في التقيد بالقوانين والأنظمة.

- إدارة الأفراد وتنمية الموارد

البشرية: لبيان وضع العاملين والموظفين ودرجة تقيدهم بالأنظمة والقوانين ومدى كفاءتهم وأدائهم الوظيفي. كما يعنى التفتيش المركزي بمراقبة أوضاع العاملين في الإدارات الرسمية والتأكد من تطبيق القوانين والأنظمة، منها:

● متابعة شؤون الموظفين:

- مدى الالتزام الموظفين بدوام العمل الرسمي
- مدى قيامهم بمهامهم الأساسية.
- متابعة أعمال المتعاقدين والأجراء للمهام المسندة إليهم.
- مدى تطبيق الرقابة التسلسلية لرؤساء الوحدات.

● كيفية إنجاز المعاملات:

- التثبت من التقيد بالمهل المحددة لإنجاز المعاملات.
- تراكم المعاملات في مختلف الوحدات الإدارية وتدبير الإدارة المتخذة للحؤول دون حصوله.

- وعرفها محمد فرحات (٢٠٠٢، ص ٣) على أنها تقليص إنغماس الدولة في النشاط الاقتصادي وإعادة الترتيب بين دورها ودور القطاع الخاص من خلال نقل ملكية و/أو إدارة أصول منشآت القطاع العام أو بعضها إلى القطاع الخاص.

٣ - حوكمة القطاع العام

أ - التعريف

تشتمل حوكمة القطاع العام على السياسات والإجراءات المستخدمة لتوجيه أنشطة المنظمة الحكومية والتأكد من تحقيق أهدافها، وإنجاز العمليات بأسلوب أخلاقي ومسؤول. وتقيم الحوكمة في القطاع العام، بمدى إنجاز وتحقيق الأهداف المرجوة، من خلال القيام بالأنشطة التي تضمن مصداقية الحكومة، والعدالة في توفير الخدمات، وضمان السلوك المناسب والأخلاقي للمسؤولين الحكوميين وذلك للحد من مخاطر الفساد المالي والإداري. (الداود، وآخرون، ٢٠١٤، ص ٦)

تعرف الحوكمة في القطاع العام: «بأنها مجموعة التشريعات والسياسات والهياكل التنظيمية والإجراءات والضوابط التي تؤثر وتشكل الطريقة التي تُوجه وتُدار فيها الدائرة الحكومية لتحقيق أهدافها بأسلوب مهني وأخلاقي بكل نزاهة وشفافية وفق آليات للمتابعة والتقييم ونظام صارم للمساءلة لضمان كفاءة وفعالية الأداء من

من خلال ما سبق، يمكن تعريف عملية الخصخصة بأنها منح القطاع الخاص دوراً متزايداً في الحياة الاقتصادية، من خلال توسيع قاعدة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتقليص دور الدولة في الشؤون الاقتصادية، إفساحاً لها لأن تولي إهتماماتها في تأمين الأمن والرعاية.

ب - الأهمية

بسبب العجز المتزايد في الميزانية العامة وزيادة المديونية العامة وانخفاض مقدار الإنتاجية والجودة في مختلف النشاطات التي يقدمها القطاع العام، بالإضافة إلى الترهل والهدر والفساد وضعف أجهزة المحاسبة الذي يعاني منها هذا القطاع، ازداد التوجّه نحو الخصخصة التي تدأب إلى حل مشكلات كثيرة منها:

- التخلص من البيروقراطية والروتين الإداري.
- تخفيض الأعباء والنفقات المالية عن كاهل الدولة.
- استخدام أساليب الإدارة الحديثة.

- جانب، وتوفير الخدمات الحكومية بعدالة من جانب آخر». (وزارة تطوير القطاع العام، ٢٠١٤، ص ١-٢)
- ب - الأهمية**
- تزداد ضرورة الإدارة الرشيدة في ظل انتشار الفوضى والفساد ومخالفة الأنظمة والقوانين وفقدان الشرعية وغياب الرقابة وتقصُّص الدولة عن أداء واجباتها وغيرها من المشكلات التي أردت القطاع العام دون المستوى المطلوب.
- يمكن اختصار أهمية الحوكمة في القطاع العام بالتالي:
- رفع الكفاءة في المؤسسات الحكومية.
 - تعزيز مستوى الأداء الوظيفي.
 - تعزيز الثقة بين المواطن ومؤسسات الدولة.
 - تحقيق الشفافية والمساواة في التعامل مع المواطنين.
 - تقليص حجم الفساد الناتج عن سوء الإدارة العامة.
 - تعزيز مبدأ المساءلة والمحاسبة.
 - زيادة المعلومات والخبرات.
- ج - المعايير**
- احترام القانون: يجب إحترام القوانين والأنظمة والتشريعات والعمل بموجبها وجعلها «دستوراً مقدساً» ينضوي تحته الجميع.
- الرؤية الاستراتيجية: إمتلاك الرؤى والخطط الواضحة لما ينبغي تحقيقه وكيفية تحقيقه.**
- الشفافية والنزاهة: وضوح قواعد العمل، الموضوعية، الصدق، الأمانة.**
- العدل في المشاركة: توفير الفرص للجميع وتحقيق المساواة بين كافة المواطنين دون تفضيل شريحة على أخرى في وظائف القطاع العام.**
- الكفاءة: الاستخدام الأمثل للعناصر البشرية الكفوءة والجديرة، الإستعانة بالخبرات الضرورية.**
- الإستمرارية والاستدامة: الاستغلال الأمثل للموارد وتلبية حاجات وحقوق المستفيدين مع ضمانتها للأجيال اللاحقة.**
- التكافؤ والعدالة: حق الجميع في الحصول على الخدمات بطريقة عادلة بغض النظر عن الحالة الاجتماعية، العرق، الدين،... وذلك بغية مكافحة اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية.**
- مواكبة التطور: مواكبة التطورات وحسن استغلالها لتحسين قدرات القطاع العام، كما وتحسين التنمية البشرية والاقتصادية.**
- المساءلة والمحاسبة: كل شخص يخل بالمبادئ والقوانين ويخالف**

الأنظمة والقوانين عليه أن يخضع لمبدأ المساءلة والمحاسبة وذلك لضمان سير العمل وفقاً للأنظمة والقوانين.

- **الإشراف على النتائج:** تراقب الحوكمة مراحل التنفيذ بغية تصحيح الخلل في حال حدوثه.

(الداود وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٠؛ Conseil Economiques social et environnemental, 2014, p.p. 17-25)

د - المبادئ.

حدد معهد المدققين الداخليين الأمريكي «The Institute of Internal Auditors» في إرشاداته المهنية الصادرة عنه تحت عنوان «دور التدقيق في حوكمة القطاع العام» المبادئ الأساسية لحوكمة القطاع العام بالآتي: (النجداوي، ٢٠١٣)

- تحديد الاتجاه Setting Direction

ترسم الحوكمة الجيدة السياسات والخطط الاستراتيجية المناسبة لتحسين أداء وتوجيه أنشطة القطاع العام، وهذه السياسات العامة تحددها الدولة وفقاً للأنظمة والقوانين والتشريعات السائدة. ومن أجل تنفيذ هذه السياسات والاستراتيجيات الحكومية، لا بد من تهيئة كادر بشري كفؤ ونزيه يعنى بالرقابة الداخلية بموضوعية ومصداقية، كما وتخصيص الموارد المالية اللازمة لتنفيذ المهام المطلوبة.

إن مبدأ تحديد الاتجاه يعني في النهاية «سيادة القانون»، وبوضع الإدارة العامة ضمن إطار احترام الأنظمة والقوانين المرعية الإجراء.

- غرس الأخلاقيات Instilling Ethics

لضمان نجاح أي مهمة، يجب العمل وفقاً للقيم والمبادئ الأخلاقية (النزاهة، الصدق، الثبات،

الموضوعية، الكفاءة، الخلق الحسن،...). تضمن الحوكمة الجيدة هذه المبادئ والقيم الأخلاقية، كما تضمن في الوقت نفسه الأهداف والاستراتيجيات المحددة من قبل الدولة.

ولتعزيز أخلاقيات الحوكمة، لا بد من التقيد بمبدأ المساءلة والمحاسبة وذلك لتحفيز السلوك الرشيد ولتحمل المسؤوليات والقيام بالمهام بأفضل السبل.

- الإشراف على النتائج Overseeing Results

من متطلبات نجاح الحوكمة في القطاع العام، لا بد من القيام بالإشراف المستمر للتأكد من تنفيذ السياسات والأهداف والخطط الموضوعية، وإن الأداء العام للحكومة قد لبى التوقعات والاحتياجات ضمن إطار القوانين والتشريعات والسياسات العامة حيز التنفيذ.

- تقارير المساءلة Accountability Reporting

يتطلب حسن تنفيذ الحوكمة الجيدة في

القطاع العام رفع تقارير دورية تتصف بالصدق والموضوعية والدقة والنزاهة حول الأداء الوظيفي والأنشطة والمنجزات والمخالفات وغيرها إلى الحكومة.

تتضمن هذه التقارير المهام، الموارد المتاحة، الإنجازات، المخالفات، الشكاوى، والاقتراحات اللازمة لتحقيق وإنجاز الأهداف المطلوبة.

ومن جهة أخرى، يجب تطبيق مبدأ المساءلة وفرض العقوبات بحق أي شخص استغل سلطاته وأساء استخدام الموارد لغير الغرض المنشود.

- تصحيح المسار correcting Course

عند بروز مشكلات مسلكية أو عيوب في الأداء الوظيفي وإجراءات العمل، أو الكشف عن مخالفات مالية أو إدارية، يتعين على المراقبين والمدققين الداخليين أن يحددوا أسباب الخلل الحاصل ومسببيه وأن يطرحوا الملاحظات والإجراءات التصحيحية التي تساعد القيمين على الإدارة العامة في اتخاذ القرارات المناسبة، كما وإجراء متابعة دقيقة للتنفيذ بغية تصحيح الخلل الحاصل ومكافحة الهدر والفساد.

رابعاً: واقع الإدارة العامة في لبنان

اقتصر القطاع العام اللبناني في ستينيات القرن الماضي، على الإدارات

الحكومية إلى جانب عددٍ قليلٍ من المرافق العامة. بعد ذلك توسّع هذا القطاع ليشمل عدداً من المؤسسات المصرفية (بنك إنترا، مصرف الإنماء الصناعي والسياحي ومصرف الإسكان) بالإضافة إلى مصفاتي طرابلس والزهراني. ورغم هذا التوسّع إلا أن هذا القطاع بقي متواضعاً جداً حيث شكّل ١٥٪ فقط من الناتج المحلي الإجمالي. (عيسى، ٢٠٠٢، ص ١٤-١٥)

حافظ القطاع العام على أدائه الجيد ولم يعانٍ من أي عجزٍ يذكر، بل على العكس، البعض من تلك المرافق الحكومية حقق أرباحاً لمصلحة الخزينة (الريجي). بقي هذا الحال إلى حين اندلاع الحرب التي ما لبثت أن هدمت كل عمليات بناء المجتمع والاقتصاد.

بعد ذلك الحين، بدأ القطاع اللبناني بالتلاشي والانهيار نازفاً من جروح عديدة منقلباً على كل ما حقق، فانقلبت أرباحه إلى خسائر وفائض الموازنة إلى عجز كبير والرقابة إلى فوضى، إلخ...

يعود ضعف القطاع العام اللبناني إلى أسباب عدة أبرزها:

- الدمار الذي تعرّض له لبنان وتحديدًا بنيته التحتية نتيجة الحرب الأهلية التي عصفت به.
- هشاشة بنية الدولة المبنية أصلاً

- على نظام طائفي وزعامات موروثة جيلاً بعد جيل.
- التدخلات السياسية المتزايدة في عملية التوظيف وما ينتج عنها فائض في العمالة وضعف في المهارات والخبرات، وتعيين أشخاص غير أكفاء في مراكز قيادية، وتوكيل مهام ومسؤوليات إلى أشخاص دون الكفاءة المطلوبة، وعدم وجود تدريب متواصل لموظفي القطاع العام، كل هذا من شأنه أن يؤدي إلى انخفاض الإنتاجية.
- تفشي ظاهرة الفساد على نطاق واسع بسبب ضعف أجهزة الرقابة في الدولة.
- ازدياد التدخل السياسي في الشؤون القضائية، الأمر الذي يعرقل ثقافة المساءلة والمحاسبة وضبط المخالفات ومكامن الفساد.
- ضعف في نظام الحوكمة والإدارة السليمة.
- تفشي البيروقراطية نتيجة المركزية الإدارية وانحسار اتخاذ القرارات بجهة محددة دون سواها وهذا الأمر يتطلب الكثير من الوقت ويقلل الإنتاجية.
- افتقار الإدارات ومؤسسات القطاع العام إلى نظم إدارية متطورة وعصرية وإجراءات واضحة.
- افتقار بعض الإدارات العامة إلى هيكلية إدارية ذات مهام ومسؤوليات واضحة، وفي بعض الأحيان تضارب وازدواجية في الصلاحيات فيما بينها.
- عدم توصيف الوظائف في الوزارات والإدارات العامة وشبه غياب لتوصيف عمل الموظفين في الوحدات.
- عدم مواكبة التقدم التكنولوجي والمكننة الإدارية إلا في نطاق محصور وضيق.
- بنية تحتية ليست بالمستوى المطلوب في مختلف المرافق والمؤسسات العامة.
- عدد كبير من الموظفين يعلن ولاءه لقيادات ومرجعيات سياسية بدل من ولاءه للمصلحة العامة، كما يسخر مهامه الوظيفية بغية تبادل المنافع والخدمات.
- عدم وجود رواتب بالمستوى الذي يشجع الأشخاص ذوي الكفاءات العالية على الانخراط في الإدارة العامة.

- الفقر الناتج عن زيادة الأعباء وغلاء المعيشة مقابل محدودية الدخل والراتب، هذا الأمر يسمح بتقبّل الرشاوى والهديات.

- عدم وجود نظام جدي للأبحاث والدراسات للتطوير في مختلف الإدارات العامة.

(عيسى، ٢٠٠٢؛ الحكيم، ٢٠٠٤، ص ١٢٠؛ وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية، ٢٠١١، صص ١٤-٢٣؛ الزين، ٢٠١٤)

أراد لبنان في السنوات الأخيرة من القرن العشرين أن يتماسك من جديد بعدما نهشت الحرب المدمّرة على مدار ١٥ سنة كيانه ومزّقت أضلاعه، وحاول أن يقضي على تداعياتها المتمثلة بثقافة الفوضى والفساد الذي تغلغل في عمق الإدارات والمؤسسات العامة اللبنانية. فقد خطّ اتفاق الطائف (سنة ١٩٨٩) معالم الدولة الحديثة ووحد الجهود في سبيل إعادة إعمار ما تهدّم من بنى تحتية ومرافق ومنشآت اقتصادية بهدف تنشيط الوضع الاقتصادي والنهوض به. كما رآه المعنيون مشروعاً إصلاحياً يعيد إلى هذا البلد، من جهة، الثقافة السياسية المبنية على الأنظمة والقوانين، ومن جهة أخرى، الانصهار والعيش المشترك لأبناء الوطن الواحد بعدما عانى التشردم والانقسام.

ولكن جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، إذ ازداد حجم الفساد الإداري نتيجة سلوك السياسيين الذين ضربوا بعرض الحائط مبادئ الدستور واتفاق الطائف، وسعوا جاهدين لاستمرار نفوذهم وتمدّد مصالحهم الاقتصادية والمالية، ولو كان ذلك على حساب الوطن.

فما كان على لبنان إلا أن ينظر إلى الخصخصة على أنها الترياق القادر على اقتلاع السموم المتمثلة في تخفيف الأعباء المالية والمديونية العامة الناتجة عن إعادة إعمار ما هدمته الحروب المتلاحقة على أرضه، كما وحالات الهدر والفساد المتزايدة في الإدارات العامة ما يلحق الخسائر المالية الكبيرة في بعض المؤسسات العامة.

وصلت تجربة الخصخصة إلى لبنان بعد أن أصاب مؤسسات القطاع العام فيه مرض البيروقراطية والترهل والتقاعد، وأخذت هذه المسألة على محمل الجدّ في لبنان سنة ١٩٩٢م عندما أنشأت الحكومة اللبنانية لجنة هدفت إلى وضع «تصور عام الخطة عمل اقتصادية مالية لمعالجة الضغوطات التي يتعرّض لها الاقتصاد الوطني». وقد تضمن تقرير هذه اللجنة ضرورة تخصيص بعض الأنشطة الاقتصادية المتعثرة والتي يصعب إصلاح إدارتها وإعادة هيكلتها. (عيسى، ٢٠٠٢، ص ١٠)

بعد ذلك، أصدر البنك الدولي تقريره الخاص عن الحالة اللبنانية «كيف يستطيع لبنان المنافسة في الاقتصاد العالمي» حيث أظهر من خلاله كثافة الأعباء والنفقات الملقاة على الدولة وتدهور الأداء الاقتصادي في مختلف المرافق العامة وضعف الأداء والتخطيط السياسي تجاه هذا الواقع، طارحاً حل الخصخصة التي تسمح للدولة بأن تخفف من أعبائها المالية وتنصرف للاهتمام بأمور أخرى، وتفسح المجال أمام القطاع الخاص لتوسيع استثماراته وحسن الإدارة. (م.ن، ص ١٦)

نتيجة التجاذبات السياسية، بقيت مشاريع الخصخصة في لبنان محدودة جداً ولم تشهد السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين إلا على حالات معدودة. وسرعان ما تحولت الوعود والآمال إلى أشباح جديدة ترعب المواطن اللبناني الذي بات يزرع تحت مصائب اقتصادية ومالية واجتماعية وسياسية شتى تجبره إما أن يخضع لسلطة الاستزلام والمحسوبيات، أو الهجرة إلى خارج حدود الوطن.

بلغ الفساد الإداري ذروته في الإدارات والمؤسسات العامة كافة، وتجلّت صورته في انتفاخ هيكلية الإدارات العامة بالتوظيف العشوائي البعيد كل البعد عن الجدارة والكفاءة والعدد المطلوب. فغدت هذه الإدارات تعاني من تخمة العمالة ذات

الإنتاجية المعدومة (البطالة المقنّعة)، والتي باتت تكبدّ خزينة الدولة نفقات إضافية بغية تسديد الرواتب. لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ازداد الأمر تعقيداً في الفترة الممتدة ما بين العامين ٢٠٠٢م و٢٠١٠م، نتيجة الصعوبات الاقتصادية والأزمات السياسية والأمنية التي أدت دوراً سلبياً في الاقتصاد برمته الذي شهد تراجعاً كبيراً في معدلات النمو الاقتصادي وزيادة العجز المالي (اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري سنة ٢٠٠٥م، حرب تموز الإسرائيلية سنة ٢٠٠٦م والتي كبّدت الاقتصاد اللبناني كما بُناه التحتية خسارة فادحة) (الجمعية الاقتصادية اللبنانية، ٢٠١٠، ص ٣٠)

وفي عام ٢٠١٣م صدرت مسودة قانون تحت عنوان «الشراكة بين القطاعين العام والخاص في لبنان»، ويُقصد بالشراكة بأنها عقود طويلة الأجل ما بين القطاع العام والقطاع الخاص، تتضمن أهدافاً شتى كإنشاء وتطوير البنى التحتية والمرافق العامة، تقديم السلع والخدمات بجودة عالية،... هذه الشراكة - وفقاً لهذه المسودة - عبارة عن تقاسم المخاطر بين القطاعين العام والخاص، وهذا الأمر يخلق فوارق طفيفة ما بين مفهوم «الشراكة» ومفهوم «الخصخصة» التي تعبّر عن نقل جميع المخاطر من القطاع العام إلى القطاع الخاص عن طريق البيع الكلي أو الجزئي

وتكتفي الدولة بدور الرقابة. (المجلس الأعلى للخصخصة، ٢٠١٣، ص ٢٩-٣٠)

تتجلى معاني هذه الشراكة خلال إلقاء نظرة على الخطة التي وضعتها الحكومة اللبنانية بين عامي ٢٠١٢م و ٢٠١٥م حيث يمكن قراءة من ضمن المقومات التي ذكرتها، دعم القطاع الخاص في التنمية دون ذكر بشكل مباشر عملية الخصخصة، إنما اقتضت الخطة على التركيز على أهمية «تحديث التشريعات والأنظمة التي تؤدي إلى تفعيل وتشجيع واستقطاب الاستثمار من القطاع الخاص». (خطة العمل للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، ٢٠١٢، ص ٩) ولكن لو لم تذكر «الخصخصة» إلا أن تفاصيل الخطة تتضمن كل الخطوات والإجراءات التي فرضها كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والآلية إلى تحويل المنشآت الحكومية التي تعاني من عجز مالي إلى القطاع الخاص، كما وفتح الأسواق الداخلية للمنتجات الخارجية من خلال السعي للانضمام إلى منظمة التجارة الخارجية.

كذلك الأمر، عند طرح مشروع إعادة تأهيل البنية التحتية اللبنانية، حاولت أن تظهر الحكومة دور القطاع الخاص في إعادة نسجها وذلك عبر التحجج بالعجز المالي العام المتراكم والذي أدى إلى تقليص قدرة الحكومة على تمويل برامج

البنية التحتية اللازمة ودعم النمو الاقتصادي، على اعتبار أن الإيرادات الضريبية لا تكفي لتغطية النفقات الضرورية وخدمة الدين العام. لذا تعجز الخزينة عن تمويل إعادة تأهيل البنى التحتية التي هي حاجة ملحة لجذب الاستثمارات وتحقيق النمو، فتلجأ إلى دعم القطاع الخاص والتلطي خلفه لتأهيل البنى وتعزيز الاستثمار. وبناءً عليه، «ثمة حاجة ملحة للإسراع في تمرير قانون الشراكة بين القطاعين العام والخاص» (خطة العمل للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، ٢٠١٢، ص ١٠)

وكما ذكر سلفاً، أنه من أبرز أهداف الخصخصة هو تخفيض أعباء الدولة وتخفيض الدين العام، ولكن ما يشهده لبنان اليوم من تزايد في نسبة المديونية يفتح الباب على مصرعيه أمام كمّ من الأسئلة، مع التأكيد أنه تم تبني برنامج الخصخصة في التسعينات وخصخصة قطاعات متعددة. إلا أن حجم الدين العام يتزايد بشكل مطرد ويشكل إستنزافاً مستمراً لموارد الدولة، إذ تشكّل خدمة الدين العام العبء الأكبر على الموازنة العامة حيث تبلغ نسبتها ٤٠٪ من إيرادات الضرائب وثلاث إجمالي العائدات، الأمر الذي يحدّ من قدرة المالية العامة على تخصيص الاعتمادات اللازمة للإنفاق على

الاستثمارات الضرورية لإعادة تأهيل البنى التحتية المهتلكة. (إتحاد المصارف العربية، ٢٠١٥، ص ٧)

بموازاة برامج التصحيح الهيكلي التي نادت بها الحكومات المتعاقبة، نمت لدى المعنيين فكرة تعزيز الحكم الجيد في الإدارات والمؤسسات العامة، وبدأت تتوالى الخطط ورسم السياسات ووضع الأهداف. ففي العام ٢٠١١م أعدت وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية دراسة تضمنت أبرز المشكلات التي يعاني منها القطاع العام اللبناني، ووضعت كماً من الاقتراحات بغية تحسين الوضع القائم. إلا أن أي منها لم يطبق بل بقيت حبراً على ورق، لا بل ازداد الأمر سوءاً وتردّت حالة الإدارات العامة التي باتت تعاني انعدام الإنتاجية والجودة، وتعزيز المصالح الخاصة والمحسوبيات، وسيطرة ثقافة الزبائنية والاستزلام، وتخلف الخدمات وبطئها،... كل هذا، دفع مجدداً بالوزارة نفسها في العام ٢٠١١م أن تعيد طرح استراتيجيات تنمية وتطوير الإدارة العامة في لبنان، إذ وضعت برامج لدعم الحوكمة إيماناً منها بضرورة النهوض بالقطاع العام، بدءاً باستحداث قوانين وتشريعات من شأنها تعزيز الرقابة ومكافحة الفساد (قانون الإثراء غير المشروع، قانون الصفقات العمومية، قانون تضارب المصالح، قانون حماية كاشفي

الفساد،...) مروراً ببناء قدرات الإدارة العامة التي تعاني من تقادم في هياكلها التنظيمية وتوصيف المهام والوظائف فيها، وذلك من خلال مراجعة أدوار هيئات الرقابة وعادة الهيكلية في الإدارات العامة عبر تعيين العناصر البشرية اللازمة والكفوءة لتولي مهام الرقابة، وتعزيز الشراكة مع القطاع الخاص والمجتمع المدني بغية الحصول على عناصر كفوءة ومتخصصة تغني القطاع العام بخبراتها، أو إسناد بعض الخدمات إلى القطاع الخاص التي تتطلب مرونة عالية وكفاءات بشرية وتقنيات متطورة. وصولاً إلى إعداد وتطوير الموارد البشرية، كونها المسؤولة عن تنفيذ الإصلاحات ودعمها ومواكبتها عن طريق تحديث نظام الموظفين، تفعيل دور مجلس الخدمة المدنية، تحديث آلية للتعيين في الفئات العليا مبنية على الكفاءة والجدارة، إخضاع الموظفين للتدريب المستمر، إعادة النظر في الرواتب، تحديد الحاجة الحقيقية للمكادر البشري، وتوصيف الوظائف لحسن اختيار الأشخاص المناسبين...

بالإضافة إلى ذلك، عرض التقرير برامج لتحسين كفاءة الخدمات المقدمة من القطاع العام وتعزيز ثقة المواطن بها من خلال تفعيل دور البلديات والوحدات المحلية وإعطائها أدوار أكبر في إنجاز المعاملات، كما إنشاء نظام عصري لتلقي ومعالجة

الشكاوى، وتفعيل استخدام تقنيات معلوماتية متطورة تمهيداً للوصول إلى الحكومة الإلكترونية.

رغم أهمية هذه البرامج وفعاليتها في تحسين أداء القطاع العام، إلا أن أغلبيتها لم يتحقق، والجزء البسيط منها نفذ بشكل محدود ببعض الإدارات العامة. أما أبرز أسباب عدم تحقيق هذه البرامج فيمكن إيجازها بالآتي:

- عدم وجود دعم سياسي كافٍ لحل المشكلات المتراكمة للقطاع العام.
- فقدان الثقة بالقطاع العام وبتطوير خدماته بغية الترويج لعملية الخصخصة.
- تعاظم دور المحسوبيات السياسية في آليات التوظيف والتعيين.
- عدم التقيد والتشدد في تطبيق القوانين حيث كبرت الهوة بين القانون والتطبيق.
- عدم إقرار سلسلة الرتب والرواتب هذا الأمر من شأنه أن يبقي الموظف على تقبل الرشاوى نتيجة تدني الرواتب.

خامساً: الإقتراحات

أظهرت التجارب الإصلاحية للقطاع العام أنها لم تكن بالمستوى المطلوب ولم تحقق الأهداف المرجوة منها، نظراً

للتدخلات السياسية المتزايدة ولغياب الثقافة والوعي السياسي، وعدم توفر الحماسة الكافية لدى الحكومات المتعاقبة على بناء قطاع عام قادر على المنافسة وتقديم أجود الخدمات للمواطن وضمن حقوقه.

ومن الواضح أن الدراسات العديدة التي أجريت حول تحسين القطاع العام بقيت حبراً على ورق، كون المواطن اللبناني لم يلتزم أي تحسين في مؤسسات الدولة، لا بل على العكس، ازداد الوضع سوءاً، وخير دليل على ذلك، ازدياد أرقام الدين العام الناتج عن تفاقم حجم النفقات الناجمة عن ازدياد رواتب الموظفين، الهدر والفساد،... وانخفاض الإيرادات الناجمة عن انعدام الرقابة، وضعف السياسات الضريبية، فقدان المحاسبة والمساءلة للمخيلين...

إذاً، يمكن القول إن القطاع العام لا يمكن له أن ينهض من كبوته وأعبائه الثقيلة لوحده دون أن يكون له شريك، هذا الشريك هو القطاع الخاص والمجتمع المدني.

فيما يلي مجموعة من السياسات والإجراءات التي يمكن أن تكون حلاً لمشكلات القطاع العام وتساهم في عملية الإصلاح الإداري:

- إنشاء لجنة مشتركة من بعض موظفي الإدارة العامة من ذوي الكفاءة والاختصاص ومن أفراد

المجتمع المدني: مهمتها ممارسة

أعمال التدقيق الداخلي دون سواها من خلال جمع البيانات والمعلومات من كافة أقسام الإدارة والتحقق من صدقيتها، كما لها أن تتلقى تقارير دورية صادرة عن رئيس القسم أو الدائرة تتضمن مختلف المعطيات المطلوبة، من مثل: مهام الموظفين، إنجازاتهم، سلوكهم الإداري، حجم العمل المنتج، صعوبات العمل...

بالإضافة إلى ذلك، تقوم اللجنة بإجراء إستبيانات توزّع على طالبي الخدمات (المواطنين) تبين مدى القبول والرضى، الشكاوى، الاعتراضات، المدة الزمنية...

بعد جمع مختلف المعطيات، تقوم اللجنة بإعداد تقرير شهري يتصف بالموضوعية والشفافية ترفعه مباشرة إلى الوزير، ويتضمن التوصيف الدقيق للأقسام كافة، الإنجازات، شكاوى الموظفين والمواطنين، بالإضافة إلى المشكلات التي تعترض العمل مع وضع الاقتراحات اللازمة لحلها.

● تعزيز قدرات موظفي الرقابة المالية

والإدارية وكذلك القائمين على أعمال التدقيق الداخلي لإتمام مهامهم بصدق وموضوعية وبإجراء الرقابة بفعالية واقتراح الحلول المناسبة لمعالجة الخلل.

● اعتماد اللامركزية الإدارية: التي تقوم

على نقل صلاحيات ومهام إدارية من الإدارة المركزية إلى وحدات محلية تتمتع بالاستقلال المالي والإداري أي البلديات. تنتخب المجالس البلدية مباشرة من الشعب، يسمح هذا الأمر من جهة، في محاسبة المخلين والفاستدين، ومن جهة أخرى، التخفيف من البيروقراطية الإدارية الناجمة عن وحدة القرار.

تعقيباً على ما سبق، لم ينسَ اتفاق الطائف أهمية اللامركزية الإدارية، فقد أورد في طياته سلسلة إصلاحات منها:

«- توسيع صلاحيات المحافظين والقائمين وتمثيل جميع إدارات الدولة في المناطق الإدارية على أعلى مستوى ممكن، تسهياً لخدمة المواطنين وتلبية لحاجاتهم محلياً.

- اعتماد اللامركزية الإدارية الموسعة على مستوى الوحدات الإدارية الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرأسه القائمقام، تأميناً للمشاركة المحلية.

- اعتماد خطة إنمائية موحدة شاملة للبلاد قادرة على تطوير المناطق اللبنانية وتنميتها اقتصادياً واجتماعياً وتعزيز موارد البلديات والبلديات الموحدة والاتحادات البلدية بالإمكانات المالية اللازمة». (وثيقة الوفاق الوطني، ١٩٨٩، ص ٦)

● الخصخصة / الشراكة بين القطاعين

العام والخاص: تقضي الخصخصة أو

الشراكة بتحويل ملكية منشآت عامة بشكل كلي أو جزئي إلى القطاع الخاص، وعادةً ما تكون تلك المتعثرة مالياً وتكبّد الدولة نفقات باهظة. تسمح هذه الشراكة بتخفيف الأعباء المالية عن موازنة الدولة، كما لها أن تكتسب خبرات وقدرات وطاقات بغية تطوير آليات العمل وتحسين جودة الخدمات المقدمة، ناهيك عن التخلّص من الهدر والفساد ومظاهر البطالة المقنعة.

● دعم الإصلاحات التشريعية وسن

القوانين العصرية الفعالة: رغم سن التشريعات والقوانين إلا أن أغلبيتها لم تدخل بعد حيّز التنفيذ، نظراً للتدخلات السياسية المتكررة ولتضارب المصالح الخاصة مع المصلحة العامة وضعف الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة.

● العمل على تطوير الهيكل التنظيمي

لإدارات الحكومية، مع العلم أن أغلبيتها لم تخضع للتعديل والتطوير منذ خمسينيات القرن الماضي.

● توصيف الوظائف داخل الإدارة

العامة: الأمر الذي يسمح بتسهيل المعاملات وتحديد مراجعها ما يؤمّن سهولة المراجعة من قبل المواطنين،

وفي الوقت نفسه، تطبيق المساءلة والمحاسبة عند وقوع أي خلل.

● نشر الثقافة القانونية بين مختلف

شرائح المجتمع وتوعيتهم، إذ لا يمكن للموظف أن يكون فاسداً إذا لم يلقَ التشجيع من المواطنين وذلك عن طريق رشوته لقاء حصوله على الخدمة.

● تحسين البنى التحتية وبيئة العمل:

تعاني أغلبية المباني الحكومية من مشكلات عديدة منها التقادم، عدم وجود مكاتب كافية للموظفين كونها مؤجرة وغير مصممة بالأساس كمراكز حكومية إنما كمبانٍ سكنية، غياب مواقف السيارات، غياب الصيانة، غير مؤهلة للتقنيات الحديثة... أمام هذا الواقع الأليم، لا بد من فرض تحسينات جدية على البنى التحتية وذلك من أجل حسن تسيير المهام وتطورها.

● فصل السياسة عن القضاء: يعتبر

القضاء من أبرز الجهات الرسمية التي تعنى بمكافحة الفساد ومخالفة الأنظمة والقوانين المرعية الإجراء، لذا يجب الالتزام بعدم التدخلات السياسية في الشؤون القضائية بغية إتخاذ الاجراءات المناسبة بحق المخلين والمخالفين.

● ردم الهوة بين القانون والتطبيق: إذ

يتم إصدار الكثير من القوانين

والتشريعات ولكن لا يتم التقييد بمضمونها وذلك بسبب ضعف أو غياب أجهزة الرقابة المعنية بمتابعة التطبيق.

● **تعزيز الثقافة الإدارية والوعي الأخلاقي لدى الموظف، أي القيم والأعراف والمبادئ السائدة في الإدارة العامة والتي تؤدي دوراً بارزاً في تحديد موقف الموظف من الإدارة ودوره فيها وولائه لها، وتحديد ونظراته لحقوقه وواجباته.**

● **الوظيفة العامة ليست «تعويض بطلالة»، إذ يحصل الموظف على راتب متدنٍ مقابل دوام لا يتعدى الست ساعات عمل يومياً، لذا وجب على المعنيين العمل على زيادة العمل اليومي يرافقه زيادة في الإنتاج والإنتاجية كما زيادة في الرواتب بحيث تضمن للموظف مستوى معيشياً لائقاً.**

● **حصر عملية التوظيف في القطاع العام بمجلس الخدمة المدنية، بناءً على الشواغر التي تطلبها الإدارات العامة، مع التشديد على مبدأ الكفاءة والجدارة دون سواه، والإبتعاد كل البعد عن الإرضاء السياسي والمحسوبيات.**

وفي هذا الخصوص، نصت المادة ١٢ من الدستور اللبناني على أنه: «لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة ولا ميزة

لأحد على الآخر إلا من حيث الاستحقاق والجدارة حسب الشروط التي ينص عليها القانون.

● **تنمية الموارد البشرية ووضع الخطط والبرامج لتنفيذها، التي تهدف إلى تطوير أداء الموظفين، والسعي نحو رفع كفاءتهم بالشكل الذي يعزز قدرات الإدارة العامة. لذا يجب إخضاعهم إلى دورات تدريبية إلزامية من شأنها أن تنمي معارفهم وخبراتهم وقدراتهم الأمر الذي يؤدي إلى إزدياد الكفاءة والإنتاجية داخل الإدارات العامة.**

● **دعم الأبحاث والتطوير في الإدارات العامة: يتمتع القطاع العام ببعض الموظفين الأكفاء وأصحاب خبرة وإختصاص، ولكن هؤلاء لا تزال جهودهم مقيدة من جهة، بقانون للموظفين لم يخضع للتطوير منذ نشأته في العام ١٩٥٩م، ومن جهة أخرى، بسلطات الاستزلام والمحسوبيات الطاغية.**

● **رفع كفاءة المؤسسات الحكومية المعنية بمحاربة الفساد (مجلس الخدمة المدنية، التفتيش المركزي، ديوان المحاسبة،...) ومنع التدخلات السياسية في شؤونها الداخلية وقراراتها بغية تعزيز دورها الرقابي وحسن إختيار القرارات المناسبة.**

● تكثيف العمل على إنشاء الحكومة

الإلكترونية التي من شأنها أن تبسّط الإجراءات من خلال اختصار وقت الخدمة وكلفتها على المواطن... الخ

● تعزيز مبدأ المساءلة والمحاسبة

واتخاذ الإجراءات التأديبية بحق المخالفين، هذا الأمر من شأنه أن يردع الأعمال المخالفة للقوانين وتغليب المصالح الخاصة على المصلحة العامة. وفي الوقت نفسه، يجب تعزيز مبدأ التحفيز للموظفين الذين يدأبون في خدمة المصلحة العامة.

خاتمة

لا يمكن تحقيق النهوض الاقتصادي بعيداً عن القطاع العام، فهو الضامن الوحيد للمواطنين كافة، حيث تدأب السياسات الاجتماعية والاقتصادية إلى حماية حقوقهم ورعايتهم صحياً وتربوياً وثقافياً وتمنعهم من البؤس والحرمان والعيش الذليل.

لكن، رغم الجهود التي بذلت على مدار سنوات للنهوض بهذا القطاع، إلا أنه بات يعاني أكثر فأكثر نتيجة ترهل السلطات المعنية وتقاعسها عن ممارسة أدوارها، ونوايا بعض السياسيين الذين يستفيدون من الوضع القائم لتمير صفقاتهم الخاصة وإستغلال مواقعهم لإرضاء قاعدتهم الشعبية، ناهيك عن التشرذمات والإنقسامات السياسية والمناطقية وحتى

الطائفية التي تدفع ثمنها الإدارات العامة في زيادة مزاريب الهدر والفساد دون حسيب أو رقيب.

في الوقت نفسه، لا يمكن إلقاء اللوم على الدولة والسياسات التي تعتمد عليها دون سواها، إنما يؤدي المواطن كما الموظف دوراً مهماً في نشر ثقافة الفساد. فغياب الوعي الثقافي، الفقر، العوز، المحسوبيات،... كلها عوامل تتداخل فيما بينها لتشكّل سداً منيعاً بوجه الإصلاح والتطوير. علماً أن الإصلاح لا يهدف إلى العقاب، إنما لتحسين شؤون الإدارة العامة وتفعيل دور الدولة بغية تأمين متطلبات المواطنين واحتياجاتهم بأقصر وقت وبأقل كلفة.

من هنا، لا بد من الاقتناع بوجود تطبيق الحوكمة في القطاع العام وإشراك القطاع الخاص في الإدارة لاستنهاض قطاع بات في مراحل الموت السريري.

الإسكوا. نيويورك: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية

لغربي آسيا.

- اللجنة الخاصة باللامركزية الإدارية. (٢٠١٤).

مشروع قانون اللامركزية الإدارية. لبنان.

- المجلس الأعلى للخصخصة. (٢٠١٣). الشراكة بين

القطاعين العام والخاص في لبنان. بيروت:

المجموعة الطباعية.

- المضحكي، فهد. (٢٠١٣). مفهوم الدولة والدولة

الحديثة. صحيفة الأيام البحرينية، (٨٨١١) مأخوذ

من:

[http://www.alayam.com/article/courts-article/](http://www.alayam.com/article/courts-article/84562.html)

84562.html

- النجداوي، أروى. (٢٠١٣). نحو قطاع عام أكثر

حاكمية: الحالة الأردنية. مركز الرأى للدراسات:

الأردن. مأخوذ من:

<http://alrai.com/article/596035.html>

- بربر، كامل. (٢٠١٢). إستراتيجية الإصلاح في

الإدارة العامة. بيروت: دار المنهل اللبناني.

- جاهين، محمد. (٢٠٠٦). مقدمة في الإدارة العامة.

المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى.

- جبارة، خليل. (٢٠٠٨). دور البرلمان في مكافحة

الفساد في لبنان. الأمم المتحدة.

- حسين، سمر. (٢٠١٤). الفساد الإداري: أسبابه،

أثاره، وطرق مكافحته ودور المنظمات العالمية

والعربية في مكافحته. مجلة النزاهة والشفافية للبحوث

والدراسات، (٧)، ١٢٠-١٥١.

- حلو، مرغريت. (١٩٩٣). الإصلاح الإداري والثقافة

الإدارية. أوراق الرابطة الفكرية اللبنانية، (١)، ٧-

٣٣.

- ديوان المحاسبة. (١٩٨٣). مأخوذ من:

- راجحي، عصام. (٢٠١٦). دولة الرعاية الاجتماعية

في ظل سياسات صندوق النقد الدولي. مأخوذ من:

<https://nawaat.org/>

- صالح، جمعه. (٢٠١٦). الفساد الإداري وأثره على

الوظيفة العامة. لبنان: منشورات زين الحقوقية.

- عيسى، نجيب. (٢٠٠٢). الخصخصة: رؤية في

سبيل موقف سياسي متوازن. (ج. ٣). لبنان: المركز

الإستشاري للدراسات والتوثيق.

- فرحات، محمد. (٢٠١٠). قضايا إقتصادية

معاصرة. بيروت: منشورات دار الطليعة.

لائحة المراجع

- أبي صعب، فارس. (٢٠٠٤). الثقافة السياسية

للفساد والإدارة العامة: نظرة تمهيدية للواقع اللبناني.

(في: الدولة والتنمية والإصلاح الإداري في لبنان).

بيروت: المركز اللبناني للدراسات.

- إتحاد المصارف العربية. (٢٠١٥). التطورات

الاقتصادية في لبنان ٢٠٠٠-٢٠١٤. مأخوذ من:

<http://www.uabonline.org/en/research/economic/>

اسكندر، عدنان. (٢٠٠٤). تجارب الإصلاح

الإداري في التسعينات: مراجعة نقدية. (في: الدولة

والتنمية والإصلاح الإداري في لبنان). بيروت:

المركز اللبناني للدراسات.

- الببلاوي، حازم. (١٩٩٨). دور الدولة في

الاقتصاد. القاهرة: دار الشروق.

- التفتيش المركزي. (٢٠١٤). التقرير السنوي عن

أعمال التفتيش المركزي للعام ٢٠١٤. لبنان: التفتيش

المركزي.

- الجمعية الاقتصادية اللبنانية، FUR DIE

FREIHEIT. (٢٠١٠). وضع الاقتصاد اللبناني:

عشرون سنة بعد نهاية الحرب الأهلية. ورقة عمل

مقدمة إلى مؤتمر الإستثمار العام والتنمية. بيروت.

- الجهمي، خليفة. (٢٠١٢). دور القضاء في مكافحة

الفساد. ورقة عمل مقدمة إلى برنامج الحملة الوطنية

لمكافحة الفساد.

- الحكيم، يحيى. (٢٠٠٤). نحو تصوّر إستراتيجي

للاصلاح الإداري في لبنان. (في: الدولة والتنمية

والإصلاح الإداري في لبنان). بيروت: المركز

لبناني للدراسات.

- الداود، فادي، والمظفر، أروى، وطفاح، منى،

وهماش، محمد. (٢٠١٤). حركمة القطاع العام.

ملتقى أبو غزاله المعرفي: الأردن.

- الزين، خليل. (٢٠١٤). الفساد الإداري ماهو وما هي

أسبابه؟ مأخوذ من:

<http://www.wadipress.com/2014/?p=328212>

- الساعدي، صباح. (٢٠٠٨). دور السلطات العامة

في مكافحة ظاهرة الفساد الإداري في العراق. بحث

دكتوراه منشور. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

- اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا.

(١٩٩٩). تقييم برامج الخصخصة في منطقة

Références

- Conseil Economiques social et environnemental. (2013). La gouvernance du secteur public. Pris du site: www.cese.ma
 - Kabaka, P. (2016). *L'intervention de l'Etat dans l'économie: du laisser-faire à la régulation*. Pris du site: <https://hal.archives-ouvertes.fr/hal/>, id: 01287474>
 - <http://droit-finance.commentcamarche.net/contents/1320-la-corruption-definition-et-sanctions> (droit-finance.net)
 - Mencinger, J., Aristovnik, A., Verbic, M. (2014). *The Impact of Growing Public Debt on Economic Growth in the European Union*. Retrieved from: <http://www.ier.si/files/Working%20paper-80.pdf>
 - Zeng, C. (2010). *Le rôle de L'état dans la vie économique et sociale*. pris du site:
- Sites:
- <http://css.escwa.org.lb>
 - <http://www.toupie.org>
 - <http://www.cas.gov.lb>
 - <http://www.alternatives-economiques.fr>
 - <http://www.itu.int/ITU-D/ard/index-ar.html>
 - <http://www.ohchr.org/en/Issues/Business/Forum/Page/2013LACRegionalForumBusinessandHumanRight.aspx>
 - <http://www.oeconomia.net>
 - <http://www.data.albankaldawli.org>

- قيسي، حسان. (٢٠١٢). *النظام التعليمي في لبنان*. بيروت.
- مجلس النواب اللبناني. (١٩٨٩). *وثيقة الوفاق الوطني*.
- مجلس الوزراء اللبناني. (٢٠١٢). *خطة العمل للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ٢٠١٢ - ٢٠١٥*. لبنان: رئاسة مجلس الوزراء.
- وزارة تطوير القطاع العام. (٢٠١٤). *دليل ممارسات الحكومة في القطاع العام*. الأردن.
- وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية. (٢٠٠١). *إستراتيجية تنمية وتطوير الإدارة العامة في لبنان*. لبنان.
- وزارة الدولة لشؤون التنمية الإدارية. (٢٠١١). *إستراتيجية تنمية وتطوير الإدارة العامة في لبنان*. لبنان.

الباروديا من خلال مسخ الجسد: دراسة في الشعر العربي القديم

منصف ربعاوي/تونس

يعدّ الجسد^(١) من المواضيع المهمة والمشاركة بين معارف إنسانية متعددة. فهو وسيلة للمعرفة وحامل لها^(٢). لذلك مثّل الجسد موضوع مقاربات فلسفية^(٣) وانتربولوجية^(٤) واجتماعية^(٥) مختلفة^(٦). أمّا في الأدب، فيعدّ الجسد جميلاً كان أو قبيحاً موضوعاً جمالياً بامتياز، خاصة في الأغراض الشعرية المختلفة في شعر الجدّ أو في شعر الهزل. لذلك كان لمسوخ الجسد علاقة وطيدة بالباروديا (la parodie). فكلاهما يقوم على التحويل إلى صورة قبيحة مضحكة. فالباروديا هي أسلوب أدبي يقوم على تحويل النصوص النموذجية والمشهورة تحويلاً هزلياً مضحكاً^(٧). وهي

(١) والجسد الذي نقصده هو «الجسد: جسم الإنسان، ولا يُقال لغيره من الأجسام المغتذية، ولا يُقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض. والجسد: البدن... وقد يُقال للملائكة والجنّ جسد: وكلّ خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجنّ ممّا يُعقل فهو جسد... قال أحمر بن ذهب، وقال أبو إسحاق في تفسير الآية: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميّز، إنّما معنى الجسد معنى الجثة فقط». ابن منظور، لسان العرب، مادة: جسد.

(٢) الأزهر الزناد، اللغة والجسد، ط ١، مركز النشر الجامعي تونس ٢٠١٧. راجع خاصة مفهوم «الأجسادية» ص ٦ وما بعدها.

(٣) ميشيلا مارزانو، فلسفة الجسد، ترجمة: نبيل أبو صعب، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ٢٠١١.

(٤) دافيد لوبروتون، انتربولوجيا الجسد والحدّات، ترجمة: محمّد عرب صاصيلا، ط ٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ١٩٩٧.

(٥) كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة: منى البحر ونجيب الحصادي، ط ١، دار العين للنشر، القاهرة مصر ٢٠٠٩.

(٦) جوزيف ميستنجر، لغة الجسد النفسية، ترجمة: محمد عبد الكريم إبراهيم، ط ١، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق سوريا ٢٠٠٧.

(٧) فعرّف دنبال سانقسي (الباروديا) بأنّها «التحويل اللّغبي والكوميدي أو الهجائي لنصّ مفرد».

صورة إلى أخرى، ومضمون التحويل، وهو التحويل نحو صورة قبيحة. ومفهوم التحويل يهمننا باعتباره من التقنيات المركزية في تعريف الباروديا اللغوية وغير اللغوية. والجانب الثاني هو مضمون التحويل، والمتصل بالتحويل إلى القبيح والأقبح. فهو عملية تقبيح للجميل أو لغيره. وهذا الجانب التقبيحي يجعلنا في صميم البيرلاسك باعتبارها تقبيحاً للإنسان وخطاً من قيمته من خلال تقبيح جسده عند قذارته ونهمه وفي وظيفته النكاحية. لذلك يمثل الجسد موضوعاً بارودياً أيضاً حين يتعرض للمسح. ويدخل تحت مسميات عديدة، ومنها: بيرلاسك الجسد (Burlesque du corps) (٤)، وكوميديا الجسد (comique du corps) (٥). وقد اعتبر النقّاد البيرلاسك

أيضاً تحويل مضحك لكل الخطابات بما فيها اللغة (١). وكلّ مكونات الكون المحسوسة والمجرّدة بما فيها الإنسان، هي قابلة للتحويل المضحك في الباروديا. إنَّ «كلمة المحاكاة الساخرة يمكن أن تكون متنوعة لدرجة كبيرة، يمكن أن نحكي محاكاة ساخرة أسلوب الغير بوصفه أسلوباً. يمكن أن نحكي محاكاة ساخرة طريقة نموذجية على المستوى الاجتماعي أو شخصية على المستوى الفردي، طريقة في الرؤية، في التفكير، في الكلام» (٢). المسخ هو أيضاً «تحويل صورة إلى صورة أخرى أقبح منها، وفي التهذيب: تحويل خلق إلى صورة أخرى، مسخه الله قرداً ويمسخه وهو مسخٌ ومسخٌ» (٣). وهذا المفهوم يعرض جانبيين مهمين في المسخ وهما: شكل التحويل من

Sangsue (Daniel), *La parodie*, Hachette, Paris 1994, p 73 "Transformation ludique, comique ou satirique d'un texte singulier".

Hutcheon (Linda), *A theory of parody: The teaching of twentieth-century art forms*. University of Illinois Press, Urbana and Chicago, 2000. p16 "parody's target text is always another work of art or, more generally, another form of coded discourse."

(٢) ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية الغربية، ترجمة يوسف حلاق، ط ١، منشورات دار الثقافة سوريا، ١٩٨٨. ص ٢٨٣. راجع أيضاً:

Sangsue (Daniel), "La parodie, une notion proteiforme", in: *Du pastiche, de la parodie et de quelques notions connexes*, P. Aron, éd., Québec, Editions Nota Bene, 2004. p80 "une conception extensive, qui considère la parodie comme une pratique culturelle très large" recouvrant toutes les sortes des formes d'imitation et de caricature des uvres littéraires et artistiques... l'inverse une acception restrictive, pour laquelle la parodie est une intervention ponctuelle sur un discours la transformation d'un texte ou d'un fragment de texte des fins que l'on s'accorde en gnral considrer comme comique. Le représentant le plus minent de cette conception restreinte est, comme on sait, Grand Genette, cette différence prs qu'il ne donne pas la parodie une intention comique. Rappelons qu'il définit la parodie comme: la transformation ludique d'un texte singulier (1982-1965).

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة: مسخ.

(٤) Guillaume (Peureux), *Le burlesque*, Gallimard 2007, p 91.

(٥) Emelina (Jean), «Comment définir le burlesque?» in, *Poétiques du burlesque*, Actes du Colloque

«جنسا باروديا» (genre parodique)^(١). وهذه هي البيرلاسك البارودية التي تحوّل الرّفع وضيعاً^(٢). فتقبّح صورته، وتمسخها. والشّعْر من هذه النّاحية يلتقي مع البيرلاسك ومع الباروديا، فالشّعْر هو أيضاً «يرفع من قدر الوضع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشّريف الكامل»^(٣). والمسوخ في بيرلاسك الجسد ينسجم مع مفهوم بلاغي هو «تحسين القبيح»^(٤)، وتعدّ هذه الدّراسة امتداداً لما تعرّضنا إليه خلال دراسة بيرلاسك الجسد^(٥) بمظاهره الثّلاثة: هزل النّكاح، هزل النّهم، هزل القذارة.

ونضيف إليها شكلاً رابعاً هو مسخ الجسد. وهو موضوع دراستنا هذه. فالباروديا من المباحث النّقديّة المهمّة التي لم تحظ بالعناية اللاّزمة في النّقدين الغربي والعربي قديماً وحديثاً^(٦). ولذلك اعتنينا بها في الكثير من بحوثنا العلميّة^(٧). وسنعرّض في هذه الدّراسة إلى هذا المظهر البارودي ببيان مدى حضور المسوخ في الشّعْر العربي القديم أولاً، وثانياً سنبيّن تقنيات المسوخ تحت مسمّى: تقنيات المسوخ وجماليّته، وثالثاً سننظر في الأبعاد الهزليّة والباروديّة لمسوخ الجسد.

international du Centre de recherches sur les littératures Modernes et Contemporaines de l'Université Blaise Pascal 22-24 février 1996. édité par Dominique Bertrand. HONORÉ CHAMPION Paris 1998, P54 «Ainsi, le burlesque, qui vient de burla, farce, plaisanterie, rattaché métaphoriquement à bure, étoffe grossière, concerne tout le comique du corps, situé de préférence au-dessous de la ceinture, et qui exploite malades, gloutonneries, obscénités et scatologie».

Dominique Bertrand, poétique du burlesque, p 9.

Pereux Guillaume, Le burlesque, p88 «Le burlesque maintient un rapport parodique à un objet dont la présence est clairement suggérée dans l'œuvre, tandis que le grotesque semble donner de la valeur à ce qui est bas, comme Quasimodo par exemple, sans considération par un modèle plus ou moins explicite.»

(٣) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، كتاب العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، شرح وضبط: عفيف نايف حاطوم، ط٢، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦. باب من رفعه الشّعْر ومن وضعه، ص ٣٠.

(٤) راجع: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحسين القبيح وتقبّح الحسن، المحقق: نبيل عبد الرحمن حياوي، ط٢، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت/لبنان، د.ت.

(٥) منصف ريعاوي، الباروديا في الشّعْر العربي القديم، أطروحة الدكتوراه تنتظره مناقشتها قريباً بإشراف: فتحي النّصري، فصل: بيرلاسك الجسد. ص ٣٢٩.

(٦) Sangsue (Daniel), La relation parodique, Les Essais, Librairie José Corti, Paris, France, 2007. p23. «la parodie traite derrière elle un lourd pass de mpris»

(٧) راجع بحوثنا: منصف ريعاوي، كتاب التطفيل للخطيب البغدادي: كتاب حديث أم مؤلّف أدب؟، بحث مرقون بكليّة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة بتونس نُوقش خلال السنة الجامعيّة: ٢٠١٠ - ٢٠١١ بإشراف: أحمد خصخوصي. فصل المحاكاة السّاخرة ص ٥٩.

منصف ريعاوي، ترجمة المصطلح الأدبي وإشكاليّاته: مصطلح «parodie» نموذجاً، مداخلة مرقونة، شارك بها في ندوة: النصّ والترجمة، نظّمها المعهد العالي للغات بقابس يومي ١٤ و ١٥ أفريل ٢٠١٥. منصف ريعاوي، القياس في الباروديا من خلال نماذج من الشّعْر الهزلي العربي القديم، مداخلة مرقونة، شارك بها في

أولاً: المسخ في الشعر العربي القديم:

إنَّ الذي دعانا إلى العناية بمسح الجسد هو الحضور البارز لهذا المفهوم في الشعر العربي القديم^(١). فقد عمد الشعراء إلى تشبيه أعدائهم بحيوانات ذميمة الخلقة، لغاية مسخ صور مهجويهم وتقبيحها، وللتحقير من شأنهم والسخرية منهم. وهنا يبدو مسخ الجسد وتقبيحه وسيلة لا غاية في حدِّ ذاته، فالجسد يمثل هويّة صاحبه البيولوجيّة والثّقافيّة. إنّه علامة متعدّدة الأبعاد لما فيها من معانٍ كثيرة^(٢). وتشبيه الإنسان بالحيوانات القبيحة هو جوهر مفهوم مسخ الجسد عند العرب، وهو أحد تجلّيات هزل الجسد عندنا. وهذا ما يؤكّده

الجاحظ في قوله: «والعوامّ تقول وأناس يزعمون أنّ الحيّة مسخ، والضبّ مسخ، والكلب مسخ، والآريال مسخ، والفأر مسخ، ولم أر أهل الكتاب يقرّون أن الله تعالى قط مسخ إنساناً خنزيراً ولا قرداً إلا أنّهم أجمعوا أنّ الله تعالى قد مسخ امرأة لوط حجراً حين التفتت»^(٣).

والحقيقة أنّ تشبيه الإنسان بالحيوانات لا يكون دائماً هزلياً. فقد تغنّى الشعراء بجمال النساء، وشبهوهنّ بالغزال وبالمها وبالبحر^(٤) حتّى. وقد يشبّه الإنسان بالحيوانات القبيحة المنظر بالقرود والجرو مثلاً، لكن لا لغاية الإضحاك والسخرية، إنّما لغاية الاستعطف والتودّد

ندوة: القياس، نظّمها المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بمدينتي ١٨ و ١٩ أبريل ٢٠١٦.

منصف ربحاوي، الباروديا في الشعر العربي القديم، أطروحة الدكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بتونس، إشراف: د. فتحي النصري، أودعناها منذ مدّة في انتظار مناقشتها.

منصف ربحاوي، «المحاكاة الساخرة» لعلّي بوجديدي إثراء للمكتبة التّقديّة العربيّة، الحياة الثّقافيّة التّونسيّة عدد ٢٧٩، مارس ٢٠١٧. ص ٧٣-٨٠.

منصف ربحاوي، الباروديا وحدائث الشعر العربي القديم: اللَّفظ أنموذجاً مقال مخطوط ينتظر النّشر.

(١) المدوّنة الشّعريّة التي اشتغلنا عليها متنوّعة (دواوين، مختارات، مجاميع، كتب أدب، موسوعات...)، وهي تسمح ثلاثة قرون من القرن الثّاني إلى القرن الرّابع الهجري. وقد اخترنا هذه الفترة التّاريخيّة لأنّها الفترة التي ازدهر فيها الشعر الهزلي خاصّة. والباروديا مرتبط وجودها بوجود الإضحاك. وقائمة المصادر موجودة ضمن قائمة المصادر والمراجع.

(٢) راجع: الأزهر الزّنّاد، اللّغة والجسد، ط١، مركز النشر الجامعي تونس ٢٠١٧.

(٣) أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق وتقديم: فوزي عطوي، دار الجيل ودار مصعب، بيروت، لبنان، دت. ج ٦، المجلد ٢ ص ٤١٦.

(٤) وصف عمر بن أبي ربيعة جمال النّسوة المرافقات لحبيبتة. فقال: (المنسرح)

أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنِسَوْتُهَا / يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ

بَيْضاً حَسَاناً خَرَاءِداً * قُطُفًا * / يَمْشِينَ هَوْنًا كَمِشِيَةِ الْبَقْرِ. عمر بن أبي ربيعة، الدّيان، دار الجيل بيروت ١٩٩٢. ص

٢٧٠. *الخرايد: الحسنات الأبقار. / *القطف: البطيئات.

والمحبّة الخالصة خاصّة للأطفال الصغار. فلا تكون التشابيه بالحيوانات القبيحة بارودية في تقديرنا، إلا إذا وردت في سياق إضحاك وسخرية. لذلك فما يهمنّا هنا هو التشابيه بالحيوانات القبيحة المنظّر والمخبر والمعروفة برمزيتها الاجتماعية السلبية، والمحيلة إلى معاني القبح والشرّ في الخلقة والأخلاق. وهذا ما يعنيه الجاحظ بقوله: «وقد يشبّه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس والغيث والبحر، وبالأسد والسيف وبالحيّة والنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان. وإذا ذمّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور، وهو التيس، وهو الذئب، وهو العقرب، وهو الجعل، ثمّ لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الإنسان ولا أسمائهم، ولا يخرجون ذلك الإنسان إلى هذه الحدود، وهذه الأسماء»^(١).

وقد أسفر بحثنا في هذا الباب إلى اكتشاف أمور عديدة منها: اعتماد التشابيه أساساً في تحويل صور وجوه المهجّوين ومسّخها، ثمّ عايّنا تحويل الوجوه إلى صور حيوانات قبيحة المنظّر. وقد حاز القرد في جرد إحصائي المرتبة الأولى

ضمن الحيوانات والحشرات الثلاثة عشرة المحوّلة إليها صور المهجّوين. ولعلّ الحضور البارز للقرد مشبّهاً به في عمليّة مسخ الجسد داخل الشعر العربي القديم هو الذي جعل ابن منظور في تعريفه للمسّخ^(٢) يعتمد القرد دليلاً على مسخ الجسد. وهذا ما يبيّنه الجرد الإحصائي التّالي في نماذج الشعر العربي القديم: القرد ٩ مرّات، الغول: ٤ مرّات، الخنزير: ٣ مرّات، الحمار: مرّتان، الثّور: مرّتان، السلّاعة: مرّتان، ومرة واحدة لكلّ من الهرّ والبغل والنّمس والكلب والجاموس والتّيس والذّباب والشّيطان.

وقد حاز ابن الرّومي المرتبة الأولى في عنايته بمسّخ الوجه ضمن الشعراء العرب القدّامي. فكان نصيبه تسع (٩) مرّات من ٢٢ مرة بنسبة ٣٩.١٣ بالمائة. بينما اكتفى منصور الأصبهاني وأبو دلّامة ودعبل الخزاعي بمرّتين فقط لكلّ منهم. والشعراء الآخرون كان لهم مناسبة واحدة في وصف الوجه بشكل قبيح، وهم دون ترتيب تاريخي: أبو الشمقمق، حماد عجرد، أبو فرعون السّاسي، إسماعيل بن عمّار، عبد الله اللّاحقي، البحّري وأخيراً ابن الحجاج.

(١) الجاحظ، الحيوان ج ١ ص ١٢٨.

(٢) يعرف ابن منظور المسّخ هو «تحويل صورة إلى صورة أخرى أقبح منها، وفي التّهذيب: تحويل خلق إلى صورة أخرى، مسّخه الله فرداً ويمسّخه وهو مسّخ ومسيّخ». ابن منظور، لسان العرب، مادّة: مسخ.

ورأينا أن نعتني من أجزاء الجسد بمسح الوجه، باعتباره يعطي صورة نسبية عن الجسد وعن هويّة صاحبه، فالفرد ممّا يُعرف لدى المجتمع من خلال وجهه أساساً. وقد عمدنا أحياناً إلى المسخ الكلّي للجسد دون تفصيل لأجزائه. وسيكون مسخ الجسد أكثر وضوحاً عند دراسة تقنياته وجماليّته.

ثانياً: تقنيات المسخ وجماليّته في الشعر العربي القديم:

لقد قام مسخ الجسد على تقنيات بلاغيّة وتركيبية ومعجميّة وصرفيّة كثيرة^(١). وأبرز تقنيات المسخ الهزلي هي التشابيه والاستعارات. فيرد فيها الإنسان مشبّهاً، والحيوانات القبيحة مشبّهة بها. ويختصّ هذا النوع من التشابيه والاستعارات بالمباعدة الهزليّة بين طرفيّ التشبيه الواحد، على خلاف التشابيه الجديّة. فالأصل في إقامة التشبيه هو وجود تقارب بين طرفيّ التشبيه لغاية تقريب صورة المشبّه من القارئ ولإيهام بواقعيّة المشابهة. فـ «التشبيه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه مناسبة

كليّة لكان إيّاه»^(٢). لكنّ تشابيه الإنسان بالحيوانات القبيحة في الشعر تقوم على التّباعد بين طرفيها تباعداً شديداً إلى حدّ التضادّ والمقابلة أحياناً، فيشبه الضدّ بالضدّ لمزيد تقبيح صورة المشبه الموصوف. ورغم أنّ المشبّه به (الحيوان القبيح) أقلّ قيمة من المشبّه به (الإنسان) فإنّ الشعراء يجعلون المهجور في مقام واحد مع الحيوان. وفي هذا خطّ من قيمة المهجور. وفيه نوع من المبالغة الهزليّة بسبب التشويه المبالغ فيه لصورة العدو وتضخيمها. إنّه مسخ للصورة الحقيقيّة للموصوف وتشويه لها من أجل تقبيحها والعبث بها، وجعلها محلّ إضحاك. فالتشابيه والاستعارات تقنيات فعّالة في المسخ والتحقير المبالغ فيه. وهذا ما يؤكّده ابن رشيق في قوله: «ولو بطلت المبالغة كلّها وعُيِّبَتْ لبطل التشبيه وعُيِّبَتْ الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام»^(٣). والتشابيه والاستعارات وسائل فعّالة في التّحقير والتّشويه عن طريق المسخ. يقول أحدهم «إذا رغبت في صنع كارتونات درامية كالتي صنعها أريستوفانز، فعليك أن تبحث عن استعارات مرثية أو مسموعة... ثم

(١) تعرضنا إلى مختلف هذه التقنيات طيلة فصول أطروحتنا لنيل شهادة الدكتوراه المشار إليها سلفاً.

(٢) ابن رشيق، العمدة، باب ٤٠: التشبيه، ص ٢٤١.

(٣) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣٤١.

لا بدّ أن تكون **مضحكة** وبإسراف: ويمكنك بلوغ ذلك باختيار **استعارات** ذوات قدرة كبيرة على **التحقير** (ضرب من **المبالغة المقلوبة**) بما فيها **اللامعقول**، دون إثارة **الاشمئزاز** أو أيّ **انفعال حاد**^(١). فالمسح يعمل على التأثير في القارئ وعلى تنفيره من المهجّو والتشهير به، خاصّة حين يكون هذا التشهير المسخي في الشعر، والشعر أكثر تلقياً وأكثر طرباً، وأكثر قيمة جماليّة ومعرفيّة عند العرب عبر العصور. ويبقى الشعر عالماً في الذاكرة أكثر من النثر. لذلك نقول إنّ هذا المسح يكون أكثر إيلاً وأكثر انتشاراً وتلقياً حين يكون في الشعر. فالباروديا في الشعر أكثر جماليّة، وأكثر تلقياً وخلوداً في الذاكرة عبر الزّمن.

وإذا كان التشبيه في الخطاب الجدّي غايته **تقريب الصورة الحقيقية** للمتلقّي، فإن التشبيه في الأسلوب البارودي غايته **التباعد بين الصورة الحقيقية**

للموصوف والصورة التي تخيلها الكاتب أو الشاعر، وهي صورة تكون عادة مضحكة ساخرة. وهذا نوع من التحويل المضحك للموصوف. وهنا يقترب تشبيه الإنسان بالحيوانات القبيحة المنظر من الوصف الكاريكاتوري. إنّ التشبيه بهذا الشكل هو عبارة عن عملية **مسح** للصورة الواقعيّة والحقيقيّة للإنسان، وهذا النوع من البيرلاسل يقترب من فنّ الكاريكاتور^(٢) الذي يكشف صورة الشيطان في الإنسان بملامحه القبيحة، وذلك عبر التحويلات المبالغ فيها لملامحه الحقيقيّة. يقول برجسون «إنّ فنّ الكاريكاتور المتّسم بنوع من الشيطنة يكشف عن الشيطان الذي دفنه الملاك، لا شك أنّه فنّ يبالغ، ولكنّا نسيء تعريفه عندما نجعل هدفه الوحيد المبالغة»^(٣). ففعل المسح إذن يكشف عن الوجه القبيح المخفي في الإنسان، بل

(١) مولوين مرشنت، الكوميديا، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، ط ١، دار منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٠. ص ١١٦.

(٢) و«فنّ الكاريكاتير أو الرّسم الساخر، نشأ على يد الفنّان الايطالي (أنيبال كراكشي: ١٥٦٠-١٦٠٩). فقد عرف عنه أنّه أوّل من رسم في التّاريخ الحديث صوراً باعثة على الضّحك، تمثّل بعض المحيطين به... والبعض يقول أنّ كاريكاتير مشتقّة من كلمة لاتينية معناها رسم يغالي في إبراز العيوب، والبعض الآخر يقول أنّها مأخوذة من الكلمة الايطاليّة (كاريكير) التي تؤدّي معنى (يحمل) أو (يبالغ). أمّا معاجم اللّغة، فنقول أنّ الكاريكاتير عبارة عن صورة يراعى فيها التّهويل في إبراز السّمات الواضحة أو الشّاذّة بغية إحداث أثر ضاحك أو ساخر». عادل ثابت، الكاريكاتير فنّ الفكاهة والسّخرية، مجلة الهلال المصريّة أغسطس ١٩٧٤ ص ٨٢-٨٣.

(٣) هنري برغسون، الضحك، ترجمة: علي مقلد، ط ٢، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧. ص ٢٤.

ويوضّحه، ويكبّره لمزيد الإبراز والإيهام بالواقع. فـ «هدف التضخيم (التّهويل) ليس إرباك (القارئ)، ولكن الإحالة على الحقيقة ذاتها، وإثباتها - عبر ما يعبر عنه باللامعقول - لما يجب اعتقاده بكل واقعية»^(١). وهنا يتفاعل الشعر الهجائي مع فنّ الرّسم في طابعه السّاخر. والرّسم والشعر صنوان. يقول هوراس «الشعر ضرب من الرّسم»^(٢). والتّصوير من خصائص الشعر، فالشعر «صناعة وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير»^(٣). والتّصوير من عناصر جماليّة الشعر، فـ «أبلغ الوصف ما قلب السّمع بصرا... (و) من الشعراء والبلغاء من إذا وصف شيئاً بالغ في وصفه، وطالب الغاية القصوى التي لا يعدوها شيء: إنّ مدحاً فمدحاً، وإنّ ذمّاً فذمّاً»^(٤).

وهذا ما يتجلّى لنا بكلّ وضوح في

تشابيه المسخّ العديدة. فقد مسخّ ابن الرّومي صورة الطّفليّ حيّة لشدّة رصده للموائد في الأعراس والأفراح. فقال: (المقارب)

يُخَالِفُ إِخْوَانَهُ فِي الطَّرِيقِ
إِلَى أَنْ تَضُمَّهُمْ الْمَائِدَةَ.
فَبَيْنَا كَذَلِكَ إِذَا هُمْ بِهِ
مَعَ الْقَوْمِ كَالْحَيَّةِ الرَّاصِدَةِ^(٥).

وشبّه أحد الخالديّين رجلاً قصيراً بالبعوضة، وشبّه زوجته الطويلة بالجمال. فقال: (الكامل)

أَنْتِ الْبَعُوضَةُ قِلَّةٌ
وَكَأَنَّهَا جَمَلُ الضَّحِيَّةِ^(٦).

وهذا بشار يصف عدوّيه: حمّاد عجرد وسهيل بن سالم بالقردين في قوله: (البسيط)

سُبْحَانَكَ اللَّهُ لَوْ شِئْتَ امْتَسَخْتَهُمَا
قَرْدَيْنِ فَأَعْتَلَجَا فِي بَيْتِ قَرَادٍ^(٧)

(١) Catherine Fromilhague, les figures de style, p 105 «Le but de l'hyperbole est en effet, non de tromper, mais d'amener à la vérité même et de fixer, par ce qu'elle dit l'incroyable, ce qu'il faut réellement croire»

(٢) نقلاً عن: بسمّة نهى الشاوش، وصف الحيوان في الشعر الجاهلي، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السلسلة: عربية ٨، المجلد: ٢٤، جانفي ٢٠٠٩. ص ٧.

(٣) الجاحظ، الحيوان ج ٣ ص ٤٤٤.

(٤) ابن رشيقي، العمدة، باب الوصف، ص ٥٤٤.

(٥) نقلاً عن: الخطيب البغدادي، التّطفيل وحكايات الطّفليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، ط؟، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعها بالنجف، العراق، ١٩٦٦. ص ٣١.

(٦) الخالديّان، الديوان، جمعه وحققه: سامي الدهان، ط؟، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٩٢. القسم الثاني ص ١٥٢. ب ٤.

(٧) بشار بن برد، الديوان (جزءان)، شرح: حسين حموي، ط ١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٦. ج ٢ ص ٢٣٠.

ونجد في مثل هذين البيتين الشعريين
لابن الرّمكدم مسخ صورة الطفيلي ذباباً:
(الرّجز)

مُطْفَلٌ أَطْفَلَ مِنْ ذُبَابٍ
عَلَى طَعَامٍ وَعَلَى شَرَابٍ
لُقِّبَ طَنْزاً أَشْرَفَ الْأَلْقَابِ
أَنْوَرَ بِالمَوْصِلِ مِنْ دُولَابٍ^(١)

وهذه العلاقة الخاصّة التي نجدها بين
المهجوّ والقرد فيها مبالغة مسخية بين
الإنسان والحيوانات والحشرات والزّواحف
القبیحة عموماً (الجمل، البعوضة، الذّباب،
الحیة). وهي علاقة جعلت الجرجاني يشير
إلى أنّ الهزل له بلاغته الخاصّة التي لا
تعترف بالمنطق ولا بالعقل، إنّها تتجاوزهما
إلى ما هو أبعد وأعجب من الحقيقة
والمجاز. إنّها بلاغة فوق بلاغة الجدّ.
فيعرّف الجرجاني الهزل بقوله: «هو لا يُراد
باللفظ معناه لا الحقيقي ولا المجازي، وهو
ضدّ الجدّ»^(٢). وهذا يكون بما في هذا
الشّعر من تعجيب وإطراب يصدم القارئ

ويتمّعه، فيرسخ في الأذهان والوجدان.
يقول الجرجاني «وهكذا استقرت
التّشبيهاً وجدت التّباعّد بين الشّيئين كلّما
كان أشدّ كانت على النّفوس أعجب، وكانت
النّفوس لها أطرب»^(٣). والمسخ بما فيه من
تباعّد بين طرفي التّشبيه فيه مبالغة. وفي
المبالغة غموض وتعمية. وفي هذا الإطار
يقول ابن رشيق «المبالغة ربّما أحوّلت
المعنى ولبّسته على السّامع، فليست لذلك
من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنّها لا تقع
موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما
قاربه، لأنّه ينبغي أن يكون من أهمّ أغراض
الشّاعر والمتكلّم أيضاً الإبانة والإفصاح
وتقريب المعنى على السّامع... ولو كان
الشّعر هو المبالغة لكانت الحاضرة
والمحدثون أشعر من القدماء... والمبالغة
في صناعة الشّعر كالاستراحة من
الشّاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ،
فيشغل الأسماع بما هو محال، ويهوّل مع
ذلك على السّامعين»^(٤). والغموض من
خصائص بلاغة الباروديا.^(٥) فهي تزيد من

(١) الخطيب البغدادي، التّطفيل، ص ٢٨.

(٢) علي محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، ط٩، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ٢٠٠٤. ص ٢١٥.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط٩، دار المدني بجدة، دت، ص ١٣٠.

(٤) ابن رشيق، العمدة ج٢ ص ٣٤٠.

(٥) Dousteyssier-Khoze (Catherine), *Mystification et parodie. Romantisme, revue du dix-neuvième siècle* n°156, juin 2012.

- Sangsue (Daniel), «Parodie et mystification. Sur quelques rejets de Joseph Delorme» in: *Mélie? Lecture et mystification, Etudes réunies et présentées par Nathalie Preiss, éditions L'improvisiste, 2006*.

للباروديا في الأدب. وهو دور اكتشفه لها الشكلاونيون الروس^(٤). والباروديا معروفة بقدرتها على خلخلة الثوابت والقيم الأدبية والاجتماعية والدينية وغيرها لإرساء ضوابط جديدة^(٥).

وجمالية التحويل المسخي هذه هي مصدر جمالية أخرى، هي جمالية الإضحاك الناتجة عن هذا التحويل عند تشبيه الإنسان بالحيوان القبيح بحسب برجسون^(٦). إذ «يُولد الهزل عندما يُعرض علينا شيء - كان محترماً في السابق - كتافه أو منحنط»^(٧) والتحويل والإضحاك مقومان أساسيان في الكتابة البارودية، وهما عنصران رئيسان في جمالية الباروديا

التعمية (Mystification) في الشعر العربي القديم. هكذا ساهم مسخ الجسد في تحديث الشعر العربي القديم الذي كانت بلاغته تقوم على الوضوح في المعنى من خلال الوضوح في وجه الشبه^(٨). والمبالغة مقوم أساسي في الأسلوب البارودي، فالباروديا في جملتها تقوم على المبالغة في التحويل المضحك للتصوص بأشكال مباشرة وغير مباشرة. وهو ما يؤكده مؤلفي «معجم الآداب»^(٩). وقد وجد الغموض بوجود المبالغة المكروهة في التراث النقدي^(١٠). ولذلك فالمسخ ساهم في تكثيف الغموض، وفي تحديث الشعر العربي القديم. والباروديا معروفة بدورها التحديثي

- Picard (Roger), *Artifices et mystifications littéraires*, Montréal, Editions Variétés, 1945.

- Finné (Jacques), *Des mystifications littéraires*, Librairie José Corti 2010.

(١) تحدّث المرزوقي عن أشعار العرب، واختصر خصائصه في سبعة أبواب، ومنها «المقاربة في التشبيه... ومناسبة المستعار للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى». أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين و عبد السلام هارون، شرح ديوان الحماسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١. ج ١ ص ٨.

(٢) Van Tieghem (Philippe), Jossierand (Pierre), *Dictionnaire des littératures*. p2983 «Parodie - Genre littéraire, forme dramatique du burlesque, visant à caractériser une œuvre sérieuse par l'exagération de certains de ses caractères».

(٣) راجع مثلاً: قول أبي حازم القرطاجي واعلم أنه لا تحسن محاكاة ذي مقدار كبير بذي مقدار صغير، ولا محاكاة ذي مقدار صغير بذي مقدار كبير، إذا كان بينهما تفاوت في ذلك. أبو الحسن حازم القرطاجي، تحقيق وتقديم: محمد الحبيب ابن الخوجة، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، المطبعة الرسمية تونس ١٩٨٦. ص ١١٤.

(٤) Sangsue (Daniel), «La parodie, une notion proteiforme», in: *Du pastiche, de la parodie et de quelques notions connexes*. p96 «En XX^e siècle, Les Formlistes russes considèrent la parodie comme un facteur de ce qu'ils appellent «l'évolution littéraire».

(٥) Bertrand (Dominique), «Poétiques du burlesque» in, *Poétiques du burlesque*. P 21 «Le burlesque ne se réduit pas à une stylistique mais trahit bel et bien une vision du monde: vision paradoxale et contradictoire, puisqu'elle se nourrit d'une déconstruction permanente des certitudes».

(٦) راجع: برجسون، الضحك، ص ٤٥.

(٧) المرجع نفسه ص ٨٣.

المسخية. فالإضحاك الناتج عن التحويل المسخي يحقق الإمتاع في النص لدى المتلقي. لذلك تحدت برجسون عن «لذة الضحك»^(١). والإمتاع مصدر أساسي من مصادر جمالية الكتابة الأدبية شعراً أو نثراً. فـ «الشيء الجميل هو الذي يولد فينا شعوراً بالدهشة والمتعة»^(٢).

وإجمالاً، فجمالية المسخ قائمة أساساً على التشابيه والاستعارات والرموز الحيوانية. وفي هذا المسخ مبالغة وغموض، وهما يزيدان في جمالية الشعر، ويرفعان من درجة الإضحاك فيه. يقول الجاحظ «كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحك حديثه أكثر»^(٣). ولجمالية المسخ دلالات بارودية مختلفة.

ثالثاً: الدلالات البارودية للمسخ في الشعر العربي القديم:

تعرف معاجم الأدب مفهوم الدلالة

(signification) بأنه متغير من مؤول إلى آخر، وهو متنوع بحسب تنوع السياقات^(٤). وهذا المفهوم ذاته نجده في البلاغة العربية تحت مصطلح «معنى المعنى»، وهو «أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»^(٥). ويصطلح عليه أيضاً بـ «المعاني الثواني»^(٦)، وهو «ضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل»^(٧). وهذا يقودنا إلى تعريف الدلالة بأنها ما لا يفهم من ظاهر الكلام، بل ما يفهم بعد تأمل عميق وتفكير طويل خاصة في الظواهر البلاغية. وهذا ينطبق تماماً على الخطاب البارودي القائم هنا على التشابيه والاستعارات لمسخ الجسد. فالباروديا هو خطاب غير شفاف

(١) المرجع نفسه ص ٩١.

(٢) Robert(Paul), Petit Robert,dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, édition de dictionnaires Le Robert, nouvelle édition, Paris 1993.p232.

(٣) الجاحظ، الحيوان ج ٦ ص ٤٧٥- ٤٧٦.

(٤) Georges Elia Sarfati,Dictionnaire du littéraire,p 572 «Le conceptde signification désigne la relation sémantique par laquelle un terme est associé à une entité. Il porte sur les façons variables dont le signifié est défini et compris; il diffère donc de celui de sens, qui désigne une relation stable entre un signifié et un signifiant».

(٥) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، ط ٥، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ٢٠٠٤. ص ٢٦٣.

(٦) المرجع نفسه. ص ٢٦٤.

(٧) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص ٢٦٢.

يحمل دلالات كثيرة، تستدعي منّا الكثير من التّأويل. فد «الباروديا لعبة ذات عنوان»^(١). ولها خلفيات كثيرة.

أبرز دلالات هذا المسخ الهزلي لصورة وجه الإنسان في صورة القرد، نجدها في رمزيّة القرد في الثقافة العربيّة الإسلاميّة. فالحيوانات هي رموز ذات دلالات محدّدة وخاصّة بكلّ سياق اجتماعي. يقول هيغل «الرّمز هو قبل كلّ شيء علامة... فالأسد يوظّف كرمز للشّهامة، والثعلب كرمز للحيلة، والدائرة كرمز للخلود... لكن الرّمز ليس خارجاً عن الفكرة التي يعبر عنها... لكن في الغالب يمكن أن تكون العلاقة بين العلامة والشيء الذي تدلّ عليه علاقة جدّ بعيدة»^(٢) وبناء عليه فالقرد والخنزير، يحملان دلالات سلبية في ثقافتنا العربيّة الإسلاميّة المستمدّة من القرآن. «فلَمْ يَكُنْ لهما في قلوب النّاس حال، ولم يكن لهما في صدور العامّة والخاصّة من القبح

والتّشويه ونذالة النّفس ما لم يجعله لشيء غيرهما من الحيوان لما خصّهما الله تعالى بذلك»^(٣). «إنّ القرد لسمح الوجه قبيح كلّ شيء، وكفاك به أنّه للمثل المضروب»^(٤). «وكان في طباع النّاس من التّكره للحوم القردة والتّقذر منها ما يغني عن ذكرها»^(٥). لذلك فد «فالمسخ على صورة القرد أشنع... والقروء في هذا الباب أوجع وأشنع وأعظم في العقوبة وأدلّ على السّخط»^(٦).

وأما البعد الهزلي الآخر لهذا المسخ، فيضرب بجذوره الدينيّة في التّقاليد العربيّة الإسلاميّة^(٧). فالمسخ عقاب من الله لكلّ من خالف أوامره. «وقد عبّر القرآن عن هذا المعنى عندما أشار إلى غضب الله على قوم قرية أيلة، وذكر أنّه مسخهم قردة لأنّهم عصوا أمره حين أباحوا لأنفسهم صيد السمك يوم السبت وقد كان الله قد حرّمه عليهم، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا

(١) Sangsue (Daniel) , *La relation parodique*, Les Essais, Librairie José Corti, Paris, France, 2007., P 56 «La parodie est un jeu d'adresse»

(٢) عن : كتاب اللغة، إعداد وترجمة محمد سيّلا وعبد السلام بنعبد العالي، ص ٢٨-٢٩.

(٣) الجاحظ، الحيوان ج ٤ ص ١٩.

(٤) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٤.

(٥) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٩.

(٦) المرجع نفسه ج ٤ ص ٤٨.

(٧) يمكن في هذا الموضوع مراجعة: أميمة أبو بكر، المسخ في حكايات ألف ليلة وليلة، مجلة فصول مجلد ١٣، العدد ١ ربيع ١٩٩٤، ص ٢٤١. / وحماّدي الزّنكري، الجسد ومسّخه في الفكر العربي الإسلامي، حوليات الجامعة التّونسيّة عدد ٣٩، سنة ١٩٩٥.

قِرْدَةً خَسِيعَةً^(١). وهذا ما يؤكده الجاحظ في قوله «إِنَّا وجدنا الله تعالى قد مسح عبادة من عباده في صور الخنزير، فكان المسخ على صورته أبلغ من التَّنْكِيل»^(٢). والباروديا تمثل قوّة قوليّة فعّالة بالغة التّأثير في النفوس بحسب النّقاد. تقول ناقدة برازيلية مهتمة بالباروديا «نريد أن نبرهن هنا على أنّ لفعل الكلام البارودي قوّة مثل كلّ أفعال الكلام الأخرى»^(٣). والكلمة كالجرّح لها وقع شديد على النّفس بحسب ابن يعيش^(٤).

وفي هذا التّبعيد بين طرفي التّشبيه يكمن مفهوم مسخ الجسد من خلال مسخ الوجه. ففي التّبعيد حطّ من قيمة المشبّه الإنسان، بجعله في مستوى واحد مع

الحيوان. وهذا فيه تحقير للمهجوّ وطمس لإنسانيّته. «فالمسخ عملية مهينة فيها تجريد للممسوخ من إنسانيّته وتحقير من شأنه»^(٥). وفي هذا المسخ أيضاً تشهير بالمهجوّ لدى القارئ في عصره ولدى القرّاء لهذا الشعر المسخي عبر التّاريخ. إنّ القرد وفق الجاحظ هو رمز للقبّح بكافّة معانيه في الجسد وفي الأخلاق. والمسخ في صورة القرد أكثر تأثيراً في الممسوخ المهجوّ لما فيها من شدّة التّحقير والإهانة. فـ «في الضحك دغدغة ازدراء»^(٦). والمسخ الهزليّ دليل على السّخط والعداوة والرّغبة في الانتقام. وتلك هي بعض وظائف الإضحاك بحسب برجسون^(٧). لذلك يسمّى التّحويل المسخي

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٦. عن: حمادي المسعودي، فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، ط ١، مسكلياني للنشر والتوزيع، زغوان تونس ٢٠٠٧. ص ٥٤١.

(٢) الجاحظ، الحيوان ج ٤ ص ٤٥.

(٣) Machado (Ida Lucia), Parodie et analyse du discours, Préface de Patrick Charaudeau, L'Harmattan, Paris 2013. p106.

(٤) يقول ابن يعيش «ألا ترى أنّ اشتقاق الكلام من الكُلم، وهو الجرح، كأنّه لشدّة تأثيره ونفوذه في الأنفس كالجرّح».

ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطّباعة المنيريّة بمصر، دت. ج ١ ص ٢١.

(٥) حمادي المسعودي، فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، ص ٥٤١.

(٦) مولين مرشنت، الكوميديا، ص ١٠٦.

(٧) برجسون، الضحك ص ٩١ «إنّ المجتمع يرفع فوق رأس كلّ فرد - إن لم يكن سوط الإصلاح - فعلى الأقلّ احتمال صوت الإهانة التي وإن كانت خفيفة، فإنّها تبقى مرهوبة. تلك هي وظيفة الضحك»/ المرجع نفسه ص ٩١ «ليست لذة الضحك لذة خالصة . . . فهي دائماً مشوبة بفكر مبطن يكتنه المجتمع لنا، حتّى ولو لم تكن لدينا أيّة فكرة، إذ يدخل في لذة الضحك نيّة التّحقير غير المعترف بها، وبالتالي نيّة التّصويب والإصلاح ولو خارجياً على الأقل. ولهذا تكون الكوميديا أقرب إلى الحياة الواقعية من الدّراما /» المرجع نفسه ص ١٢٧ " إنّ الضحك هو قبل كل شيء تصحيح وإصلاح. لقد وضع من أجل التّخجيل. فيجب أن يشبع في الشخص المضحك منه احساساً متعباً. إنّ المجتمع ينتقم عن طريق الضحك للحريات التي أخذت منه. ولا يبلغ الضحك هدفه وإن هو اتسم بالود والطيبة. /» المرجع نفسه ص

بـ «الهزل الخشن»^(١) فالمسخ فعل باروديّ. وكلّ تحويل باروديّ هو فعل عدوانيّ بالضرورة. وهذا ما يؤكّده «بويياقاي أنيك» في قوله: «ننعت السلوك البارودي بأنّه في الوقت ذاته أمين وعدوانيّ ومتحرّر»^(٢).

ويمكن استخلاص بعض هذه الدلالات العدوانية في بعض قصائد الشعر العربي القديم. فنجد بشّاراً يشبّه عدوّيه: حمّاد عجرد وسهيل بن سالم بالقردين في قوله: (البسيط)

سُبْحَانَكَ اللَّهُ لَوْ شِئْتَ امْتَسَخْتَهُمَا

قَرْدَيْنِ فَأَغْتَلَجَا فِي بَيْتِ قَرَادٍ^(٣)

وهذا ردّ على هجاء حمّاد عجرد له في وقت سابق بقوله: (الهمزج)

يَا أَقْبَحَ مِنْ قَرْدٍ

إِذَا مَا عَمِيَ الْقَرْدُ^(٤)

وهذا المسخ المتبادل بين الطرفين بالصّفات ذاتها يعبر عن الحقد الدّفين بينهما. وما يکنّه أحدهما للآخر من عداوة.

وهو ضرب من السبّ المتبادل غايته التّشهير والتّشويه. وهذا التّشويه أو المسخ هو نوع من الشّتم والعنف، يتكوّن من كلمات ذات دلالات، ويعدّ الاعتداء والضّرب إحدى دلالاتها وفق تودوروف في قوله: «إنّ أيّ حدث هو شيء قائم هناك، لكنّه أيضاً قائم كعلامة على شيء آخر، وبعبارة أخرى... الأشياء بالإضافة إلى وجودها، فإنّها يمكن أن تكتسب بعداً ثانياً أي بعداً دلاليّاً، أو لناخذ مثالا آخر فإنّ ضرب شخصاً ما فهذا في حدّ ذاته ليس علامة (قد يصبح كذلك). أمّا الشّتم فهو في الغالب الدّرجة التي تسبق مباشرة عملية الضّرب. فالسبّ قريب من الضّرب، ومع ذلك فهو علامة: كلمات»^(٥). إنّ هذا الهزل يسمّيه برجسون بـ «الهزل الخشن»^(٦) لأنّه نوع من العقاب والانتقام والتّشويه المتّسم بالمبالغة الهزليّة. فـ «المبالغة مضحكة عندما تمتد، وخاصة تكون منهجية، وعندها بالفعل تظهر كوسيلة نقل وتحويل»^(٧).

^(٢٠) والضحك يجب أن يكون . . . نوعاً من الإشارة الاجتماعية. فالضحك بفعل ما يوحيه من تهريب يقمع الخروج

والشدوّة/ المرجع نفسه ص ٢١ «هذا التصلب هو الهزل، والضحك هو العقاب عليه»

(١) برجسون، الضحك، ص ٤٤.

(٢) Bouillaguet (Annick), L'écriture imitative - pastiche, parodie, Collage, Nathan, 1996Ap169 « Le comportement parodique est à la fois honnête et agressif, libérateur, nous le disons»

(٣) بشّار بن برد، الدّيوان ج ٢ ص ٢٣٠.

(٤) عن: ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط ٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١. ص ٢٥.

(٥) عن كتاب: اللغة، ط ٥، إعداد وترجمة محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشرالدار البيضاء المغرب ٢٠١٠. ص ٣٠.

(٦) المرجع نفسه ص ٨٣

(٦) برجسون، الضحك ص ٤٤.

وهذا النوع من الاعتداء فيه سخرية من المهجّو بجعله في صورة قبيحة، وتحويله من صورة رفيعة إلى صورة دنيا. إذ «يتولّد الهزل عندما يُعرض علينا شيء - كان محترماً في السابق - كتافه أو منحط»^(١). وهو ما يسمّيه برجسون بـ «التّقهقر» (Dgradation)^(٢) الذي هو أحد تقنيات التّحويل الهزليّ. وهو مقوّم أساسي من مقوّمات البرلاسك. والنّقل المقصود به التّحويل الهزليّ. وهذا النوع من الوصف المسخي الكاريكاتوري شديد التأثير في المهجّو الممسوخ. وهذا ما يؤكّده هاري ترومان رئيس أمريكيّ أسبق حين سوّى فعل الكاريكاتير بفعل الموت. فقال «إنني لا أخاف في حياتي إلّا من الموت ورسمي الكاريكاتير»^(٣).

وقد يتّخذ المسخ بعداً عدائياً للذّات أيضاً. وهو ما نجده لدى أبي دلّامة في وصفه لنفسه بالقرّد في قوله: (الوافر)

إِذَا لَبَسَ الْعِمَامَةَ قُلْتُ قِرْدٌ
وَحَنْزِيرٌ إِذَا وَضَعَ الْعِمَامَةَ^(٤)

ويدخل هذا المسخ الذّاتي في إطار الشّكوى من الفقر والخصاصة الذّي أثر على الجسد والوجه تحديداً. وهو مسخ غايته إضحاك القارئ وإطرابه واستجدائه في آن. إنّه مسخ يعبر عن السّخط من الواقع الاجتماعي المتردّي الذي يعيشه الشّاعر. فرغم ورود بيت أبي دلّامة على بحر الوافر بما فيه من وفرة للجمال الفنّي، فإنّ المال والجمال في المنظر كانا غير وافرين. وهذا التّقابل الحادّ بين الفنّي والمضموني يعمّق معاناة الشّاعر الذي ينتج جمالاً، ولا يتقاضى مالاً مقابل ذلك. فبقي غارقاً في الفقر والخصاصة. وهو تقابل يحمل سخرية مرّة من الواقع ويأساً من الحياة.

هكذا يعبر المسخ الغيريّ والذّاتي عن السّخط والانتقام ممزوجين بمسحة ساخرة من المجتمع وأفراده. والبرلاسك باعتبارها نوعاً بارودياً يقوم في أساسه على التّقابل بين اللفظ والمعنى، أي بين الشّكل والمضمون^(٥). وهذا التّقابل يحمل معنى

(١) المرجع نفسه ص ٨٣.

(٢) يقول برجسون «إنّ التّقهقر ليس إلّا أحد أشكال النقل» المرجع نفسه ص ٨٣.

(٣) عن: عادل ثابت، الكاريكاتير: فنّ الفكاهة والسّخريّة، مجلّة الهلال المصريّة، العدد ٨، سنة ٨٢، أغسطس ١٩٧٤. ص ٨٣.

(٤) عن: ابن المعتزّ، طبقات الشعراء ص ٥٧.

(٥) Rohou (Jean), Le burlesque et les avatars de l'écriture discordante (1635-1655), in: Burlesque et formes parodiques. Actes du colloque du Mans, I. Landy-Houillon et MAMénard. éd Biblio 17, 1987, p349-350. Le burlesque c'est «le plaisir facétieux de la discordance entre le thème et le style».

التَّقابل بين الإبداع الشعري وضوابط عموم الشعر العربي القديم كما حددها التراث النقدي^(١). وهو مخالف لمبدأ «شاكلة اللفظ للمعنى»^(٢). والباروديا بطبعها تقوم في جوهرها على التحرر من القواعد بأنواعها المختلفة. وهجاء الذات هذا، بوصف قبورها، فيه تجاوز لغرض الهجاء، وفيه تجديد في مضمونه الأصلي القائم على هجاء الغير. وهو تجديد ناتج عن توليد المعاني. ولعلّه معارضة ساخرة لغرض الفخر. فقد عودنا الشعراء منذ الجاهلية^(٣) على مدح الذات والتغني بمحاسنها الجسدية والأخلاقية، لكنّ الذات الشاعرة هنا نجدها تقدح في نفسها، فتصف قبورها، وتكشفه، بعد ما كانت تخفيه. ولعلّ في ذلك معارضة

ساخرة أيضاً لفنّ السّير ولكتابة التاريخ عموماً. فقد عودنا المؤرخون أن يكتبوا سير غيرهم بشكل ناصع لا قبح فيه، لكنّ شعراء الهزل^(٤) كتبوا تاريخهم الشّخصي بتفاصيله كافة، من دون حجب أو تزوير للتاريخ. فيكون مسخ الذات هذا، مسخاً^(٥) لأصول الكتابة الشعرية ولأسس كتابة التاريخ المعروفة. ولعلّ صورة الشاعر الممسوخة هي صورة لمجتمع ممسوخ اجتماعياً ودينياً وثقافياً وأدبياً. فصدى الثقافات الأجنبية التي جاء بها غير العرب إلى المجتمع العربي الإسلامي كبير جداً^(٦). وهو ما ساهم في تحويل العديد من مظاهر الحياة المختلفة في السياسة والإدارة وغيرها. فبرزت ظواهر غريبة عن قيم الدين

(١) راجع مقالنا: منصف ربحاوي، الباروديا وحداثة الشعر العربي القديم: اللفظ أنموذجاً، مخطوط ينتظر النشر.

(٢) أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة. ج ١ ص ٨.

(٣) راجع معاني غرض الفخر في معلقة عنتربن شداد. في: الحسين بن أحمد الرّوزني، شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ١٩٨٣. ص ١٤١ وما بعدها.

(٤) راجع مثلاً أشعار: أبودلامة، أبو الشمقمق، أبو العبر... في المدونة الشعرية العربية القديمة التي اشتغلنا عليها في هذا المقال.

(٥) استعملنا هذه المصطلح «المسخ» في بعده الفني الجمالي، وقد استعمله ابن الحجاج بهذا المعنى في معارضته البارودية لمعلقة عمرو بن كلثوم، فقال: (الوافر)

وَيَمْسَخُ لَيْسَ يَسْلَخُ بِالْقَوَافِي «أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَ»

عن: جمال الدين محمد بن نباتة، تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج، شرح وتحقيق: نجم عبد الله مصطفى، ط٩، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، ٢٠٠١. ص ٢٥٨.

(٦) وقد قد اعتنينا بمظاهر مسخ اللفظ في الشعر العربي القديم، وهو ما يسمّى بالتهجين اللغوي (hybridation linguistique). وذلك في مقالنا: منصف ربحاوي، الباروديا وحداثة الشعر العربي القديم: اللفظ أنموذجاً. فقرة: تحديث بنية اللفظ الشعري.

الإسلامي وعن قيم العرب، فكانت الشعوبية والإلحاد والمجون. وهو ما كان له أثره العميق في الأدب^(١) شعراً ونثراً.

الخاتمة:

هكذا نكون قد تعرّفنا على شكل بارودي ينطوي تحت بيرلاسك الجسد وهو مسخ الجسد. فبيننا كثافة حضوره في الشعر العربي القديم. وتمكّننا من التّعرّف إلى بعض تقنياته وأسس جماليّته في الإبداع والتّلقّي. فوجدنا هذا المسخ قائماً على المبالغات الهزليّة، ومصدرها التّشابه والاستعارات والرّموز الحيوانيّة. وهي مبالغات تعمل على المبالغة بين أطراف التّشبيه، بدل التّقريب بين صور الإنسان وصور الحيوانات. وقد عزّزت هذه التّشابهية تواجد الغموض، وأدكت جذوة الإضحاك فيه. فجاء مسخ الجسد واضحاً جليّاً من خلال تكبير صورة القبح في الجسد. ثمّ أنهينا هذا العمل بالوقوف عند الدّلالات الباروديّة السّاخرة والمضحكة لهذا النّوع البارودي (مسخ الجسد)، وهي دلالات نفسيّة وجماليّة بالأساس. فهذا الوصف المسخي الكاريكاتوري يهدف إلى الانتقام والتّعبير

عن السّخط وحجم العداوة والغيط الذّي يكتّنه الشّعراء تجاه أعدائهم وتجاه المجتمع وقيمه. فمثّل الجسد وسيلة للانتقام والقصاص السّاخر بالكلام. فالكلام أحياناً أقطع من الحسام. وكان هذا المسخ مصدراً لمعرفة الكثير من المعاني الثّواني المتخفيّة وراء قبح الجسد. وجماليّة مسخ الجسد هذه بدلالاتها المختلفة والمندرجة في إطار بيرلاسك الجسد تطرح علاقتها بعملية المسخ التي تتمّ في إطار الغروتيسك الباروديّة تحت مصطلح «الصورة الغروتيسكيّة للجسد» (L'image grotesque du corps)، والذي تحدّث عنه باختين، وعرّف بخصائصه المختلفة^(٢). وهو موضوع يدعو إلى البحث عن التّقاطعات الفنيّة والموضوعيّة بين الأشكال الباروديّة المختلفة من قبيل هذا التقاطع بين بيرلاسك الجسد والغروتيسك الباروديّة في خصوص موضوع الجسد وفي طرق مسخه. فكيف يتمّ مسخ الجسد في إطار الغروتيسك الباروديّة؟ وماهي خصوصيّاته الفنيّة التي تميّزه عن المسخ في بيرلاسك الجسد رغم اشتراكهما في موضوع واحد (الجسد)؟

(١) راجع مثلاً: محمّد نبيه، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، ط ١، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦١.

(٢) Mikhaïl Bakhtine, L'œuvre de François Rabelais et la culture populaire au Moyen âge et sous la Renaissance, chapitre V «L'image grotesque du corps chez Rabelais et ses sources», p 302 «L'exagération, l'hyperbolisme, la profusion, l'excès, sont, de l'avis général, les signes caractéristiques les plus marquants de style grotesque»

قائمة المصادر والمراجع^(١)

١ - المصادر:

- الدواوين الشعرية:
- البحري، الديوان (جزءان)، شرحه وعلّق عليه: محمد التونجي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.
- بشار بن برد، الديوان (جزءان)، شرح: حسين حموي، ط ١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٦.
- ديك الجن الحمصي، الديوان، تحقيق وتكملة: أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، دت.
- دعل بن علي الخزاعي، الديوان، شرح: مجيد طراد، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨.
- الخالديان، الديوان، جمعه وحققه: سامي الدهان، ط ١، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٩٢.
- أبو دلامة، الديوان، ط ١، شرح وتحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الجيل الجديد، ١٩٩٤.
- ابن الرومي، الديوان (٣ أجزاء)، شرح أحمد حسن بسج، ط ٢، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ٢٠٠٢.
- أبو الشمقمق، الديوان، جمعه وشرحه: واضح محمد الصّمد، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- ابن المعتز، الديوان، تحقيق وشرح: كرم البستاني، ط ١، دار صادر، بيروت، دت.
- أبو نواس، الديوان، ط ٢، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
- المختارات الشعرية:
- هبة الله بديع الزمان الأسطرلابي، درة التّاج من شعر ابن الحجاج، تحقيق: علي الجواد الطاهر، ط ١، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد ٢٠٠٩.
- جمال الدين محمد بن نباتة، تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج، شرح وتحقيق: نجم عبد الله مصطفى، ط ١، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس، ٢٠٠١.
- غوستاف قون غرنباوم، شعراء عباسيون: مطيع بن إياس، سلم الخاسر، أبو الشمقمق، دراسات ونصوص شعرية، ترجمها وأعاد تحقيقها: محمد يوسف، راجعها: إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩.
- إبراهيم النجار، مجمع الذاكرة أو شعراء عباسيون منسيون: ثقافة البادية ومسالكها لدى ثلة من شعراء المائة الثانية، مسالك الهزل، بين الجد والهزل (٦ أجزاء)، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس ١٩٨٨.
- كتب الأدب وموسوعات أدبية:
- أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني (ج ١٤)، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.
- الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، ط ١، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعها بالنجف، العراق، ١٩٦٦.
- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط ٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١.
- أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (٦ أجزاء)، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.
- علي مرّوة، موسوعة الأدب الناضك، الجزء الأول: طرائف الشعراء والأدباء، ط ١، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧.
- II - المراجع:
- ١ - باللسان العربي:
- ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية الغربية، ترجمة يوسف حلاق، ط ١، منشورات دار الثقافة سوريا، ١٩٨٨.
- هنري برغسون، الضحك، ترجمة: علي مقلد، ط ٢،

(١) المصادر والمراجع مرتبة ألفبائياً ومعتمدة المشهور من الأسماء أو الألقاب أو الكنى ودون اعتبار (ال) و(ابن) و(أبو) و(أم).

- مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.
- أميمة أبو بكر، المسخ في حكايات ألف ليلة وليلة، مجلة فصول مجلد ١٣، العدد ١ ربيع ١٩٩٤، ص ٢٤١.
- عادل ثابت، الكاريكاتير فنّ الفكاهة والسخرية، مجلة الهلال المصرية أغسطس ١٩٧٤.
- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور النعالي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحسين القبيح وتقييح الحسن، المحقق: نبيل عبد الرحمن حياوي، ط٩، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان، د.ت.
- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق وتقديم: فوزي عطوي، دار الجيل ودار مصعب، بيروت، لبنان، د.ت.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط٩، دار المدني بجدة، د.ت.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، ط ٥، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ٢٠٠٤.
- علي محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، ط٩، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ٢٠٠٤.
- جماعي، اللغة، ط٥، إعداد وترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ٢٠١٠.
- عمر بن أبي ربيعة، الديوان، دار الجيل بيروت ١٩٩٢.
- منصف ربحاوي، كتاب التطفيل للخطيب البغدادي: كتاب حديث أم مؤلف أدب؟، بحث مرقون بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بتونس نُوقِش خلال السنة الجامعية: ٢٠١٠ - ٢٠١١ بإشراف: أحمد خصخوصي. فصل المحاكاة الساخرة ص ٥٩.
- منصف ربحاوي، ترجمة المصطلح الأدبي وإشكالياته: مصطلح "parodie" نموذجاً، مداخلة مرقونة، شارك بها في ندوة: النص والترجمة، نظّمها المعهد العالي للغات بقابس يومي ١٤ و ١٥ أبريل ٢٠١٥.
- منصف ربحاوي، القياس في الباروديا من خلال نماذج من الشعر الهزلي العربي القديم، مداخلة مرقونة، شارك بها في ندوة: القياس، نظّمها المعهد العالي للعلوم الإنسانية بمدينة يومي ١٨ و ١٩ أبريل ٢٠١٦.
- منصف ربحاوي، الباروديا في الشعر العربي القديم، أطروحة الدكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بتونس، إشراف: د. فتحي النصري، أودعناها منذ مدة في انتظار مناقشتها.
- منصف ربحاوي، «المحاكاة الساخرة» لعلي بوجديدي إثراء للمكتبة النقدية العربية، الحياة الثقافية التونسية عدد ٢٧٩، مارس ٢٠١٧، ص ٧٣-٨٠.
- منصف ربحاوي، الباروديا وحدائق الشعر العربي القديم: اللفظ أنموذجاً. مقال مخطوط ينتظر النشر. الأزهر الزنّاد، اللغة والجسد، ط١، مركز النشر الجامعي تونس ٢٠١٧.
- حمّادي الزنكري، الجسد ومسخه في الفكر العربي الإسلامي، حوليات الجامعة التونسية عدد ٣٩، سنة ١٩٩٥.
- الحسين بن أحمد الزوّني، شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ١٩٨٣.
- بسمة نهى الشاوش، وصف الحيوان في الشعر الجاهلي، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السلسلة: عربية ٨، المجلد: ٢٤، جانفي ٢٠٠٩.
- كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة: منى البحر ونجيب الحصادي، ط١، دار العين للنشر، القاهرة مصر ٢٠٠٩.
- محمّد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، ط١، منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض السعودية، ١٤٣١ هـ.
- أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق وتقديم: محمد الحبيب ابن الخوجة، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، المطبعة الرسمية تونس ١٩٨٦.
- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، كتاب العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، شرح وضبط: عفيف نايف

- Dousteysier-Khoze (Catherine), *Mystification et parodie* À Romanticisme, revue du dix-neuvième siècle n°156, juin 2012.

- Dominique Bertrand, poétique du burlesque, in, *Poétiques du burlesque*, Actes du Colloque international du Centre de recherches sur les littératures Modernes et Contemporains de l'Université Blaise Pascal 22-24 février 1996. édité par Dominique Bertrand. HONORÉ CHAMPION Paris 1998

- Emelina (Jean), « Comment définir le burlesque? » in, *Poétiques du burlesque*, Actes du Colloque international du Centre de recherches sur les littératures Modernes et Contemporains de l'Université Blaise Pascal 22-24 février 1996. édité par Dominique Bertrand. HONORÉ CHAMPION Paris 1998

- Finné (Jacques), *Des mystifications littéraires*, Librairie José Corti 2010.

- Guillaume (Peureux), *Le burlesque*, Gallimard 2007.

- Hutcheon (Linda), *A theory of parody: The teaching of twentieth-century art forms*. University of Illinois Press, Urbana and Chicago, 2000.

- Machado (Ida Lucia), *Parodie et analyse du discours*, Préface de Patrick Charaudeau, L'Harmattan, Paris 2013

- Picard (Roger), *Artifices et mystifications littéraires*, Montréal, Éditions Variétés, 1945.

- Robert (Paul), *Petit Robert*, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, édition de dictionnaires Le Robert, nouvelle édition, Paris 1993.

- Rohou (Jean), *Le burlesque et les avatars de l'écriture discordante (1635-1655)*, in: *Burlesque et formes parodiques*. Actes du colloque du Mans, I. Landy-Houillon et M. Ménard. éd Biblio 17, 1987.

- Sangsue (Daniel), *La parodie*, Hachette, Paris 1994.

- Sangsue (Daniel), « *La parodie, une notion proteiforme* », in : *Du pastiche, de la parodie et de quelques notions connexes*, P. Aron. éd, Québec, Éditions Nota Bene, 2004.

- Sangsue (Daniel), « *Parodie et mystification. Sur quelques rejets de Joseph Delorme* » in: *Mélire? Lecture et mystification*, Études réunies et présentées par Nathalie Preiss, éditions L'improviste, 2006. .

- Sangsue (Daniel), *La relation parodique*, Les Essais, Librairie José Corti, Paris, France, 2007.

- Van Tieghem (Philippe), Jossierand (Pierre), *Dictionnaire des littératures*, Quadrige /PUF, 2ème édition, 1984.

حاطوم، ط ٢، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦.

- القرآن الكريم، المصحف الشريف.

- دافيد لوبروتون، انثربولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط ٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ١٩٩٧.

- ميشيلا مارزانو، فلسفة الجسد، ترجمة: نبيل أبو صعب، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ٢٠١١.

- مولوين مرشنت، الكوميديا، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، ط ١، دار منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٠.

- أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، شرح ديوان الحماسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١.

- حمادي المسعودي، فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، ط ١، مسكياتي للنشر والتوزيع، زغوان تونس ٢٠٠٧.

- ابن منظور، لسان العرب، ط ١، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٩٩٩.

- جوزيف ميستنجر، لغة الجسد النفسية، ترجمة: محمد عبد الكريم إبراهيم، ط ١، منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق سوريا ٢٠٠٧.

- محمد نبيه، مظاهر الشعبوية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط ١، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦١.

- ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، دت.

٢ - باللسان الأجنبي:

- Bertrand (Dominique), « *Poétiques du burlesque* » in, *Poétiques du burlesque*, Actes du Colloque international du Centre de recherches sur les littératures Modernes et Contemporains de l'Université Blaise Pascal 22-24 février 1996. édité par Dominique Bertrand. HONORÉ CHAMPION Paris 1998

- Bouillaguet (Annick), *L'écriture imitative - pastiche, parodie, Collage*, Nathan, 1996.

Catherine Fromilhague, les figures de style,

نشاطات ثقافية

د. درية فرحات

وكان بارزاً الحضور اللافت لأساتذة الجامعة اللبنانية، وحضور وفد مميز من الجمعيات والهيئات الثقافية من النبطية على رأسها الدكتور مصطفى بدر الدين والأستاذ أسد غندور والأستاذ علي توبة والأستاذ حسيب عواضة والدكتور محمد فران والدكتور محمد مروة. إضافة الى وفود إعلامية واجتماعية.

بعد النشيد الوطني رحّب الدكتور علي أيوب بالحضور ورأى أنّه شرف له أن يعتلي منبراً يقدمّ قامة ثقافية، مشيراً إلى رئيس المجلة الأستاذ عمر شبلي الذي ألقى كلمة قال فيها كان لابد من إيجاد مقاومة ثقافية ملتزمة للانتقال إلى المقاومة التي تصبح كتاباً وبنّدية في آن. إن مقاومة محمد بن عبد الله ابتدأت بالكتاب، وكان لابد من اختراق الجاهلية بالقلم لكي يعلم الإنسان ما لم يعلم. كان العلم ضرورياً لقيام الحضارة.

لقد تشاءم كثيرٌ من المفكرين العرب

أقامت مجلة المنافذ الثقافية حفل عشاء في مطعم الشمس عنجر مساء الأربعاء ٣ آب بمناسبة مرور خمس سنوات على إصدارها، بحضور حشد من الشخصيات والفعاليات الثقافية والاجتماعية فحضر نائب رئيس المجلس النيابي السابق الاستاذ أيلي الفرزلي، والنائب أمين وهبي، والنائب السابق فيصل الداود. وحضر الوزير السابق عبد الرحيم مراد ممثلاً بالأستاذ يحيى الامام. وكانت مشاركة وفود من حركة الشعب ممثلاً بالسيد دهاش السوني، والحزب القومي السوري الاجتماعي، وتيار المستقبل ممثلاً بعضو المكتب السياسي وسام شبلي، وحزب طليعة لبنان ممثلاً بالدكتور عبده شحيتلي مع وفد حزبي. وكما شارك وفد كبير من راشيا فيه المفتش التربوي الأستاذ سلمان زين الدين والأستاذ ايلي غناج، وحضر الدكتور هاني سليمان من تجمع اللجان والروابط، وفود كبير من أزهر البقاع عن المفتي خليل الميس.

ورأى بعضهم أن تحرير العقل العربي أصعب من تحرير فلسطين، ورأى البعض الآخر أننا ظاهرة صوتية، على مقولة «أسمع جعجعة ولا أرى طحناً»، ويئس آخر إلى حد القول: ماذا يقول طائر الرعد حين يكون الغمام قاحلاً!! إن تراكم الجهل وجمود زمننا الحضاري هما المؤديان إلى هذه الأقوال، إن الزمن ليكون حديثاً يجب أن يكون كالنهر، فالنهر عندما يتوقف لا يكون نهراً. إن الثقافة القاحلة من الوعي الملتزم جعلتنا شيعاً وأحزاباً/ وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا. الجهل المقيم فينا هو الذي جعلنا قابليين صلح القاتل والمقتول، وجعلنا لا نفهم ما نقرأ، فهل قرأنا قول هرتزل مثلاً: «إن وجود العدو من المقومات الأساسية لتلاحم اليهود في شعب واحد» وهل فهمنا قول إسحاق شامير وعملنا على نقيضه، يقول شامير: «إننا سنفاوض مئة سنة نكون خلالها قد فرضنا على الأرض ما نريد، إن الحدود الحالية تكفي الجيل الحالي. أما الأجيال القادمة فهي بحاجة إلى حدود أخرى». اليهودي الصهيوني يقول: إن التوراة والسيف نزلا معاً.

لقد كان لدينا أربع قلاع في الوطن العربي، سقطت منها القلعة السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولم تزل القلعة

الثقافية وحدها تقاوم. إن هذه القلعة ما زالت تقاوم، ومطلوب منها نقل الوعي إلى سلوك، ولا بد لها من أن تقنع الشارع العربي بأننا أمة تمرض ولكنها لا تموت. وعلى حاملي لواء القلعة الثقافية أن يشرحوا للشعب العربي أننا نقبل ألف هزيمة في المعركة، لنقوم بعدها، ولا نقبل هزيمة واحدة في ميدان الالتزام. ونحن بحاجة لمقاومين، لا لكلاب حراسة.

لا بد من ثقافة عربية إنسانية المنحى والتوجه، تنأى عن المذاهب والطائفيات التي مرّقتنا ولا تزال، لا بد من محاربة الفئات التكفيرية بوحدة ثقافية وطنية عربية لا فتوية فيها ولا طائفية ولا مذهبية. إن الزمر التكفيرية المتطرفة تستهدف السنّي والشيوعي وجميع الملل. إن تناحرنا المذهبي يخدم هذا الفكر المتطرف ويقويه. إننا جميعاً في مركب واحد، وأي ثقب في هذا المركب سيغرقنا جميعاً، فالثقب في الجنوب كالثقب في عرسال.

هذا هو النهج الثقافي الملتزم بقضايا الأمة الذي التزمته مجلتنا المنافذ الثقافية التي أصبحت منبراً جامعياً ووطنياً، وبدأت المشاركات الثقافية تفد إليها من أرجاء الوطن العربي كافة.

وكذلك ألفت عضو الهيئة الثقافية لمجلة

المنافذ الدكتوراة درية فرحات كلمة عرضت
فيها إلى مراحل تقدّم المجلة وإلى الحلم
الذي سعى إليه مؤسسها، وأشارت إلى كرة
الثلج التي كبرت فلم تعد محصورة بمنطقة
واحدة إنما انطلقت كالحصان الجامع
المغوار يقطع الفيافي غير آبه بالرمال
والحصى والشوك وكل ما يعيق جموحه.
وفي انطلاقتها حققت النجاح الذي نشدته
فأصبحت من المجالات الذائعة الصيت
يطلبها المفكرون. والمثقفون والباحثون
لنشر أبحاثهم وتطمئن القصائد والقصص
لتكون في طيات أوراقها.

السبت الثقافي في بعلبك

الإعلامية بتول سليمان

مجموعة من النشاطات الجديدة التي يعمل السبت على إخراجها تباعاً إلى حيز الوجود. تلا ذلك كلمة رئيس اللجنة الثقافية في بلدية بعلبك الأستاذ سهيل رعد، والتي أثنى فيها على حيوية السبت ونشاطه الشبابي متسائلاً عما قدمته بعض النخب الثقافية والاجتماعية للسبت ليستمر، غير ضحكة صفراوية بعد زلة هنا، أو نميمة رخيصة هناك، في الوقت الذي يطلب منه أن يكون رائداً، مبادراً، متجدداً، حيوياً، وهو كذلك.

ثم كانت كلمة مدير فرع بنك بيروت والبلاد العربية الأستاذ أسعد سلمان، والتي أوضحت توجهات البنك في دعم الأطر الفاعلة، والعمل على تنشيط عجلة العمل الثقافي في بعلبك ومنطقتها.

وبعد مداخلة ضيف شرف المهرجان الشاعر الأمير طارق آل ناصر الدين، وقصيدته التي نالت إعجاب الحضور، تناوب على منبر المهرجان كل من الشعراء مصطفى صلح، يسرى البيطار، رباب الموسوي، موسى حمادة، أسامة حيدر

في رحاب معبد باخوس، وعلى مرمى نظرة من أعمدة جوبيتر الست، جدد سبت بعلبك الثقافي عهد الجمال والحياة مع أكثر من سبعمائة وخمسين من محبيه ومريديه في مهرجان خليل مطران الشعري بنسخته الثانية، وهو المهرجان الذي يعد الأضخم شعرياً، ويعتبر ظاهرة فارقة في الحياة الثقافية البعلبكية واللبنانية.

برعاية بنك بيروت والبلاد العربية، وبالتعاون مع اتحاد الكتاب اللبنانيين، وكنتيجة لتضافر جهود السبت مع مجموعة من الأطر الصديقة (جمعية الشبيبة الخيرية، منتدى بعلبك للقراءة، نادي الأخاء الرياضي، نادي المشعل ومهرجان بعلبك للأفلام القصيرة)، كانت بعلبك نهار الأحد الماضي على موعد مع الشعر والموسيقى، في مهرجان خليل مطران الشعري بنسخته الثانية.

استهل الحفل الأستاذ مصطفى برو ملقياً كلمة السبت، حيث استعرض إنجازات العاملين المنصرمين، فاتحاً أفقاً على

وعلي الرفاعي. كما تخلل الحفل مقطوعات
موسيقية قدمتها فرقة peace of art
الموسيقية.

الحفل الذي قدمته كل من الإعلامية
بتول سليمان، والأستاذة مايا الشل
الرفاعي، شارك في تقديمه الطالب محمد
مظلوم، الفائز بالمرتبة الأولى عن فئة
الخطابة في مسابقة منبر بعلبك لطلاب
المدارس والتي نظمها السبت مؤخراً، معطياً
بذلك أنموذجاً عن العمل الثقافي المنتج
والبناء.

ثم اختتم الحفل بتوزيع الدروع
التكريمية، وأخذ الصور التذكارية.

قرأت لكم في العدد السابق

د. حكمت حسن

عبرت عنه بأنه (صياغة فنية لتجربة بشرية) فيها الكثير من الصدق والعاطفة على مستوى العمل الجمعي والوطني (لنصل إلى المستوى الانساني).

وأختم قراءتي للمجلة مع د محمد منصور - حسن حاج سليمان في البنية الفكرية في أدب الشيخ البهائي وهو مقال قيّم تناول فيه د. طباطبائي تاريخ الهجرة العاملة الى إيران، أساتذته، تلامذته بالإضافة إلى تحليل البنية الفكرية في أشعاره (بهاء الدين العاملي نموذج عربي إسلامي عابر للقارات ولحدود الزمان والمكان، أبدع حيث يجب أن يبدع وترك إرثاً حضارياً كبيراً نقرأه في كشكوله ومثنوياته وغزلياته وأدبياته.

الشيخ البهائي شخصية أدبية علمية فقهية دينية جمعت في طياتها علوم الدهر وأورثته إلى الأجيال.

وتطالعنا قراءة الدكتورة درية فرحات في ديوان (طين الأبدية) وهو ديوان شعري للشاعر أحمد محمد رمضان حيث آثرت د. فرحات أن تغنينا بشرح نظري قيّم عن مفهوم القصة / مفهوم الشعر / تقنيات السرد في الشعر الحديث . تقول د. درية: (هنا يخطر لي أن أؤكد أن قصيدة النثر ليست مدرسة شعرية وليست تياراً، إنها نوع أدبي كان إلى وقت ما في الأدب الفرنسي هجيناً... وأطلق عليه الفرنسيون بواسطة بودلير في القرن التاسع عشر اسم قصيدة النثر.

ومن خلال تجوال د. فرحات في قصائد الديوان ترسم أمامنا شخصيات تماهى معها الشاعر وتركز الدكتورة الباحثة على الأعماق النفسية التي شكلت المنبع الخصب للشعر عند الشاعر صاحب الديوان.

وقد وجد الدكتور طوني كرم مطر في كتاب (ثنائية السجن والحرية في شعر عمر شبلي للأستاذة فاطمة البزال عملاً قيماً

- English as an international language. *Applied linguistics*, 23(1), 83 - 103.
- Khalidi, R. (2004). Resurrecting empire: Western footprints and America's perilous path in the Middle East. New York: I. B. Taurus.
- Kachru, B. (1992). *The other tongue: English across cultures*. Urbana: University of Illinois Press.
- Llurda, E. (2004). Non - native - speaker teachers and English as an International Language. *International Journal of Applied Linguistics*, 14(3), 314 - 323.
- McArthur, T. (1998) *The English Languages*. Cambridge: Cambridge University Press.
- McKay, S. L. (2003). Toward an appropriate EIL pedagogy: Re - examining common ELT assumptions. *International Journal of Applied Linguistics*, 13(1), 1 - 22.
- Modiano, M. (1999). International English in the global village. *English Today*, 15(2), 22 - 28.
- Modiano, M. (2001). Linguistic imperialism, cultural integrity, and EIL. *ELT Journal*, 55(4), 339 - 346.
- Philipson, R. (1992). *Linguistic imperialism*. Oxford: Oxford University Press.
- Philipson, R. (1998). Globalizing English: Are linguistics human rights an alternative to linguistic imperialism. *Language Sciences*, 20(1), 101 - 112.
- Quirk, R. (2005). *Language, Discourse and Society*. Leicester, UK: University of Leicester.
- Rampton, B. (1990). Displacing the "native speaker": Expertise, affiliation, and inheritance. *ELT Journal*, 36(3), 144 - 157.
- Seidlhofer, B. (2005). English as a lingua Franca. *ELT Journal*, 59(4), 339 - 341.
- Shaaban, K. (1997). Bilingual education in Lebanon. In J. Cummins & D. Corson (Eds.), *Encyclopedia of Language and Education, volume 5: Bilingual education* (pp. 251 - 259).
- Shaaban, K. & G. Ghaith. (1999). Lebanon's language - in - education policies: From bilingualism to trilingualism. *Language Problems & Language Planning*, 23 (1), 1 - 16.
- Skutnabb - Kangas, T. (1988). Multilingualism and the education of minority children. In T. Skutnabb - Kangas and J. Cummins (Eds.), *Minority Education: From Shame to Struggle*, pp. 9 - 44. Cleveland: Multilingual Matters.
- Trudgill, P. (1998). World Englishes: Convergence or divergence? MAVEN 97. Vaxjo: Acta Wexionesia.
- Zughoul, M. R. (2003). Globalization and EFL/ESL pedagogy in the Arab world. *Journal of Language and Learning*, 1(2), 106 - 146.

nial, economic, political reasons English has become an international language of communication. It has become a necessity for any person who seeks to “get on” in life or to communicate with the people around.

This beckons the question: What kind of English do EFL students need? Business English courses, academic writing courses, conversation classes etc. have been developed to address students’ needs, but no less importantly, teachers need to also be aware of the environment in which our students use English. If this environment includes mainly NNS, the pedagogy of the EFL teachers should be influenced. This involves us the teachers becoming students, recognizing that though we are experts in our own variety of English, we are not necessarily experts in the variety that many of our students experience in everyday life. The challenge is that if we need to be effective in meeting our students’ needs, we must become learners of our students’ cultural and linguistic environment not just experts in our own culture.

Much more study needs to be done in this area regarding why do Lebanese students seem to highly value NS varieties. Also, a look into which NS variety Lebanese prefer and the reasons behind their preference is highly recommended. Such a study would lend itself to exploring specific aspects of linguistic imperialism as it relates to Western powers in the Middle East.

References

- Abi Najm, T. (2003, July 27). Rumors about some universities precede facts and possible solutions remain elusive: who applies and who violates the higher education regulations? *An Nahar*, 14.
- Bashshur, M. (1997). Higher education in Lebanon from a historical perspective. In A. Al - amine (Ed.), *Higher education in Lebanon* (pp. 15 - 93). Beirut, Lebanon: Lebanese Association for educational Sciences.
- Baydoun, A. (1998, August 13). Language proficiency in our country is declining...even in Arabic. *An - Nahar*, 14.
- Bisong, J. (1995). Language choice and cultural imperialism: A Nigerian perspective. *ELT Journal*, 49, 122 - 167.
- Burns, A. & Coffin, C. (2001). *Analysng English in a global context*. London Routledge.
- Burt, C. (2005) What is International English? *TESOL & Applied Linguistic*, 5(1), 1 - 20.
- Crystal, D. (1997). English as a global language. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Crystal, D. (2001). A chat with David Crystal. Retrieved February 9, 2006, from
- Eoyang, E.C. (2003). Teaching English as culture: Paradigm shifts in postcolonial discourse. *Diogenes*. 50(2), 3 - 16.
- Graddol, D. (2000). *The future of English*. London: The British Council.
- Heller, M. (1999). *Linguistic Minorities and Modernity: A Sociolinguistic Ethnography*. London: Longman.
- House, J. (2003). English as a lingua franca: A threat to multilingualism? *Journal of sociolinguistics*, 7(4), 556 - 578.
- Jenkins, J. (2002). A sociolinguistically based, empirically researched pronunciation syllabus for

As language teachers, we sometimes find that our learners want to learn a particular variety of English. Despite the linguists' perspectives on linguistic imperialism or English varieties, almost everybody agrees that English instructors should seek to meet the needs of language learners. Therefore, it sometimes seems reasonable that the English instructors give them what they want, as long as these instructors do not impose their culture and language variety on them. Even Philipson acknowledged the validity of focusing on "the demand side of English" (Philipson, 2005, p. 247).

In some cases, English language instructors may realize that learners want to speak a NNS variety of English. In these situations, even if our intuition tells us that this is "wrong" English, it seems advisable to try to understand why they want this particular variety, and help them attain it. Jenkins (2002) offers a summary of the kind of approach that might be helpful to learners.

If the purpose of learning the language is to speak the target language as a "foreigner" (i.e. NNS speaking to a NS), then it seems reasonable to argue that the goal of pronunciation teaching should be the sufficiently close approximation of a NS accent such that it can be understood by NSs of that language. If, on the other hand, the learner is learning English as an EIL, and intends to speak English to other NNSs, the standard is different. As long as they are being sufficiently understood, they are speaking 'correctly' (p. 85).

This raises the question: how far should we as language teachers go to accommodate our students, even if it takes us outside our society domain?

Development of a "new standard"

It seems more appropriate for the NNSs to have more "ownership" in the development of English since they make up a large majority of all the world's English speakers. Jenkins (2002) suggests that we need to move away from RP (Received Pronunciation) or General American English as the core of our ELT training. She proposes a Lingua Franca Core. In order to establish this new core, she believes it is necessary to obtain more empirically established phonological norms and classroom pronunciation models for EIL, in which intelligibility for NNS rather than NS is the primary motivation. As instructors, it may be helpful for us to move away from asking, "Does it sound native?" to "Is it clearly understood by the audience?"

Accepting the development of an EIL standard does not mean adopting an "anything goes" attitude to language. In Trudgill's words,

there's a great fear... that English is now used so widely around the world, and is in particular used by so many non - native speakers, that if we are not careful, and very vigilant, the language will quite rapidly break up into a series of increasingly mutually unintelligible dialects, and eventually into different languages (Trudgill as cited in Jenkins, 2002, p. 86).

However, if linguists worry about English being divided into unintelligible dialects, then the task will become unnecessarily intimidating. To reign - in a worldwide language by creating a unified standard is perhaps too ambitious of an agenda for many to comprehend. However, the economy and other compelling reasons would most likely lend themselves to maintaining a mutually intelligible *lingua franca* regardless.

Conclusion

The internet and the mass communication tools have transformed the world into a more interconnected place. This interconnected world would seem to need a common language and due to colo-

3 - Do you think it is possible for you to speak like a native - speaker? (72% said “yes”; 28% said “no”).

4 - Do you know any non - native speakers who speak excellent English? For example, people from India, Jordan, Philippines, etc. (73% said “yes”; 23% said “no”)

5 - Do you think that speaking English will make your Arabic worse? (16% said “yes”, 84% said “no”)

6 - Do you think that your culture is becoming more “Western” because of people learning English? (33% said “yes”; 67% said “no”)

7 - If (or when) you have children, do you want them to learn English when they are young? (91% said “yes”; 9% said “no”)

8 - When you speak English with a British or American person, do you worry what they will think of you? (41% said “yes”; 59% said “no”)

Analysis

Some very interesting observations can be made from examining the results of this survey.

1 - The participants want to speak like native - speakers (86% on question 2) and most of them think this is an attainable goal (over 70% on questions 3 and 4).

2 - The majority of the participants do not seem concerned that learning English will have a negative impact on their own language and culture. (about 80% average on questions 5, 6 and 7).

3 - Almost half of the participants are learning English because they want to, and the others because they need to. Also, almost half of them feel self - conscious when speaking English with NS (Questions 1 and 8).

The results of this survey seem to support a less imperialistic and more bottom - up perspective on the globalization of English and a much more in - depth study should be conducted. The participants in this survey echo what others have experienced concerning their desire for English (Bisong, 1995; Zughoul, 2003). They learn English because they believe it is in their best interest, and they are not afraid that their native language and culture are being affected by the process.

It has to be known, however, that the results of this survey do not mean that claims of linguistic imperialism are untrue. It is clear that the power of English - speaking countries has forced the Lebanese into the position of needing English. Similarly, the perception of the Lebanese people of the importance of NS English may have been imposed upon them. More studies could be conducted to examine the accuracy of these findings, to investigate the reason behind these Lebanese learner attitudes, and to have a closer look at the variety of English (American or British) that the Lebanese prefer.

Implication for the EFL instructor in Lebanon

Despite the many discussions that have been taking place in recent years about linguistic imperialism, English varieties, and EIL, very little has been done on the ground to change how English is perceived, or how it is taught (Llurda, 2004; Seidlhofer, 2001). Based on the literature reviewed in this paper and on the survey conducted amongst EFL learners in Lebanon, several possible implications for the EFL instructor are presented:

The learner's needs

the middle of the 19th century, the time of the arrival and settlement in the country of Protestant missionaries from the United States and Britain. The teaching of English has witnessed steady expansion since 1946, the year the government of the newly independent Lebanon introduced English as a foreign language (EFL) into the Lebanese public school system on par with French, the language of the former colonizer (Shaaban & Ghaith, 1999). From then on, “the bilingual education tradition was nurtured and strengthened and came to exercise a firm hold on the Lebanese education system” (Shaaban, 1997 in Shaaban & Ghaith, p. 7).

During the last 25 years, English has been experiencing exponential expansion at all levels of education. This new state of affairs has been motivated by the various sectors of the Lebanese society that have realized the importance of English as *Lingua Franca* (Crystal, 1997; Heller, 1999; McArther, 1998) and its importance as a gatekeeper for better jobs.

After the civil war that erupted in 1975 and continued until 1990, few English-medium universities, such as the Lebanese International University (LIU) and the American University of Science and Technology (AUST) were established in traditional French territory (Bashshur, 1997). The Lebanese Ministry of Education accredited about 43 such institutions at a later stage (Abi Najm, 2003). Universities such as Beirut Arab University, St. Joseph University, and Université Siant-Esprit Kaslik, known to be Arabic and French medium universities, have added English language courses and some new programs and subject matter courses in English in order to ensure that their students are not left behind in a world increasingly dominated by English (Bashshur, 1997; Baydoun, 1998; Koussaifi, 1998).

Another source of influence lies within the resident population itself. Lebanon’s population as of 2017 is 6 million individuals (Based on the latest United Nations estimates). This tiny, vibrant, Mediterranean country prides itself for its polyglot society. The country was under the French Mandate from 1920 until its independence in 1943, and it is still widely considered the most "Western" country in the conservative Middle East. English and French often replace Arabic, the official language of Lebanon, in conversation, especially among the urban youth. Still most Lebanese speak French - a legacy of France’s colonial rule - but the Lebanese university students gravitate towards English because they know its importance in the marketplace. It helps them find a job in a country whose economy depends mainly on the strength of its tourism, financial services, and trade. The Lebanese government realized that these three sectors will be greatly enhanced if the Lebanese force commands a high level of proficiency in English (Shaaban, 1997).

A variety-preference survey was conducted with 70 EFL students in Lebanon. The main purpose of the survey was to determine Lebanese attitudes towards the English language in general. Preliminary findings of the survey are discussed.

Results

The results of the survey were as follows:

1 - Are you learning English because you want to or because you need to? (44% said they “want to”; 56% said they “need to”)

2 - Is it your goal to speak English like a native - speaker? Like someone from Britain, USA, Australia, Canada, etc. (86% said ‘yes’; 14% said “no”)

tically, and culturally “neutral” form of English. The language would then be perceived by the learners to function as a key to global communication, rather than just the linguistic property of native speakers.

When it comes to NNS varieties of English, there seem to be two diverging views. On the one hand, some linguists see such varieties as “an error-marred, simplified performance variety of English” (Burt, 2005, p. 1). On the other hand, other linguists see NNS varieties as perfectly valid “new” varieties of English. Proponents of the former view argue that language programs are doing a disservice to NNSs when they “permit [the] learner to settle for lower standards than the best” (Quirk, 2005). Others fear that the wide-spread use of English will lead to its dilution, advocating standards which, in their opinion, will protect English from this change (Trudgil, 1998). Those who argue that NNS variants of English are acceptable say that we should not impose our NS standards on NNSs. Jenkins (2002) refers to NNS accents, saying that NNSs should have the right “to express their (L1) regional group identity in English by means of their accent, as long as the accent does not jeopardize international intelligibility” (p. 85) (see also Seidlhofer, 2001; House, 2003).

According to many linguists, despite accepting that there are scores of “valid” NNS varieties of English, which are all unique and useful in their own areas of the world (such as Indian English in India), there is still a trend towards coming up with an internationally accepted standard for a “world English”, which would be different than any NS variety. Many names have been given to this international variety of English, such as English as an International Language; World Englishes; English as a World/Global Language; English as a Lingua franca; etc. (Seidlhofer, 2005). However, the name that seems to have the most credibility and momentum is “English as an International language” or (EIL) (Llurda, 2004, p. 316).

One of the primary reasons behind the development of such an international standard variety would undoubtedly include giving NNSs more opportunity to shape English. Currently, Seidlhofer (2005) explains, we have a paradox in the development of English:

On one hand, the vast majority of verbal exchanges in English are done by non-native speakers. On the other hand, the minority of native speakers are still regarded as the custodians over what is acceptable usage (p. 339).

The phenomenon illustrated here sheds light on a growing reality: Non-native Speakers outnumber Native Speakers of English. This turns the attention from a “Standard English” debate as prescribed by NSs to a “World English” debate. Therefore, regardless of what becomes the fate of English on a global scale, the NNS community will nevertheless be a very strong and influential voice in its final outcome.

Lebanese attitudes towards learning English

We have looked briefly at attitudes towards the globalization of English, as well as attitudes towards various English varieties. However, it seems logical to consider more than the perspective of linguists on these issues, and as classroom EFL teachers working in Lebanon, we felt it necessary to examine the attitudes of our own students concerning which variety of English they prefer.

First of all, like most countries around the globe, Lebanon recognizes the importance of the English language in communication and education. The teaching of English in Lebanon dates back to

3 - Are non-native-speaker varieties “wrong” or just different?

4 - Should there be a standard for “International English”?

Traditionally, most non-native speakers (NNSs) have been encouraged to measure their English proficiency by comparing themselves to native speakers (NSs). However, there are several reasons why this is now being called into question. First of all, the concept that people “inherit” a language at birth and therefore speak it fluently is being questioned; rather, now many have adopted the idea that languages are acquired and developed by both NSs and NNSs. Because of this Rampton (1990) suggests that we refer to “experts” in the language rather than “native speakers”. Similarly, Modiano (1999) argues that proficiency in speaking English is no longer determined by birth but by the capacity to use the language properly.

Speakers of English in the “Outer Circle” countries cannot be considered nonnative speakers of English just because they do not speak the center variety of the language, in the same way as Australian speakers of English are not considered nonnative just because their English is neither British nor American (Moussu & Llurda, 2008, p. 317). Mufwene (1998) points out, “it is misguided to split new varieties of English around the world into those said to be ‘native’, such as British and American Englishes, and those identified as ‘nonnative’ such as Indian and African Englishes” (p. 12). Higgins (2003), following Norton (1997) suggests that the concept of “ownership” can provide an alternative to the NS-NNS dichotomy, as speakers have “varying degrees of ownership because social factors, such as class, race, and access to education, act as gate keeping devices” (p. 641).

While NNSs of English learn the language in order to communicate with NSs, especially in an English as a Second Language (ESL) context, EFL learners use English to communicate with other NNSs. In these contexts, not only might it be unnecessary for them to have a NS level of English, it may even be socially unacceptable (Mckay, 2003).

Seidlhofer (2005) and Jenkins (2002) have done a considerable work in determining what is necessary for NNSs to have effective communication. In their research, they found that the level of English required for effective communication is not up to our “elite” intuitive standards of what we would call “native-like” English. Some researchers even argue that NS English can actually be a hindrance to communication. Jenkins states that often when NNSs adopt assimilatory features of NS pronunciation such as elisions, contractions, assimilation and weak forms, it has a negative effect on intelligibility for their NNS interlocutors (Jenkins, 2002).

Seidlhofer (2005) argues that it is difficult for the learners to become native-like and acquiring native-like proficiency requires too much time and effort to achieve. Therefore, the time spent working on the learners’ pronunciation could perhaps be better spent working on other aspects of their language.

Many universities, language institutes, and even teachers around the world explicitly promote a specific variety of English in their EFL teaching. In advertising, it is common to see the phrase “American English” or “British English”. In the face of this reality, there is a discussion about whether specific varieties should be promoted or not. One of the primary arguments against promoting a single variety of English is that this gives the impression that the language is “owned” by the speakers of that variety (see Modiano, 2001, p. 339). Modiano (2001) believes that it is better to promote a “non-specific” variety of English; one which is considered more geographically, poli-

Kuwait's national university has already been nearly 100% English medium for two decades. Interestingly, Zughoul says similar language policies have been implemented by the Jordanian Ministry of Education as well. Consequently, Zughoul warns that in many of these cases, Arabic has sadly been relegated to a secondary status, with only two exceptions: Syria and Iraq. With such strong campaigns for English in the Middle East, the question of what will the future hold linguistically is an important one.

Ownership of the English language

Language researchers and educators are increasingly embracing the fact that English is spoken by more people as an L2 than as a mother tongue, and, consequently, they are taking on board the notion that English is no longer exclusively owned by the native-speaking communities but that its ownership is also shared by newly arrived members of the English-speaking community (i.e. non-native speakers), who therefore have a right to be heard in matters affecting the language (Widdowson, 1994).

One of the consequences of English being global is that "no one owns it anymore. Or rather, everyone who has learned it now owns it" (Crystal, 2003 b). It is divesting itself of its political and cultural connotations as more people realize that it is not the property of only a few countries. Instead, it is a vehicle that is used globally and will lead to more opportunities. It belongs to whoever uses it for whatever purpose or need. Graddol (2006) states that the status of English as the only global language available at such a fateful moment in history is being transformed. Being an international language, English must be owned by those who can speak it and they have the right to use it as a tool to serve their own purposes. Crystal (1997) argues that people in many countries "are changing the language [English] to suit themselves."

Kachru (1992) suggests that the English-speaking world consists of three concentric circles: the inner circle, outer circle, and expanding circle. The inner circle contains the traditional base of English, where English is the primary language. The outer circle contains areas where English has become part of a country's chief institutions (i.e. India). The expanding circle includes countries where English is recognized as an important international language, but there is no history of colonization and English has no special administrative purpose (i.e. Japan). Kachru's shows that the native/non-native dichotomy is overly simplistic and his view provides some ownership of English to non-native speaking countries.

Graddol (2000) goes a step further in taking the ownership of English away from native-speakers. He believes that Kachru's model still places NSs at the center of English usage, which is not in line with reality. Graddol suggests that NNSs are now taking the ownership of English and seek to express their own values and identities through it. Along the same lines, Crystal suggests that the Outer Circle often may create its own norms, rather than relying on the Inner Circle for them (Burt, 2005).

Varieties of English

English as a Foreign Language (EFL) professionals constantly find themselves reflecting on the following questions:

- 1 - Is native-like fluency necessary?
- 2 - Is the promotion of native-speaker variety useful?

Preferring one language over another often correlates with linguistic attitudes, or bringing to light the necessity for some countries to adopt a second language for what are primarily considered to be economic reasons. For example, the EU has highlighted the importance of English in secondary schools by ensuring that it is the primary second-language taught (Zughoul, 2003). Likewise, 97% of international delegates to the Arab Network United Nations (ANUN) - representing 185 nations, have chosen to receive all official UN correspondence in English (Zughoul, 2003). Even in a country historically resistant to foreign language influence, its recent implementation of national-language protection laws serving as an obvious case-in-point, German professionals in the fields of physics, chemistry, biology, and psychology admit they use English more than 80% of the time (Graddol, 2000). Also, 85% of international organizations say they use English as their official language of business (Crystal, 1997), adding further credence to the trend of adopting English as a necessary *lingua franca*.

English in the Middle East

Within the Arab World, in the early 1920s English became a dominant second language within Britain's officially annexed governments (i.e. the Gulf Arab States, Iraq, Jordan etc., just as French became the same for France's colonies (North Africa, Lebanon, Syria, etc.). However, after attaining their freedom from colonial rule - many Middle Eastern countries lost their dependence on the colonial tongue (notable exceptions are of course Lebanon and Morocco). The same was true for Iraq, though they did not abandon the instruction of English entirely. However, as English became a major world language, especially within certain academic subjects, Arab universities found themselves dependent upon English as the main medium of instruction more and more. Reasons for this are not all together clear, yet the fact that two of the more prestigious universities in the region, namely the American University of Beirut and the American University of Cairo, have always been both completely English-medium might have helped encourage its competition (that is, national government universities).

As a result, the move towards English medium instruction within Middle Eastern universities has become more common in recent decades despite Arab ill-sentiment towards the foreign policy of English-speaking countries in Palestine (Khalidi, 2004). The reasons for this, again are not exactly clear. Zughoul (2003), focusing on American influences, says that, "In the Arab World, in particular, the imposed American cultural influences as represented in all its forms like fashion, music, culture of the young, fast food, entertainment, business transactions, internet cafes, television and American way of living is noticeable in every Arab urban center. The moves towards development, urbanization, modernization all have an American or an American like model...Language and English spread[ing] is a case in point" (p. 123). If *Americana* is really residing in every facet of Arab cosmopolitan life, then it is no wonder that English has become an ever increasingly important part of it. The questions of "why" are certainly connected to what David Crystal (2001) says about language and power; that is the power behind the people who speak it. In the Middle East today, there is obviously a trend of adopting English as both a status and academic language. This is especially true in the Gulf countries. Zughoul (2003) notes Kuwait's language policy (while not failing to include other Gulf Arab states also) after America liberated it from Iraqi forces in 1991; soon after, their language policy required all its citizens to begin English instruction by grade one.

ment and continuous reconstitution of structural and cultural inequalities between English and other languages” (p. 47). He claims that English is spreading widely due to deliberate policies of English speaking nations to protect their interests. This is done through universities, colleges, programs, and publications or in other words, through the continuation of the colonialist movement through cultural and educational means and not through weapons. Quoting an English-language entrepreneur who said, “Once we used to send gunboats and diplomats abroad; now we are sending English teachers,” Phillipson advanced the idea of ‘linguistic imperialism’: that is, that the spread of English as a post-colonial plot on the part of the core English-speaking countries, which hoped to maintain their dominance over “periphery” (Kachru, 1996) (mostly developing) countries.

Phillipson’s theory critiques the historic spread of English as an international language and its continued dominance not only in postcolonial settings such as India, Pakistan, Uganda, Zimbabwe, but also increasingly in "neo-colonial" settings such as continental Europe. The central theme of Phillipson’s theory is the complex hegemonic process, which he asserts continue to sustain the pre-eminence of English in the world today. Evidence for English as a current vehicle for mass communication is not difficult to see; one only needs to take a quick glance at the breakdown of languages spoken and used around the world. According to Crystal (1997) native speakers of Chinese (estimated at 1 billion) outnumber speakers of English (estimated at 350 million) nearly four to one. However, English has the most second language and foreign language speakers (over 1 billion), a number which is rapidly increasing (Crystal, 1997). Also, English-speaking countries are nearly four times stronger economically than their closest rival, Japan, (Graddol, 2000). For some, this is clear evidence of cultural export (in this case, language) being directly linked to power (i.e. English-speaking countries).

Some critics would argue that the imperialistic qualities of English are minimal. They would suggest that English is merely a tool for international exchange, rather than an oppressive force intentionally subjugating minor linguistic groups to their own cultural detriment (Crystal, 1997; Graddol, 2000). In addition, such notions espouse a less conspiracy-laden use of English as a purely imperialistic tool, preferring to consider it instead, whether its diffusion is intentional or accidental, an acceptable means to a mutually beneficial end. Pennycook (in Burns & Coffin, 2001), concerning this functionalist perspective, comments on the worldwide diffusion of English as being “natural (although its spread was initiated by colonialism, since then it has been an accidental by-product of global forces), neutral (unlike other, local language, English is unconnected to cultural and political issues), and beneficial (people can only benefit by gaining access to English and the world it opens)” (p, 79).

On the other hand, Phillipson (1998) states, “[t]he expansion of English in the post-communist world is now less a strategic interest than a commercial opportunity. It was a strategic concern of the US and UK governments...Language promotion invariably interlocks with economic and political interests” (p. 102). Phillipson (1992) gives additional evidence of this rapid development of English as a Second language (ESL) programs in the 1950s and 1960s with the support of both the US and UK governments (see chapter 6 of his book); he implies that such programs initiated on the governmental level were indeed anything but accidental.

Linguistic Imperialism in the 21st Century Arab World

Ziad Hadla

The term globalization often refers to the interconnectedness of the world's cultures and economies through transitional investment and mass communication technologies (Zughoul, 2003). It is this unprecedented network of international peoples that creates channels of international, monetary, and cultural exchanges within which the dominating group traditionally hopes to homogenize the other, creating a single entity. Philipson (1998) says, "Globalization has economic, technological, cultural, and linguistic strands to it" (p. 101). In other words, globalization is not limited by one sphere of influence, but is indeed a culmination of several simultaneous influences - the combining of which strengthens and speeds up the process. However, it is the exporting of a specific culturally linked sphere of influence that concerns us here: Language.

Power is defined in *The New Fontana Dictionary of Modern Thought* (1999) as: "The ability of its holders to exact compliance or obedience of other individuals to their will" (p. 768). Power, according to Webber (1978), is "the probability that one actor within a social relationship will be in a position to carry out his own will despite resistance." If abused, power may lead to unfortunate results such as inequality, disparity, and oppression. According to Pennycook (2001), power underlies all critical or political analyses and operates through all areas of life, and it is the core of questions of difference, discourse, and disparity. Power may mean lack of voice and of choices, the power of the ideology, or a discourse imposed by the sector in the classroom, in the ministry, or in the government.

David Crystal (2001) in regards to language and power, states: "A language becomes a world language for one reason only - the power of the people who speak it. Power means political, economic, technological, and cultural power, of course. For historical reasons, English has achieved the position it has." This power produces a sort of linguistic seduction (Eoyang, 2003), in which the dominated class wish to move upward economically (Zughoul, 2003). To understand this phenomenon is to understand linguistic imperialism. Skutnabb-Kangas (1988) defines linguistic imperialism as "ideologies, structures and practices which are used to legitimate, effectuate and reproduce an unequal division of power and resources (material and immaterial) between groups which are defined on the basis of language" (p. 13). In effect, linguistic imperialism is a sub type of cultural imperialism (Philipson, 1992), and is one way of describing what may be seen by some as one medium of preserving the self-interests of a dominant society. Another term introduced by Phillipson (1992) was "linguicism", a situation where the imposition of a language is equated to the imposition of the cultural, social, emotional, and linguistic norms of the dominating society onto the dominated society, thus maintaining an unequal allocation of power and resources. Philipson (1992) also speaks of "The colonial linguistic inheritance" where people are forced to adopt their "masters' language" (p. 109).

Philipson defines Linguistic Imperialism as "the dominance asserted and retained by the establish-

is: If he wishes to die, why not commit suicide? The answer provided is that “the instinct of self-preservation, of self assertion and of mastery greatly diminishes [but are still present]. They are component instincts whose function it is to assure that the organism shall follow its own path to death, and to ward off any possible ways of returning to inorganic existence [death] other than those which are immanent in the organism itself [internal and natural reasons]” (Beyond47).

3. Guilt Complex/The Fear of the tyrannical superego

The cause of the speaker’s suffering and hopelessness may also be a result of a guilt complex. Being part of the airman’s duty, killing innocent people, the speaker’s conscience may be causing anxiety and confusion. He punishes himself by preventing himself from feeling happiness or contentment, from being a part of the world. Indeed, a guilt complex and self-destruction are interrelated: “The tension between the harsh super-ego and the ego that is subjected to it, is called by is the sense of guilt; it expresses itself as a need for punishment” (Civilization 84). The spokesperson of the poem is tormented by a sense of anxiety that is attentive “for opportunities of getting it [the ego] punished by the external world” (86). The pilot’s melancholy may be due to an “unconsciously lost an object for which he had ambivalent feelings of love and hatred” (Ellenberger 512). This could consist of stability, his homeland, or his family. His life definitely altered after the war, and the loss/wreckage has led to sentiments of melancholy and guilt.

CONCLUSION

In conclusion, anxiety and psychological disturbances are justifiable grounds for dissolving binary oppositions. The deterioration, however, increases the sense of detachment, while augmenting the self-destruction tendency. It is essential to believe that the human mind is used to categorize, pigeonhole, and ‘reason things out’ essentially. Therefore, if he/she is subjected to utter disintegration, the bewildered person falls into an abyss, with no possibility of resurfacing.

The selected poem deconstructs itself in that it dissolves binary oppositions, qualifying them as equally meaningless. This is similar to deconstruction attempts at displaying that language is arbitrary and void of meaning. The poem designates/infers that nothing in life has significance or substance and our activities are plainly “a waste of breath”-what is left is chaos and destruction. Yeat’s airman attempts to put aright the existent life and death opposition, an inescapably unfeasible, unworkable task. The work is invalidated in this case because it has an endless play of meanings, and the oppositions present in the poem hint at other concepts. There is no stable, firm denotation-the poem annuls itself.

REFERENCES

- Ellenberger, Henri F. *The Discovery of the Unconscious: The History and Evolution of Dynamic Psychiatry*. USA: Fontana P, 1994.
- Freud, Sigmund. *Beyond the Pleasure Principle*. Trans. and ed. James Strachey. New York: Norton, 1961.
- . *Civilization and Its Discontents*. Trans. and ed. James Strachey. New York: Norton, 1961.
- Homer, Sean. *Jacque Lacan*. London: Routledge, 2005.
- Hunt, Morton. *The Story of Psychology*. New York: Anchor, 2007.
- Simpson, Paul. *Stylistics: A Resource Book for Students*. London: Routledge, 2004.

Y = Z = neutral feelings. Love and hatred can represent all feelings towards people while guarding/ fighting to all verbs/actions related to feelings.

The fourth attempt to break binary oppositions is the balancing between law, duty, public men, and cheering crowd in their effect on the speaker. As previously suggested, these could stand for society, culture, religion and politics. All are also equal to X, they do not affect him in any case.

X stresses in a clear statement that he has balanced everything and all opposites in his mind, and concluded that even past/future are equally meaningless; subsequently, ending his poem dissolving or negating the ostensible life/death opposition.

Based on this analysis, the speaker of the poem may be suffering from various psychological disturbances urging him to balance all oppositions, treating them as equally meaningless.

1. Fear of Attachment

According to Freud, humans employ defense mechanisms as a way of ignoring, disregarding "painful memories or ideas" (Ellenberger 486) with a tendency "to separate from the ego everything that can become a source of such unpleasure, to throw it outside and to create a pure pleasure-ego which is confronted by a strange and threatening 'outside'" (Civilization 14). There are seven defense mechanisms a person unconsciously utilizes in order to defend his Eros and repress his Thanatos. One of them is fear of attachment. A person seeks to avoid anything that makes him/her form any significant attachments-an aloofness or detachment from what one fears.

In the case of the poem's narrator, "unpleasure" is caused by attachment to life in general and to any extreme of binary oppositions. It is possible that for him "what is bad is whatever cause one to be threatened with loss of love" (Civilization 85). According to Freud, a person is condemned inevitably to experience despondency due to the three factors: "Our own body, which is doomed to decay and dissolution and which cannot even do without pain and anxiety as warning signals; from the external world, which may rage against us with overwhelming and merciless forces of destruction; and finally from our relations to other men" (Civilization 26). Therefore, he endeavors to disengage himself from categorization-and entire world-in order to avoid pain. Indeed, binary oppositions are the causes of his displeasure in his attempt to assemble a new world for himself where all oppositions are absent. To achieve happiness and avoid discontent, a person "regards reality as the sole enemy and as the source of all suffering" (31). Subsequently, one breaks any attachment to reality.

2. Thanatos Instinct

Freud's theory introduces two fundamental instincts, Thanatos and Eros. The latter contains "all life-preserving impulses" (Morton 222), while the former "embraces all impulses toward hostility, sadism, and aggression [...] and a mysterious drive toward one's own death" (Morton 222). Thus, our human nature has an impulse to destroy, if not others, then ourselves. If this instinct is "directed outward, it takes the form of aggression, but if blocked, it may turn inward, as seen in repetition compulsions" (Morton 221). The speaker in Yeat's poem reveals, as mentioned earlier, the notion that the primary aim of life is death (Beyond 45). This is an innate instinct to "restore an earlier state of things" (Beyond 69), in other words as we know all living things "dies for internal reasons_ becomes inorganic again" (Beyond 45").

The speaker is suffering, aiming unconsciously to die. The inevitable question that comes to mind

substitutions that impart hopelessness include:

A waste of breath seemed to delight. The years to come bid me fight/hate/love. In balance with this life, delight/love/hate. A waste of breath is the impulse of delight. A waste of breath seemed the act of fighting. Those that I guard bid me fight love/hate. Those that I fight were a waste of breath. Nor cheering crowds seemed to delight me.

In brief, the speaker is attempting-albeit unconsciously-to destroy himself, because he knows or acknowledges something. The suppression or concealment leading to the author's confusion can be revealed by a **vertical analysis of the poem that is indeed a summary of the substitution table.**

I	Meeting	Fate
Law, duty	Guarding, fighting	People whom we don't have feelings towards
Public men, cheering crowds	Hating loving	Fighting guarding
A lonely impulse of delight	Bidding driving	This tumult
Years	Balancing bringing	All opposites
BALANCES	SEEMED	A WASTE OF BREATH
LIFE	EQUALS	DEATH
Life "balances" or life consists of the individual (I), society/culture (Duty law public men and cheering crowds), Inner motivation (a lonely impulse of delight), time (years).	All actions we do in life seemed as equals	Death is a waste of breath, it is our fate. Death includes strange people who one doesn't love or hate, fighting/guarding; in brief death includes all opposites in life.

Table 3. Vertical Summary of the substitution table

Based on the three tables, it can be assumed that the speaker is verbalizing his intention to destroy himself (suffering chronic suicide), because he perceives that life is death due to the presence of binary oppositions. This is clear in the speaker's attempt to break some of the most important oppositions.

The poem opens with a hint to binary oppositions. With its basis "I know that", the poem shows a process that, as said earlier, is unachievable. However, the speaker is stressing that he knows: everything. However, in reality, he is attempting to express his inability to ascertain the meaning of the world due to the presence of binary oppositions. He is totally lost/perplexed unable to realize whether he in actuality knows or not. Binary opposition 1 is: knowledge/ignorance. The place of meeting the fate is the second opposition where it refers to death and life simultaneously. This signifies that the speaker does not know if dying is the beginning or the end. Therefore, the second opposition is life/death. There is a, conscious or unconscious, attempt to exhibit the confusion about binarism for both the speaker and the readers.

According to the speaker-examining the relational process concerning people he hates and loves- assuming that the speaker is x, the people he loves, his friends/relatives/family are y, and the people he hates, his enemies/foes are z. X's relation to Y = no hatred, and to Z = no love. Therefore,

these impulses “are component instincts whose function it is to assure that the organism shall follow its own path to death, and to ward off any possible ways of returning to inorganic existence [death] other than those which are immanent in the organism itself [internal and natural reasons]” (Beyond47).

In brief, the whole poem is a verbalization process; the speaker of the poem recognizes that the central aim of life is death (Beyond 45). This innate instinct has a purpose to “*restore an earlier state of things*” (Beyond 69), and to stress Freud’s theory that all living things “dies for internal reasons_ becomes inorganic again”; dies (Beyond 45). Freud’s theory equates life with death; thus breaks the most essential and basic binary opposition: life/death. Similarly, the poem aims to expose man’s attempt to dissolve binary oppositions. The table of equivalences reveals the speaker’s hopelessness, acceptance and grasp of the world.

	Subject	Verb	Object	Adverb
I Know that	I	Shall Meet	My fate	Among clouds
	I	Fight Guard	(People) who are neither hated nor loved)	
	Law, duty	Don’t Bid	M e f i g h t i n g / Guarding...	
	public men, cheering crowds	Don’t Bid	M e F i g h t i n g / Guarding...	
	A lonely impulse of delight	Drove	This tumult (of fighting/guarding)	In the clouds
	I	Balanced	All(things/opposites)	
	I	Brought	All(things/opposites)	To mind
	The years to come	Seemed	A waste of breath	
	The years behind	Seemed	A waste of breath	
	in balance (Life)	Is (equals)	Life (death)	

Examining the substitution table, note that the main subject is “I”, while the main verb is “Know”. This stresses that the idea of knowing is the main core of the poem, and as referred to in the transitivity table, we perceive that the phenomenon of knowing is inseparable from the other phenomena. It is interrelated and tightly tied to lack. Even if we remove “I know that”, the sentences of the poem are complete structurally and semantically. The “I know that” phrase is emphasizing its presence in each sentence. The speaker seeks to inform us that he is privy to information unknown to others. However, his inability to fulfill his desires-orcomprehendhis environment-makeshim a victim of despair prone to seek out self-destruction. Most substitutions seemingly convey the precisessimilar notion of hopelessness and pain. Some examples of paradigmatic/syntagmatic

The speaker continues-by a circumstantial process-indicating the circumstances or setting where he encounters his fate: among the clouds. The process of death among clouds has different connotations. The foremost reason for dying among the clouds is that the speaker is an "airman"; accordingly, he is convinced he/she will die combating in the sky. However, as noted earlier, the unconscious is what truly motivates our actions and words. Clouds are not a simple connotation for the speakers' *place* of fighting; they symbolize *both death and life*. Numerous people reflect that when we cease to exist, our souls ascend to heaven "among clouds". Hence, the verse, "I Know that I shall meet my fate/ Somewhere among the clouds above" in all probability implies: My fate is to die and go up to the sky, to heaven. However, although clouds denote death, they are also the source of water on Earth; in other words, the source of *life*. The circumstantial/relational cloud verse holds opposite meanings: life/death. It is indeed *the first hint to binary oppositions and balance in the poem*, and the chief denotation for the concept of life/death in the speaker's perspective.

The sensor is bemused concerning the concept of death; nevertheless, he is thoroughly convinced that his demise will occur among the clouds. The confusion is further witnessed with both a behavioral and mental process of fighting/guarding and hating/loving. Psychologically speaking, our behavior should be related to a deep mental unconscious urge (Morton 205). For instance-since life is based on survival and guarding one's body and soul-people defend what they love or appreciate and assail what they hate or fear. However, the sensor or 'behave' in the poem fights and guards without possessing the internal feelings of love or hatred. Therefore, the processes here-phenomena and circumstance-are similar, devoid of any real purpose or urge. His combat aimed at an opponent or entities not hated is equal to defending people not loved. Hence, he concludes that fighting/hating and guarding/loving are equal.

His inner feelings do not bid him to fight because his feelings towards people are neutral. If it is not his inner feelings, then it is outer forces-society, religion and nation-urging him on. These correspond to law, duty, public men and cheering crowds. They are actors with the speaker as their goal. The process of not bidding him to fight is the sole negative material process in the poem where the speaker insists that he/she is **not the target of culture/religion. Similarly, he is not affected by society or politics since public men and cheering crowds do not incite him to fight. According to him/her, their influence is null, he/she is not a goal to anyone or anything except for: "a lonely impulse of delight". In fact, what bids him/her to fight and guard or indulge in other actions-including living and dying-is that particular impulse: an unconscious wish to die.**

The poem ends with two mental processes. The first balancing everything and all phenomena in the speaker's mind, while the second demonstrating that the process of living is a 'waste of breath' to the sensor/speaker. Everything is equally insignificant or inconsequential for him. In brief, the poem is based on the mental process of Knowing that inner satisfaction or contentment is never achievable; suffering is endured for no purpose. The speaker's life is meaningless making him as a sensor, behavior, actor seeking a single ultimate process: "following an impulse of delight": death. This analysis is related to Freud's theory contending that the purpose of all life is death. According to the theory, a human's "instinct of self-preservation, of self assertion and of mastery greatly diminishes [but are still present]" (Beyond 47), this induces him to seek death indirectly; in other words, without a willful attempt at suicide. The reason of such indirect behavior of suicide is that

which may or may not be involved in the process” (22). Mental processes, however, are related to sensing, cognition, reactions and perceptions (23) and they include a sensor and a phenomenon. The behavioral process includes a ‘behavior’ and a circumstance reflecting a physiological action. Verbalisation is the process “of ‘saying’ and the participant roles associated with verbalization are the Sayer (the producer of the speech), the Receiver (the entity to which the speech is addressed) and the Verbiage (that which gets said)” (24). The relational processes are divided into three categories: intensive, relational and circumstantial. The first “posits a relationship of equivalence, an ‘x is y’ connection, between two entities” (24), whereas the second shows a possessive connection between two things or entities. The third, however, is related to the circumstance or place of the entities. For example, the entity “x is at/is in/is on/is with/ y” (24). The last process described is the existential, which “basically asserts that something exists or happens” (25).

The analysis of the selected poem using the transitivity model is essential to analyze the psychology of the speaker of the poem, a connotation for everyman. For the purpose of simplicity, the analysis of the most notable verses is exhibited by the two tables below. The first assigns the processes involved in the verses, whereas the second is a table of substitution displaying the different equivalences in the poem.

Verse	Process	Explanation
I know that I shall meet my fate	Mental	Sensor: I Process: Know Phenomenon: meeting the fate
Somewhere among the clouds above	Circumstantial (Relational)	X: I Process: die/death Circumstance: among y: clouds (symbol)
Those that I fight I do not hate/ Those that I guard I do not love	Mental& Behavioral	Sensor and Behavior: I Process: Fight/ guard Phenomenon& circumstance: hating/loving
Nor law, nor duty bade me fight,/ Nor public men, nor cheering crowd	Material	Goal: me Process:(negative process)don’t bid Actor:law/duty/public/ men/cheering crowd
A lonely impulse of delight/ drove this tumult in the clouds,	Material	Actor: desire to die Process: drove Goal: my death
I balanced all, brought all to mind	Mental	Sensor: I Process: Balance Phenomenon: all (anything & everything)
The years to come seemed a waste of breath,/ a waste of breath the years behind	Mental	Sensor: He Process: Living Phenomenon: A waste of breath

The poem initiates with the mental process of knowing/foretelling where the sensor will meet his fate. This process of ‘knowing’ is the basis of the poem and is interrelated to all other verses. The phenomenon of Knowing is related to the ambitious unconscious desire to discern, finding answers and revealing hidden meanings. Indeed, it is a desire which is “beyond basic human needs that cannot be satisfied” (Homer 72), and may thus be *the initial reason of the speaker’s confusion*.

A Stylistic/Psychoanalytic criticism of W.B. Yeats's "An Irish Airman Foresees his Death"

Noura Jazzar

INTRODUCTION

The mind-a reservoir of emotions and experiences-has been the focus of psychologists and neuroscientists endeavoring to access it through decoding human actions and reactions. What is buried in man's unconscious mind may or may not be "derived from the real world" (Morton 205). In other words, the content of the unconscious could emerge from actual life experiences, childhood traumas or from dreams and wishes. However, the content of the unconscious is "the *psychic reality* that motivates us" (Morton 205). Hence, it is vital to gain admittance to the unconscious, which is what controls us. This is achieved by analyzing the use of language; the latter expresses "actions and events, thoughts and perceptions" which shape man's experiences (Simpson 22). Language is thus the tool that enables us "to account for these various 'goings on' in the world" (22).

Recording daily experiences assumes different forms, such as the arts in general and literary works in particular. The latter fictional/non-fictional texts consist of linguistic material whose analysis is invaluable to comprehend an author's explicit and implicit purposes. It is worthy to note that the use of linguistic devices in literary texts differs from one person to another since the "choices in style are motivated, even if unconsciously, and these choices have a profound impact on the way texts are structured and interpreted" (Simpson 22). In other words, the linguistic choices in literary discourses are evidently related to the unconscious of the writer/speaker of the text. Even if the author is exempted, the speaker's psyche affects the manner in which poems and texts are expressed. Despite the fact that fictional characters of such texts are imaginary, they are genuine reflections of a real man-of-humanity as a whole. Hence, decoding language in literary works plays a significant role in understanding man's psychology and psychological conflicts/complexes. This paper examines W.B. Yeats's "An Irish Airman Foresees His Death" using Halliday's transitivity model and equivalences, in an attempt to decode the speaker's psychological confusion and dissolve binary oppositions, which itself is a way to deconstruct his existence.

PART ONE: LINGUISTIC ANALYSIS

At the outset, it is essential to understand the meaning of the functional model of transitivity. It is not only a grammatical concept but also a semantic one, where "meanings are encoded in the clause" (Simpson 22) in a way to define different types of processes, and their relation with participants and circumstances. This model includes six types of processes: Material, Mental, Behavioural, Verbalisation, Relational and Existential. According to Simpson's summary of Halliday's model, the processes are interrelated: shaping the physical existence, abstract relations and consciousness. Here is a brief summary of the six processes as explained by Simpson.

One of the processes is the material procedure, which reflects the act of doing. It includes "two inherent participant roles which are the *Actor*, an obligatory role in the process, and a *Goal*, a role